موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

من سورة يونس
حتى
سورة الرعد

info@nabulsi.com
www.nabulsi.com

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (01-17): تفسير الآيتان 1 – 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-09-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من الابتداء بتفسير الأجزاء العشرة الأخيرة :

بسم الله الرحمن الرحيم .. تمَّ بتوفيق الله وفضله تفسير الأجزاء العشرة الأخيرة من كتاب الله خلال السنوات الماضية ، وانتهينا في الدرس الماضي من تفسير سورة الفاتحة ، وها نحن ننتقل الآن إلى الأجزاء العشرة الثانية من كتاب الله سبحانه وتعالى ، وتبدأ بسورة يونس ، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يُمِدَّنا من فضله كي ننهي تفسير كتاب الله كلّه .

أما الحكمة من البدء بالأجزاء العشرة الأخيرة هي أنَّ هذه الأجزاء العشرة الأخيرة يغلب عليها الطابع المكّي ، والطابع المكي آياتٌ تدور حول وجود الله ، وحول عظمته ، وأسمائه الحسنى ، وآياته الكونية، وترسيخ الإيمان بالله ، وأما السور المدنيَّة فيغلب عليها طابع التشريع ، والنبي عليه الصلاة والسلام بقي في مكّة المكرَّمة ثلاثة عشر عاماً يوجِّه الأنظار إلى آيات الله الكونيَّة ، فحينما استقرَّ الإيمان في النفوس جاءت الآيات المدنيَّة ، ولا يمكن أن تنفّذ الأمر ما لم تعرف الآمر ، ولا أن تنتهي عن النهي ما لم تعرف الناهي ، فالآيات المكّية أولاً ، ثم الآيات المدنيَّة ، فالعشرة الأجزاء ـ وهكذا في اللغة ـ الأخيرة يغلب عليها الطابع المكّي ، والأجزاء العشرة المتوسِّطة بينَ بينْ ، والأجزاء العشرة الأولى يغلب عليها طابع التشريع ، فمع سورة يونس عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة ..

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ{1} أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ{2} إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ)

(أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ)

(الر)

الَر

1 ـ معنى الحروف المقطعة :

هذه الحروف وأمثالها ..

(الَم)

(سورة البقرة)

(الَمرَ)

(سورة الرعد : الآية 1)

(كَهَيَعَصَ)

(سورة مريم)

(حَم)

(سورة الأحقاف)

(ق)

(سورة ق : آية " 1 ")

هذه الحروف سمَّاها بعض المفسِّرين " فواتح السوَر " ، وقال بعضهم الآخر : " الله أعلم بمراده " ، وقد روي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه أنه قال في تفسير هذه الحروف : " إنها أوائل أسماء الله الحُسنى " ، وقد روي عنه رضي الله عنه تفسير هذه الحروف الثلاثة :

(الَرَ)

أي أنا الله أرى ، وقال بعض المفسِّرين : " إنها أوائل أسماء رسول الله ، فألف أحمد ، واللام لطيف ، والراء رحيم " .

والذي يرجِّح هذا الرأي الأخير أنَّ كل سورةٍ على الإطلاق بدأت بهذه الحروف يعقبها مباشرةً كاف الخطاب ..

(الم (1)ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ)

(سورة البقرة)

(المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)

(سورة الرعد)

(كهيعص (1)ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)

(سورة مريم)

على كلٍ هناك رأيٌ رابع أو خامس ، وهو : أن القرآن الكريم المُعْجِز الذي تحدَّى الله به بني البشر ..

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ)

(سورة الرحمن : الآية 33)

2 ـ لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثل آية من القرآن :

هناك آياتٌ بهذا المعنى توضِّح أن الإنس والجنَّ قاطبةً لا يستطيعون أن يأتوا بآيةٍ من آيات الله عزَّ وجل ، فلذلك من جنس هذه الحروف ، كيف أن التراب بين أيدينا منه تخرُجُ النباتات كلُّها، التفاح ، فلو اجتمع الإنس والجن على أن يأخذوا تراباً ليصنعوا منه فاكهةً لا يستطيعون ، فهناك إعجاز ، التراب موجود ، والماء موجود ، هذا الحشيش الذي تأكله البقرة يُصنع منه لبن سائغ للشاربين ، هذه كلها آيات الله عزَّ وجل ، المواد الأوليَّة موجودة ، ولكن الإعجاز في خلقها ، في تكوينها ، في صنعها ، كذلك قال بعضهم : " إن هذا القرآن الكريم المُعْجِز هو من حروفٍ نعرفها جميعاً ؛ ألف ، باء ، تاء ، ثاء ، جيم ، حاء ، خاء .. ثمانية وعشرون حرفا ، وقد رُكِّبت آيات هذا الكتاب من هذه الحروف ، والله سبحانه وتعالى كما قلت قبل قليل : تحدَّى البشر إنساً وجنّاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن ..

(لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

(سورة الإسراء)

على كلٍ ، في كتاب الله آياتٌ تحتمل وجوهاً عديدة ، فكما كنت أقول لكم دائماً : القرآن الكريم حمَّال أوْجُه ، والقرآن الكريم ذو وجوه ، فـ ..

(الم)

3 ـ الحروف المقطعة من الإعجاز العلمي :

إما أنها من أسماء الله الحسنى ، وإما أنها دليل إعجاز الله في كتابه ، وإما أنها من أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، وإما أنها فواتح السور ، وقد سمعت أن هناك من لَقَّمَ حاسباً إليكترونياً بآيات القرآن الكريم ، آية آية ، حرفاً حرفاً فوجد أن كل سورةٌ تبدأ بحروفٍ مثل هذه الحروف لو أحصيت حروف هذه السورة لوجدَّت أن أكثر حرفٍ تكرَّر فيها هو الألف ، ثم اللام ، ثم الراء ، وفي سورة (ق)أكثر حرفٍ تكرَّر فيها هو حرف " قاف " ، هذا شيءٌ يظهر حديثاً ، القرآن الكريم كلام الله .

وسمعت عن الإعجاز الحسابي ، غير الإعجاز الرياضي ، مثلاً : كلمة يوم ذُكِرَت في كتاب الله

ثلاثمائة وخمساً وستين مرَّة حصراً ، ولو فتحت بعض كتب معاجم القرآن الكريم .. هناك معاجم لكلمات القرآن الكريم .. لوجدت كلمة يوم ، واليوم بلا التعريف ، ومع التعريف وردت ثلاثمائة وخمساً وستين مرَّة ، وأن كلمة شهر وردت حصراً اثنتي عشرة مرَّة ، وأن آيات الجنَّة مساويةٌ لآيات النار ، وأن آيات الملائكة مساوية لآيات الشياطين ، وأن آيات الدنيا مساوية لآيات الآخرة ، هذا الإعجاز الحسابي لم يكن في الحُسبان ، هناك إعجازٌ حسابي ، وهناك إعجازٌ رياضي ، وهناك إعجازٌ بلاغي ..

(الر)

وهناك إشاراتٌ لطيفة إلى أسماء الله الحُسنى ، وهناك إشاراتٌ إلى أسماء النبي عليه الصلاة والسلام ، أما من يقول : " الله أعلم بمراده " ، هذا القول مقبول ، ولكن أعفى نفسه من كل جهد .. الله أعلم بمراده أي لا أدري ، وربنا سبحانه وتعالى يقول :

(أفلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقفالُهَا(24))

(سورة محمد)

إنَّ هذه الحروف جعلها الله رموزاً كي يتحرَّك هذا الذهن ، الوضوح الشديد يفقد الحافز لفهم الكتاب ، لكن هذه الرموز لعلَّ الإنسان يُستثار بها فيتَّجه إلى تفسيرها ، على كلٍ القرآن ذو وجوه هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام ..

(الر)

4 ـ من معاني الحروف المقطعة أسماء النبي عليه الصلاة والسلام :

إذا رجَّحنا أن الألف أحمد ، واللاَّم لطيف ، والراء رحيم ، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام كان أحمد الخلق قاطبة ، لماذا كان أحمد الخلق ؟ لأنه كان أشدَّهم معرفة بفضل الله عزَّ وجل ، إذاً : الحمد يتناسب طرداً مع المعرفة ، مع معرفة الفَضْل ، فما من مخلوقٍ بلغ مرتبة النبي عليه الصلاة والسلام في معرفة فضل الله سبحانه وتعالى ، لذلك اسمه في السماء أحمد ، وفي الأرض محمَّد ، والاسم في اللغة يعني الصفة ، واسمه أي من الوسم ، النبي عليه الصلاة والسلام كان أحمد الخلق قاطبة ، لأنه كان أحمد الخلق صار أرحمهم ، وألطفهم ، لأنه أشدَّهم صلة بالله عزَّ وجل ، فالله سبحانه وتعالى في هذه الحروف يُثْنِي على النبي عليه الصلاة والسلام ، ويذكر صفاته العُليا هو أحمد الخلق ، وهو لطيفٌ أي إذا صاحبته ، إذا توجَّهت إليه ، إذا ذكرت اسمه ، يرقى بنفسك بلطفٍ إلى الله سبحانه وتعالى .. " الله المعطي وأنا القاسم " ..

[ورد في الأثر]

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 103)

النبي عليه الصلاة والسلام دليلنا إلى الله :

فهذه الأحوال الطيّبة التي تنشأ في النفس من اتصالك برسول الله صلى الله عليه وسلّم حيّاً أو ميتاً .. " حياتي خيرٌ لكم ، ومماتي خيرٌ لكم ".. هذه الأحوال الطيّبة ، هذا الشعور بالسعادة ، هذا الشعور بالقُرب من الله عزَّ وجل ، هذا الإحساس بالطمأنينة يكون عندما تذكر النبي عليه الصلاة والسلام ، لذلك :

(إنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ)

(سورة الأحزاب : الآية 56)

صلاة التجلّي ، أي أن قلب النبي عليه الصلاة والسلام مهبطٌ لتجلّيات الله عزَّ وجل ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(56))

(سورة الأحزاب)

أي أن الله سبحانه وتعالى يتجلّى على قلبه الشريف ، وإذا شئتم نوعاً من هذا التجلّي طرفاً من هذا النور ، شيئاً بسيطاً من هذه التجليات فصلّوا عليه ، فصلاة الله على النبي عليه السلام صلاة إكرامٍ وتجلٍّ ، وصلاة المؤمنين عليه صلاة اتصالٍ وأخذ ، الله يعطي ونحن نأخذ ، والنبي عليه الصلاة والسلام باب الله ، وأي امرئٍ أتاه من غيره لا يدخل .

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((... ثُمَّ سَلُوا لِيَ الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ...))

[سنن الترمذي]

النبي عليه الصلاة والسلام أحمدُ الخَلق وأرحمُهم :

إذاً : لمعرفته الشديدة بفضل الله كان أحمدَ الخلق ، ولأنه كان أحمدَ الخلق كان أشَدَّهم صلةً بالله عزَّ وجل ، ولأنه كان أشدَّهم صلة بالله عزَّ وجل كان ألطفهم في نقل العبادِ من أحوالهم العاديَّة إلى أحوال القُرب والتجلي ، لذلك مرَّ الصديق رضي الله عنه في أحد طرق المدينة بصحابيّ يجلس على قارعة الطريق يبكي ، اسمه حنظلة ، فقال الصديق لهذا الرجل الصحابي: " مالك يا حنظلة تبكي ؟ " قال : نافق حنظلة ، قال : " يا أخي لمَ ؟ " قال : نكون مع رسول الله ونحن والجنّة كهاتين " ..

أحياناً الإنسان على شكل مصغر جداً إذا حضر مجلس علم ، وكان هناك إخلاص ، وليست هناك دنيا، تحفُّ به الملائكة ، يقول لك : ارتاح قلبي ، شعرت بسعادة ، هذا نموذج مصغَّر مليار مرَّة ، ألف

مليار، إذا حضرت مجلس علم ، وكان فيه إخلاصٌ من الطرفين من المتكلّم والمستمع ، والتجليات تهبط على هذا المجلس .. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((... وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ...))

[صحيح مسلم]

فكيف لو أتيح لك أن تجلس في مجلس النبي عليه الصلاة والسلام ؟

عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ :

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ؟ قَالَ : قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[صحيح مسلم]

هذا تعريف النبوَّة ، النبوَّة إقبالٌ دائمٌ على الله ، وما دام الإنسان على أنه مقبلاً دائماً فهو بنوره مستنير، أنَّى له أن يغلط ؟ لذلك من هنا كانت عصمة الأنبياء ، الأنبياء معصومون ، وأي امرئٍ ينسب إلى نبيٍّ من الأنبياء غلطاً أو خطيئة فقد جهل معنى العصمة ..

(بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ(26)لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(27))

(سورة الأنبياء)

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

يفهم الناس الجهلاء هذا الكلام ساعة طاعة ، وساعة معصية ، أعوذ بالله ، ساعة إقبال وساعة فتور

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ ، سَاعَةً وَسَاعَةً))

النبي الكريم بإقباله العالي على الله سبحانه وتعالى شفَّت نفسه فأصبح يرى ما لا يراه الناس ، ويسمع ما لا يسمعون ،

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ جَعْفَرٍ قَالَ :

((أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لا أُخْبِرُ بِهِ أَحَدًا أَبَدًا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ فِي حَاجَتِهِ هَدَفٌ أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ ، فَدَخَلَ يَوْمًا حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الأَنْصَارِ ، فَإِذَا جَمَلٌ قَدْ أَتَاهُ فَجَرْجَرَ ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَمَسَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرَاتَهُ وَذِفْرَاهُ ، فَسَكَنَ ، فَقَالَ : مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ : هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَمَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَهَا اللَّهُ ، إِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

[مسند الإمام أحمد]

كان يخطب على جذع نخلةٍ فجاء صحابيٌّ ، وصنع له منبراً ، فحنَّت النخلة إليه ، فكان يقف على المنبر ، ويضع يده على جذع النخلة إكراماً لها.

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ))

[صحيح مسلم]

كلما ازداد إقبالك ازداد نورك :

كلّما ازداد إقبالك رأيت ما لا يراه الناس ، وسمعت ما لا يسمعون ، قد تنظر إلى وردة ، أنت مؤمن تقول : سبحان الله ! تشعر أن الله سبحانه وتعالى خلقها من أجلك ، خلقها إكراماً لك ، هذا إحساس فوق مستوى الناس ، أما قد يرى الوردة إنسان فيقول : كم ثمنها ؟ الأسعار مرتفعة ، أسعار الورد مرتفعة ، تفكير مادي محض ، أنت فكَّرت تفكير آخر، لو ارتقت نفسك لرأيت أن هذه الوردة سخَّرها الله سبحانه وتعالى إكراماً للإنسان ، إذاً :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ ، سَاعَةً وَسَاعَةً))

وهذا الذي عبَّر عنه الصوفيّون بحالة الكشف ، أي أنه لا يرى إلا الله ، يرى الله من خلال كل شيء ؛ من خلال كأس الماء ، من خلال رغيف الخبز ، من خلال كأس الحليب ، من خلال البيضة ، من خلال التفّاحة ، من خلال ابنه الصغير ، من خلال زوجته ، من خلال الهواء ، من خلال كل شيء ..

وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنه واحد .

كلّما ارتقى الإيمان بالإنسان كشف عن بصيرته ، وصار بصره حادّاً ، لكن يوم القيامة كل إنسانٍ يملك هذا البصر الحاد ، ولكن متى ؟ بعد فوات الأوان .

﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22)﴾

(سورة ق)

اعرف الحقَّ في وقته لا بعد فوات الأوان :

رأيت الحقيقة ، ولكن بعد فوات الأوان ، ولا تنفع في هذه الساعة رؤية الحقيقة ، والبطولة أن ترى الحقيقة قبل أن يفوت الأوان ، أن ترى الحقيقة وأنت في الدنيا ، تستطيع أن تتوب من ذنوبك ، تستطيع أن تتقرَّب إلى ربك ، البطولة أن ترى الحقيقة وأنت في الدنيا ، تتعرَّف إلى خالقك ، تقرأ كتابه ، تفهم آياته ، تستقيم على أمره ، تُجالس أهل الحق ، تدعو إلى الله سبحانه وتعالى ، تذكر الله كثيراً ، هذه البطولة ، لكن إذا جاء الموت ، فرعون عرفه ..

﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾

(سورة يونس : الآية 90)

قال له :

﴿ أالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾

(سورة يونس : الآية 91)

أحياناً الطالب يأتيه في الامتحان سؤالٌ لا يُجيب عنه إطلاقاً ، فيقدِم الورقة بيضاء ، يذهب إلى البيت ، ويفتح الكتاب فيعرف جواب السؤال ، ولكن متى ؟ بعد فوات الأوان ، الورقة قُدِّمَت بيضاء وسوف تنال علامة الصفر ، فإذا عرفت الآن جواب السؤال نسخر منك ، ونقول لك : بعد فوات الأوان ، فهذا كله عن معنى اللطيف ، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا أحببته ، إذا صلَّيت عليه ، إذا ذكرت أخلاقه ، إذا تعلَّق قلبك به ، يرقى بك إلى الله بلطف من دون أن تشعر ، وأما الراء فبمعنى : ما من مخلوقٍ على وجه الأرض أرحم بالخلق من النبي عليه الصلاة والسلام ، ومع ذلك قال الله في حقِّه :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾

(سورة آل عمران : من الآية 159)

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾

(سورة الكهف : من الآية 58)

الرحمة كلُّها عند الله ، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو أرحم الخلق بالخلق ، أُوتي رحمة من هذه الرحمة ..

﴿ الر ﴾

أي كأن الله سبحانه وتعالى عرَّفنا بهذا النبي ..

﴿ تِلْكَ ﴾

يا محمَّد .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ

1 ـ ما هي الآية ؟

الآيات جمع آية ، والآية العلامة الدالَّة .

في حياتنا علاماتٌ كثيرة ، علاماتٌ تدلُّ على المرض ، علاماتٌ تدلُّ على الصحَّة ، علاماتٌ تدل على عظمة الله سبحانه وتعالى ، فالجبال من آيات الله ، والشمس والقمر من آيات الله ، والمجرَّات من آيات الله ، والنجوم في كبد السماء من آيات الله ، والمسافات بين النجوم من آيات الله ، وخلق الإنسان من آيات الله ، والماء من آيات الله ، والهواء من آيات الله ، وابنك الصغير الذي يلعب في البيت من آيات الله..

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

(سورة الروم : من الآية 21)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت : من الآية 37)

فالآية هي العلامة الدالّة على شيء ، فالكون كلُّه آياتٌ تدلّ على عظمة الله ، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20))

(سورة الذاريات)

وكتاب الله سبحانه وتعالى آياتٌ دالّة على عظمته ، وعلى حكمته ، وعلى قدرته ، وعلى رحمته ، وعلى علمه ، وعلى تشريعه ، وعلى الحلال والحرام ، والحق والباطل ، والخير والشر، وما يجوز وما لا يجوز ، وعلى سنن الله في خلقه ، وعلى العِبَر المستنبطة من التاريخ .. يا محمَّد ..

2 ـ كل كلمة في القرآن آية وعلامة :

كل كلمةٍ آية ، والنَظْمُ آية ، والتقديم آية ، والتأخير آية ..

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور : من الآية 30)

لو أنَّ الله سبحانه وتعالى قال : قل للمؤمنين يحفظوا فروجهم ويغضّوا من أبصارهم ، هناك معنى خطير تلاشى ، وهو أن طريق حفظ الفرج غض البصر ، لذلك قدَّم غضَّ البصر على حفظ الفرج ، فالتقديم آية ، والتأخير آية ، والإيجاز آية ، والإطناب آية ، والسكوت عن الشيء آية ، إذا سكت القرآن عن شيء فسكوته آية ، لأن هذا الشيء متبدِّل ، ومتغيّر ، ومتطور ، ولا علاقة له بإقبال النفس على خالقها .

إن الله أمركم بأشياء ، ونهاكم عن أشياء وسكت عن أشياء رحمة بكم ، فالشيء الذي ذكره الله آية ، والشيء الذي سكت الله عنه آية على حكمته ، وعلى رحمته ، وعلى لطفه ، وعلى رأفته بالعباد ..

(تِلْكَ آياتُ)

لكن الآيات هنا متعلّقة بالقرآن الكريم ..

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20))

هذه متعلّقة بالكون .

أما :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

3 ـ معنى الكتاب :

أما الكتاب فبعضهم قال : " حيثما وردت كلمة الكتاب معرَّفةً في القرآن الكريم فإنما تعني الكُتُبَ السماويَّة كلها " ، والكتب السماويَّة كلُّها ماذا تعني ؟ تعني أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ، وخلق لهم منهجاً إذا طبَّقوه سعدوا في الدنيا والآخرة ، وحقَّقوا الهدف الكبير من خلقهم .

الكتاب منهجٌ للخلق :

بشكلٍ أو بآخر : آلة معقَّدة جداً ، مع هذه الآية نشرة استعمال بكل اللغات ، فمتى طبَّقت ما في هذه النشرة ضمنت سلامة الآلة ، وضمنت قيامها على أحسن وجه ، وضمنت لها أعلى مردود ، وبأقلّ جهد، وأقلّ نفقات ، ضمنت سلامتها من كل شيء ، فإذا ضربت بهذه النشرة عُرض الحائط عطبت الآلة ، وخسرتها ، وخسرت ثمنها ووظيفتها .

فآيات الكتاب .. هذا الكتاب منهج الله في خلقه .. سواءٌ أكان معنى الكتاب جميعَ الكُتُبَ السماويَّة ، أو كان معنى الكتاب القرآن الكريم وحده فكلاهما يدل على أن هذا المنهج منهج الإنسان في الحياة ، وهو كتابه المقرَّر ، فما قولكم بطالبٍ جامعي على مشارف التخرُّج ، وبقيت عليه مادَّةٌ أساسيَّة إذا نجح فيها

تخرَّج من الجامعة ، وإذا تخرَّج دخل في وظيفةٍ راقية ، وإن دخل في هذه الوظيفة الراقية كان له دخلٌ كبير أتاح له أن يتزوج ، وأن يبني أسرةً ، وأن يفعل ما يفعل ، فإذا كان قبل الامتحان بيومين ، وبدأ يقرأ قصصاً لا علاقة لها بالكتاب المقرَّر ألا يُعدُّ هذا الطالب غبيَّاً ؟ يقول لك : هذه الكتب قيّمة ، هذه قصص ممتعة ، للمؤلّف الفلاني ، نقول له : عندك كتاب مقرَّر إذا قرأته وفهمته تخرَّجت من الجامعة ، وضمنت مستقبلك .

كذلك الإنسان في الدنيا ، فأنت أي كتابٍ تقرأه ، أي شيءٍ تُطالِعَه إن لم يكن له علاقةٌ بالقرآن الكريم ، أو بمنهجك في الحياة فهو ضياعٌ للوقت ، لذلك دخل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المسجد فرأى قوماً متحلّقين حول رجل فقال : " من هذا الرجل ؟ " هو يعلم لكن أحبَّ أن يُعَلِّم ، قالوا : " هو يا رسول الله نسَّابة " ، قال : " وما نسَّابة ؟ " قالوا : " يعلم أنساب العرب " قال : " ذلك علمٌ لا ينفع من تعلّمه ، ولا يضرَّ من جهله " .

[ورد في الأثر]

أي أنه بلا فائدة ، فتعلَّم كتاب الله ، فيه الحق ، فيه طريق الخير ، طريق السعادة ، طريق النجاة في الدنيا والآخرة .

إذاً :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

4 ـ معنى الحكيم :

الحكيم : أي أن كلام الحكيم حكيم ، إما أن الحكيم اسمٌ من أسماء الله سبحانه وتعالى ظهر في كلامه ، فالإنسان الحكيم كلامه فيه حكمة ، والإنسان الأخرق كلامه فيه حمق ، فالله سبحانه وتعالى من أسمائه الحكيم ، إذاً : كلامه حكيم ، وهناك معانٍ كثيرة لكلمة حكيم .

من معاني الحكيم : أن الله تعالى يخاطب الإنسان في كتابه الكريم ؛ يخاطب عقله تارةً ، ويخاطب قلبه تارةً أخرى ، يحذّره تارةً ويبشّره ، يخوّفه أحياناً ، ويطمئنه أحياناً أخرى ، يقصُّ عليه القصص ما فيه موعظة بالغة ، يخبره بالآيات ، يحدّثه عن الأقوام السابقة ، يخبره عما سيكون في المستقبل بعد الموت، فيه حكمة بالغة ، فيه تنويع ، القرآن يوجِّه النفوس إلى طريق سعادتها .

في السورة الواحدة ترى آيات كونيَّة ، وترى وصفاً للنار وأهلها ، وترى وصفاً للجنَّة وأهلها ، وترى تبشيراً ، وترى تحذيراً ، وترى قصَّة ، القصَّة مع الآية مع التحذير مع التبشير مع مشاهد القيامة ، هذا بمجموعه يحمل النفس على طاعة الله سبحانه وتعالى .

إذاً : حكيم ، صياغته حكيمة ، موضوعاته حكيمة ، تنويع موضوعاته حكيمة ، عمق موضوعاته حكيمة ، حجم موضوعاته حكيمة ، لو كان القرآن عشرة آلاف صفحة لم يكن حكيماً ، أي أنه فوق طاقة الإنسان ليقرأه ويستوعبه ، جعله موجزاً ، جعله بليغاً ، فيه من كل علمٍ طرف ، فيه أصول العلوم كلها، أصولها لا تفصيلاتها ، فيه مناهج السعادة ، الطريق إلى الله سبحانه وتعالى ، حكيم ، حكيم في موضوعاته ، حكيم في حجم موضوعاته ، في حجم عددها ، حكيم في تنوُّعها ، حكيم في صياغتها ، أي أن الله عزَّ وجل يصوغ الآيات صياغات حكيمة جداً ..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

(سورة القصص : من الآية 14)

الآية قانون :

هذا ضمن قصَّة ، لكن الله سبحانه وتعالى ترك القصَّة وعَقَّبَ عليها بتعقيبٍ يشبه أن يكون قانوناً :

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

انتهت القصَّة .

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

يقرأ الآية مؤمن واقع في أزمة ، خائف من جهة ، عنده مشكلة ، يمكر به بعض الناس ، يقرأ هذه الآية فيصبح قلبه مطمئناً لحفظ الله سبحانه وتعالى ولتوفيقه ، قال :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

هذا قانون في كل زمان وفي كل مكان ، في كل عصر وفي كل مصر ، قديماً وحديثاً ، في كل مكان..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

إذاً : ربنا عزَّ وجل حكيم في هذا الكتاب .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب : من الآية 36)

حكيم .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل : من الآية 8)

إلى هذا المكان ، لو أن إنساناً في هذا العصر قرأ هذه الآية لقال : الآن يوجد طائرات حديثة ، توجد طائرات أسرع من الصوت ، تركب الطائرة الساعة الثامنة وأنت في لندن تكون في الساعة العاشرة في واشنطن ، تَعْبُر المحيط الأطلسي في ساعتين ، ربنا عزَّ وجل قال :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)

الله عزَّ وجل في هذا الكتاب غطّى به كل الأزمنة ..

(وَيَخْلُقُ)

أي أن وقودها من الأرض ، من خلق الله سبحانه وتعالى ، ومعدنها من الأرض من خلق الله سبحانه وتعالى ، والفكر الذي اخترعها من خلق الله سبحانه وتعالى ، فكأن الطائرة آيةٌ على عظمة الله سبحانه وتعالى .

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)

إذاً :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

5 ـ من معاني الحكيم المحكَم :

من معاني الحكيم أيضاً أنه مُحْكَم ، معنى محكم أي لا خلل فيه ، ولا نقص ، ولا تناقض ، وأي كتابٌ لبني البشر إذا قرأته قراءةً واعية سرعان ما تكشف التناقض ، أو تكشف الخلل ، وأحياناً المؤلّف يوسِّع في فصل توسيعاً شديداً جداً ، ويوجز في فصل ، معنى هذا أن معلوماته في هذا الموضوع واسعة ، وفي هذا الموضوع ضعيفة ، إذاً : الكتاب غير متوازن ، فهناك فصل موسَّع جداً وفصل ضيّق ، إذاً : هو غير حكيم ، لكن قوله تعالى :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

أي أنه محكم ، لا خلل فيه ، ولا تناقض ، ولا نقص ، هذه من معاني الحكيم ، و ..

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)

(سورة هود : من الآية 1)

6 ـ من معاني الإحكام الترابط :

من معاني الإحكام أيضاً الترابط ، فبعضهم قال لجهله الفاضح : "ليس بين آيات القرآن ترابط " . هذا جهلٌ فاضح ، ما من آيةٍ إلا وآخذةٌ بعنق أختها ، وكأنَّ السورة عِقْدٌ منظوم .

كتاب الله يحتاج إلى نفسٍ طاهرةٍ كي تَعِيَه :

لكن كتاب الله يحتاج إلى نفسٍ طاهرةٍ كي تَعِيَه ..

(لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ)

(سورة الواقعة)

من معاني هذه الآية : المُطَهَّر يفهم كتاب الله .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ)

(سورة البقرة : من الآية 282)

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

(سورة التغابن : من الآية 11)

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(سورة فصلت : آية " 44 ")

(وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا(82))

(سورة الإسراء)

البعيد عن الله سبحانه وتعالى ، المتلبِّس بالمعصية ، من كان قلبه نجساً يقرأ القرآن فلا يفهم منه شيئاً ، يراه متناقضاً ، يراه غير منتظم ، غير مترابط ، لكن الله سبحانه وتعالى قال :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

هناك ترابطٌ بين آياته ، هناك ترابطٌ بين كلماته .

مثالٌ من إحكام القرآن بين حروفه :

هناك ترابطٌ بين حروفه .

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

هنا(ثُم) وفي آية ثانية :

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

هذه ثم وهذه الفاء ، فهل هذا تنويع ؟ هذا عمل الإنسان ، يقول لك : نَوِّع ، لتفادي التكرار ، ضع مرَّة ثم ومرَّة الفاء ، فأستاذ الإنشاء والتعبير يضع خطوط حمراء ، ويقول لك : هذه تكرار ، والتكرار يُضعِف الموضوع ، نوِّع ، فلمَّا قال ربنا :

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

ولمَّا قال :

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا)

يا ترى هل الله عزَّ وجل ينوِّع ، أم أنَّ هناك لكل آية معنى دقيق جداً ؟ فـ (الفاء وثم) حرفان من حروف العطف يفيدان الترتيب ، لكن الفاء تفيد الترتيب على التعقيب ، وثم تفيد الترتيب على التراخي ، فإذا قلنا : دخل فلان ففلان أي أن الثاني وراء الأول ، أما دخل فلان ثم فلان أي بعده بساعة ، فربنا عزَّ وجل قال :

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

إذا رأيت إنساناً ينكر هَدي الله عزَّ وجل ، وماله حرام ، وهو فاجر ، وفاسق ، ومعتدٍ ، وباغٍ ، ومنحرف ، وصحَّته طيّبة ، وماله وفير ، وبيته فخم ، ومكانته الاجتماعيَّة عالية ، هذه ثمَّ ، أي انتظر ، انتظر سنة ، سنتين ، ثلاثا ، أربعا ، عشرا ، تأتيه الضربة القاصمة .. لأن الله يمهل ولا يهمل ..

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

ومن جهة أخرى تجد إنساناً أحياناً يحلف يميناً غموساً في المحكمة ، ويضم له مالاً حراماً ، يقول الناس عنه : خرج من المحكمة مشى مترين فوقع مشلولاً ، هذه :

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا)

هذه الفاء ، فحتى في الحروف إحكام ، في الكلمات إحكام ، في الآيات إحكام ، في السور إحكام ، وبعضهم قال : " جزء عمَّ .. الجزء الأخير من كتاب الله .. كلُّه آياتٌ كونيَّة ..

(إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ)

(سورة الانفطار)

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1)

(سورة التكوير)

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس)

وفي سورة واحدة :

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

(سورة المطففين)

فهي في المعاملات ، قال بعض المفسرين : " إذا كان التطفيف بحق إنسانٍ يقتضي الهلاك فكيف التطفيف بحق الله سبحانه وتعالى ؟ هناك تناسب في الآيات ، في الحروف ، في الكلمات ، في السور ، هذه من معاني الحكيم المترابط ، من معاني الحكيم كما قلت قبل قليل : أي الذي لا خلل فيه ، ولا غلط، ولا رَيْب ، ولا نسيان ، ولا ضعف ، ولا تناقض ، ولا تضارب بين الآيات .

7 ـ من معاني الحكيم إحكام الله في القرآن الحق والباطل :

من معاني الحكيم الذي أحْكَمَ فيه الله سبحانه وتعالى الحق والباطل ، والخير والشر ، والحلال والحرام، وما يجوز وما لا يجوز ، أي أن هذه الآيات حكمت على هذا الشيء بأنه حق وهذا باطل .

لذلك :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب : من الآية 36)

إذا قال الله عزَّ وجل :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة : من الآية 276)

ليس هناك أيّ مناقشة إطلاقاً ، فلا يجوز البحث في هذا الموضوع ، لأن الله سبحانه وتعالى قضى في الربا حكمه ، وهو حكيم ، فإما أن هذا القرآن حكم على شيءٍ بالإباحة ، وعلى شيءٍ آخر بالحرمة ، وشيءٍ بأنه حلال ، وشيءٍ بأنه حرام ، وهذا حق ، وهذا باطل ، وهذا يجوز ، وهذا لا يجوز .

من معاني الحكيم ، أي الحاكم ، من معاني الحكيم المحكم ، المترابط ، من معاني الحكيم الذي لا خلل فيه ، من معاني الحكيم التناسب مع الإنسان ، يخاطب عقله .

الآن هناك كتب تخاطب العقل فقط ، فهي مملّة ، وكتب تخاطب الوجدان فقط ، ممتعة ، لكن غير نافعة، الكتب التي تخاطب العقل فقط نافعة غير ممتعة ، جافّة ، لكن القرآن الكريم فيه تنويع ؛ فيه قصَّة ، فيه صورة ، فيه مشهد ، فيه تاريخ ، فيه آية ، فيه إشارة ، فيه عبارة ، فيه مثَل ، فهو حكيم ..

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

فملخَّص هذا الكلام كلّه : " فضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على خلقه " ، هل يوازَن بين المخلوق والخالق ؟ لا ، إذاً لا يوازَن بين كلام الله وبين كلام خلقه ..

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(1)أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ

1 ـ من عجبِ الناس إرسال رسول من البشر :

أي أن الناس يعجبون إذا أرسل الله سبحانه وتعالى رسولاً !! ألا يعرفون قيمة أنفسهم أن الله يحبَّهم وخلقهم ليسعدهم ؟ ألا يعرفون أنهم خُلقوا لهدفٍ عظيم ؟ الذين يعجبون أن يُرسل الله سبحانه وتعالى رسولاً لا يعرفون قدر الإنسان .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

(سورة الإسراء : من الآية 70)

الذين يعجبون أن يُرْسِلَ الله سبحانه وتعالى رسولاً لا يعرفون قدر النبي عليه الصلاة والسلام .

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا)

أي أتعجب أن يوجِّه الأبُ الذي ينطوي قلبه على محبَّةٍ لابنه نصيحةً لابنه ؟! أتعجب أن تخاف الأمُ على مصير ابنها ؟! طبيعتها هكذا ، أتعجب أن تحرص الأم على نجاح ابنها ؟! أي أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وتركهم هكذا ؟ أهكذا ظنُّكم ؟ أتعجبون أنْ أكَرم اللهُ بني البشر برسولٍ منهم يبيّن لهم ما يفعلونه ، فهذه الآية دقيقة جداً ، فمن يعجبْ كيف يرسل الله سبحانه وتعالى رسولاً فهذا ينكر رحمته، ينكر حكمته من خلقه ، ينكر الآخرة ، فلذلك :

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)

نقف عند كلٍ كلمة :

(رَجُلٍ مِنْهُمْ)

2 ـ الأنبياء والرسل من الرجال حتى يكونوا حجة على الناس :

هذه لها بحث طويل ، ما جعل الله نبيَّاً مَلَكاً ، لو كان مَلَكاً لقال الناس : أخي هذا مَلَك ، أما أنا فإنسان من لحمٍ ودم ، أنا فيَّ شهوات ، هذا مَلَك ، لكانت الحجَّة مع البشر ، لكن حيث أن هذا النبي الكريم بشر من لحمٍ ودم أودَعَ الله فيه الشهوة كما أودعها فينا ، لكنَّه ضبطها ، أودع فيه حبَّ المال كما أودعه فينا ، لكنَّه جعل المال في خدمة الخَلْق ، أودع فيه حبَّ العلو كما أودعه فينا ، ولكنَّه ارتفع بأخلاقه العُليا ، لا يمكن أن يكون النبي إلا بشراً ، ولو كان مَلَكاً لما اهتدى به أحدٌ من الخلق ، يقول : أخي هذا مَلَك وأنا بشر ، ظروف صعبة ، النبي الكريم خاض حروباً ، واجَهَ معارضات ، واجه كفَّاراً ، وتآمروا عليه ،

وتآمروا على قتله وثبت ، وقال :

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

لا يمكن أن تقوم الحجَّة إلا إذا كان النبي بشراً .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف : من الآية 110)

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((اللَّهُمَّ إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ ، يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ ...))

[مسلم]

أي أنا من طبيعتكم ، لذلك هو الحجَّة علينا ، هذا بشر من طينتكم ، من جبلَّتكم ، من طبيعتكم ، أودِع فيه ما أودعتُه فيكم ومع ذلك استَعمَل فكره ليعرفني فعرفني ، وجاهد ليعرِّف الناس بي فعرَّفهم بي ، استحقَّ أن يكون نبيَّاً ، لذلك :

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ)

3 ـ الأنبياء والرسل يُرسَلون من أقوامهم وليسوا غرباء :

لو لم يكن منهم فهذا معنى ثانٍ ، فلو جاء من مصر إلى مكَّة ودعاهم ، إنهم يخافونه ، ويخشونه ، ويتوجَّسون منه مثلاً ، لأنه من قطر آخر ، لا ، بل إنه جاء منهم ، من بينهم ، من جماعتهم ، يعرفون نسبه ، وصدقه ، وعفافه ، وأمانته ..

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ)

كما لو أنَّ جامعة أُنْشِأت وكلَّفت ألوف الملايين ؛ من قاعات المحاضرات ، إلى مختبرات ، إلى حدائق، إلى مكتبات ، إلى بيوت للطلبة ، فهل من العجب أن تسخِّر هذه الجامعة مرشداً اجتماعياً لكل طالب ، أو لكل خمسة طلاب ؟ وهذا ما تفعله الجامعات ، هذا الطالب في الجامعات الراقية لا يستطيع أن يقطع أمراً في شأن اختصاصه إلا بعد موافقة هذا البروفسور ، لماذا ؟ لأن الجامعة في أعلى مستوى ، وهدفها تخريج الطلاَّب بأعلى مستوى ، فربنا عزَّ وجل خلق هذا الكون ؛ خلق المجرَّات ، ألف مَليون مليون مجرَّة ، وفي المجرَّة مَليون مليون نجم ، خلق الشمس والقمر ، والأرض والسماء ، والبحار والجبال ، ويترك هذا الإنسان هملاً بلا توجيه ، بلا إرشاد ، بلا تبيين ، بلا تعريف ، بلا هدى ، بلا منهج ، بلا كتاب ، تركه هكذا ضائعاً ؟ هذا مما يعني كلمة :

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا)

لابدَّ من أن يكون هناك أنبياء ، لأن الله رحيم ، بسبب رحمته وحكمته ، ولأنه خلقنا ليسعدنا فلابدَّ من أن يبعث لنا أنبياء ، ورسلاً ، وكتباً ، ومناهج ، ودعاة ..

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ)

أي أن الذي ينكر بعثة النبي عليه الصلاة والسلام يُنْكِرُ رحمة الله سبحانه وتعالى ، ينكر حكمته ، ينكر قيمة النبي ، ينكر قيمة نفسه ، أنت غالٍ على الله كثيراً ، ولأنك غالٍ على الله عزَّ وجل أرسل لك رسلاً، وبعث إليك قرآناً ، وبعث لك أناساً متفرِّغين للدعوة إلى الله ..

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 23)

علم فيك الخير فأسمعك ، تعجب تقول :

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ)

أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ

1 ـ ما هو الإنذار ؟

الإنذار لفت النظر لخطر سيقع بعد فَسْحَةٍ من الوقت ، هذا هو الإنذار ..

(وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

2 ـ المؤمنون هم ملوكُ الآخرة :

هؤلاء المؤمنون هم ملوك الدار الآخرة ، هؤلاء المؤمنون لهم عند الله مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر ، لا قلق ، ولا خوف ، ولا حَزَن ، مكان ثابت ، رتبة ثابتة لا أحد ينازعك عليها إطلاقاً ..

(وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا)

(سورة المائدة : من الآية 37)

(لا يَحْزُنُهُمْ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ)

(سورة الأنبياء : من الآية 103)

(قَدَمَ صِدْقٍ)

3 ـ معنى : قَدَمَ صِدْقٍ

أي مقام صدقٍ ، معنى قدم أي حصَّله بسبقه ، باجتهاده ، معنى قدم ثباته ، معنى قدم مقامه ، ومن معاني القدم الثبات والسبق والمقام ، القدم حقَّق مكانة ، والقدم حصَّله بقدمه أي بسبقه ، مقام صدق ، مقعد صدق ، مقام عند الله .

(أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

هذا الوعد الذي وعدك الله به من مقعد صدقٍ عنده ، هذا يعدل الدنيا وما فيها ، لذلك إذا قتل أحدنا في أيَّام شدَّة وجود الحشرات المنزليَّة أي (الناموس) فإذا قتل ناموسة هل لها قيمة عند أحد ؟ هل يحاسبك عليها أحد ؟ هل عليك أي مؤاخذة فيها ؟ لا شأن لها ، فكيف جناحها ؟ قال :

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

أي أن الدنيا ؛ بمالها ، بنسائها ، ببيوتها ، ببساتينها ، بمتعها ، بشهواتها لو أنها

((تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

فهذا الذي يستقيم على أمر الله ، ويخلص لله ، ويغضُّ بصره ، ويحرر دخله ، وتسعه السنَّة ، ولا تسعه البدعة ، يرفضها ، هذا له عند الله قدم صدقٍ ، وكما قيل : " الزُهَّاد والورعون جلساء الله يوم القيامة ".

قدم صدق أي حصَّلوها بسبقهم ، ولهم عند الله مكانةٌ ثابتة بسبب صدقهم مع الله سبحانه وتعالى ..

(قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (02-17): تفسير الآيات 2 – 4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-09-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

بدأنا في الدرس الماضي بتفسير سورة يونس عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وقلنا في قوله تعالى :

(أَكَانَ لِلنَّاس عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ)

أي أن كيف يعجب الناس أن يرسل الله سبحانه وتعالى رسولاً يبين لعباده طريق سعادتهم، من عَجِب هذا العجب فكأنه ينكر رحمة الله سبحانه وتعالى ، مَنَ عجب ذلك العجب فكأنما ينكر أن لخلق الله سبحانه وتعالى هدفاً سامياً ، خلق الخلق ليسعدهم ، خلقهم ليعرفوه ، خلقهم ليتجلَّى عليهم ، خلقهم ليسعدوا سعادةً أبدية ، فإذا تاهوا عنها ، وحادوا عنها ، لابدَّ من أن يرسل إليهم رسولاً ، أيعجبون ؟! أما أن يكون الرسول ملكاً فهذا شيءٌ غير واقعي ، لا يستجيب له أحد ، لا يصدقه أحد ، لا يأخذ بكلامه أحد ، لأن الحجة الكبرى أنك ملك ونحن بشر ، والذي تقوله لا نستطيع تطبيقه لأنك لست مثلنا ، لكن الله سبحانه وتعالى أرسل رسولاً منهم ، رجلاً منهم ، ولو كان هذا الرجل من غير قبيلتهم ، من بلدٍ بعيد لشكوا به ، وظنوا فيه الظنون ، رجلٌ نشأ بين أظهرهم يعرفون صدقه، ونسبه ، وأمانته ، وعفافه ، ويعرفون طهارته ، وهو إنسانٌ يحس بما يحسون ، ويغضب لما يغضبون ، يدعوهم لعبادة الله سبحانه وتعالى أتعجبون ؟! .

(أَكَانَ لِلنَّاس عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ)

أَكَانَ لِلنَّاس عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ

1 ـ القرآن فيه إنذار للناس :

أي أن هذا الكتاب فيه إنذارٌ وفيه بشارة ، إنذارٌ للضال بأنه سيدفع ثمن ضلاله كبيراً ، إنذارٌ للعاصي بأنه سيدفع ثمن معصيته غالياً ، إنذارٌ للبعيد عن الله عزَّ وجل بأنه سيشقى في الدنيا والآخرة ، وهذا إنذار من عند الله .

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا(87)﴾

(سورة النساء)

ومن أوفى بعهده من الله ؟ الرحيم ، العليم ، الغني ، القدير يقول لك: انتبه وراءك يومٌ عسير .

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(10)﴾

(سورة المدثر)

ساعة اللقاء ، ساعة نهاية الحياة ، ساعة كشف الغطاء ، ساعة رؤية الحقيقة .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا(11)وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا(12)وَبَنِينَ شُهُودًا(13)وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا(14)ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ(15)﴾

(سورة المدثر)

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾

2 ـ من علامات العقل الاستجابة للقرآن في دعوته للحياة الحقيقية :

إن من علامات العقل الاستجابة لكلام الله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(سورة الأنفال : من الآية 24)

أنت الآن مدعوٌ للحياة ، قد تقول : ألست حياً ؟ نقول لك : لا ، جسمك حي ، حياتك حياة جَسَد ، حياة دمٍ ولحم ، حياة شرايين وأوردة ، لكن القلب له حياة ، حياته بمعرفة الله سبحانه تعالى ، حياته بالإقبال عليه ، حياته بالاستنارة بنوره ، حياته بالتقرُّب إليه ، حياته بالاستهداء بهديه ، حياته بالالتجاء إليه ، حياته بالاعتصام بكتابه ، هذه الحياة ، لذلك ربنا عزَّ وجل قال :

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾

(سورة النحل : من الآية 21)

3 ـ اعمل لتلك الساعة :

قد يكون الإنسان في أوج حياته وهو ميت ، قد تنبض شرايينه حيوية ونشاطاً ، وهو ميت ، والموت موتان ، موت الجسد وموت النفس ، فالله سبحانه وتعالى يدعونا لما يحينا ، أي أن هذا الأمر مهم جداً ، هذا الأمر لو أخذتموه مأخذ الجِد لما نمتم الليل ، قال عليه الصلاة والسلام :

((إذا مات العبد رفرفت روحه فوق النعش تقول : يا أهلي يا ولدي ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حل وحرم ، فأنفقته في حله وغير حله ، فالهناء لكم ، والتبعة علي))

ثم يقول عليه الصلاة والسلام : ما من بيتٍ إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات ، فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله ، وانقطع رزقه ألقى عليه غَمَّ الموت فغشيته سكراته ، فمن أهل البيت الضاربة وجهها ، والصارخة بويلها ، والنادبة حظها ، فيقول ملك الموت : " فيم الجزع ؟ وِمم الفزع ؟ ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً ، ولا قرَّبت له أجلاً ، وإن لي فيكم لعودة ثم عودة حتى لا أبقي منكم أحداً))، قال عليه الصلاة والسلام : " فو الذي نفس محمد بيده لو يسمعون كلامه ، ويرون مكانه لذهلوا عن ميِّتهم ، ولبكوا على أنفسهم))

، ويقول عليه الصلاة والسلام ، وهذا مقصد الشاهد :

((لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلت طعاماً عن شهوةٍ ، ولا شربتم شراباً عن شهوةٍ ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه))

فإذا كان هناك أمر خطير جداً ، كأن يكون عند الإنسان امتحان في الصف الأخير ، صف التخرج ، ومعلّقٌ على تخرجه آمال كبيرة ، وهو يمشي في الطريق ماذا يرى ؟ أنا أقول : لا يرى شيئاً ، لشدة اهتمامه بالامتحان لا يرى شيئاً أبداً ، فلان رآه في الطريق الفلاني ، الواجهة الفلانية ، المحل الفلاني ، لا يرى شيئاً ، هو في شغلٍ عما حوله ، ولو عرف الإنسان ربه حق المعرفة لكان في شغلٍ عما سوى الله ، لذلك :

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

مشغول ، له هدف كبير ، فرصةٌ قصيرٌ بسعادةٍ أبدية ، كل دقيقة محاسبٌ عليها ، حتى إن أهل الجنة لا يندمون إذا دخلوا الجنة وسعدوا بها إلا على شيءٍ واحد ؛ على ساعةٍ مرت لم يذكروا الله فيها .

فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ

الأمر خطير ، هذا الكلام كلام الله سبحانه وتعالى ، إلهٌ ينذر ، ربنا عزَّ وجل يقول :

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

من منا يقبل أن يُعْطى مالاً وفيراً ليتمتع به سنتين أو ثلاثا أو خمسا ، كيفما شاء ، في أي بلدٍ شاء ، في أي فندقٍ شاء ، في أي مقصفٍ شاء ، في أي طريقةٍ شاء ، ثم يعذَّب عذاباً أليماً لم يعذب مثله أحد ، لأسبوع واحد لا يرضى ، ليومٍ واحد لا يرضى ، لساعةٍ واحدة لا يرضى ، فكيف ترضى أن تعيش حياةً قصيرة وراءها عذابٌ أبدي ..

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

الله سبحانه وتعالى ينذر الناس ، نحن في دار عمل ، اعملوا ما شئتم ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به ، كل عمل عند الله له ثمن ، إن لكل سيئةٍ عقاباً ، ولكل حسنةٍ ثواباً ، في الدنيا والآخرة ، اعمل ما شئت ، تحب أن تصدُق اصدق ، تحب أن تكذب اكذب ، للصدق ثمن ، وللكذب ثمن ، تحب أن تغش الناس غشهم ، تحب أن لا تغشهم لا تغشهم ، وللغش ثمن ، وللإخلاص ثمن ، تحب أن تغض البصر غضه ، تحب أن لا تغض لا تغض ، ولإطلاق البصر ثمن ، ولغض البصر ثمن في الدنيا والآخرة ، اعملوا ما شئتم ، الله سبحانه وتعالى يحاسب ، بل إن الطاعة ينطوي فيها نتائجها ، وإن المعصية ينطوي فيها نتائجها ، فلو وضعت إصبعك على مدفأة وهي مشتعلة من يحاسبك ؟ هي تحاسبك ، وضع إصبعك عليها يحرقه ، وكذلك المعاصي ، كل معصيةٍ لها نتائج وَخِيمة ، فإن لم تحب أحد ، إن أحببت نفسك ، إن كنت مفرطاً في أنانيتك أطع الله سبحانه وتعالى ، إذا أطعته تسعد في دنياك وآخرتك ، هي على كلمة :

(أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ)

4 ـ استجب لإنذار الله :

إنذار ، فمن منا إذا جاءه إنذار من دائرة الهاتف " إن لم تدفع خلال عشرة أيام يلغى الاشتراك " ، وتعرف أن تأمين هاتف شيء صعب جداً ، وقد يكون ثمنه كبيرا ، يحتاج إلى وسائط مهمة ، من منا لا يبادر فوراً لإنذار من إنسان ، لانقطاع الهاتف فقط تبادر ، تأخذ إجازة ، تلغي عملاً مهمًّا لدفع الاشتراك ، إذا تلقيت إنذاراً من مؤسسة الهاتف ، ينذرك بالدفع أو يقطع الهاتف ، ماذا تعمل ؟ لماذا أنت تتعامل مع الناس بتفهُّم وصدق ، وتقرأ كتاب الله صباحاً ومساءً ، أو يتلى على مسامعك ، ولا تأخذ بآياته وتقول : سَيُغْفَرُ لنا ، كما قال اليهود ؟ .

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)

(سورة الأعراف : من الآية 169)

من قال لك ذلك ؟

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى)

(سورة طه)

هذه أربعة شروط ، هل تبت توبة نصوحاً ؟ وهل آمنت بالله حق الإيمان ؟ وهل عملت صالحاً ؟ وهل اهتديت إليه ؟ إن كنت كذلك فأبشر بالمغفرة .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النحل)

الحد الأدنى تعامَلْ مع الله سبحانه وتعالى كما تتعامل مع إنسان يعطيك إنذاراً فتنفذ على الفور .

(أنْ أنذِرِ النَّاسَ)

أي أن هذا الذي يعصي الله أيضمن صحته ، أيضمن أن لا يصاب بمرض عضال ، أيضمن أن لا يصاب بمرضٍ يدفع كل ماله من أجل معالجته ، والشواهد أمامكم كما ترون ، أمراضٌ وبيلة تفتك بالناس في الغرب بسبب انحرافهم ، وآخر إحصاء لمرض انحلال المناعة مائة مليون مصاب في العالم الآن ، بسبب الانحراف الأخلاقي ، اعملوا ما شئتم ، إطلاق البصر له ثمن .

رجل كانت هوايته أن يتنزَّه في الطرقات ، ويطلق بصره بالحرام فأصيب بمرض اسمه ارتخاء الجفون ، لا يستطيع أن يرى إلا إذا فتح جفنه بيده .. إن لكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئةٍ عقاباً ، لا تحب أحداً ، أحبَّ نفسك ، فإذا أحببتها تستقم على أمر الله ، انتبه لسمعك ..

((من استمع إلى صوت قينةٍ صب في أذنيه الآنك يوم القيامة قيل : وما الآنك يا رسول الله؟ قال : الرصاص المذاب))

[ورد في الأثر]

((من نظر إلى الحرام ملأ الله عينيه من جمر جهنم))

[ورد في الأثر]

((من أكل لقمة من حرام لا تقبل له شهادة عند الناس ولا صلاة عند الله سبحانه وتعالى))

حرر دخلك ، أدِّ زكاة مالك ، ادفع للناس حقوقها ، لا تبخس الناس أشياءهم ، لا تَبن غناك على فقر الناس ، ولا على حرمانهم حقوقهم ، لا تبن صحتك على مرضهم ، ولا مجدك على أنقاضهم ، لا تبن شيئاً على حساب شيء .

(أنْ أنذِرِ النَّاسَ)

الله سبحانه وتعالى ، هذا كلام الله لا كلام بشر ..

(أنْ أنذِرِ النَّاسَ)

أي ناس .

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ)

5 ـ من عدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت :

من يضمن أن يعيش إلى ساعة ؟ قال عليه الصلاة والسلام :

((من عد غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت))

إذا قال : غداً سأشتري هذا الشيء ، وهو يظن أن غداً سيعيشه ، وأنه سيعيش غداً لا محالة ، فقد أساء صحبة الموت ، فمن منا يضمن أن يعيش إلى ساعة ؟ إذاً : لابدَّ من أن تنام وقد صفَّيت الحساب .

((إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا ، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهُ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

معنى ذلك أن هناك موتين ، موت النوم وموت الموت ..

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

(سورة الزمر : من الآية 42)

وفاة كاملة ، فإذا وضع الإنسان رأسه على الوسادة فإما أن يستيقظ ، وإما أن لا يستيقظ ، إما أن يستيقظ وإما أن يستيقظ الناس على نعيته .

أعرف رجلا نام الساعة الحادية عشرة ، يبدو أن زوجته في الساعة الواحدة لمست يده فرأتها باردة فاستيقظت مذعورة ، فإذا هو ميت .

((من عد غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت))

أما المؤمن فيحسب لهذه الساعة حسابها ، يُعِدُّ لها طوال حياته ، ليلاً ونهاراً ، فحضور مجالس العلم إعدادٌ لها ، وإتقان الصلاة إعدادٌ لها ، ودفع الزكاة إعدادٌ لها ، وغض البصر إعدادٌ لها ، وخدمة الخلق إعدادٌ لها ، والإكثار من العمل الصالح إعدادٌ لها ، هذه البطولة ، البطولة أن تعُد لساعةٍ نسيها الناس ، غاب عنها ، في غفلةٍ عنها ، ساهون لاهون .

(أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ)

إنذار من الله ، إذا قرأت إنذار الكهرباء ، أو إنذار الماء بالقطع ، أو إنذار الهاتف فتذكَّر إنذار الله سبحانه وتعالى .

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ

أما هذا المؤمن ليكن في الدنيا ما يكن ، كبير الشأن ، أم صغير الشأن ، معروفا ، أم غير معروف ، مشهورا ، عَلَما ، أم غير عَلَم ، مغمورا ، دخله محدود ، أم دخله غير محدود ، قوي البنية ، أم ضعيف البنية ، زواجه موفق ، عنده أولاد ، ما عنده أولاد ، هو مؤمن .

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا)

البطولة أن تكون مؤمناً ، سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال : "الحمد لله ثلاثًا ؛ الحمد لله إذ لم تكُ في ديني " .. أية مصيبةٍ ليست في الدين تهون ، لا قيمة لها ، يأتي الموت فيضع حداً لها ، لكن البطولة

أن تكون بعد الموت :

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ)

1 ـ معنى : قَدَمَ صِدْقٍ

معنى قدم صدقٍ أي أن المؤمنون سبقوا إلى هذه المكانة ، في تسابق .

لابد من المنافسة في ميدان الخير لكسب قدم الصدق :

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الحديد : من الآية 21)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

هنا التنافس ، هنا التنافس الشريف ، شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس ، فلا يوجد شيء في الدنيا أعظم من أن يكون لك عند الله مقام .

(أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78)وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)

(سورة الإسراء)

يجب أن تعرف مقامك عند الله ، إذا أردت أن تعرف ما لَكَ عند الله فانظر ما لله عندك ، هل تقف عند الحرام ؟ هل تبادر إلى المأمورات ؟ هل تدع المنهيَّات ؟ هذا مقام الله عندك ، فإذا ترك الإنسان أوامر الدين لسببٍ تافه ، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى لا شأن له عنده ، وكلمة : لا أستطيع ، وليس عندي وقت ، ولا أريد ، هذه كلمات لا يقولها المؤمن ، المؤمن ذو همةٍ عالية ، فلذلك :

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ)

لهم مكانة ثابتة ، حصَّلوها بسبقهم ، وقدم صدقٍ فيه معنى السبق ، وفيه معنى آخر وهو الثبات ، مكانة ثابتة حَصَّلها بسبقه .

(عِندَ رَبِّهِمْ)

2 ـ الخلق كلهم عيال الله لا فرق بينهم إلا بالتقوى :

والخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، لا فرق بين عربيٍ وأعجمي إلا بالتقوى ، المقياس واحد ، الناس ابتدعوا مقاييس كثيرة ، لكن الله سبحانه وتعالى يقيس عباده جميعاً بمقياسٍ واحد.

((إِنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ هِيَ فِي النَّارِ))

[من مسند أحمد عن أبي هريرة]

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام))

[ورد في الاثر]

سألوا الجُنيد : " من ولي الله ؟ أهو الذي يطير في الهواء ؟ " قال : " لا " ، " أهو الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال : " لا ، الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام " .

أحبابنا اختاروا المحبة مذهباً وما خالفوا في مذهب الحب شرعاً

التقيُّد التام بالشرع علامة الإيمان .

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

إذا كانت هذه حالة النبي فكيف نحن ؟

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود : من الآية 112)

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)

قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ

1 ـ من صفات الكافر التشكيك في الدين :

فالكافر يريد أن يشكك بالدين ، يتهمه بالغيبية أحياناً ، يتهمه بالعجز عن مواجهة مشكلات الحياة ، يتهمه بعدم التطور ، يتهمه اتهاماتٍ كثيرة ، كل هذه الاتهامات تعبيرٌ عن خللٍ أصاب الكافر من ترك الدين ، هذا الخلل يحب أن يتهم الدين بشيء كأنه يُعفي نفسه من اتباعه ، هذه الحالة الداخلية للذين ينكرون الدين :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون)

هو نفسه .

2 ـ عدم الاستجابة نابعٌ من اتباع الهوى :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : من الآية 50)

علامة عدم الاستجابة اتباع الهوى ، اتباع الهوى يحمل صاحبه على أن لا يستجيب .

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

1 ـ معرفة الله أساس الدين :

كلمة دقيقة جداً ، النبي اللهم صلِّ عليه حينما جاءه أعرابي قال له : " جئتك لتعلمني من غرائب العلم " ، فقال عليه الصلاة والسلام : "فماذا صنعت في رأس العلم ؟ " فقال هذا الأعرابي : " وما رأس العلم ؟ " قال : " هل عرفت الرب ؟ " .

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((رأس الدين معرفته))

[روي في الأثر]

فمعرفة الله سبحانه وتعالى أساس الدين ، فإذا عرفت الله عرفت كل شيء ، وإن لم تعرف الله لم تعرف شيئاً ، ما دامت معرفة الله أساس الدين كيف نعرفه ؟

2 ـ معرفة الله تتم من خلال آياته :

هل يمكن أن ندركه بحواسنا ؟ الجواب : لا ، لا تدركه الأبصار ، أي أنه يستحيل على حواسنا جميعها أن تعرفه ، بقي طريقٌ واحد ، لا يمكن أن تعرفه إلا من خلال آياته ..

(إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ)

(سورة النحل : من الآية 104)

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

طريق وحيد ، لما ربُّنا عزَّ وجل بين قصة سيدنا إبراهيم :

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ(76)فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)

(سورة الأنعام)

الآية معروفة ، والقصة معروفة ، إلى أن قال :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام)

ربنا عزَّ وجل أطلعنا على أن طريق الإيمان هو التأمُّل في آيات الكون ، ضع فرضية وأثبتها لم تثبت، دعها ، ضع فرضية أخرى إلى أن تهتدي إلى الحقيقة ، هذا هو الطريق الوحيد ، لذلك ربنا عزَّ وجل عقِب هذه القصة قال :

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 88)

هذا هو الهدى ، بهذه الطريقة التي اتبعها إبراهيم تهتدي وإلا فلا ، ثم قال بعد ذلك :

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 90)

يجب أن تجعل طريقتهم في الهداية قدوةٌ لك ، وفي أعقاب ذلك قال :

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمْ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمْ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الأنعام : من الآية 111)

إلا إذا سلكوا الطريق الذي رسمه الله سبحانه وتعالى ، فلو أن الإنسان قرأ كتب طب وحده في البيت ، لو قرأ مجلات طبية ، لو ارتدى ثوباً أبيض ، لو فعل ما فعل ، لا يكون طبيباً إلا إذا دخل كلية الطب ، الطريق إلى الله سبحانه وتعالى وحيد .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 153)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ

لذلك :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

أي هل فكرتم في ربكم الذي يمدكم بما تحتاجون ؟ ربكم هو الخالق..

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

خَلقُ السماوات والأرض :

هل وصلت إلى معرفة الخالق ؟ من خلق المجرات ؟ من خلق مليون مليون مجرة؟ من جعل بين المجرتين ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية ؟ من جعل مليون مليون مجرة وفي كل مجرة مليون مليون نجم ؟ فهذا مذنب هالي سيأتينا ضيفاً بعد أشهر .. رقم لا أذكر دقته ، ربما طول ذنبه تسعة ملايين كيلومتر .. يدور في مداره في كل سبعين سنة دورة ، وقد مر بالقرب من الأرض عام : ألف وتسعمائة وعشرة ، كل ستة وسبعين سنة مرة ، من خلق هذا المذنب ؟ من خلق الشمس ؟ هل عرفت الخالق ؟ هل صدَّقت أن الله هو الذي خلق كل شيء ؟ من صمم هذه الآيات ؟ ..

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

1 ـ معنى : فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

بعضهم قال اليوم هو الدَوْر ، و ..

(فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

في ستة أدوار ، أي أن في تُحْمَل على الحال ، أي ليلٌ ونهار ، وصيف وشتاء ، وربيعٌ وخريف ، نظام الأرض مبني على ستة أيام ، ليلٌ ونهار وأربعة فصول ، وهناك آيات تؤكّد هذا المعنى :

(وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ)

(سورة فصلت : من الآية 10)

أي في أربعة فصول .. إذاً :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

2 ـ العاصي لا يعرف الله ربَّه :

الحقيقة أن الذي يعصي الله لا يعرفه ، لذلك قالوا : " لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت " ، مهما كان الذنب صغيراً ، هو صغير ، لكن هل تعرف أنت من تعصي ؟ تعصي الخالق ، تعصي الرب ، تعصي المسيِّر ، تعصي السميع ، البصير ، الرحيم ، العليم ، القوي ، الغني عن طاعتك

فكلما استحضرت أسماء الله الحسنى كَبُرَ عليك أن تعصيه لذلك :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 28)

بقدر ما تكون عالماً بقدر ما تكون خاشعاً ، حجم خشوعك بحجم علمك ، حجم خشيتك بحجم معرفتك ، لذلك : لا يعصي الله إلا جاهل .

لقوله تعالى :

(فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

تفسيرات كثيرة ، هذا بعض التفاسير .

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

كما قال الإمام مالك : " الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال بدعة ؟ لكن هناك من وضح هذه الآية بأن الله سبحانه وتعالى إما أن ترى أن الله يدبر الأمر ، فإن رأيت الله يدبر الأمر هانت عليك الأمور ، وكان هذا التدبير برداً وسلاماً على قلبك وطمأنينة وراحة ، لذلك حالة المؤمن النفسية عزيزة، كلها طمأنينة ، كلها استسلام لحكمة الله ، استسلام لأمر الله ، هو متوكل، مفوَّض ، مسلَّم ، مرتاح ، يدبِّر الأمر ، حتى أن بعض الصوفيين قال : " دبِّر أن لا تدبر " .

" أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد " .

(يُدَبِّرُ الأمْرَ)

يُدَبِّرُ الأمْرَ

معنى : يُدَبِّرُ الأمْرَ

فإذا رأيت في سنة مواسم الفواكه كثيرة ..

(يُدَبِّرُ الأمْرَ)

سنة فيها شُح بالأمطار ..

(يُدَبِّرُ الأمْرَ)

سنة فيها خيرات كبيرة ..

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

جاءك ذكور فقط ..

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

جاءك إناث فقط ..

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

جعلك الله عقيماً ..

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

زوجة صالحة ..

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

صحة طيبة ..

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

تدبيره ، وكل شيء يفعله وراءه حكمة بالغة لا يعلمها إلا الله ، فالإنسان المؤمن مستسلم لذلك :

((عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[صحيح مسلم عن صهيب]

فكلمة :

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

من جعل الأرض تدور حول الشمس ؟ الله ، لو وقفت لتوقفت الحياة ، لو وقف دورانها حول نفسها لتوقفت الحياة ، لو دارت على محور موازٍ لمستوي الدوران .. هكذا .. هنا نهار إلى الأبد ، مائتان وخمسون درجة فوق الصفر ، مات كل شيء ، وهنا ليل إلى الأبد ، مائتان وخمسون درجة تحت الصفر مات كل شيء ، من جعل المحور مائلاً ؟ من جعل الدورة حول نفسها وحول الشمس ؟ من جعل المدار إهليلجياً ؟ من جعل الشكل البيضوي له بعدان ؛ بعد أدنى وبعد أقصى ، في البعد الأدنى قد تجذب الشمس الأرض ، الله سبحانه وتعالى زاد من سرعتها فنشأ من هذه السرعة قوةً نابذة تكافئ القوة الجاذبة ..

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

من يسوق السحاب ؟ الله سبحانه وتعالى ، من ينزل الأمطار ؟ الله سبحانه وتعالى ، من ينبت النبات ؟ الله سبحانه وتعالى ، من يحرِّك الرياح ؟ الله سبحانه وتعالى ، من يُخَلِّقُ الجنين في بطن أمه ؟ الله

سبحانه وتعالى ، نقطة ماء بعد تسعة أشهر ، كائن ؛ له رأس ، له شعر ، له عينان ، له أنف ، له فم ، يتثاءب ، يعطس ، يتنفس ، يأكل ، الطريق مفتوح ، يتحرَّك ، يستجيب للضوء ، يستجيب للصوت ، فيه كبد ، وبنكرياس ، وفيه صفراء ، فيه أمعاء دقيقة ، فيه أعصاب ، فيه عضلات ، في شرايين ، فيه أوردة ، فيه عظام ، فيه أربطة ، فيه مفاصل ، فيه لسان ، فيه رغامى ، فيه مري ، فيه لسان مزمار ، فيه دماغ ، فيه مخ ، فيه مُخَيْخْ، فيه عمود فقري ، فيه حوض ، فيه عضلات ، تسعة أشهر من يدبر الأمر ؟ الله سبحانه وتعالى ..

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

تكفي هذه الآية ، يدِّبر أمر المخلوقات ؛ الحيوان ، والنبات ، وكل شيء الله عزَّ وجل خلقه يدبر .

مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)

1 ـ معنى الشفع :

الشفع هو الزوج .

2 ـ لا يقع شيءٍ في ملك الله إلا بأمر الله :

أي أن أي شيءٌ في ملك الله لا يستطيع أن يقع على شيءٍ في ملك الله إلا بأمر الله ، شيءٌ ما في ملك الله لا يستطيع أن يصيب شيئاً ما في ملك الله إلا بأمر الله ، هذه معنى آية الكرسي .

(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة : من الآية 255)

العقرب تلدغ ، لا تستطيع العقرب أن تلدغ مخلوقاً ما إلا بأمر الله ، النار تُحْرِق ، لا تستطيع النار أن تحرق شيئاً ما إلا بأمر الله .

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)

إنسان شرير لا يستطيع أن يصل إلى الإنسان إلا من بعد إذن الله سبحانه وتعالى ، فإذا كان الأمر بيد الله فالقضية محلولة ، عليك أن ترضي جهة واحدة ، أما المنافق والمشرك فيجب أن يرضي كل الجهات ، وإرضاء الناس غايةٌ لا تدرك ، لكن المؤمن يرضي الله سبحانه وتعالى ، قال سيدنا هود :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

أيّ إنسان شرير تخافه فهو بيد الله عزَّ وجل ، بملك الله .

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا)

(سورة الحديد : من الآية 22)

هذا هو الإيمان ، فإذا كنت في مستوى هذه الآية فلا تحزن على شيء ، سيدنا الصديق لم يندم على شيءٍ فاته من الدنيا .

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)

إنسان أكرمك فهذا من بعد إذنه ، إنسان سبّب لك متاعب فهذا من بعد إذنه ، إنسان أفسد عليك ، أجبروك على دفع مائة ألف ، فمن بعد إذن الله ، إنسان سبّب لك أن يُكتَب بك ضبط ، فالتسعيرة ليست مضبوطة فمن بعد إذن الله .

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)

إنسان ضايقك من الجيران فمن بعد إذن الله ، إنسان خوَّفك فمن بعد إذن الله ، آخر أكرمك فمن بعد إذن الله، واحد أعطاك عطاء ثميًنا فمن بعد إذن الله .

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)

فهذا هو التوحيد ، الدين كله توحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، وَحِّد تسترح .

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

أي أن هذا أساس الإيمان ، لا يستطيع إنسانٌ ما ؛ مهما كبر شأنه ، مهما كان قوياً ، مهما كان جباراً ، لا يستطيع إنسانٌ ما أن يصل إليك إلا بإذن الله ، كن مع الله ترَ الله معك ..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجب   نا فإن منحنا بالرضا من أحبنا

ولُذ بحمانا و احتم بجنابـنا   لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

3 ـ توكَّل على الذي كلُّ الأمر بيده :

ما مِن حالة أجمل من أن يكون المؤمن لائذاً بحماية الله ، قل هذه الكلمات في السجود : يا رب ليس لي إلا أنت ، لا تتكل على شيء ، لا على علمك ، ولا على مالك ، ولا على شأنك ، من اتكل على شيءٍ

وكله الله إليه ، هو شرك ، إما أن تشرك نفسك مع الله ، وإما أن تشرك مخلوقاً آخر مع الله ، وفي كلتا الحالتين لابدَّ من أن يؤدِّبك الله سبحانه وتعالى ، كطالب متفوق بالهندسة ومقصِّر بالجبر ، قال له : يا رب الهندسة علي ، لكن الجبر عليك ، أنا ضعيف بالجبر ، دخل على الامتحان أخذ بالهندسة صفرا ، في العام القادم قال : يا رب الهندسة والجبر عليك ، من اتكل على شيءٍ أوكله الله إليه .

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)

إذا دخلت على موظف ، ولم يقل لك : اقعد ، من بعد إذنه ، تعرف أنه صاحبك ، قال لك : الآن أريك من هو صاحبك ، أحياناً يبقيك واقفاً خمس دقائق ، لا ينظر إليك ، من بعد إذنه ، حتى هذا الموقف من بعد إذنه ، فأنت كن مع الله ترَ أن الأعداء يخدموك ، اتركه فأقرب الناس يتخلى عنك ، أحياناً تتخلى الزوجة عن زوجها ، تهمله ، تقسو له في الكلام ..

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)

فهذه آية دقيقة .

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

هو الله .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : من الآية 84)

(وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة النحل : من الآية 51)

لا إله غيره ، هذا هو التوحيد ، تجد الإنسان يصلي وهو مشرك ، يصوم وهو مشرك ، يقوم ببعض العبادات وهو مشرك ، والشرك معه خوف ، معه حزن ، معه قلق ، معه ضياع ، معه تشتت ، معه ضيق ، معه أشياء كثيرة ؟

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ)

ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ

هذا الرب هو الذي يستحق العبادة وحده :

ألا يكفي أن الله خالقٌ ؟ ألا يكفي أن الله خالق السماوات والأرض ؟ ألا يكفي أن الله رب كل شيء ؟

ألا يكفي هذا كي تعبدوه ؟ أتعبدون من دون الله ما لا يسمع ولا يبصر ..

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

1 ـ القبر مصير لا مفرّ منه :

اذهب إلى أي مكانٍ شئت ، افعل ما شئت ، لابدَّ من أن ترجع إليه فتحاسب على كل صغيرةٍ وكبيرة ، حينما يوضع الميت في قبره قال بعضهم : إن أصعب ليلة أول ليلة ، يقول الله عزَّ وجل : " عبدي رجعوا وتركوك " ، وضعوه في هذا القبر ، فإذا بالقبر مفتوح عليه المجاري ، فقالوا لابنه : ماذا نفعل؟ قال لهم ، دعوه ، فماذا سنفعل ؟

" رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا يموت " .

ألا يجب أن تعرفه من الآن ؟ المكوث معه أبداً ما من أحد غيره ، الآن معك زوجة ، وولد ، و رفيق ، و صاحب ، و سهرة ، نمضي الوقت ببعض الألعاب ، نلعب النرد ، وبعد ذلك ؟

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

2 ـ لو تمتعت من كلِّ شيء ، ثم ماذا ؟

ذهبت إلى نزهات ، جُبْتَ العالم كله ، يقول لك : أخي سويسرا جميلة جدا ، إسبانيا أجمل من سويسرا، تناقش الناس بجمال البلاد ، ثم وبعد ذلك ؟

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

لو طفت الدنيا بأكملها ، لو طرت في السماء ، لو غصت في البحار..

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

3 ـ لا قيمة للدنيا في الآخرة :

المصير معه ، فالذكاء والعقل يقولون لك : اعرفه قبل فوات الأوان ، اعرفه قبل أن تأتيه صفر اليدين،

لو أن إنساناً أخذ أمواله كلها لبلد وقالوا له : هذه الأموال هنا لا قيمة لها ، نريد عملة محلية ، خسر كل شيء ، والإنسان كذلك إذا ذهب إلى الدار الآخرة ، يا رب أنا عندي خمسة طوابق بأرقى حي ، ليس لها عندنا أي شغل ، عندي ثمانية أولاد ، ثلاثة منهم أطباء ، وأربعة مهندسون ، وواحد طبيب ، فيقال لك : لمْ تعلمهم الدين ، يا رب أنا عملت معملا إنتاجه عالٍ جداً ، وكنت أربح أموالاً طائلة ، المعمل ليس له قيمة هنا ، فكل شيء أنشأه بالدنيا ، ليس له قيمة ، العمل الصالح فقط ، لذلك " الغنى والفقر بعد العرض على الله " ، الغنى غنى العمل ، والفقر فقر العمل .

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(3))

(سورة العصر)

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

والله الذي لا إله إلا هو يجب أن لا يغادر ذهنك موضوع العودة إلى الله فتذكره كل يوم مائة مرة ، وأنت تبيع ، تحلف بالله أنها ليست رابحة معك ..

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

ما قولك ؟ تحلف بالله ، أخي انصحني ، تنصحه بالبضاعة الكاسدة عندك ..

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

تعمل أعمالاً خلاف الأصول ، تأكل مالاً حراماً ..

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

أي عملٍ سوف تحاسب عليه ، صغيراً كان أو كبيراً .

(وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ)

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ

مهما كان العمل صغيراً فستحاسب عليه :

ما أكرم شابٌ شيخاً لسنه إلا سخَّر الله له من يكرمه عند سنه .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

مهما كان العمل صغيراً فستحاسب عليه ، ومهما كان كبيراً تحاسب عليه ، إذاً : ليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يغفر له .

(وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ)

وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ

هؤلاء الكفار لهم ..

(لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ)

قال : ألا يا رُبَّ نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا ، طاعمةٌ ناعمةٌ يوم القيامة ، ألا يا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٌ عاريةٌ يوم القيامة ، ألا يا رب مكرمٍ لنفسه ، وهو لها مهين ، ألا يا رب مهينٍ لنفسه وهو لها مكرم ، البطولة أن تأتي الله سبحانه وتعالى وأنت نظيف ..

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

(وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ{4} هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{5} إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

هذه الآيات نشرحها إن شاء الله في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (03-17): تفسير الآيات 05 – 09

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-10-04

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(5)إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ(6)إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(7)أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ

1 ـ على قارئ القرآن أن يعلم أنّ الذي يتلوه كلام الله وآياته :

من قوله تعالى :(هُوَ)يعلم قارئ القرآن أن الذي يتلوه كلام الله ، خالق السماوات والأرض ، الذي أمره ونهاه ..

2 ـ الشمس والقمر آيتان من آيات الله :

(هو).. من آياته الدالّة على عظمته أنه خلق الشمس ، من آياته الدالّة على عظمته أنه خلق القمر ، فهل فكّرنا في الشمس أو في القمر ؟

رؤية آيات الله بين البصر والبصيرة :

الإنسان يمكن أن يرى الشمس ولا يراها ، وقد لا يرى الشمس وقد يراها ، هناك رؤية عينٍ ، وهناك رؤية قلبٍ ، هناك بصرٌ وهناك بصيرةٌ ، مَن مِنَ البشر اليوم لا يرى الشمس ؟ كل ذي عينين يرى الشمس ، لكن مَن رأى من خلال الشمس عظمة الله سبحانه وتعالى ؟ قِلّةٌ قليلة ..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105)وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس : من الآية 101)

هذه هي الشمس ببُعدِها وضوئها وحرِّها :

الشمس .. بالمناسبة .. أقرب نجمٍ إلينا ، إذا كان النجم ملتهباً وهو منبعٌ ضوئي ، والكوكب مُبَرَّد ، له قشرةٌ باردة ، فأقرب نجمٍ إلينا من دون استثناء هو الشمس ، هذه الشمس التي ترونها متألِّقة في رابعة النهار ، ومع أنها أقرب نجمٍ إلينا يزيد بُعْدُها عن الأرض عن مائة وستة وخمسين مليون كيلو متر ، وهي أقرب نجمٍ إلينا ، لو تخيَّلنا أن طريقاً سالكة إلى الشمس فكم يقطعها قطارٌ يسير بسرعة مائة كيلو متر في الساعة ؟ يقطعها في مائتين وعشر سنين إلى أن يصل إلى الشمس ، كم تقطعها قذيفة مدفع ؟ في سبع سنين ، كم يقطعها الضوء ؟ في ثماني دقائق .

أحبُّ أن أوضِّح لكم بُعْدنا عن الشمس ، في ثماني دقائق يقطع الضوء المسافة بين الأرض والشمس ، مع أن سرعة الضوء ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية ، وأما قذيفة المدفع فتحتاج إذا أُطلِقَت من الأرض إلى سبع سنين كي تصل إلى الشمس ، وأما القطار فيحتاج إلى مائتين وعشر سنين كي يصل إلى الشمس ، هذه المسافة بيننا وبين الشمس ليست بشيء إذا ما قيست بالمسافات الكونيَّة الأخرى ، أي أن بيننا وبين الشمس ثماني دقائق ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة ثلاثة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة .

شيءٌ آخر : أقرب نجمٍ آخر إلى الأرض بعد الشمس هو نجم القُطْب ، بُعده عنَّا أربع سنواتٍ ونصف من السنوات الضوئيَّة ، هذه الشمس مصدر حرارةٍ وضياءٍ للأرض ، من منَّا يصدِّق أن نصيب الأرض من هذه الأشعَّة ، ومن هذه الحرارة ، ومن هذا الضياء واحد على ألفي مليون جزء ، نصيب الكرة الأرضيَّة بأكملها من أشعَّة الشمس ، ومن ضيائها ، ومن نورها ، ومن حرارتها ، ومن طاقتها واحد على ألفين مليون جزء مما تنتجه الشمس لما حولها من الكواكب السيَّارة ، الشمس نجمٌ متألِّق مشتعل .

قد يسأل سائل : كم مضى على تألُّقها ؟ فبعض العلماء يقول : " أكثر من خمسة آلاف مليون سنة " ، وهؤلاء أيضاً يتوقَّعون أن تعيش الشمس متألِّقةً أكثر من خمسة آلاف مليون سنة قادمة ، لقوله تعالى :

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)

(سورة يس : آية 38)

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1))

(سورة التكوير)

لها عُمر ، فهناك سؤال دقيق : ما هي هذه الطاقة التي مضى على تألُّقها خمسة آلاف مليون سنة ، وسوف تستمر خمسة آلاف مليون سنة قادمة ؟ شيء عجيب ، قال بعض العلماء : الشمس فرنٌ ذَرْيّ

فيها غاز الهيدروجين ، فلو أن هذا الغاز أحرقناه لما أنتجت الشمس هذه الطاقة ، ولكن هناك تفجير نَوَويّ لذرَّة الهيدروجين إذْ يتحوَّل عنصر الهيدروجين إلى عنصر الهيليوم ، من هذا التفجُّر النووي تنتج هذه الطاقة التي لا حدود لها ..

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(96))

(سورة الأنعام)

هذه هي الشمس ، من خمسة آلاف مليون سنة ولخمسة آلاف مليون سنة تنتج من الطاقة الشيء الذي لا يُصدَّق .

حرارة سطحها ستة آلاف درجة ، وتصل حرارة الأعماق فيها إلى خمسة عشر مليون درجة ، فلو أن الأرض أُلقِيَت في الشمس لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة ، وكل إنسانٍ على وجه الأرض يتلَّقى من الشمس طاقة تعادل ستة عشر ألف حصان بخاري ، ما هو الحصان البخاري ؟ الاستطاعة بالفيزياء تُقاس بالحصان البخاري ، عندما صنعوا القطار البخاري وضعوا في الطرف المقابل أحصنة ، فكانت هذه الأحصنة تشدُّ القطار إلى الوراء بكل طاقتها ، فحيثما وقف القطار أي أن القوة الدافعة للمحرِّك تكافئ قوة الحصان الدافعة في اتجاه معاكس، قالوا : قوة هذا المحرِّك يعادل عشر أحصنة ، هذا أساسها ، فالآن صارت تحسب القوى بالأحصنة فيقال : هذه السيَّارة اثنا عشر حصاناً ، خمسة عشر حصاناً ، فكل إنسان يتلَّقى من الشمس طاقة واستطاعة تُعادِل ستة عشر ألف حصان بخاري على وجه الأرض ، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى قال :

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت : من الآية 37)

من منَّا يصدِّق أن ألسنة اللهب التي تُرى إذا كان للشمس كسوفٌ كامل يزيد طولها على مليون كيلو متر ، فربنا عزَّ وجل قال :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً)

من منَّا يصدِّق أن الشمس تفقد كل يوم ثلاثمائة وستين ألف مليون طن من كتلتها ، كل يوم ، وتفقد في الثانية الواحدة أربعة ملايين وستمائة ألف طن من كتلتها ، هذه بعض الحقائق عن الشمس ..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

لو أنَّ إنساناً يزن على سطح الأرض خمسة وستيّن كيلو غراما ، ووقف على سطح الشمس .. فرضاً.. لكان وزنه ألف وسبعمائة كيلو غرام ، هو هو الإنسان ، لقوَّة جذبها ، لأن كتلة الشمس أكبرُ من كتلة الأرض بثلاثٍ وثلاثين ألف مرَّة ، لكن حجم الشمس أكبر من حجم الأرض بمليون وثلاثة وثلاثين ألف مرَّة ، والكتلة غير الحجم ، أشياء مثيرة وعجيبة ودقيقة عن الشمس ، الشمس تجري في كل ثانية

عشرين كيلو مترا ، الأرض تدور حول نفسها ، والأرض تدور حول الشمس ، والشمس تجري ، والمجرَّة تجري ، أربع حركات ؛ الأرض حول نفسها ، والأرض حول الشمس ، والشمس تجري باتجاه قلب النسر وهو نجمٌ آخر .. النسر الواقع .. والمجرَّة التي نحن فيها كلُّها تجري ، سرعة المجرَّة مائتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية الواحدة ، أي أن هذه سرعة قريبة من الضوء .

نحن في حركةٍ مذهلة ، سرعة المجرَّة ، وسرعة الشمس باتجاه النسر الواقع عشرون كيلو متر بالثانية الواحدة ، وسرعة الأرض حول الشمس ثلاثون كيلو متر في الثانية الواحدة ، وسرعتها حول نفسها ألف وستمائة كيلو متر في الساعة ، ومع هذا نشعر أن الأرض مستقرَّة ، أي استقرارٍ هذا ؟ ..

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل : من الآية 61)

من آيات الله الكبيرة ، حركة حول النفس ، وحركة حول الشمس ، والشمس متحرِّكة ، والمجرَّة متحرِّكة ، ونحن نحسُّ أن الأرض مستقرَّة ، ونشيد الأبنيَّة ، ولا يتحرَّك في البناء شيء ..

من نجوم المجموعة الشمسية :

أقرب نجمٍ إلى الشمس عُطارد ، تبعد عنه ثلاث دقائق ، وأبعد نجمٍ في المجموعة الشمسيَّة هو نجم بلوتو يبعد عن الشمس خمس ساعات ضوئيَّة ، الشمس تُرى من هذا النجم البعيد كنجمٍ صغيرٍ صغيرٍ في السماء الدُنيا ، والشمس تُرى من عطارد كقرصٍ كبيرٍ كبير ، ونحن في الأرض نراها بحجمٍ معتدل..

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(96))

(سورة الأنعام)

عطارد بفعل قربه من الشمس ترتفع حرارته عن ثلاثمائة وخمسين درجة مئويَّة ، الحياة عليه مستحيلة، وبلوتو الذي يبعد عن الشمس خمس ساعات تنخفض فيه الحرارة إلى مائتين وخمسين درجة تحت الصفر ، والحياة عليه مستحيلة ، فهل من باب المصادفة أن الحرارة على وجه الأرض معتدلة وتوافق طبيعة الإنسان .

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(96))

(سورة الأنعام)

هذا من تقدير الله عزَّ وجل ، هذا نجمٌ آخر من المجموعة الشمسيَّة يبعُد عن الشمس خمس ساعات ضوئيَّة ، حرارته مائتان وخمسون تحت الصفر مع أنه يتلَّقى أشعَّة الشمس ، وهذا عطارد حرارته ثلاثمائة وخمسون فوق الصفر ، الحياة على هذين الكوكبين مستحيلة ، لذلك ربنا عزَّ جل قال :

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(5))

(سورة الرحمن)

أي أن هناك يد عليمة ، حكيمة ، خبيرة عَيَّنت هذه المسافة بيننا وبين الشمس ، فجعلت الحياة على سطح الأرض معقولة ، ومحتملة ، ومناسبة لطبيعة أجسامنا .

لو أننا أحرقنا هيدروجين الشمس ، أو أحرقناه عن طريق التفاعل النووي ، أو تفجير عنصر الهيدروجين ، التفجير النووي في الشمس يعطي طاقة تعادل مليون ضعف عن الطاقة الناتجة عن إحراق الهيدروجين ، والوقود السائل نحرقه في المحرِّك عن طريق المكابس ، يُنتج طاقة ، لو تخيلنا أنه بالإمكان بدل أن نحرقه أن نفجِّره نووياً لنتج عن هذه الطاقة مليون ضعف ، وهذا ما يحدث في الشمس ، فربنا عزَّ وجل قال :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

الشمس مصدر كبير للضوء ، أشعَّة الشمس تُحرق ، والآن هناك سخَّانات تعمل بأشعَّة الشمس ، عبارة عن مرآة مُقعَّرة مكان الإناء في محرقها ، وربنا عزَّ وجل قال :

(وَالْقَمَرَ نُورًا)

من الآيات المتعلّقة بالشمس :

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة لقمان : من الآية 29)

هناك توقيت ، لقوله تعالى :

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1))

فنحن نحيا ، والشمس مِلْءَ بصرنا ، هذه الشمس أحد الأدلّة الكُبرى على عظمة الله سبحانه وتعالى ، لذلك الإنسان مكلّف أن يفكّر في الشمس ، ما مصير الأرض لو انطفأت الشمس ؟ تصبح قبراً جليدياً للبشر ، ما حقيقة الأرض من دون الشمس ؟ لا حياة على وجه الأرض .

وَالْقَمَرَ نُورًا

أما القمر فالله سبحانه وتعالى جعله أيضاً آية لنا ..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

1 ـ هذا هو القمر نورًا وضياءً :

القمر عاكس لأشعَّة الشمس ، لذلك تجَلَّت حكمة الله سبحانه وتعالى فيه ، فتربة القمر تربةٌ بلوريَّة مهمَّتها الكبرى عكس أشعَّة الشمس على سطحه إلى الأرض ..

(وَالْقَمَرَ نُورًا)

أشعَّة الشمس حادَّة ، أشعَّة القمر لطيفة ، القمر يبدو في الليل ، وفي الليل له جوٌ لطيف .

2 ـ دوران القمر تقويم لشهور العام :

القمر لحكمةٍ بالغة يدور حول نفسه مرَّةً في الشهر ، ويدور حول الأرض مرَّةً في الشهر .. الأرض هكذا والقمر هكذا ، القمر يدور هكذا .. إذاً : وجهٌ واحدٌ يواجهنا طوال أيام الشهر ، لأنه يدور حول نفسه مرَّة وحول الأرض مرَّة ، من جعل هذا التوافق في دورته حول نفسه وحول الأرض ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، لذلك ما يُرى على سطح القمر نراه دائماً ، فلو أن رائد الفضاء ذهب إلى وجه القمر الآخر لما رأى الأرض إطلاقاً ، لأن وجهاً واحداً يواجه الأرض في دوران القمر حول الأرض .

الأرض تدور ، والقمر يتحرَّك في اليوم الواحد ثلاث عشرة درجة ، لذلك حينما يكون القمر بدراً تراه يُشْرِقُ مع غروب الشمس من الشرق ، فإنْ شئتَ اضبط الساعة في أيَّام الصيف مثلاً ، أشرقَ على الساعة الثامنة ، في اليوم التالي يتأخَّر شروقه خمسين دقيقة ، أي أن القمرَ تحرَّك في مداره حول الأرض ثلاث عشرة درجة ، وهكذا ، لكن كيف يبدو هذا القمر كما قال الله عزَّ وجل :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ)

أي أن الشمس هكذا والقمر هكذا ، الأرض هنا ، إن كانت الأرض هنا والشمس في الوسط ، والقمر هنا ، فأهل الأرض يرون القمر بدراً كاملاً ، فإذا سار القمر هكذا ماذا يبدو لأهل الأرض ؟ يبدو لهم نصف وجه القمر الذي يرونه ، فإذا صار القمر بين الأرض والشمس صار محاقاً ، تقدير القمر منازل شيءٌ معجز ، أي أن الله سبحانه وتعالى جعله تقويماً لأهل الأرض ، تقويماً يراه كل الناس على اختلاف لغاتهم ، وثقافاتهم ، ومللهم ، ونِحَلِهم ، وأراضيهم ، شمال الأرض أو جنوبها ، شرقها أو غربها ، في أي مكان يُرى القمر على شكل منازل ، في اليوم الأول ، والثاني ، والثالث ... والرابع عشر ، والخامس عشر ، وهكذا ..

(وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

3 ـ بين القمر والأرض قصة :

القمر له أشياء دقيقة جداً ، من هذه الأشياء أن بعده عنَّا ثلاثمائة وستون ألف كيلو متر ، هذا أقرب كوكب إلى الأرض ، حتى إن علماء الفلك سمَّوه : تابعاً ، لشدَّة لصوقه بالأرض ، مركبة الفضاء قطعت المسافة في ثلاثة أيَّام بسرعة أربعين ألف كيلو متر ، لكن الضوء يقطع المسافة بين القمر والأرض في ثانيةٍ واحدة فقط ، في ثانيةٍ واحدة تُقْطَع المسافة بين الأرض والقمر .

القمر كتلة والأرض كتلة بينهما تجاذب ، الأرض تجذب القمر والقمر يجذب الأرض ، الأرض تجذب القمر ولولا جذبها له لانطلق في مسارٍ مستقيم بعيداً بعيداً عن الأرض ، لكن جذب كتلة الأرض للقمر تجعله يدور حولها ، ولولا جذب الأرض للقمر لدارت الأرض حول نفسها دورةً في كل أربع ساعات ، صار النهار ساعتين والليل ساعتين ، مكابح ، غير معقول أن النهار ساعتان ! استيقظ من نومه ، صلى الصبح ، لبس ، ذهب إلى العمل فأذَّن المغرب ، لم يفتح المحل بعد ، رفع الغلق فأذَّن المغرب ، هل يرجع إلى البيت ؟ غير معقول ، جاء إلى البيت ليتعشَّى ، تعشَّى وجلس مع أولاده فذهب لينام فرأى الشمس أشرقت ، غير معقول ، لولا أن القمر يخفف من سرعة الأرض لصار النهار ساعتين والليل ساعتين ، لكن جذب القمر للأرض يجعل دورة الأرض حول نفسها في أربع وعشرين ساعة ، هذا معقول ، والإنسان دخل إلى بيته ، وارتاح لا يزال معه مسافة طويلة ، ووقتٌ طويل كي يستريح ، ذهب إلى عمله في داوم لثماني ساعات فتعب ، جاء إلى البيت وتناول طعام الغداء ، رجع إلى عمله ، وعاد بعد المغرب ، فتوقيت النهار والليل اثنا عشر ساعة شيءٌ دقيق جداً ..

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(96))

(سورة الأنعام)

بين القمر والأرض تجاذب ، العلماء قدَّروه بكبل فولاذي قطره خمسون كيلو مترا ، لكن الله لطيف ، جذب الأرض للقمر ليس عن طريق كبل فولاذي بل قوَّةٌ جاذبة لا تراها ، هناك جذب ، والدليل : المد والجزر ، البحر يرتفع عشرين متراً حينما ينجذب إلى القمر ، وهناك بحوثٌ حول أن اليابسة نفسها ترتفع سنتيمترات بفعل جذب القمر ، هناك علاقةٌ وطيدة بين الأرض والقمر .

قالوا : لو أن القمر اقترب من الأرض إلى نصف المسافة فقد يظن الإنسان أنه أجمل فيصبح ذو حجمٍ أكبر ، ويصبح ضوءه أشد ، لا ، لو أن القمر اقترب من الأرض إلى نصف المسافة لتضاعف المدُّ والجزر أربعة وستين ضعفاً ، وأربعة وستون ضرب عشرين مترا ، حوالي ألف ومائتا متر ، أي أن كل المدن الساحليَّة وعددٌ كبيرٌ جداً من مدن الجبال تصبح مغمورةً تحت سطح البحر كل يوم مرَّتين ، هذا مستحيل .

إذاً : وضع القمر في هذا المكان شيء معجز ، المد والجزر معقول بعشرين متراً ، هذا يعين على الملاحة في الموانئ ، وله فوائد كبيرة جداً ، لكن لو المسافة اقتربت أكثر لتضاعف المد والجزر أربعة وستين ضعفاً ، وهذا مما يجعل الحياة على سواحل البحار مستحيلة .

مثلاً : في لبنان إلى أن تصل إلى ظهر البيدر حتى تنجو من المدِّ والجزر ، مستحيل ، كل هذه المدن ، وهذه الأماكن تصبح تحت البحر مثلاً ، هذا لو أن القمر اقترب من الأرض لغرق الناس ، وأُذكِّركم بقوله تعالى :

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(5))

(سورة الرحمن)

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(49))

(سورة القمر)

ربنا عزَّ وجل قال :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

القمر كتلته صغيرة ، فلو أن إنساناً وزنه ستون كيلوا وصل إلى القمر ، ووَزن نفسه لوجد أن وزنه أصبح عشرة كيلوات فقط ، كل شيء على القمر يخف وزنه ستة أمثال ، الذي وزنه ستون في الأرض وزنه هناك عشرة كيلو غرامات ، لا هواء ولا ماء ، إذاً : لا صوت ، لو أن مدفعاً أُطلِقَ على سطح القمر لما سمع له أحدٌ صوتاً إطلاقاً ، لا هواء ولا ماء ، إذاً لا توجد عوامل حتّ للتربة ، القمر هو هو منذ أن خُلِقَ وحتى الآن ، أما الأرض فحصل فيها تبدُّل كثير ؛ في مجاري الأنهار ، في سواحل البحار، في أشياء كثيرة .

شيءٌ آخر : هناك علماء رصدوا وجه القمر فعدّوا فيه عشرة آلاف وادي ، يوجد وديان ، وجبال ، و سهول على سطح القمر ، الله عزَّ وجل جعل القمر أحد الآيات الدَّالة على عظمة الله سبحانه وتعالى ، لكن هذه اللام .. لام التعليل ..

(لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ

كأن الله عزَّ وجل جعل القمر خصيصاً لنعلم عدد السنين والحساب ، ودورة القمر حول الأرض أساس السنة القمريّة ، بينما دورة الأرض حول الشمس أساس السنة الشمسيَّة ، فالشهر الشمسي حكماً ، أما دورتها حول الشمس هي السنة ، وأما السنة القمريَّة فهي سنة حكميَّة ، لكن الأصل دورة القمر حول الأرض دورة ، أي يُبنى من دورة القمر حول الأرض السنة القمريَّة ، ويُبنى على دورة الأرض حول

الشمس السنة الشمسيَّة ، ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول :

(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ)

مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ

أي أن حجم القمر ، حجم الشمس ، البُعد بينهما ، تربة القمر ، لا هواء ولا ماء على القمر ، وتجاذب الأرض مع القمر ، المد ، الجزر ، طاقة الشمس ، حجم الشمس ، لهيب الشمس ، ما تنتجه من طاقة ، تبدُّل هذه الطاقة ..

(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ)

أي لو أنه حصل تبدّل طفيف في المسافات ، في الأبعاد ، في الطاقة ، في الحجوم ، في التجاذب لاختلَّ نظام الأرض ، لو أن الشمس اقتربت أكثر لاحترق من عليها .. ثلاثمائة وخمسون درجة ، وهذا غير معقول مثل كوكب عطارد .. لو ابتعدت مائتين وخمسين تحت الصفر ..

(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ)

معنى بالحق أي أن هذا الوضع السليم ، هذا الوضع الحكيم ، هذا الوضع الذي لو بُدِّل لفسد نظام الأرض ، هذا معنى بالحق ..

(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

هذه الآيات الكونية لا يعقلها إلا العالِمون :

أي أن هذه الآيات من أجل ماذا ؟ القمر لِمَ خلقه الله عزَّ وجل ؟ لشيءٍ واحد هو أن نعرف الله من خلاله ، لقومٍ يعلمون عن الله شيئاً ، الله لا تُدركه الأبصار ، ولكنَّ العقول تُدركه عن طريق الآيات ، أصبح طريق معرفة الله عزَّ وجل هو التفكُّر بآيات الله عزَّ وجل ، عن طريق هذه الآيات نتعرَّف إلى الله عزَّ وجل ، الله سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ)

(سورة النحل : من الآية 104)

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

صار الطريق واحدا لابدَّ من سلوكه ، وهو أن تنظر في القمر لترى الله من خلاله ، أن تنظر في الشمس لترى الله من خلالها ، وآياتٌ أخرى تأتي بعد هذه الآيات :

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

معنى : إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

المعنى الأول :

من معاني هذه الآية : كيف أن الليل يعقب النهار ، وكيف أن النهار يعقب الليل ، ليل ونهار ، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

إن اختلاف الليل والنهار طولاً ، في الصيف يصبح النهار طويلاً ، وفي الشتاء يصبح قصيراً .

المعنى الثالث :

إن اختلاف طبيعة الليل والنهار ، النهار فيه ضياء ، الليل فيه ظلام ، النهار فيه حركة ونشاط ، الليل فيه سكون وراحة ..

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

في اختلاف طبيعتهما ..

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا(10)وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا(11))

(سورة النبأ)

اختلاف طبيعتهما ، واختلاف طولهما ، وتعاقبهما كلٌ بعد الآخر هذه أيضاً من آيات الله عزَّ وجل . مَنْ خلق الليل والنهار ؟ الله سبحانه وتعالى ، كيف ؟ بدوران الأرض حول نفسها ، لو أن هذه الأرض وقفت عن الدوران لألغي الليل والنهار ، صار وجهٌ من وجوهها نهاراً إلى الأبد ، ووجهٌ آخر ليلاً إلى الأبد ، فالوجه الذي يقابل الشمس مائتان وخمسون درجة فوق الصفر للأبد ، والوجه الذي لا يقابل الشمس حرارته مائتان وخمسون درجة تحت الصفر للأبد ، توقَّفت الحياة ، إذاً : الليل والنهار آيتان من آيات الله ، لأن الأرض تدور حول نفسها .

بهذه الطريقة يكون الليل والنهار متعاقبين :

لو كان محورها .. هكذا ، ودورانها هكذا ، والشمس هنا .. أيضاً مع أنها تدور لانعدم الليل والنهار ، نصف الكرة الذي يدور هكذا ، والشمس من هنا نهارٌ إلى الأبد ، ونصف الكرة الثاني ليلٌ إلى الأبد ،

لتوقَّفت الحياة أيضاً على سطح الأرض ، إذاً لا يكفي أن تدور ، بل يجب أن تدور على محورٍ ليس موافقاً لمستوى الدوران من أجل أن يكون هناك ليل ونهار متعاقبان ، ولو أن الأرض وقفت يوجد ليل ونهار ، ولكنَّهما غير متعاقبين ، شيء دقيق جداً ، لو أن الأرض توقَّفت عن الدوران فهنا نهار ، وهنا ليل ، والشمس من هنا ، لكن هذا الليل والنهار ليسا متعاقبين ، لو أن الأرض دارت على محورٍ موازٍ لمحور الدوران لكان هناك ليل ونهار ، لكنَّهما ليسا متعاقبين ، أما الآية :

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

أي أن في تعاقب الليل والنهار ، ولا يتعاقب النهار والليل إلا إذا كان المحور .. هكذا .. لو أنه هكذا ، عموديٌّ على مستوي الدوران ، والشمس هكذا ، الأرض تدور هكذا ، لصارت هذه المنطقة صيفاً إلى الأبد ، هذه ربيع إلى الأبد ، هذه شتاء إلى الأبد ، الأرض هكذا تأتيها أشعَّة الشمس عموديَّة في خطِّ الاستواء ومائلة في القسمين الشمالي والجنوبي ، إذاً : لأصبحت الفصول ثابتة في كل بقعة ، هذا المكان أمطارٌ وثلوج إلى الأبد ، وهنا شمسٌ محرقة إلى الأبد ، وهنا ربيعٌ دائم ، وهنا خريفٌ دائم ، هذا شيء مستحيل .

كيف تنبت المزروعات ؟ التفاح يحتاج إلى برد ، تقطفه في الصيف ، توجد خضراوات تحتاج إلى حر ، فلولا تعاقب الحرّ والقرّ لما نبت النبات ، يأتي الثلج فيميت الأحياء الضارَّة ، ويأتي الحر فينضج الفاكهة ، ويعطيها طعمها الحلو ..

ولو أن الأرض دارت حول نفسها على محور عمودي لثبتت الفصول ، ليس في الأرض أقوات ، كل منطقة لا يمكن أن تُنْتِج النبات ، حر دائم يميت النبات ، برد دائم لا يُنْبِت النبات ، الله سبحانه وتعالى جعل محور الأرض مائلاً سبعاً وعشرين درجة ، بهذا الميل تأتي أشعَّة الشمس عموديَّةً إلى نصف الكرة الشمالي ، هنا صيف ، فإذا دارت الأرض حول الشمس .. هكذا .. جاءت الشمس عموديَّةً على نصف الكرة الجنوبي ، لذلك هناك تبدُّل مستمر بين الصيف والشتاء في نصف الكرة الشمالي والجنوبي.

الآن إذا ركب إنسان طائرة من شمال أمريكا إلى جنوبها ، يجد في الشمال درجة الحرارة أربعين لا تُحتمل ، الناس في البحار يسبحون ، ينتقل إلى البرازيل فيجد هناك أربعة أمتار من الثلج وعواصف وأعاصير ، في اليوم نفسه يمكن أن تركب طائرة من أمريكا الشماليَّة إلى الجنوبيَّة في يوم واحد ترى الحرارة هنا أربعين فوق الصفر ، وهنا خمسًا تحت الصفر ، إذاً : الآية العظيمة :

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

أي في تعاقب الليل والنهار ، تعاقب الليل والنهار آية ، وميل محور الأرض آية ..

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الكونُ كلّه بسماواته وأرضه آيةٌ :

في السماوات الشمس ، في السماوات القمر ، في السماوات نجم القطب ، في السماوات المجرَّة .. درب التبَّانة .. في السماوات المجرَّات ، في السماوات الهواء ، النيازك ، الشُهُب ، المذنَّبات ..

(وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الجبال ، الأغوار ، السهول ، الصحارى ، البحار ، الينابيع ، الأنهار ، اكتشفوا الآن أن في مصر نهراً بكثافة نهر النيل يسير في غربي مصر تحت الأرض ويصبُّ في البحر ، الآن اكتشفوه ، اكتشفوا أن ليبيا تقع فوق بحرٍ من المياه العذبة ..

(وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذه باطن الأرض فيها خيرات لا يعلمها إلا الله ..

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى(6))

(سورة طه)

الآن البحث الجاد عن الماء العذب ، فكلّما كان الإنسان جادًّا في البحث وجد كمّياتٍ خياليَّة من الماء العذب تحت سطح الأرض مُخَزَّنًا لهذه الأيَّام .. أيام الجفاف السطحي .. وأيام كثرة الطلب على الغذاء الأرضي

.

إذاً :

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

الحيوانات آية ، الزواحف ، الفقريَّات ، الثدييات ، الجراثيم ، العصيّات ، الفيروسات ، البكتيريا ، ديدان الأرض ، والحيوانات الكبيرة ، الحوت الأزرق وزنه مائة وثلاثون طناً ، والفيل ، والكركدن ، وحيد القرن ، الضخم ، والصغير ، والذي يُرى ، والذي لا يُرى ، والذي في خدمة الإنسان مذلَّل ، والمستوحِش ، والمتوحِّش هذا كلُّه آياتٌ للإنسان..

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

1 ـ هذا هو الإنسان المُعرِض عن الله وآياتِه :

والآن سيصف لنا ربنا عزَّ وجل إنساناً أعرض عن هذه الآيات ، ترك هذه الآيات ، قال : هذه لا تعنيني ، لا شأن لي بها ، لا يُجْدِي البحث فيها ، تركها وراء ظهره ، ماذا فعل ؟ قال :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا)

لا يعلّق أية أهميَّةٍ على ما بعد الموت ، لا يقيم وزناً لساعة اللقاء ، لا يأبه للموت ، لا يفكّر في الآخرة إطلاقاً ، لا يرجو رحمة الله ، لا يرجو وعده بالجنَّة ، لا يخشى وعيده بالنار ..

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا)

هذا الموضوع يقول لك : لا يعنيني ، هذا الموضوع خارج اهتمامي .

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

2 - المعرض عن الله راض بالدنيا مطمئنٌّ بها :

رضي أن يكون دخله وفيراً ، وصحَّته طيِّبة ، وله زوجة تروق له، وله أولادٌ يسيِّرُهُم كما يشتهي ، كما هو ، وله شأنٌ اجتماعي يعيش به ..

(وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا)

أي أن دخلهم الكبير طمأنهم ، يقول لك : أمَّنَّا مستقبلنا ، قال واحد : يوجد عندي مال لا تأكله النيران ، أكلته النيران ، وأمضى بقيَّة حياته متسوِّلاً ، هكذا قال : لا تأكله النيران ..

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا)

لا يريدون ، تدعوه إلى الدين يُعْرِض ، تغريه بمجلس العلم يقول : ليس عندي وقت ، تخوِّفه من الموت فيقول لك : من هنا إلى يوم الله يفرجها الله ، ضع رأسك مع الرؤوس وقل : يا قطّاع الرؤوس ، تقول له : الله عزَّ وجل قال ، يقول لك : العلم قال غير ذلك ، صار أخونا طرحه علميٌّ :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

جعلها منتهى أمله ..

((مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا كُتِبَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ))

[سنن ابن ماجة عن عثمان بن عفّان]

((أوحى ربُّك إلى الدنيا أنه من خدمني فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه))

((الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمر))

[ورد في الأثر]

((وعزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلِّطنَّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريَّة ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي))

[ورد في الأثر]

((لي عليكَ فريضة ، ولك عليَّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك))

[ورد في الأثر]

((أنت تريد ، وأنا أريد ، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا)

3 ـ المعرض عن الله لم يتفكر في آيات الله الكونية :

لأنه لم يفكّر في الشمس ، لم ير عظمة الله من خلال الشمس ، لم يفكّر في القمر ، لكنه بحث عن يوم القمر لكي يتنزّه فقط ، علاقته مع القمر علاقة المنتفع الخسيس لا علاقة العالِم الرشيد ، عَن قَتَادَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ :

((هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا ، وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا))

[أبو داود]

خير ، لكن رشاد ، دليلنا إلى الله عزّ وجل .

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس : من الآية 101)

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا)

أمنان وخوفان ،

((من خافني في الدنيا أمّنته يوم أجمع عبادي ، ومن أمِنَني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي))

[ورد في الأثر]

أي من حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً ، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً حوسِب يوم القيامة حساباً عسيراً ، فإذا مدحت هذا الإنسان ، وكان مدْحه يُغضِب الله عزَّ وجل ، صديق فاجر تمدحه أمام صديق ثانٍ ، هذا يغضب الله .

(وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

عن هذه الآيات ، عن الشمس والقمر ، والليل والنهار ، واختلاف الليل والنهار ..

(أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

1 ـ هذا هو مصير ذاك المُعرض وأمثاله :

هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا ، هؤلاء الذين كانت الدنيا مبلغ علمهم ، منتهى طموحهم ، منتهى آمالهم ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، جعل الدنيا أكبر همِّه ومبلغ علمه ، في الدنيا خبرته عالية جداً ، في الآخرة .. صفر .. لا يفقه شيئاً ، قال : هؤلاء الذين انتهت آمالهم في الدنيا جعلوها منتهى آمالهم ، أقصى طموحاتهم هؤلاء الذين :

(وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا)

عن الشمس والقمر ، والنجوم ، والليل والنهار ، والجبال والصحارى ، والوديان ، والأمطار والثلوج ، وعن آيات الكتاب أيضاً ، هناك آياتٌ كونيَّة ، وهناك آياتٌ توجيهيَّة ، عن هذه وتلك ، قال :

(أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

2 ـ الغافل عن الله لا يكسب إلا السيئة :

معنى ذلك إذا غفل الإنسان عن الله سبحانه وتعالى لابدَّ من أن يكسب السيئة ..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(9)دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

ترابط الآيات ودقة تنسيقها :

ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)

(سورة هود من الآية 1)

معنى(أحكمت)أي أن هناك ترابطا منطقيا بين آيات السورة الواحدة ، فلمَّا قال ربنا عزَّ وجل :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

أي أن طريق معرفة الله عن طريق الآيات ..

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

أي تُشْرِقُ في نفوسهم أنوار الله سبحانه وتعالى ، لو أن الإنسان لم يفكِّر في هذه الآيات هذا حاله :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

لأنهم غفلوا عن هذه الآيات انتهت بهم طموحاتهم إلى الحياة الدنيا ، دخله كبير إذاً هو مبسوط ، سرور أبله ، لأن الموت سوف يكون عليه كالصاعقة ، ربنا عزَّ وجل قال :

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(45))

(سورة الطور)

فهذا الاطمئنان اطمئنان الأغبياء ، اطمئنان أبله ، عندما يرضى الإنسان بالدنيا ، يحقِّق دخلاً كبيراً ، يعمل صفقة رابحة ، يشتري بيتاً فخماً ، يحقِّق كل آماله الدنيويَّة ، يظن أن كل شيء انتهى ، لا ، لم ينته شيء ، الخطر الكبير في الطريق ، عند ساعة اللقاء ، لذلك ساعة اللقاء كالصاعقة على أهل الدنيا ، هناك أشخاصٌ يكرهون أي شيءٍ يتصل بالموت ، أي أنه يكره سماع القرآن ، لأن القرآن في ذهنه مرتبطٌ بالموتى ، مات إنسان ، القارئ يقرأ له القرآن ، يكره نبات الآس ، لأنه يوضع على القبور ، وكل شيء متعلِّق بالموت يخاف منه ، يقول لك : تشاءمت ، هذا الحديث أوقفه وانتهِ منه ، لأنه مهتم بالدنيا فقط ، فإذا جاء الموت كان كالصاعقة ، فالإنسان إذا اطمأنَّ في الدنيا يكون اطمئنانه أبله ، اطمئنان الأغبياء ، اطمئنان الحمقى ، لكن العاقل لا يطمئن إلا إذا أطاع الله سبحانه وتعالى ، عندما يطيع الله طاعة تامَّة شعر بطمأنينة لا يعلمها إلا من ذاقها ، قال الله عزَّ وجل :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

هناك ترابط دقيق ، الذي يغفل عن التفكُّر في هذه الآيات سوف لا يرجو لقاء الله أولاً ، وسوف يرضى بالحياة الدنيا ، وسوف يطمئن لها ، ثم يأتيه الموت كالصاعقة ..

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(45))

(سورة الطور)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (04-17): تفسير الآيات 9 – 11
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-10-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكيرٌ بما سبق :

في الدرس الماضي وصلنا بتوفيق الله إلى قوله تعالى :

(إنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(7)أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

التذكير الأول : إنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا

((فَالنَّاسُ رَجُلَانِ : بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسُ))

[من سنن الترمذي عن ابن عمر]

هؤلاء :

(الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا)

كانت أكبر همِّهم ، ومبلغ علمهم ، ومنتهى طموحاتهم ، واستغنوا عن رحمة الله ، وأداروا ظهرهم للقرآن ، وجعلوا ما بعد الموت خارج اهتمامهم .

التذكير الثاني : مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

هؤلاء كما قال الله عنهم :

(مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

لكن الذي آمنوا لهم حالٌ أخرى ، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(9)دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

التذكير الثالث : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِم

فالإيمان عمل ، هذا الذي يقول لك : أنا مؤمن ، يجب أن تقول له : متى آمنت ؟ كيف آمنت ؟ ما الدليل على وجود الله ؟ ما الدليل على ربوبيَّته ؟ ما الدليل على ألوهيَّته ؟ متى آمنت ؟ هل خصصت وقتاً كل يوم كي تؤمن ؟ هل جلست مع نفسك تتأمل في ملكوت السماوات والأرض؟ أمَّا أن يسمع الإنسان شيئاً فيقوله كما سمعه هذا لا يسمى إيماناً ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

الإنسان له أن يدَّعي أنه مؤمن ، هذه بيده ، كلمة يقولها : أنا مؤمن ، لكن هل تظن أن الله سبحانه وتعالى سيترك هذا الإنسان يدَّعي أنه مؤمن ، ولا يضعه في مواقف معيَّنة تكشف حقيقته ، فربنا عزَّ وجل يقول :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

هؤلاء الذي عرفوا الله سبحانه وتعالى ، هؤلاء الذين آمنوا به من خلال آياته ، هؤلاء الذين فكروا في ملكوت السماوات والأرض ، هؤلاء الذي ذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، هؤلاء الذين تعرَّفوا إلى الله في الرخاء ، هؤلاء الذين بَهَرَتْهُم عظمتُه ، هؤلاء الذين ملأت آياتُه نفوسَهم ، هؤلاء الذين آمنوا، من لوازم الإيمان العمل الصالح ، الإيمان دعوى برهانُه العمل الصالح ..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أي أنه عرف أن له رباً بيده كل شيء ، إليه مرجع كل شيء ، فلا حركة ، ولا سكنة ، ولا صغيرة ، ولا كبيرة ..

(مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ)

التذكير الرابع : مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ

الأشياء كلها مُعَطَّلَة إلى أن يشاء الله ، لا تأخذُ الأشياء خصائصها ولا فاعليتها إلا إذا شاء الله .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

هذه الكلمة فسَّرها المفسِّرون تفسيراتٍ شتَّى ، بعضهم قال : ألم يقل الله قبل قليل :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(7)أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(8)إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

إلى مأواهم ، وهو الجنة ، أي إيمانهم وعملهم الصالح يهديهم إلى الجنة ، هذا معنى .

وهناك معنى آخر ، المعنى الآخر مأخوذٌ من معنى الإيمان ، الإيمان وجهةٌ إلى الله سبحانه وتعالى ، فما دام الإنسان متجهاً إلى الله سبحانه وتعالى أي أنه في صلة ، وتعريف الصلاة كما عرَّفها النبي عليه الصلاة والسلام :

((الصّلاةُ نُورٌ))

[مسلم عن أبي مالك الأشعري]

كل إنسانٍ يصلي صلاةً صحيحة يقذف الله في قلبه نوره ، فالصلاة نور ، وبالنور ترى الخير خيراً والشر شراً ، إذاً : المصلي مستنير ، والمؤمن الذي آمن بالله ، وعمل صالحاً فأقبل عليه ، بإيمانك به عرفته ، بعملك الصالح تقرَّبْتَ إليه ، مثلاً أنت في عطشٍ شديد ، عرفت النبع وذهبت إليه ، لا ترتوي إلا إذا عرفت النبع أولاً ، وذهبت إليه ثانياً ، كذلك آمنت بالله أولاً من خلال آياته الدالة على عظمته ، ثم تقربت إليه بالعمل الصالح ، فإذا آمنت بالله أولاً ، وعَمِلْتَ الأعمال الصالحة ثانياً ، هداك الله إليه .

بعضهم قال : إلى جنته .

وبعضهم قال : أنت حينما آمنت به ، وعملت العمل الصالح تقرَّبت إليه ، بمعنى اتصلت به ، وطبيعة الصلة نور ، وبهذا النور رأيت الخير خيراً فاتبعته ، ورأيت الباطل باطلاً فاجتنبته .

نقف عند هذه النقطة قليلاً ، هذا الذي يسرق ، وهو في البيت يقتل ، يقبض عليه فيعدم ، حينما أقدَم على هذا العمل ماذا كان يرى ؟ كان يرى أن السرقة مَغْنَمٌ كبير ، وأنه بجهدٍ يسير يُحَصِّل مالاً كبيراً ، كان في عمى وقتها عن النتائج الأليمة ، عن إعدامه ، عن شنقه أمام الناس ، فالقضية عند الناس قضية واحدة ، إما أنك ترى ، أو أنك لا ترى ، الكافر في عمى ، لا يرى نتائج الأشياء ، ما من إنسانٍ أُتيح له أن يرى نتائج عمله السيئ فيقدم على هذا العمل ، فالأزمة أزمة رؤية ، إما أنك ترى ، وإما أنك لا ترى.

لأن كل إنسان فُطِرَ على حب نفسه ، حب السلامة ، حب النجاة ، حب الفوز ، هذه فطرة الإنسان ، فلأن الإنسان مفطورٌ على حب ذاته ، وعلى حب سلامته ، وعلى حب نجاته ، وعلى حب فوزه إذا رأى الخير خيراً يتبعه قطعاً ، وإذا رأى الشر شراً يجتنبه قطعاً ، لكن لماذا يقدم الإنسان على الشر ؟ لأنه يراه خيراً ، لماذا يراه خيراً ؟ لأنه في عمى ، لماذا هو في عمى ؟ لأنه لا يصلي . هذا ملخص الآية : إذا اتصلت بالله عزَّ وجل قذف في قلبك النور ، فرأيت الخير خيراً فاتبعته ، ورأيت الباطل باطلاً فاجتنبته ، إذاً أنت في نجاة .

وتماماً كمن يقود سيارةً في طريقٍ كله منعطفات ، في اَللَيْل ، ما دام المِصباح متألِّقاً فهو ينجو من هذه الحُفَر والمنعطفات ، لكن إذا انطفأ الضوء فجأةً لابدَّ من أن يتدهور ، وهذا الذي لا يصلي مقطوعٌ عن الله عزَّ وجل ، إذاً هو في عمى ، إذاً : يرى المعصية مغنماً ، يرى كسب المال بطريقةٍ غير مشروعة مغنماً كبيراً ، وذكاء ، وقدرة على اقتناص المناسبات ، وفوزاً عظيماً ، لكن الذي يرى ، يرى الحسيب العليم ، يرى الديَّان ، يرى عدالة الله سبحانه وتعالى ، لابدَّ من أن يذهب المال من حيث أتى ، لابدَّ من أن يتلف المال ، ويتلف صاحبه معه ، ومن أصاب مالاً في مهاوش أذهبه الله في نهاور ، فالقضية قضية رؤية .

سيدنا يوسف لماذا صار عزيز مصر ؟ لأنه حينما راودته هذه المرأة .. امرأة العزيز .. كان ذا بصيرة، كان متصلاً بالله عزَّ وجل فرأى نتائج الزنا ، وكيف أنه قبيحٌ لصاحبه ، وكيف أنه خيانةٌ لسيِّدِهِ، وكيف أنه معصية لربه ، فقال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف : من الآية 23)

فجعله الله عزيز مصر ، ولو أنه لبَّى نداء جسده كما يقولون لكان في أسفل سافلين ، لما كان سيدنا يوسف ، وقد قيل لأحد العارفين : " متى يكون داؤها دواءها .. أي النفس .. ؟ " ، فقال هذا العارف بالله : " إذا خالفت هواها " ، لأن هواها هو داؤها ، ودواءها بمخالفة الهوى ، لأن اتباع الهوى هوان ..

و اخجلتي من عتاب ربـي إذا قال لي أسرفت يا فلان
إلى متى أنت في المعاصي تسـير مرخى لك العنان
عندي لك الصلح و هو برِّي وعندك السيف والسنــان
ترضى بأن تنقضي الليالي و ما انقضت حربك العوان
فاستحي من شيبةٍ تراهـا في النار مسجونة تهـان
واستحي من كتابٍ كـريمٍ يحصي به العقل و اللسـان

***

عندما يكون الإنسان في عمى يأكل مالاً حراماً ، فيكون الجزاء عاجلاً ، يتلف الله ماله ، وقد يتلفه مع ماله ، إذا كان في عمى يعتدي على الأعراض ، يُعْتَدَى على عرضه ، ما من مأساةٍ في المجتمع ـ راجعوا المحاكم الشرعية ـ ما من دعوى طلاق إلا وراءها معصية ، وليس من معصيةٍ إلا وراءها عمى ، والعمى سببه الانقطاع عن الله عزَّ وجل ، لو كنت في قمة الذكاء ، لو حصَّلت أعلى شهادة في العالم ، الذكاء وحده لا يكفي ، الذكاء قوة مدمِّرة ، أما مع الهدى قوة خَيِّرَة ، الذكاء قوة خيرة ، فإن كان الذكي مقطوعاً عن الله عزَّ وجل فهو قوةٌ مدمِّرة .

فالإنسان بلغ الآن من الذكاء المرتبة العُليا ، أي أن العقل البشري تطور ، واخترع ، وسخَّر الطبيعة ، واخترع مخترعات تريحه جداً ، نقل الصورة ، نقل الصوت ، غاص في أعماق البحار ، راد الفضاء ، وصل القمر ، اخترع أجهزة تنقل الصور الملونة في لمح البصر، لكنه في جهلٍ شديد ، وبعدٍ عن الله مديد ، ما الذي حصل ؟

أطلق لنفسه العنان ، بوحي عقله ، وذكائه ، وأن هذه الدنيا هي كل شيء ، فإذا مرضٌ عضال يصيب العالم المتمدن فيما يزعمون .. مرض الإيدز .. انحلال المناعة ، خبرٌ قرأته قبل أيام أن في العالم مائة مليون إصابة حتى الآن ، ستة آلاف وفاة في أمريكا وحدها ، وهذا المرض هو بسبب بعدهم عن الله عزَّ وجل ، بعدوا عن الله ، انقطعوا عنه ، كانوا في ضلالة وفي عمى ، فأطلقوا لشهواتهم العنان ، فكان العقاب العاجل في الدنيا قبل الآخرة ، فمهما كنت ذكياً ، مهما كنت مثقفاً ثقافةً عالية ، مهما كنت ذا شأن، إن لم تدعِّم هذا الذكاء بالهُدى فالمصير إلى الهاوية ، وإلى الدمار ..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

المعنى الثاني : أن الإيمان وجهة إلى الله ، وأن العمل الصالح قربةٌ له ، وأنك إذا عرفته وتقرَّبت إليه اتصلت به ، في هذه الصلة يحصل النور، في هذا النور ترى الخير خيراً والشر شراً، تنجو من مآذق الدنيا ، من متاعبها ، من مهلكاتها ، من ضلالاتها ، من شقائها ، من الضياع ، من القلق .

(يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

هناك معنى ثالث مستنبطٌ من قوله تعالى :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

(سورة الكهف)

إذا قال ابن لأبيه : أنا أود أن أدرس ، وأبوه كان مثقفا ثقافة عالية ، بمجرد أن يقول له : أنا أريد أن أدرس ، الأب أعطاه غرفةً مستقلة في البيت ، أَمَدَّه بالكتب ، أمده بالمراجع ، وضعه في أرقى مدرسة ، أعطاه المال الكافي ، أعفاه من أعباء المنزل ، سجَّله في معاهد إضافة إلى مدرسته ، جعل له مدرّسين خاصين ، والطالب قال : أنا سأدرس ، كذلك ولله المثل الأعلى ، إذا قال العبد : يا رب أعنّي على طاعتك ، تُيَسَّرُ له أموره ، يُيَسَّرُ له أمر معاشه ، ييّسر الله له زوجةً تعينه على دينه ، توافقه في اتجاهه، ييسر له عملاً طيباً ورزقاً حسناً ، نقياً ، نظيفاً ، هذا إذا اختار أن يكون من المؤمنين .

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

المعنى الرابع :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

إلى العمل الصالح ، لأن جوهر الحياة هو العمل الصالح ..

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة العصر)

أي أنك جئت إلى الدنيا من أجل مهمةٍ واحدة ؛ أن تعمل عملاً صالحاً يصلح للعرض على الله عزَّ وجل كي تسعد به إلى الأبد .

إذاً :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف)

المعنى الرابع :

(يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

إلى العمل الصالح ، الله عزَّ وجل يقدِّر على يديه الأعمال الصالحة الكبيرة ، أي أنه إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ، ونسبه إليك ، وما من مخلوقٍ على وجه الأرض يحب العمل الصالح كسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذلك قدَّر الله على يديه هداية البشر ..

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ)

(سورة سبأ : من الآية 28)

وجعله بابه الأوحد ، أي امرئٍ أتاه من غيره لا يدخله ، وجعل له المقام المحمود ، والوسيلة العظمى ، إذاً أنت لك عمل صالح بقدر نواياك ، لو أنك تنطوي على نيةٍ صادقة في التقرُّب إلى الله عزَّ وجل ، لأمَدَّكَ الله بالعمل الصالح ولقدّره على يديك ، وجعل الهدى على يديك ، أنت لا تملك إلا شيئاً واحداً ، تملك النية الطيبة والباقي على الله ..

" الخير بيدي ، والشر بيدي ، فطوبى لمن قدَّرت مفاتيح الخير على يديه ، والويل لمن قدَّرت الشر على يديه " .

العمل الصالح أفضلُ عطاءٍ :

قيل : " إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله ـ شيء دقيق هذا الحديث ـ فانظر فيما استعملك " ، فما نوع عملك في الحياة الدنيا ؟ مبني على أذى الآخرين أم على نفعهم ؟ هناك أعمال خيِّرة ، وهناك أعمال شريرة ، والله عزَّ وجل قال :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

والله إن هذا هو الذي يسمَّى العطاء ، أما العطاء في الدنيا فلا يسمَّى عطاء ، إنه ابتلاء ، لأنه منقطع ،

هل يصح أن تقول لعطاءٍ قليلٍ يسيرٍ موقَّت : إنه عطاءً ؟ الكريم لا يعطي هكذا ، لذلك قال سيدنا علي :
<< الغنى والفقر بعد العرض على الله >> ، قال سيدنا موسى :

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(24))

(سورة القصص)

أنا مفتقر يا رب للعمل الصالح ، فالحقيقة التي لا مراء فيها ولا مجاملة : إذا كانت حياة الإنسان مبنية على عمل ، وكسب مال ، وراحة ، واسترخاء ، وطعام ، وشراب ، ونوم ، وخدمة نفسه ، والعناية ببيته فقط ، وليس له عمل صالح ، والله هذا هو الفقر بعينه ، حتى إن بعضهم وجَّه قول سيدنا علي : " كاد الفقر أن يكون كفراً " ، وبعضهم وجَّه هذا القول بمعنى أن الفقر من العمل الصالح هو كفرٌ بالله عزَّ وجل ، أي أنك آمنت به ، وعرفت أنه عظيم ، وعرفت أن هناك جنة عرضها السماوات والأرض ، وهناك نار ، ولا تتقرب إلى الله بالعمل الصالح ، إذاً : هذا أحد أنواع الكفر ، وكاد الفقر من العمل الصالح أن يكون كفراً .

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام : من الآية 132)

لك عند الله حجم ، حجمك بحجم عملك الصالح ، ماذا فعلت ؟ ماذا ضَحَّيْت ؟ ماذا أنفقت ؟ كم هديت ؟ ألك عملٌ صالحٌ باتجاه الهدى والدعوة إلى الله ؟ ألك عملٌ صالح باتجاه إنفاق المال ؟ ألك عملٌ صالحٌ باتجاه تقديم الخدمات للمؤمنين ؟ هل عاونت مؤمناً ؟ هل أنقذته من ورطة ؟ هل عُدَّتَ مريضاً ؟ هل دللت ضالاً ؟ هل ضحيت بوقتك من أجل أخيك ؟ هل عملت عملاً يرضي الله عزَّ وجل ؟ الحقيقة الإنسان لا يتمكن أن يقابل إنساناً له شأن ، لا يوجد وقت ، انتظر شهرا ، لكن ربنا عزَّ وجل قال :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا)

(سورة الكهف " 110 ")

ربُّ العِزَّة ، خالق السماوات والأرض ، إذا أردت أن تلقاه فعليك بالعمل الصالح ، والدليل : اعمل عملاً صالحاً خالصاً لوجه الله ، وانظر كيف أن الله سبحانه وتعالى يتجلَّى على قلبك بالرحمة ، والآية الكريمة هكذا :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ(56))

(سورة الأعراف)

قال لي شخص كان يمر بمنطقة دُمَر الساعة الثانية عشرة ليلاً .. القصة ذكرتها سابقاً .. رأى امرأة واقفة حاملة طفلا ، ومعها رجل ، توقع أنهم بحاجة ماسة للمساعدة ، وإذا الابن حرارته إحدى وأربعون درجة ، والأم لا تدري ماذا تفعل ، ومعها زوجها ، قال لي : أخذتهم إلى مستشفى ، ولطبيب مناوب ، ولصيدلي مناوب ، وأخذ إبر بالمستشفى ، الساعة الرابعة فجرا انتهينا من علاجه ، ثم أرجعتهم إلى

دمر مكان سكناهم ، ورجعت إلى بيتي ، أقسم لي بالله أسبوعين أو ثلاثة وهو مغمور بالسعادة ، وكل واحد منا يجرِّب ..

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا)

اخدم إنسان لله ، لا جزاءً ، ولا شكوراً ، ولا مدحاً ، ولا ذماً ، ولا تقديرا معنويا ، ولا تقديرا ماديا ، ولا لفت نظر ، ولا كلمة شكر في الجريدة .

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ)

(سورة الإنسان : من الآية 9)

العمل الصالح هو الذي يرقى بك ، والآية الكريمة :

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)

(سورة فاطر : من الآية 10)

إذا تكلمت بكلام لطيف يعرفه الله سبحانه وتعالى ، يصعد إليه ، لكنك أنت على الأرض ، ويصعد كلامك إليه ، والذي يصعد بك كلك هو العمل الصالح ..

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر : من الآية 10)

يرفعك عند الله عزَّ وجل ، لا يرفعك عند الله كلامك ، الكلام اللطيف سهل ، بلا شيء ، لذلك :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

(سورة فصلت : من الآية 30)

علامة الإيمان الاستقامة ، بعد فقرة ثانية ..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة فصلت : من الآية 33)

لا تؤثر الدعوة إلى الله إلا بالعمل الصالح ، وإذا كان العمل سيئاً أعطت الدعوة عكس المفعول ، أي أن من دعا إلى الله ، وكان عمله سيئاً فكأنه ينفِّر الناس من الله عزَّ وجل ..

" يا رب ، أيُّ عبادك أحَبُّ إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : يا موسى أحبُّ عبادي إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء ، أحبَّني ، وأحب من أحبني ، وحبَّبني إلى خلقي ، قال : يا رب ، إنك تعلم أني أحبك ، وأحب من يحبك ، فكيف أحبّبك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلائي ، ونعمائي ، وبلائي".

الأخلاق الحسنة لها أثر كبير في الدعوة :

أي أن من دعا إلى الله ، وكان عمله سيئاً كان سبباً في تنفير الناس من الدين وإبعادهم عنه ، لذلك قال الله تعالى في الحديث القدسي :

((إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ، ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهما ما صحبتموه))

[الترغيب والترهيب عن جابر ، وفي سنده ضعف]

هذا الدين يحتاج إلى سخاء ، وإلى أخلاق حسنة ، فلو أن زوجاً أخلاقه شرسة ، وانفعالي ، وكلامه قاسٍ ، وتوبيخه عنيف ، وبخيل على زوجته ، ويقول لها : صلِّ ، مستحيل أن تصلي ، وإن صلّت فستصلي بلا وضوء ، كي تغيظه ، تقول له : أنا كنت أصلي بلا وضوء ، لكن هذا الدين لا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، لا بدَّ له من سخاء ومن حسن خلق ، حتى إن ربنا عزَّ وجل علمنا كيف ندعو إليه ، قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه الكريم :

(قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(25))

(سورة سبأ)

أنتم تعملون ، نحن أجرمنا ، هذا هو الأدب الجَم ، أي إن كنتم تعتقدون أننا مجرمون بهذه الدعوة فأنتم مُعفَون من السؤال عن هذه الجريمة ، ونحن لا نُسأل عما تجرمون ، ولا عما تعملون ، يجب أن تنتقي ألطف كلمة ..

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

التذكير الخامس : دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ

من معاني : دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ

المعنى الأول : دعاءهم ، والمعنى الثاني : الدعوة العبادة ، والمعنى الثالث : ملخص علاقتهم بالله سبحانه وتعالى منذ أن خلقوا في الأزل وحتى الأبد ..

(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

أحياناً تلخِّص علاقتك كلها بكلمات ، علاقة الإنسان مع ربه منذ أن خلقه وحتى الأبد ..

(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ)

أي ما أعظم شأنك يا رب .

(وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

السلام من الله : الطمأنينة ، الأمن ، التجلّي ، السعادة ، وملخَّص السلام والتسبيح ..

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

بعضهم قال : لما دخل يونس في بطن الحوت ، كيف دعا ربَّه ؟ قال :

(أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87))

(سورة الأنبياء)

فلم يدعُ ، بل سبَّح الله ، ونزَّهَهُ ، ومجَّده ، قال العلماء : تنزيه الله وتمجيده ، وتسبيحه أحد أنواع الدعاء، لذلك النبي الكريم استنبط من هذه الآية دعاء الكَرْب ، فإذا ألمَّت بالإنسان مصيبة يقول : لا إله إلا أنت العليم الحكيم ، لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم ، لا إله إلا أنت ربُّ العرش العظيم ، هذا هو الدعاء ، ولكنه ما دعا ، لقول الله عزَّ وجل في الحديث القدسي الشريف :

((مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِين))

[من سنن الترمذي عن أبي سعيد]

لما قال سيدنا يونس :

(أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ)

(سورة الأنبياء)

هذا دعاء ، لكن سيدنا يونس شغله تعظيم الله سبحانه وتعالى ، والاعتراف بذنبه عن طلب الخلاص ..

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

أي أن إذا وقع بضائقة قال له : سبحانك يا رب ، ما أرحمك .. مصيبة قاسية جداً .. سبحانك يا رب ما أعدلك ، سبحانك يا رب ما أرحمك ، سبحانك يا رب ما أحكمك ، إنني صابرٌ لحكمك يا رب ، هذا دعاء ويقتضي الإجابة ، النبي الكريم استنبط من هذا الدعاء فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ يَقُولُ :

((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ))

[متفق عليه]

وهذا دعاء الكرب ، فأهل الجنة لا يوجد موضوع يجول في خواطرهم إلا موضوع واحد ، سبحانك اللهم ، ما هذا العطاء ؟ ما هذا النعيم المقيم ؟ ما هذا السرور ؟ ما هذا الأمن ؟ ما هذه الطمأنينة ؟ ما هذا الذي لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؟ ما هذا النعيم المقيم ؟ ما هذه الجنة ؟ .

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ(55)هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ(56))

(سورة يس)

فهناك آيات كثيرة ..

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

تحيتهم من الله ، تصور إنسانا عظيما يقول لك : أهلاً وسهلاً ، رحَّب بك ، سلامٌ عليك ، فكيف بهذا السلام من الله عزَّ وجل .

(وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

أي تحية الله لهم سلامٌ عليكم إلى الأبد ..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

هذا طموح ، هنا الطموح ، جمع مليونا يريد مليونا ثانيا .

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

هذا العطاء الذي لا ينفد ، أما غيره فليس لك منه إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدَّقت فأبقيت ، والباقي ليس لك ، بل لغيرك ، وستحاسب عليه ، كيف اكتسبته ؟ وكيف أنفقته ؟

إذاً :

(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

بعضهم قال : أهل الجنة إذا رأوا طائراً ، واشتهوا أن يأكلوه يكفي أن يقولوا : سبحان الله ، فيأتيهم مشوياً جاهزاً للطعام ، فإذا أكلوه قالوا : الحمد لله ، أي أنه لا طلبات ، فأحياناً إذا كان الشخص غالياً على صاحبه يقول له : والله هذا الثوب جميل ، يقول له : هو مقدَّم ، فوراً ، أي أن الأول اشتهى ذاك الثوب ، فأهل الجنة يكفي أن يقولوا : سبحان الله ، لشيء جميل حتى يصبح بين أيديهم ، فإذا تناولوه يقولون : الحمد لله رب العالمين ، هذا المعنى الآخر من معاني :

(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا))

[مسلم]

إذا أكل أكلة الإنسان ، وكان يحبها وشبع فقال : الحمد لله رب العالمين ، يا ربي لك الحمد والشكر والنعمة والرضا ، الحمد لله الذي أطعمني ، وسقاني ، وآواني ، وكم مِن إنسان لا مأوى له ، وكم من كبدٍ جائعة ، لقد أطعمك الله .

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(3)الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4))

(سورة قريش)

هذا المعنى الثالث ، بعد ما أن يتلقى الإنسان النعمة من الله عليه أن يحمد الله .

بعضهم قال : في كل دعاءٍ يجب أن يبدأ بالتسبيح ، وينتهي بالتحميد ، لقول الله سبحانه وتعالى :

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(180)وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(181)وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182))

(سورة الصافات)

هذه من أواخر سورة الصافّات .

إذاً :

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

بعضهم قال في معنى هذه الآية : " الدعوة القضية " ، المعنى الثالث للدعوة ، الدعوة الدعاء ، والدعوة العبادة ، والدعوة القضية ، أي أن قضيتهم مع الله تتلخص بالحمد لله ، كان في حياته فقيراً ، كان مصاباً، كان قد فقد بصره ، فقد ابنه ، له ابن متعلّق به كثيراً توفاه الله عزَّ وجل ، كانت زوجته مشاكسة، دخله قليل ، عنده أمراض مزمنة ، كل شيء ساقه الله له يكشفه يوم القيامة ، فيذوب محبة لله، لولا هذه الأمراض لما عرفتك ، لولا هذه المصائب لما عبدتك ، لولا هذا الضيق لما التجأتُ إليك يا رب .

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

هذه ملخص الملخص ، لذلك في الإسلام كلمات أساسية ، بعض هذه الكلمات : لا إله إلا الله ، هذه علامة التوحيد ، بعض هذه الكلمات : الله أكبر ، شعار المسلمين ، الكلمة الثالثة : الحمد لله ، الحمد لله ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولله الحمد ، هذه ثلاث كلمات أساسيات في الدين .

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ)

التذكير السادس : وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ

طالبُ الخير يلقى الخير ، ومستعجل الشر يحلم الله عليه :

الشيء الملاحظ أن الله سبحانه وتعالى إذا طلب العبد طلب خير وقال : يا رب اهدني ، يمكن أن يدعو الله عند العصر ، ويأتي في صلاة المغرب فيجمعه الله برجلٍ تكلم معه بكلام طيب ، فسأله : أنت أين تحضر ؟ خذني معك ، عند العصر دعا الله عزَّ وجل وعند المغرب كان مهتدياً ، وإذا طلب الإنسان الخير فإن الله سبحانه وتعالى يستجيب له استجابة سريعة جداً .. " من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم " ..

ربنا عزَّ وجل قال :

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ)

أي أنه أكل مالاً حراماً ، فقصمه ، فمات ، فصار إلى جهنَّم ، يأكل مالاً حراماً ، يسلِّمه ، ويعتدي على أعراض الناس ، يمهله الله ، ويظلم ويمد له في حياته ، ربنا عزَّ وجل قال :

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ)

لأهلك الناس كلَّهم وأخذهم إلى جهنم ، لكن ربنا عزَّ وجل حليم ، فإذا طلب الإنسان الخير يُعَجِّلُ الله له به ، فإذا طلب الشر أمهله ، لعله يتوب ، لعله يندم ، لعله يرجع ، لعل الله يخرج من صلبه من يوحِّد الله..

سيدنا جبريل قال لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بالطائف :

((أمرني ربي أنا أكون طوع إرادتك ـ لأهل الطائف ، لأنهم آلموه ، وردّوه ، وكذَّبوه ، واستهزءوا به ـ لو شئت لأطبقتُ عليهم الجبلين " ، قال له : " لا يا أخي ، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون " ..

[السيرة النبوية]

إذا وضع طبيب أسنان الآلة في فم الطفل ، والطفل سبّه ، فهل يطرده ؟ ..

((اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحِّد الله))

كلما ارتقى إيمانك تترفَّع عن الانتقام نهائياً ، حتى لو أسيء إليك ، تداريه ، لو ارتكب معصية أمامك لا تيأس منه ، الفاسق ضيِّق الأفق إذا رأى عاصياً يسبّه ، أما المؤمن العالي فإنه يحوطه .

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ؟

الإمام مالك كان ماشياً في الطريق فرأى رجلاً سكيرا ملقىً على الأرض ، والزَبَدُ على فمه ، ويقول : الله ، فآلمه أن يخرج هذا الاسم العظيم من فمٍ سكران ، فأخذه إلى البيت ، ونظَّفه ، وأكرمه ، وأطلقه ، جاء إلى المسجد صباحاً فرأى رجلاً يصلي ، ويبكي ، ويعبِّر عن شوقه لله عزَّ وجل ، فقال : يا هذا من أنت ؟ سيدنا مالك رأى في المنام ربَّ العزة قال له : " يا مالك طهَّرت فمه من أجلنا فطهرنا قلبه من أجلك " ، فقال له : " من أنت يا رجل ؟ " قال : " إن الذي شفاني أخبرك بحالي " ، الإنسان لا ييأس من شارب خمر ، فهذا قد يتوب ويسبق العابدين ، لأن الصلحة بلمحة ، وقد يرتكب الإنسان معصية ، ويندم ، ويقول : يا رب ، ندمت ، " إذا قال العبد : يا رب ، وهو راكع ، قال الله : لبَّيك يا عبدي ، فإذا قال العبد : يا رب وهو ساجد ، قال : لبيك يا عبدي ، فإذا قال العبد : يا رب وهو عاصٍ قال : لبيك ثم لبيك ثم لبيك " .

فما من شيءٍ أحب إلى الله من شابٍ تائب ، " إذا تاب العبد توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه .. الملكَين.. والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه " ، إذا تاب العبد و "

((أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنْ الذُّنُوبِ))

[أحمد عن عمرو بن العاص]

((أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ))

[مسلم عن عمرو بن العاص]

واللهُ سِتِّير ، قال رجل : " يا رب ، من هذا الذي يعصيك ، وأنت لا تمطرنا .. المطر نزل ، وهذا الإنسان لم يغادر قوم سيدنا موسى .. قال له : " عجبت لك يا موسى أأستره عاصياً وأفضحه تائباً ؟ " .

لما يتوب الإنسان إلى الله انتهى كل شيء ، " إذا تاب العبد توبةً نصوحاً نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله " ، وانتهت مشكلته .

الكلمة الحقيقية : هنيئاً هنيئاً لمن تاب توبة نصوحاً ، وإذا تاب الإنسان يحس أن وزنه قد خف كثيراً ، ينام نوماً عميقاً ، ليس عليه ذنوب ، ولا عليه حقوق ، لو أن الله قبضه في الليل يعلم أن مصيره إلى الجنة .

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ)

سيدنا خالد لو أن الله أراد أن يؤآخذه وهو يحارب النبي عليه الصلاة والسلام ، وأرسل إليه بسهم فمات، يحارب رسول الله ، فبعد ذلك ؟ بعدها صار سيدنا خالد ، ثم بعد ذلك أصبح سيف الله المسلول .

عكرمة بن أبي جهل أعدى أعداء الإسلام صار سيدنا عكرمة ، عمير بن وهب ، صفوان بن أمية ، صناديد الكفر ، هؤلاء أسلموا وحسن إسلامهم ، واستشهدوا في المعارك ، فلو أن الله سبحانه وتعالى عجَّل إليهم الشر لقضى عليهم ، فلو أن الإنسان آمن لا ينظر باحتقار لغير المؤمن ، لعله يسبقك ، الآن هو متلبس بمعصية ، لكن لعله يتوب ، كن متواضعاً ، أكرمه ، هذا العاصي أكرمه ، تقرَّب إليه ، لعله يلين قلبه .

قيل : إن بشراً الحافي كان مسرفاً على نفسه كثيراً بالمعاصي ، طرق عليه الباب رجل .. فإذا عنده خمر ونساء وجوارٍ ومشاكل .. فخرج إليه غلام ، قال له : " قل لسيِّدك : إن كان حراً فليفعل ما يشاء ، وإن كان عبداً فما هكذا تصنع العبيد " ، هل العبد هكذا يعصي مولاه ؟ فتبعه حافياً .

مالك بن دينار دخل مرة إلى المسجد ، وكان حوله أناس كثيرين ، فوقفوا له تعظيماً لشأنه ، فاستحيا من الله وقال : أنا كنت قاطع طريق ، وشقياً من الأشقياء ، تزوج ، جاءته فتاة صغير جميلة ، فكانت تخفف من شراسته ، نام مرةً فرأى ثعباناً تنيّناً يتبعه ، وقد انخلع قلبه ، وهو يفرّ من وادٍ إلى جبل ، إلى أن أدركه التعب ، وكاد يقع ، فرأى ابنته الصغيرة في المنام ، فأشارت إلى الثعبان فابتعد الثعبان عنها ،

قال لها : " يا بنيتي من أنتِ ؟ " قالت : " أنا عملك الصالح " ، قال : " فمن هذا التنيّن ؟ " قالت : " هذا عملك السيئ " ..

أحياناً الإنسان يحلم بثعبان مخيف ، هذا عمل سيئ .. فاستيقظ وتاب من وقته ، وقبلت توبته ، وصار من كبار العارفين بالله ، فليس للإنسان أن ييأس ، يرى من لا يصلي فيقول : فيعنفه من غير مبالاة ، لماذا ؟ هو مقصر اخدمه ، وتقرب له ، فإذا أنقذت رجلا من المعصية فلك أجر أكبر .

إذاً :

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

التذكير السابع : فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

هؤلاء الكافرون في الجنة ، وفي الآخرة نذرهم أحياء ، يأكلون ويشربون ، ويطغون ، ويعمهون ، فلعلّهم يهتدون ، إلى أن يهتدي .

(يعمهون)من العمه ، وهو غير العمى ، العمى عمى العين ، أما العمه فعمى القلب ، فلان أعمه بالهاء ، أي قلبه أعمى ..

(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(46))

(سورة الحج)

إذاً : من حكمة الله سبحانه وتعالى أنه يعطي المقصِّر والعاصي فرصة كي يتوب .

لا يجوز الدعاء على النفس والولد والمال :

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ قَالَ : كَانَتْ رَاحِلَةٌ أَوْ نَاقَةٌ أَوْ بَعِيرٌ عَلَيْهَا مَتَاعٌ لِقَوْمٍ ، فَأَخَذُوا بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، وَعَلَيْهَا جَارِيَةٌ، فَتَضَايَقَ بِهِمْ الطَّرِيقُ ، فَأَبْصَرَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجَعَلَتْ تَقُولُ : حَلْ حَلْ ، اللَّهُمَّ الْعَنْهَا ، أَوْ الْعَنْهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَصْحَبْنِي نَاقَةٌ أَوْ رَاحِلَةٌ أَوْ بَعِيرٌ عَلَيْهَا أَوْ عَلَيْهِ لَعْنَةٌ مِنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى))

[أحمد]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى خَدَمِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لَا تُوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَاعَةَ نَيْلٍ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ))

[أبو داود]

الدعوة على الولد لا تجوز ، ولا على المال ، ولا على النفس ، في ساعة الغضب يدعو على نفسه ، لا يجوز ، ولا على أولادك ، ولا على أموالك ، هذا مما نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام .

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الخلاصة الختامية :

إذاً : الآيتان :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(7)أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هذا الصنف الأول ..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

عرفوا ربهم ..

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

إلى الجنة ، وإلى العمل الصالح ، وإلى معرفة الحقائق ..

(يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(9)دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ)

أي إذا دعا الإنسان على نفسه ، أو على أهله ، أو على أولاده ، أو على ماله ، الله عزَ وجل لا يستجيب له ، يعطيه مهله ، النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم قال :

((إني سألت ربي عزَّ وجل أن لا يستجيب دعاء حبيبٍ على حبيبه))

[ورد في الأثر]

من طلبات النبي الخاصة لله عزَّ وجل أنه إذا دعا إنسان على حبيبه بالهلاك فالله لا يستجيب له ، إذا دعت أم علي ابنها بدعوة ، وقال لها أحدهم : آمين ، فتجدها قد اغتاظت منه ، إذاً : هي لا تعني ما تقول .

((إني سألت ربي عزَّ وجل أن لا يستجيب دعاء حبيبٍ على حبيبه))

[ورد في الأثر]

إذاً :

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ)

الخير مُعَجَّل أما الشر فمؤجَّل .. فالإنسان الذي ينوي الشر ، ويطلب الشر فلا يحقق ، بل يؤخَّر ، إلى أن يُصِرَّ عليه ، عندئذٍ يكون إخراجه أفضل من كبته ، أما إذا طلب الخير مباشرةً فيهديه الله إلى طريق الخير ، لذلك الآية الكريمة :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت : آية " 69)

((إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا ، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[البخاري عن أنس]

((فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ ، فَقَالَ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ ؟))

[من مسند أحمد عن أبي هريرة]

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ)

أي تعجيلهم بالخير ، أي أن الله عزَّ وجل إذا سأله العبد خيراً أجابه سريعاً ، فإذا سأله الشر أخَّره إلا أن يصر عليه ، فإذا أصر عليه أخرج هذه الشهوة من نفسه ، ثم حاسبه عليها ، ولو فعل الله ذلك ..

(لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

الحكمة تقتضي :

(فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

الآية التي تدعمها :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

الله عزَّ وجل سبقت منه كلمة أن يعيش الإنسان في هذه الدنيا عمراً محدوداً لا يقلّ ، وسبقت منه كلمة أن تكون الحياة الدنيا تجسيداً لنيات الإنسان ، ولولا هاتان الكلمتان ..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا)

لكان إهلاكهم .

(وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

إن الله سبحانه وتعالى سبقت منه كلمة أن تكون الدنيا تجسيداً لنفس الإنسان ، والأجل المسمى ، لولا هاتان الكلمتان لأهلك الله العصاة ، فالإنسان لا يتدخل في شؤون الله عزَّ وجل ، وإذا كان له صديق فاجرٌ فلا يقل : ألا يقصمه الله ؟ ألا يهلكه ؟ هذا تدخل بشؤون الله عزَّ وجل ، " رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده " .

إن هذا الأمر ليس لك ، فهو له سبحانه ، وهو إله حكيم عليم ، وليس كلما رأيت عاصياً تقول : لماذا لا يهلكه الله ؟ لماذا تركه حياً إلى الآن ؟ أنت ألم تكن جاهلاً سابقاً ، لو أن الله أهلك الإنسان بجهله لكان مصيره لجهنم ، الله حلم عليك ، واهتديت ، وعرفته ، واستقمت ، والآن يحلم على غيرك ، هكذا الأصول ، فالإنسان لا يطلب تعجيل العقاب للأشرار ، لله حكمة بالغة في مدّهم بالحياة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (05-17): تفسير الآيات 12 – 17
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-10-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً

1 - كلمة (الإنسان)في القرآن الكريم :

أما كلمة الإنسان تتكرَّر كثيراً ..

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي(15))

(سورة الفجر)

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا(83))

(سورة الإسراء)

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5))

(سورة الطارق)

(إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ(34))

(سورة إبراهيم)

قال بعض المفسِّرين : " حيثما وردت كلمة الإنسان مُعَرَّفة بأل فإنها تعني هذا الإنسان المُعْرِض ، هذا الإنسان الغافل ، أما الإنسان إذا عرف الله صار اسمه مؤمناً ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة التحريم : من الآية 8)

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

(سورة غافر : من الآية 28)

(الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)

(سورة الحديد : من الآية 12)

تبدَّل اسمه ، إذا كان ساهياً ، لاهياً ، ضائعاً ، تائهاً ، شارداً فهو إنسان ، أما إذا عرف الله صار مؤمناً، فربنا عزَّ وجل يعطينا نموذجاً من الإنسان المُعرض ..

(وَإِذَا مَسَّ)

2 ـ وَإِذَا مَسَّ :

انظر إلى كلمة مَسَّ ، أحياناً تمسَّ التيَّار الكهربائي في ثوانٍ تقفز من على الأرض ، فكيف لو وُضِعَت اليدُ على تيارٍ عالٍ ؟ يتفحَّم على الفور ..

(وَإِذَا مَسَّ)

فربنا عزَّ وجل حكيم ، يمسُّ الناس بالضرُ مسًّا ؛ آلام ، مغص ، نوبة رمل ، يصيح ويستريح ، تأتي نوبات ، أحياناً تأتي حالات ضيق ، كل المصائب التي يُصاب بها الإنسان تحت قوله تعالى :

(وَإِذَا مَسَّ)

ومن معاني مسَّ فيها لطف ، وفيها تقدير دقيق ، وفيها عناية بالغة ، لو رفعنا التيَّار يتفحَّم الإنسان ، لكننا نحن يجب أن نكهربه من دون أن يتفحَّم ، نعطيه مسَّاً خفيف ..

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ)

3 ـ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً

قالوا : " هذه اللام بمعنى على " ، أي دعانا على جنبه ، وهو مضطجع يقول : يا رب ..

(أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً)

أي أنه دعانا في كل أحواله ، مضجَّعاً أو قاعداً أو قائماً كقوله تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران)

معنى قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم أي في الأحوال كلِّها ، أما هذا الإنسان المُعْرِض ، الشارد، التائه ، الغافل ، الضائع .

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً)

كلُّ إنسان يعرف ربَّه في الشدة ، والعاقل يعرفه في الرخاء :

الآن عرفتني يا عبدي ؟ فرعون عرف الله عزَّ وجل حينما أصابه الغرق ، قال :

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90)آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس : آية 90 - 91)

حينما كنتَ شابًّا ، حينما كنت غنياً ، حينما كنت قوياً ، حينما كنت تقفز على الأرض قفزاً نسيتنا ، غفلت عن ذكرنا ، لم تبال بكتابنا ، حينما جاء المرض ، حينما جاء العجز ، حينما ألمَّت بك المصيبة قلت : يا رب ، لا بأس ادعني ، ولكن ليتك دعوتني حينما كنت في بحبوحة ، ليتك دعوتني حينما كنت صحيحاً ، ليتك دعوتني حينما كنت قويًّا ، ليتك دعوتني حينما كنت غنياً ، ليتك دعوتني حينما كنت في الرخاء ، وفي الحديث عن ابن عباس :

((تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ))

[أحمد]

لكنك إذا دعوت الله في الشدَّة دعاء المُضطر لا دعاء العارف ، دعاء الذي تحت وطأة السيف لا الذي تحت وطأة العقل ، العقل يقول لك : اعرف الله في الرخاء ، لذلك النبي الكريم قال

((اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ))

[الحاكم عن ابن عباس]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا : هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[سنن الترمذي]

أي إلى أن عُطِبَ الجسد تقول : يا رب ، كنت مستعلياً على الناس، كنت لا تنظر إلى أحدٍ دونك ، حينما جاءت الأزمة القلبيَّة صار إلى تواضع ، أخي ادعُ لنا ، أستاذ ادعُ لنا ، الآن تقول : ادعُ لنا ؟! كيف كانت حالك قبل أن تُصاب بهذا المرض ؟ ..

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ)

طائرة تطير دخلت في عاصفة مكهربة فاضطربت ، وكادت تسقط ، وهبطت ، وجنحت ، لم يبق في الطائرة واحدٌ إلا ويقول : يا الله ، فلمَّا هبطت على الأرض عُرِفَ أن هذه الطائرة تحمل أناساً لا يؤمنون بالله إطلاقاً ، لكن مسَّهم الضر فدعوا الله مخلصين له ..

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ)

أي أن البطولة وأنت في الرخاء ، حيث الصحَّة طيّبة ، الزوجة ممتازة ، الأولاد أبرار ، الدخل وفير ، المكانة جيدة ، وأنت في قمَّتك ، وأنت في قمَّة مجدك ، وأنت في الوظيفة وليس بعد التقاعد ، يجب أن تكون متواضعاً وأنت على رأس عملك ، والناس أمامك ينتظرون ..

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً)

الإنسان بالمال يستعلي ، وبالقوَّة يستعلي ، وإذا كانت له وظيفة يستعلي بها ، وإذا كان مقتدراً يستعلي ، وإذا كان معه شهادة عالية والناس بحاجة له يستعلي ، ولا يكلِّم أحداً ، لكن إذا جاءت المصيبة فإنه يتواضع ، ليتك تواضعت قبل المصيبة ، ليتك عرفت الله وأنت في الرخاء ، ليتك عرفت الله وأنت في بحبوحة ، ليتك عرفت الله وأنت قويٌّ نشيط ، لكن متى ؟! بعد فوات الأوان ! بعد أن ضيَّعت ما ضيَّعت!..

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً)

لكن ربنا عزَّ وجل لإلحاحه بالدعاء ، يا رب ، يا رب ، يا رب ، ما لي سواك ، أنقذني قال :

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ)

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ

1 ـ إذا زال الضر عادت حليمة إلى عادتها القديمة :

هذه الأزمة زالت ، هذا المرض انحسر ، هذا القلق تبدَّد ، هذا الخوف تلاشى ..

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

يقول لك : والله هذا الطبيب مستواه عالٍ ، فلان ذهبت إليه وقلت له : أنا قريبك ، تدخَّل وخلِّصني ، أين الله عزَّ وجل ؟ لا يوجد الله عزَّ وجل .

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

2 ـ البلاغة في كلمة (مرَّ):

أما كلمة (مرَّ) ففيها بلاغة رائعة ، سيل عارم مندفع وضعت أمامه حاجز ، فلمَّا أزلت الحاجز مرَّ وتابع اندفاعه ، أي أن الإنسان أحياناً تتعقَّد معاملته ، فيأتي إنسان ، ويأخذها منه ، ويوقِّعها من فلان ، وفلان ، وفلان ، ويقول له : تفضَّل ، جاء هذا الإنسان مسك هذه المعاملة نظر وذهب ، قال له : شكراً، فهذا الذي وقف ، وعاونك ساعة ، وتجاوز الدور ، وكانت المعاملة تحتاج إلى خمسة أيَّام ، وفيها تعقيدات ، وقد يوافقون أو لا يوافقون ، أخذها بنفسه ، ومشَّاها لك ، وناولك إياها ، نظرت فيها فهي مع الموافقة ، التوقيع بالأخضر ، ومشيت من فورك ، أين يا أخانا ؟ مرَّ ، ومرَق ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ))

[متفق عليه عن أبي سعيد الخدري]

أي أنه يمر ..

(كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

قل : يا رب لك الحمد ، يا رب لك الشكر ، هذا توفيقك ، هذه عنايتك ، هذا فضلك ، هكذا يقول الإنسان ، منتهى اللؤم ، منتهى الجحود ، منتهى الكفر ، ابنه حرارته واحد وأربعين فحصه الطبيب فقال له : عنده التهاب سحايا ، إنه على وشك الموت ، يا رب ليلاً ونهاراً ، وبعد هذا الحرارة انحسرت والله عزَّ وجل عافاه له ، اسجد سجود الشكر لله عزَّ وجل ، قل له : يا ربي لك الحمد والشكر والنعمة والرضا ، هذا فضلك يا رب ، لا إنه مرَّ شيء مادي وقف في طريقه ثم فتحت له المجال فاندفع ، من دون إحساس ، من دون قِيَم ، من دون شعور ، من دون اعتبارات ..

(مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

هذا نموذج اللئيم ، إذا وقع تحت الشدَّة قال : يا رب ، فإذا انحسرت الشدَّة نسي الله عزَّ وجل ، ونسي أنه دعاه ، ونسي أنه تذلّل له ، ونسي التضرُّع ، لكنه رأى ما عنده من إنجاز..

(مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

1 ـ كان النبي عليه الصلاة والسلام يعظِّك النعمة مهما دقَّت :

النبي اللهمَّ صل عليه كانت تعظم عنده النعمة مهما دَقَّت ، لو شرب كأس الماء ، تعظُم عنده النعمة مهما دقَّت ، حينما دخل مكَّة فاتحاً دخلها مطأطئ الرأس تواضعاً لله عزَّ وجل ، هكذا الإنسان ، النبي عليه الصلاة والسلام قدوةٌ لنا ..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب : من الآية 21)

إنسان لبس ثياباً جديدة ، دخل إلى بيته ، يقول : الحمد لله الذي آواني ، وكم ممن لا مأوى له ، وإذا أكل طعاماً يحبُّه قال : الحمد لله الذي أطعمني وأسقاني ، وإذا وجد أن له زوجة في البيت ، وله أولاد ، بيته نظيف ، له دخل يقول : يا رب لك الحمد .. " الحمد على النعمة أمانٌ من زوالها ".. الحد الأدنى في الشكر أن تعرف أن هذه النعمة من الله ، والحد الأعلى أن تُقابل على النعمة بخدمة العباد ..

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(13))

(سورة سبأ)

لكن أنا لا أتصوَّر إنساناً يشكر الله على نعمه ، على حواسِّه الخمس ، على عقله ، على زوجته ، وعندما يتزوَّج الإنسان ..

شُرَيْح القاضي لقيه صديقه قال له : " يا شُرَيح ، كيف حالك في بيتك ؟ " قال له : "والله يا فلان .. اسمه الشَعْبي .. والله منذ عشرين عاماً لم أجد ما ينغِّص حياتي أو يعكِّر صفائي " ، قال له : " وكيف ذلك ؟ " قال له : " خطبت امرأةً من أسرةً صالحة ، فلمَّا دخلت بها وجدت كمالاً وصلاحاً ، أي أنه وجد عقلاً وأدباً وجمالاً ، فقمت وصلّيت ركعتين شكراً لله على نعمة الزوجة الصالحة ".. وفي بحث الصلاة في الفقه صلاة الشكر ، إنسان اشترى بيتاً ، يدخل إلى بيته الذي هو ساكن فيه ، أول عمليَّة يتوضَّأ ، ويصلي ركعتي الشكر ، نجح في شهادته الجامعيَّة ، أول عمليَّة صلاة الشكر ، تزوَّج ، اشترى محلاً ، صفقة باعها ، وربح فيها ، صلاة الشكر مشروعة ، ربنا عزَّ وجل قال في الحديث القدسي :

((إني والإنس والجنُّ في نبأٍ عظيم ، أخلق ويُعْبَد غيري ! وأرزق ويُشْكَر سواي ! خيري إلى العباد نازل ، وشرُّهم إليَّ صاعد ! أتحبَّب إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغَّضون إليَّ بالمعاصي ، وهم أفقر شيءٍ إليَّ ، من أقبل عليَّ منهم تلقَّيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب))

[ورد في الأثر]

هكذا مرَّ ، الصحَّة طيّبة ، والأكل في البيت من كل الأنواع ، لست محروماً من شيء ، نعمة الزوجة موفورة ، نعمة السكن موفورة ، الماء فُرات ، فلا ينقصك شيء ..

(مَرّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

شعرت بوضع غير طبيعي فأجريت فحصا فوجدت أنك سليم ، يا رب لك الحمد ، كان الاحتمال ورما خبيثا فظهر أنه ورم عادي ..

(مَرّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

اللئيم لا يشكر أحدا :

أهكذا المؤمن ؟ هذا حال الإنسان العادي ، هذا حال الإنسان الكافر، هذا حال الإنسان الجاهل ، المُعْرِض ، المُقصِّر ، اللئيم ، سيدنا علي قال : " والله والله ، مرَّتين ، لحفر بئرين بإبرتين ، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين ، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين أهون عليَّ من طلبِ حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين " ..

أعلّمه الرماية كل يومٍ فلمَّا اشتدَّ ساعده رماني

وكم علّمته نَظْمَ القوافي فلمَّا قال قافيةً هجاني

* * *

هكذا !! تسمع أحياناً أن صانعاً كان عند معلّمه ، فتح محلاً فتجده فيتكلّم عليه ، إنه علّمك المصلحة ، وأكرمك ، ودلّلك ، وعندما صار معك إمكانيَّات لتفتح محلل لك تقول : هذا معلمي غشَّاش لا تذهبوا إليه، هكذا اللؤم ؟! والله اللؤم في الأرض الآن كأنه طوفان ، من علامات قيام السَّاعة أن يكون المطر قيظاً ، والولد غيظاً ، ويفيض اللئام فيضاً ، ويغيض الكرام غيضاً ، أول أنواع اللؤم مع الله عزَّ وجل ..

(مَرّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

كنت تولول قبل ساعة ، ظهر بالتحليل أنه لا يوجد شيء ، يالله سوف أعمل سهرة اليوم، أي سهرة هذه؟ كان المصير أسود ، أين السهرة اليوم ؟ ..

(مَرّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

ربنا عزَّ وجل قال :

(كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

قليل من يفي بعهد الله :

والله هناك آية قرآنيَّة يقشعر لها البدن ، الله قال :

(وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ)

(سورة الأعراف : من الآية 102)

يذهب إلى الحج يعاهد ربَّه عند الحجر الأسود ، يا رب لا أعصيك أبداً ، فيأتي بعد سبعة أيَّام يعصيه ، يا أخي معوَّد ، وقد قال لي أحدهم : تبنا يا أخي ، كنَّا نشرب الخمر فتبنا ، ذهبنا إلى الحج ، وعاهدنا الله، جلس مع رفاقه فقالوا له : اشرب ، فقال لهم : لا أنا معاهد ، فقالوا له : خذ منا ثمن الحِجة واشرب ، فقال : والله شربت فماذا أفعل ؟

(وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ(102))

فاسق ..

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ)

معاني الحروف المقطّعة :

1 ـ الإهلاك بسبب الظلم :

انظر إلى دقَّة القرآن الكريم ، لا يوجد هلاك بلا سبب ، أخي الطبقة الأرضيَّة هشَّة ، على مقياس

رختر كانت الدرجة ثماني فتهدَّمت المكسيك ، ما هذا ؟ الموضوع على رختر فقط ، أم هي إهلاك من الله عزَّ وجل ؟ هي إهلاك من الله ، ومن السُخف أن تفسِّر هذه الظواهر الخطيرة في العالَم تفسير أرضي ، مع أن التفسير الأرضي مقبول إذا جمعته مع التفسير الإلهي ..

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

2 ـ الإهلاك بسبب الظلم لا ينافي التفسير العلمي :

يمكن أن تفسِّر أنه عندما أراد ربنا عزَّ وجل إهلاك قرية فاسقة ، فاجرة ، تتاجر بالأفيون ، توزِّع الأفيون لجميع أنحاء العالَم كان يمكن أن تفسِّرها أنها إهلاك من الله عزَّ وجل عن طريق هزَّة أرضيَّة ، قد تجمع التفسير الإلهي مع التفسير العلمي ، والتفسير الإلهي والتفسير العلمي لا يتناقضان إنما يتكاملان ، أما أن تقول : فقط هزَّة أرضيَّة على مقياس رختر فقط ، معنى هذا : " من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر " أصبحت نفسه هي المصيبة ..

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ)

لما ظلموا .. ما دام يوجد ظلم فهناك هلاك ، لذلك حينما يعمُّ الفساد في آخر الزمان ..

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

(سورة الروم : من الآية 41)

قال الله عزَّ وجل :

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(58))

(سورة الإسراء)

الهلاك نوعان :

لكن العلماء قالوا : " الهلاك نوعان ؛ هلاكٌ مُبرَم وهلاكٌ بطئ " ، أي ضُعف الموارد ، شُحُّ السماء ، قلَّة النبات ، ازدياد الحاجات ، قلَّة الدخل ، الضغط الاجتماعي ، هذا أحد أنواع الهلاك ، هذا يسمونه موتا بطيئا ، إما موت بضربة قاصمة أو موت بطيء ، فالهلاك هلاكان ، عندما يجد الإنسان أن ليس معه مال ، أموره ليست بيده ، الله عزَّ وجل قال :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور : من الآية 55)

أي أنه إذا لم يستخلفنا الله في الأرض ، بل استخلف أعداءنا ، ولم يمكّن لنا ديننا الذي ارتضى لنا ، ولم يبدِّلنا من بعد خوفٍ أمناً فهذا أحد أنواع الهلاك ، لكن ليس هلاك قاصم ، بل إنه هلاك ببطء ، لكن السبب :

(يَعْبُدُونَنِي)

العبادة لم تحصل ، فلمَّا أخلَّ العباد بما عليهم فالله سبحانه وتعالى في حلٍّ من وعده ..

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ)

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ)

العلماء وقفوا عند هذه الآية ، لماذا ..

(وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ)

وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ

1 - انتبه إلى قوله : وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ

لأن نفي الإيمان شيء ، ونفي الإمكانيَّة شيءٌ آخر ، مثلاً تقول : فلان لم يسرق ، إنك نفيت عنه حدث السرقة ، لكن تقول : فلان ما كان له أن يسرق ، إنك نفيت عنه إمكانيَّة السرقة ، ورغبة السرقة ، واستعداده للسرقة ، نفيت عنه كل ما يتصل بالسرقة ، هذا يسمُّونه النفي المُبالَغ ، ما كان لي أن أفعل ، ما فعلت شيئاً ، أنا ما أفطرت ، والله أنا صائم يا أخي ولم أفطر ، لكن ما كان لي أن أفطر ، أي مستحيل ، شيء لا يخطر في بالي إطلاقاً ، لا يوجد عندي استعداد أن أفطر ، ولا توجد عندي نيَّة لأفطر ، ولا توجد عندي إمكانيَّة لأن أفطر ، ولا أرضى أن أفطر ، مهما دعوتني فلا أفطر ، ما كان لي أن أفطر ، هذه(ما كان)تفيد نفي الإرادة ، ونفي الإرادة أبلغ من نفي الحدث ، فلان ما كان له أن يسرق أي مستحيل ، لكن لم يسرق أي قد يكون عنده إمكانية لأن يسرق ، ولكن ما سرق ، لكن ما كان له أن يسرق أي مستحيل ، ربنا عزَّ وجل قال :

(وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ)

2 ـ لماذا جعل ربنا سبحانه وتعالى إيمانهم مستحيلاً ؟

لماذا جعل ربنا سبحانه وتعالى إيمانهم مستحيلاً ؟ إذا كان هدف إنسانٍ أن يصل إلى حَلَب ، فمشى باتجاه درعا ، فماذا تقول ؟ تقول : ما كان له أن يصل ، إذا كان ذاهباً إلى حلب ، ووقف في حمص ، ولم يُكمِل تقول : لم يصِل بعدُ ، أما إذا كان ماشياً بعكس الاتجاه فتقول : ما كان له أن يصل ، كلّما مشى بعد عن هدفه ، فعندما يمشي الإنسان في طريق الدنيا ، ويتوغّل فيها ، ويقع في الظلم والبغي والعدوان ، والدنيا أكبر همِّه ، وينغمس في شهواته ، لا نقول : هذا لا يؤمن بل نقول : هذا ما كان له أن يؤمن بهذا المعنى ، فالطالب الذي لم يداوم إطلاقاً هل تقول : لم ينجح ؟ لا إنك تقول : ما كان له أن ينجح ، أما إذا داوم ولم يجتهد تقول : لم ينجح ، أما إذا لم يداوم ولا يوماً ، ولا فتح كتاباً ، ولا اشترى كتباً تقول : لم ينجح ؟ إنك تقول : ما كان له أن ينجح ، ربنا عزَّ وجل قال :

(وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ)

لكن لماذا أهلكهم الله عزَّ وجل ؟ لأنهم ما كانوا ليؤمنوا ، ربنا عزَّ وجل ما دام لهم أمل في الإيمان فلا يوجد هلاك ، ما دام هناك بقيَّة أمل فلا هلاك ، إلى أن يسير الرجل في طريقٍ معاكسٍ للإيمان بزاوية مائة وثمانين درجة ، أي نصف دائرة .. فهو هكذا ، والإيمان هكذا في اتجاه آخر .. عندئذٍ يستحقُّ الهلاك ، لأنه ..

(وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ)

الهلاك أمر من الله عزَّ وجل مدروس ، فليس هناك هلاك عشوائي ، أو هلاك من دون مبرِّر، أهلكهم الله عزَّ وجل لأنهم :

(ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ)

جاءتهم الرسل أعرضوا عنهم ، تجاوزا الحدود ، غرقوا في الدنيا ، وقعوا في الظلم فأهلكهم الله عزَّ وجل ، كلام ربنا عزَّ وجل دقيق ..

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

1 ـ القانون المطّرد بوجود سببه : كَذَلِكَ نَجْزِي

كلمة(كذلك)خذها قانونا ..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

قال :

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14))

(سورة القصص)

هذا قانون ، تعريف القانون في العلم : علاقة ثابتة بين متحوِّلين ، أي أنك عندما تُحسن يؤتيك الله العلم والحكمة ..

" من أخلص لله أربعين صباحاً تفجَّرت ينابيع الحكمة في قلبه وأجراها الله على لسانه " .

قانون :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

القصَّة انتهت ، القانون :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

كن مؤمناً ، واستحقَّ النجاة في كل عصر ، في كل عصر كن مؤمناً تستحقَّ على إيمانك أن تنجو من كل شيءٍ تخافه .

قانون :

(كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ)

وقبل ظلمهم ..

(وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ)

فكذَّبوا بها ..

(وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

2 ـ كلُّ قومٍ أهلكهم الله لا جدوى منهم :

إذاً كلّما رأيت قوماً أهلكهم الله عزَّ وجل تأكّد أنهم لا جدوى منهم ، لا أمل منهم ، لو كان فيهم بقيَّة أملٍ في هدايتهم لما أهلكهم الله عزَّ وجل ، قال عليه الصلاة والسلام :

((وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ))

[مسلم عن ابن عباس]

لا يهلك إلا من هلكت نفسه ، وبعدت عن الحق .. ولا يهلك إلا من شرد على الله شرود البعير ، ابتعد وغاص كثيراً في ضلال مبين .

الخمر مثلاً تُذهِب العقل ، وتحطُّ المكانة ، وتُضعف المَلَكَات ، وتُثبِّط الهمم ، فمن شربها فهو في ضلالٍ مبين ، وفي ضلال بعيد ، الضلال البعيد ؛ واحد ماشي في طريق باتجاه حمص مثلاً ، وجد مفرقاً فمشى فيه ، بعد ما مشى مائتي كيلو متر إذا به بطريق تَدمُر ، وهو يريد حمص ، هذا اسمه ضلال بعيد ، أي أنه ابتعد كثيراً ، لو مشى عشرة كيلو مترات ورجع فهذا ضلال قريب ، فهناك ضلال مبين ، وضلال بعيد ، أحياناً الإنسان يبعد كثيرا ، يعتقد اعتقادات فظيعة ، أنه لا توجد غير الحياة الدنيا، هذا ضلاله بعيد ، هذه هي الدنيا فهي كل شيء ، من كان فيها غنياً فهو في جنَّة ، ومن كان فيها فقيراً فهو في جهنَّم ، وليس بعد الدنيا شيء ، هذا في ضلال بعيد ، ويوجد ضلال مبين ، فمن كان مجرماً استحقَّ الهلاك..

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

1 ـ لا تعيِّر غيرَك بما فيك :

يكون في المحل ابن يعمل عند أبيه ، وليس راضياً عن أبيه ، يقول لك : بيعه صعب ، أنا أحب أن أبيع بسهولة ، أبي كذا ، أبي كذا ، يتوفَّى الأب ، ويأخذ الابن المحل مكان أبيه ، فيأكل مالا حراما ، ويغش، كل الذي تنتقد فيه أباك وقعت فيه ، بل في أشدَّ منه ، والله عزَّ وجل يمتحن الإنسان ، فقد يكون موظّفا في دائرة فينتقد الأعلى منه ، أُزيح فوضعوه مكانه ، فتجده كذلك أغلق بابه عن المراجعين ، كيف كان ينتقده من قبل ، وقع في نفس المرض ، ربنا عزَّ وجل قال :

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

الإنسان لا ينتقد ، وإذا انتقد ينتبه ، فإن عيون الناس مفتَّحة ، فإذا وقع فيما انتقد غيره فقد وقع في أبشع

شيءٍ ، وهو التناقض ، فأبشع صفة في العقل التناقض ، أي أن تقول شيئاً وتفعل عكسه ، أن تقيس الناس بمقياسين : مقياس تقيس به نفسك ، ومقياس تقيس به الآخرين ، هذا تناقض ، هذا تفريق ، هذا خطأ ، وخلل فكري ..

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

2 ـ الاستخلاف في الأرض سنة الله :

وهكذا ، الآن انظر ترى السوق مشهوراً في الشام ، أما بعد ستين سنة كل هذا الطقم يتغيَّر ، إما أن يتسلَّم المحل ، أو أن يُباع ، أو يأتي الابن مكان أبيه ، تجد وجوهاً جديدة ، ستين سنة أخرى تجد طقماً جديداً ، هذا على مستوى المحلّات ، أما على مستوى البيوت ؛ هذا البيت يتوفَّى الأب ، فيُباع أو يسكن فيه ابنه ، وُجد وجه جديد ، ومعاملة جديدة ، فربنا عزَّ وجل جعلنا خلائف في الأرض ، الإنسان يخلف أباه ، يخلف شريكه ، يخلف موظّفا في دائرته ..

(لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

3 ـ الاستخلاف في الأرض تحت المراقبة الإلهية :

أنت تحت المراقبة ، عندما يراقب الإنسانُ إنساناً آخر يربكه ، فكيف وأن الله سبحانه وتعالى يراقبنا جميعاً ؟!

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

حال المراقبة قاله الصوفيّون ، الإنسان دائماً شايف الله ناظر إليه.. اعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك ..

اغتسل أحدهم عُريانا عند النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال له :

((خذ أجارتك لا حاجة لنا بك إني أراك لا تستحي من الله))

[ورد في الأثر]

حالة المؤمن أنه تحت المراقبة ، مراقبة إلهيَّة ، مراقبة رحيمة ، مراقبة خَيِّرة ، مراقبة فيها لطف ليس فيها إزعاج ..

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

في أثناء البيع ، تقول : الله وكيلك ليس فيها ربح ، الله على رأسك ، هل صحيح أنك لم تربح ؟ تحاكي نفسك بالمائة مائة وأنت رابح ، الله وأذَّن المؤذّن فتقول : أخي نريد أن نلحق بالصلاة ، أيّ صلاة هذه ؟

حلفت بالله أنه ليس فيها ربح وأنت رابح ، هكذا دين الناس الآن ، يقول لك : كل شيء لحاله ، ولم يعلم أن كل شيء محاسب عنه ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

إذاً :

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ{14} وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ

1 ـ انظرْ كيف يرد الناس القرآن ؟

لم يعجبه القرآن ، منع الربا لم يعجبه ، يقول لك : هذا الربا ، مال تضعه من دون فائدة ، مجنون أنا فأضعه من غير فائدة ؟ غيري يستفيد منه ، ولا أنا أستفيد منه ، هذه الآية يا أخي ليست لهذا الزمن ، بعد هذا الله قال :

(لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : من الآية 130)

انتبه يا أخي النهي ليس عن خمسة بالمائة، النهي عن خمسة وعشرين بالمائة ، هكذا الله قال ..

(لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

لم تعجبه هذه الآية ، وآية غض البصر لم تعجبه كذلك ، أين أذهب بعيوني يا أخي ؟ أنا شغلي كلّه مع موظّفات ، ماذا حصل إذا نظر إليها ، هذه بدّلها لنا يا أخي ..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ)

هذا فيه تضييق كبير ، ثقيل .

(أَوْ بَدِّلْهُ)

2 ـ انظرْ كيف وصل الناس إلى المطالبة بتبديل ما في القرآن ؟

أو تعديلات طفيفة ، أي ألغ لنا آية النظر ، ألغ لنا آية الربا ، ألغ لنا آية الاختلاط ، هكذا يكون في مرونة ، يقول لك : هذا شيخ عصري ، مرن ، لا يعقدها كثيراً على التلاميذ ، فقط قلبك يكون مع الله يا

ابني افعل ما شئت ..

(ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي)

لماذا لا تجامل في أمور الدنيا وتجامل في أحكام الله ؟

إذا كنت مهندساً ، وجاءك شخص ، وقال لك أريد مخططاً ، عملت له المخطط ، قال لك : هذا الحديد اثنا عشر ميليمترا هل يستبدل بثمانية مليمترات فقط للسواري ؟ والله لا يجوز ذلك يا أخي ، هنا لا مجاملة ، عوض عن الستة أكياس يمكن أن نضع أربعة ، هنا لا مجاملة ، هذا بناء بثمانية طوابق ، تضع أربعة أكياس يقع البناء ، المهندس مسؤول ، تضع عوضاً عن اثني عشر ميليمترا ثمانية مليمترات يقع البناء ، هنا لا مجاملة ، لأنه توجد قوانين ، هذا البناء مبني على علم ، السنتيمتر مربَّع يتحمَّل مائتي كيلو ، إذا كان هناك أربعة أكياس بدل ستة لا يتحمَّل مائة وخمسين كيلوا ، كلُّه حسابات ، هل توجد مجاملة بالموضوع ؟ لا مجاملة ..

(ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ)

فهذه نفس بشرية ، فإذا سمحنا لها بالاختلاط تعلَّقت بالنساء ، أي صلاة بقيت هذه ؟ انقطعت عن الله عزَّ وجل ، إذا سمحنا لها بالربا وقعت في الحرام ، أصبحت خجولة ، أي أن القضية ليس معها لعبة ، محطَّة وقود مكتوب عليها : ممنوع التدخين ، لا تعقِّدوها كثيرا ، غير معقول ، هذا تعقيد ، التدخين يُذْهِب بالكازيَّة كلها يفجرها ، هذا إعلان مصيري ، وليست قضيَّة سهلة ، فكل شيء الله عزَّ وجل نهى عنه أو أمر فيه ليس فيه مجاملة ، ولا حل وسط ، ولا بالمائة ثلاثين ، هذا دين ..

((ابن عمر دينك دينك ـ أي الزم دينك ـ إنه لحمك ودمك ، خذ عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[ورد في الأثر]

كل إنسان يتساهل معك فاعلم أنه لا يفهم شيئاً .. فلو أن إنساناً يريد أن ينشئ معمل غسَّالات ضخماً ، وجد أن موضوع تنشيف الآلة صعب ، قال : هذه سوف ألغيها ، بدونها أحسن ، ماشي الحال ينشفوا الملابس بأيديهم ، عصر الغسيل كذلك صعب فألغاه ، تسخين الماء صعب فألغى التسخين ، الآن دورانها صعب ألغى الدوران ، هذه أصبحت وعاء غسيل وليست بغسَّالة .. كلَّما ألغيت صعوبة صرت بعد ذلك بلا شيء ، لذلك الدين ليس فيه لعب ، مثل اللعبة مثلاً ، شروط اللعب إذا ألغيتها وقلت : ليس بشرط أن تأتي الكرة في السلَّة ، لم تعد هناك بطولة ، لو جاءت نحوها تعتبر ، هذا لم يعد لعباً ، إذا لم توجد شروط صعبة دقيقة لم تعد هنا بطولة ، فكلَّما ألغيت شيئاً من الدين تهدِّم الدين .

((الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[ورد في الأثر]

أخي أنا قلبي نظيف لا أنوي لأحد شراً ولكن لا أصلي ، لا ينفع هذا لأن

((الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين))

لذلك :

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ)

هناك معنى دقيق هو : أن القرآن من عندك إذاً دبِّره ، كأنَّهم يظنُّون أو يتهمون النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا القرآن من عنده لذلك بدِّله لنا، غيّره أو عدّله ، هذه الآية احذفها لنا ..

(قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي)

قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي

أنا رسول ، أنا مبلِّغ .

إذا صدر مرسوم من رئيس الوزراء ، وأتى موظَّف من الدائرة يبلغك فتقول له : يا أخي احذف لي هذه المادَّة ، ما الذي أدخلني أنا في الموضوع ؟ أنا مبلِّغ فقط ، تقول لواحد يبلغك مرسوما : احذف لي هذه المادَّة ؟ عدِّلها لي ، هذا بيد رئيس الوزراء ، وليس بيد موظَّف بسيط..

(قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

1 ـ الخوف يتناسب مع الإدراك :

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو ما هو من الرفعة والعظمة يخاف إن عصى ربَّه عذاب يوم عظيم ، فما بال عامَّة الناس ؟! لذلك الخوف يتناسب مع الإدراك ، فإن كان الإدراك ضعيفا كان الخوف ضعيفا ، لأن الخوف يتناسب طرداً مع الإدراك ، فإن لم يكن هناك إدراك فلا خوف .

مرَّة قال لي طالب : أنا لا أخاف من الله عزَّ وجل ، قلت له : معك حق ، عندما قلت له : معك حق ، استغرب ، قلت له : أحياناً يضعون طفلاً صغيراً في الحصيدة فيمر ثعبان فيلمسه الطفل ، لأنه ليس لديه إدراك ، طبعاً لا تخاف من الله عزَّ وجل ، لأنك لا تعرف ما معنى الله عزَّ وجل ..

في بدر قال عليه الصلاة والسلام :

((لا أمثِّل بهم فيمثِّل الله بي ولو كنت نبيَّاً))

[ورد في الأثر]

2 ـ لا يستخفّ بعدالة الله إلا غبي أحمق :

هذه هي عظمة الأنبياء ، لا محاباة عند الله ، الله عزَّ وجل لا يقرِّب إنساناً على باطل ، لا يُقرِّب معتدياً، لا يقرِّب ظالماً ، بل إنه يقرِّب إنساناً مستقيماً ، يقرب إنساناً محسناً ، لأن الله كامل ..

((إنَّ اللَّهَ طيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طيِّبًا))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

فإذا كان رسول الله اللهمَّ صل عليه يقول :

(إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

إذا كان سيدنا عمر قال : << والله لو أن الله أنزل على نبيّه أنه معذِّبٌ واحداً من خلقه لخِفْتُ أن أكون أنا >> ، فإذا كان سيدنا عمر عملاق الإسلام الذي قال : << والله لو تعثَّرت بغلةٌ في الفرات ـ وهو في المدينة ـ لحاسبني الله عنها ، لِمَ لمْ تُصلِح لها الطريق يا عمر ؟ >> ، وإذا كان سيدنا عمر يقول : << ليت أمَّ عمر لم تلد عمر ، ليتها كانت عقيماً >> ، ماذا رأى ؟ ماذا رأى من شدَّة الحساب ، ومن عدالة الله سبحانه وتعالى ؟ لا يستخفُّ بعدالته إلا أحمق ، لا يستخفُّ بعدالته إلا غبي ..

(إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{15} قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ)

قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ

1 ـ لماذا لم يتّهموا النبي عيه الصلاة والسلام قبل البعثة :

أربعين سنة لم أتكلَّم ولا كلمة ، معنى هذا أن الكلام ليس من عندي ، لو كان من عندي لكنت أتكلَّمه وأنا بالثلاثينات ، أتكلَّمه بالخامسة والعشرين ، أتكلَّمه بالعشرينات ، أربعين سنة لم أتكلَّم كلمة ، هذه واحد .

الشيء الثاني: هل جرَّبتم عليَّ من قبلُ كذباً قط ؟

يقولون : إن هرقل ملك الروم التقى بأبي سفيان ، وكان على الشرك قبل أن يؤمن ، حدَّثه عن رسول

الله ، أن عندنا رجلا ادعى أنه نبي ، ويقول : أنا نبي ، وهكذا ، هرقل كان ذكياً قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب ؟ قبل البعثة ؟ قال : " لا والله " ، فقال هرقل : " قد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يكذب على الله " ، هرقل نفسه قال هذا الكلام ..

(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)

الشيء الثاني : عندما استقبل النجاشي وفد المسلمين ، وقال له : يا جعفر حدِّثنا عن نبيُّكم " قال له : " يا أيها الملك ، كنَّا قوماً أهل جاهليَّة نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الرحِمِ ، ونسيئ الجوار ، ويأكل القويَّ منَّا الضعيف .. هذه الجاهليَّة الأولى مثل الثانية .. حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته ، وصدقه ، وعفافه ، ونسبه .. أربعة أشياء ، نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه ..

فدعانا إلى الله لنعبده ونخلع ما يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة، وصلة الرحم ، فعدا علينا قومنا ليعذِّبونا ويفتنوننا عن ديننا ، وقد لجأنا إليك " فقال : " أنتم آمنون في بلادي " ، إذاً :

(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)

من معاني عُمُراً من قبله : أنني في هذا العمر لم أتكلَّم كلمة في القرآن ، معناها الآن هو ليس من عندي .

2 ـ الأمين قبل البعثة وبعدها :

المعنى الآخر : أنني كنت عندكم صادقاً وأميناً فهل يُعْقَلُ أن أكذب الآن ؟ ..

(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)

يقولون : إن عمرو بن العاص كان صديقاً لمسيلمة الكذَّاب ، التقى معه قال له : " ماذا يقول الآن نبيُّكم؟ .. أي قل لنا ما هي آخر الأخبار ؟ ، قال له : " يزعم أنه نزل عليه قوله :

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(3))

(سورة العصر)

فقال له : " أنا كذلك أنزل عليّ مثل هذا الكلام " قال له : " ما هذا أسمعنا " قال له : " يا وَبَر يا وبَر إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حقرٌ نقر " ، فقال له عمرو بن العاص : " والله إنك لتعلم أني أعلم أنك كذَّاب "..

(قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)

ثم يقول الله عزَّ وجل :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ

1 ـ الافتراء على الله والتكذيب بآياته من أكبر الجرائم :

ربنا عزَّ وجل وصف هذا العمل بأنَّه جريمة ، هناك جريمتان ؛ الأولى أن تفتري على الله كذباً ، أن تزعم أنه قد أوحي إليك ولم يوح إليك ، أن تزعم شيئاً لم يقله الله ، أن تبدِّل في الدين ، أن تغيّر ، أن تزوِّر ، أن تحرِّف هذه جريمة ، والجريمة الثانية هي أن تكذِّب بالحق ، الافتراء على الله بالكذب جريمة ، والتكذيب بالحق جريمة ..

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

ليس هناك إنسان أظلم ..

(مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

ابن سلاَّم حينما كان في المدينة المنوَّرة وقدِمها النبي عليه الصلاة والسلام مهاجراً قال : " انجفل الناس إليه ، فلمَّا رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب .. من رآه بديهة هابه ومن عامله أحبَّه .. فلمَّا سمعه يقول :

((أيها الناس افشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنَّة بسلام))

[أحمد]

انشرح قلبي للإسلام .

2 ـ لابد من معرفة المصير المحتوم :

هناك أمور مصيريَّة في حياة الإنسان ، أخطر موضوع تعالجه موضوع الإيمان بالله عزَّ وجل لأنك بعد الموت سوف تكون مع الله إلى الأبد ، فإذا كنت قد آمنت به من قبل وعرفته ، واستقمت على أمره ، وأطعته وتقرَّبت إليه سعدت إلى الأبد ، وإن كنت قد أعرضت عنه ، ولم تطع أمره ، وأسأت إلى عباده، ثم كان منقلبك إليه ، ورجعت إليه ، فرأيت العمل السيئ ، هذا العمل أشقاك إلى الأبد ، هذا موضوع خطير جداً ، أن تعرف أين المصير ، الناس في غفلة عن هذا ، النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((والذي نفس محمدٍ بيده لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ ـ تختفي قابليتكم نـهائياً ـ ولا شربتم شراباً ، ولذهبتم إلى الصعُدات تلدمون أنفسكم وتبكون عليها))

[ورد في الأثر]

الإنسان يوم القيامة حينما يأتيه الموت يصرخ صرخةً لو سمعها أهل الأرض لصُعِقوا بها ، الآن قبل فوات الأوان ونحن أصحَّاء ، ونحن في قوَّتنا ، وصحَّتنا ، اِعرف الله في الرخاء قبل أن تضطر إلى معرفته في الشدَّة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (06-17): تفسير الآيات 17 – 23

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-10-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي في سورة يونس إلى قوله تعالى :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُون

1 ـ لا أشد ظلما ممّن يفتري الكذب على الله :

كلمة أظلم اسم تفضيل ، أي الأشد ظُلْمَاً ، أي أن هناك ظالمٌ وهناك أظلم ؟ من هو الأظلم ؟ من هو الأشد ظلماً ؟ من هو الأكبر ظلماً ؟ من هو الأكثر ظلماً ؟ هو الذي يفتري على الله الكذب ، الذي يشرِّع من تلقاء نفسه ، الذي يقول : قال الله ، ولم يقل الله ، الذي يحرِّف ، الذي يزوِّر ، الذي يؤوِّل تأويلات تغطي انحرافاته ، هذا الذي يفتري على الله الكذب ، هذا الذي يضع حديثاً لا أصل له ، أو هذا الذي يأتي بتأويل لا أصل له ، أو هذا الذي يجر الآيات كي تتوافق مع انحرافاته هذا الذي يفتري على الله الكذب ، إنه الأشد ظلماً ، والأعظم ظلماً ، ظلَم لمن ؟ ظلَم نفسه أولاً ، والناس ثانياً .

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

أي : هل في الأرض إنسان أشد ظلماً من هذا ؟ هذه :

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

هل في الأرض كلها إنسانٌ أشد ظلماً من هذا الذي يفتري على الله الكذب ، من هذا الذي يقول : رأيت في المنام كذا وكذا ، رأيت النبي عليه الصلاة والسلام في المنام وقال لي : كذا وكذا ، ولم يقل له كذا وكذا ، والافتراء على الله عزَّ وجل سواء بتأويل آياته تأويلاً غير صحيح ، أو الافتراء على النبي عليه الصلاة والسلام بأنه قال ولم يقل ، أو بتوجيه الآيات والأحاديث توجيهاً مغايراً للحقيقة ، هذا الذي يفتري على الله الكذب هو الأشد ظلماً .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ)

هناك ظالمان ، أو هناك مجرمان ، بدليل قوله تعالى :

(إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

2 ـ المفتري على الله مجرمٌ غير مفلح :

فهذا الذي يفتري على الله الكذب ظالمٌ مجرم ، وهذا الذي يكذب بالحق ظالمٌ مجرم ، ظالمٌ بحق نفسه ، مجرمٌ بحق الآخرين ، هذا الذي يصد الناس عن سبيل الله ، هذا الذي يستخف بآيات الله ، يكذبها ، يريد أن يطفئ نور الله عزَّ وجل ، هذا أشد ظلماً لنفسه ومجرمٌ في حق الناس .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ{17} وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ)

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ

1 ـ من العجب أن تتعلق بمخلوق وتترك الخالق :

أي أن من العجب العُجاب أن تتجه إلى مخلوقٍ وتدع الخالق ، أن تعلّق آمالك على إنسان وتيأس من روح الله ، من العجب العجاب أن تخشى فلاناً ولا تخشى الله ، أن ترجو ما عنده ولا ترجو ما عند الله .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ)

وفي الأثر عن علي :

((ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته ، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً ، وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيته إلا أهويت الأرض من تحت قدميه ، وقطعْت السماء بين يديه))

[كنز العمال]

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ)

هذا القرآن ليس للسماع بل للتطبيق ، راقب نفسك ، هل تعبد أحداً من دون الله ؟ هذا الذي يطيع زوجته ويعصي ربه تنطبق عليه هذه الآية يعبدها من دون الله ، هذا الذي يطيع شريكه ، ويأكل الربا ، ويعصي الله عزَّ وجل يعبده من دون الله ، هذا الذي يأمر بمعصية ويعصي الله إرضاءً لهذا الذي أمره هذا يعبده من دون الله .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ)

سيدنا هود قال :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِي(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

2 ـ كمالُ التوحيد أن لا ترى مع الله أحدًا :

كمال التوحيد أن لا ترى مع الله أحداً .

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41))

(سورة الرعد)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(20))

(سورة غافر)

هذا هو التوحيد أن لا ترى مع الله أحداً ..

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : من الآية 17)

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)

(سورة محمد : من الآية 19)

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر : من الآية 2)

((وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[سنن الترمذي عن ابن عباس]

إذا تيقَّنْتَ أن أمورك كلها بيد الله فأنت موحِّد ، أنا أقول : كلها ، أمورك كلها لا بعضٌ منها ، لقوله تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

ما أسخف هؤلاء ، ما أحمقهم ، ما أشد غباءهم ، ما أضلهم ، ما أبعدهم عن الصواب ..

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ)

يروي التاريخ أن أحد التابعين عاصر أحد الولاة من قبل يزيد بن عبد الملك ، فجاء هذا الواليَ أمرٌ لا يرضي الله عزَّ وجل ، فاستشار هذا التابعي فقال له كلمة ، قال له : " إن الله عزَّ وجل يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله " .

أحد الولاة في عهد سيدنا عمر كتب إلى عمر بن الخطاب : " أن أناساً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم ، لست أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسَّهم بالعذاب ، فإن أذنت لي فعلت " ، فأجابه سيدنا عمر : " سبحان الله !! .. متعجباً .. أتستأذني في تعذيب بشر ؟ وهل أنا لك حصنٌ من عذاب الله ؟! وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البيِّنة ، فإن قامت فخذهم بالبينة ، ثم ادعهم إلى الإقرار ، فإن أقروا فخذهم بإقرارهم ، فإن أنكروا فأدعوهم لحلف اليمين ، فإن حلفوا فأطلق سراحهم ، وايم الله لأن يلقوا الله بخياناتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم " .

يروي التاريخ أن في عهد عمرو بن العاص رضي الله عنه في مصر جفَّت مياه النيل ، والمصريون القدامى كان إذا جَفَّ نهر النيل ألقوا فيه فتاةً في ريعان الصبا حتى يرضى ، ويفيض عليهم بمائه ، فلما جف تكلَّم الناس في موضوع إلقاء فتاةٍ فيه بحسب تقاليدهم السابقة ، سيدنا عمرو بن العاص رأى هذا مخالفاً للشرع ، وتحت ضغطٍ شديد قال : " سأستشير أمير المؤمنين " ، فلما استشاره بعث إليه سيدنا عمر بالرسالة التالية قال : " من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، يا نيل ، إن كنت أنت تجري فلا تجري ، وإذا كان الله يجريك فسوف تفيض " ، وبعد هذه الرقعة فاض النيل ، بعد أيام هطلت الأمطار الشديدة ، وفاض نهر النيل ، فالدين كله توحيد ..

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة الأعراف : من الآية 59)

لذلك : " إني والإنس والجن في نبأٍ عظيم أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي " .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ)

وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ

منطق الحمقى والمغفَّلين :

كذلك أهل الفسق والفجور ، وأهل النفاق عندهم شيء من المنطق حسب رأيهم ، نحن معاذ الله لا نعبدهم إيَّاهم ولكننا نتخذهم شُفَعَاء ، فيا سبحان الله ! إن كانوا لا يملكون نفعاً ولا ضراً في الحال ، فهل يملكون الشفاعة في المآل ؟ إن كان الآن لا يملك نفعاً ولا ضراً فهل يملكها في المستقبل ، يوم يقوم

الناس لرب العالمين ؟

شيء آخر .. رد عليهم الله سبحانه وتعالى :

(قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ)

قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ

إذا كان الله لا يعلم هؤلاء الشفعاء فهم عدمٌ :

أي أن إذا كان الله لا يعلمهم فهم غير موجودين ، الإنسان قد لا يعلم وجود هذا الشيء ، والشيء موجود ، قد تُمْسِك كأس ماء فتراه صافياً ، مع أن فيه ملايين الأحياء الدقيقة ، فعدم رؤيتك لهذه الأحياء لا ينفي وجودها ، وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود .. هذه قاعدة في الفلسفة .. لأن الإنسان محدود ، لكن الله سبحانه وتعالى الذي أحاط بكل شيءٍ علماً ، الذي وسع كرسيه السماوات والأرض أي علمه ، الذي يعلم السر وأخفى ، إذا كان الله لا يعلم هؤلاء الشفعاء فهم بالتأكيد غير موجودين .

(قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ)

هؤلاء الشفعاء :

(إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة النجم : من الآية 23)

هذا اختلاقٌ من عندكم ، هذا افتراءٌ على الله سبحانه وتعالى :

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً)

معنى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً

1 ـ المعنى الأول :

هذه آية مهمة ، الناس أمةٌ واحدة ، بمعنى أن فطرتهم واحدة ، إمكاناتهم واحدة ، إمكانات الناس كلّهم واحدة ، أي أن كل الناس عندهم استعداد أن يؤمنوا بالله عزَّ وجل ..

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(44))

(سورة طه)

لولا أن فرعون يملك إمكانية الهدى لما أرسل الله له موسى ، هل أرسل موسى تمثيلاً ؟ حاشا لله ،

أرسله لأن فرعون يملك إمكانية الهدى ، الناس جميعاً أمة واحدة ، بمعنى أن بنيتهم النفسية واحدة ، استعداداتهم واحدة ، إمكاناتهم واحدة ، فطرتهم واحدة ، قوانينهم النفسية واحدة ، وقد جُبلت النفوس على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .

هذا ممّا جُبل عليه الإنسان :

المعنى الأول:

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا(28))

(سورة النساء)

وَ ..

(خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

(سورة الأنبياء : 37)

هذه بنيته ، يخاف ، يقلق ، يحب الخير ، يحب السلامة ، يحب المحسن ، يحب العدالة ، وإن لم يكن عادلاً ، يحب الطهارة ، وإن لم يكن طاهراً ، حتى المنحرفون ، حتى اللصوص إذا اقتسموا الغنائم يقتسمونها فيما بينهم بالعدل ، لأن فطرتهم هكذا ، فربنا عزَّ وجل قال :

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً)

هذه من معاني أمة واحدة ، أي بلا خلاف ، فلو أحضرت إنسانا من الألسكا ، من جنوب إفريقيا ، من جنوب استراليا ، من كندا ، من سيبيريا ، من اليابان ، من القطب الشمالي ، الإنسان هو الإنسان ، يحب السلامة ، يحب المحسن ، يحب الخير لنفسه ، في قلبه محبة لأولاده ، منطقي ، واقعي ، هذا هو الإنسان ، خلق الله عزَّ وجل الناس على فطرةٍ سليمة ..

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم : من الآية 30)

لذلك لا يوجد فواصل بين الأمم والشعوب ..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13))

(سورة الحجرات)

هذا المعنى الأول من معاني :

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً)

المعنى الثاني :

أن الناس جميعاً مدعوُّون للإيمان بالله عزَّ وجل ، قال :

(قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة الأعراف : من الآية 156)

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

خلقهم ليرحمهم ، ورحمة الله مبذولة لكل الناس ، بقي علينا أن نكون أهلاً لها ، اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ..

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً)

أي يجب أن تكون البشرية أمةً واحدة ، لما بين كل إنسان من تواصل ، لأن كل إنسان فُطِرَ فطرةً سليمة .

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ

اختلاف الناس سببُه اتباع الأهواء :

لكن ما الذي فرَّق الناس شيعاً ؟ وفرَّقهم أحزاباً ، وفرقهم قبائل ، وفرقهم تجمُّعات ؛ تجمعات عرقية ، وتجمعات إقليمية ، وتجمعات مذهبية ، وتجمعات بحسب العمل والمِهَن والطبقية ، من الذي فرقهم ؟ قال :

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ)

الأهواء فرَّقتهم ..

(لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال : 63)

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر : من الآية 14)

ما الذي فرق بينهم ؟ الأهواء ، هؤلاء انغمسوا في الخمور ، هؤلاء انغمسوا في كسب المال الحرام ، هؤلاء انغمسوا في مباهج الدنيا الرخيصة ، والانغماس في الدنيا جعلهم هكذا .

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

1 ـ الدنيا للعمل والآخرة للجزاء :

إن الله سبحانه وتعالى قال كلمة ؛ أن يوم الدين هو يوم الجزاء ، وأن الحياة الدنيا دار عمل ودار امتحان ، وأن يوم الدين هو يوم الجزاء ، لولا أن الله سبحانه وتعالى وعدنا بيوم الجزاء لحاسب المسيء في الدنيا وقضى عليه ..

(وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

2 ـ كلّ إنسان يزعم أن السعادة في الجهة التي يراها :

أحياناً يكون عشرة أشخاص على وشك الموت عطشاً ، وأحدهم توهَّم النبع في هذا المكان ، وآخر توهمه في هذا المكان ، وثالث توهمه في هذا المكان ، ورابع أنكر وجود النبع ، وهناك نبعٌ واحد في مكان محدد ، الذي تطابق اعتقاده مع الحقيقة هو الذي ينجو ، وما سوى ذلك يهلك ، وفي وقتٍ محدود تعرف صدق هؤلاء العشرة ، هذا الذي ادعى أنْ ليس هناك نبع ، وكان هناك نبع خسر حياته ، وهذا الذي ادعى أن النبع في هذه الجهة ، ولم يكن في هذه الجهة خسر حياته وخسر آخرته ، وهذا حال الناس اليوم ، كلٌ يزعم أن السعادة في هذه الجهة ، بعضهم يراها في المال ، يكتشف بعد فوات الأوان أن المال شيء ، ولكنه ليس كل شيء ، وبعضهم يرى السعادة في العلو في الأرض ، يكتشف بعد فوات الأوان أن العلو في الأرض شيء ولكنه وليس كل شيء .

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[سنن الترمذي عن أنس بن مالك]

إذاً :

(فَاخْتَلَفُواْ)

فإذا اختلفت مع أخ لك في المذهب ، في المشرب ، في الأسلوب ، في الطريق ، في الهدف ، وكنت أنت على حق فهنيئاً لك أولاً ، ونرجو أن يهتدي أخوك ثانياً ، لكن القضية قضية خطيرة ، قال النبي عليه الصلاة لابن عمر :

((ابن عمر ، دِينك دينك ، إنه لحمك ودمك ، خذ عن الذي استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال]

وكلٌ يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقِرُّ لهم بذاكا

فالواحد ينظر إلى قيمه ومعتقداته ، عقيدته صحيحة أم لا ، هل يعتقد أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق، شقيهم شقي من الأزل ، وسعيدهم سعيد من الأزل ، وانتهى الأمر ، تقول : فيم العمل إذاً ؟ العمل صار تضييع وقت ، هذه عقيدة خطيرة جداً ، هل تعتقد أن الله خلق الكافر كافراً ، وليس هناك أي تعديل ؟ لماذا أرسل موسى إلى فرعون ؟ أرسله تمثيلاً ؟ فالإنسان يمتحن عقيدته ، الخطأ في العقيدة خطير جداً .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام : من آية 148)

يمتحن ظنه بالله عزَّ وجل ، وربنا عزَّ وجل قال :

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)

(سورة الأعراف : من الآية 180)

فهل يقينك بأن أسماء الله حسنى كلها ؟ أين الدليل ؟ ماذا تعرف عن أسماء الله عزَّ وجل ؟ ماذا تعرف عن رحمته ؟ ماذا تعرف عن حكمته ؟ عن لطفه ؟ عن غناه ؟ عن قوته ؟

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً)

أي أن البشر جميعاً أبيضهم وأسودهم ، أحمرهم وأصفرهم مدعوُّون إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، وبُنْيَتُهم واحدة ، وإمكاناتهم واحدة ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لا يوجد عذر ، أن تقول : لا أستطيع ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، النفس تستطيع أن تطبِّق أمر الله عزَّ وجل في كل زمانٍ وفي كل مكان ..

(وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ)

1 ـ الكونُ كلّه آياتٌ :

الكون كله آيات ، ربنا عزَّ وجل قال :

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20))

(سورة الذاريات)

جسمك كله آيات ، شعرك آيات ، مائتان وخمسون ألف شعرة ، في كل شعرة شريان ، ووريد ، وعصب ، وعضلة ، وغدة دهنية ، وغدة صبغية، لكل شعرة .

الدماغ آية ، فيه مائة وأربعون مليار خلية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد ، أربعة عشر مليار خلية قشرية تجري فيها المحاكمة ، والتخيل ، والتذكُّر ، وكل النشاط العقلي في هذه الخلايا .

في العين مائة وثلاثون مليون عصية ومخروط في الشبكية ، العصب البصري أربعمائة ألف عصب ، الأذن ، اللسان ، المعدة في كل سنتيمتر مربع ثمانمائة عصارة هاضمة ، مجموع هذه العصارات تفرز لتراً ونصفاً من العصارة الهاضمة في كل وجبة طعام ، والمعدة لا تهضم نفسها ، وحتى هذا التاريخ هناك سؤال كبير : كيف لا تهضم المعدة نفسها ؟ فأنت تأكل اللحم وتهضمها وهي من لحم ، الجهاز الهضمي ، البنكرياس ، الكبد .

بعضهم قال : الكبد خمسة آلاف وظيفة ، لا يستطيع الإنسان أن يعيش من دون كبد أكثر من ثلاث ساعات ، والكبد يستطيع ترميم أي جزءٍ يقتطع منه في أسابيع ، الكبد آية ، ومخبر كيماوي ، مخزن ، الكبد في عنده إمكانات يحول الدسم إلى سكر والسكر إلى دسم ، الكبد آية .

الكلية مصفاة عاقلة ، الدم يمر فيها في اليوم الواحد مائة وثمانون لتراً من الدم ، أي برميل بكاملة يمر بالكلوة كل يوم ، فيها طريق طوله عشرون كيلو متراً ، يمر فيه الدم بالنهار خمسة مرات ، أي أن الدم يمشي في الكلية كل يوم مائة كيلو متر ، تصفي الدم من السموم والسوائل الزائدة ، وتفرز ثلاث هرمونات ، هرمون مضاد لفقر الدم ، وهرمون ينظم ضغط القلب ، وهرمون ثالث ، فالذين يصابون بالتهاب في الكلوي يرتفع ضغطهم فجأةً ، والكلية وحدها لو توقفت عن العمل لانقلبت حياة الإنسان جحيماً .

أثر الأسيد أوريك أو البولة في الدم مخيف ، هذا السم إذا زادت نسبته في الدم يشل النشاط العقلي ، ويوتر الأعصاب ، ويخرج الإنسان عن طوره ، بتراكم السموم ، فلما يفرِّغ الإنسان المثانة يجب أن يشكر الله عزَّ وجل شكراً كبيراً ، ويقول : الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني ، وابقى لي ما ينفعني .

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20))

(سورة الذاريات)

الآيات موجودة ، الشمس آية ، القمر آية ، الجبال آية ، المياه العذبة آية ، الأمطار آية ، البحار آية ، أنواع النباتات آية ، أنواع الأطيار آية ، أنواع الأسماك آية .

ابنك آية ، ابنتك آية ، البنت تمسك بالمخدة ، وتضعها على صدرها وهي صغيرة ، بنيتها النفسية أمّ ، والطفل يركب عصاه ، كأنها حصان يركبه ، بنيته النفسية رجل ، عندما يكبرون تجد أن الصفات قد اختلفت ، خشن صوته ، وبقي صوتها ناعما ، فصفات الذكور عندما تظهر عند البلوغ آية من آيات الله عزّ وجل ، وصفات الأنوثة حينما تظهر آية من آيات الله ، لذلك :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم : من الآية 21)

لم ينظر لخلقه ، لم ينظر لابنه ، لم ينظر لطعامه ، لم ينظر لشرابه لم ينظر إلى السماء والأرض ، ويطلب آية فيها خرقٌ للقوانين الأرضية !

(وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ)

2 ـ الله وحده يعلم أي الآيات تفيد العباد :

أي أن الله سبحانه وتعالى يعلم وحده ما إذا كانت هذه الآية تفيدكم أو لا ، لو أنها تفيدكم لأنزلها عليكم ، ولكن الذي لا يؤمن بهذا الحشد للآيات لم يؤمن بآية فيها خرقٌ لقوانين الكون..

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمْ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمْ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الأنعام : من آية " 111 ")

أي حتى يسلكوا الطريق التي رسمها الله عزّ وجل ، وما لم يسلكوا الطريق التي رسمها الله عزّ وجل فلن يستطيعوا أن يؤمنوا بآيات الله ، فهؤلاء مع كثرة الآيات التي بثّها الله سبحانه وتعالى لم يؤمنوا ..

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17))

(سورة الغاشية)

3 ـ ألم ينظروا إلى مخلوقات الله فإنها أعظم آيةٍ ؟

الإبل :

الإبل تعيش في الصحراء ، عندها جفن إذا أطبقته ترى طريقها ، ويمنع الجفن رمال الصحراء الدقيقة من أن تؤذي عينيها ، ولها مستودعٌ يكفيها شهراً ، لو أنها لم تأكل ثلاثين يوماً بأكملها لكان مستودع الغذاء الذي وضعه الله في سنامها يكفيها عن الطعام شهراً ، وعندها خزّانات للمياه تكفيها عشرة أيام ، تستطيع الناقة أن تمتنع عن شرب الماء عشرة أيام بكاملها ، وجعل لها خفاً لا يغوص في الرمال ، يتناسب مع الرمال ، وجعل لها جلوساً نظامياً كي يسهل تحميلها ، جعل لها ثفينات ، ثفنة في بطنها ، وثفينات في أرجلها وأيديها ، إذا جلست يستطيع صاحبها أن يحمِّلها ، لو أنها تجلس كما يجلس الحصان على جنبه كيف يحملها ؟

إذاً :

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(18)وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(19)وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(20))

(سورة الغاشية)

النحل :

ألم ينظروا إلى النحل ؟ هذا المخلوق الضعيف الذي يصنع لك شراباً لذيذاً ، شافياً ، مفيداً ، من منا يصدق أن كيلو العسل محصلة طيران أربعمائة ألف كيلو متر .. لو كلفنا نحلةً واحدة أن تصنع كيلوا من العسل لكلفها أن تطير أربعمائة ألف كيلو متر .. أي حول قطر الأرض عشرة مرات ، كيف تختار النحلة رحيق الأزهار ؟ لذلك المؤمن كالنحلة إذا وقعت لا تؤذي ولا تكسر ، وإذا رحلت عن هذه الزهرة تركت رسالةً لأختها ، هذه الزهرة قد مصصتُ رحيقها فلا تتعبي نفسكِ بها ، من أعطى هذه المملكة نظامها ؟ عاملات حارسات يقفن على أبواب الخلايا ، فإذا جاءت نحلةٌ من غير هذه الخلية قتلنها ، إلا أن تقول كلمة السر ، فإذا قالت كلمة السر دخلت ، من علّمها هذا ؟ نحلاتٌ منظّفات ينظفن الخلية ، فإذا عثرن على جسمٍ أو على حشرةٍ كبيرةٍ لا يستطعن نقلها غلّفنها بمادةٍ شمعية ، لئلا تفوح منها رائحتها النتنة ، من علم النحل ذلك ؟ الله سبحانه وتعالى ، نحلاتٌ مهمتهن تهوية الخلية ، فإذا كان الوقت شتاءً أغلقن أبواب الخلية بأجنحتها ، وإذا كان الوقت صيفاً فعلن بالأجنحة .. هكذا .. فنشأ تيارٌ في جو الخلية رطّب الجو .

من علّم النحلة أن ترقص لأخواتها رقصةً تعبِّر بها عن بعد الزهر عن الخلية ؟ هناك رقصة تشعر أن الزهر قريب ، هناك رقصة كأنها تقول للنحلات : استعدوا لسفرٍ طويل ، إذا كان عشرين كيلو مترا فما فوق فلها رقصة دائرية ، وإذا كان ربع دورة معنى ذلك أن الزهر قريب من الخلية ، من علّم هذه النحلات ؟ من علم النحلات صنع البيوت السداسية المنتظمة التي يعجز المهندسون عن رسمها ؟ فكيف عن صنعها ؟ هناك نحلات وصيفات مهمتها تأمين طعام الملكة ، هناك ملكة ، فإذا جاءت الخلية ملكة أخرى قتلت لأن القيادة يجب أن تكون بيد واحد ، فأشياء وأشياء عن النحل ، النحل آية من آيات الله .

النمل :

النمل .. النمل إذا خرج من وكره ، وسار ورأى في الطريق طعاماً يبث رسائل كيميائية في الطريق ، أي أنه يضع نقطة فيها رائحة بحيث أن النملات الأخريات خلال دقائق يسرن على الخط نفسه ، هناك رائحة تجذب النملات إلى الطعام ، وهناك رائحة تنفِّر النملات من المجيء ، إذا وجدت خطرا أو ماء ، أو شيئا مخيفا تعطي إشارات كيمائية معاكسة ، من علم النملة ذلك ؟

(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)

(سورة النور : من الآية 41)

النمل آية ، النحل آية ، الفراش آية .

دود القزّ :

دود القز وحده آية ، تصنع خيطاً لا تستطيع الآلات الحديثة حتى الآن صنع خيوط بهذه النعومة ، وبهذا القطر الرفيع ، حرير .

كأس الحليب آية ، البيضة آية ، الدجاج ، البقر ، الجمل ، أنت محاط بالآيات ، ومع ذلك :

(وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ)

كل هذه الآيات لا تكفي ؟ حسبكم الكون معجزة ، الكون وحده معجزة .

(فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ)

فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ

المعنى الأول :

لا يعلم الغيب إلا الله ، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

أنه إذا أنزل الله عليكم آية ، الله وحده يعرف ما إذا كنتم تؤمنون أو لا تؤمنون .. " علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون " ، لم تنزّل عليهم آية ، الله وحده يعلم لو أنزلها عليهم ماذا يفعلون .

(فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ{20} وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا)

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا

انقلاب الإنسان بعد الشدة :

الإنسان يكون ضعيفاً ، يكون مريضاً ، يكون فقيراً ، يكون مستضعفا ، يقول : يا الله ، يا الله ، فإذا أزال الله عنه كربه ومصيبته عاد يفكر في صد الناس عن سبيل الله .

(قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً)

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا

حدثني أخ كريم ، رجل عنده محل تجاري له ولإخوته الثلاثة ، لكنه أكبرهم ، وقد وضع يده على هذا المحل ، جاءه مرض عضال ، نوبة قلبية حادة كان على مشارف الموت ، ماذا فعل ؟ طلب آلة تسجيل، وقال ، وهو يظن أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة : إن هذا المحل ليس لي ، إنه لأخي فلان وأخي فلان ، وأخي فلان ، خاف ، فلما زالت عنه هذه النوبة ، طلب هذا الشريط وأخفاه ، وتابع العمل في المحل ، ثم طوَّب المحل لنفسه ، ووافته المنية بعد ثمانية أشهر ، مات مغتصباً ، فالإنسان أحياناً إذا شعر بدنو أجله

يخاف ، فإذا رفع الله عنه الخوف عاد لينكر ، عاد ليظلم ، عاد ليأخذ ما ليس له .

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً)

لأن الله عزَّ وجل بيده كل شيء ، أنت تريد ، وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد .

(قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً)

إذا شخص قال : أنا غداً أفعل بفلان كذا وكذا ، قلبك بيد الله عزَّ وجل قد يوقفه ليلاً .

مرة قاضٍ أراد أن يحكم لفلان ظلماً على فلان ، وصار الشيء بحكم المقرر ، وقف على قوس القضاء، فإذا بألمٍ في المعدة شديد أخذ على إثره إلى المستشفى ، أين الحكم ؟ الدعوة تأجَّلت ، جاء قاض آخر فحكم بالعدل .

إذاً :

(قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً)

من عد غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت .

(إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)

إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ

كلُّ شيء مسجَّل صغيرُه وكبيرُه :

كله مسجل ، إذا شعر الإنسان أن صوته مسجل ، ينتقي أدق الكلمات ، وإذا شعر أن صورته مسجلة أيضاً ، من حين إلى حين يحسّن وضعه ، لأنهم يقومون بتصويره ، فإذا كان مسجلاً بصورة وصوت فهو تحت المراقبة ، فإذا تيقَّن الإنسان أن الله سبحانه وتعالى يحصي عليه أنفاسه ، وحركاته ، وسكناته، وأقواله ، ونظراته ..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ(19))

(سورة غافر)

ماذا يفعل ؟ هو الفرق فرق علم وجهل فقط ، إما أن تعلم فتنضبط ، وإما أن لا تعلم وسوف تعلم بعد فوات الأوان .

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

كلُّ شيء يسير بتقدير الله :

الإنسان يتحرك وفق خواطر ، الله عزَّ وجل يلهمه أن يسافر ، يكون قد استحق العقاب ، يحدث له حادث فيفقد أحد أعضائه .

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{22} فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

1 ـ صورة حية للرجل اللئيم :

انظر إلى الموقف اللئيم ، وهو على ظهر السفينة ، والسفينة كريشةٍ في مهبِّ الريح ، والأمواج تتلاعب بها ، والحياة أصبحت على وشك النهاية ، يا رب ، يا رب ..

(فَلَمَّا أَنجَاهُمْ)

إلى البر ..

(إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

2 ـ احذر أن يصل بك الكِبرُ إلى كوقف كهذا :

الإنسان في اليابسة يطغى ، أما في الجو ، طائرةٌ دخلت في غيمة مكهربة فاضطربت ، وتعطَّلت بعض أجهزتها ، وكادت تحترق ، فقال ربان الطائرة لبعض المضيفين : أن بلّغ الركاب كذا وكذا ، خرج ليبلغهم ، لا أحد من الركاب عنده استعداد أن يسمع شيئاً ، وهو يبتهل إلى الله ، هذا يصرخ ، هذا يولول، هذا يبكي ، هذا يلطم وجهه ، فتوسَّم في الركاب لعله يرى واحداً يبلّغهم ، فنظر إلى واحدٍ هادئ، فتوجه إليه ليبلغه أن يبلغهم ، فإذا هو مغمى عليه ، في الأرض هو قوي ، يقول : سأفعل كذا وكذا ، من أنت ؟ الخطر القائم في الجو ، أو الخطر القائم في البحر نفسه في البر ، لو علمت أن الله على كل شيءٍ قدير ، قلبك بيده ، حياتك كلها بيدك، لذلك :

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ)

هذه هي الباخرة التي زعموا أن القدر لا يغرقها !!!

صنعوا في عام 1912 باخرة من أضخم بواخر العالم اسمها (التيتانيك)، هذه الباخرة طبعت نشرةً وزِّعت على ركابها كُتب فيها : " إن القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة " ، كتبت هكذا ، كانت مصنوعة بشكل مزدوج ، وبقواطع بين هذا الازدواج ، فأيّ مكان ثُقب تغلق الجدران المحيطة به ، فكأن شيئا لم يحصل ، وفي أول رحلة لها من لندن إلى بوسطن ركب في هذه الباخرة أثرياء أوروبا ، وكانت قد أثّثت بأثاثٍ يزيد على أثاث القصور ، وفيها ما لذ وطاب ، كل أنواع المتع المتوافرة في الأرض في هذه الباخرة ، من مسابح ، إلى قاعات رقص ، إلى مطاعم ، إلى ، إلى .. أثرياء العالم ركبوا في هذه الرحلة الأولى .. وهي في عرض البحر ، في المحيط الأطلسي ، ارتطمت بجبلٍ ثلجي شطرها شطرين ، كانت ترسل إشارات استغاثة من حولها ، ما حولها ظنَّها تحتفل بتدشينها ، ولم يستجب إليها أحد ، ومات ركابها كلهم غرقاً ، قدَّروا أن الحلي التي على صدور النساء بألوف الملايين، فقال بعض القساوسة وقتها : " إن غرق هذه الباخرة درسٌ من السماء لأهل الأرض " ، فما قولكم هذا : إن القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة ؟ ربنا عزَّ وجل قال :

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{22} فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم

البغي يعود على صاحبه وبالاً :

ومما يقترب من هذا التشبيه أن الإنسان أحياناً يمرض ابنه ، تجده يصلي ، زوجته على وشك الولادة ، يخاف أن يأتي المخلوق مشوَّهاً ، يخاف أن تكون الولادة عسرة ، تحتاج إلى ولادة قيصرية ، ومستشفى، تموت الزوجة أيضاً ، يا رب ، وصار يصلي ، قرأ قرآن الآن فقط ، بعد ما ولدت وجاءت له بالصبي ، أقام حفلة مباركة ودعا رجالاً ونساء في اختلاط ، أين كنت ؟ ماذا كنت تفعل ؟ .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم)

فأجمل ما في هذه الآية أن بغيكم ليس على من تظلمونه ، هذا قد عالجه الله على يدكم ، وانتهى ، أما البغي واقعٌ عليكم ..

(إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

ثمار البغي متاع قليل :

أما هنا كلمة متاع منصوبة ، أي أن كل هذه الثمار التي تقطفونها من بغيكم إنما تستمتعون بها في الحياة الدنيا فقط ، فإذا جاء الموت انتهى كل شيء ، فلو أن إنساناً اغتصب بيتاً ، متى يستمتع به ؟ يستمتع في حياته فقط ، بعد الحياة يؤخذ منه ..

الآية الأخيرة :

(فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لو أن أخاً كبيراً اغتصب من أخيه الصغير بيتاً ، إلى متى يستمتع بهذا البيت ؟ في الحياة الدنيا فقط ، لابدَّ من أن يموت ويتركه .

إذاً :

(مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أي أن ثمرات البغي لن تستهلكوها إلا في الحياة الدنيا فقط ، وبعد الحياة الدنيا هناك الحساب الدقيق وهناك العذاب ..

(ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

إذاً : مهما كان الشيء ثميناً عند الإنسان ، مهما كان المكسب كبيراً ، ما دام يستهلكه في الحياة الدنيا فقط ، وسوف يموت فهو متاع قليل ، وسيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كلما دخل إلى مجلسه .. مجلس الخلافة .. كان يتلو هذه الآية :

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

(سورة الشعراء)

يتلو هذه الآية ويجلس ..

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

إذاً : متاع الحياة الدنيا ، لذلك :

اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمن سواك .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (07-17): تفسير الآيات 23 – 27
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-11-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي في سورة يونس إلى قوله تعالى :

تقرير ما سبق في الدرس الماضي :

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ)

1 - لا ينجي من الشدائد إلا الله تعالى :

أي في سفينةٍ ..

(وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ(22)فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

2 - ما هو البغي ؟

هنا الآية :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

البغي : التجاوز ، العدوان ، الاغتصاب ، الإسراف ، هذا البغي عائدٌ عليكم ، حجم البغي منصبٌ عليكم ..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

انتهى المعنى ، الآن جاءت فقرة أخرى ، وهي :

(مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

3 - إنْ كان للبغي ثمار فلا تعدو أن تكون دنيويةً زائلة :

أي إن ثمار البغي إن كانت له ثمار ، ثمار البغي لا تستفيدون منه إلا في الحياة الدنيا ، والحياة الدنيا موقّتة ، لو أن إنساناً اغتصب أرضاً ، يزرعها ، ويفلحها ، ويجني ثمارها ويبيع الثمار فلا يستفيد منها

إلا في الحياة الدنيا ، فإذا جاء الموت انقطعت عنه وحُوسِبَ عليها ..

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أتستأهل هذه الدنيا أن تأخذ ما ليس لك ، ثم تُعَذَّب إلى الأبد ؟

سألت مرَّة رجلاً قلت له : أجبني وأنصِف ، لو أعطيناك مبلغاً من المال كبيراً جداً إلى درجة أنه يصعب إحصاؤه ، وقلنا لك : تمتَّع فيه خلال خمسة أعوام في أي مكانٍ تشاء ، وانغمس في كل الملذَّات والشهوات ، ولا تدع مكاناً إلا وترده ، ولا ملهىً إلا وتسكنه ، ثم لابدَّ من عذابٍ أليمٍ بئيسٍ لأسبوعٍ فوق طاقة التحمُّل ، هل ترضى ؟ قال : لا والله ولا ساعة ، ولكن كيف ترضى العكس ، أن تكون الحياة الدنيا محدودة ، ومتعتها محدودة ، والعذاب الذي تسبِّبه أبدي ؟ لذلك ربنا عزَّ وجل قال :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

4 ـ البغي يعود على صاحبه بالوبال :

البغي كلُّه عليك ، عائدٌ عليك .. أحد الناس كان في حالة سُكْرٍ شديد .. هكذا قرأت قصَّة في جريدة .. وهو سكران ذبح امرأته وخمسة من أولاده ، أنا تصوَّرت أن أحداً لم يدر به ، وأن أحداً لن يحاسبه ، وأن أحداً لن يقبض عليه ، بعد أن ذهب السُكْرُ وصحا ، ورأى هذه الزوجة المخلصة الأمينة الوفيَّة ، الطيّبة الطاهرة ، وهؤلاء الأولاد كالملائكة كلُّهم غارقون في دمائهم ، تصوروا حالته عندئذٍ مثل هذا السكير لو أن أحداً لم يحاسبه ، فإنّ نفسه تحاسبه عندما يصحو

اعتدى إنسان على قريبته ذات يوم ، فأخذوه إلى السجن ، فذبح نفسه داخل السجن ، قطع الوريد ، ومات منتحراً لشدَّة ألمه النفسي .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

إيّاكم والظلم :

الإنسان أحياناً يفعل أفعالاً لا تحتملها نفسه لو صحا ، الآن هو في غيبوبة ، الآن في سُكْر ، الآن هو في نوم وغفلة ، والناس نيامٌ ، إذا ماتوا انتبهوا .. يفعل ، ويترك ، ويأكل ما ليس له ، ويعتدي ، ويؤذي، ويسبِّب تعاسة فتاة إلى ما شاء الله من أجل لذَّةٍ طارئة ، حينما يصحو ضميره ، حينما تنقطع عنه الدنيا ، حينما يواجه الحقيقة ، حينما يصبح بصره حديداً وثاقباً عندئذٍ لا تحتمل نفسه تبعات عمله ، نفسه وحدها تحاسبه ، ويحكم على نفسه بالانتحار كما رأيتم مع الذي اعتدى على قريبةٍ ، لذلك : " إن

العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول : يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى ، وإنه ليعلم ما فيها من شدَّة العذاب " .

هذا فضلاً عن عذاب النار المُحرق ، وعن العذاب الجسدي الذي أكَّدته الآيات ، هذا الذي قتل زوجته وأولاده الخمسة لو لم يُحاسَب ، لو لم يُقبَض عليه ، لو لم يُسَق إلى السجن ماذا تفعل فيه نفسه ؟ إنها تُهلِكه ..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

يجب على الإنسان ألا يكون مسرفاً ، ومن الممكن أن يتمنى في ساعة الغفلة وغمرة الشهوة أن يأخذ ما ليس له ، فإذا صحا وعرف حجم بغيه وعدوانه عندئذٍ يذوب ألماً قبل أن يعذِّبه الله عزَّ وجل ..

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

فهذا البغي متى تستفيد منه ؟ في الدنيا فقط ، كما قلت قبل قليل : لو أخذت أرضاً ليست لك ، فإذا جاء الموت ، انقطعت منفعتها ، وجاءت تبعتها ، فذاق ويلاتها ، ولو أن إنساناً سرق مبلغاً كبيراً ، وصرف جزءاً منه ، صرف مثلاً واحد بالمائة منه ، ثم ألقي القبض عليه ، وسيق للمحاكمة ، وصدر القرار بإعدامه ، وهو يصعد درجات المشنقة تكون المنفعة قد انقطعت ، وبدأت التبعة ، هذه هي المسؤوليَّة ، وهذا هو الجزاء ..

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

يجب على الإنسان ألا يطغي على زوجته ، ولا على جيرانه ، ولا على صانع عنده في المحل ، ولا على إنسان أدنى منه ، ولا على إنسان أضعف منه ، ولا على صغير لا يقوى على مناقشته .

(إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

علامة النضج الخوف من الله ..

(مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أي أن هذا البغي لن تستفيدوا منه إلا في الحياة الدنيا فقط ، وحصراً ..

(ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

5 ـ هذه هي حقيقة الحياة الدنيا في التمثيل القرآني :

الآيات القرآنيَّة مترابطة يأخذ بعضها برقاب بعض كأنَّها عِقدٌ نفيس ، فما هي هذه الحياة الدنيا ؟ الله سبحانه وتعالى ساق لنا صورةً عن الحياة الدنيا فقال :

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ)

هذا النبات له جذور روّاها الماء ، فانتعشت ، نمت ، أزهر النبات فلبست الأرض حلّةً قشيبة ، فانظروا إلى بستان في الربيع إنه مثل الجنَّة ..

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ)

بعضهم قال :

(كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ)

أي اختلط الماء بالأرض ثم .. الاستئناف وتتمة الآية ..

(فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ)

أي أن نبات الأرض بسببه ، أو اختلط الماء بالنبات اختلاطاً ، أي أن المواد الموجودة في التربة ذابت في الماء ودخلت إلى الجذر عن طريقه..

(مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ)

أي أن شجرة التفَّاح أزهرت ، وشجرة المشمش أزهرت ، والقمح نما ، وبسقت أسواقه ، والشعير مثله، والحمُّص والعدس كذلك ، والفول ظهرت بوادره ، وجميع أنواع الخضراوات ، وأنواع الفواكه ، والثمار ، والبرسيم طعام الأنعام أيضاً كلها آتت أكلها ، والحشائش الخضراء ، وأنواع الأزهار تفتحت والأعشاب تطاولت وارتفعت ..

(مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ)

ففرح بها صاحبها .. وصار بستانه كالجَّنة ، أرضه خضراء ، أشجاره مورقة مثمرة ، مياهه عذبة ، أزهاره فوَّاحة نضرة..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا)

أي أن الزخرف هو تمام الكمال ..

(وَازَّيَّنَتْ)

أي أن البستان أصبح مزَّيَّناً بالأزهار ، وغدا بهجة للناظرين ، مخضوضراً بالحشائش وتنوعت فيه الثمار وتنافت فيه طعومها ..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

أي قادرون على جنيها ، وعلى قطافها ، وعلى توضيبها .. كما يقولون .. وعلى تسويقها ، وعلى بيعها ، وعلى قبض ثمنها ..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

هذه الأمور كلُّها : كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ

هذه الآية من الآيات البليغة ، أي أن الحياة الدنيا كأرضٌ يأتيها ماءٌ المطر فتنبت الحشائش والأزهار والثمار ، ويصبح البستان مزداناً قشيب الحلة يأخذ بالألباب ، يفرح صاحبة ، تغمره النشوة ، يتخيَّل كيف سيبيع محصوله بأغلى الأسعار ، ويقبض ثمنه ، ويشتري بثمنه .. مثلاً .. قطعة أرضٍ ثانية ، أو بيتاً في الحي الفلاني ، أو سيارةً فارهة ، وهو في أحلامه ، وهو في خواطره المسعدة ..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

وكمثال آخر : قد يشتري إنسان محلاً يزيِّنه ، يُدَوكره ، يعتني فيه ، يفتتح المحل فترسل إليه باقات الورد تعبيراً عن التهنئة ، يداوم فيه شهراً أو شهرين ، يُلصق النعي على المحل ، ومازالت أول ميزانيَّة لم تظهر عنده بعد ، ما عرف أرباحه هذه السنة ، ما عرف حجم أرباحه ، ما قبض المسحوبات، جاءته المنيَّة فعاجلته ، فالحياة الدنيا هذا شأنها ومثلها.. هذه الآية متعلّقة بمتاع الحياة الدنيا ..

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أي أن محصِّلة هذا البغي لن تستطيعوا أن تستفيدوا منها إلا في الحياة الدنيا ، وهذه هي الحياة الدنيا ، أمطارٌ ، أعشابٌ ، أزهارٌ ، رياحين، أشجار مثمرة ، فرح ثم يأتي أمر الله عزَّ وجل فيجعل عاليها سافلها ، ويقبض صاحبها فلا يستطيع الاستفادة منها بل يدفع ثمن عتوه وانحرافه فيها غالياً ، وكأن الله سبحانه في هذه الآية نفسها قد أنبأنا عن ظروف الدنيا آخر الزمان فقال :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ)

أي المدن مزيَّنة ، مزدانة ، شوارع ، حدائق ، ناطحات سحاب ، جسور معلَّقة ، أنفاق تحت الأرض ، أبنية فخمة ، مطاعم من الدرجة الأولى ، فنادق من الدرجة الأولى ، متنزَّهات ، حدائق حيوان ، حدائق للإنسان ، أي أن الأرض فيها البهارج الجميلة جداً تأسر القلوب وتستبد بالعواطف الإنسانية ..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا)

كل شيء جميل ، كل شيء مزيَّن ، كل شيء مزخرف يتلألأ ، لم يعد أحد يرضى أن يسكن في بيت من دون جبصين ، لا يُسْكَن فيه ، وتنقبض قسمات وجهه ، وتتغضض جبهته علامة كبرى على رفضه..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا)

هؤلاء كبراء العالَم الذين يملكون الأسلحة الذرِّيَّة ، النَّوويَّة ..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

أي أن بيدهم مصير العالم ، إن قامت حربٌ نوويَّة انتهى العالم ..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

عندئذٍ جاءتهم الساعة ..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا)

فليلاً أو نهاراً هذه متعلّقة بكرويَّة الأرض ، إذا كان أمر الله عامًّا على مستوى الكرة الأرضيَّة فلابدَّ من أن يأتي قوماً ليلاً وقوماً نهاراً ، الآن في ساعة واحدة نكون نحن في الليل وفي أوروبا وأمريكا في النهار..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

إنّ ربنا عزَّ وجل يُطلعنا على نماذج مصغَّرة ، هذه الزلازل ، مدينة فخمة ، ناطحات سحاب ، أبنية من أجمل الأبنية ، وفترة زلزال قد تكون ثلاث ثوان ، وقد تطول إلى ثلاثين ثانية ، وهذا طويل جداً ، وأنت تتابع بناية تُعَمَّر عندك ، تصوَّر عندما حفروا الأساسات ، عندما وضعوا العضادات ، عندما صبُّوا الخليط الإسمنتي ، تصوَّر كم سنة لكي ترتفع البناية على العظم ويُفرغ من بنائها ؟ وكم سنة كسوتها ؟ وكم سنة زخرفتها ؟ وكم سنة فرشها ؟ والله تحتاج إلى عشرات السنين ، أطول زلزال لمدَّة ثلاثين ثانية ، وبعض الزلازل ثلاث ثوان كالذي جاء في أغادير ..

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

فهذه الآية لها تفسير آخر ..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا)

الرفاهية المبنية على البغي مآلها الاندثار :

أي أن كل شيء صار جميلاً جداً ، كل شيء علته الزخارف وأنواع الزينات وألوانها الأخاذة ، كل شيء مريح للعين ، ألوان جميلة ، حاجات متقنة ، وسائل رفاه منقطعة النظير ، حياتنا كلّها أزرار ، فإذا لم يكن لدى أحدهم في سيَّارته زر ليرفع البلور ينزعج ، هكذا سيبذل جهداً كبيراً ، لا يستطيع أن يرفع زجاج أبواب السيارة بيده هذا تخلف صناعي يورث مشقة لصاحب السيارة ..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا)

لأن هذا الرفاه على حساب الآخرين ، لأن هذا الرفاه مبنيٌّ على جوع الإنسان وعلى ظلمه ..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

قد يقول الإنسان بعد قيام الساعة : هنا كانت لندن ، هنا في هذا المكان ..

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا)

هذه الأبنية الشاهقة ، وهذه العمارات الفخمة ، وهذه الفنادق الرائعة ، وهذه المتنزَّهات ..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

لأنه ..

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

(سورة الروم : من الآية 41)

أي أن الفساد في العالَم تفشى بشكل منقطع النظير ، أي أن كل شيء صار مسخَّراً لشهوة الإنسان ولانحرافه ، على كلٍ الآية وحدها إذا نزعتها من بين أخواتها فهي صورة من صور نهاية العالم ، مشهد أخَّاذ من مشاهد قيام السَّاعة، إن نزعتها وحدها ، وإذا قرأتها مع أخواتها فلها معنى آخر ، أي أن هذا البغي الذي يبغيه الإنسان من أجل قطعة أرضٍ ، من أجل بيتٍ ، من أجل متجرٍ، من أجل شيءٍ تافهٍ فإنه لا يستفيد منه إلا في الحياة الدنيا فقط ، ومصيره في الحياة الدنيا إلى زوال محتم ..

(فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ(17)صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ(18))

(سورة البقرة)

انظر الآن إلى الناس ، أحدهم يشتغل في عمل مضنٍ لكي يجمِّع دريهمات فيشتري بها هذا البيت ، ويزيِّنه ، يجعل نوافذه كلُّها من الألمنيوم وزجاجه من البلور العاكس ، وكله تركيبات ، ثم تجده لم يتمتَّع فيه إلا قليلاً ، فيذوي عوده ، ويموت

لي قريب جاره يسكن في منزل فوقه له محل تجاري ، راجت بضاعته كثيراً ، فزيَّن بيته إلى درجة متناهية في التزيين ، بعد أن انتهت زينة البيت بشهرين وافته المنيَّة .. وآخر قال لجيرانه في البناية : مدخل البناء غير لائق ، وقد يكون عند أحد سكان البناء عزاء مثلاً ، أو فرح ، فدعا إلى اجتماعين أو ثلاثة لسكان البناء ، وجمعوا مبلغاً معيناً من كل بيت ، دهَّنوه ووضعوا باب حديدٍ فخمٍ ، ووضعوا أنترفون ، بعدما انتهت العمليَّة بأسبوعين صاحب المشروع توفي .. طبعاً هو يعرف ماذا أمامه ، جاء الناس فوجدوا المدخل فخماً ودهانات وأنترفون ورخامات ، لكنه قد فاته القطف ، وهكذا الحياة الدنيا ، هكذا نهايتها ، لذلك :

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

إن قرأناها مع أخواتها ..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

أي قادرون على جني الثمار ، وعلى بيعها ، وعلى استثمار مالها في مجالات أخرى هذا معنىً ، وإن أخذناها وحدها ..

(وَظَنَّ)

أكابر الأرض وقتها أنهم قادرون عليها ، عندئذٍ ..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا)

أمرنا لا أمرهم ، أمرنا نحن ..

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

6 ـ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ

الله يدعو جميع الناس إلى دار السلام

يدعو مَنْ ؟ سؤال ، يدعو فعل مضارع ، والله سبحانه وتعالى هو الفاعل ، ولكن المفعول به مَنْ ؟ يدعو مَن ؟ لأن الله عزَّ وجل أغفل المفعول به فالدعوة عامَّة ، يدعو كل خلقه إلى دار السلام ، أي أنه خلقهم لدار السلام ، أي أنه خلقهم للجنَّة ، أي أنه خلقهم ليرحمهم فقط ..

(وَاللَّهُ يَدْعُو)

الإنس ، والجنَّ ، جميع بني البشر ، أسودهم ، وأبيضهم ، وأحمرهم ، وأصفرهم ، غنيُّهم وفقيرهم ، قويهم وضعيفهم ، مدنيُّهم وقرويُّهم..

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

لكن الذي يطلب دار السلام وحده يهديه إلى صراطٍ مستقيم ، قال المفسِّرون : " الصراط المستقيم هو القرآن الكريم " . وقال بعضهم : "الصراط المستقيم هو دين الإسلام " ..

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

ادعُ الله أن يهديك إلى صراطه المستقيم :

وهذا واقع ، أقول لك : تضرع إلى الله قائلاً : يا رب اهدني إلى طريق الحق ، قلها بصدق تر أن الله سبحانه وتعالى جمعك مع أهل الحق ، وانشرح صدرك لكلامهم ، ويسَّر لك تطبيق الحق ، وتجلَّى على

قلبك بعض من تجليَّاته ، فسعدت بهذا التجلي وكنت من قبل شقيًّا ، كل هذا جمعك مع أهل الحق ، وأسمعك كلامهم ، وانشرح صدرك لهم ، وطبَّقت دلالتهم ، وسعدت بتطبيقك ، كل هذا بفضل سؤالك لربِّك : يا رب دلني عليك ، دلني عليك ، ودلني على من يدلّني عليك ، اللهمَّ ارزقنا حبَّك ، وحبَّ من يحبُّك ، وحبَّ عملٍ صالحٍ يقرِّبنا إلى حبِّك ..

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

يقول بعضهم : أنا مكتوب عليَّ في الأزل أنني شقي ، هذا كلام فارغ ، هذا كلام الشيطان ..

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام : من الآية 148)

أما نحن فنقول له : أنت مخيَّر ..

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)

(سورة يونس : من الآية 19)

أي أنه خلقهم وفق فطرةٍ واحدة ، ووفق بنيةٍ واحدة ، وفق استعداداتٍ واحدة ، ووفق حقيقةٍ واحدة ولهدفٍ واحد ، أي أن الإنسان خُلِق ليسعد ، أي إنسان ، فربنا عزَّ وجل قال :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

شتَّان بين الدنيا ودار السلام :

فشتَّان بين الدنيا ودار السلام ، أحد الناس لديه مبلغ اشترى به سيَّارة ، وآخر مثله اشترى أرضاً ، الذي اشترى السيَّارة بهذا المبلغ الضخم بحادث واحد أصبحت أثراً بعد عين ، لكن الأرض تضاعفت خمسين ضعفاً ، باع جزءاً منها بسيطاً ، وعمَّر بجزء منها بيتا فخمًا ، ثم باع جزءاً ثانياً ، واشترى بالثمن سيَّارة .. مثلاً .. فهذا الإنسان الأول لم يوفَّق في اختياره ، لكن الثاني وفِّق في اختياره ، فعندما يختار الإنسان الدنيا فالدنيا كلها تنتهي إذا توقَّف القلب ، يقول أحدهم : هذه البناية كلها لي ، مؤلفة من ثلاثين طابقاً ، ما دام القلب يدق ضع السمَّاعة عليه ، مادام يخفق إذاً هي لك ، وإذا وقَّف القلب لم تعُد لك ، فمتى لك ؟ ما دام هذا القلب ينبض ، فإذا توقَّف عن النبض ليست لك .

إذا اختار الإنسان الدنيا هناك احتمال أن تتركها بعد ثانية واحدة ، وهناك احتمالٌ آخر أن تتركك هي ، عنده مال صُودِرَ ، عنده محل احترق ، له مصلحة وُقِّفت ، له زوجة توفِّيت ، له شأن اجتماعي فعزل من مكانه ، كل ذلك ممكن ، فإما أن تتركك ، وإما أن تتركها ، على كلٍ هي مغامرة ، بثوانٍ تنتهي الحياة كلّها ، ولا سيما في هذه الأيَّام حيث إن ضغط الحياة لا يحتمله القلب ، تجد الأب في السابعة والأربعين جاءته جلطة ، وذاك سكتة قلبيَّة ، وثالث انفجار بالدماغ ، هذا تضخُّم في القلب ، هذا عدم

تروية للعضلة القلبيَّة ، أمراض كثيرة في سن الأربعينيات ، فهذه الحياة الدنيا سريعة الزوال ، قال عليه الصلاة والسلام :

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً ، وأحزمكم أشدُّكم استعداداً لها ، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزوِّد لسكنى القبور ، والتأهُّب ليوم النشور))

[ورد في الأثر]

إذا فكَّر الإنسان في اليوم خمس دقائق في الموت بعد صلاة الفجر ، أو بعد السُّنة وبين السنَّة والفرض وقت قصير ، فكَّر هل نبقى في هذا البيت ؟ الله أعلم ، هل أدرك السنة الثانية ، الآن نحن في الخامسة والثمانين هل نلحق إلى التسعين ؟ لا أعرف ، هل سأكتب ألف وتسعمائة وتسعين ؟ يمكن ألا أكتبها ، يمكن إلى التاسعة والثمانين ، يمكن بالسادسة والثمانين ألا نعيش لوقتها ، الإنسان يفكِّر في النهاية لكي يهون عليه الإقبال على طاعة الله عزَّ وجل ، ويهون عليه ترك البغي والعدوان ..

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

الله تعالى لا يهدي إلى صراطه المستقيم إلاّ المستقيمَ الصادقَ :

الصراط هو القرآن الكريم ، فلماذا لم يشأ الله ؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا يهدي الإنسان إلى الصراط المستقيم إلا إذا كان صادقاً في طلبه ، وإلا إذا دفع الثمن ، لابدَّ من أن تكون صادقاً في هذا الطلب السامي ، ولابدَّ من دفع الثمن ، ودفع الثمن الاستقامة على أمر الله، فمن كان صادقاً وعلامة الصدق الاستقامة يأخذ الله بيده ، ويهديه إلى الصراط المستقيم ، أي أنه يفتِّح قلبه لمعاني كتابه ، يفهمها ، يتفاعل معها ، يطبِّقها ، يسعد بها ، يقول لك : أنا أسعد الناس ..

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

لا مقارنة بين دار الدنيا ودار السلام :

فإذا أجريت موازنة بين دار السلام ، لماذا سمَّاها الله دار السلام ؟ لأن في الجنَّة سلامٌ في سلام ، لا نغص ، ولا همَّ ، لا يمكن أن تخلو حياة الإنسان من منغصات ، فإذا مرض ابنه تجد أنه شعر بضيق ، وكذلك إذا كان له تعويض في دائرة عمله ، وصدر قرار بإلغائه ، أو إذا كان يدخل عليه ألف ليرة فوق راتبه وتوقف صرف الألف له ، وصعب عليه أن يدبِّر معيشته بالراتب فقط ، شعر بضيق ، وكذلك إذا كان في منصب مرموق فشعر بمن ينافسه عليه ، ولن يتركوه في المنصب فإنه يحس بضيق يملأ عليه نفسه ، عَمِلَ تخطيطاً لقلبه فوجد فيه تسرُّعاً ، فإنه يشعر بضيق كذلك إذا عمل فحص دم فوجد أن هناك

مادَّة مرتفعة عن حد المعدل فيشعر بالضيق ، إذا كان ساكنا في بيت فظهر أنه مُعرّض للاستيلاء عليه من قِبَل المحافظة فهذه مشكلة تملأ حياته كدراً وهمّاً ، أي أن الحياة كلها متاعب ، إما من طرف البيت، و إما من طرف الصحَّة ، وإما من طرف الزوجة ، وإما من طرف الأولاد ، وإذا كان له قريب يمدَّه ببعض الحاجات فتوفي هذا القريب ، وانقطع رفد ذلك القريب إنها مشكلة ، وهكذا الحياة كلها ضيق وتعب ، ورحم الله القائل : تعبٌ كلها الحياة فما أعجب إلا من راغبٍ في ازدياد

((إن هذه الدنيا دار التواءٍ لا دار استواء ، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء))

ـ لأن الرخاء مؤقَّت .. إذا ركب رجلٌ أفخر سيَّارة لينقلوه إلى المشنقة فهل يفرح بمقاعدها ؟ يقول : انظروا إلى المقعد ما أجمله ! أي مقعد هذا ؟! يكون أحمق إذا فرح فيها ..

((لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ـ كذلك الشقاء مؤقَّت ـ هذه الدنيا قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عُقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[ورد في الأثر]

إذاً : معنى دار السلام أي أنه ليس في هذه الدار لا نغص ، ولا قلق ، ولا حزنٌ ، ولا غمَّ ، ولا همَّ ، ولا خوف ، ولا اضطراب ، ولا حسرة ، ولا ندم ، جميع المتاعب التي تنتاب الإنسان في الدنيا معافى منها في الجنَّة، جميع المُقْلِقات ، جميع المنغِّصات ، جميع المخاوف ، جميع الأحزان التي تنتاب الإنسان في الدنيا فالله سبحانه وتعالى عافى أهل الجنَّة منها ..

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(48))

(سورة الحجر)

جاء البرد يحتاج إلى وقود ، والوقود ارتفع سعره ، يشعر بضيق ، جاء الحر ، موجة حر شديدة ولا يوجد عنده أجهزة تكييف في البيت ، بيته آخر طابق ، يشعر بانقباض ، لا حر، ولا قر ، ولا خوف ، ولا مرض ، ولا أثر لأي بلاء فيه ، ولكن ظهر بعض من الشعر الشائب في رأسه ، وبعد هذا بصره ضعُف ، وانحنى ظهره ، كذلك شعر بالضيق ، معنى هذا أنه قربت أسباب المنيّة ، هناك في الجنة لا شيء يدعو للقلق أو الهلع ، شبابٌ دائم ، صحَّةٌ دائمة ، حيويةٌ دائمة ، الفواكه لا مقطوعةٌ ولا ممنوعة ، نهر من لبن ، ما الذي يزعجك من اللبن في الدنيا ؟ إنه يحمِّض ، قال :

(لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ)

(سورة محمد : من الآية 15)

ما الذي يحبِّبك في العسل ؟ أن يكون مصفّى رائقاً ، شفَّافاً ، له سيولة معيَّنة ، قال :

(وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى)

(وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

(سورة محمد : من الآية 15)

في الخمر لذَّة ولا أثر للحرقة ، لا تغتال العقول ، الفاكهة ما الذي يزعجك في الدنيا منها ؟ أنها غير متوافرة أحياناً ، فلو أن أحداً ذا يسر وغنى لكن الموسم انتهى وانقضى ، كالعنب مثلاً .. فإنه يستطيع أن يبتاعه مهما غلا الثمن حتى ولو كان من بلد آخر ، أما في الجنة فهي :

(لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (33))

(سورة الواقعة)

(فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ(42))

(سورة الصافات)

فهذه الجنَّة التي قال الله عزَّ وجل عنها في الحديث القدسي الذي رواه أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

أهذه الجنَّة يزهد فيها ؟ أتضعها وراء ظهرك ؟ لا تلتفت إليها ؟ بل تلتفت للدنيا ؟! هذا من تعاسة الإنسان أن يرضى بالدنيا ، ويُعْرِض عن الدار الآخرة .

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

الله تعالى مصدر السلام :

السلام اسمٌ من أسماء الله عزَّ وجل ، أي أن هذه الجنَّة داره..

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

الله عزَّ وجل مصدر السلام في الكون ، إذا كنت معه ، وهذا المعنى لا يعرفه إلا من ذاقه ، إذا كنت مُقْبِلاً عليه ، ولائذاً بحماه ، ومعتزاً به تشعر بسلام في نفسك عجيب ، لا يخيفك إنسان في الأرض ، ولا تخيفك كلمة تسمعها ، ولا تهديد يُلقى عليك أبداً ، أنت عبد السلام ، الله هو السلام ، مصدر السلام..

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَلَّمَ لَمْ يَقْعُدْ إِلَّا مِقْدَارَ مَا يَقُولُ :

((اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ ، وَمِنْكَ السَّلَامُ ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ))

[مسلم]

أول معنى أنها دارٌ لا قلق فيها ، دار السلام .

والمعنى الثاني : أنها دارٌ الله سبحانه وتعالى الذي هو السلام ، ويتجلَّى فيها على عباده المؤمنين فيسعدون به .

والمعنى الثالث : السلام هو التحيَّة ، أي أن الإكرام في الجنة منقطع النظير ، أحياناً الإنسان يأتيه

ضيف فيقول له كل دقيقتين : يا أهلاً وسهلاً ، هذه مبالغة بالإكرام ، قلتها له أول مرَّة ، والثانية ، والثالثة ، بعد ربع ساعة يا أهلاً ، يرحِّب فيه بألوان الترحيب ، إذاً هذا من الإكرام .

المؤمنون في الجنة في موضع ترحيب وإكرام :

المعنى الثالث أن هؤلاء المؤمنين في الآخرة ، وهم في الجنَّة يتلقَّون تحيَّاتٍ من ربِّهم بشكلٍ مستمر ، هنيئاً لكم ..

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِي(19)إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة)

هنيئاً لكم ..

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15)آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16)كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17)وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(18)وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(19))

(سورة الذاريات)

إلى آخر الآيات ، فالمؤمن يوم القيامة موضع كل تكريم .. وإذا وضع أحد لك طعاماً شهياً نفيساً ، ولم يرحِّب بك فإنك تنزعج ، ولعل الترحيب عندك أغلى من الأكل ، قال لك : تفضل كل ، أأنت جئت لتأكل؟ أم جئت لتزوره .. لكن إذا رحَّب بك إنسان آخر ، وقال : آنستنا ، هذه الكلمات يمكن أن تدغدغ لك عواطفك ، تشعر بنشوة عجيبة جداً ، سيدنا إبراهيم عندما قرَّب الطعام للضيف قال :

(أَلَا تَأْكُلُونَ(27))

(سورة الذاريات : من الآية 27)

تفضَّلوا ، هذه من آداب الضيافة ، إن أول آداب الضيافة البِشر و الاستعداد ..

(فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(69))

(سورة هود)

فهيَّأ حاله ، والكرماء يهيِّؤون حالهم ، عنده كمية من الخبز احتياطاً ، عنده حاجات مدخرة للضيافة ، وإذا طرأ ضيف فيجب أن يقدم له وجبة عشاء مع الاحتفاء والترحيب ..

(فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(69))

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)

(سورة الذاريات : من الآية 27)

كذلك تقريب الطعام للضيف من السُنَّة ، إذا كان الصحن بعيداً فإنه يستحي أن يقول لك : أريد أن آكل

من الصحن الفلاني ، إنه جالس ينظر إليه ، وهو مستحٍ ، وجعله منه قريباً ..

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)

بعد هذا قال : تفضَّلوا وكلوا ..

(قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ(27))

الاستعداد ، وتقريب الطعام للضيف ، ودعوته للطعام هذا من آداب الضيافة .

إذاً :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

عرفنا أن دار السلام هي الجنَّة ، والعباد كلُّهم مدعوَّون ، أحياناً يقول لك : الدعوة عامَّة كل من يحب يشرِّفنا حضوره ، أحياناً توجد بطاقة بيضاء ، البيضاء أي أول صف ، الحمراء ثاني صف ، الخضراء ثالث صف ، توجد درجات ، لكن أحياناً يقول لك : الدعوة عامَّة ، أي كلكم مدعوَّون لدار السلام ، لكن لا بد من الثمن ، الثمن أن تكون صادقاً في طلب دار السلام ، وأن تدفع الثمن وهو الاستقامة على أمر الله ، فإذا فعلت هذين الشرطين عندها يأخذ الله بيدك ، ويهديك إلى صراطٍ مستقيم ، ويجمعك مع أهل الحق ، يشرح صدرك لكلامهم ، ويهدوك لتطبيق كلام الله ، ويمسِّكوك بالكتاب ، تطبِّقه ، تسعدُ به ، لذلك :

هم الأحبَّة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدلُ وإن عدلوا
والله إن فتتوا في حبهم كبدي باقٍ على حبِّهم راضٍ بما فعلوا

***

إذا صار للإنسان مع الله عزَّ وجل مودَّة ، وانعقدت أواصرها فلابد من أن يذوب محبَّة في الله عزَّ وجل ، ففي قلب المؤمن سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها .. " لو يعلم المُلوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف " ، هكذا قال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه ، هو مع الله ، وكل شيءٍ بيد الله ، هو الجميل ، هو الغني ، هو الحميد ، هو القوي ، هو العزيز ،

((وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ))

[أبو داود عن الحسن بن علي]

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

وإليك معنى آخر : يهدي من يشاء هو سبحانه ، ومشيئته مرتبطة بصدق العبد وباستقامته .

والمعنى الآخر : ويهدي من يشاء منكم حسب اختياره للهدى أيها العباد جميعاً ..

(إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

والدعوة أيضاً عامَّة ، لك أن تفهم هذه الآية بأن تعزو المشيئة إلى الله عزَّ وجل بمعنى : أن الله سبحانه وتعالى لا يهدي هذا الإنسان إلى صراطٍ مستقيمٍ إلا إذا دفع الثمن ، والثمن استقامته على أمره .
والمعنى الآخر : ويهدي من يشاء من العباد كلّهم بمعنى أن العباد مخيَّرون ..

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت : من الآية 17)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 148)

هذا المعنى الآخر ..

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(25)لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

7 ـ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ

الحسنى هي الجنة ، والزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى :

أحسنوا بماذا ؟ قال : هذا من إعجاز القرآن الكريم ، قال : الذين أحسنوا النظر ، فكَّر فرأى أن الدنيا موقَّتة والآخرة أبديَّة ، فكَّر فرأى أنه إذا أطاع فلاناً ، وفلان عبد مثله ضعيف لا ينفعه ، لكنَّه إذا أطاع الله عزَّ وجل فإن الله عزَّ وجل حيٌّ لا يموت ، قال :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا)

أي أنهم أحسنوا النظر في العاقبة ، أو أحسنوا النظر في أمر الآخرة ، أي أحسنوا التفكير .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا)

بعضهم قال : للذين أحسنوا في العمل ، والذين أحسنوا في الدعوة إلى الله ، الآية مطلقة ، فعل مطلق في إشارته للإحسان ودلالته عليه ..

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا)

في تفكيرهم ، وفي تعبيرهم ، وفي محاكمتهم ، وفي نظرهم ، وفي قولهم ، وفي عملهم ، وفي دعوتهم..

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى)

هي الجنَّة ..

(وَزِيَادَةٌ)

ما هي الزيادة ؟ هي النظر إلى وجه الله عزَّ وجل ، فإن المؤمنين ينظرون إلى وجه الله عزَّ وجل نظرةً يغيبون معها خمسين ألف سنةٍ من نشوة النظر ، والدليل على ذلك قوله تعالى :

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ)

لا هَمّ للمؤمنين في الجنة :

أي أنَّ هذا الوجه الذي نظر إلى الله عزَّ وجل فسعِد بهذه النظرة لا يرهقه قترٌ ، القتر هو الغم ، أحياناً يقول لك أحدهم : ما بك ؟ وجهك غير طبيعي ؟ كأنك في همٍّ وقلق ، والإنسان حينما يتألَّم يظهرِ ألمه القلبي على صفحة وجهه .

نتابع الآية الأخيرة :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

في الحياة الدنيا كل آلامه النفسيَّة تنعكس على صفحة وجهه ، تنعكس قلقاً ، يقول لك : علائم وجهه حزينة ، يوحي وجهه بانقباض ، نفسه كما يوحي بخوفٍ يؤرقه ، هذا هو القتر ، وأحياناً الإنسان يخون شريكه ، وحينما يكتشف شريكه خيانته يُحِسُ بالذلِّ والعار ، وأحياناً طالب صغير يأخذ قلماً ليس له ، فيظهر أن القلم في جيبه ، فالمعلّم قبل أن يعنّفه ، أو قبل أن يُحاسبه فإن هذا الطفل يُحسُّ بالخزي والعار، يترجم هذا الإحساس علائم ذلّة مسحت وجهه ، أما أهل الجنَّة في الجنَّة فلا قتر يعلو الوجوه ، ولا ذلَّة..

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

لماذا لا توجد الذلّة ؟ أطاعوا الله في الدنيا واعتزُّوا به ، وها هو قد كافأهم على طاعتهم بجنَّةٍ عرضها السماوات والأرض ، لماذا القلق والحزن ؟ هم آمنون من كل شيء ، في طمأنينة ما بعدها طمأنينة ..

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

إلى الأبد ، اجعل موازنة بين دار السلام والحياة الدنيا ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً))

[ورد في الأثر]

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(26)وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ)

8 ـ عدل الله المطلق : جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا

وبالمُقَابل ، لا عقاب فوق طاقتكم ، مائة ضعف ، لا ..

(جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)

الطاعة عزٌّ والمعصية ذلٌّ :

وإليك على عز الطاعة : أحد التابعين كان يمشي مشيةً فيها اعتزاز ، فظنَّها بعضهم أنها كِبْر ، فقالوا : " يا فلان أكِبْرٌ ؟ " قال : لا هذا عزُّ الطاعة " ، الشاب المطيع لله عزَّ وجل يشعر بعزَّة وبمكانة لا يعلمها إلا الله ، يحس أنه في رعاية الله ، فإنك بأعيننا ، يحس أن الله معه ، أن الله آخذٌ بيده كلَّما عثر ، أن الله يدافع عنه ، أن الله يسدد خُطاه ، يسدِّد أقواله وأفعاله ، هذا عزُّ الطاعة ..

(وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)

والنظر إلى ذلَّة المعصيَّة ، سيدنا يوسف خرج في موكبه بعد أن صار عزيز مصر ، وكانت قد رأت الموكب امرأة العزيز بعد أن شاخت ، وخارت قواها ، وتبدل حالها فقالت هذه الكلمة الشهيرة : " سبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعته ـ تعني أن يوسف كان عبداً فصار عزيزاً ـ ومن جعل الملوك عبيداً بمعصيته " ، تعني نفسها .

إذاً إن كان أحد يريد عزاً لا يفنى فليطع الله عزَّ وجل ، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله ، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله ، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك ..

(مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ)

9 ـ لا عاصم إلا الله :

أي لا مجال للالتجاء لأحد أيا كان ، فإن هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله عبادٌ أمثالكم، ضعاف ، مثلاً : عصابة سرقةٍ لها زعيم له سلطة على أفراد العصابة وهيمنة وشأن ، فلمَّا أُلقي القبض عليهم جميعاً صار زعيمهم واحداً مثلهم ، اقعد يقعد ، ازحف يزحف ، هرول يهرول الخ .... هذا الذي كان ذا هيمنة عليهم ، صار كأحدهم هكذا الشركاء في الدنيا ..

(مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنْ اللَّيْلِ مُظْلِمًا)

لهم وجوه أسود من الليل لشدَّة بعدهم ومعصيتهم وطغيانهم وما اقترفوه في حقِّ العباد ..

(أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

خاتمة :

درسنا آيتين ، فيهما موازنة بين الحياة الدنيا التي تذهب في لمحة البصر وتتلاشى..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا)

والآيتان معلّقتان بوشائج محسوسة مع الآية السابقة عليهما :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أي أن ثمار البغي لن تفيدكم إلا في الحياة الدنيا ، والحياة الدنيا موقّتة ، وسريعة الزوال ، وشيكة التحوُّل ، أما دار السلام ، من اسمها دار السلام ..

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(73))

(سورة الزمر)

إلى أبد الآبدين ، ولنجر موازنة بين الحياة الدنيا ودار السلام ، إن دار السلام الدعوة لها عامَّة ، وإذا كان أحد يريد تفصيلات ، فأحياناً يحوّل إلى دفتر شروط ، هذه المناقصة لكل المواطنين ، ودفتر الشروط يؤخذ من المكان الفلاني من الساعة كذا إلى كذا ، فدار السلام دعوة عامَّة ، وبعد هذا :

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

القرآن الكريم ، أو الإسلام هما أو أحدهما الصراط المستقيم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (08-17): تفسير الآيات 31 – 36
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-11-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم ... وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

من دلائل ألوهية الله تعالى :

الله مالكُ كل شيء فاطلبوا الرزق مِن عنده :

في هذه الآية مجموعة أدلة قاطعة على ألوهية الله سبحانه وتعالى وعلى ربوبيته ، من هذه الأدلة الرزق ، وكل إنسانٍ متعلقٌ برزقه ، فهذا الرزق من السماء والأرض ، فإذا كان الرجل يملك ثمن الطعام فهل يملك خلقه ؟ هل يملك صُنْعَهُ ، من جعل أشعة الشمس المسلَّطة على البحار منذ خمسة آلاف مليون سنة ؟ من جعل هذه البحار التي تزيد مساحتها على سبعين بالمائة من مساحة الأرض ؟ من جعل هذا الماء المالح يتبخر ماءً عذباً فراتاً ؟ من جعل الماء يعلق في الهواء على شكل بخار ماء ؟ من جعل الفروق الكبيرة في درجات الحرارة بين القطبين ، بين القطب الشمالي وخط الاستواء ؟ من خلال هذه الفروق الشاسعة تحرَّك الهواء ، إذا كان هناك حرٌ تمدد الهواء فتعرض المكان لضغط منخفض ، وإذا كان هناك بردٌ انكمش الهواء فصار هناك ضغطٌ مرتفع ، وبين الضغط المرتفع والمنخفض يتحرك الهواء ، من حرك الهواء ؟ من حركه حتى ساق هذا السحاب ؟ من جعله ينقلب إلى أمطار تنزل في الأماكن المناسبة ، وفي الأوقات المناسبة ، وفي الكميات المناسبة ، وفي الأنواع المناسبة ؟ قد تأتي الأمطار في أول العام فلا يستفاد منها الفائدة المطلوبة ، وقد تأتي في آخره بكمياتٍ قليلة فلا يستفاد منه ، وقد تقل الثلوج فلا تمتلئ الينابيع ، أمطارٌ غزيرة في مطلع العام ، في أواخر العام توقَّفت الأمطار ، نسبة الثلوج قليلة جداً ، الينابيع معظمها جفَّ ، من يملك إنزال الأمطار من السماء ؟

ربنا عزَّ وجل لحكمةٍ بالغة ووفق عدالةٍ مطلقة يمنع الأمطار عن بعض الشعوب ، عن بعض البلاد ماذا يحصل ؟

في إفريقيا سبع سنواتٍ عجاف ماذا نتج عنها ؟ كاد الناس يموتون جوعاً ، استنجدوا بأمم الأرض ، يبس النبات ، ومات الحيوان ، وكنت أرى في بعض الصور كيف أن مئات ألوف الأبقار ملقاةً على الأرض وهي ميِّتة عطشاً ، رأيت صورةً في أستراليا الأغنام تذبح وتلقى في الوديان لعدم وجود الكلأ ، من يملك هذا الماء من السماء ؟ من يملك الأمطار ؟ الثلوج ؟ من يبخِّر ؟ من يحرِّك ؟

(وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا(14)لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا(15))

(سورة النبأ)

نزل الماء من السماء بقدرة من ؟ من خلق هذه الأرض وما فيها من معادن ؟ الأرض فيها كالسيوم ، وفيها فوسفور ، وفيها مغنزيوم ، وفيها حديد ، وفيها مواد آزوت ، وفيها كربون ، ومعادن وأشباه معادن ، ومواد لازمة لإنبات النبات ، من جعل هذه التربة أنواعاً ، هذه تربة زراعية ، وتلك تربة كلسية ، وأخرى تربة غضارية ، هذه تربة لحقية ، من جعل أنواع التُرَب ؟ كل هذه المواد التي نحتاجها كامنة في هذه التربة إنها نعمة من رب السماء والأرض وهذا هو الإمداد .

من خلق أنواع البذور ؟ بذور الأشجار المثمرة ، بذور المحاصيل ، القمح ، الشعير ، العدس، الحمص، بذور الخضروات ، الكوسا ، الباذنجان ، اللوبياء ، الفاصولياء ، أنواع النباتات، الخضروات، الخضروات الصيفية ، والشتوية ، والمحاصيل ، والأشجار المثمرة ، هذه البذرة الصغيرة ، من أعطاها هذه القدرة الكامنة ؟ لتكون شجرة لها شكلٌ خاص ، لها وظائف خاصَّة ، لها إثمارٌ في وقت خاص ، لثمرتها شكلٌ خاص ، وطعمٌ خاص ، ولونٌ خاص ، من خلق هذه البذور وأودع فيها خصائصها المتعددة ؟ من جعل الرشيم وهو الكائن الحي في البذرة ؟ من ؟ أإله مع الله ؟

خلق البحار ، وخلق الشمس ، وخلق القطب ، وخط الاستواء ، وخلق قانون التبخر ، من الذي جعل الماء يزداد حجمه إذا برد على خلاف عناصر الأرض كلها ، ولولا هذه الظاهرة لمات الإنسان والحيوان ولانعدم التبخُّر ؟

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

إذا كنت يا أخي الكريم تملك ثمن الفاكهة فتذكَّر أنك لا تملك خلقها ، ولا تملك صنعها ، أنواع منوَّعة ، ليس هناك مجالٌ واسع للحديث عن أنواع الخضراوات ، هذه فيها فيتامين (سي) ، وتلك فيها مواد مقوية ، هذه فيها ألياف سيلولوزية ، وأخرى فيها مادة مخاطية ترمم الجهاز الهضمي .. كل غذاء ، كل نبات ، هذه فيها فوسفور تفيد أصحاب الأعمال الفكرية ، فأنواع الخضراوات ، والنباتات ، والفواكه ، والثمار ، القمح ثلاثة آلاف وستمائة نوع ، فالله عزَّ وجل الذي خلقه ونوّعه وجعله ، ينبت في كل أماكن

الأرض ، ينبت في الجبال ، وفي السهول ، وفي الأغوار ، وفي الصحارى ، وفي المناطق الحارة ، والباردة ، والمعتدلة ، والجافة ، والرطبة ، من ؟ أإله مع الله ؟

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْض)

والأرض أودع فيها هذه المواد الأساسية ، أودع فيها المعادن ، أودع فيها أشباه المعادن ، أودع فيها هذه البكتريات ، حينما ألقيت القنبلة الذريّة على كل من هروشيما ونكازاكي تعقَّمت التربة ، بمعنى أن الأحياء الدقيقة ماتت ، فلم تنبت شيئاً ، من خلق الكائنات الدقيقة ؟

انظر إلى طعامك :

من خلق ديدان الأرض ؟ قرأت عن ديدان الأرض مقالة رهيبة ، لو أن ديدان الأرض ماتت لمات معها الإنسان ، لأنها عنصرٌ أساسيٌ في إنبات النبات ، ديدان الأرض ، من ؟ أإله مع الله ؟

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْض)

فحينما تأكل هل ترى الله من خلال طعامك ؟

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس : من الآية 101)

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(25)ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا(26)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(27)وَعِنَبًا وَقَضْبًا(28)وَزَيْتُونًا وَنَخْلا(29)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(30)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(31)مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ(32))

(سورة عبس)

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

بدءاً من الشمس والقمر ، والرياح ، والحرارة ، والبرودة ، وتبدُّل الطقس ، والبحار ، واليابسة ، وهطول الأمطار ، من جعل الجبال مستودعاتٍ للأمطار ؟ من جعل الثلوج مغذّياتٍ لهذه المستودعات ؟ من خلق أنواع النباتات ؟ من خلق البذور ؟ أإلهٌ مع الله ؟!

هذا الإله ألا يستحق العبادة ؟

هذا الذي يرزقنا ألا يقتضي أن نعبده ، هذه الذي يمدنا بالطعام والشراب ، هذا الذي ينزل علينا الأمطار ألا يستحق العبادة ؟ نعبد من دونه أناساً مثلنا لا يملكون ضراً ولا نفعاً ، ولا حياةً ولا موتاً ولا نشورا ؟ من اعتز بمن يموت فإن عزّه ميت ، لأن هذا الذي تعتز به إذا مات مات عِزُّك ، لكنك إذا اعتززت بالله الحي القيوم فإنك عزيزٌ كريم .

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

فموضوع الرزق ، موضوع الطعام والشراب موضوع كبير جداً ، وهذا ما نتعامل معه كل يوم ثلاث مرات ، إذا جلست إلى مائدة الصباح تفكَّر فيما على المائدة صنفاً صنفاً ، صحناً صحناً، الجبن ، البيض، اللبن ، الزيت ، من أين جاء الزيت ؟ من هذه الشجرة المباركة ، من الزيتون ، تفكّر في الخبز، في كأس الماء ، في كأس الحليب ، في لعقة العسل ، في كل شيءٍ تأكله آيةٌ على أنه هو الخالق ، هو المربي ، هو المسيِّر ، هذه فقرةٌ أولى في الآية .

(أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)

أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

1 - إعجاز الله ظاهر في السمع :

من شق لنا السمع والبصر ؟ فهذه الأذن ، لماذا جعل الله لنا أذنين ولم يجعل لنا أذناً واحدة ؟ سؤال ، لنا أنفٌ واحد ، ولنا أذنان ، لأنه لولا الأذنان لما عرفت مصدر الصوت ، بوجود أذنين والصوت من خلفك أودع الله سبحانه وتعالى جهازاً دقيقاً دقيقاً معقداً في المخ يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين ، فإذا وصل الصوت إلى هذه الأذن قبل هذه الأذن بواحد على ألف وستمائة وخمسين جزءا من الثانية ، يحكم الدماغ البشري على أن جهة الصوت من اليمين ، من جعل هذا الصيوان ؟ هذا الصيوان يُجَمِّع الأصوات ، ولو تصورنا إنساناً بلا صيوان لكان سمعه ضعيفاً جداً ، إذاً : بهذا الصيوان يقوى السمع .

أؤكد لكم هذه الحقيقة ، إذا وضع أحدكم يده هكذا يصله الصوت بشكلٍ أضخم ، وأقوى ، فهذا الصيوان من خلقه ؟ من خلقه بهذه التجاعيد ، هذه التجاعيد أي صوتٍ جاء من أي جهةٍ لابدَّ من أن يلقى سطحاً يعكسه إلى الداخل ، هذه التجاعيد من صنع حكيمٍ عليم ، إن جاء الصوت بزاوية ثلاثين ، يجد سطحاً يعكسه إلى الداخل ، وعلى الزاوية ستين هناك سطح يتعاكس معه ، إن لهذا الصيوان سطوحاً من كل الاتجاهات ، فأي صوتٍ جاء إلى الأذن لابدَّ من أن يجد سطحاً يعكسه إلى الداخل ، فلو جعلنا هذا الصيوان أملس لضاع علينا صوتٌ كثير ، وضعف سمعنا .

من جعل ممرّ الأذن ضيِّقاً ؟ ولو كان أوسع من أحد أصابعنا لفقد الأطفال سمعهم لأتفه سبب ، لكن الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعل قناة السمع أضيق منفذاً من أصغر إصبع في الإنسان ، ثم جعلها مِعْوَجَّة ، لو جعل غشاء الطبل في صدرها والخط مستقيم ، فقلم أو عود يفقد الإنسان سمعه ، لكن الله سبحانه وتعالى جعلها ضيقةً وجعلها معوَجَّةً ، وجعلها تنتهي بغشاء الطبل ، ما هذا الغشاء الذي يتجاوب

مع أي صوت ؟ ويهتز اهتزازاتٍ قدرها العلماء بأرقام مائة وثلاثين اهتزازة بالثانية أو أكثر .. الرقم لا أذكره ، لكن هناك عتبات للسمع دقيقة جداً .. يهتز ثم يستعيد استقراره ليتلقى صوتاً جديداً ، مَن ربط هذا الغشاء بعظامٍ سمعيةٍ أربع تضخم الأصوات إلى أن يصل الصوت إلى الأذن الداخلية حيث العصب السمعي الذي يلتقط الأصوات ويرسلها إلى الدماغ ليدرك الإنسان فحوى الكلام ؟

يرن جهاز الهاتف ترفع السماعة يقول لك : هل عرفتني ؟ تقول له : أنت فلان ، كيف ؟ من زودك بذاكرةً للأصوات ؟ في مخ الإنسان ذاكرةٌ صوتية ، لاشك أن كل واحدٍ منا في حياته أكثر من مائة شخص يعرف أصواتهم واحداً واحداً ، من ؟

لا يزال علماء الجسم البشري في حيرةٍ من أن هناك صوتاً يسبب انزعاجاً سموه الضَجيج ، وأن هناك صوتاً يسبب ارتياحاً سموه النَغَم ، وما الفرق بين النغم والضجيج ؟ لا أحد يعرف سر هذا ، لماذا خلق الله سبحانه وتعالى الأذن مفتوحةً دائماً ، الإنسان بإمكانه أن يغلق عينيه ، الإنسان يغضُّ بصره عن المحارم ، لكنه لا يستطيع أن يغلق أذنه عن الأصوات ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من استمع إلى صوت قينةٍ صب في أذنيه الآنك قيل : وما الآنك يا رسول الله ؟ قال : الرصاص المذاب))

[الجامع الصغير عن أنس ، وفي سنده مقال كبير]

من استمع ، لم يقل من سمع ، أي جلست إلى جهاز اللهو ، واستمعت إلى الغناء ، وأنت تقصدُ ذلك ، لكن إذا طرق سمعك نغمٌ لا يرضي الله وأنت لا ترضى عنه ، أغلب الظن أن هذا معفوٌ عنه ، والله وحده يعلم إن كنت راغباً في سماع هذا الصوت أو لست راغباً فيه ، ربنا عزَّ وجل قال :

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا(11))

(سورة الكهف)

لماذا قال على آذانهم ؟ لأن الأذن مفتوحة ، مفتوحةٌ دائماً ، ولماذا جعلها مفتوحة دائماً ؟ لأنها دائرة أمنٍ للإنسان ، والإنسان إذا أغمض عينيه قد يأتيه الخطر من أقرب الناس إليه ، من أقرب شيءٍ إليه ، لكن الصوت يحذِّرُهُ ، فسائق السيارة قد لا يرى ماذا يحدث ، لكن صوتاً غريباً يجعله يقف ، فالأذن مفتوحةٌ دائماً ، رأيت مرةً جهازاً للهاتف له ضوء ، فبدل الجُلْجُل يتألَّق الضوء ، أي أن هناك مخابرة ، فقال صاحب هذا الجهاز : لو أنني لفتُّ وجهي هكذا أحدث إنساناً وجاءت مخابرة لا أدري ، لكن الصوت له وظيفة أخرى ، كيفما كنت يأتيك الصوت ، وهذا من حكمة الله عزَّ وجل .

(أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)

2 ـ إعجاز الله ظاهر في البصر :

وهذه العين ، المَحْجَر ، الحاجب ، كرة العين ، عضلات أنسية ، عضلاتٌ وحشيةٌ ، عضلاتٌ علوية ، عضلاتٌ سفليةٌ ، عضلات مائلة تحرِّكها في كل الاتجاهات ، هذه هي العين ، ثم القرنية ذلك الجسم الشفَّاف شفافية تامة ، كيف تتغذى القرنية ؟ أين الشعريَّات ؟ أين الشرايين ؟

هذه القرنية لها سمة خاصة تتغذى عن طريق الحلول ، أول خليةٍ تأخذ غذاءها وغذاء جارتها ، وينتقل الغذاء من خليةٍ إلى أخرى عَبْرَ الجدار الخلوي من دون أن يكون هناك شبكة شرايين وأوردة تعيق الرؤية وتحجبها ، هذه هي القرنية .

من جعل بعد القرنية القزحية ، عين فلان زرقاء اللون ، وتلك سوداء ، وأخرى عسلية ، هذه القُزَحية ؟

ظاهرة المطابقة في العينين :

من جعل فيها هذه العضلات تتسع وتضيق من دون أن تشعر ؟ إذا جاءها الضوء الكثيف ضاقت ، وأخذت من الضوء حاجتها ، وإذا قلّ الضوء اتسعت ، وأخذت من الضوء حاجتها ، فإذا نظرت إلى شيءٍ بعيد اتسعت أيضاً حتى تنضجِ الرؤية وأنت في غفلةٍ عن هذا ، من جعل هذه العين ؟ من جعل هذا الجسم البلوري عدسة لكنها ذات حياة ؟ عدسةٌ مرنة يزداد إحديدابها ، أو يزداد انبساطها حيث يقع خيالها في الشبكية دائماً ، وهذا من الأشياء المعجزة ، كيف ترى الأشياء المتحرِّكة ، وتأتي جميع أخيلتها على الشبكية تماماً ؟ سمى العلماء هذه الظاهرة المطابقة ، وهي من أعقد ما يجري في العين ، هذا يعجز عنه أكبر علماء الأرض ، لأنك لو كنت تشاهد كرةً تتحرك في كل ثانيةٍ لها بعدٌ عن العين ، من يقيس هذا البعد ؟ ومن يضغط على الجسم البلوري ضغطاً يجعل خيال هذه الكرة تقع على الشبكية تماماً ؟ الله سبحانه وتعالى وهو معكم أينما كنتم .

إن ظاهرة المطابقة لا يمكن أن تشرح في مسجد لأنها تحتاج إلى صور ورسومات ، إلى توضيحات .

من جعلك ترى الأشياء المتحركة وأنت مرتاح ؟ لو أنك ترى الشيء بعد أربعين سنتيمترا فقط ما قيمة هذه العين ؟ بعد الأربعين لا تراه ، قبل الأربعين لا تراه ، لكن هذه العين تنظر إلى كل شيء ، وترى كل شيء وهي مرتاحة ، من جعل هذه الشبكية فيها مائة وثلاثون مليون عصية ومخروط ، الذي أحصى مخاريط العين ، وعصيَّاتها مُنِحَ جائزة نوبل في عام سبعة وستين وتسعمائة وألف للميلاد ، في عام سبعة وستين هناك عالمٌ توصَّل إلى أن في شبكية العين مائة وثلاثين مليون من المخاريط ومن العصيات ، يستقبل بعضها الألوان كلها ، وبعضها يستقبل اللون الأبيض والأسود فقط ، ثم من جمع هذه الشبكية في عصبٍ بصريٍ قوامه أربعمائة ألف عصب ، تذهب إلى الدماغ ؟ من جعل لك عينين

من أجل أن ترى بهما البعد الثالث ؟ أن ترى الأشياء مجسَّمة ؟ أن ترى طولاً وعرضاً وعمقاً ، من ؟ إنك لن تستطيع بعينٍ واحدة أن ترى المسافات العُمقِية ، لن تستطيع أن ترى البعد الثالث في عينٍ واحدة، ولكن العينين تريانك الأشياء مجسمة ، لا يزال هذا سر ، إنك إذا صورت شيئاً بآلة تصوير فالصورة حجمها صغير ، ولكنك ترى الشيء بحجمه الحقيقي ، وعينك صغيرةٌ جداً ، كرةٌ صغيرة ، ترى الجبل جبلاً ، والجمل جملاً ، والإبرة إبرةً ، والنملة نملة ، ترى الشيء بحجمه ، ولونه ، وبعده ، من خلق هذا ؟

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)

ومن زوَّدك بذاكرةٍ للبصريات ؟ .. هناك ذاكرة للمسموعات ، وذاكرة للمشاهد ، تقول هذا المنظر رأيته من قبل ، هذا الوجه أعرفه ، هذا الكتاب قرأته ، هذا الطفل شاهدته من قبل مع أبيه ، من زودك بهذه الذاكرة ؟ ألا يستحق منك العبادة ؟ ألا يستحق منك الطاعة ؟ ألا يستحق أن تكون محباً له ؟ .

(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ)

وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ

المعنى الأول :

فبحسب تفكير الناس البدائي الشيء الساكن ميِّت ، فالبيضة ميتة ، من أخرج منها الدجاجة ، افتح بيضة الآن ، اقلها أو اسلقها ، وانظر ما فيها ؟ بياض وصفار ، هل من السهل أن تنقلب هاتان المادَّتان إلى صوص ؟ له سمع ، وله بصر ، وله شم ، وله فم ، وله لسان ، وله مريء ، وله حُوَيصلة ، وله أمعاء ، وله قلب ، وله كبد ، وله بنكرياس ، وله كليتان ، وله عضلات ، وله عظام ، وله أعصاب ، من ؟ .

(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ)

الحيوان المنوي إذا لقَّح بويضة يصبح إنساناً سوياً ، من أودع في هذا الحيوان المنوي وفي تلك البويضة خمسة آلاف مليون صفة ؟ سموها تعليمات ، وسموها أوامر ، والعلماء قالوا : لو أن هذه التعليمات ، وهذه الأوامر كُتِبَت في كتب لكان حجمها كحجم أكبر موسوعةٍ مؤلفةٍ حديثاً .

الآن عندنا موسوعات ، دائرة معارف ، مؤلفة من أربعين أو خمسين جزءاً ، كل جزء ثلاثة آلاف صفحة ، لو أن هذه الأوامر التي أودعها الله في الحيوان المنوي ، وفي البويضة ، أردنا أن نكتبها بكتب لاستغرقت أكبر الموسوعات العلمية .

إنسان له شعر ، وهناك أنواعٌ منوَّعَةٌ من الشعر ، هناك شعرٌ جَعِد ، وهناك شعر أملس ، وهناك شعر أسود ، وهناك شعر أشقر ، وهناك شعر خشن ، وهناك شعر حريري ، أنواع منوَّعة من الشعر ، في هذا الحيوان المنوي يكمن شكل الوجه ، أهو كروي أم مستطيل أم كمثري الشكل ، في هذا الحيوان المنوي يكمن نوع العينين ، لونهما ، حجمهما ، نوع الحاجبين، أزجّين ، مفترقين ، نوع الأنف أقنى ، طويل ، قصير ، نوع الشفتين ، نوع الخدين، أملسين ، أسيلين ، قصيرين ، نوع العنق ، نوع اليدين ، لون الجلد ، طبيعة الدم ، كيمياء الدم كلها كامنة في هذا الحيوان المنوي .

(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ)

ثمرة واحدة زيتونة من خشب ترميها في الأرض ، فتصبح شجرةً لها جذور، ولها جذع ، ولها أغصان، ولها أوراق ، تزرعها بعلاً تعطيك زيتوناً ، ممتلئاً زيتاً ، تأكله ، وتستفيد منه .

(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ)

وكلما تقدم العلم فُسِّرَت هذه الآية بحسب التقدم العلمي كيف تموت الخلايا وكيف تولد الخلايا ؟ خلايا الأمعاء عمرها ثمانيةٌ وأربعون ساعة ، خلايا القلب والدماغ عمرها يوازي عمر الإنسان ، خلايا الشعر تبقى ثلاث سنوات حيّة ، الشعرة تعيش ثلاث سنوات ثم تسقط ، ينبت مكانها شعرةٌ جديدة .

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ)

المعنى الثاني :

وقد تفهم هذه الآية بشكلٍ آخر ، قد يلد الكافر مؤمناً ، وقد يلد المؤمن كافراً .

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ)

هذا بعلم الله .

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45)قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)

(سورة هود)

عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه أبوه أبو جهل .

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ)

البيئة ليست حُجة :

لا تقل : بيئتي صعبة ..

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ)

قد يخرج عالمٌ من بيئةٍ جاهلة ، وقد يخلق أخلاقيٌ كبير من بيئةٍ منحطة ، وقد يخرج رجلٌ فاسقٌ من بيئةٍ صالحة ، لأن لكل إنسان اختيار..

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56))

(سورة القصص)

مدلول إخراج الحي من الميت والميت من الحي عامٌ في جميع المخلوقات :

والمجال يطول ، هذه آيةٌ دلالاتها واسعةٌ جداً ، يطبق مضمونها على الإنسان ، كما يطبق على الحيوان، وعلى النبات ، وبعد ذلك فهناك بحوث حديثة مفادها أن هناك مجَرَّات تخلق ، ومجرات تتلاشى على شكل غازات ، حتى في الكون هناك خلقٌ متجدد ، هناك خلقٌ جديد ، وهناك موتٌ لبعض الكواكب ، وهناك مناطق سوداء في الفضاء الخارجي إذا دخلتها الأرض أصبحت بحجم البيضة ، هناك كواكب غازية ، زحل غازي ، غازات متجمعة ، طبعاً كثافته قليلة ، من يحوِّل الصلب إلى سائل والسائل إلى غاز والغاز إلى صلب ؟ ثم هناك نظرية تقول : إن هناك أجراماً غازية تدخل في ثقوبٍ سوداء فتصبح كتلاً متراصَّة .

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

1 - الله يدبِّر أمرَ المخلوقات كلها :

فأحياناً تجد أن الجو ارتفعت حرارته بشكلٍ غير طبيعي ، هذا من أجل أن يتفتَّح الزهر ، يسميه العوام: (عبوء الزهر) ، من يدبِّر الأمر ؟ أحياناً تأتي رياحٌ عاتية في أيام الربيع ، هذه رياحٌ لواقح من أجل إلقاح النباتات ، من يدبِّر الأمر ؟ يأتي بردٌ شديد فيهلك كل الكائنات الضارة في التربة ، يأتي حرٌ شديد فتكسب الفواكه طعمها الحلو المذاق ، من يدبِّر الأمر ؟ مِن إشراق الشمس إلى غروبها ، القمر ، الأرض ، يقول لك : منخفضات ، من يدبِّر الأمر ؟ منخفضات ، منخفض وراء منخفض ، هنا صقيع ، هنا برد ، هنا حر ، هنا جو رطب ، هنا رياح شديدة ، يقول لك: رياح شرقية لها فوائد ، رياح غربية لها فوائد ، الشرقية باردة ، الغربية دافئة ، الغربية يأتي معها أمطار ، الشرقية يرافقها صقيع ، هذا مفيد وهذا مفيد ، ومن يدبِّر الأمر ؟

2 ـ الله يدبِّر أمرَ الإنسان كلَّه :

شيء آخر : أمر الإنسان من يدبِّره ؟ إلى هنا تناولنا في شرحنا أمر الكون الذي تحدثت عنه الآية الكريمة ، لكن الآية مطلقة ..

(وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

شاب يطلب الزواج ، يطلب العفة مثلاً ، فالله عزَّ وجل يجمعه مع إنسان يلهمه أن يسأله عن وضعه العائلي ، فيقول له الشاب : لست متزوجاً فيؤمّن له بيتاً ، فدّبر لهذا الشاب ، من يدبر الأمر ؟ أحد الناس يريد أن يشتغل في عمل يدرّ عليه أسباب معيشية وعائلته ، يلهمه مصلحة يشتغل فيها ، يأتيه الزبائن ، يبعثهم ربنا إلى متجره ، يبيع يشتري ويربح ، ويشتري طعاماً لأولاده ، يدخل بيته معه قوت عياله ، من يدبِّر الأمر ؟ الله سبحانه وتعالى ، هذه أدلة قاطعة على ربوبية الله ، وعلى ألوهيته ، وعلى حكمته ، وعلى تسييره .

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

أمر عجيب ..

(فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

إنه اعتراف لكن بغير تطبيق : فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ

قال أعرابيٌ للنبي عليه الصلاة والسلام : جئتك لتعلمني من غرائب العلم ، فقال النبي الكريم: فماذا صنعت في أصل العلم ؟ قال : وما أصل العلم ؟ قال : هل عرفت الرب ؟ قال : ما شاء الله ؟ قال : فماذا صنعت في حقه ؟ قال : هل عرفت الموت ؟ قال : ما شاء الله ؟ قال : فماذا أعددت له ؟ فأدق نقطة بهذه الآية هذه الكلمة ، إذا كنت تعرف هذا تماماً فلماذا لم تأخذ حتى الآن موقف يتناسب مع هذا الإيمان ؟ إن كنت تقول : الله يرزقني ، والله جعل لي السمع والأبصار ، والله يدبِّر أمري ، فلمَ لا تطيعه؟ ماذا تنتظر ؟

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرك في المقال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعتـه إن المحب لمن يحب مطيع

***

فإذا لم تأخذ موقفاً عملياً تجاه ربك ، وإذا لم تتقصَّ سُبُلَ طاعة الله عزَّ وجل ، إذا ما اجتنبت نواهيه ، فهذه المعرفة لا قيمة لها .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال : من الآية 72)

إذا لم يأخذ الإنسان موقفاً عملياً ، ويسمع الحق ، ويعمل به ، فإيمانه إدعاء ليس أكثر فلماذا هذه المعصية في البيت ؟ ماذا تنتظر ؟ ألا تحس بالتناقض ؟ هل تقول : هي حرام ، تجيبني : نعم حرام ؟ إذاً : لمَ لا تزيلها فوراً ؟ كيف يرضى الإنسان أن تركن نفسه ، وهناك خلل بين ما يعتقده وما يفعله ؟ كيف يرضى عن نفسه وهو لا يتّبع ما يقتنع به من سبيل الإيمان ؟

(أَفَلَا تَتَّقُونَ(31)فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ)

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَال

أما هذه الآية ، والله الذي لا إله إلا هو لو عرفنا دلالاتها حق المعرفة ، لو فهمنا أبعادها لعقدنا التوبة من توّنا دون تباطؤ أو تراخ ..

(فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

1 ـ لا يمرٌّ بين نقطتين إلا خطٌ مستقيمٌ واحدٌ :

إذا كان الخط المستقيم يمر بين نقطتين فهل يمكن أن يمر بين هاتين النقطتين خطٌ آخر لا ينطبق عليه ، ويكون مستقيماً ؟ مستحيل ، بين نقطتين لا يمر إلا مستقيمٌ واحد ، فإذا قال ربنا عزَّ وجل :

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

(سورة الأحزاب : من الآية 33)

فلو أن المرأة لم تفعل هذا وتستجب لدعوة ربها وأمره لكانت في الضلال ، هذا هو الحق .

2 ـ الحق هو الشيء الثابت :

معنى الحق الشيء الثابت ، حق الشيء أي استقر ، فإذا بنيت جداراً على الشاقول تقول : هذا جدار حق ، أي يستمر ، يبقى ، فإذا بنيته من غير شاقول ، وكان مائلاً هذا سوف يقع ، فتعريف الحق أنه يثبت والباطل يزول .

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ)

(سورة الإسراء : من الآية 81)

الحق الشيء الذي رسمه الله سبحانه وتعالى منهجاً للبشر ، فأي منهجٍ آخر فهو باطل ، إن لم تعتقد بالله رباً فعقيدتك باطلة ، إن لم تعتقد بالله إلهاً فعقيدتك باطلة ، إن لم تصل فأنت مبطل ، ولو تفلسف الإنسان، وزعم أنه ذو فكرٍ مُنْفَتِح ، وأنه يقرأ ، وأنه يطالع ، ما دمت لا تصلي فأنت مبطل .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

3 ـ إمّا الحق وإما الباطل :

العلماء قالوا : " ليس في الأرض منزلةٌ ثالثة بين الحق والباطل ، إما أنك على حق ، وإما أنك مبطل "، إن لم يكن اسمك في قائمة الناجحين فماذا يعني هذا ؟ أنك راسبٌ ، فهل هناك قائمة ثالثة ؟ لا توجد قائمة ثالثة ، إما أن يكون اسمك في قائمة الناجحين ، وإما أنك راسب ، ولا توجد حالة ثالثة ، في بلد فيها جامعة واحدة ، إما أن تكون من طلاَّب هذه الجامعة ، أو خارجها ، لا توجد حالة ثالثة ، فالإنسان إن لم يعتقد بالله رباً ، إن لم يعتقد به خالقاً ، إن لم يعتقد به إلهاً يعبد ، فعقيدته باطلة ، فالأرباب الذين يزعمهم من دون الله مبطلون ، فالآلهة الذين يعتقدهم مبطلون .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

أي إذا لم ينطبق سيرك على الخط المستقيم فشيء قطعي أنك مُبطل ، ولا توجد حالة ثالثة ، وهنا لا مجال للمجاملة ، قضية مصيرية ، قضية سعادة أبدية أو شقاء أبدي ، لا يوجد عندنا أنصاف حلول ، الإسلام إما أن تأخذه كله أو تدعه ، أما أن تأخذ منه ما شئت ، فأخذك منه ما شئت كأنَّك تركته كله ، فالأمر ليس هوىً يتبع .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

الحق هو الذي حقَّه الله ، إنما الحق هذا القرآن ، عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ :

((... أَنْتَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ...))

[البخاري ومسلم]

4 ـ النشاط الإنساني إما حقٌّ وإما باطل :

هذه بعض مناجاته ربه في جوف الليل ، أي إن لم تؤمن بهذا النبي فإيمانك باطل ، إن لم تؤمن بهذا القرآن فعقيدتك باطلة ، ليس هناك شيء وضعي آخر يحل محله ، هذا هو الحق ، فلو أن التشريع

الوضعي كان كالقرآن ، وانطبق عليه لكان حقاً ، بل وكان قرآناً ، وإن خالفه فهو باطل ، وهذا هو الحق ، ليس من حالة ثالثة ، غض البصر هو الحق ، العلاقة بالمرأة لها حق واحد وهو الزواج ، وأي علاقة أخرى باطلة .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

وبالنسبة لكسب المال ، فإن الشرع حدد سبل كسبه ، فالهبة جائزة ، والإنسان يتملّك المال حلالاً بالهبة، وبالإرث ، وبالتجارة ، وبالكسب الحلال ، أي طريق آخر فهو باطل .

(فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

والله قضية مصيرية وخطيرة ، الإنسان يتفحَّص سلوكه اليومي ، يتفحَّص قِيَمَه ، لماذا يؤمن ؟ ماذا يفعل في اليوم ؟ هل يفعل شيئاً خلاف القرآن ؟ إذاً هو مبطل .

5 ـ الحقُّ يقابل الضلالَ أيضًا :

ربنا عزَّ وجل مرة قابل الحق بالباطل ، ومرة أخرى قابله بالضلال ، إذا انطلق أحد باتجاه حمص مثلاً، ولكنه سلك طريقاً لا يؤدي إلى حمص ، بل يؤدي إلى بغداد مثلاً ، فإننا نقول : ضل الطريق ، الضلال أن تسير في جهةٍ لا توصلك إلى هدفك ، فما هو الهدف الكبير ؟ السعادة ، فالضلال أي سلوكٍ يؤدي إلى الشقاء فهو الضلال .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : من آية 9)

بالزواج تسعد ، وبغير الزواج تشقى ، بكسب المال الحلال تسعد ، وبكسبه حراماً تشقى ، باتصالك بالله تسعد ، وبانقطاعك عنه تشقى ، إذاً صار معنى الضلال هو الطريق الذي لا يوصلك إلى هدفك ، ولو عرف الضَّالون أنهم سائرون في طريق شقائهم لما ساروا .

6 ـ لابد من معرفة طريق السلامة حتى نسلكه :

إذاً ما هي الأزمة ؟ أزمة مَعْرِفةٍ ، إما أن تعرف ، وإما ألا تعرف ، لو عرفت حُلّت القضية ، ليس على وجه الأرض رجلٌ واحد يتمنَّى الشر لنفسه ، أو يتمنى الشقاء لنفسه ، فحب السلامة فطرةٌ في الإنسان ، إذاً : بقي عليك أن تعرف أين طريق السلامة ، إنه طريق الحق ، وغيره باطل ، باطل ، شيء آخر ربنا عزَّ وجل قابل الحق بالضلال وقابله بالباطل ، الحق من خصائصه الثبات والديمومة ، والباطل من خصائصه الإزهاق .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

الإنسان المبطل يتلاشى هو ومبدؤه ، لكن من دعا إلى الله عزَّ وجل ، من تمسك بكتاب الله فهو خالدٌ خلود الحق ، إذاً من تعلق بالباطل زهق مع الباطل ، ومن تعلّق بالحق خَلَدَ في جنةٍ عرضها السماوات والأرض مع الحق .

(فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

تذكَّروا مثل الناجحين ، هناك قائمة واحدة للناجحين ، إن لم يكن اسمك في هذه القائمة فهذا الطالب راسبٌ حتماً ، إذا لم ينطبق سلوكك على القرآن فالحكم القطعي أن هذا الإنسان مُبْطِل ، وفي طريق الهاوية والشقاء ، والسعيد من عرف الحقيقة قبل فوات الأوان ، لكن جميع بني البشر سيعرفونها ، ولكن بعد فوات الأوان .

(يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ(26))

(سورة الفجر)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27)يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا(28))

(سورة الفرقان)

لكن متى ؟ بعد فوات الأوان .

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس : من الآية 90)

فقال له : أي لفرعون .

(آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس : من الآية 91)

7 ـ البطولة أن تعرف الحق في الوقت المناسب :

البطولة أن تعرف الحق في الوقت المناسب ، أن تعرفه وأنت شاب ، وأنت في مقتبل العمر ، أن تبني مستقبلك وفق الحق ، أن تبني زواجك على الحق ، أن تبني عملك على الحق ، فإذا عرف الإنسان الحق متأخراً وله أربٌ و مصلحة في أمرٍ ما ، ولا يستطيع أن يتخلى عن مأربه ، فالباطل يفترسه ، قال لي أحدهم : دعوت صاحبي للجامع مرتين وثلاثا وأربعا وخمسا ، فيقول لي : مصلحتي لا تتناسب مع الجامع ، أتناقض مع نفسي ، قلت له : غيِّرها ، قال لي : والله من الصعب أن أغيرها ، إذا عرفت الله عزَّ وجل في وقتٍ مبكّر تبني زواجك وكل مصالحك على أساسه .

قال لي أخ آخر : إنه خطب امرأة أعجبه جمالها ، فلما اهتدى إلى الله أبت أن تهتدي معه ، وظلت على طريقتها التي لا ترضي الله ، الآن هو يشقى بها ، يشقى بهذه الزوجة ، فإذا عرفت الحق في وقتٍ مبكر تبني زواجك على أساسه ، وتبني عملك على أساسه ، فتسعد بزواج وبعملك .

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

في إعادة الحق إحقاقٌ للحق وإبطالٌ للباطل :

هل بين الشركاء المزعومين من يبدأ الخلق ، أي أنه يخلق ؟ فمن خلق الشمس ، والقمر ، والأرض ؟ من يعيد خلق الإنسان ؟ هذه الآية دقيقة جداً ، لو أن الله عزَّ وجل بدأ الخلق ولم يعده لكان في مبدأ الخلق نقص ، المحسن لم يأخذ جزاءه ، والمسيء لم ينل عقابه ، لكن الله عزَّ وجل بدأ الخلق ، وسوف يعيده لينال كل إنسان جزاء عمله ، هذا يوم الدين ، بدأنا خلقاً وسوف يعيدنا مرةً ثانية ليلقى كلٌ منا جزاء عمله .

(وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا)

(سورة النساء)

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

(يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

هذه الآية جميلة الدلالة جداً ..

(يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

في إعادة للخلق إحقاق للحق وإنصاف للعباد يتبعه تكريم للمؤمنين ، إذ يخلدون في جنة عرضها السماوات والأرض فأنت خُلقت ، وأعطيت سمعا وبصرا ، ودماغا ، وتفكيراً ، وحرية اختيار ، وشهوات أودعها الله فيك ، وقال لك : تصرف ، وسوف أحاسبك على كل حركةٍ وسكنة في يوم الدين ، مالك يوم الدين ، فهنيئاً لمن عرف الله في الحياة ، المشكلة ليست الآن ، لكن المشكلة في الخلق الثاني ، الطلاب جميعاً في العام الدراسي متساوون ، لكن المشكلة بعد الامتحان ، بالامتحان ينفرز الطُلاَّب إلى ناجحين وراسبين ، إلى أعزَّة وإلى أذلة ، إلى متفوقين يعلو وجوههم البشر ، وإلى مهزومين يعلو وجوههم القنوط .

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ)

إذاً نستدل على الله عزَّ وجل بخلقه . الآن هناك دليل آخر ، لا يقلّ عنه :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ)

اللهُ خلَق الخلقَ وهداه إرشادًا إلى الحق :

للتقريب مثلاً : تجد الدولة شقت طريقاً عريضاً ، بعد فترة وضعت عليه لافتات ، من هنا للمكان الفلاني ، هنا ممنوع المرور ، هنا مسموح ، هناك منعطف خطر ، أنت إذاً إزاء شيئين ، عملية بناء ، و عملية إرشاد ، باللافتات عملية إرشاد ، والدولة حريصة على أن يسلك الناس هذا الطريق ، وحريصة على سلامتهم ، وعلى وصولهم إلى أهدافهم ، فشقت لهم هذا الطريق ، وأقامت لهم العلامات على جوانبه ، فدائماً بالنسبة لخلق الإنسان شيئان خلق وهدى ..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة فاطر : من الآية 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا(1))

(سورة الكهف)

خلق وهدى ..

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(1)الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(2)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(3))

(سورة الأعلى)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

فهنا :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ)

أين أنت ذاهب ؟ فإذا كان الفحص غداً الساعة الثامنة ، وغرفتك جاهزة ، والكتاب مفتوح ، يقول الأب لابنه : أين أنت ذاهب ؟ لابد من أن تجتهد يا بني وتذاكر ، أنت في مرحلة إعداد ، والوقت ثمين جداً ، أين ذاهب ؟

(فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ)

فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ

ما دام الله عزَّ وجل خلق الخلق ، وينتظر منك أن تطيعه ، فأنى تصرف عنه ؟ إلى أين تلتفت ؟

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى)

هذا الصنم ليس فيه ما يهديك ، لا يستطيع أن يتحرك من دون أن تحركه ، هل يتحرك بذاته ؟ معنى يَهِدِّي يتحرك ، لا يستطيع أن يتحرك إلا أن تحركه أنت ، هذا يهديك ؟

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(35)وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا)

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا

أي أن عقائد معظم الناس ، وتفكيرها ، وتصوراتها ، وثقافتها ، معارفها ، معلوماتها من نوع الظن ، والظن لا يغني من الحق شيئاً.

قال عليه الصلاة والسلام :

((قيدوا العلم بالكتابة))

[ورد في الأثر]

أحدهم قرأ مقالة خلاصتها أن الدواء الفلاني يطيل العمر ، هذا باطل ، لأن ربنا عزَّ وجل قال :

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ(34))

(سورة الأعراف)

أيُّ شيء يخالف كلام الله فهو باطل :

انتهى الأمر ، فهذه المقالة باطلة ضع عليها إشارة ضرب ، كلام فارغ جزاف ، أحدهم قال لك : أنا رأيت الجن ، كلام لا أصل له ، بل هراء .

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف : من الآية 27)

يمكنك أن تلغي مائة قصة بهذا الموضوع ، مائتي قصة ، مليون قصة، كله كذب ، صار باطلاً ، فأيّ علم ، أي قصة ، أي حادثة ، أي مقالة قرأتها وفق كتاب الله حق ، خلافه باطل ، فربنا عزَّ وجل سماه باسم ثالث ظن ، ليس مؤكداً ، فإذا بنى إنسان مصيره على أشياء غير صحيحة أو غير ثابتة ، فهو من أهل الظن والريب ، فإن مات وهو مسلم بالهوية ، أيريد بعد ذلك من رسول الله أن يشفع له ؟ هذا ظن.. بل وَهم .

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19))

(سورة الزمر)

الشفاعة حق ، ولكن لمن دخل الجامعة مثلاً ، فإذا دخل للجامعة فإنه يجد من يعاونه ، ويقدم له الكتب ، ويهيئ له قاعة مطالعة ، ومكتبة عامرة ، وقد يُعطى راتباً ، وغرفة بالمدينة الجامعية ، كلها لمن ؟ لمن دخل الجامعة ، أما إذا كنت خارج الجامعة الشفاعة ليست لك ، إذا ظن بعضهم أن الشفاعة لكل واحد انتمى انتماء شكلياً للنبي عليه الصلاة والسلام ، انتماؤه شكلي ، فهذا ظن ، والظن خطر ، يأكل مال

حرام ، يغش الناس ، يختلس النظر ، يصافح النساء ، يتغزّل ، يجلس جلسات منكرة ، وظنه أن رسول الله يشفع له يوم القيامة ، معنى ذلك أنه خرب بيته ، وعاقبته البوار لا محالة .

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

أي أن الأمر خطير جداً ، تحقق من كل فكرة تعرفها ، من كل قصة تسمعها ، هناك قصص غير صحيحة ، اجعل القرآن إمامك ، قيدوا العلم بالكتاب ، فأي قصةٍ أو فكرةٍ أو عقيدةٍ ، وافقت كتاب الله فهي حق وإلا فهي باطل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (09-17): تفسير الآيات 33 – 38
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-11-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي في سورة يونس إلى قوله تعالى :

(فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ)

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ

1 ـ حقٌّ أو باطل ، ولا ثالث لهما :

ليس في الحياة إلا شيئان : حقٌّ وباطلٌ ، فإن لم يكن المرء على الحق فهو في الباطل ، في طعامه ، وفي شرابه ، وفي كسبه ، وفي زواجه، وفي عقيدته إن لم يكن مع الحق فهو مع الباطل ، ليس هناكٌ مرتبةٌ ثالثة ، وليس في الآخرة مرتبةٌ ثالثة ، << فو الذي بعث محمداً بالحق ما بعد الدنيا من دار إلا الجنَّة أو النار >> ، أي أن الموقف حاسم ، يجب أن تتخذ قراراً مصيرياً ، إما أن تكون مع الحق ، وإن لم تكن كذلك فلابدَّ من أن تكون مع الباطل ، إما أن تحبَّ المؤمنين ، وإن لم تكن كذلك فسوف تحبُّ الفاسقين ، إما أن تكون سعيداً ، وإن لم تكن كذلك فلابدَّ من أن تكون شقيَّاً ..

((الناس رجلان : برٌّ تقيٌّ كريمٌ على الله ، وفاجرٌ شقيٌّ هيّنٌ على الله))

[ورد في الأثر]

(فَأَنَّا تُصْرَفُونَ)

2 ـ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ

إلى أين أنتم ذاهبون ؟ ماذا في الدنيا ؟ هل فيها غناءٌ عن الآخرة ؟ هل وحدها تسعد الإنسان ؟

(فَأَنَّا تُصْرَفُونَ)

عندما يسير الإنسان في طريقٍ مسدود ، أو طريق مهلِك يقول له صاحبه المشفق عليه : إلى أين أنت ذاهب ؟ هذا طريق الشقاء .

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

1 ـ الفاسق لا يؤمن :

هناك علاقةٌ ترابطيَّةٌ كما يقولون ، الفاسق لا يؤمن ، وإن لم يكن الرجل مؤمناً فلابدَّ من أن يفسق ، أي أن كلا الطرفين يكون سبباً للآخر ونتيجة له .

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا)

2 ـ معنى : فَسَقُوا

معنى فسقوا أي خرجوا عن أمر الله ، كل إنسانٍ خرج عن أمر الله لن يؤمن ، لماذا ؟ لأنك إذا ناقشته سوف يدافع عن انحرافه ، لن يناقش الأمر مناقشةً موضوعيَّة ، لن يتجرَّد عن هواه ، متلبِّسٌ بالهوى ، غارقٌ في شهوته ، غارقٌ في انحرافه ، إذا ما ناقشته فسوف يدافع عن انحرافه ، هذه فكرةٌ أساسيَّة ..

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

3 ـ المتلبِّس بالمعصية لا يقرّ بالحقيقة :

الفاسق لا يؤمن ، لو أنَّ إنساناً تلبَّس بالربا ، وحضر مجلس علمٍ ذُكِرَ فيه الربا وتحريمه قد يقول : هذا الأستاذ لا يعرف الحقيقة ، الربا الآن لابدَّ منه ، لماذا يرفض هذا المستمع هذه الحقيقة ؟ لأنه متلبِّسٌ بها.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : من الآية 50)

لذلك :

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

أي أنه من القوانين الثابتة ، من سنن الله في خلقه أن العاصي لا يؤمن ، والمنحرف فاسق ، وأن الذي لا يؤمن لابدَّ من أن يحمله عدم إيمانه على الفسق ، والعلماء قالوا : " بين الفسق والإيمان علاقة ترابطيَّة " ، أي أن الفسق يؤدِّي إلى عدم الإيمان ، وعدم الإيمان يؤدي إلى الفسق ، فحيثما تلبَّس الإنسان بإحدى الخصلتين قادته إلى الثانية ، فإذا كان فيه فسق تجده يردُّ الحق ، إذا كان يؤثر الاختلاط في المجالس ، وذكرت له أن الاختلاط حرام يقول لك : لا هذا كلامٌ غير صحيح .. رجل متلبِّسٌ بشرب

الخمر فتعلّق بكلمةٍ موضوعةٍ في الإنجيل " أن قليلاً منه ينعش الروح " ، وتعلّق بآيةٍ زعم أن الله عندما قال :

(فَاجْتَنِبُوهُ)

أن الخمر ليست حراماً ، ولو كانت حراماً حسب زعمه لقال سبحانه : حُرِّم عليكم ، لماذا يردُّ الحق ؟ لماذا يتعلّق بالباطل ؟ لأنَّه متلبِّسٌ بشرب الخمر ..

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

4 ـ لمعرفة الحقيقة لابد من التجرد من الهوى :

لن تستطيع أن تعرف الحق إلا إذا تجرَّدت عن هواك ، إذا تجرَّدت عن الهوى فهذا ثمن الحقيقة ، ثمن الحقيقة كي تعرفها أن تكون حيادياً ، أن تقبل الحق ولو كان على نفسك ، هذا الذي يأتي إلى مجلس العلم ، ويصغي للحق ، وإذا ذكر في مجلس العلم شيءٌ يدينه فإنه يقول : أنا مقصِّرٌ فيه : والله الحق عليَّ ، إن شاء الله سأتوب من هذا الذنب ، إذاً : هذا صادق ، وهذا مؤهَّل أن يعرف الحقيقة ، ثمن الحقيقة التجرُّد عن الهوى ، أما من كان متلبِّساً بهواه فلن يؤمن ، بل يكابر ..

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

فكل واحد منَّا يحاسب نفسه ، لو كان متلبِّساً بمعصية ، وحضر جلسة معيَّنة من جلسات العلم والإيمان، ورأى نفسه يرد الحق فليعرف السبب ، فتلبُّسه بهذه المعصية حمله على ردِّ الحق ، ولو أنه لم يؤمن ، واكتفى بالاعتقاد ، وحضر مجلس العلم ولم يَعِ ما يُقال فيه ، ولم يتبنّ ما يُقال فيه ، ولم يفكِّر ، ولم يدقِّق، ولم يحقِّق ، ولم يبحث بحثاً ذاتياً ، هذا التقليد الأعمى لابدَّ من أن يحمله على الفسق .

إذاً : هذه آية خطيرة من أمَّهات الآيات :

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

علاقة ترابطيَّة ، الفسق سبب عدم الإيمان ، وعدم الإيمان سبب الفسق ، وحيثما تلبَّس الإنسان بإحداهما قادته إلى الأخرى .

الآن :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

1 ـ الله وحده بدأ الخلق :

قلنا في الدرس الماضي : إن الله سبحانه وتعالى بدأ الخلق ، أي أنه خلق الأرض ، وخلق السماوات ، وخلق المجرَّات ، وخلق الشمس والقمر، وخلق الإنسان ، وخلق الحيوان ، وخلق النبات ، حينما بدأ الخلق تجسَّدت عظمته في الخلق ، تجسَّد علمه في الخلق ، حينما بدأ الخلق ظهرت أسماؤه الحسنى من خلال الخلق ، ظهر عطفه ، ورحمته ، وجماله ، وعلمه ، وقدرته ، وغناه ، لكن :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

2 ـ إعادة الخلق لإظهار عدل الله تعالى :

لماذا يعيد الله الخلق مرَّةً ثانية ؟ لتظهر عدالته ، نحن في دار عمل وسوف نأتي إلى دار جزاء ..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت : من الآية 40)

افعل ما شئت ، كلُّه مسجَّلٌ عليك ، كل من أموال الناس ما شئت أو ترفَّع عنها ، انظر إلى الحرام ما شئت أو غُضَّ بصرك ، قل الصدق أو اكذب ، افعل ما شئت ، كلُّه مسجَّلٌ عليك ، أنت في دار عمل ، وسوف تَرِدُ دار الحساب والشقاء ، وسوف ترد دار الجزاء ، لذلك قالوا : " الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف " ، تشريف للمؤمن ، ودار عذابٍ لغير المؤمن..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت : من الآية 40)

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

بدأه وسوف يعيده ، بدأه وتجلَّت من خلاله أسماؤه الحسنى ، وسوف يعيده ليتجلَّى عدله المُطْلَق ، في الدنيا تجد فقيراً وتجد غنياً ، هناك قوي وهناك ضعيف ، فيها صحيح وفيها مريض ، تجد إنساناً له زوجة مطيعة ، وتجد إنساناً له زوجة مشاكسة ، إذا انتهت الحياة بالموت ، ولا شيء بعد الموت يقول هذا الفقير : يا رب لماذا خلقتني فقيراً ؟ ولماذا أغنيت فلانًا ؟ ما ذنبي ؟ وما ميزته ؟ ويقول هذا الضعيف : لماذا خلقتني ضعيفاً ؟

(يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

نحن في دار امتحان ، نحن في دار ابتلاء :

((إنَّ هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح ، من عرفها لم يفرح لرخاء ـ لأنه مؤقَّت ـ ولم يحزن لشقاء))

[ورد في الأثر]

لأنه مؤقَّت .

إذا دخل إنسان إلى بيت فخم جداً ربع ساعة ، هل يشعر أن هذا البيت له ؟ لا ، إنه جميل ، ولكن ليس له ، نحن في دارٍ مؤقَّتة ، نحن مثلُنا كمثل راكب ناقةٍ جلس في ظل شجرةٍ فاستراح قليلاً ، ثم عاد وركب .. ومشَى .. كن في الدنيا كأنَّك مسافر أو عابر سبيل ، كن في الدنيا كأنك غريب .

إذاً : إعادة الخلق من أجل تحقيق العدالة ..

((ألا يا ربَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة ، ألا يا ربَّ نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمةٍ يوم القيامة ، ألا يا ربَّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين ، ألا يا ربَّ مهيناً لنفسه وهو لها مكرم))

[ورد في الأثر]

وكما قال الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه : << الغنى والفقر بعد العرض على الله >> .

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 24)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

إذاً : الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، بدأه ، وعرفنا من خلال بدئه أسماءَه الحسنى ، وسوف يعيده ، وسيتحقَّق من إعادة الخلق عدالته المطلقة .

ثم يقول الله عزَّ وجل :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ

1 ـ الله خَلَق وهدى :

اتضح من الآيتين أن الله سبحانه وتعالى في أكثر من آية في القرآن الكريم بيَّن أنه :

(خَلَقَ فَسَوَّى(2)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(3))

(سورة الأعلى)

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8))

(سورة الشمس)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة فاطر : من الآية 1)

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ)

(سورة الفرقان : من الآية 1)

فكأن الذي ظهر أن هذا القرآن الكريم يعدل الكون ..

(فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(77))

(سورة الواقعة)

صار عندنا كما قال بعض المصلحين : " إن لله في خلقه كتابين الكون والقرآن " ، الله سبحانه وتعالى خلق وهدى ..

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى(49)قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى(50))

(سورة طه)

مرَّ معي في بعض الأبحاث أن سمكاً اسمه سمك السلمون ، يتوالد في أعالي الأنهار في أمريكا الشماليَّة والجنوبيَّة ، وينتقل برحلةٍ شاقةٍ شاقة إلى المحيط الأطلسي ، إلى سواحل فرنسا ، ثم يعود أدراجه إلى مسقط رأسه هناك ، وضع مركزُ بحوث لبعض الأسماك أو لأعدادٍ وفيرة منها قِطعاً معدنيَّة مسجل عليها تاريخ اليوم والشهر والسنة ، هذه الأسماك بعد أشهر عادت إلى مسقط رأسها ، الشيء الذي يُحَيّر العقل أن هذه الأسماك وهي في المحيط الأطلسي كيف عرفت طريق العودة إلى مسقط رأسها ؟ لو أنها انحرفت درجة واحدة لجاءت في مصبِّ نهرٍ آخر ، لو أنَّها انحرفت درجتين لجاءت في أمريكا الجنوبيَّة بدل الشماليَّة ، هل معها بوصلة ؟ معها خرائط ؟ معها إحداثيَّات ؟ هل معها اتصال لاسلكي مع مراكب للتوجيه البحري ؟ كيف عرفت طريقها ؟ بعض العلماء أخذوا بعض الأسماك ، وحملوها إلى مصبِّ بعض الأنهار في أوروبا وهي صغيرة ، حينما كبرت سارت إلى الأطلسي ، وعادت إلى أمريكا ، لا يزال هذا سرَّاً ، ما الذي يسيِّر هذه السمكة ؟ شيء يعجز عن تفسيره وتعليله

علماء البحار ، يعجز عنه المتخصِّصون ، يعجز عنه ربابنة السفن ، وأنت على سواحل فرنسا تشاهدها تتجه تحت البحر لا ترى شيئاً ، تتجه إلى مصبِّ الأمازون وتبلغ غايتها ؟!! هذا من هداية الله عزَّ وجل، هذه الظاهرة لا تُفَسَّر إلا بالقرآن ..

(الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى(50))

(سورة طه)

الحيوان هداه إلى طعامه ، هداه إلى شرابه ، هداه إلى دوائه ، قد يُصاب الحيوان بمرض ، يذهب إلى البستان يبحث عن حشيشةٍ بعينها فيأكلها فيشفى ، هداه إلى طعامه ، هداه إلى شرابه ، هداه إلى طريقة توالده ، هداه إلى أنثاه ، هداه إلى كل شيء ، لكن الإنسان أعطاه الفكر وبالفكر ارتقى الإنسان ، وهدى الله الإنسان إليه ليعرفه فيعبده ، الحيوان هداه إلى طعامه وشرابه ، لكن الإنسان هداه إليه عن طريق ماذا ؟ عن طريق الكون ، ثم عن طريق ماذا ؟ عن طريق الأنبياء ، وعن طريق الكتب ، وعن طريق ورثة الأنبياء .. الدعاة إلى الله .. وعن طريق المصائب ، وعن طريق الضيق ، وعن طريق الغنى ، وعن طريق الفقر ، وعن طريق المرض ، وعن طريق الصحَّة ..

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7))

(سورة الرعد)

والله شديد المحال ، إذاً :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ(34)قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى)

أي أن هذا الصنم الذي لا يستطيع الحركة من تلقاء نفسه أهذا يهديكم .

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

2 ـ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

خطر في بالي أن طالباً علاماته لا تؤهله لدراسة الطب في جامعة دمشق ، ولكن تؤهله ليدرس في حلب أو هندسة في جامعة دمشق فيحتار ، يقيم موازنات ، طب أم هندسة ؟ هما قريبان من بعضهما ، الطب أرقى ، لكن في حلب ، يجب أن يستأجر غرفة ، أن يأكل وحده ، تثقله أعباء المعيشة ، فالمصروف كبير ، لكن لو أن أحداً خيَّروه بين أن يكون طبيباً ويكون بمهنة دنيا جداً ، تأخذ مليون ليرة أم تأخذ مليون ضربة ؟ هذه لا تحتاج إلى وقفة ؟ تأخذ مليون ليرة ذهبيَّة أم مليون ضربة ؟ هذا ليس بخيار ، هذا شيء بديهي أن يأخذ المليون ليرة ، فالخيار إذاً بين الإيمان وعدم الإيمان ، أي بين السعادة

والشقاء ، بين الخلود في الجنَّة ونعيمها وبين الخلود في النار وجحيمها ، بين أن تكون مهتدياً وبين أن تكون ضالاً ، بين أن تكون مستبصراً بين أن تكون ضائعاً وتائهاً ، بين أن تكون مطمئناً و بين أن تكون خائفاً ، بين أن تكون عزيزاً و بين أن تكون ذليلاً ، بين أن تكون موفَّقاً وبين أن تكون الأمور كلها مُعَسَّرة ، بين أن يحبَّك الله وبين أن تسقط من عين الله ، لا نسبة بين هذا كله ولا مقارنة ..

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

كيف تجحد نِعَمَ الله عليك ؟!

كيف يقدر الإنسان أن ينام وهو على معصية ؟ كيف يعصي الإله خالق الكون ؟ " لا تنظر إلى صغر الذنب ، ولكن انظر على من اجترأت " ، كيف تجحد فضل الله عزَّ وجل ؟ ..

((إني والإنس والجنُّ في نبأٍ عظيم ، أخلق ويُعْبَد غيري ! وأرزق ويُشكر سواي))

[ورد في الأثر]

كيف تجحد هذه النعم ؟ نعمة البصر هل عرفت من خلق البصر ؟ من خلق السمع ؟ من خلق الشم ؟ من خلق هذه الربع مليون شعرة في رأسك ، لكل شعرة وريد وشريان ، وعصب وعضلة ، وغدَّة دهنيَّة، وغدَّة صبغيَّة ؟ هل تعرف من خلق في أنفك عشرة ملايين عصب شمّي ؟ هل تعرف من شقَّ هذه العين وجعل في شبكيَّتها مائة وثلاثين مخروطاً ؟ هل عرفت من خلق هذه الأذن ؟ خلق أذنين لتعرف مصدر الصوت من الصيوان ، إلى القناة الأذنيَّة ، إلى غشاء الطبل ، إلى الأذن الوسطى ، إلى الداخليَّة ، إلى قنوات التوازن ؟ من خلق العظام وأعطاها حداً في نموها تقف عنده ؟ لو أن الأسنان تنمو بازدياد ماذا يحدث ؟ هو القابض والباسط ، أعطى هذه الأسنان نمواً ، ثم أوقفها عند حدِّها ، أعطى هذه العظام نمواً ، ثم أوقفها عند حدِّها ، من أمر العظام أن تقف عن النمو ؟ بعض الأطبَّاء قال لي : كأن هناك خطاً وهمياً مرسوماً في الفضاء ، إذا وصل العظم إليه يقف عن النمو ، شيء مضحك والله ، خط وهمي مرسوم في الفراغ إذا وصل نمو العظم إليه توقَّف عن متابعة النمو ، لا هذا غلط ، الصواب هو القابض والباسط ، الجامع والمانع ، ولتقل : إنها الحكمة في الخلق ، فإذا تأمَّل الإنسان في هذا الكون يرى :

في كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد

والله كل شيء كأنه ينطق ويقول : أنا دليلٌ على عظمة الله ، من طعامك ، إلى شرابك ، إلى ابنك ، إلى كأس الماء ، إلى كأس الحليب، إلى الجبل ، إلى البحر ، إلى السمك ، إلى الطير ..

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحد

فالله سبحانه وتعالى بقدر ما هو خالق عظيم بقدر ما هو هادٍ حكيم ، هداك في كل شيء ..

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

أي إذا كنت محتاراً أتدخل كلية الطب أم كاية الهندسة فأنت على حق ، الطب في حلب والهندسة في دمشق ، أي أن هناك وجهة نظر ، أنت محتار لا بين أن تفتح محل أقمشة أم ملبوسات جاهزة ، لكن تأخذ مليونا أو تُضرَب مليون ضربة ، فمن غير المعقول أن تقول : والله أنا محتاج أن أفكّر قليلاً ، أتركوني لأفكّر ، إذا قال لك واحد : هذا البيت بمائة ألف ، وثمنه الحقيقي ثلاثمائة ألف ، هل تقول : والله اتركني أفكر يومين ، أم تقول فوراً : أنا اشتريت ، أين الدلال ؟ قم واكتب العقد ؟ معي الآن دفعة أولى ، وإذا كنت تحب فالنقود جاهزة عندي في المكتب ، إذا رأيت البيت فرصة فإنك تسارع ولا تقول: اتركها لي يومين ، لا تتكلّم أبداً ، بل تبادر لإنفاذ عملية البيع..

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

كيف الإنسان راضي بالدنيا .

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ)

(سورة التوبة : من الآية 38)

هل تقبلون بهذه ؟ شاب أبوه ملك قال له : يا ابني اطلب وتمنَّى ، فقال له : أريد محَّاية حبر، فقط ؟ طلب الدنيا واكتفى بها ، لو طلب يختاً سيعطيه ، لو طلب أكبر قصر سيعطيه إياه ، ولكنَّه طلب محاية ، أو قلمًا ، أكثر لا يريد .. إنه حمق ، وغباء وضلال .

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(35)وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا

كل مَن يعتمد على الظن لا يفلح :

أي أن معظم الناس عقائدهم ظن ، تصوراتهم ظن ، منطلقاتهم ظن ، أهدافهم ظن ، أي أنه يتوهَّم السعادة بالمال هذا ظن ، المال لا يُسعِد ، يتوهّمها بالنساء ، النساء لا تُسعِد ، يتوهِّمها بالبيت الفخم ، ربَّ كوخ حقير صاحبه أسعد الورى ، اللهمَّ صلِّ عليه كان إذا صلَّى قيام الليل ، وحان السجود نقلت السيدة عائشة رجليها جانباً أو ضمتهما إلى جسدها ، لأن الغرفة لا تتسع لنومها وصلاته ، ودخل عليه عديٌّ بن حاتم فتناول اللهمَّ صلِّ عليه وسادةٍ من أدمٍ محشوَّةً ليفاً ، و قال لعدي ابن حاتم : " اجلس على هذه " ، قال عدي للنبي : " بل أنت تجلس " ، قال عليه الصلاة والسلام : "بل أنت " ، قال عدي : "

فجلست عليها ، وجلس رسول الله على الأرض " ، ليس عنده في بيته غير وسادة واحدة ، ومع ذلك كان سيّد الخلق وحبيب الحق ، الله عزَّ وجل ما أقسم بحياة أحد من الأنبياء إلا بحياته صلى الله عليه وسلم ، قال له :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72))

(سورة الحجر)

قال له :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

لا يعرف الحقيقة إلا مَن ذاقها :

سيدنا الصدِّيق .. جاء سيدنا جبريل وقال للنبي عليه الصلاة والسلام : قل لصاحبك : إن الله راضٍ عليه فهل هو راضٍ عن الله ؟ " ، سيدنا الصديق لم يتحمَّل الكلمة .. مجالات الإيمان لا يعرفها إلا من ذاقها ، الإنسان أحياناً يقيم علاقة مع إنسان من طينته ، إنسان يفنى يعتز بهذه العلاقة ..

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزَّك ميّتُ

عندما يصير للإنسان وجهة إلى الله عزَّ وجل تحدث له صلة حقيقيَّة ، إقبال حقيقي ..

لا يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول

***

هذا مثل من يقول لآخر : صف لنا طعم العسل ، فيجيبه أنه من الصعب والله ، إذا ذقه فقط فستعرفه فمن ذاق عرف ، استقم استقامة تامَّة ، وقدِّم أعمالاً صالحة لوجه الله عزَّ وجل خالصة من كل شائبة ، ثم تعال وقل لي ماذا حدث لك ، تعال وقل لي أي سعادة عشت ؟ وإلى أي مدى اطمأننت ؟ وكيف نزَّل الله على قلبك السكينة ؟ وكيف يسَّر لك الأمور ؟ وكيف أصبح لك بيتك ؟ وكيف أصلح لك جسدك ؟ وكيف أصلح لك معيشتك ؟ وكيف أكرمك في الدنيا قبل الآخرة ؟

" كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك " .

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا)

بعضهم يعتقد أن المسرحيَّة .. مثلاً .. تهذّب النفوس ، هذا ظن ، وآخر يعتقد أن الاختلاط يهذِّب المشاعر ، وثالث يعتقد أن الموت نهاية الحياة لا بعث بعده ، ولا أي شيء آخر ، هناك من يعتقد أن المال هو السعادة ، وأن الدراهم مراهم .. وكل إنسان يتصوِّر فكرة متوهماً إيَّاها أنها حقيقة وهو يظنها ظناً ، هذه مصيبة كبيرة ، وإذا كان الإنسان على وشك الموت عطشاً ، وتوهَّم الماء بجهة معيَّنة ،

وذهب إلى هذا المكان فما لبث أن مات هناك عطشاً لأنه لم يجد ماء ، بين أن تكون متأكّداً من وجود الماء وبين أن تكون واهماً قضية موت أو حياة ، إذا بقي في حياته ربع ساعة ، وقالوا له : في هذه الجهة يوجد ماء ، لكنه ليس متأكّداً وجود الماء ، هل يستهلك هذه الربع ساعة في مسير إلى مكان غير مؤكّد ؟ يكون قد غامر بحياته ، لكن إذا كان متأكّداً من وجود ماء ، وذهب إليه فهو على حق عندئذٍ ، وسينجو بحياته ..

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

فأحياناً الطالب يتوهَّم إذا قيل له : إن الأستاذ الفلاني يعطي الأسئلة ، ولكن ليس الآن ، بل قبل الامتحان بأسبوع ، فإنه لا يدرس أبداً ، هل هذه الفكرة صحيحة ؟ لو أنها كانت صحيحة لقبلنا بها ، أما إذا كانت غير صحيحة ولا تصدق ، ثم يمضي السنة كلها باللعب والتسلية ، وكان مقبلاً على فحص بكالوريا ، وفيها يتحقق مصيره ، وقبل الامتحان بأسبوع طرق الباب فطُرِد ، أليس قد غامر بمستقبله ؟ لأنه ربط مصيره بظن ، لأن طالبًا قال له : الأستاذ يعطيه الأسئلة ، إذا كان قد قال لك ذلك بفمه فهذا بحث آخر ، لكن هذا ظن ..

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا)

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

هذا ظن ، هذه دعوى ..

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة : من الآية 18)

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ(80))

(سورة البقرة)

كذلك هذا ظن ، يقول بعضهم لبعض افعل ما شئت فالنبي عليه الصلاة والسلام سيشفع لك ، فهل هكذا تفهم الشفاعة ؟ هذا فهم خاطئ للشفاعة ، الشفاعة حق ، ولكن لها معنى أرقى من هذا ، لا يشفع النبي لمن ترك الحق ، وأدار ظهره له ، لكن من تبع سنَّته يشفع له .

شاب دخل الجامعة يقدِّمون له كتباً وطعاماً وشراباً ، ومكتبات ، وكل ما يحتاجه ، ويعينه على الدراسة، إلا أن هذا الطالب في نهاية العام مطالب بأداء الامتحان ..

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(36)وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ)

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ

1 ـ وَمَا كَانَ :

أولاً : كلمة ما كان دقيقة جداً ، أنت تقول مثلاً : الحديد لم يصدأ ، عندك قطعة حديد تأمَّلتها لم تصدأ ، لكن الصدأ من خصائص الحديد ، تقول : لم تصدأ ، لكنك إذا أمسكت قطعة ذهب فماذا تقول ؟ ما كان لها أن تصدأ ، هناك فرق بين أن تقول : لم تصدأ ، وبين ما كان لها أن تصدأ لأن من طبيعة الحديد الصدأ ، ولظروفٍ خاصَّة كانت في مكانٍ جاف لم تصدأ ، أما الذهب ما كان له أن يصدأ ، ليس من شأنه الصدأ ، ليس من خصائصه الصدأ ، لذلك قالوا : هذه العبارة حيثما وردت في كتاب الله فإنها تنفي الشأن لا تنفي الحدث ، تقول على إنسان : لم يسرق ، أما إذا كان إنسان من عليَّة القوم فتقول : ما كان له أن يسرق ..

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 33)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت : من الآية 40)

لا تنفي الحدث ، ولكن تنفي الشأن ، أي أنَّ أبلغ أنواع النفي في كتاب الله صيغة ما كان ، لأنها تنفي الإرادة ، والاستعداد ، والإمكانيَّة ، والشأن ، والرغبة ، والحدث ...

مثلاً : شخص يحمل دكتوراه في الرياضيات فقلت له : اثنين ضرب ثلاثة ؟ فسكت ، فقلت عنه : لأنه لا يعرف ، نقول لك : ما كان له أن يجهل هذه الحقيقة ، لكنَّ سكوته له معنى ، لا يعرفها ، وهو يحمل دكتوراه بالرياضيات ؟ لا تقل : لم يعرف ، بل قل : ما كان له إلا أن يعرف .. فربنا عزَّ وجل قال :

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ)

2 ـ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ

مثلٌ تقريبي ، ولله المثل الأعلى :

في الأسبوع الماضي بحثت عن مثل يوضِّح هذه الفكرة وهو : لو فرضنا أن واحداً لم يرَ طائرة في حياته ولا صورتها ، ولا ركب فيها ، ولا يعرف شيئاً عن إمكانيَّاتها أبداً ، لكنه رأى طفلاً قد صنع طائرة من ورق ، وسحبها في الهواء ، دخل هذا إلى محل حدادة مترين في مترين ، قال له صاحب

المحل : هذه الطائرة الحديثة الفلانية ، التي تتسع لستمائة راكب ، أنا أصنعها في هذا المحل ، مادام هذا الإنسان لم ير الطائرة يصدِّق ، لكن لو ركب الطائرة ، ورأى حجمها ، ورأى أن علم البشريَّة كله مجموع فيها ، ستمائة راكب في طائرة ، وطعام وشراب ، وهيدروليك ، وأجهزة ، ورادارات ، شيء عجيب في الطائرة ، هل يمكن لإنسان ركب طائرةً كبيرةً نفَّاثةً من أحدث الطائرات أن يصدِّق أنها صنعت في محل متواضع في أحد أسواق دمشق ؟ مستحيل ، لو عرفت الطائرة ما صدَّقت هذا الكلام ـ هذا المثل تقريبي .

3 ـ لا يمكن أن يكون القرآن من كلام البشر :

لو أننا قرأنا هذا القرآن ، وعرفنا ما فيه من تشريعٍ اجتماعي ، ما فيه من حقائق ، ما فيه من ذكرٍ للأولين ، ما فيه من ذكر ليوم القيامة ، ما فيه من نظام الطلاق ، من نظام الميراث ، من نظام الزواج ، من نظام البيوع ، ما فيه من حقائق ، من مشاهد ، من تاريخ ، ما فيه من طُرُق توصل إلى الله عزَّ وجل ، ما فيه من سُنَن ، لو عرفت مضمونه تقول : لا يمكن لبشرٍ كائناً من كان أن يأتي بمثله ، إذا ركبت الطائرة ترفض هذه المقولة ، فإذا لم تركبها ، ولم ترها ، ولم تسمع بها ، وقيل لك : إن هذا القرآن من صنع محمد لأنه كان عبقرياً فذّاً ، كان ذكياً جمع العرب بهذا القرآن ، إن لم تقرأه قد تقول : هذا الكلام صحيح ، أما إذا قرأته وفهمت آياته تقول : هذا ليس من صنع بشر..

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ)

انظر إلى كلمة من دون الله هل تعلم أن الكون كلَّه من دون الله ؟ دع عنك الجمادات ، ودع عنك الحيوانات لا تعقل ، والنباتات ، بقي الإنس والجن ..

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ)

4 ـ الإعجاز العلمي والبلاغي دليل أن القرآن كلام الله :

مستحيل ، لو أننا قرأناه .. فالعنكبوت التي تنسج البيت هي أنثى العنكبوت .. النبي الكريم اللهمَّ صلي عليه هل درس علم الحيوان ، وعرف أن العنكبوت ذكر وأنثى ، والأنثى هي التي تنسج البيت ؟ لا أعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم عرف أو درس ، الله عزَّ وجل هو الذي عنده علم ما خلق فقال :

(كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا)

(سورة العنكبوت : من الآية 41)

الله عزَّ وجل حينما ذكر العنكبوت استعمل تاء التأنيث ، معنى هذا أن من ينسج بيت العنكبوت هي الأنثى ، لنأخذ الحوت .

قال لي بعض الإخوة : إن المريء في الحوت على عِظَم الحوت لا يتَّسع لمرور الإنسان لأنه ضيق ، ربنا عزَّ وجل قال :

(فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ)

(سورة الصافات : من الآية 142)

لم يقل : فابتلعه ، أي بقي سيدنا يونس لقمة في فمه ، ولم يصل إلى جوفه ، النبي الكريم شرَّح الحوت؟ رأى الجهاز الهضمي للحوت ؟ عرف ضيق المريء ؟ هذا كلام الله ، إذا صعد الإنسان في الفضاء الخارجي يشعر بضيق النفس ، وهذا جاء في كتاب الله ، أي أن هذا القرآن كتاب أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ألف وأربعمائة عام ، والعلم تقدَّم تقدُّماً مذهلاً ، حتى هذه الساعة لم يحدث أن اكتشف العلماء حقيقة تناقضت مع كتاب الله ، هذا مما يؤكِّد أنه من عند الله ، من عند خالق الكون ..

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ)

مستحيل ..

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الرحمن : من الآية 33)

لماذا بدأ الله بالجن ؟

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ)

(سورة الإسراء : من الآية 88)

لماذا بدأ بالإنس ؟ لأن هذا كلام رب ، قيل : لأن الإنس أقدر على البيان من الجن ، والجن أقدر على خرق السماوات من الإنس ..

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)

(سورة النور: من الآية 2)

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ)

(سورة المائدة : من الآية 38)

لماذا بدأ هنا بالزانية ؟ قال : لأنها أقدر على الزنا من الزاني ، ولماذا بدأ هنا بالسارق ؟ لأنه أقدر على السرقة من السارقة ، فالرجل أقدر من المرأة في مجال السرقة ، فقدم السارق ، بينما الزنا المرأة أقدر عليه من الرجل ، لذا قدم الزانية ..

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 24)

ربنا عزَّ وجل ذكر الأقرباء في هذه الآية لكنَّه بدأها بالأب ، وفي موطنِ آخر قال :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)

(سورة آل عمران : من الآية 14)

بدأ بالنساء ، وفي موطنِ ثالث :

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ(34)وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ(35))

(سورة عبس)

بدأ بالأخ ، وفي موطنِ رابع بدأ بالابن :

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ(11))

(سورة المعارج)

بدأ بالابن ، هذا كلام الله ، في كل موطن قدَّم الله سبحانه وتعالى الشيء المهم ، في موطن اعتزاز الإنسان الاجتماعي قدَّم الأب ..

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 24)

في موطن الشهوة قدَّم المرأة ..

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ)

(سورة آل عمران : من الآية 14)

في موطن الاستنجاد قدَّم الأخ ، لأن الأب كبير والابن صغير ، أقرب إنسان إليك أخوك ، في موطن الفدية أغلى شيء الابن قدَّم الابن ، هذا كلام الله ،

في ثمانية عشر آية قدَّم الله سبحانه وتعالى السمع على البصر ، لأن العلم اكتشف أن استجابة السمع قبل استجابة البصر ، أي أن الجنين يستجيب للصوت وهو في بطن أمِّه ، لكن الطفل المولود حديثاً لا يستجيب للضوء إلا بعد أيَّامٍ ثلاثة .

(أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ)

(سورة المؤمنون : من الآية 78)

إلا في آية واحدة عبَّرت عن أن سرعة الضوء أكثر من سرعة الصوت ..

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا)

(سورة السجدة : من الآية 12)

هنا قدّم البصر على السمع ، وفي ثمانية مواطن قدَّم الله بذل المال على بذل النفس ، لأنه أيسر ، وبذل المال أهون من بذل النفس ، وفي آيةٍ واحدة قدَّم الله بذل النفس على بذل المال ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

(سورة الصف)

في ثمانية مواطن قدَّم المال على النفس ، وفي موطنٍ واحد ..

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 111)

في موطن البيع القطعي قدَّم الأهمَّ على المهم ، في القرآن الكريم ذُكِرت كلمة(اليوم) ثلاثمائة وخمساً وستين مرَّة ، وذُكر الشهر اثنتا عشرة مرَّة ، هل هذا صدفة ؟ آيات الجنَّة تعادل في عددها آيات النار ، آيات الدنيا تساوي آيات الآخرة ، آيات الملائكة تساوي آيات الشياطين ، شيء عجيب ، ففي القرآن يوجد إعجاز حسابي ، وفيه إعجاز رياضي ، و إعجاز بلاغي ، وفيه إعجاز تشريعي ، و إعجاز علمي، ما من حقيقةٍ علميّةٍ إلا وذكر القرآن أصولها ، لم يتطرَّق للتفصيلات لأنه كتاب هدايةٍ وإرشاد ، لكن اكتفى بذكر أصول العلم ..

إن أصول العلاقة الزوجيَّة مذكورة في القرآن ، فقد ذكر الله عزَّ وجل أن الزوجة من آيات الله ، ووصَّى الزوج ، وجعل القِوامة للأزواج لسببين : أنه أنضج منها عقلاً وأفقاً وفكراً وإرادةً وتصميماً وخُلُقاً ، ولأنه أنفق من ماله ، لكنَّه خاف من الشطط فقال الله عزَّ وجل :

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

(سورة البقرة : من الآية 228)

درجة واحدة ، أي ينبغي أن يكون الرجل فوق المرأة بدرجة واحدة ، فأصول العلاقة الزوجية الصحيحة مبثوثة في القرآن ، وكذا أصول البيع والشراء ..

(إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

(سورة النساء : من الآية 29)

إذا كان هذا المشتري يعرف أن هذا البائع مستحكم ، وأخذ منه بالمائة ثلاثمائة ربحا فهذا الشاري أهو راضٍ ؟ يقول لك البائع في معرض مناقشته في تلك الصفقة : هو قبل ، يعني الشاري ، نعم هو قَبِلَ مضطراً ، هذا اسمه استغلال ، لو كُشِفَ رأس المال للشاري هل يرضى ؟ ومن مقياس البيع الشرعي الرضا .

(إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً)

(سورة البقرة : من الآية 282)

(إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ)

(سورة النساء : من الآية 29)

لو دقّقت في كتاب الله تجد أن فيه نواحي تربويَّة ، فيه كنايات لطيفة جداً ، علّمنا الأدب في التعبير ، كما أنه فيه نواحي أخلاقيَّة أرشدنا إليها ..

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة االقلم)

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)

(سورة ص : من الآية 44)

(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(30))

(سورة ص)

إن في القرآن نواحي تشريعيَّة ، ونواحي شخصيَّة ، علاقات زوجيَّة ، علاقة الآباء بالأبناء ، لو دقّقت في القرآن الكريم لرأيته تناول كل شيء ، لأن الله سبحانه وتعالى جعله دستوراً للبشر .

إذاً :

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

المعنى الأول : بشارة عيسى بالنبي صلى الله عليه وسلم :

بشّر كل من سيدنا موسى وسيدنا عيسى بالنبي محمد ، وورد في التوراة والإنجيل ذكر النبي عليه الصلاة والسلام .

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

(سورة الصف : من الآية 6)

فجاء النبي عليه الصلاة والسلام ، فكان مجيئه تصديقاً لما جاء في التوراة والإنجيل ، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : القرآن يؤكّد ما في الإنجيل والتوراة :

ولكن تصديق الكتاب ، المعنى الثاني هو أن ما جاء في القرآن يؤكّد ما جاء في الإنجيل والتوراة ، لأن الكتب السماويَّة الثلاثة من عند الله ، إلهٌ واحد ، والتشريع واحد ، لكن إذا وجدنا في القرآن الكريم تفصيلات لم تَرِد في التوراة والإنجيل فهذا مما ذكره الله عزَّ وجل من حكمته ، أي بحسب تطور

ظروف الحياة ، بحسب ظهور مشكلات لم تكن ظاهرة من قبل ، فجاء التشريع مقتضباً مرَّةً ، ومفصَّلاً مرَّةً أخرى ..

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

فالقرآن صدَّق ما جاء به الأنبياء السابقون ، ومجيئه تصديقٌ لما في كتبهم ، وكلام النبي عليه الصلاة والسلام يصدِّق أن هذا الكلام من عند الله ، أي أنه قمَّةٌ في الكمال .. فقد قال سيدنا جعفر للنجاشي : " أيها الملك كنَّا قوماً أهل جاهليَّة نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منَّا الضعيف .. هذه الجاهليَّة قبل الإسلام .. حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف نسبه ، فهو من نسل إبراهيم .. إذاً : نعرف نسبه ، وأمانته ، وصدقه ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحِّده ، ونخلع ما يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وقول الحق، فعدَى علينا قومنا ليعذِّبونا .. " إذاً :

(وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)

بعضهم قال : " الكتاب إذا ذُكرت تعني الكتب السماوية كلها ، فما جاء في الكتب السابقة مختصراً جاء في القرآن مفصَّلاً ..

(لَا رَيْبَ فِيهِ)

وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

لا ريب فيه أي لا شكَّ فيه لأنه من الله عزَّ وجل ، وأنه فيه الكمال المطلق ، لا يأتيه الباطل ، لا يوجد كتاب من صنع إنسان إلا وفيه غلط ، قد يكون صغيراً أو كبيراً لكن الكتاب الذي لا ريب فيه هو القرآن الكريم ..

(مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(37)أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ

أنتم تقولون : إن محمداً صلى الله عليه وسلَّم افترى هذا القرآن على الله سبحانه ، الله سبحانه وتعالى يتحدَّاهم أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ من عندهم تضاهي هذا الكتاب .

الآية الثانية التي لها علاقة بهذه الآية :

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء : من الآية 88)

أي مستحيل ..

(وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أي اجمعوا كل من تستطيعون لتتعاونوا على صنع آيةٍ إنكم لن تحقّقوا هدفكم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (10-17): تفسير الآيات 39 – 41

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-11-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ

1 ـ من الجهل الفاضح الحُكمُ على الشيء قبل تصوُّرِه :

الحقيقة أن في الإنسان صفاتٍ عديدة بعضها مقبول ، وبعضها جيد ، وبعضها مرذول ، من صفات الإنسان العقلية المرذولة أن يُكَذِّبَ قبل أن يحيط بالشيء علماً ، أي أن يحكم على الشيء قبل أن يعرفه ، كيف يتم ذلك ؟ إن هناك صفات خُلُقِيَّة مذمومة ، وهناك صفات عقلية مذمومة ، من الصفات العقلية المذمومة أن تكذِّب بالشيء قبل أن تعرفه ، أن تستخف به دون أن تحيط به علماً ، أن ترُدَّهُ وأنت جاهلٌ به ، هذه صفةٌ عقليةٌ ذميمة في الإنسان ، من صفات السُذَّج ، من صفات عامة الناس ، من صفات الدَهْمَاء ، من صفات المتخلِّفين عقلياً ، أما أن تكذِّب بالشيء قبل أن تعرفه ، قبل أن تحيط به علماً ، قبل أن تدرك حقيقته ، قبل أن ترى أبعاده فربنا سبحانه وتعالى ذمَّ هؤلاء الذين كذَّبوا بالقرآن قبل أن يعلموه، وكم من إنسانٍ في هذا العصر لا يعرف حقيقة هذا الكتاب ، يقول : هذا الكتاب ليس لهذا العصر ، فيه غيبيات ، لو عرف أن سعادته كلها ، لو عرف أن سعادته وسعادة مجتمعه ، والإنسانية جمعاء منوطةٌ بتطبيقه لاختلف الأمر ، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

2 ـ الحقيقة إما منقولة وإما مبادَر إليها :

في هذه الآية شيئان هامان بارزان .. الشيء الأول : إن الإنسان أحياناً يبادر مبادرة ذاتية لمعرفة الحقيقة ، وأحياناً تُنْقَل إليه الحقيقة ، إذا كان قد بادرها أو نقلت إليه ، وعقلها ، وطبقها فهو في خير ، أي سواءٌ عليك أفكرت تفكيراً ذاتياً بربك وبآياته الكونية ، واستنبطت من هذه الآيات أن لك رباً عظيماً، خالقاً قديراً حكيماً ، سوف يعيد الخلق مرةً ثانية ليجزي كل إنسانٍ بما عمل ، سواءٌ عليك أبادرت أنت

لمعرفة الحقيقة أم نُقلت إليك الحقيقة ، لابدَّ من أن تعرف الحقيقة ، إما عن الطريق النظر ، وإما عن طريق السمع ، عن طريق النظر قال تعالى :

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس)

إنسان لم ينظر ، فإذا جاءه الحق عن طريق إنسان آخر ، وأسمعه إياه فقد صار هذا الحق حجة عليه .

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 23)

فإما أن تفكّر أنت ، وإما أن تنظر ، وإما أن تسمع ، وأما الكفار فقد وصفهم ربنا عزَّ وجل فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(6)خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

(سورة البقرة)

لأن منفذي القلب هما السمع والبصر ..

(وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً)

(سورة البقرة)

أي أن منفذ القلب عليه غشاوة ، وهو حب الدنيا ، صار عندنا منفذان للحق : إما أن تنظر ، وإما أن تسمع ، أما هؤلاء الذين كفروا بهذا الكتاب ، كذبوا به ، ولم ينظروا في آياته ودلالاتها ، ولم ينظروا في نظامه الاجتماعي ونظامه الاقتصادي ، ولم ينظروا في تشريعاته ، ولم ينظروا في دلالاته وآياته ، ولم ينظروا في مضامينه ، ولا في إعجاز صياغته وبيانه ، ولا في إعجازه الرياضي والحسابي والدلالي ، لم ينظروا في القرآن ، وحينما نقل إليهم تفسيره الصحيح أيضاً لم ينظروا في هذا التفسير .

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

3 - بين التفسير والتأويل :

أما التأويل فإنه يختلف عن التفسير ، أحياناً تقول : الصَّبا الرياح الشرقية هذا تفسير ، ولكن التأويل إذا ورد النص فيما يعارض الواقع فعليك أن تؤول النص بما لا يخالف الواقع ، فإذا قلت : في بيتنا بحرٌ ، البحر لا يكون في البيت ، إذاً : في بيتنا رجلٌ علمه كالبحر ، فانتقلنا من الحقيقة إلى المجاز . وكمثل على التأويل ربنا عزَّ وجل قال :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

الله عزَّ وجل منزه عن التبعيض ، ليس له شيء بعض منه ، منزَّه عن التجزيء ، لكن يد الله بمعنى قوته فوق أيديهم ، فحينما يتعارض النص مع الواقع عندئذٍ تحاول أن توفّق بينه وبين الواقع ، هذا هو التأويل ، ربنا عزَّ وجل قال :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)

(سورة آل عمران : من الآية 7)

هذه المتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم ، لذلك أمرنا سبحانه قائلاً :

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(59))

(سورة الفرقان)

ربنا عزَّ وجل قال :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

التأويل هنا أي توضيح الآيات إيضاحاً وتفسيراً ، وتوفيقاً مع الكمال الإلهي ، لو فرضنا أن أحداً قال لك : الله ضار ، طبعاً ، يضر لينفع ، يبتلي ليجزي ، يأخذ ليُعطي ، أنت أوَّلت هذا الاسم بشكلٍ يليق بكمال الله عزَّ وجل ، وإذا اكتفيت وقلت : الله يضر العباد ، فهذا فهمٌ قاصر ، الله سبحانه وتعالى يضرُّهم لينفعهم ، هذا هو التأويل ، أوَّلت الضرر لصالح العباد وبشكلٍ يتناسب مع كمال الله عزَّ وجل ، إذا قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

هنا الذنب بمعنى الإحساس بالذنب ، أي إن لم تحسوا بذنوبكم لم يكن فيكم خيرٌ يرتجى ،

((لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

أي أنَّهم إذا خالفوا أدق مخالفة ، إذا وقعوا في أصغر ذنب ، اشتعلت نفوسهم فرقاً من الله عزَّ وجل ، هؤلاء ناجون ، فحينما يَرِدُ النص بشكلٍ لا يتناسب مع قائله تُؤوِّلُهُ ، هذا مذهب بعض العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل ، فهنا الآية :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

أي أن الإنسان ليس له حق أن يكذب بآية أو يأخذ بآية مكانها قبل أن يعرف تأويلها ..

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

(سورة آل عمران : من الآية 7)

هنا الوقف عند كلمة :

(وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

(سورة آل عمران : من الآية 7)

وقال تعالى أيضاً :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران : من الآية 18)

من علامات العلماء الصادقين أنهم يشهدون للناس بعدالة الله عزَّ وجل .

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران : من الآية 18)

من خلال هذا الشرح السريع تبيَّن أن معنى التأويل توجيه النص توجيهاً يليق بقائله .. فصحابي جليل يقول : " أنا أصلي بغير وضوء ، وأحب الفتنة ، وأكره اليقين ، وأفر من رحمة الله ، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء " ، قالوا له : " ما هذا يا فلان ؟! " ، فدخل سيدنا عليٌّ كرم الله وجهه على أمير المؤمنين عمر ، وقال له : " يقول فلان : كذا وكذا !! " ، قال له إنه يعني : " أنه يصلي على النبي بغير وضوء ، ويحب الفتنة ، وهي المال ، لأن الله تعالى يقول :

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ)

(سورة التغابن : من الآية 15)

ويكره اليقين ، واليقين هو الموت ..

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(99))

(سورة الحجر)

ويفر من رحمة الله ، يعني من المطر ، وله في الأرض زوجة وولدٌ ما ليس لله في السماء " ، هذا التأويل أي أنك أولت الكلام بما يليق بصاحبه ، الكلام لا يُحْمَلُ على نَصِّهِ يحمل على قائله .

إذا قال الله سبحانه وتعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

الفتنة معناها دقيق جداً ، ويليق بكمال الله عزَّ وجل ، فالفتنة هي الامتحان وإظهار ما في النفس ، إذا قال سيدنا موسى لرب العزة :

(إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ)

(سورة الأعراف : من الآية 155)

فيجب أن تُؤول هذه الآية ، بمعنى هذا امتحانك وبلاؤك ، لتكشف الناس ، لتفرزهم ، لتميز الخبيث من الطيِّب ، هذا هو معنى الآية .

وإذا قال الله :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء)

(سورة فاطر : من الآية 8)

هذه تؤوّل بمعنى أنه من يشاء من العباد أن يهتدي فالله عزَّ وجل يهديه ، والإنسان مخير في أن يسلك أياً من السبيلين .

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

(سورة آل عمران : من الآية 7)

لذلك :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

هذه آية محكمة لا تحتاج إلى تفسير ، ولا إلى تأويل ، ولا إلى كتاب تفسير ، واضحة كالشمس ، معظم آيات القرآن الكريم من هذا النوع ، إن الله لا يحب الكاذبين .

(لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالا فَخُورًا(36))

(سورة النساء)

هذه آيات محكمات .

مثلاً :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(11))

(سورة الصف)

هذه آية محكمة ليس فيها شيء غامض ، لكن :

(وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة : من الآية 13)

هذه آية متشابهة ..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ)

(سورة آل عمران : من الآية 7)

الله لم يشأ لي الهدى ، هذه الآية تفسَّر ، الله لا يريدني أن أهتدي..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا)

(سورة آل عمران : من الآية 7)

فالإنسان إما أن يعرف التأويل أو أن يحضُر مجالس التأويل كي يكون على بينةٍ من ربه .

مثالٌ من واقع الناس عن التأويل غير الصحيح :

البارحة كنت مع شخص قال لي : يا أخي :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

(سورة التغابن : من الآية 16)

أي ببذل الحد الأدنى من استطاعتكم ، قلت له : لا ليس كذلك بل معناها :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

(سورة التغابن : من الآية 16)

ببذل الحد الأقصى ، هو أولها على الحد الأدنى ، أي على قدر ما تستطيع ، وتأويل هذه الآية على الحد الأقصى ، والدليل الآيات الأخرى :

(اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران : من الآية 102)

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(سورة الحج : من الآية 78)

(اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(41))

(سورة الأحزاب)

هذه الآيات كلها تتناقض مع هذا التأويل الذي يطابق هوى نفسه ، أي ببذل الحد الأدنى من الاستطاعة. إذاً التأويل أن توجِّهَ النصَّ توجيهاً يتناسب مع قائله ، يجب أن تفسِّر الانتقام كاسمٍ من أسماء الله بما يليق مع أسمائه الحسنى .

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف : من الآية 180)

فالمنتقم ، والجبَّار ، والضار ، والقابض ، هذه كلها أسماءٌ لله حسنى ، يجب أن تؤولها تأويلاً يتناسب مع عظمة الله عزَّ وجل ، ومع كمالاته اللامحدودة ، هؤلاء تسرَّعوا ، كذَّبوا بهذا القرآن قبل أن يتأملوا في آياته ، في مضامينه ، في كل ما ينطوي عليه من حقيقة ، وما ينطوي عليه من منهجٍ رشيد .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : من الآية 9)

كذبوا ..

قال لي صديق كان يعمل بعمل إداري وَّزع بلاغاً على من دونه .. كان مدير ثانوية .. البلاغ خال من أية كلمة ، ورقة بيضاء ، وضع فوقها ورقة كتب عليها : إلى السادة المدرسين يرجى تبلغ البلاغ المُرْفَق .. يطلب التوقيع على البلاغ المرفق .. قال لي : فوجئت بأن معظمهم وقَّع ، والبلاغ المرفق

كان ورقة بيضاء ، أي أنه وَقَّعَ على الورقة ، ولم يقرأ مضمونها ، هذه صفةٌ عقلية ذميمة ، أن تكذّب بالشيء قبل أن تحيط به علماً ، أو أن تصدقه قبل تحيط به علماً ، هذه صفة ذميمة ، والأذم منها أن يأتيك التأويل الصحيح الذي يليق بحضرة الله عزَّ وجل وبعدها تنبذ هذا القرآن وراء ظهرك ولا توليه أي اهتمام .

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا(30))

(سورة الفرقان)

فنبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون .

إذاً :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

أي لم يحيطوا علماً به ، وقبل أن يستمعوا إلى التأويل الصحيح كذبوا به .

4 ـ معنى آخر للآية : وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ

من معني التأويل وقوعُ الوعد والوعيد :

وهناك تفسيرٌ آخر لهذه الآية لا يقلّ عن الأول ، تأويل القرآن الكريم يعني وقوع وعده ووعيده ، فإذا وعد اللهُ عزَ وجل المرابيَ بحربٍ من الله ورسوله ، أي أنْ تدمَّر أمواله وتصادر فهذا تأويل هذه الآية :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة : من الآية 279)

هذه آية ، متى يأتي تأويلها ؟ إذا صودر المال كله ، أو احترق ، أو تلف ، أو دمِّر ، تدمير هذا المال تأويل الآية ، إذاً : هم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، لكن تأويله لم يأتِ بعد ، هذه (لما) ، حرف جزم مثل لم ، وعندنا في علم النحو : لما ، ولام الأمر ، ولا الناهية ، حروف جزم تجزم الفعل المضارع ، و تختص لما بوضع دقيق فمثلاً إذا قلت : لم يحضر المدرس ، فهذه (لم) تنفي الفعل المضارع وتجعله ماضياً ، يُسَمّونها حرف جزمٍ ، ونفيٍ ، وقلب ، نفت حدوث الفعل ، وجزمته ، وقلبت معناه من المضارع إلى الماضي ، لم يحضر المدرس .

أما إذا قلت : لن يحضُر المدرس فهذه (لن) تنفي المستقبل مع أنها حرف ناصب ، ولكنك إذا قلت : لما يحضر المدرس ، أي حتى هذه الساعة لم يحضر ، لكن احتمال حضوره قائم ، مثلاً الساعة التاسعة يبدأ درسه ، صار الوقت الآن التاسعة وخمس دقائق مثلاً ، لا تقل : لم يحضر ، هذا غلط باللغة ، وإذا قلت : لن يحضر أيضاً غلط ، كأنك علمت الغيب بهذه الطريقة ، لو أنه خبَّر وقال : لن أحضر هذه

الساعة تكتب للطلاب : لن يحضر المدرس لأداء الدرس هذه الساعة، لن للمستقبل ، وإذا كان عدم حضوره في الماضي تقول : لم يحضر بعد ما مضت الساعة بكاملها، والساعة انشطبت ، تكتب : لم يحضر المدرس ، يوقع الموجه ، تغيّب المدرس ، أما إذا كان تأخره لمدة خمس دقائق فلا تقل : لم يحضر ، ولا تقل : لن يحضر ، ولكن ماذا ؟ تقول : لما يحضر ، أي حتى الآن لم يحضر مع أن احتمال حضوره لا يزال قائماً .

مرابٍ قال لك : مضى علي زمن ، وأنا أرابي ، ولم يصبني شيء من ضرر ، هذه أموالي تزداد ، وآخذ فوائدها بالمائة ثمانية عشر ، أودعت مائة ألف دولار في بنك أجنبي ، فصار المبلغ الآن مائة ألف وثمانية عشر ألف دولار ، وما اعتراني ضرر ولا خطر ، وأنا مرتاح من كل هموم الحياة ، مبلغ ضخم يأتيني كل شهر ، أصرفه ، ولست مسؤولاً أمام أحد ، لا أعطي لأحد فاتورة ، ولا أريد بياناً ، ولا أريد إيضاحاً للحسابات ، نقول له :

(وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

تأويل هذه الآية ، آية الربا ، لما يأتِ بعد لكنه سوف يأتي ، أحد الناس مثلاً تجاوز حدوده في علاقته مع النساء ، قال لك : ماذا جرى ؟ نقول له : هذه الآية لما يأتِ تأويلها ، إذا وجد الرجل رجلاً آخر في بيته فقد وقع تأويل الآية :

مَن يزنِ يُزن به ولو بجداره إن كنت يا هذا لبيباً فافهم

****

التأويل صار بمعنى آخر ، أي تحقق وعد الله ووعيده .

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ)

(سورة النور : من الآية 55)

لو أن الله استخلفهم في الأرض لكان استخلافه لهم تأويلاً لهذه الآية .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه :)

إذا رأيت إنساناً ضاقت به الدنيا ، وقال لك : الحياة لا تطاق ، همومٌ تكاد تمزِّق قلبي ، وحالي كما قال الشاعر :

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نبالِ

كل نبل مصيبة .

فكنت إذا أصابتني سهامٌ تكسَّرت النصال على النصالِ

يعني أنه لم يَخلُ مكان في جسمي من رمية سهم .

إذا قال لك إنسان : الحياة شاقة ، أهون شيءٍ فيها الانتحار ، فقل هذا تأويل قوله تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه :)

وإذا التقيت بمؤمن ، وقال لك : ليس في الأرض من هو أسعد مني ، الحمد لله ، أنا غارقٌ في نِعَمِ الله ، فهذه الحالة تأويل قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : من الآية 30)

ما هو التأويل إذاً ؟ تحقُّقُ وعد الله ووعيده في الحياة ، حيثما تحقق وعد الله ووعيده في الحياة فهذا تأويل الآية .

إن رأيت صاحب مالٍ عريض صودرت أمواله كلها ، ورأيته على وشك الانهيار ، فهذا تأويل قوله تعالى :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة : من الآية 279)

هذا التأويل .

اقرأ القرآن الكريم ، حيثما وردت آية فيها وعدٌ أو وعيد ، حيثما وردت آية تأخذ شكلَ قانونٍ ، أي علاقة ثابتة بين متحولين ، ثم رأيتها تقع في الحياة ، فهذا هو التأويل ، فالبطولة ليست بأن تصدِّق بالشيء بعد أن يحدث ، مثلاً : بناء في وضع خطر براعة المهندس أن يكشف لك الخطورة قبل أن يقع البناء ، فإذا وقع هل لك أن تكذِّب وقوعه ؟ انتهى الأمر ، من منا يكذب أن بناء وقع ، لكن العلم يفيد قبل أن يقع البناء عندئذٍ تخلي البيت من السكان ، والحقيقة أنها إذا وقع التأويل لم ينفع ذكاء، وانتهى الأمر .

فرعون نفسه لما أدركه الغرق قال :

(حتى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس : من الآية 90)

فقال له الله تعالى :

(أَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس)

هذا الإيمان جاء بعد فوات الأوان ، جاء في وقتٍ غير مناسب ، هذا الإيمان لا يجدي ..z

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ)

(سورة النساء : من الآية 18)

هذه ليست توبة ، التوبة أن تكون وأنت صحيحٌ شحيحٌ تخاف الفقر ، وتأمل الغنى ، أن تدفع من مالك الحلال لله عزَّ وجل ، هذا الوقت المناسب .

فمثلاً عندما أتنبَّأ بشيء بحسب فهمي لكتاب الله ، فهي بطولة ، لكن بعد أن يأتي الموت ، كما فعل فرعون عند الغرق ، إذ صار الأمر يقيناً ، ولا مجال للتوبة عندئذٍ ..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

انتهى الأمر ، فإذا جاء تأويل الآيات انتهى الأمر ، فإذا آمنت أو لم تؤمن فأنت مرغمٌ على الإيمان ، تأويل القرآن بمعنى وقوع وعده ووعيده .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من الآية 97)

إذا صادفت أخوين ، أحدهما مستقيم والآخر غير مستقيم ، الأول طاهر النفس والآخر دَنِسٌ غير طاهر، الأول كسبه حلال ، والآخر كسبه حرام ، وزرتهما بالعيد في يوم واحد ، وسمعت من الثاني شكوى ليس لها حدود ، وهو في ضيق ، وتبرُّم ، وينتهي قائلاً لك : الحياة تعيسة ، وسمعت من الأول حمداً ورضىً من دون حدود ، فهاتان الحالتان تأويل قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

إذاً بهذه الأمثلة فُهم معنى التأويل ، وهو تحقق وعد الله ووعيده .

5 ـ التكذيب بعد وقوع التأويل مستحيل :

إن التكذيب بعد وقوع التأويل مستحيل ، فهذا المهندس بما أوتي من فهمٍ دقيق ، وإدراكٍ عميق ، كشف أن في البناء خطراً ، وأنذر أصحابه بوقوع البناء ، انتهت مهمته ، وهم إن كذَّبوه وقع البناء فوق رؤوسهم وقتلهم جميعاً ، وإن صدَّقوه نجوا ، لكن إذا كذَّبوه ثم وهم نائمون رأوا فجأةً البناء ينهار عليهم، فهم خلال ثوانٍ يصدقون قوله ، لكن متى صدقوه ؟ بعد فوات الأوان ، فالبطولة أن تصدِّق قبل أن يأتي التأويل ، أما بعد أن يأتي التأويل فلن تجد مكذباً إطلاقاً ، لم يبق على وجه الأرض مكذِّب ، البطولة إذا رأيت ما يشبه القنبلة أن تسارع لمعرفة ما إذا كان فيها فتيل أم ليس فيها فتيل ، لكن إذا جربتها بنفسك لا سمح الله ووقع انفجار ، فإنك خلال ثانية تعرف ، لكن متى ؟ بعد أن أطاحت بصاحبها ، عرف أنها قنبلة ، هل استفاد من هذه المعرفة ؟ لا ، إن البطولة أن تعرفها قبل أن تنفجر ، هذا التأويل ، أن تعرف

ما سيكون قبل أن يكون ، أن تعرف أن هناك يوماً آخر ، فيه ساعة اللقاء مع الله عزَّ وجل ، فيه حساب دقيق ..

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيمَا وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟))

[من سنن الدارمي عن معاذ بن جبل]

هل أصبحنا بمستوى معلوماتنا خلال كذا درس ، خلال سنة من الدروس ؟ لقد صار لدينا معلومات دقيقة جداً فهل نحن في مستواها ؟ وهل كل شيء عرفناه طبقناه .. عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيمَا وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

1 ـ علاقة الظلم بالتكذيب :

هذا كلام رب العالمين ، فما علاقة الظلم بالتكذيب ؟ وإليك بعض الأمثلة قالوا لك : حصل بركان ، وثار في كولومبيا ، قُتل من جرائه خمسة وثلاثون ألف نسمة ، قال آخر : خمسة وعشرون ، وأحدهم كذب الخبر ، فماذا يحصل ؟ هناك أشياء إذا كذبتها لا يحصل شيء ، كما في الخبر السابق ، و قال أحدهم : ليس من المعقول أن يكونوا قد صعدوا إلى القمر ، حجمه صغير لا يتسع لمركبة فضائية ، كذب بارتياد الفضاء الخارجي فليس لتكذيبه عواقب وخيمة لا عليه ولا على غيره .

أما بعد ؛ فاستمع لقوله تعالى :

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

ما علاقة التكذيب بالظلم ؟ إن كل مكذبٍ بمنهج الله سبحانه وتعالى لابدَّ من أن يقع في الظلم ، فإذا كذبت بغض البصر فقد كذبت بهذا التشريع ، وأطلقت البصر كما تشاء فإطلاق البصر هذا لابدَّ من أن يبذر في النفس بذور الهوى ، ويثير كوامن الشهوة ، ويلهبها ، ثم لابدَّ من أن تعتدي على أعراض الآخرين ، والتكذيب بغض البصر لابدَّ من أن ينتهي بك إلى العدوان على أعراض الناس ، ومثله التكذيب بأن الربا محرم ، لابدَّ من أن يحملك على أكل الربا ، وأكل الربا ظلم ، الفكرة دقيقة ، فعلاقة التكذيب بالظلم علاقة إيجابية مسلم بها .

إذا كذبت بالمنهج الصحيح فالعاقبة وخيمة ، لو أن إنساناً كذب أن يكون الوقود السائل وقوداً للسيارة ، ووضع ماء مكانه ، هل تسير السيارة ؟ لا تسير ، هذا تكذيب له مضاعفات ، وضع الماء فبقيت السيارة في مكانها واقفة ، لما كذب أن الوقود بنزين ، فوضع مكان البنزين ماء ، معنى ذلك بقي أنه في أرضه جامدًا ، فليس كل تكذيب خطرًا ، إذا لم تصدق أنه قضى خمسة وثلاثون ألفاً في بركان ، بل قلت : خمسة وعشرون ألفاً ، فالأمر سيّان ، هذا تكذيب غير خطر ، لكن إذا كذبت بمنهج الله عزَّ جل فهذا تكذيب خطر ، تكذيب مدمر ، ينتهي بصاحبه إلى الظلم ، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، هذه دقة الربط في القرآن .

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

2 ـ النتيجة عقب السبب : كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

كذب الذي من قبلهم فانظر ، هذه الفاء للترتيب على التعقيب ، أي لابدَّ من أن تأتي النتيجة عقب السبب، كذب بالآيات ..

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

أشخاصٌ كثيرون يحلفون يميناً غموساً في المحاكم ، لا تنقلهم أقدامهم مترين إلا ووقعوا في حالاتٍ مَرضيةٍ وبيلة ..

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(39)وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)

معاني الحروف المقطّعة :

1 ـ علاقة الفساد بعدم الإيمان :

ما علاقة الفساد هنا بعدم الإيمان ، أي إن لم تؤمن بهذا الكتاب فلابدَّ من أن تكون مفسداً في الأرض ، تفسد العلاقات بقولك ، بنظراتك ، بتعاملك مع الناس ، ما دمت لا تؤمن بهذا القرآن فلابدَّ من أن تكون مفسداً ، فإما أن تكون مصلحاً ، وإما أن تكون مفسداً ، كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات يبين لنا ما ينتج عن الإيمان به ، وما ينتج عن عدم الإيمان به .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)

إن لم تؤمن بهذا الشرع الحنيف بهذا المنهج القويم .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء)

فلابدَّ من أن تكون مع المفسدين .

(وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ)

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ

1 ـ لا يرفعك مدحٌ ولا يخفضك جرحٌ :

عندك في البيت كيلو من معدن الحديد ، قلت للناس : هذا ذهب ، قالوا لك : كذب ، هذا حديد ، وهو ذهبٌ فعلاً ، مَن الخاسر ؟ هم ، من الرابح ؟ أنت ، ولو أن عندك كيلو من الحديد وقلت للناس : هذا ذهب ، وهو حديد ، فصدقوك ، كلهم صدقوك ، لكن مَن الذي يخسر ؟ أنت ، علاقتك مع نفسك ، كل محاولات الدجل ، والاستعراض ، وعرض العضلات أشياء سخيفة ليس لها وزن عند الله عزَّ وجل ، لك حقيقة عند الله ، لا تجرحها إساءة ظن الناس بك ، ولا يرفعها ثناء الناس عليك ، والشيخ محي الدين رضي الله عنه قال عنه بعضهم : زنديقٌ كافر ، وقال عنه بعضهم : سلطان العارفين ، لا قول بعضهم سلطان العارفين يرفع مكانته عند الله ، ولا قول بعضهم أنه كافر يخفضه عند الله ..

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ)

(سورة البقرة : من الآية 134)

علاقتك مع نفسك ، فأرح نفسك من أقوال الناس ، لا تستجدِ ثناءهم .

((أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ))

[سنن الترمذي عن عقبة بن عامر]

طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن وسعه بيته وبكى على خطيئته .

هذه النصيحة الإلهية ..

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

هذا المثل لا تنسوه أبداً ، معك كيلو من المعدن ، الناس جميعاً ظنوه حديدا ، وهو ذهبٌ ، ثمنه مائة وثمانية وخمسون ألفاً ، فهم واهمون ، وأنت مصيب ، معك كيلو من الحديد ، أوهمت الناس بأنه ذهب ، وصدقوك ، وهو حديد فأنت الخاسر المخادع .

(وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ)

2 ـ لا تملك إلا عملك فأصلحْه :

عملي ملكي ، وكل شيء غيره عارية مستردة ، فالإنسان ماذا يملك ؟ هل يملك البيت ؟ لا يملكه ، لابدَّ من أن يخرج منه بشكلٍ أفقي ، أبداً ، إذا كان للواحد بيت يقول : أين سوف يغسلونني ؟ له غرفة خاصة فهل يغسلوه فيها أم في الحمام ، أو المطبخ ... لابدَّ من أن يخرج منه ، دخل إليه ، ثم يخرج منه بعد أن سكنه عشر سنوات مثلاً ، هناك خرجة ما بعدها رجعة ، فالبيت ليس لك ، السيارة ليست لك ، تؤخذ مفاتيحها ، ويركبها أناس آخرون ، وعندك خزانة فيها مقتنيات ثمينة ، ليست لك ، وعندك أرض ارتفع سعرها مائة ضعف ، ليست لك ، ليس لك إلا عملك ..

((يا قُيَيس ، إن لك قريناً تدفن معه وهو حي ، ويدفن معك وأنت ميت ، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك ، ألا وهو عملك))

[ورد في الأثر]

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة العصر)

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا (103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

(وَإِنْ كَذَّبُوكَ)

لا تبالِ ، لأنّ مَن عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به .

(وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)

أي ..

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة فاطر)

كل إنسان محاسب على عمله ، لن تحاسبوا على عملي ، ولن أحاسب على أعمالكم .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ(42)وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ(43)إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

طبعاً هذه الآيات تحتاج إلى شرحٍ تفصيلي إن شاء الله ننتقل إلى تفصيلها في درسٍ قادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (11-17): تفسير الآيات 42 – 51
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-11-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في سورة يونس عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ(42)وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ

1 ـ دقة الآية في الجمع بين الحواسّ :

الحقيقة هذه الآية من الدّقّة بمكان ، نبدأ بالعين ، هناك في الإنسان عينٌ ، وهناك دماغٌ ، وهناك قلبٌ ، وهناك اتصالٌ بين هذه الأشياء الثلاثة ، فهذه الكرة تنطبع في شبكيّتها الصور ، والعصب البصري ينقل هذه الصور إلى الدماغ ، الدماغ يُدرك ، والعين تُحس ، العين مكان الإحساس ، والدماغ مكان الإدراك، والقلب مكان العقل ، بدليل قوله تعالى :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا)

(سورة الأعراف : من الآية 179)

أحياناً الطفل الصغير يرى ثعباناً مخيفاً ، صورة الثعبان انطبعت على شبكيّته ، ولكنّه لم يُدرك ما هو ، لذلك لا يخاف ، ولا يتأثّر ، ولا ينفعل ، وقد يُدرك ما هو ، وبين هذا الإنسان وبين الثعبان حاجز منيع ، فلا يتحرَّك ، لكن إذا انطبعت صورة الثعبان في شبكيَّة العين ، وانتقلت هذه الصورة إلى الدماغ ، والدماغ بحكم التجربة والمفهومات التي حصّلها في سنيّ حياته أدرك أنه ثعبان ، هل تعرفون ما دور العقل ؟ دور العقل هو التحرُّك لاتقاء شرِّه أو للهروب منه ، فمن لم يتحرَّك لم يعقل ، ومن لم يعرف الخطر لم يُدرك ، ومن لم ير لم يُبصر ، فالعين تبصر ، والدماغ يُدرك ، والقلب يعقل .

أحياناً تُصاب الشبكيَّة بتخريب ، أو تصاب العين ، أو عدستها ، أو جسمها البلوري ، أو خلطها المائي، أو خلطها الزجاجي ، أو قرنيّتها ، أو قزحيَّتها بعطب ، فهناك عمىً سببه تخريب جهاز العين ، وقد تكون العين سليمةً مائة في المائة ، لكن مركز الرؤية في الدماغ يُصاب بالعطب ، هناك عمىً في الدماغ ، وإذا جاءت الشهوات فختمت على القلب نقول : هناك عمىً ثالث هو عمى القلب ، فإما أن

تصاب العين بعطبٍ فتعمى ، وإما أن يصاب الدماغ بعطبٍ فيعمى ، تتعطّل الرؤيَّة ، وإما أن يصاب القلب الذي هو مناط العقل بعطبٍ ، أو يحال بينه وبين الحقائق فهذا هو عمى القلب ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(46))

(سورة الحج)

2 ـ التعامل بين الإنسان والمحيط مبنيٌّ إدراك وانفعال وسلوك :

أحد العلماء قال : " إن قانون التعامل بين الإنسان والمحيط مبنيٌّ على ثلاث مراحل ؛ إدراكٌ ، انفعالٌ ، سلوك " الإدراك أولاً من لم ينفعل فإدراكه غير صحيح ، من لم يسلك فانفعاله غير صحيح ، الناس درجات ، أُناسٌ في غفلةٍ عن حقائق الدين ، هؤلاء بعدوا عن الدين ، أناسٌ ينفعلون ، أي عندهم عاطفة دينَّة ، يتأثَّرون ، يتمنَّون نصر المسلمين ، لكنَّ سلوكهم في البيت هوَ هو ، لم يتحرَّكوا ، هؤلاء لا يجديهم انفعالهم شيئاً ، وعاطفتهم المتأجِّجة لا تنفعهم ، فما لم يسلك طريق الحق ويبتعد عن طريق الباطل لا يُعدُّ المسلمُ مسلماً حقَّاً ، لذلك :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال : من الآية 72)

فربنا عزَّ وجل يقول هنا :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ)

3 ـ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ

لم يقل : ومنهم من يسمعونك ، بل يستمعون إليك ، أي أنه جلس ليسمع ، لكن السماع ينتقل من الأذن ، إلى الدماغ ، إلى القلب ، قلبه مغلقٌ بالشهوة .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(6)خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)

(سورة البقرة)

فالختم على القلب حكمي ، لأن منافذ القلب مسدودةٌ بالشهوات ، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمّ))

[سنن داود]

إذاً :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)

4 ـ ليس الصممُ صممَ الأذن :

أيُّ صَمَمٍ هذا ؟ هل هو صمم الأذن ؟ لا ، الأذن سليمة تتأثَّر بأدقِّ الأصوات ، هل الدماغ أصابه عطب؟ لا ، هذا الكلام الذي نقله غشاء الطبل إلى عُظَيْمات السمع إلى الأذن الداخليَّة إلى الدماغ أدرك الدماغ فحواه ، وسمَّاه الله أصم ، ما الذي جعله أصمَّ ؟ إن الطريق من الدماغ إلى القلب مسدودٌ بالشهوات ، فربنا عزَّ وجل قال :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ)

يا محمَّد عليه الصلاة والسلام ..

(تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)

أنَّى لهم أن يعقلوا هذه الحقيقة ما دامت الشهوة قد سدَّت منافذ القلب ؟

صمم الأذن وعمى القلب سببهما الانغماس في الشهوات :

صار واضحاً الآن أن العين تنتقل الصور منها إلى الدماغ ، ومن الدماغ إلى القلب ، وتنتقل الأصوات من الأذن إلى الدماغ ، ومن الدماغ إلى القلب ، فقد يُصاب الإنسان بصممٍ جزئي ، أي بعطبٍ في الأذن أو بعمى في العين ، وقد تتخرَّش أماكن الإدراك في الدماغ فيصاب الإنسان بعمىً منشؤه الدماغ ، وبصمم منشؤه الدماغ ، هذه كلّها أشياء عضويَّة ، لكن قد يُصاب الإنسان بصمم القلب وبعمى القلب ، وصمم القلب وعمى القلب هذان مرضان منشؤهما نفسي ، أي أن الاستغراق في الدنيا أن تأخذ الشهوة على الإنسان مداخل قلبه ، أن تسدَّ هذه المداخل ، أن تكون الشهوة همَّ الإنسان ، شغله الشاغل ، عندئذٍ لا يعي القلب خيراً ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ :

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[الترمذي]

(كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(14))

(سورة المطففين)

أي أن الأعمال السيئة تكون حاجزاً بين القلب وبين الحقيقة ، شيء دقيق جداً ..

أنا أضرب بعض الأمثلة : يرى إنسان أن في غرفته ثعباناً ، ولا يتحرَّك ! هذا مستحيل ، قد تنطبع الصورة في العين والدماغ لا يُدْركُها ، وقد يُدرك الدماغ ولا يتحرَّك ، إذاً هو إنسان غير عاقل ، بل مجنون ..

(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا)

(سورة الأعراف : من الآية 179)

فالله سبحانه وتعالى سمَّى هؤلاء الكفرة صماً وعمياً ، ووصفهم بالصمم ، ووصفهم بالعمى ، ولكن هذا الصمم ، وهذا العمى ليس منشؤه عضوياً ، ولكن منشؤه نفسي ، انغماس الإنسان في الدنيا ، تعلُّقه بها ، ارتكابه المعاصي ، هذه المعاصي كلُّها تكون حجاباً بين القلب وبين عقل الحقيقة .

بعد أن تعقل الحقَّ لابد أن تتحرك لتطبيقه :

فالذي أريده من خلال هذا الكلام ، أنه مهما استمعت إلى الحق ، ومهما كان الحقُّ واضحاً ، ومهما كانت الأمور واضحةً لديك ، فإن لم تتحرَّك فإن الحقَّ لا يُجْدي ، أي أن هذا كلامٌ عاقبته خطيرة ، كلامٌ يسمِّيه بعضهم مصيريًّا ، أي أن مصيرك في الدنيا والآخرة متوقِّفٌ على تطبيقه ، فعندما يسمع الإنسان، ويتأثَّر ، ويثني على المتكلِّم ، وهو كما هو ، نقول : إنه لم يعقل الحقيقة ، ولو عقلها لسلك سلوكاً يتناسب مع عقله لها .

النبي الكريم هكذا فهم الدين ، جاءه أعرابيٌّ فقال له : " يا رسول الله جئتك لتعلمني من غرائب العلم "، فقال عليه الصلاة والسلام :

((وماذا صنعت في أصل العلم ؟ " فقال هذا الأعرابي: " وما أصل العلم ؟ " قال : " هل عرفت الرب؟ " قال : " ما شاء الله .. أي عرفته وهو بذلك يدَّعي .." قال له : " فماذا صنعت في حقّه ؟ إن كنت قد عرفته ماذا صنعت في حقّه؟))

[ورد في الأثر]

ولقد ضربت في الأيَّام الماضية مثلاً على بعض الإخوة الأكارم ، وهو : أن إنسانًا ليس عنده زيت ، وسعر عبوة الزيت عند جاره السمَّان خمسمائة ليرة ، وسعرها في المؤسسة الاستهلاكيَّة مائتان وخمسون ، وقال له ابنه : في الاستهلاكيَّة الزيت متوفرة ، و ليس هناك ازدحام ، وأنت بحاجة لزيت ، ودخلك محدود ، ولديك فراغ ، والمبلغ موجود معك ، ماذا تفعل ؟ لا يمكن إلا أن تقف ، وترتدي ثيابك، وتتجه نحو الاستهلاكيَّة لشراء الزيت ، هذا العقل ، العقل تحرُّك ، بلغ إلى علمك أن الزيت متوافر ، والسعر معقول جداً ، وعند السمَّان السعر بالضعف ، ودخلك محدود ، والمبلغ موجود ، ووقتك فراغ ، والزيت موجود ، والازدحام منعدم ، إذا لم تتحرَّك فلعل ابنك قال لك : الازدحام شديد ،

أو إذا لم تتحرَّك لعلّ دخلك غير محدود فلست بسائل ، أو إذا لم تتحرَّك فلديك في البيت زيت ، أو إذا لم تتحرَّك لأن سعر الزيت عند السمَّان بسعر الاستهلاكيَّة ، أو إذا لم تتحرَّك لأنه ليس لديك وقت لتتحرَّك وتشتري الزيت ، عندك موعد مهم جداً ، أو إذا لم تتحرَّك لأنه ليس معك ثمن الزيت ، فعندما تأتيك المعلومات الدقيقة ، ولا تبادر من فورك فذلك سبب ما ، أما إذا بلغتك كل هذه المعلومات وأنت بحاجة ترى نفسك تتحرَّك مسرعاً ، هذا شأن الإنسان في الدنيا ، إذا بلغه أن في هذه السيَّارة مخالفة تسبِّب مصادرتها فماذا يفعل ؟ لا يحركها من موقفها حتى يزيل أسباب المخالفة .

إذا بلغك أن هذه البضاعة سوف تُصَادَر ، وستدفع ثمانية أضعاف ثمنها غرامة جزاءً فماذا تفعل ؟ تبقيها في محلِّك التجاري ؟ من الممكن ألا تنام ليل نهار ، طول الليل تعمل في نقلها ، عندما يكون إدراك الإنسان صحيحاً ، وينتقل الإدراك إلى القلب تجد أنه تحرَّك ، هذا مقياس لنا جميعاً ، ما دام بعض الحاضرين يقول : والله تباركنا بك يا أستاذ ، والحمد لله على هذا الدرس ، والله مجلس علم زاخر، والحمد لله ، وصافحت يد الشيخ تبركاً ، وانصرفت مهرولاً ، وأنت كما أنت في البيت ، والله ما عقلت شيئاً ، ولا تقدَّمت درجة ، وكلَّه وهمٌ في وهم ، ما لم تتحرَّك ، و تغض بصرك ، وتحرِّر دخلك ، وتستِّر عيالك ، وتزيل المخالفات من البيت فالآن أنت عقلت الحق ، أما قبل ذلك فشممت رائحته ، أدركته بفكرك ، ولم ينتقل إلى قلبك ..

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج)

لكي يوفِّر الإنسان وقته ، لكي لا يقول الإنسان : أنا بقيت عند الأستاذ اثنتي عشرة سنة ولم أتقدَّم ، والله لم أستفد شيئاً ، أنت لا تطبِّق ، عملياً ما علمت الازدحام الشديد لا قيمة له عند الله عزَّ وجل .. واحدٌ كألف وألفٌ كأُف .. أي واحد عقل الحقيقة انتهى أمره إلى خير ، أعرابيٌّ من الصحراء جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال له : " يا رسول الله عظني وأوجز " ، فقرأ عليه النبي الكريم :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

قال له : " قد كُفِيت " فقال عليه الصلاة والسلام : " فقُه الرجل " ، أي أنه أصبح فقيهاً ، فآية واحدة لو عقلتها لأفلحت ، فقد تقرؤها ، وقد تفهمها ، وقد تسمع تفسيرها ، وقد تفسِّرها لأخيك ، ولكنَّك لم تعقلها ، دليل عقلك لها تطبيقك إيَّاها ، ودليل فهمك إياها توضيحك للمعنى ، فإذا وضَّحت المعنى للآخرين فقد فهمتها ، أما إذا طبَّقتها فقد عقلتها ، وقبل العقل لا قيمة لأيِّ شيءٍ آخر ، ربنا عزَّ وجل يقول :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)

الله عزَّ وجل سمَّاهم صُمَّاً ، لهم آذان مرهفة ، لهم دماغ تلافيفه متعرِّجة وهو ذكي ولكنَّه عند الله أصَمَّ لأنه ما طبَّق الحق .. فقال هذا الأعرابي : " وما أصل العلم ؟ " قال : " هل عرفت الرب ؟ " قال : " ما شاء الله " قال : " فماذا صنعت في حقّه ؟ هل عرفت الموت ؟ " قال : "ما شاء الله " ، قال : " فماذا أعددت له ؟ " .. هذا هو التفكير العملي ، أما أن تُعلّق مصحفاً في البيت ، وتضع مصحفاً على صدرك، أو تُعلّق مصحفاً في سيَّارتك ، تكتب على المحل : فاستقم كما أُمِرْت ، بسم الله الرحمن الرحيم، إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، تعلّق صورة الكعبة في البيت ، ما دام الأمر في اختلاط فأنت لست عاقلاً شيئاً من الدين ، ما دام الدخل مشبوهاً فلست عاقلاً شيئاً من الدين ، ما دام هناك مصافحة للنساء و تساهلا في الأوامر و تقصيرا في الصلاة فإنك لم تعقل شيئاً عن الله عزَّ وجل ، إن هذا الحضور للمسجد وسماع الدروس من دون تطبيق ليس له قيمة ..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلا(142)مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا(143))

(سورة النساء)

هذا الإنسان المقصِّر هل هو كافر ؟ لا ليس كافراً ، لأنه يعرف كل شيء ، أهو مؤمن ؟ لا ليس مؤمناً، لأنه ليس بمطبِّق ، إنه من المذبذبين لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ(42)وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ)

إذاً مناط العقل في القلب ، ومنفذا القلب السمع والبصر ، فإذا أحبَّ الإنسان الدنيا كانت غشاوةً على سمعه وعلى بصره ، هذه آية دلالتها دقيقة جداً ومن الآيات المحكمات ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

1 ـ علاقة هذه الآية بالآية التي قبلها :

علاقة الآية بالآية التي قبلها ، أنَّ الإنسان خلقه الله سبحانه وتعالى مزوَّداً بوسائل المعرفة ، فهذه السيَّارة مزوَّدة بمصباحين متألّقين شديدين ، فإذا أطفأ السائق هذين المصباحين ، وسار في الظلمات بلا ضوء ، وكان هناك منعطفٌ خطير لم يرَه بالعين المجرَّدة فهوى في الوادي ، نقول له : لم يظلمك أحد ، لقد ظلمت نفسك ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

2 ـ هلاك الإنسان في الدنيا سببه عدمُ رؤية الحقيقة :

عندما يهلك الإنسان هلاكاً في الدنيا السبب أنه ما رأى الحقيقة مع أنَّه يملك وسائلها ، مع أنه يملك وسائل الحقيقة ، أو لو أن وسائل الحقيقة لا يملكها الناس لكان الله سبحانه وتعالى قد ظلمهم ، لكن الله سبحانه وتعالى قال :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

(سورة البلد)

بعض تفسيرات هذه الآية : يرى بهما الآيات ..

(وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9))

يسأل به عن الحق ..

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(10))

طريق الخير والشر ..

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(11)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(12)فَكُّ رَقَبَةٍ(13))

أي أن تفكَّ رقبتك من أسر الشهوة ، ما دامت الشهوة أكبر همِّك ومبلغ علمك فلن تعرف الحقيقة ..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(10)فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(11)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(12)فَكُّ رَقَبَةٍ(13))

(سورة البلد)

أي أن تفكَّ رقبتك من نير الشهوة ثمن الحقيقة ، لذلك :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْقَطِيفَةِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ))

[ابن ماجة عن أبي هريرة]

الإنسان يقيِّم نفسه بهذا المقياس ، مقدار التحرُّك ، مقدار الاستجابة العمليَّة ، مقدار التطبيق هذا الله هو مقياس عقلك لقول الحق .

نذكر بعض الأمثلة ، فمثلاً لو أن أحداً قرأ الآية التالية

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

هي آية واضحة ، من الممكن لي إنسان عادي أن يفهمها ، وهذه الآية لا تحتاج إلى تفسير ، لكن إذا لم يطع الإنسان الله ورسوله فما فاز الفوز العظيم ، فشتَّان بين فهم الآية وتطبيقها .

من الممكن أن أحداً يقرأ بلاغ منع التجوُّل ، يدقِّق في الخط والحروف ، ونوع الطباعة ، ونوع الورق،

شكل التوقيع ، بخط مَنْ ، يدقّق بالصياغة ، بالرقم والتاريخ ، لكن فاته أن يطبِّق البلاغ ، فاته أن يدخل إلى البيت فوراً ، قد يهلك ، درس في هذا البلاغ أشياء كثيرة ولكنَّه غفل عن مضمونه ، إذاً ما الذي عقله ، لو أنه عرف أن هذا البلاغ يعني أنه من يتجوَّل في الطريق يعرِّض نفسه للهلاك إذاً قبل أن تدرس الخط ، والتوقيع ، والحبر ، والورق ، وصياغة البلاغ ، ورقمه وتاريخه انظر إلى مضمونه واستجب له قبل أن تهلك نفسك ، فالقرآن الكريم أول ما يدعوك إليه أن تستجيب لأوامره ، وأن تنتهي عن نواهيه ، وإلا لا جدوى مما سوى ذلك ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

أحياناً قد يشتري الإنسان دواءً مبيداً لكنَّه خطر جداً ، والبائع ينصحه فيقول له : إن هذا الدواء خطر جداً ، إذا وضعته في وعاء ، ولم تغسله يمكن أن يسبب هلاك الأسرة ، هناك من استعمل هذا الدواء في وعاء وغسل الوعاء غسلاً سطحيَّاً ، وطبخ فيه فمات أفراد الأسرة كلُّهم ، البائع بلَّغه ، حذَّره ، أخذ توقيعه ، فربنا عزَّ وجل قال :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(44)وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ

1 ـ تعارف الناس تعارف افتضاح وتوبيخ :

في الآية تعارف بين الناس ، هذا التعارف لا تعارف ترحيب ، ولكن تعارف افتضاح وتوبيخ ، يقول أحدهم للآخر : أنت دللتني على طريق المنكر لا جزاك الله خيراً ، يقول له : لا ، أنت السبب ، هناك تعارف توبيخ وافتضاح .شيء آخر : ربنا عزَّ وجل قال :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ)

أي حينما تأزف الآزفة ، حينما يأتي يوم القيامة ، أو حينما تأتي الساعة عندئذٍ ..

(كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ)

2 ـ عيشك في الدنيا كأنه ساعة من نهار :

إذا أعطيناه شخصاً فرصة خمس سنوات يتجوَّل في أرجاء الأرض ، ويستمتع بكل ما فيها من مباهج ، ويقترف جميع الملذَّات المباحة وغير المباحة والمحرَّمة ، وينغمس في كل الشهوات ، وينفق أبهظ

الأموال ، ويعطي نفسه هواها ، وهو عاطل عن أي عمل إطلاقاً ، بل كل عمله الاستمتاع ، وبعد هذا أردنا أن نعذّبه عذاباً أليماً ، حينما يبدأ التعذيب الجسدي ألا ينسى كل هذه الأيَّام ؟ ألا ينسى كل هذه السنوات التي أمضاها في الملذَّات ؟ هكذا حال الكافر .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ)

عمرهم المديد قضوه بالمتع التي انغمسوا فيها ، بالملذَّات التي اقتنصوها ، بالشهوات التي مارسوها ، بالأيَّام التي استطالوا فيها شِرّةً ، بالليالي التي سهروها ، بالأصحاب الذين استمتعوا بصحبتهم ، بالموبقات التي انغمسوا فيها ، هذا العمر المديد الذي أمضوه في المعاصي يصغر ويصغر حتى يصبح ساعة من النهار ، لذلك سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كلّما دخل إلى مجلس الخلافة كان يتلو هذه الآية ..

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

(سورة الشعراء)

فهذه الدنيا المديدة بشهواتها وملاذّها ، وطعامها وشرابها ، ونسائها ، وبيوتها الفخمة ، وبساتينها ، ومقاصفها ، وذهبها وفضَّتها ، ومتعها الرخيصة وغير الرخيصة هذه كلُّها تصغر وتصغر حتى تصبح ساعة من النهار ..

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ)

السيِّدة عائشة رضي الله عنها سألت النبي عليه الصلاة والسلام : "أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ " سؤال طريف ، أي إذا كان للإنسان جار ، أو له صديق ، أو صاحب ، يعرف شخصاً أعلى منه في الدائرة ، أدنى منه ، صهر مثلاً ، أخ ، أب ، إذا وقعت عين الابن على أبيه يوم القيامة هل يعرفه ؟ " أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ " ، قال عليه الصلاة والسلام: " نعم يا أمَّ المؤمنين ، إلا في ثلاثة مواضع : عند الصراط ، وعند الميزان ، وإذا الصحف نُشِرَتْ " ، ففي هذه المواضع الثلاثة لا يعرف بعضنا بعضاً ، وفيما سوى ذلك لو وقعت عين الأمِّ على ابنها تعرفه فتقول له : " يا ولدي ، يا بني ، جعلت لك صدري سِقاءً ، وبطني وعاءً ، وحجري وطاءً ـ أي فراشاً ـ فهل من حسنةٍ يعود عليَّ خيرها اليوم ؟ أي أن أمُّه تتسوَّل منه حسنة ، فيقول : يا أمَّاه ليتني أستطيع ذلك إنني أشكو مما أنتِ منه تشكين"..

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20)وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(21))

(سورة الذاريات)

السيِّدة عائشة رضي الله عنها بعد أن سمعت قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ !!! قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَائِشَةُ ، الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ))

[مسلم]

معنى غُرلاً أي على حالهم قبل أن يطَّهروا ، أي حالهم قبل الختان .. فقالت يا نبي الله : أو يرى بعضنا بعضاً هكذا ؟ " ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا عَائِشَةُ ، الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ))

الأمر أخطر بكثير من أن يلتفتوا إلى بعضهم بعضاً .

إذاً :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ)

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ

الخسارة مطلقة يوم القيامة :

أروع ما في هذه الآية أنَّ نوع الخسارة لم يذكره الله سبحانه وتعالى في الدنيا قد يخسر الإنسان محلَّه التجاري ، شقت المحافظة شارعاً مرَّ بمحله فأعطوه بدلاً له خمسة آلاف ليرة ، بينما فروغ محلَّه خمسمائة ألف ، أعطوه خمسة آلاف فقط ، أي أنه خسر المحل ، لكن صحَّته سالمة ، و له بيت ، وله أولاد ، وله أرض ، وله محل ثانٍ ، وعنده بناية يؤجِّرها ، خسر محلَّه التجاري فقط ، فالخسارة محدودة، أحياناً الإنسان يخسر ولدًا من أولاده ، إذا كانوا يريدون أن يواسوا الأب يقولون له : بضاعة مخلوفة ، أحياناً يخسر الإنسان بيته من جراء قرار إخلاء ، فيبقى هو وأسرته في الطريق ، يستأجر بيتًا، خسارة الدنيا محدودة ، لكنَّ يوم القيامة ربنا سبحانه وتعالى قال :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ)

خسروا ماذا ؟ كل شيء ، خسروا أنفسهم ، خسروا هذه السعادة الأبديَّة ، خسروا دهرهم إلى الأبد ، خسروا الجنَّة ، خسروا القُرب من الله عزَّ وجل ، خسروا كل شيء ..

" ابن آدم اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتُّك فاتك كل شيء ، وأنا أحبَّ إليك من كل شيء " .

هذه :

(قَدْ خَسِرَ)

في الدنيا الخسارة محدودة ، مقيَّدة ، خسر ماله ، خسر زوجته ، خسر أحد أبنائه ، خسر منصبه ، خسر بيته ، خسر محلّه التجاري ، لكن يوم القيامة الخسارة فادحة :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

فالأمور بخواتيمها ، ومن شبَّ على شيءٍ شاب عليه ، ومن شاب على شيءٍ مات عليه ، ومن مات على شيءٍ حُشِرَ عليه " ، " ومن هوي الكفرة حُشِرَ معهم ، ولا ينفعه عمله شيئاً " .

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ)

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ

إلى الله مرجع العباد للحساب :

أي أن الله عزَّ وجل شهيدٌ على ما يفعل العباد ، سواء أأدركت ذلك أم لم تُدْرِك ، و :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

يمكن أنت تعاشر صديقاً لك ظالماً فالله عزَّ وجل يمُدَّه ، فمن الممكن أن هذا الإنسان ينتهي أجله وصديقه في أوج قوَّته ، على الله عزَّ وجل الحساب ..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

أي سواءٌ عليك أشهدت نهاية الكفَّار أم لم تشهدها فنهايتهم محتومة ، سواءٌ عليك أشهدتها أنت بأمِّ عينك أم لم تشهدها ، سواءٌ عليك أكان في العمر بقيَّةٌ تشهد بها مصير الكفَّار ، أم لم يكن في العمر بقيَّة تشهد خلالها مصير الكفَّار ..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ)

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

فانظروا الفاء للترتيب على التعقيب ..

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

أما ثم : فهي للترتيب على التراخي ، يمكن أن يأكل الإنسان يأكل مال حرام ، ويعتدي ، ويبغي والله يمد بعمره إلى فترة طويلة ، فالإنسان إذا رأى له صديقاً أو جاراً تجاوز الحدَّ المعقول، لا يصلي ، وكلامه بذيء ورغم ذلك يزداد قوَّةً ومالاً ، فإن هذا الموقف يجب ألا يحملِك على الشك بقواعد الدين ..

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ(46)وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ)

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ

1 ـ من تمام هداية الله للعباد إرسالُ الرسل :

من تمام هداية الله عزَّ وجل ، ومن تمام رحمته أنه قيَّض لكل أمةٍ رسولاً ، هذا الرسول يشهد لهم ويشهد عليهم ، يشهد لهم في الدنيا ، ويشهد عليهم في الآخرة ، يذكر لهم الحقيقة في الدنيا ، أي يعرِّفهم بالله عزَّ وجل ، بآياته القرآنيَّة ، بآياته الكونيَّة ، بأسمائه الحُسنى، بمصيرهم بعد الموت ، بنشأتهم ، بجدوى الحياة ، بجوهرها ، هذا النبيّ ، النبي عليه الصلاة والسلام وكل نبي ..

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151))

(سورة البقرة)

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة آل عمران : من الآية 164)

أي يطهِّرهم هذه وظيفة النبي ووظيفة الدعاة إلى الله من بعده ..

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ(46)وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ)

2 ـ يوم القيامة كلُّ أمّةٍ مع رسولها :

يوم القيامة هذه الأمَّة أين رسولها ؟ يأتي رسولها ، هل أبلغتهم ؟ نعم ، إذاً يستحقُّون العذاب ، أغلب المفسِّرين حمل هذه الآية على هذا المعنى ..

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى)

(سورة الزمر : من الآية 71)

طبعاً :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ)

أي بالعدل ..

(وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

ويقول الكفَّار :

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

الكفار يستنكرون وعيد الله :

هذا ليس استفهاماً ، علماء التفسير حملوا هذا الكلام على محمل الاستهزاء والسخرية ، هذا الوعد متى؟ استنكاراً لهذا الوعد والوعيد ، واستهزاءً به ، واستبعاداً له ، استهزاءً واستنكاراً واستبعاداً ..

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

الجواب القرآني : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا

1 ـ لا أحد يملك لنفسه ضرا ولا نفعا :

فالله سبحانه وتعالى أمرَ نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)

أي إن كنت أنا لا أملك لنفسي التي بين جنبي نفعاً ولا ضراً أفأملك هذا النفع والضُرَّ لكم ؟

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

2 ـ كل شيء بمشيئة الله :

هذه الجملة :

(إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

قال العلماء : " استثناء المشيئة محمولٌ على أن الأشياء ثابتة لا بذاتها ، ولكن بمشيئة الله سبحانه وتعالى " ، فأنت مثلاً ترى هذه الطاولة من الخشب تتركها مئات السنين تبقى على حالها كما هي ، هذا الخشب له صفات ثابتة ، أي أن قِوامه متين ، ولا يتأثَّر بالهواء ، ولا بأي شيءٍ آخر ، ماذا تظن ؟ أنها ثابتة على حالها بذاتها ، يجب أن تقول : إلا ما شاء الله ، أي أنها ثابتة على حالها بمشيئة الله لا بذاتها ، كما أنك تقرأ آية قرآنية :

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(107))

(سورة هود)

هذا ليس استثناء ، هذا ليؤكِّد أن الأشياء ثابتة لا بذاتها ، ولكن بمشيئة الله ، فأنت معمِّرٌ بيتاً في الطابق السابع ومطمئن ، وهذا البيت مُلك لك ، ودفعت ثمنه ، وانتهيت ، وأسعاره ارتفعت ، وإسمنته مسلح بالحديد ، وفي المتر المربَّع وضعت سبعة أكياس من الإسمنت ، فتماسك الإسمنت بمشيئة الله عزَّ وجل، وبقاء الحديد حديداً بمشيئة الله عزَّ وجل ، تقول : هذا البيت قِوامه جيد إلا ما شاء الله ، معنى إلا ما شاء الله أي ليس بذاته قائماً ، لكنَّه قائمٌ بمشيئة الله ، فلو أن الله سبحانه وتعالى غيَّر صفات الحديد لوقع البناء، ولو غيَّر تماسك الإسمنت لوقع البناء ، ولو غيَّر استقرار الأرض لوقع البناء ، فالإنسان المؤمن الموحِّد ولو سكن بيتاً ووضع في أساساته أربعة أضعاف الكميات القانونيَّة ، والحديد بثخانة اثنتي عشر ميليمتراً فهذا بمشيئة الله ، وهذا الاستثناء الذي أراده الله سبحانه وتعالى إذا تحدَّث عن شيءٍ دائم قال :

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود : من الآية 107)

وإذا دخل أحد الجنة فبقاؤه فيها بمشيئة الله .

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(48))

(سورة الحجر)

بقاؤك في الجنَّة ليس ذاتياً بذاتك ، بل برضاء الله عنك ، وبمشيئة الله التي سمحت لك بالبقاء ، فلو أن الله شاء لك غير ذلك لما بقيت فيها ، مثل موظَّف فوقه أعلى منه ، هذا الموظَّف الأدنى حر بالحركة والتصرُّف ، ويمارس صلاحيَّاته ما دام الذي فوقه راضٍ عنه ، وينوي له أن يبقى في منصبه ، فإذا أراد الذي أعلى منه أن يُعزل عن منصبه عزل فوراً ، إذاً :

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(48)قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ

1 ـ لكل شيء أجلٌ محدَّد لا يُقدَّم ولا يؤخَّر :

أي لكل واحدٍ من آحاد هذه الأمَّة أجل ، ليس المقصود أمَّة بكاملها ، لكل واحدٍ من آحاد هذه الأمَّة أجل..

(إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

بعض المجلات أحياناً تنشر مقالات مضحكة ، أنه تم اختراع دواء يُطيل العمر ، هذا الكلام خلاف القرآن الكريم ، الإنسان العاقل لا يقرأ شيئاً خلاف كتاب الله ، لأنه كلام فارغ ، وجهد ضائع ، وبذل طاقة في غير محلّها ، وهذا المقال ينطلق من الباطل ..

(إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

2 ـ العناية بالصحة مطلوبة ، لكن لا يغني حذَرٌ عن قدَرٍ :

العناية بالصحَّة ليست سبباً لطول العمر ، لا ، ولكن العناية بالصحَّة من أجل أن تمضي هذا العمر سالماً عافياً قائماً فقط ، لكن العمر لا يزيد ولا ينقص ، سواءٌ عليك أكانت عنايتك بالصحَّة ممتازة أم سيئة ، وبعض الناس يعاني مثلاً من حالة مرضية بالقلب ، فيعيش خمساً وأربعين سنة بعد حدوث هذه الحالة ، معنى هذا أن مرض القلب لا يميت ، ولا الضغط يميت ، بل لا يميت إلا الله سبحانه وتعالى ، هذا اعتقاد الإنسان المؤمن ، و إذا اعتنى بصحَّته ، أكل طعاماً معتدلاً ، اهتم بجسمه ، بحركات جسمه ، بعضلاته ، بأمعائه ، بجسمه ، بنظافته فهذه العناية من أجل أن يستمتع بصحَّته طوال العمر الذي رسمه الله له ، فإنه يبقى واقفاً في عافية ، أي أنه يبقى جنديَّاً في خدمة الحق ، أنت عندك خدمة ثابتة وخدمة مسلَّحة ، وإذا كنت بصحَّتك التامَّة فعليك خدمةٌ في سبيل الله أجرها كبيرٌ جداً ..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ

1 ـ احذروا عذاب الله :

مدينة في كولومبيا بأمريكا الوسطى ، مدينة سكّانها يزيدون على خمسين ألفاً ، وهي في مكان جميل .. كما سمعت .. لم أر صورها ، وعلى مقربة منها بركانٌ خمد منذ مائة وخمسين عاماً ، وعَلَتْه الثلوج المتراكمة ، ثار هذا البركان ، أذاب الثلوج فانهمرت المياه على شكل سيول فأغرقت سكّان المدينة ، غرقوا في المياه والوحل ، ثم جاءت الحُمَمُ من فوهة البركان فغطّت المدينة أربعة أمتارٍ من هذه الحُمم الملتهبة ، فلمَّا حاول بعضهم إنقاذ من سمعوا له أنيناً جاءت الحُمم الأخرى فوقهم فولّوا هاربين وكتبوا : هذه المدينة مقبرةٌ لأصحابها بإذن ، الله عزَّ وجل ..

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

(سورة الكهف : من الآية 59)

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

آيات كثيرة :

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(58))

(سورة الإسراء)

وقبلها في مكسيكو أيضاً حصل زلزال مشابه ، لكن هذه المدينة التي في كولومبيا قالوا : خمسة وثلاثون ألفاً أبيدوا عن آخرهم ، في خلال دقائق معدودة ..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا)

2 ـ لا أحدَ يعلم ساعة العذاب من ليل أو نهار :

يعني أن بعضهم كان نائماً مطمئناً ، أغلق بابه وأوى إلى فراشه والبيت دافئ ، وصباحاً لديه مشاريع كثيرة سيبادر لإنجازها ، ونام وهو مطمئن ، فجاءت المصيبة ..

استعجالهم إذاً استعجال إنكارٍ وسخريّةٍ واستبعاد ..

(أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ)

لا ينفع إيمان بعد فوات الأوان :

إنّ منتهى البلاهة والغباء أن تؤمن بالشيء بعد وقوعه ..

هناك غدير ماءٍ فيه سمكاتٍ ثلاث ؛ كيِّسة وأكيس منها وعاجزة ، مرَّ بالمكان صيَّادان ، نظرا في الغدير فأبصرا ما فيه من السمك ، أُعْجِبا بالسمك ، تواعدا أن يرجعا ومعهما شباكها ليصيدا ما فيه من السمك .. هذه القصَّة رمزيَّة .. فسمعت السمكات قولهما ، أمَّا أكيّسهن أي أعقلهن فقالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها .. هذا العاقل .. فلم تعرج على شيءٍ حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت وارتاحت وأراحت ، وأما الكيِّسة أي الأقلُّ ذكاءً فبقيت في مكانها حتى عاد الصيَّادان ، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سُد فقالت : فرَّطت ، وهذه عاقبة التفريط ، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، ثم إنها تماوتت فأخذها الصيَّادُ ، فوضعها على الأرض بين النهر والغدير ليأخذها عند فراغه ، فوثبت في النهر فنجت ، وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صيدت .. قال عليه الصلاة والسلام :

((الْكَيِّسُ ـ أي العاقل ـ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي عن شداد بن أوس]

وهذا معظم حال المسلمين ، تجده يقول : الله يتوب علينا ، نحن عبيد إحسان ، ولسنا عبيد امتحان ، ماذا سنفعل ؟ حتى الله يتغمَّدنا برحمته ، هذا كلام فارغ ، هو مقيم على شهواته كلها ، مقيم على معاصيه كلها ، ليس مستعدا أن يتحرَّك نحو الحق ، ليس مستعداً أن يتوب إطلاقاً ، لكن كلامه لطيف ومحدّر ، قال

((لَقَدْ خَلَقْتُ خَلْقًا أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ ، فَبِي حَلَفْتُ لأُتِيحَنَّهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا))

[الترمذي عن ابن عمر]

الكلام ليس كلاما ألطف منه ، أما من حيث السلوك فإن بعضنا يأكل بعضاً ، يستغل بعضنا بعضاً ، يسحق بعضنا بعضاً من أجل الدنيا ، وكلامهم لطيف ..

(أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ)

هذه العاجزة بعد أن جاءها الصيَّاد ، وألقى القبض عليها ، وبدأ يضعها على النار ليأكلها عرفت أنها مخطئة ، لكن متى ؟ بعد فوات الأوان..

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ(158))

(سورة الأنعام)

لكن الكيِّسة قالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، والأقلُّ ذكاءً حينما واجهتها المشكلة احتالت لها ونجت لكن بعد أن حطَّمت أعصابها..

(ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (12-17): تفسير الآيات 53 – 59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-12-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ)

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ

وعدُ الله واقعٌ لا محالة :

أي هذا الوعد الذي تعدنا ، وهذا الوعيد الذي تتوعدنا ، أحقٌ هو ؟ بمعنى أواقع ؟ أمُنْجَز؟ سوف نأتيه ؟

(قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

أي آمنتم أم لم تؤمنوا ، أعرفتم أم لم تعرفوا ، أصدقتم أم لم تصدقوا ، أكنتم أقوياء أم ضعفاء ، أأغنياء كنتم أم فقراء .

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

2 ـ لا أحد يفلت من يد الله تعالى :

أي لن تستطيعوا أن تفلتوا من يد الله عزّ وجل .

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

هذا كلام خطير ، بعض المنافقين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قال كلمة ، قال : " لو أن محمداً صادقٌ فيما يقول لكنا أجهل من الحُمُر " ، لو كان صادقاً ، وهذا كلام ينطبق على كل مكانٍ وزمان ، إن كان هذا الكلام الذي يقوله الله عزّ وجل حقاً ، وحِدنا عنه ، فإذا هو في شك قاتلٍ ، مُدمّر فهذا منتهى البعد عن الموضوعية ، منتهى الغباء ، منتهى الشقاء، عذابٌ أليمٌ بيأسٌ أبدي ولا نتقيه ! بينما وعدنا الله جنةً عرضها السماوات والأرض وأفلا نعمل لها !! حياة الدنيا كلمح البصر ، كساعةٍ من ساعات النهار لذلك :

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

3 ـ كيف تتوازن نفسيا وأنت تعصي الله وتخالف أمرَه ؟

فالذي أتمناه عليكم أن تحددوا موقفكم من هذا الكتاب ، إما أنه حقٌ من عند الله ، فمعنى هذا أن مخالفته شقاءٌ أبدي ، وإما أنه ليس من عند الله ، أين البرهان ؟

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

(سورة المؤمنون : من الآية 117)

كيف تستقر نفس الإنسان ؟ كيف يتوازن داخلياً ؟ كيف ينام ملء عينيه وهو يعلم أن هذا الكتاب حق وأنه لا يطبقه ؟ كيف ؟ كيف يحقق توازناً داخلياً ؟ كيف يقول لك : الحمد لله ، كيف تقول هذا الكلام ؟ وأنت تعلم علم اليقين أن هذا القرآن الكريم من عند الله تعالى وفيه من المواعيد ما فيه ..

(وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ(6))

(سورة الذاريات)

أي ما جاء به من وعدٍ ووعيد إنه لحق ، كيف تقبل أن تأكل درهم ربا والله سبحانه وتعالى يقول :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 276)

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة : من الآية 279)

كيف تطلق بصرك في الحرام والله سبحانه وتعالى يقول :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور : من الآية 30)

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

فملخص الكلام أن الإنسان يجب أن يأخذ موقفاً واضحاً ، فلم يعد خافياً أن هذا الكتاب من عند الله ، وهو حق اليقين ، وسوف يتحقق وقوعه في المستقبل ، فكل من حاد عنه قد شقي في الدنيا وشقي في الآخرة ، أما إذا كنت لست متأكداً من أنه من عند الله ، أو لا تعبأ بما فيه من مضامين ، وما فيه من تشريعات ، وما فيه من وعيد ووعد ، إن كنت كذلك أين البرهان ؟ إما أن تقبله على بينة ، وإما أن ترفضه على بينة ، أما أن تترك نفسك هكذا بشكلٍ غير واضح ، هذا ليس من الإسلام في شيء ، وليس من المنطق في شيء .

(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ)

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ

كثيراً ما نقرأ كلمات ونمر عليها هكذا ، دون أن يغيرها اهتماماً ، ولكنها قد تحمل في طياتها النذر ، أو تحمل البشائر ، ومثالنا الحي الواضح الآية السابقة .

إن متراً مربعاً ببعض الأسواق الرائجة ثمنه مائتان وخمسون ألف ليرة ، وإن كان ثلاثين متراً فهو محل تجاري له قيمته ، وقد يكون لك محلان ، أو أنك قد تملك محلين وطابقين ، وإذا كان هذا الشارع كله لك من أول بناء لآخر بناء ، وعلى الطرف الثاني أيضاً ، وشارع آخر ، وشارع ثالث ، وشارع رابع ، ولك شارع مماثل له في مدينة أخرى رائجة ، إذا كانت قيمة كل متر ربع مليون ليرة ، وعندك مجموعة شوارع ، وإذا كانت المدن الكبرى كلها ملكك ، مكاتبها ، ومحلاتها ، وأبنيتها ، والشركات الرائجة في العالم كلها ملكك ، جميع الفنادق ملكك ، كذلك وجميع شركات الطيران ملكك ، وجميع شركات الأسلحة ، هذه التي حققت أعلى ربح في العالم ملكك ، وحينما يرى الإنسان العذاب يتمنى أن يتنازل عنها كلها وينجو ، ولكنه لا ينجو .

(وَلَوْ أَنَّ)

إن التفصيل أحياناً يعمِّق المعنى ، أحياناً يكون الإنسان مزهواً بمستودع فيقول لك : أريد ثمناً له ستمائة ألف ، وقد يكون مزهواً بطابق ، يقول لك : أريد ثمنه مليونين ، تصور أبنية دمشق كلها لك ، جميع الأبنية السكنية ، والتجارية ، والسياحية ، دمشق ، ولندن ، وباريس ، وواشنطن ، وهذه العواصم الكبرى ، وجميع الشركات الكبرى في العالم لتنازلت عنها في ثانيةٍ واحدة لتنجو ، اقرأ قوله تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ)

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ

إسرار الندم عند رؤية العذاب :

العلماء قالوا : أن الكبراء الذين سببوا هلاك من كان حولهم ، أو سببوا هلاك أتباعهم ، حينما رأوا العذاب أسروا الندامة ، ولم يظهروها ، لأنهم إذا أظهروها فإنهم يصغرون في أعين أتباعهم .

مثلاً : إذا كان الإنسان لا يحاسب ، وارتكب غلطة كبيرة لا يعبر عن ندمه أبداً ، يُسِرُّ ندمه ، أحياناً الأب في البيت يرتكب غلطا ، ولا يجرؤ أحد على أن يحاسبه ، هو في أعماقه ندم ، لكنه لا يعترف بهذا الندم ، هذا يقع منهم قبل أن يأتي العذاب ، أما إذا مسهم العذاب وأسروا الندامة بمعنى أظهروها ،

وهناك معنىً ثالث أسروا الندامة أي ظهرت الندامة على سرائر وجوههم .

أول معنى : قبل أن يذوق العذاب أسر الندامة حفاظاً على مكانته أمام متبوعيه ، بعد أن مسَّه العذاب أعلن الندامة ، وفي كل الأحوال علائم وجههم تفصح عن ندامتهم الشديدة .

(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

نحن في دار عمل ، وغداً دار الجزاء ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((عش ما شئت فإن ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارق ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به))

والله سبحانه وتعالى يقول :

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت : من الآية 40)

ليس هذا من باب أن الأعمال كلها مباحة ، ولكن هذا من باب التهديد .

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت : من الآية 40)

كل عملٍ سوف تحاسبون عليه .

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

1 - لا يُظلَم عند الله أحدٌ :

حتى الشاة التي نطحت أختها يقتص منها يوم القيامة ، حتى العصفور الذي قُتِلَ من باب التسلية ، اصطيد من باب التسلية يقول : يا رب سله لم قتلني ؟ فكل أعمال الإنسان سوف يحاسب عليها .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

أما أن تدعو الله عزَّ وجل وتقول : يا ربنا لا تسألنا عن شيء ، هذا كلام مخالف لكتاب الله ، هذا دعاء لا ينسجم مع كتاب الله ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

2 ـ لا يضيع عملٌ عند الله أحدٌ :

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[الترمذي]

أي أنك لو وقفت في سيارةٍ عامة لشيخٍ كبير توقيراً لسنه ، وأجلسته مكانك فإن هذا العمل لا يضيع جزاؤه عند الله عزَّ وجل ، وأبلغ آيةٍ قول الله سبحانه وتعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

لو تدبرت آيةً واحدة لكفيت :

قال :

((يا رسول الله عظني وأوجز ، فتلا عليه هذه الآية قال : قد كفيت ، قال : فقُهَ الرجل))

[ورد في الأثر]

هذا الكتاب من ستمائة صفحة لو تدبرت آية واحدة لكفتك ، لو تدبرت قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

لكفتك .. لو تدبرت قوله تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

لو تدبرت قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية : من الآية 21)

لكفيت ، لو تدبرت قوله تعالى :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص : من الآية 61)

لكفيت ، فإذا كان الإنسان صادقاً في توجهه تكفيه آية ، يكفيه حديثٌ شريف ..

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه))

((ابن آدم أطع ربك تسمى عاقلاً ، ولا تعصه تسمى جاهلاً))

هذا الحديث يكفي ..

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله))

[ورد في الأثر]

هذا الحديث يكفي ، وصادق الإيمان لا يحتاج لكلام كثير ، وصادق النية المخلص بها تكفيه كلمة ، وأحياناً يكفيه لفت نظر من الله عزَّ وجل ، أي أن الله بعث له مصيبة ، وكان قبلها في ذنب ، انتهى ، العلم حرف ، والتكرار ألف ، فهذه المصيبة توضحت لك بسبب هذا المال الحرام ، أتقع فيها مرة ثانية؟ إذا كان الإنسان لم يستفد من تجربته يكون أحمق ، ليست المصيبة أن يصاب المرء بمصيبة ، ولكن المصيبة كل المصيبة أن يصاب بمصيبة ، ولا يتعظ بهذه المصيبة ، لذلك قالوا : " من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر " .

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

1 ـ كلُّ شيء بتصرف الله :

كل شيءٍ في السماوات والأرض ملك الله عزَّ وجل ، إيجاداً وتصرفاً ومصيراً ، هو أوجده فهو ملكه ، وهو يتصرف بشؤونه .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ)

(سورة الأنفال : من الآية 17)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : من الآية 123)

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38))

(سورة المدثر)

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر : من الآية 2)

هذه :

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

نحن لله خلقاً ، ونحن لله تصرفاً ، ونحن لله مصيراً ، خلقاً ، وتصرفاً ، ومصيراً ، الأسباب بيده ، والوقائع بيده ، والنتائج بيده .

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(83))

(سورة القصص)

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

1 ـ وعدُ الله واقعٌ :

أي واقع ..

(وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ(6))

(سورة الذاريات)

الحقائق التي جاء بها القرآن واقعة ، وإن لم تؤمن بها ، عدم إيمانك بها لا يلغيها ، وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود ، فالأمر مستمر ..

(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا(62))

(سورة الأحزاب)

(وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا(77))

(سورة الإسراء)

قوانين السقوط قائمة ، مطبَّقة ، منفّذة ، إن آمنت بها وهبطت من الطائرة بالمظلة أنقذت نفسك ، وإن لم تؤمن بها ، وضربت بها عرض الطريق فإنك تموت ، قوانين الهندسة قائمة ، إذا استشرت المهندس ، ووضعت الكميات المناسبة ، والحديد المناسب ، ينجو بناؤك من الانهيار ، فإن لم تستشر فلابدَّ من أن ينهار ، لأنك إذا لم تعترف على علم المهندسين فعلمهم قائم ، وإن اعترفت على علمهم استفدت منه ، وإن لم تعترف فالحقائق التي يقولونها واقعة ، البناء قد ينهار .

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

1 ـ أنت مع مَن ؟

إذا كان أكثرهم لا يعلمون ، فأنت مع من ؟ مع الأكثرية أم مع الأقلية ؟

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا)

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 116)

فهل يقبل منك أن تقول : هكذا شأن الناس كلهم يا أخي ، وأنا واحد من الناس ، هكذا التقاليد الآن ، هكذا العادات ، هكذا ما تعارف عليه الناس ، هكذا نشأنا يا أخي ، هكذا العادات ، هكذا التقاليد ، كل الناس مخطئون ؟

اسمع قوله تعالى :

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(49))

(سورة الزمر)

يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، يعلمون التجارة والصناعة ، والزراعة ، وكسب المال ، وانتهاز الفرص ، وأصول الحياة ، وكيف يتنعمون بها ، وكيف يشترون الأجهزة المتنوعة في البيت ، هذا كله يعرفونه ، ولكنهم يجهلون المصير ، يجهلون ساعة يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فالعبرة أن تعرف الحقيقة كلها لا أن تعرف شطرها ، الله سبحانه وتعالى لم ينف عن الكفار شطر الحقيقة قال :

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

2 ـ الكثرة مذمومة في القرآن :

قد تلتقي بدكتور يحمل شهادة بورد ، ومع ذلك لا يعلم عن الآخرة شيئاً ، يعيش لحظته ، يعيش حياته الدنيا ، لا يستطيع أن يفكر أبعد من الموت ، يظن الموت نهاية الحياة ، ولا شيء بعد الموت ، هذا ليس علماً ، هذه حرفة ، وليس علماً ، العلم أن تعرف الحقيقة كلها ، فقوام البناء حديد وإسمنت ، إذا تعلمت أن الإسمنت له نسب معينة وطبقتها ، وأغفلت الحديد ينهار البناء ، البطولة أن تعرف الحقيقة كلها من كل جوانبها .

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(49))

(سورة الزمر)

كن ابن نفسِك :

لذلك أيها الأخ الكريم لا تستأنس إذا كان الناس جميعاً في ضلال يقول لسان حالك ، أخي أنا مثل هؤلاء الناس ، أنا ابن عصري ، قال بعض علماء النفس : صحيحٌ أن الإنسان ابن بيئته ، وصحيحٌ أنه ابن محيطه ، وصحيحٌ أنه ابن ثقافته ، وصحيحٌ أنه ابن دراسته ، ولكنه في النهاية ابن نفسه ، أي ابن اختياره ، لذلك قد نجد عظماء في بيئاتٍ متخلّفة ، وعلماء في بيئاتٍ جاهلة ، والإنسان إذا اختار شيئاً لن يقف شيءٌ في طريقه ، وإن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلما تنقضه الأيام إذا كان صادراً حقاً عن إرادةٍ وإيمان .

أنَّك إذا أردت أن تكون مستقيماً في هذا الزمان كنت كذلك ، وكلمة : لا أستطيع كلمة مضحكة ، قد يقولون لك : استقم ، فهو خير ، فتقول : لا أستطيع ، وهذه كلمة مضحكة ، لأنك قد تفعل أشياء أخرى تبدو مستحيلة ، ولكنك بتصميمك عليها فعلتها ، ولو أنك صممت على أن تكون مستقيماً لبلغت الاستقامة ، لو صممت على أن تعرف كتاب الله لعرفته ، لو صممت على أن تصلي قيام الله لصلَّيته ، الذي تفعله صادقٌ فيه ، والذي تتوهم أنك لن تستطيع أن تفعله لست صادقاً في ادعائك ، التفسير العلمي لشيءٍ تقول عنه : أنا ليس بإمكاني أن أفعله ، هذا التفسير هو أنك لست صادقاً فيه ، ولو أنك صدقت في طلبه لحصَّلته .

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ

القرآن كما سيدنا علي : << حَمَّالُ أوجهٍ >> .

المعنى الأول :

يحيى هذا الجسد ويميته ، لذلك تعريف الموت حتى الآن غير واضح عند الأطباء ، هل يكفي توقف القلب ليموت الإنسان ؟ لا هل يكفي توقف النشاط العصبي ليموت الإنسان ؟ لا ، لا يزال تعريف الموت لغزاً من الألغاز .

إن الطبيب له علمٌ يدل بــه   إن كان للناس في الآجال تأخير
حتى إذا ما انقضت أيام رحلته   حار الطبيب وخانته العقاقيــرُ

فالموت يخلقه الله عزَّ وجل ..

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

فكم من فتى مات من غير علةٍ وكم من عليلٍ عاش حيناً من الدهر

تزوَّد من التقوى فإنك لا تـدري إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجر

فكم من عروسٍ زينوها لزوجــها وقد قبضت أرواحهم ليـلة القدر

وكم من أناسٍ يرتجى طول عمرهم

أي أنهم ماتوا قبل الأوان .

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

المعنى الثاني :

المعنى الآخر أن الله سبحانه وتعالى يحيي هذا القلب بأنواره ، ويميته بالبعد عنه ، لأن هناك حياة من نوع آخر ، الحياة حياتان ، حياة الجسد وحياة القلب ، حياة الجسد معروفة ، ما دام هناك حركة وتفكير، وتنفس ، وخفقان قلب ، وتناول الطعام والشراب ، فهذه علامات الحياة ، وأما الموت فمعروف ، لكن حياة القلب من نوعٍ آخر .

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

***

أحد العلماء واسمه إنشتاين ، هو الذي جاء بالنظرية النسبية ، وهي من أدق النظريات في الفيزياء ، قال : " كل إنسان لا يرى في هذا الكون قوةً هي أقوى ما تكون ، رحيمة هي أرحم ما تكون ، حكيمة هي أحكم ما تكون ، هو إنسانٌ حيٌّ ولكنه ميت " .

قال علي رضي الله عنه : << يا كميل ، العلم خيرٌ من المال ، لأن العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق ، يا كميل مات خُزَّان المال وهم أحياء >> .. خزان المال في أوج نشاطهم أموات .. ربنا عزَّ وجل قال :

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل : من الآية 21)

هذا الذي لا يعرف إلا الطعام والشراب وكسب المال والانغماس في الشهوات هذا ميت .

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22))

(سورة فاطر)

وهذا الذي عرف ربه ، وأحبه ، وأقبل عليه ، وتقرَّب إليه ، وجعل حياته كلها في طاعته ، وجعل طاقاته كلها مسخرةً لخدمة عباده هذا الحي ، لذلك : << يا كميل ، مات خُزَّان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة >> .

" كن عالماً ، أو متعلماً ، أو مستمعاً ، أو محباً " .. " ويظل المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل " ..

هناك رجل من الصالحين علم طلابه من سن السابعة عشرة إلى سن السابعة والتسعين ، أي ثمانين عاماً ، وكان إذا سار في الطريق ، ورآه أحد تلامذته يقول له : أنت فلان ، وكان أبوك تلميذي ، وكان جَدُّك تلميذي ، وكان يتمتع بصحةٍ جيدة ، من سمع مُرْهَف ، إلى بصرٍ حاد ، إلى ظهرٍ مستقيم ، إلى أسنانٍ كاملة ، حتى إن خده كان متورِّداً ، وذاكرته قوية ، فكان تلامذته يقولون : يا سيدي ما هذه الصحة ؟ أتمها الله عليك ! فكان يقول قولته الشهيرة : " يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر ، من عاش تقياً عاش قوياً " ، هذا الذي يقرأ القرآن لن يصاب بالخرف .

((من تعلم القرآن متَّعه الله بعقله حتى يموت))

[ورد في الأثر]

فلذلك :

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(49))

(سورة الزمر)

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

موت القلب بسبب المعاصي والذنوب :

قد يحيا هذا القلب ، وإذا أقبلت على الله أحيا الله قلبك ، فإذا أدبرت عنه مات قلب الإنسان ، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ ، وَاسْتَغْفَرَ ، وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ :

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)))

[الترمذي]

لما يسرف الإنسان على نفسه في المعاصي ، و ينغمس في الدنيا كأن هناك طبقة تغطي قلبه ، إلى أن يصبح قلباً مغلفاً ..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ)

(سورة البقرة : من الآية 88)

يقول أحدهم : لم نتأثر ، هذه الحقائق لا تهز مشاعرنا ، نحب الدنيا ، قال الله تعالى :

(بَلْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)

(سورة البقرة : من الآية 88)

لأنهم كفروا أصبحت قلوبهم غُلْفاً .

إذاً :

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

بالمعنى الأولي يحيى هذا الجسد ، يبث فيه الحياة ، وهو في بطن أمه ، فإذا جاء الأجل سلب الحياة فأصبح جثة هامدة .

(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(56)يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُور)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُور

1 ـ الحياة تعبٌ ونكدٌ :

الحياة متعبة ، والحياة فيها ثقلات كثيرة ، فيها مزالق ، وفيها مواقف حرجة ، وفيها متاهات ، فيها ظنون ، وفيها فساد ، فإن لم يعتصم الإنسان بالإيمان الصحيح فسوف يضيع مع الناس ، سوف تنزلق قدمه ، سوف تزل قدمه ، وتهوي به في مكان سحيق .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُور)

2 ـ المؤمن يرضى بقسمة الله له :

أحياناً تقرأ مقالة فتحس بضيق لا يعلمه إلا الله ، المقالة تأتي بإحصاءات عن مستقبل العالم ، ارتفاع أسعار ، شح في المواد ، أما المؤمن فيقرأها ولا معنى لها عنده ، لأن له رباً كريماً يحبه ، غنياً قديراً ، الناس كلهم بيده ، هل يخشى عدواً .

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ)

(سورة هود)

يكون بيته صغيرا ، رطبًا ، ثم يمر أمام بيت ثمنه خمسة أو ستة ملايين ، يطل على أربع جهات ، يقرأ الآية الكريمة :

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ(198))

(سورة آل عمران)

فتجده يرضى بهذا البيت ، وقد يكون ليس له أولاد فيرضى بقضاء الله :

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(49)أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا)

(سورة الشورى)

هذا من عند الله ، هكذا إرادته ، وهذه حكمته ، وهو يحبني ، وهذا أمثل شيءٍ إلي ، وليس في الإمكان أبدع مما كان ، فتنتهي مشاكله ، اقرؤوا القرآن :

(وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ)

3 ـ القرآن شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ :

لا تبقى لدى المؤمن وسوسة ، ولا همّ ، ولا حزن ، ولا ضيق ، ولا قلق ، ولا يأس ، ولا شيءٍ من هذا القبيل ، هذا التمزُّق الداخلي ، انفصام الشخصية ، الخَوَر ، الضعف ، الخنوع ، هذه الأمراض التي فتكت بالناس ، ونحن مع ما عندنا من إيمان ، مع قراءتنا لهذا الكتاب في نعمةٍ كبيرة .

عُقِد مؤتمر للأمراض النفسية في بعض المدن الأجنبية ، وذهب من سوريا دكتور في علم النفس ، فلما جاء دوره في إلقاء الكلمة قال : أقول لكم ببساطة ليس في شرقنا أمراضٌ نفسية بالشكل الذي تعرفونه ، وبالعدد وبالحدة التي تعرضونها ، والجواب على هذا بسيط : لأننا مؤمنون بالله ، فمثلاً هذه التي لم تتزوج ، تؤمن أن الله لم يكتب لها أن تتزوج ، تجدها تصلي ، وتصوم ، وتحج مرتين أو ثلاثاً ، مواظبة على وردها وصلاتها ، وتخدم أخيها وأولاد أخيها ، تعيش مع إيمانها بسعادة كبرى ، أما الثانية التي في بلاد الغرب فإنها تنتحر :

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ)

إن قارئ القرآن لا يحزن ، فلا يمكن أن تحزن إذا قرأت القرآن بشكل صحيح وفهم لآياته واضح ، إذا كنت تقرؤه ، وتعقله ، وتفهمه ، وتطَبِّقُهُ ، لا يمكن أن تحزن ، فهل من الممكن أن يحزن طفل أبوه ملِك، يخاف ألا يعطيه مصروفه كل يوم صباحاً مثلاً ، أو يخاف أن لا يجد بيتاً عندما يريد الزواج ؟ أبوه ملك ، أفلا يجد غرفة يسكن فيها ؟ بل يعطى ما يشاء ، نعطيك القصر كله ، هل يخاف الطفل الصغير من ارتفاع بعض الأسعار إذا كان أبوه ملكًا مثلاً ؟ هكذا المؤمن ..

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

في بعض الآثار : يا عبدي ، أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال له : يا رب ، لقد أنفقته على كل محتاج ومسكين ، لثقتي أنك خيرٌ حافظاً ، وأنت أرحم الراحمين ، فقال : يا عبدي ، أنا الحافظ لأولادك من بعدك .

حتى إذا كنت مسافراً تقرأ دعاء السفر :

((اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى ، وَمِنْ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا ، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ))

[مسلم عن ابن عمر]

تبقى مطمئناً طيلة أيام غيابك ، وإذا لم يقرأ أحد الدعاء عند سفره يبقى قلقاً طيلة غيبته ، هل خرج ابني من البيت باندفاع شديد ، فمرت سيارة مسرعة فدُهِس ، هل أصابه مكروه ؟ كأن يكون إبريق الشاي انقلب على وجهه فحرقه ، لا تعرف ، يظل الإنسان قلقاً ، لكنه إذا سلم أمره لله عزَّ وجل فهو في راحةٍ نفسية واطمئنان ، وهذا من علامات الإيمان التوكل على الله ، والتفويض لأمر الله ، والتسليم لقضاء الله، والرضا بقضاء الله ، توكل ، وتفويض ، وتسليم ، ورضا ، هذه كلها من علامات الإيمان مزيد من الاطمئنان ، قالوا لأبي الدرداء : << يا أبا الدرداء ، لقد احترق دكانك ، قال : ما كان الله ليفعل ، يا أبا الدرداء ، لقد احترق دكانك ، قال : ما كان الله ليفعل ، إلى أن جاءه الخبر الصحيح ، لم يحترق دكانك ، قال : أعلم ذلك >> ، فهو مطمئن ، فقد فوّض أمره إلى الله سبحانه ، وتوكل عليه ، ثم غادر دكانه ، فكان الله خليفته في حفظ دكانه .

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

4 ـ القرآن موعظة وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ :

للناس موعظة وشفاء ، أما للمؤمن فهو هدى ورحمة ، الهدى أي أن طريقه واضح ، طريق الحياة واضح ، هذه حرام ، هذه حلال ، هذه تجوز، هذه لا تجوز ، عنده نور في قلبه ، فالله عزَّ وجل قال :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد : من آية 28)

إذا آمنت بالله ورسوله يؤتك كفلين من رحمته ، أي ضمانة في الدنيا وضمانة في الآخرة ، ويجعل لك نوراً تمشي به في الناس ، يريك الخير من الشر ، فالهدى ، هذا النور الإلهي الكشّاف ، والرحمة ، هذا التجلي الذي يتجلى به الله على عباده المؤمنين .

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

1 ـ المؤمن يفرح بفضل الله عليه والكافر همّه الدنيا :

طبعاً الله سبحانه وتعالى يحب الرجل المؤمن إذا فرح بعطاء الله ، أما إذا فرح بالدنيا فهذا دليل سخفه ، وما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب ، علمه سخيف ، وهو شهواني ، أرضي ، يحب الدنيا ، يحب المُتَع الرخيصة ، مادي ، أناني ، همُّه بطنه ، قبلته زوجته ، إن رآه كذلك عاقبه عقاباً أليماً ، ما مرضه ؟ لا ، لا ندري ، والحقيقة هي أن الله تركه وشأنه تقوده نفسه الأمارة بالسوء فحظر عليه العلم والأدب ، هذه ليست لك ، هذه اتركها ، اتركها لعبادي الصالحين ، لا علم ولا أدب ، غليظ ، وقح ، ساخر ، متكبِّر ، لئيم ، لا علم ولا يفقه عن الآخرة شيئاً ، يأتي لك بكلام هراء من كلام العامة ويسألك : أهذه آية في القرآن ، أي آية هذه ، هذه آية ؟!! لا يفهم شيئاً ، لا يفهم الآية من الحديث من قول العامة ، يقول لك : خبئ قرشك الأبيض ليومك الأسود ، ويقول لك : أليست هذه الآية في القرآن ؟ هذه آية ؟! ما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب ، فهو جاهل ، وتركه الله في عماية الجهل واللؤم ، أما قال قارون :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص : من الآية 78)

قال له قومه :

(قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76))

(سورة القصص)

2 ـ الله يحب الفرحين بالدنيا :

طبعاً الآية لها تفسير ، لا يحب الفرحين بالدنيا ، لأنها مؤقتة زائلة ، لكنه يحب الفرحين بالآخرة ، فلما يحقق الإنسان هدفه الأخروي ، ويفرح فوالله معه الحق ، وإنه على الحق ، لكن قبل تحقيق هدفه الأخروي الفرح لا معنى له ، هذا فرح ساذج ، فرح الأطفال بلعبة ، لكن الكبار يفرحون بشهادة عُليا ، يفرحون بمنصب رفيع ، يفرحون بزوجة تقيه ، يفرحون بمنزل واسع مناسب ، هذا شأن الكبار ، أما المؤمنون فإنهم يفرحون بعطاء الله ، يفرحون برضى الله عنهم ، إن رسول الله اللهم صلّ عليه وسلم

غادر مكة إلى الطائف ثمانين كيلو متراً على قدميه ، وسمع كلاماً مرذولا ، واستخفافاً ، ورداً قبيحاً ، وسخرية ، وتكذيباً من أهل الطائف ما يهُزُّ الجبال ، اتجه إلى الله عزَّ وجل وقال :

((يا رب ، إني أشكو إليك قلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا رب المستضعفين ، إلى من تكلني ؟ أإلى عدوٍ ملّكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

الطفل يفرح بالخشخيشة ، باللعبة ، يفرح بحبة حلوى تعطيها له ، تكون دمعته على خده فيضحك ، والكبير يفرح ببيت ، بسيارة ، بوظيفة ، بزواج ، أما المؤمن فيفرح برضاء الله عزَّ وجل ، فما هناك منصب أرفع عند الله من أن يقال : فلان رضي الله عنه .

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح : من الآية 18)

ليس ثناء من الله أبلغ ولا أعظم من قوله تعالى :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

لم يكن في بيته شيء ، دخل عليه عدي بن حاتم فلم يجد شيئاً من متاع إلا وسادة ، قال عدي : " فقذف لي وسادةً من أدمٍ محشوةً ليفاً " قال : " اجلس على هذه " ، قلت : " بل أنت "، قال : " بل أنت " ، فجلست عليها ، وجلس هو على الأرض ، ليس عنده شيء ، كان إذا صلى قيام الليل أمر السيدة عائشة أن تحوّل رجليها بعض الشيء ، لأن حجم الغرفة ضيّق ، ولا يتسع لنومها وصلاته ، قال له :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

اضطجَعَ على الحصير فأثّرَ في جنبه الشريف ، قال عمر :

((فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ ، فَجَلَسْتُ ، فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ قَالَ : فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ ، قَالَ : مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى ، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ ، فَقَالَ : يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا قُلْتُ بَلَى))

[متفق عليه]

أنا لست ملكاً ، هذه نبوة .. ثم إن أحد الخلفاء بني أمية سأل أحد التابعين فقال له : " أنا خليفة أم ملك ؟ " قال له : " إن كنت قد جبيت درهماً من غير حقه ، وأنفقته في غير حقه فأنت ملك ، ولست خليفة " ، وقال له مذكرا إياه : إنما هي نبوةٌ وليست ملكاً .

في رواية ثانية :

((أما ترضى يا عمر أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا))

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي]

الدنيا هينة على الله ، يعطيها لمن يحب ، ولمن لا يحب ، هناك ثماني آيات في كتاب الله ، ثماني آيات حصراً ، المترفون هم الكافرون .

(كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة المؤمنون : من الآية 33)

هذا المترف الذي يعيش في بحبوحة مذهلة ينفق أموالاً بغير حساب ، هؤلاء لا شأن لهم عند الله عزَّ وجل .

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

لذلك قال الله عزَّ وجل :

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

تعال ألهُ معنا يا محمَّد .. كان طفلاً صغيراً .. قال لهم : " لم أخلق لهذا " ، أنا خلقت لأعرفه وأتقرب إليه ..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا

الحرام ما حرّمه الله والحلال ما أحلّه الله :

العلماء استنبطوا من هذه الآية ، أن الحرام ما حرَّمه الله ، والحلال ما أحلَّه الله ، ولا يحقُ لبني البشر أن يحللوا هم أو أن يحرِّموا ، بل إنه ليس تحريم الحلال بأقلّ ذنباً وافتراءً على الله من تحليل الحرام ، الحلال ما أحلَّه الله ، والحرام ما حرمه الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (13-17): تفسير الآيات 61 – 70

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-12-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ

1 ـ للإنسان حالٌ ومقالٌ وعملٌ :

من خلال هذه الآية بدا أن للإنسان حالاً ومقالاً وعملاً ، وقد قالوا عن النبي عليه الصلاة والسلام : " إن الشريعة أقواله ، والتقوى أفعاله ، والحقيقة أحواله " ، وكلٌ منَّا له قالٌ ؛ له لسان ، له علم ، وله حال، وله عمل ، فإذا تطابق القال مع الحال ومع العمل فهذا هو الكمال بعينه ، أن يكون قالك كحالك وكعملك ، وقد تجد إنساناً علمه أعلى من حاله ، وقد تجد إنساناً آخر حاله أعلى من علمه ، وقد تجد إنساناً آخر عمله أرقى من علمه ، وهكذا ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)

2 ـ حالُ الإنسان مكشوفة لله :

الشأن هو الحال ، في حال الرضا ، في حال الشكر ، في حال الخوف ، في حال المراقبة ، في حال التوكُّل ، في حال الخَشْيَة ، في حال الإعراض ، في حال البعد ، في حال السخط ، في حال حب الذات، في حال المَكْر ، حالة الإنسان مكشوفة أمام الله عزَّ وجل ، والقرآن كما قلنا من قبل : له خاصٌ وله عام ، فإن توجَّهت هذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام فلا يمنع أن تخصَّ غير النبي ..

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)

أي أن حالك في علم الله ، سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام حينما أزمع قومه أن يلقوه في النار جاءه جبريل فقال : " يا إبراهيم ألك حاجة ؟ " قال : " منك ؟! " قال : " لا ، من الله عزَّ

وجل " فقال : " علمه بحالي يغني عن سؤالي .

وإذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)

الشأن هو الحال ، ولله عزَّ وجل شأن .

(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ(29))

(سورة الرحمن)

أي أن شأنه مع العبد متبدِّلٌ بتبدُّل شأن العبد ، إن كان شأن العبد إقبالٌ فشأن الله مع العبد إكرامٌ ، وإن كان شأن العبد مع الله إعراض ، شأن الله مع العبد معالجةٌ ، فلك شأنٌ ولله شأن ، شأن الله متبدِّل بتبدُّل أحوالك ..

(إنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

(سورة الرعد)

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف)

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)

والإنسان يستطيع أن يغُشَّ الناس جميعاً إلى أمدٍ قصير ، ويستطيع أن يغشَّ واحداً إلى أمدٍ طويل ، لكنَّه في كل الحالات لا يستطيع أن يغشَّ نفسه لحظة ، ولا أن يغشَّ ربَّه لحظة ..

(بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

والله سبحانه وتعالى يعلم سرَّكم وجهركم ..

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى(7))

(سورة طه)

السر ما تخفيه عن الناس ، ولكنَّ الأخفى هو الذي يخفى عنك أنت بالذَّات ..

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)

فَلِمَ النفاق إذاً ؟ تنافق لمن ؟ خالق السماوات والأرض يعلم شأنك ، تغطّي على من ؟ تُدَجِّل على من ؟ تخادع من ؟ ..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء : الآية 142)

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(30))

(سورة الأنفال)

هذه الآية :

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)

أي أن شأنك مكشوفٌ أمام الله عزَّ وجل ، لا تخفى عليه خافية ..

(وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ)

وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ

1 ـ الله أعلمُ بنيتك حين تتلو القرآن :

وإذا قرأت القرآن فهو في علم الله هل تقرؤه عبادة ؟ هل تقرؤه تفكُّراً ؟ أم تقرؤه تدبُّراً ؟ أم تقرؤه تقرُّباً؟ أم تقرؤه رياءً وسمعة ؟ أم تقرؤه لتنتزع إعجاب الناس ؟ حالتك في أثناء قراءة القرآن مكشوفة عند الله عزَّ وجل ..

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ)

2 ـ القول عملٌ تحاسَب عليه :

لذلك القول من العمل .. ربَّ كلمةٍ صالحةٍ أنبتت نباتاً طيّباً ..

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)

(سورة إبراهيم)

(وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ)

وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ

الله يعلم كلّ ما يتعلّق بعملك :

العمل ، دوافعه ، أهدافه ، ملابساته ، وسائله ، نواياه ، حجمه ، حجم التضحيات التي بُذِلت من أجله كلُّه في علم الله ، حالتك ، وأقوالك ، وتلاوتك ، وأعمالك الباطنة والظاهرة ، الصغيرة والكبيرة ، المعلنة وغير المعلنة ، دوافعها ، وسائلها ، أهدافها ، حجمها ، تضحيَّاتها ، كل هذا في علم الله .

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً)

الله سبحانه وتعالى شهيدٌ علينا ، شهيدٌ على كل الخلق ، شهيدٌ على كل ذرَّةٍ في الكون ، يشهد لها ، ويشهد عليها ، ويشهدها .

(إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ)

إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ

معنى : تُفِيضُونَ فِيهِ

أفاض في العمل أي انطلق إليه ، فإذا فتحت باب دارك ، وانطلقت بحالة أية حالةٍ ، فماذا كان حالك ؟ فهو معلوم عند الله بحالة كسب المال الحلال ، هذه الحالة معروفة عند الله عزَّ وجل ، بحالة خداع الناس لتأخذ أموالهم ؟ فهذه معلومة عند الله أيضاً ، وهكذا كل حال ، قال عليه الصلاة والسلام :

((من تزوَّج امرأةً على صداقٍ وهو ينوي ألا يؤدّيه لها ـ من يعلم هذا ؟ لا يعلم هذا إلا الله ـ لقي الله وهو زانٍ ، ومن أخذ مالاً وهو ينوي ألا يؤديَّه لقي الله عزَّ وجل وهو سارق))

[الطبراني بسند صحيح عن ميمون الكردي عن أبيه]

هذه الحالة من يكشفها ؟ الله سبحانه وتعالى وحده ..

(وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء)

وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء

احذر فإن الله وسع علمه كل شيء :

أي أنه إذا استرق الطبيب النظر وهو يفحص امرأةً إلى مكانٍ لا يؤلمها هذا من يعلمه ؟ الله سبحانه وتعالى ، وإذا استرق الرجل النظر إلى امرأةٍ في الطريق من يعلم هذا ؟ الله سبحانه وتعالى ..

(وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء)

أي : مهما بدا لك العمل طفيفاً ، ومهما بدا لك الحال يسيراً ، ومهما بدت لك الكلمة قليلة التأثير فإنها لا تعزب عن الله سبحانه وتعالى .

(وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ

1 ـ كل شيء في كتاب :

هنا شيءٌ دقيقٌ جداً ، أي أن أحوالك وأقوالك وأعمالك مسطورةٌ في كتابٍ مبين ، كأنَّ لك عند الله ملف.. كما يقولون .. فيه صفحة لأحوالك ، وصفحة لأقوالك ، وصفحة لأعمالك ، وفي ضوء هذا الكتاب المبين الذي كُتِبَ فيه كل شيء يعاملك الله سبحانه وتعالى بالإكرام أو بالمعالجة ..

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَاب)

(سورة الحديد)

هذه المصيبة ليست ارتجاليَّة ، بل في كتاب ، لك عند الله كتاب فيه أحوالك وأقوالك وأعمالك ، في ضوء هذا الكتاب المبين الذي سُطِّرت فيه كل أقوالك وأحوالك وأفعالك قضى الله لك قضاءً ما ، إما تشجيعاً ، وإما تحذيراً ، وإما تأديباً ، وإما قصماً ، وإما تصحيحاً ، وإما دفعاً ، وإنا كشفاً ، في ضوء هذا الكتاب المبين الذي سُطِّرت فيه أقوالك وأحوالك وأعمالك فالله سبحانه وتعالى يقضي لك ، لذلك كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الإيمان بالقدر يُذهِب الهمَّ والحزن))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند غير صحيح]

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ)

(سورة الحديد)

الكتاب جاء هنا تفصيله ..

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

هذا الكتاب المبين الذي سَطَّر الله فيه أحوالك وأعمالك وأقوالك هو الكتاب الذي ورد في قوله تعالى :

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا)

(ها)تعود على المصيبة ..

(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(22))

(سورة الحديد)

إن ذلك على رحمته الله يسير لا على قدرته ، على قدرته شيء بديهي ، على رحمته أي ما يتناقل إلى سمعك من فيضانات مثلاً ، ومن زلازل ، ومن عواصف مدمِّرة ، ومن شُحٍّ في السماء ، ومن أمراض، ومن متاعب ، هذا كلُّه من أجل مصلحة الإنسان .

(فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

شأن الله سبحانه وتعالى بحسب شأن خلقه ..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف)

(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ(29))

(سورة الرحمن)

(وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ{61} أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ

1 ـ كن وليّاً لله وخذ كل ميِّزات هذه المرتبة :

كن وليّاً لله وخذ كل ميِّزات هذه المرتبة ، فحينما يعطى أحد الطلاب الشهادات العُليا فهو قد استحقَّ كل امتيازات هذه الرُتبة العلميَّة ، فكلمة وليًّا لله ، وهذه أعلى مرتبة .

2 ـ معنى الوليّ :

ما معنى الوليّ لله ؟ أي أنه استسلم لله فتولّى الله هدايته ، وتولّى الله إرشاده ، وتولّى الله إسعاده ، وتولّى الله حفظه ، وتولّى الله الأخذ بيده من خيرٍ إلى خير ، ولا ينتهي به المطاف إلا في الجنَّة ، واستسلم لله ، هذه هي حقيقة الإسلام ؛ أن تستسلم لله ، أن تُفَوِّضَ له ، أن تتوكّل عليه ، إذا استسلمت له تولّى الله شأنك ..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 257)

3 ـ احذروا ولاية الشيطان :

لا يزال الشيطان يتولّى أولياءه ، ويغريهم بالمعاصي ، ويورِّطهم بالجرائم إلى أن يصعدوا سُلَّم المشنقة، هذا من عمل الشيطان ، ولا يزال الله سبحانه وتعالى يتولّى أولياءه بالحفظ ، والهداية ، وتنوير القلب ، والإرشاد ، والإسعاد حتى يأخذ بيدهم إلى الجنَّة ، فليس هناك حالٌ ثالثة ، إما أن يكون الرجل وليّاً لله عزَّ وجل ، وإما أن يكون وليّاً للشيطان ، إذا استسلمت لله عزَّ وجل تولّى الله إرشادك ، وحفظك، وهدايتك ، وإسعادك..

(ألا إنَّ أوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون)

ليس للوليّ شيء من هذا :

1 ـ الوليّ لا يملك النفع والضر :

أتلو على مسامعكم بعض الآيات القرآنية التي تصف سيِّد الأنبياء ، وهو النبي عليه الصلاة والسلام ، سيد الأولياء قال الله عنه :

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف)

إذاً لا يحقُّ لمن يدَّعي أنه وليٌّ أياً كان أن يدَّعي أنه يملك النفع والضُر ، يقولون : الولي الفلاني نَظَرَ في فلان فاهتدى ، هذه ليست لأحد ، ولا لرسول الله ، اقرأ قوله تعالى :

(إنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص : من الآية 56)

2 ـ الوليّ لا يسقط عنه التكليف :

الولي الفلاني تجاوز مرحلة التكليف .

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(13))

(سورة الزمر)

سيِّد الأولياء يخاف إن عصى الله عذاب يومٍ عظيم .

3 ـ الوليّ لا يعلم الغيب :

سيد الأولياء لا يعلم الغيب ..

(قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة الأنعام : من الآية 50)

سيِّد الأولياء لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرُراً ، إذا كان سيد الأولياء لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، وإن كان سيد الأولياء لا يعلم الغيب ، وإن كان سيد الأولياء يخاف إن عصى الله عذاب يومٍ عظيم ، فهل يستطيع وليٌّ على وجه الأرض أن يدَّعي خلاف ذلك ؟ هذا هو الحجم الحقيقي ، سُئل الإمام الجنيد رضي الله عنه : " من ولي الله ؟ أهو الذي يطير في الهواء ؟ قال : " لا " ، قالوا : " أهو الذي يمشي على وجه الماء ؟ " ، قال : " لا " ، فقالوا : " من هو ولي الله إذاً ؟ " قال : " هو الذي تجده عند الحلال والحرام " .

حتى إن ولي الله لو قال لك : إني رأيت المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقال لي : كذا وكذا ، فإن كان في هذه الرؤيا تطابق مع الشرع نقبلها منه ، وإلا يثبتُ الشرع ، وتردُّ الرؤيا ، بعد النبي عليه الصلاة والسلام لا يحقُّ لأحدٍ كائناً من كان أن يشرِّع ، وقد قال أبو بكر الصديق : << إنما أنا متَّبعٌ ولست بمُبْتَدِع >> .

العلماء الكبار قالوا : " نحن مُقيَّدون بكتاب الله ، نعم كلنا مقيَّدون ، إذا سمحنا بالشطحات والاجتهادات من دون ضبطٍ من كتاب الله فقد ضاع الدين ، وتلاشت معالمه ، وتخلَّف المسلمون .

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

تعريف الوليّ في الكتاب والسنة :

النبي عليه الصلاة والسلام يُعَرِّف وليّ الله فيقول :

((الذين يُذكَر اللهُ برؤيتهم ، أولياء أمَّتي إذا رُؤوا ذُكِر الله بهم))

[ورد في الأثر]

تقع عينك عليه فتذكر الله سبحانه وتعالى ، هذه علامة .

علامة أخرى كما قال عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ ، وَلا شُهَدَاءَ ، يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى))

[أبو داود عن عمر]

هذا تعريفٌ آخر .

تعريفٌ ثالث :

((هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ ، عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ ، وَلا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا ، فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ ، وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ ، لا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ ، وَلا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ))

[سنن أبي داود عن عمر بن الخطّاب]

مقياسٌ دقيقٌ جداً ، إذا خاف الناس جميعاً لا يخافون ..

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

المصلي لا يخاف ، ولا يحزن ، وقارئ القرآن لا يحزن ، لِمَ الحزن ؟ الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض ، الغني ، القوي ، العزيز ، الرحيم ، السميع ، المجيب ، وهو معك .

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من الآية 38)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَنُ وُدًّا(96))

(سورة مريم)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((لا يحزن قارئ القرآن))

[ورد في الأثر]

من علامات أولياءّ الله أنهم لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، إذاً : ولي الله هو الرجل الذي استسلم لله عزَّ وجل ، حينما استسلم لله عزَّ وجل تولّى الله هدايته ، وإسعاده ، وحفظه ، وما يزال الله سبحانه وتعالى يأخذ بيد وليَّه حتى يدخله الجنَّة ، وحجم وليّ الله لا ينبغي أن يزيد على حجم سيد الأولياء ، فالنبي عليه السلام لا يملك للناس نفعاً ولا ضرَّاً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشورا .

يزعمون مثلاً أن أحد الأولياء توفي أحد تلاميذه ، فقال له : قم ، فقام ، فما هذه الخرافة ؟ إنها خرافة مفضوحة ، وكذلك من خرافاتهم رجل توفي فدخل في القبر ، فجاءه الملكان ، فإذا بشيخه يدفع الملكين من صدرهما ، ويقول لهما : " قوما عنه ، أمثل هذا يُسأل ؟ هذا تلميذي " ، لا ، لا ليس هذا صحيحاً ، بل هذا تخريف وافتراء ، سيد الأولياء لا يملك نفعاً ولا ضراً ، سيد الأولياء لا يعلم الغيب ، سيد الأولياء يخاف إن عصى الله ..

فأحبابنا اختاروا المحبَّة مذهباً وما   خالفوا عن مذهب الحُبِّ شرعنا

***

لئلا تضيع معالم الدين ، كي يكون الدين كما بدأ ناصعاً واضحاً ..

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض]

لا تُعطوا الأولياء حجمًا لا يستحقونه :

هذا هو الدين ، عودوا إلى ينابيعه الأولى ، عودوا إلى كتاب الله ، إلى سنَّة النبي عليه الصلاة والسلام، أما هذه القصص المزعومة ، وهذه الخرافات المفضوحة التي يذكرها بعض الناس عن أولياء الله فهذه ما أنزل الله بها من سلطان .

للولي كرامة هذه لا تُنكر ، أما أن يملك الولي هداية الناس ، نظر إليه فاهتدى ، لِمَ لم ينظر النبي إلى أبي لهب كي يهتدي وهو عمّه ؟ لِمَ لم ينظر لأبي جهل كي يهتدي ؟ ما هو الضلال ؟ هو أن تعطي الإنسان حجماً أكبر من حجمه ، أو أن تُقلّل من حجمه ، أناسٌ أعطوا الأولياء أكبر من حجمهم هداهم الله ، وأناسٌ أعطوا الأولياء أقلَّ من حجمهم هداهم الله عزَّ وجل ..

(ألا إنَّ أوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

في الدنيا لا يخافون .

من علامات المؤمن الصادق أن يقول لك : والله الذي لا إله إلا هو إنني أسعد الناس ، على دخله المحدود ، وعلى بيته الصغير ، وعلى متاعبه الكثيرة ، لأنه سعد بالله عزّ وجل .

مرَّة أخ كريم قال لي : ليس في الأرض من هو أسعد منّي إلا أن يكون أتقى مني ، والله أعجبتني هذه الكلمة ، فهو صادق ، لذلك :

(ألا إنَّ أوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175))

(سورة آل عمران)

الخوف من غير الله من علامات البعد عن الله :

من علامات البعد عن الله الخوف من غير الله ، ومن علامات الشرك الخوف من غير الله ، أنت تقول: لا إله إلا الله ، تقولها مئات المرَّات ، ما معنى لا إله إلا الله ؟ أي أنه لا مسيّر في الكون إلا الله ، أي إليه يرجع الأمر كلُّه ..

(وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة النحل : من الآية 51)

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

(سورة غافر : من الآية 20)

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41))

(سورة الرعد)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ..

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

إذا ابتعد الإنسان عن الله عزَّ وجل ألقى الله الخوف في قلبه فانقلبت حياته جحيماً ، وانقلب غناه فقراً ، فأنت من خوف الفقر في فقر ، وأنت من خوف المرض في مرض ، وتوقُّع المصيبة مصيبة أكبر منها، وما من مرضٍ يفتك بالناس اليوم في بقاع الأرض كالقلق ، وهناك كتابٌ أُلِف في أمريكا عنوانه " دع القلق وابدأ الحياة " ، طُبع منه خمسة ملايين نسخة ، لأن كل الذين اشتروه قلقون ، خائفون ، وجلون ، وكل بلد فيها مجموعة مُقْلِقات ، في هذا البلد القلق من السرطان ، ومن الإيدز ، ومن مرض القلب ، وفي ذاك البلد الفلاني قلق من قائمة مخاوف ، حيثُما توجَّه الإنسان المُعْرِضُ البعيد أكلت قلبه المخاوف، أما الولي فلا خوفٌ عليهم ، لا يخاف ..

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي فأنا في غنى

إذا كان الله معك فمن عليك ؟! ..

(لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

(سورة التوبة)

عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ :

((مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟))

[البخاري ومسلم]

هذا هو الإيمان ..

(لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

أولياء الله لا يحزنون على الدنيا :

لا يحزنون على تركها ، ومن ضيق أفق الإنسان أنه يجد بيته مرتَّباً منظَّماً ، معتنى به ، أموره منظَّمة

، دخله كبير ، صحَّته طيبة ، لكنه يخاف من الموت ، يخاف أن يذهب إلى القبر ، إن كنت مؤمناً فأنت كما قالوا : " الرجل المؤمن يخرج حينما يموت من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما يخرج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا " .. حجم الرحم صغير ، يولد هذا الجنين ، ويكبر ، ويركب الطائرات ، يذهب إلى أمريكا ، يذهب إلى كندا ، يذهب إلى اليابان ، يذهب في نزهة إلى مصيف ، يأتي ويذهب ، يغوص في أعماق البحار ، يصعد إلى القمر ، كم النسبة بين حجم الرحم وحجم الأرض والسماء ؟ قالوا: " إن المؤمن يخرج حينما يموت من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما يخرج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا " .. لذلك :

(وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

على بيت تركه مساحته ثلاثمائة متر ، لأنه أتى جنَّةً عرضها السماوات والأرض ، أو حزين على زوجة .

صحابي جليل ألحَّت عليه زوجته بشيءٍ لم يفعله النبي عليه الصلاة والسلام فلم يستجب لها ، فغضِبَت فقال لها : "اعلمي يا فلانة أن في الجنَّة من الحور العين ما لو أطلَّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أُضَحِّي بكِ من أجلهن أهون من أن أضحي بهنَّ من أجلكِ " ، يأخذ الزوج موقفاً حازماً ..

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا ، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[الترمذي عن أبي هريرة]

مما وصف به النبي الناس في آخر الزمان أن قبلتهم نساؤهم ..

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

من علامات الإيمان الصادق أنك لا تخاف في الدنيا ، ولو لاح شبح الموت ، كأن تكون قد شعرت بألم في الصدر ، أو جاءت جلطة ، وكنت مؤمناً فمرحباً بلقاء الله ، لأن العبد المؤمن إذا مات استراح من عناء الدنيا .

واكربتاه يا أبتِ ، قال : " لا كرب على أبيكِ بعد اليوم غداً نلقى الأحبَّة محمَّداً وصحبه " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

(وَرَحْمَةُ ربك خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(157))

(سورة آل عمران)

من الأموال الطائلة ، من البيوت الفاخرة ، من النساء الجميلات ، من البساتين المُزْدانه ..

(وَرَحْمَةٌ ربك خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(157)وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ(158))

إلى أين أنت ذاهب ؟ إنسان أمسكوا به وجرّوه إلى أمِّه أينبغي أن يبكي ؟! إلى أين أنت ذاهب ؟ إلى بيت أهلك حيث الدفء ، والطعام ، والشراب ، والعطف ، والإكرام ، وكل شيء ..

(ألا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

بالمناسبة : لا يوجد في الدين كما يقول بعضهم : نحن رجال دين ، يجب أن يكون كلٌ منكم وليًّا لله ، أخي هؤلاء أولياء الله ، يجب أن تكون أنت من أولياء الله ، إذا أطعت الله طاعةً تامَّة فأنت من أولياء الله الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ..

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)

الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ

1 - الوليّ آمن بالله وهو مستمر على تقواه إلى الممات :

آمنوا فعل ماض ، عرف الله عزَّ وجل فآمن به ، لكن يتَّقون فعل مضارع ، والمضارع يفيد الاستمرار، أي طوال حياته يتقي الله ، يتقي أن يعصيه ، هذه مرتبة ، يتقي أن ينقطع عنه هذه مرتبة أعلى ، يتقي أن يكون في قلبه سواه ، مرتبة ثالثة ، وعندنا صيام عامَّة الناس عن الطعام والشراب ، وصيام المؤمنين هو صيام الجوارح عن المعاصي ، وصيام الأتقياء وهو صيام القلب عمَّا سوى الله ، فالولي يتقي أن يعصي الله ، ويتقي أن ينقطع عن الله ، ويتقي أن يكون في قلبه غير الله ..

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)

بجهود مستمرَّة ، يبذلون جهوداً كبيرةً لا تنقضي ..

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ)

(سورة السجدة)

تتجافى أي لا يرتاح في نومه بحياته ، يخاف أن يفوته الصبح ، لا يرتاح العصر بنومه لأنه يخاف أن تفوته صلاة العصر ، إذا جلس وسهر ، وتكلّموا في شؤون شتى ، وخاضوا في الدنيا يشعر أن السهرة بلا طعم ، هذا كله كلام فارغ إذا لم يكن هناك ذكر لله عزَّ وجل ، أي أنه إن ضيَّع ساعةً من حياته لم يذكر الله فيها ، فحياته خسارة ..

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)

لكن الله رحيم بالمؤمنين .

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ

(لَهُمُ الْبُشْرَى)

1 - في القرآن والسنة بشرى للمؤمنين :

أول رحمته أنه بعث إليهم نبياً رسولاً ، وأنزل عليه قرآناً فيه بشارةٌ للمؤمنين ..

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة المعارج)

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15)آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16)كَانُوا قَلِيلا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(17)وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(18)وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(19))

(سورة الذاريات)

إذاً : في القرآن الكريم بشائر ، النبي عليه الصلاة والسلام بشَّر المؤمنين بالجنَّة فقال :

((مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ))

[الترمذي عن ابن عمر]

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

أي أن أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام كثيرةٌ جداً وكلُّها فيها بشارات للمؤمن ، والله سبحانه وتعالى أحياناً يتولَّى مباشرةً تبشير المؤمن بالجنَّة عن طريق الرؤيا الصالحة ، فالمؤمن أحياناً يكون مكسور القلب حزيناً ، يحزن على شيء واحد ؛ هو ألا يكون عند الله مرضياً ، هذا سبب حزنه الوحيد ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((الحزانى في كنف الله))

[ورد في الأثر]

((إن الله يحب كل قلبٍ حزين))

[ورد في الأثر]

((الحزانى معرَّضون للرحمة))

[ورد في الأثر]

الذي يغلب عليه الحزن بسبب قلقه حول ما إذا كان الله راضياً عنه أو غير راضٍ ، هذا الإنسان يتولى الله سبحانه وتعالى بشارته برؤيا صالحة ، يرى النبي عليه الصلاة والسلام يناديه باسمه ، يثني عليه ، يصافحه ، وأحياناً يقبّله ، أحياناً يرى سيدنا الصدِّيق في المنام ، أو سيدنا عمر ، هؤلاء الأناس الأكارم الأولياء ، أحياناً يرى مرشده في المنام يبتسم له ، ويهش له ، هذه البشرى ..

(لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)

2 - في القرآن والسنة بشرى للمؤمنين :

ففي الآخرة كيف تكون البشرى ؟ إذا بُعِثَ مَن في القبور بشَّر الله المؤمنين بالجنَّة ، أي أنه بين البعث ودخول الجنَّة هناك مسافة ، لئلا يبقى هؤلاء قلقين تأتيهم البشرى من الله عزَّ وجل فور بعثهم من مراقدهم .

(لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ)

لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ

لا يتخلف وعدُ الله وكلماتُه أبدا :

أي أن زوال الكون أهون عند الله من تبديل كلماته ، كلمات الله الوعد والوعيد والقواعد الثابتة التي جاء بها القرآن ، أي :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

هذه إحدى كلمات الله الثابتات .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل)

أي في الستة آلاف مليون إنسان الذي يسكنون الكرة الأرضية اليوم إذا كان فيهم شخصٌ واحدٌ عمله طيّبٌ ، وكان مستقيماً ، ولم يكن سعيداً لا يكون هذا الكلام قرآناً ، لو أن حالة واحدة من ستة آلاف مليون حالة لم تنطبق على هذا الإنسان فهذا الكلام ليس كلام الله ، لكن :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل)

وإن وجدت واحداً مُعْرِضَاً عن الله عزَّ وجل وهو سعيدٌ بإعراضه فهذه الآية ليست من كتاب الله ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125))

(سورة طه)

هذه الآية من كلمات الله .

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية)

و هذه من كلمات الله ..

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

هل يُعْقَل أن ترى الكافر حكيماً ، رقيقاً ، منصفاً ، متواضعاً ؟ لا يُعْقَل ..

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

هذه من كلمات الله ..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

هذه من كلمات الله .

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة : من الآية 276)

هذه من كلمات الله ..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

هذه من كلمات الله ، أي أن القواعد الثابتة والوعد والوعيد ، كلمات الله تعني تلك القواعد الثابتة التي لا تتبدَّل ، ولا تتغيَّر ، ولا تُعدَّل ، ولا تُعطَّل ، ولا تُغَيَّر ، هذه كلمات الله..

(لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

هذا هو الفوز العظيم ..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(58))

(سورة يونس)

(وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ)

وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ

وقف لازم عند كلمة قولهم ، ولو وصلنا التلاوة لفسد المعنى .

(وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ)

من عرف نفسه ما ضرَّته مقالة الناس فيه :

أي إذا استخفُّوا بك ، أو ردّوا دعوتك ، أو فنَّدوها ، أو اتهموك بالسحر ، أو اتهموك بأنَّ لك مقاصد دنيويَّة ..

(وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ)

من عرف نفسه ما ضرَّته مقالة الناس فيه ..

(وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً)

إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً

سبحانك إنه لا يذلُّ من واليت ولا يعزُّ من عاديت ، العزَّة لله جميعاً..

اجعل لــربِّك كل عزِّك يستقر و يثبت

فإذا اعتززت بمن يموتُ فإنَّ عزَّك ميِّتُ

***

أي أن هؤلاء الذين يدعون من دون الله لا يتَّبعون شركاء حقيقيِّن ، فالله سبحانه وتعالى لا شريك له .

(وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ)

نفعُ الشريك وهمٌ وظنٌّ :

متوهِّم أنه شريك لله ، لكنَّ هذا توهُّمٌ ، وليس حقيقة .

(إِلاَّ يَخْرُصُونَ{66} هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً)

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً

الليل للهدوء والنهار للحركة والنشاط :

الليل بسكونه ، النهار بضيائه ، النشاط والحركة في النهار ، وكسب الرزق في النهار ، وفي الليل سكون ، وهدوء ، وطاعة ، وصلاة ، ومناجاة ، لذلك ..

" إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار ، وإن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل " .

إن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا فرساناً في النهار رُهْباناً في الليل ، وسيدنا عمر رضي الله عنه رأى رجلاً لا يعمل ، يقرأ القرآن في النهار ، فقال : << إنما أُنْزِلَ هذا القرآن ليُعْمَل به ، أفتَّخذت قراءته عملاً ؟ >> ، اقرأه في الفجر :

(إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78))

(سورة الإسراء)

قيمة الرجل ما يُحْسِنه ، يجب أن يكون لك عمل تنفع به المسلمين ، اختصاص تقضي به حاجة المسلمين ..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ{67} قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ)

قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ

1 ـ الولد دليل نقص وعجز :

لماذا يتَّخذ أحدنا ولداً ؟ يرجو ولداً ؟ يتزوَّج من أجل الولد ؟ من أجل أن يكون ابنه استمراراً له ، يقول لك : هذا المال من الذي سيأخذه ، ابني يرثه ، تريد ولداً ليحيا ذكرك من بعد موتك ، هذا معقول لأننا نحن ميتون ..

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ(30))

(سورة الزمر)

أو أنك تريد ولداً يعينك إذا كبرت سنّك ، وشاب شعرك ، وضعف بصرك ، وانحنى ظهرك ، حينئذ تحتاج إلى ولد يعينك .

(سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ)

ربنا سبحانه وتعالى باقٍ على الدوام .

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ)

(سورة القصص)

هو الحي الباقي ..

(مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا(3))

(سورة الجن)

إذاً :

(قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)

إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا

1 ـ السلطان هو الحجَّة :

السلطان هو الحجَّة .

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(11))

(سورة المؤمنون)

السلطان هو الحجَّة ، الحجَّة تعطي صاحبها سلطاناً ، قال النمرود لسيدنا إبراهيم : من ربك؟ قال :

(رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت)

(سورة البقرة)

أعفو عن شخصٍ فأحييه ، وآمر بقتله فأميته ، سيدنا إبراهيم كان فَطِناً ، أدرك أن متابعة النقاش في هذا الموضوع طريق مسدود ، قال :

(فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)

(سورة البقرة)

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام)

2 ـ كلّ مؤمنٍ صادق معه حجَّة على خصمه :

ولكل مؤمنٍ نصيبٌ من هذه الآية .. ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه .. ما من مؤمنٍ صادق إلا ومعه حجَّة يُفْحِمُ بها الخصوم ، ويُهَدِّم بها الباطل ..

(إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا)

أي ما عندكم من سلطانٍ بهذا ، أنتم بدون حجَّة ..

(أتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{68} قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ)

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ

1 ـ افتراء الكذب من أجل الدنيا الزائلة :

أحياناً يكون أناس ضالّون مضلّون يفترون على الله الكذب من أجل الدنيا ، فكم ديانة وثنيَّة موجودة ؟ بجهات التبت والصين كان هناك ديانة ، وهذا الذي كان اسمه .. الداي لاما كان يجبي أموال الناس كلها إليه ، ويعيش في بحبوحةٍ كبيرة والناس جياع ، وهم يؤلّهونه ، هذا الافتراء على الله ، وهذا هو الكذب، كم يستفيد منه ؟ في الدنيا فقط ، إذا جاء الموت دخل إلى النار وبئس المصير ، وإذا دجَّل الإنسان، أو كذب ، أو افترى ، أو سحر ، أو فعل شيئاً خلاف الحق من أجل كسب المال فقط ، فمصيرهم كما قال ربنا عزَّ وجل :

(قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ)

فإذا أفتى الإنسان بشيء لا يرضي الله إرضاء لجهة من الجهات ، وكسب بسببها مالاً كثيراً .. يناله من هذه الجهة .. فهذا المال كم ينفعه ؟ ما دام حيّاً ، فإذا مات انتهى ، شيء دقيق جداً ..

(قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ{69} مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا)

أي أن هذا الذي كسبوه من افترائهم على الله ..

(مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ)

هؤلاء الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، عندما يُسَخّر الإنسان الدين لمصالح شخصيَّة ، أو يوظّف الدين لمنافع دنيويَّة ، أو يَسْكُت عن الحق وينطق بالباطل من أجل دنيا عريضة ، من أجل مال ، من أجل زوجة ، من أجل بيت ، من أجل شيءٍ من حُطام الدنيا ، هذا الذي جناه من افترائه على الله الكذب لا ينفعه إلا في الدنيا ، والدنيا زائلة ، وشيكة التحوُّل ، كل حالٍ يزول ولا يبقى إلا حسابه العسير ..

(قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ{69} مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (14-17): تفسير الآيات 71 – 73
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-12-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

1 ـ موضوعات القرآن :

ذُكر في السورة قصَّتان : القصة الأولى ، وهي قصة سيدنا نوحٍ عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام ، والثانية قصة سيدنا موسى عليه السلام ، قبل الشروع في شرح القصتين لابدَّ من مقدمة .
كتاب الله سبحانه وتعالى الذي بين أيدينا يضم موضوعاتٍ متعددة ، لو تتبعنا هذه الموضوعات لوجدنا في مقدمتها الآيات الكونية الدالة على عظمة الله تعالى ، هذا موضوع ، وهناك آيات التشريع ، وهذا موضوعٌ آخر ، وهناك مشاهد الجنة والنار ، موضوعٌ ثالث ، فلو قسَّمنا آيات القرآن إلى موضوعات لوجدنا أن بعضها يتحدث عن ذات الله سبحانه وتعالى من خلال خلقه ، بعضها يتحدث عن تشريعاتٍ دقيقة كسورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، بعضها ينقلنا إلى الدار الآخرة ، مشاهد الجنة وما فيها من نعيمٍ مقيم ، ومشاهد النار وما فيها من عذابٍ أليم ، وهكذا .

2 ـ القصة أسلوب تعليمي قرآني :

لكن عرض هذه الموضوعات له أشكال ، فمثلاً هذهِ الكأسُ لها شكلٌ وفيها مضمون ، الشكل: هذه الكأس بهذه الخطوط ، أما المضمون فهو ماء ، هذا الماء قد يوضع في كؤوس مختلفة ، ذات أشكال مختلفة ، ربنا سبحانه وتعالى حينما عرض موضوعات القرآن الكريم ، عرضها أيضاً بأشكالٍ مختلفة ، أحد هذه الأشكال السَرْد المُباشر ، ثاني هذه الأشكال المَثَل ، ثالث هذه الأشكال القصة ، فالقصة شكلٌ تعبيري من أشكال الأسلوب القرآني ، والله سبحانه تعالى يقول :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى)

(سورة يوسف : من الآية 111)

فلما يقرأ الإنسان كتاب الله ينبغي أن يعرف ما في السورة من موضوعات ، في هذه السورة موضوع البعث يوم القيامة مثلاً ، وفي تلك السورة موضوع بدء خَلْق الإنسان ، أما هذه السورة ففيها موضوع

الطلاق ، فالموضوعات إذاً متعددة ، لكن الموضوع الواحد يمكن أن يُعْرَضَ بأساليب متعددة ، فالله سبحانه وتعالى قال :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 276)

هذا سردٌ مباشر ، لكنك لو استمعتَ إلى قصة مُرابٍ انتهى ماله في النهاية إلى الزوال والهلاك ، وهذا شكلٌ آخر عُرِضَ به موضوع الربا ، إنه شكل قصصي ، والحقيقة أنك إذا قرأت القصة وجدت متعةً بالغةً في متابعتها ، ولو استمع الإنسان إلى قصةٍ لن ينساها أبداً ، أما لو استمع إلى محاضرةٍ ربما ينسى منها معظم أفكارها ، لأن طريقة عرض المحاضرة طريقة السَرْد المباشر ، أما طريقة القصة فطريقة الحدث والرواية وعرض الشخصيات ، وما شاكل ذلك ، ولو أن أحد كبار النُقَّاد درس ما في القرآن الكريم من قصص لوجد العجب العجاب .

قصةٌ واحدة كقصة سيدنا موسى ، عرضت في كتاب الله سَبْعَ عشرة مرة ، لكل مرةٍ زاوية عُرضت منها ، وفي كل مرةٍ ضَوْءٌ سُلِّطَ على جانبٍ من جوانبها ، فهناك بداية القصة ، وعقدتها ، ونهايتها ، هناك الأحداث ، هناك الشخصيات ، هناك البيئة ، هناك الحوار ، فحينما تدرسون أو تقرؤون قصةً في كتاب الله ، ترون أن هذه القصة قد عرضت بأرفع أسلوب .

اختلاف الناس في التعامل مع القصة :

لكن الذي أريد أن أقوله لكم هو أن الإنسان حينما يقرأ قصةً يفقد خطوط دفاعه ، فكل إنسان له أفكار يؤمن بها ويصدقها ، إذا قرأ قصة ما يمكن أن تتسرب إليه قِيَمُ هذه القصة من دون أن يشعُر ، من هنا كانت عظَمة فائدة القصة وخطورتها في وقتٍ واحد ، فمثلاً قد تقرأ قصة تجد من خلالها أن كاتب القصة أسْبَغَ على إنسان معين صفات البطولة ، من شجاعة ، من ثبات ، من جُرأة ، من تضحية ، من بذل ، فإذا صوَّر لك هذا البطل الإيجابي بأنه يشرب الخمر مثلاً تسرَّب إلى نفس القارئ ، وهذا أخطر ما في القصة أن شُرْبَ الخمر من لوازم البطولة ، لذلك مِثْلُ هذه القصص تدمر جيلاً بكامله .

القصة فكرةٌ مع البرهان عليها :

إذا قرأت قصة أو قصيدةً ، أو عملاً أدبياً وشعرت أنه حرَّك مشاعرك العليا فأنت أمام أدبٍ رفيع ، كما أن القصة سلاحٌ خطيرٌ جداً بيد الجهلة ، أو بيد المارقين مِن الدين ، أو بيد تُجَّار الأدب ، أو بيد من سوَّلت لهم أنفسهم إضلال المجتمع ، القصة في القرآن الكريم حَوَتْ أسلوباً تعبيرياً رائعاً جداً يأخذ

بقلوب القارئين ، فالذي لا يهتدي عن طريق البيان المباشر قد يهتدي عن طريق القصة .

هذا مثلٌ مِن واقعنا : لو أننا جمعنا سائقي السيارات في بلدةٍ ما ، وألقينا عليهم محاضرةً عميقةً جداً عن مضار السرعة ، فهؤلاء السائقون يتأففون ، يتململون ، لا ينتبهون ، يصرون على أنهم قادةٌ مهرة وسائقون يقظون ، فإذا رأى أحد السائقين المتهورين حادثاً مروِّعاً مؤلما ، وقد سالت فيه الدماء ، وبُتِرَت فيه الأعضاء فهذا المنظر يدخل في نفسه إلى المكان الذي يؤثِّر فيه ، ويتعظ ، فالإنسان بالقصة يتعظ ، فأن ترى حادثاً مروعاً بسبب السرعة أبلغ من أن تقرأ كتاباً عن مضار السرعة ، لأن هذا شيء حيوي ، ومثل حي ، لذلك قالوا : " القصة هي فكرةٌ مع البرهان عليها " .

يمكن أن أحدثك عن مُرابٍ كيف تَدَمَّرَ مالُه ، وهذا الحديث أبلغ من أن أقول لك : الربا حرام ، لذلك المُرَبِّي ، المعلم ، الأب في البيت ، يستطيع أن يستغل طاقة القصة التربوية إلى أقصى الحدود ، إذا جلس أب مع أولاده ليحدِّثهم ، وكانوا صغاراً ، حتى ولو كانوا كباراً يستطيع أن يسلك معهم أسلوب القصة ، قصة شاب استقام على أمر الله ، فرفع الله شأنه ، سيدنا يوسف مثلاً ، شاب ، عبدٌ في قصر ، لا يملك من أمره شيئاً ، ماذا فعل ؟ لم يفعل إلا أنه خاف الله رب العالمين ، و :

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(23))

(سورة يوسف)

فكافأه الله أن جعله عزيز مصر ، فأيها الأب ، أيها المعلم ، أيها الموجِّه ، أيُّ إنسان هو في موقع التوجيه ، عندك محل فيه خمسة عمال ، وأنت لك إشراف عليهم ، عندك أسرة ، أنت معلم بمدرسة ، موظف تحت يدك سبعة موظفين ، لك صفة الإشراف ، صفة التوجيه ، فكل إنسان في موقع التوجيه أو الإشراف قد يستخدم القصة كما استخدمها ربنا سبحانه وتعالى ليعظنا بها ، فبالقصة تصل إلى أعمق ما في الإنسان ، وبالقصة تصل إلى مكان التأثير ، فربنا عزَّ وجل في قصة نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآَيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ)

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ

1 ـ القلّة إنْ كانت على حقٍّ فهي المنتصرة :

العجيب أن هذه القصة وردت في أماكن أخرى ، والأعجب من هذا أن أبرز أحداثها وهي السفينة ،

والطوفان ، لم يذكرا هنا إطلاقاً ، كأن الله سبحانه وتعالى سَلَّطَ الضوءَ على الحلقة الأخيرة فيها ، بعض المفسرين قالوا : " هذه القصة تؤكد حقيقةً واحدة ، وهي أن الأقلية إن كانت على حق ، سوف تنتصر على الأكثرية إن كانت على ضلال " ، فلما يؤمن الإنسان بالله ، ويستقيم يرى نفسه أحياناً وحيداً ، فيمكن أن يتواجد بمكان يلتقي فيه بثمانية أشخاص لا يصلّون ، قام وصلى وحده ، يكون في رحلة مع تسعةِ أشخاص شربوا ما حرم الله ، أما هو فقال : لا أشرب ، إني أخاف الله رب العالمين ، أحياناً يرى الإنسان أن أهل الحق قلة قد يخاف ، وإن رأى أهل الباطل كثرة قد يغريه هذا بالانضمام إليهم ، هذه القصة تُسلِّطُ الضوء على هذه الحقيقة ، وهي أنك إذا كنت مع الله مهما كنت ضعيفاً ، ومهما كانت حيلتك ضعيفة ، ومهما كنت معدوم القوى ، أعزل ، فالله سبحانه وتعالى معك ، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله ، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله ، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك .

2 ـ نوح عليه السلام والمؤمنون به ضعفاء مستضعفون :

قوم نوحٍ على كثرتهم ، وعلى قوتهم ، وعلى استعلائهم ، وعلى كفرهم ، وعلى تمرُّدهم ، وعلى استخفافهم ، أغرقهم الله سبحانه وتعالى عن آخرهم ، وسيدنا نوح الذي كان قومه يسخرون منه .

(وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ)

(سورة هود : من الآية 38)

سَخِرُوا مِنْهُ ، ومن بناء السفينة ، حتى إنه قال لابنه :

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ(42)قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ(43))

(سورة هود)

فسيدنا نوح كان ضعيفاً ، والذين آمنوا معه ضعاف ، لذلك سيدنا النبي اللهم صلِّ عليه ، حينما أسلم عدي بن حاتم قال له :

((لَعَلّك يَا عَدِيّ إنّمَا يَمْنَعُك مِنْ دُخُولٍ فِي هَذَا الدّينِ مَا تَرَى مِنْ حَاجَتِهِمْ فَوَاَللّهِ لَيُوشِكَنّ الْمَالُ أَنْ يَفِيضَ فِيهِمْ حَتّى لَا يُوجَدُ مَنْ يَأْخُذُهُ وَلَعَلّك إنّمَا يَمْنَعُك مِنْ دُخُولٍ فِيهِ مَا تَرَى مِنْ كَثْرَةِ عَدُوّهِمْ وَقِلّةِ عَدَدِهِمْ فَوَاَللّهِ لَيُوشِكَنّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْمَرْأَةِ تَخْرُجُ مِنْ الْقَادِسِيّةِ عَلَى بَعِيرِهَا حَتّى تَزُورَ هَذَا الْبَيْتَ لَا تَخَافُ وَلَعَلّك إنّمَا يَمْنَعُك مِنْ دُخُولٍ فِيهِ أَنّك تَرَى أَنّ الْمُلْكَ وَالسّلْطَانَ فِي غَيْرِهِمْ ـ لعل أن يكون هذا أحد الموانع ـ وَايْمُ اللّهِ لَيُوشِكَنّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْقُصُورِ الْبِيضِ مِنْ أَرْضِ بَابِلَ قَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ))

[السيرة النبوية لابن هشام]

فأحياناً الإنسان الضعيف تجده ينكص على عقبيه بسبب عقبات في طريق الإيمان توضع أمامه ، ويجد أن المؤمنين قلة ، وليس في أيديهم شيء ، وهم مستضعفون ، وأعداؤهم كثيرون ، فلا يملكون حيلة ، ولا وسيلة ، ولا شيئاً يظهرون به ، فيا أيها الإنسان ضعيفاً كنت أم قوياً كن مع الحق ولا تبالِ ، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟

النبي عليه الصلاة والسلام أسوة في الثبات على الحق :

ربنا سبحانه وتعالى في مواطن دقيقة جداً يرينا قدرته وتأييده لمن يصمد في وجه التيار ، فقد تعرض النبي الكريم إلى مواقف حرجة ، في الطائف سار على قدميه ثمانين كيلو متراً ، ليلقى عداوةً ، وسخرية ، واستخفافاً ، وكفراً ، وردًّا ، وغير ذلك من الأذى ، ومع هذا بقي ثابتاً على المبدأ ، قال أحدهم : " ألم يبعث الله إلينا رجلاً سواك ؟ " ، فقال عليه الصلاة والسلام : " إن الله ناصر نبيِّه " ، حينما اجتمعت قريش ليثنوه عن دعوته ، عرضوا عليه زواجاً من أجمل امرأةٍ ، عرضوا عليه مالاً ، عرضوا عليه سيادةً ، قال :

((يَا عَمّ ، وَاَللّهِ لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ اللّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ))

[السيرة النبوية لابن هشام]

في معركة أُحُد شُجَّ النبي عليه الصلاة والسلام وانكسرت رباعيته ، وظل صابراً ، محتسباً ، ولم يثنه هذا عن مبدئه .

في الخندق اجتمع عليه العرب كلُّهم ، وجاءوا بجيشٍ لم يُجيَّش في الجزيرة مثله ، عشرة آلاف مقاتل جاءوا ليستأصلوا النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، ليست القضية قضية نصرٍ أو هزيمة ، قضية حياةٍ أو موت ، اليهود نقضوا عهدهم مع النبي ، حتى إن أحدهم قال : " أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته " ، أي دجلٍ هذا ؟ تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، ونحن على وشك الموت بعد ساعات ، على وشك أن نُباد كلياً ، لكن هذا الذي قال هذا الكلام لا يعرف الله ، ربنا عزَّ وجل يعرِّض الإنسانَ أحياناً لمواقف صعبة حتى يمتحن إيمانه ، سيدنا موسى حينما كان فارّاً من فرعون وقومه ، لما دنا من البحر قال أصحاب موسى :

(إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ(62))

(سورة الشعراء)

فهذه القصة تتحدث عن قومٍ بأكملهم ، أمةٍ بأكملها ، كفروا ، وكذبوا ، واستخفوا ، واستعلوا ، والنبي الكريم مع أصحابٍ قِلَّة كانوا على الحق ، لمن كانت الغلبة في النهاية ؟ ولمن كان النصر ؟ له

ولأتباعه، إذاً أنت حينما تؤمن بالله عزّ وجل اعرف مع من تتعامل ؟ مع خالق الكون ، مع الذي بيده ملكوت كل شيء ، مع مَن :

(رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ)

(سورة الرعد : من الآية 2)

مع من :

(إِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود : من الآية 123)

مع الذي لا يقع شيءٌ في الكون إلا بإذنه ، مع الذي بيده حياة كل مخلوق ، أنت تتعامل مع الإله الحق ، فإذا استقمت على أمره ، إذا أحببته ، إذا أخلصت له ، إذا عملت الصالحات إرضاءً له ، هنيئاً لك في الدنيا والآخرة ، فالموضوع ليس موضوع أنْ آمِن ، أؤمن أو لا أؤمن ، الموضوع حياة أو موت ، سعادة أو شقاء ، صعود أو هبوط ، خلود في نعيمٍ مقيم أو في عذابٍ أليم .

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ)

إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ

1 ـ ثقة نوح عليه السلام بربّه :

معنى كَبُرَ عليكم بمعنى ثَقُلَ عليكم ، أي أن دعوتي إلى الله تضايقتم منها ، ضِقْتُم ذرعاً بها ، لم تحتملوها ، إن كان كذلك فعلى الله توكّلت ، أي افعلوا ما تشاءون ، فكأن الله سبحانه وتعالى يعرض علينا أعلى مستوى من الثقة بالله عزّ وجل ، أي افعلوا ما شئتم .

من سحرة لفرعون إلى مؤمنين بموسى :

إنّ فرعون لما استقدم السحرة من أطراف البلاد ، بل إنه استقدم مهرة السحرة ، ووعدهم بمناصب عليا إن هم أعانوه على دحض دعوة سيدنا موسى ، فقالوا :

(أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ(41)قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ(42))

(سورة الشعراء)

فكان هناك إغراء كبير جداً ، فجاء سيدنا موسى :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ(107))

(سورة الأعراف)

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120)قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121)رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122))

(سورة الأعراف)

إيمانهم نزلَ على فرعون كالصاعقة ..

(قَالَ فِرْعَوْنُ آَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(123)لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ(124))

(سورة الأعراف)

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

هذا هو الإيمان ، المؤمن الحق لا تأخذه في الله لو لائم ، المؤمن الحق لا يخاف إلا الله ، أتخشون الناس ، والله أحق أن تخشوه ، لكن من هذا الذي يستطيع ألّا يخاف وهو لا يعرف الله سبحانه وتعالى ؟

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

هذا المصلي لا يخاف ولا يبخل ، والتِبْرُ عنده كالتُراب .

إذاً :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي)

2 ـ إذا أردتَ أن تعرف مقامك فانظر فيما أقامك :

فهذا المقام ، لو أن واحداً أقامه الله في مقام فلينظر في مقامه متفحصاً ، فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما أقامك .. كلمةٌ موجزة إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما أقامك ، هل عملك الذي تعيش منه يعود بالخير على الناس أم بالأذى ؟ إن كان يعود بالأذى على الناس فهذا شر مقام ، وفي الأثر : " الخير بيدي ، والشر بيدي ، فطوبى لمن قدَّرتُ على يده الخير ، والويل لمن قدرتُ على يده الشر " .

إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك ، فإذا كان الإنسان في عمله عطاء للناس وفيه خدمة ، فهذا من دواعي السعادة ، وإذا كان عمله مبنياً على سَلْب أموال الناس ، وعلى بَثِّ الرُعب فيهم ، وعلى ظلمٍ ، فهذا مِن دواعي الشقاء ، كل إنسان له مقام ، أحياناً الإنسان يعيش من مصلحة دنيئة ، من مصلحة فيها معصية ، من طريقة في التعامل مع أناس فاسقين ، فلو أن أحداً مثلاً فتح ملهى ، وباع فيه الخمر ، وباع فيه اللذَّة ، وجمَّع ملايين ، هذا بنى رزقه على شقاء الناس ..

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة : من الآية 191)

احذر الفتنة فإنها أشد من القتل :

لأن هذا الذي يَقتل قد يموت شهيداً ، أما الذي يَفْتِنُ الناس فإلى جهنم وبئس المصير ، فهذه الكلمة يجب أن نعرف بالضبط حدودها ، كل إنسان يمتحن مقامه ، ألك عند الله مقام ؟ هذا المقام محبب ، إذا جعلك في خدمة الخلق ، المقام غير محبب يعني أنه جعل تأديب الخلق على يديك ، فالإنسان قبل أن يوافق على عملٍ ما يجب أن يعد للمليون ، هل في هذا العمل أذى للمسلمين ؟ هل فيه ضرر ؟ هل فيه شيء يتعبهم ؟ أم أن فيه نفعاً للمسلمين ؟ يمكن أن يقوم إنسان مقاماً يبيع حاجاتٍ تفسد حياة الناس ، تفسد عقائدهم ، تفسد إيمانهم ، تفسد وجهتهم إلى الله عزَّ وجل ، قبل أن تقبل عملاً ما عُدَّ للمليون ، أي ابحث، هل في العمل وجه حرام ، أله مؤدَّى حرام ؟ له آثار محرمة ؟ له أسباب محرمة ؟ لأنه لما يكون عمل الإنسان نظيفاً وبيته نظيفاً فأغلب الظن أنه يسعد ، أغلب الظن أن العقبات الأخرى تغدو ثانوية جداً ، ما دام العمل نظيفاً وبيتك نظيفاً فلا أي مشكلة ، أما إذا كانت الزوجة فاسقة ، أي غير منضبطة ، فهذه تسبب شقاء لا ينتهي ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إياكم وخضراء الدِمَن ، قالوا : وما خضراء الدِمَن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء))

[كنز العمال]

شيئان لاصقان في الإنسان : عملك وزواجك ، فإيَّاك أن تتسرع في موافقتك على الزواج من امرأةٍ ما، قد تكون شريرة ، قد تكون فاسقة ، قد تكون نبتت نباتاً سيِّئاً ، وقد تكون نشأت في بيئةٍ سيئة ، دنيئة ، لذلك : النبي عليه الصلاة والسلام حذَّرنا من المرأة الحسناء التي نشأت في منبتٍ سيئ ، فأنا علقت هذا التعليق على كلمة مقامي ، فكل إنسان يعرف ما مقامه عند الله .

هناك قول آخر : " إذا أردت أن تعرف مالك عند الله فانظر ما لله عندك " .

المقام المحمود للنبي ، ولكل مؤمن مقام عند الله :

وفي آية أخرى :

(وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79))

(سورة الإسراء)

هذا المقام المحمود ، هو مقام أوحد لا ينبغي إلا لرسول الله صلّى الله عليه وسلم :

((سَلُوا لِيَ الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، وَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ))

[من سنن الترمذي عن عبد الله بن عمرو]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ ، وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[البخاري]

هذا أعلى مقام ، لكن لا يمنع هذا من أن يكون لكل مؤمن عند الله مقام ، أنت دعوت الناس إلى الله فَهَدَيْتَ ثلاثةً منهم ، مقامك قوته ثلاثة ، هديت خمسة ، فمقامك قوته خمسة ، وإذا كانوا مائة تضاعف مقامك إلى مائة ، أو إلى ألف ، سيدنا عمر قال : << ما أنا إلا حسنة من حسنات أبي بكر >> ، كل حجم سيدنا عمر حسنة من حسنات سيدنا أبي بكر ، قال عليه الصلاة والسلام :

((لو وزن إيمان الخلق مع إيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر))

[ورد في الأثر]

قال :

((ما ساءني قطْ))

[ورد في الأثر]

و قال عليه الصلاة والسلام :

((أعطاني ماله ، وزوجني ابنته ، ولا ساءني قط ، فاعرفوا له ذلك))

[ورد في الأثر]

قال :

((تسابقت أنا وأبو بكر فكنا كهاتين))

[ورد في الأثر]

هذه أعلى شهادة لسيدنا الصديق رضي الله عنه ، قال :

((ما صُبَّ في صدري شيء إلا وصببته في صدر أبي بكر))

[ورد في الأثر]

ما صُبَّ في صدري شيء من تجليات ، من علم ، من رَحَمات ، إلا وصببته في صدر أبي بكر ..

((لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ))

[البخاري عن أبي سعيد الخدري]

قرأت هذا الحديث الشريف في بعض زوايا الحرم النبوي الشريف فاقشعر جسمي .

العمل الشريف مقام كبير عند الله والناس :

ابن مسعود رضي الله عنه صافحه النبي عليه الصلاة والسلام ذات مرةً ، فرأى يده خشنة .. إذا كان أحدنا عمله بالحديد أو بالنجارة تجد يده خشنة ، أما إذا كان يعمل في الحرير فيده ناعمة .. وكان بيد ابن مسعود جرحٌ من عمل يده ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام :

((إن هذه اليد لا تمسُّها النار))

[ورد في الأثر]

هذا تقديس للعمل ، لا تكن عالة على أحد .

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى))

[البخاري عن حكيم بن حزام]

((لأنْ يَحْمِلَ الرَّجُلُ حَبْلا فَيَحْتَطِبَ بِهِ ، ثُمَّ يَجِيءَ فَيَضَعَهُ فِي السُّوقِ فَيَبِيعَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْنِيَ بِهِ فَيُنْفِقهُ عَلَى نَفْسِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ))

[أحمد عن الزبير بن العوام]

قيمة المرء ما يحسنه ، وقد قال عمر : << إني إذا سمعت أن الرجل لا عمل له سقط من عيني >> . الصحابة الكرام رأوا رجلاً قُبَيْل الشمس يغدو خارجاً من بيته ، فاتهمه بعضهم بحب الدنيا ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : " إن كان خرج في هذا الوقت ليسعى على عياله فهو في سبيل الله " .

[ورد في الأثر]

وقال عليه الصلاة والسلام :

((من بات كالاً في طلب الحلال بات مغفوراً له))

[ورد في الأثر]

ولحكمةٍ بالغة جعل الله سبحانه وتعالى الرزق الحلال صعبٌ ، وجعل الرزق الحرام سهلٌ ، وتعرفون أنتم تفصيل هذا الكلام ، من أجل أن تكسب رزقاً حلالاً صحيحاً مائة في المائة لابدَّ من أن تبذل جهداً كبيراً ، وإذا اخترت الطريق غير المشروع فربما قبضت في يومٍ واحد ما لا تأخذه في سنة بشكلٍ غير مشروع ، فلذلك قدَّس النبي الكريم العمل ، رفع من شأن الذي يكسب قوت يومه ، قال :

((لا تسألوا الناس شيئاً))

[ورد في الأثر]

سيدنا أبو بكر كان يركب ناقته ، وكان خليفة رسول الله .. أي قمة المجتمع .. وقع زمام الناقة ، وحوله أصحابه ، فنزل من على الناقة ليأخذ زمام الناقة ، فعجب أصحابه وقالوا : " نكفيك ذلك " قال : << لا ، أمرني حبيبي ألا نسأل الناس شيئاً >> .

((... وَلا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ))

[من مسند أحمد عن أبي كبشة]

قيمة المرء ما يحسنه .

يجب أن يكون لك عمل تعيش منه من أجل أن تضرب للناس مثلاً أعلى في البذل والعطاء .

سيدنا رسول الله أول ما نشأ أخذ مال خديجة وتاجر به ، وقال علماء الفقه : هذه أولُ شركةِ مضاربةٍ في الإسلام ، هي بمالها وهو بجهده ، وكان راعياً ، ولما يتقن الإنسان عمله تطمئن نفسه ، ويكون دخله حلالاً ، وأنا أقول لكم : إتقان العمل جزءٌ من الدين ، لا يتجزَّأ .

((إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند صحيح]

إنما أهلك الصُنَّاع

(الصَنَعَة)

قول غدٍ وبعد غدٍ .

إتقان العمل ، وتنفيذه في وقته المضروب جزءٌ أساسيٌ من دين الإسلام ، ويحسب الجهلة أن الدين بالصلاة والصوم فقط ، لا والله ، الدين في إتقان عملك ، الدين في إنجازه في الوقت المحدد ، الدين في الصدق ، الدين في المعاملة ، الدين في الورع ، الدين في خدمة الناس .

((الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[الطبراني عن أنس ، وفي سنده ضعف]

وربنا عزَّ وجل بالمرصاد يحاسب كلاً على عمله .

دخل شخص له سيارة فيها عطل على خبير بهذا العطل ، طلب منه الخبير عشرة آلاف ليرة ، صاحب السيارة لا دراية له بتصليح السيارات فرضي بهذا المبلغ ، فلما خرج قال هذا الرجل الغاش لجاره : هكذا الربح ، هكذا البيع والشراء ، هكذا المُشارطة ، قال له جاره : حرامٌ عليك ، سعرٌ فاحشٌ جداً ، قال: هو لا يعلم ، ابن هذا الرجل يعمل في مخرطة دخلت نثرة فولاذٍ في عينه فكلفته عشرة آلاف ليرة في اليوم التالي ، قال رجل عاصٍ : " يا رب لقد عصيتك ، ولم تعاقبني ، قال له : عبدي ، لقد عاقبتك ولم تَدْرِ " ، كله محسوب .

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

فلذلك الإنسان لما يتعامل مع الناس عليه أن يضع خوف الله بين عينيه ، فإذا خاف الله في تعامله مع الناس لن يبعث الله له أحداً يخيفه ، أما إذا استغلهم ، استغل حاجتهم ، رفع السعر ، أعطاهم بضاعة مغشوشة فإن ربك بالمرصاد .

أعطى صيدلي دواءً منتهياً مفعوله ، محل التاريخ ستة وثمانين ، مسحه أو حكه ، انتهى مفعوله ، باعه، بعتَ شيئاً فاسداً ، بعت شيئاً على أنه تصنيع هذه الدولة ، وهو تصنيع دولة أخرى ، هذا كله غش.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا ، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ ؟ قَالَ : أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي))

[مسلم]

على كلٍ ، كلمة مقام :

(إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي)

3 ـ التطبيق العملي لهذه الآية :

التطبيق العملي لهذه الآية فيه اختيار لكل واحد منا ليمتحن مقامه عند الله ، ألك مقام ؟ فإذا وقفت بالبيت لتصلي هل تحسُّ بصلة بالله ؟ هل تنهمر من عينيك الدموع ؟ هل يقشعر جلدك لخشية الله ؟ ألك مكانة ، هل تحس أنك غالٍ على الله عزَّ وجل ؟ هل تحس أنك بأعيننا ؟ .

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

هل تحس أن الله يدافع عنك ؟ هل تحس أن الله ينصرك ؟ هل تحس أن الله معك حيثما تحركت ؟ هل تحس أن الله يلهمك ؟ يسدد خطاك ؟ هذا هو المقام ، فكل واحد منا له مقام بحسب عمله ، وإذا أردتم تفصيلاً لذلك فعندنا في القرآن آيتان :

(وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79))

(سورة الإسراء)

هذه صلاة الليل تسبب رفع المقام ، هذه واحدة .

الآية الثانية :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام : من الآية 132)

كل إنسان له عند الله درجة بحسب عمله .

(إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ)

افعلوا ما بدا لكم ، افعلوا ما شئتم ، كان واثقاً من نفسه إلى أبعد الحدود ، واثقاً من طهارة قلبه ، قال :

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة النمل : من الآية 79)

لماذا ؟ قال :

(إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

من دواعي التوكل على الله أنك على الحق المبين ؟

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ)

فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً

1 ـ معنى : فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ

أي جنّدوا كل طاقاتكم ، وارسموا خططاً أنتم ومن معكم ..

(وَشُرَكَاءَكُمْ)

(فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً)

2 ـ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً

كلمة الغَم من معانيها المادية الستر ..

((فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ))

[متفق عليه]

معنى غمَّ عليكم ، أي كان هناك سحابٌ يحجب القمر .

وأحياناً الغَم هو ضيق النفس ، وهناك علماء وفّقوا بين المعنيين ، الغم هو الستر ، والغم هو ضيق النفس ، إذا الإنسان وقع في ورطة ولم ير حلاً لها ، يُصاب بضيق النفس ، فالاتصال بين المعنى المادي وهو الستر ، والمعنى المجازي وهو ضيق النفس أن الإنسان إذا وقع في مشكلةٍ عويصة ليس لها حل يفكر في مخرج فلا يجد ، إذا سدت عليها المخارج ، أي لم ير مخرجاً ضاقت نفسه ، فهذه الآية حملت على معنيين ..

(إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً)

أي لا تفعلوا شيئاً بالسِّر ، اكشفوا عن نياتكم ، فأنا لا أخاف منكم ، صَرِّحوا بذلك ، أعلنوا ذلك ، هذا منتهى الثقة بالله عزَّ وجل ، منتهى الثقة بأن الأمر كلَّه بيد الله ..

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

(سورة غافر : من الآية 20)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف : من الآية 54)

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد : من الآية 41)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ)

خططوا ونَفِّذوا ولا تنتظروا ، ولا تأخذكم بي شفقة ، ولا يأخذكم بي عطف ، ولا تخفوا عني شيئاً ، افعلوا ما بدا لكم تحت ضوء الشمس ، النبي الكريم قال :

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

كن واضحاً ، كن صريحاً ، لا تُخْفِ شيئاً ، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً ، قال رجل لسيدنا عمر : " هل تحبني ؟ " قال له : " والله لا أحبك " .. بصراحة .. قال له : " هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي ؟ " قال له : " لا والله " ، فالمحبة شيء ، وأن يصل حقك إليك شيءٌ آخر .

إذاً :

(إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ)

من القراءات قراءة فاجمعوا أمركم ، تعني أجْمَعْتُ صِدْقَهُ ، أي عزمت على صدقه .

(فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ)

وأمر شركائكم ، تعاونوا جميعاً على إيقاع الأذى بي ، تعاونوا جميعاً أنتم وشركاؤكم ..

(ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ)

(ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً)

لا تأخذكم بي شفقة ، لا تستتروا ، لا تحسوا بالضيق بما تفعلون ، افعلوا .

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ)

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّه

أيْ لم تؤمنوا بي ، لم تصدقوني ، لم تأخذوا بكلامي ، لم تقدروا هذه الدعوة ..

(فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ)

1 ـ الداعي إلى الله لا يسأل الناس أجرًا :

مثلاً : لو أنني أتقاضى على توجيهكم أجراً باهظاً ، وأعرضتم عني فإنه يأتيني ضيق لقلة الرزق ، كطالب يأخذ درسا عند أستاذه ، كل ساعة بمائتين وخمسين ليرة ، الخميس لم يأت هذا الطالب ؛ فيتضايق الأستاذ ، خسر مائتين وخمسين ليرة ، لمَّا يبلغه أنَّ الطالب لا يريد أن يكمل دروسه عند الأستاذ ، وانتهى حضوره ينزعج أكثر ، يقول : لعله مريض اليوم ، أما الطالب فيقول : لا أريد الدروس نهائياً ، يتضاعف ألمه ، فهذا النبي الكريم ، وهؤلاء الدعاة الصادقون ماذا يأخذون منكم ؟ .. إن آمنتم فلكم وإن أعرضتم فعليكم .. الذي تدفعه اقطعه .

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ)

2 ـ لا تبتغ الأجر إلا من الله :

لو أنني أسألكم أجراً لفُسِّرَ قلقي عليكم قلقاً على الأجر أن يضيع .

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ(72)فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ)

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ

قصة وعبرة :

يروون قصة قد تكون رمزية ، ومغزاها أن امرأة آمنت بسيدنا نوح ، وحينما علمت أن هناك طوفاناً كبيراً يعم المنطقة ، ولن ينجو أحدٌ منه رَجَتْه بإلحاحٍ أن يذكرها قبل الطوفان حتى تركب معه السفينة ، تروي هذه القصة الرمزية أن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام وهو في السفينة والموج كالجبال ، وقد تم إهلاك كل الناس عدا مَن في السفينة تذكر المرأة ، فأسِفَ أشد الأسف ، وتألم جداً لأنه نسيها ، فلما انتهى الطوفان .

(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(44))

(سورة هود)

الله ينجي المؤمنين :

جاءت هذه المرأة إلى سيدنا نوح فقالت له : " يا نوح متى الطوفان ؟ " ، أي أن الله عزَّ وجل لا ينسى أحداً ، لا تخف فالإنسان ينسى ، أما الله فلا ينسى ، إذا كنت معه ينجيك ، فلو أن الله سبحانه وتعالى قرر إهلاك ستة آلاف مليون إنسان عدا واحد ينجو بقدرة الله ، بمعجزة منه سبحانه .

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

فأنا الذي أراه أن الذي يثبِّت المؤمن على الحق هو الله ، غير أن الحق منطقي ، والحق يلبي كل حاجات فكره ، وغير أن الحق يعطي تفسيراً متكاملاً للحياة ، نعم تفسيراً متكاملاً ، يفسِّر الحياة ، وما بعد الحياة ، الموت ، وما بعد الموت ، طبيعة العمل الصالح ، الأسرة ، فضلاً عن أن الحق يُعْطي تفسيراً شافياً ، كاملاً ، متماسكاً ، صحيحاً ، وفضلاً عن أن الحق يلبِّي حاجة الفكر البشري ، وفضلاً عن أن الحق منطق وواقعي ، الذي يثبِّت المؤمن على الحق أن الله سبحانه وتعالى يعامله بعد توبته معاملة جديدة ، يوفّقه ، يقول لك أحدهم : كان بيتي جحيماً فصار نعيماً ، كنت أشكو من عللٍ كثيرة فشفاني الله منها ، كان عملي صعباً فصار سهلاً ، كانت نفسي تزيغ في الطريق فتوحَّدت وجهتها ، كان لي مع زوجتي كل يوم مشكلة فأصبحت زوجتي مثالية ، وأصبحنا زوجين سعيدين ، هذا كله بفضل الحق ، فلما يتوب الإنسان توبة نصوحاً يعامله ربنا عزَّ وجل معاملة خاصة ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد : من الآية 11)

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ(72)فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ(73))

النتيجة : فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ

فالإنسان يكون مع الأقلية المؤمنة لا مع الأكثرية الفاسقة ، الكلمة الوحيدة الآن : يا أخي الناس كلهم هكذا ينقسمون إلى فريقين ، هل أنت وحدك جيد ؟ كن مع الأقلية المؤمنة لا مع الأكثرية الفاسقة .

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 116)

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا)

حقيقة قالها علماء التفسير : أن الله سبحانه وتعالى حينما قال :

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

لا يهلك الله قوما إلا بعد إنذارهم :

لِمَ لمْ يقل : فانظر كيف كانت عاقبة المكذبين ؟ وقالها في آيات أخرى ، استنبط العلماء أن الله سبحانه وتعالى لا يهلك قوماً إلا بعد أن ينذرهم ..

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

بعد الإنذار يأتي الهلاك ، وهذا الشيء المنطقي ، يُروى أن سيدنا عمر جاءوا إليه برجل قد سرق ، فقال : " والله يا أمير المؤمنين هذه المرة الأولى " ، قال : " كذبت إن الله لا يفضح من أول مرة " ، فلما أجرى تحقيقاً معه كانت هي المرة الثامنة ، إن الله لا يفضح من أول مرة ، الله رحيم ، الإنسان يغلط ، الله يعطيه مهلة .

علمت أن إنساناً كان يركب سيارته أصيب بأزمة قلبية وهو يقودها ، أول عمل بعد أن أفاق من النوبة القلبية طلب مسجلة حتى يصرِّح أن المحل الفلاني ليس له وحده ، بل له ولإخوته جميعاً ، وإخوته فرحوا بذلك ، لأن هذا الاغتصاب قد انتهى ، بعد أن صحا وانتعش وذهب إلى البيت ، وأزيحت عنه هذه الأزمة ، وعاد إلى ممارسة عمله التجاري ، أنكر حقهم في ذلك ، وطوَّب المحل التجاري باسمه الشخصي ، وبعد ثمانية أشهر مات ، فقلت في تحليل هذه القصة : سبحان الله ! إنَّ الله عزَّ وجل أعطاه فرصة ، هذه الأزمة الأولى فرصة ليتوب ، الهلاك يكون بعد الإنذار دائماً ، الإنذار أولاً ، ثم الهلاك ثانياً ، فلما يرى الإنسان مناماً مخيفاً ، يكون له عمل منحرف ، ماله حرام ، إنه معتدٍ ، ظالم ، فيه انحراف ، إثم ، وفجور ، فحشاء ، رأى مناماً مخيفاً جداً ، عليه أن يأخذ بهذا المنام ، وأن يَحْمِلَهُ على محمل الجد ، وإلا فسوف يقع .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (15-17): تفسير الآيات 74 – 82
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-12-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، بعد أن وردت قصَّة سيدنا نوح عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام ، وكيف أنَّ قومه كذَّبوه فأغرقهم الله قال الله سبحانه وتعالى :

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

1 ـ إرسال الرسل دليل على رحمة الله بالعباد :

الحقيقة أنَّ خلق السماوات والأرض يدلُّ على أسماء الله الحُسنى ، ومن بين هذه الأسماء الحُسنى قوَّته ، وغناه ، وعلمه ، وحكمته ، وإرسال المُرسلين إلى البشر يدلُّ على رحمته بالعباد ، فمثلاً أبٌ إن كان له ابنٌ شاردٌ لا يدَّخِرُ وسعاً في نصحه وإرشاده صباح مساء ، ليلا ونهارا ، فإرسال الأنبياء والمرسلين إلى البشر دليل رحمة الله سبحانه وتعالى ..

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ)

أي :

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7))

(سورة الرعد)

2 ـ لكل قوم نبي يهديهم بطريقته :

وبعضهم فهم هذه الآية فهماً موسَّعاً ، لكل إنسان طريقةٌ يهتدي بها ؛ هذا يهتدي بالإقناع ، وهذا يهتدي بالتضييق ، وهذا يهتدي بالخَوْف ، وهذا يهتدي بمصيبةٌ تصيب ماله ، وهذا يهتدي بالمرض :

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7))

(سورة الرعد)

ولكل قومٍ رجلٌ يدعوهم إلى الطريق الصحيح ، الشيخ محي الدين يقول :

لكل عصرٍ واحدٌ يسمو به وأنا لـهذا العصرِ ذاك الأوحدُ

***

إذاً :

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

3 ـ من سمات دعوة الأنبياء الوضوح :

أي أن الشيء البارز في دعوة الأنبياء الوضوح ، قال عليه الصلاة والسلام :

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 83)

و ما اتخذ الله وليًّا جاهلاً لو اتخذه لعلَّمه .

((إن الله عالِمٌ يحبُّ كل عالِم))

[ورد في الأثر]

من سمات دعوة الأنبياء البارزة الوضوح ، الأمور واضحة جداً ، هناك تفسيرٌ كاملٌ للكون ، تفسير للحياة ، للموت ، للبعث من بعد الموت ، لما قبل الحياة ، لما بعد الحياة ، تفسير للعمل ، تفسير لكل شيء ، الأنبياء يقدِّمون تفسيراتٍ متكاملة لكل مظاهر الحياة ، بينما النظريَّات الأخرى تقدِّم تفسيرات مجتزأة ، مبتورة ، ناقصة ، غير كاملة ، لا تشفي الغليل ، الحق يثبت والباطل يبطُل أي يزول ..

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

لأن هذه النظريَّة الوضعيَّة ليست مستندة إلى أساسٍ متين ، لذلك لا تقف على قدميها ، تتلاشى سريعاً ، تتداعى سريعاً ..

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

4 ـ البينات هي المعجزات :

بعضهم فسَّر البينات بالمعجزات ، والمعجزة دليلٌ قاطع على أن هذا الإنسان مرسلٌ عند الله ، لأن إحياء الميت لا يستطيعه أحد من بني البشر ، فإذا أحيا سيدنا عيسى ميّتاً فهذا بإذن الله ، إذاً هو رسول الله ، أن تنقلب العصا إلى ثعبانٍ مبين هذا لا يستطيعه بشر ، لابدَّ من أن هذا الذي فعل ذلك هو رسول

الله ، الذي جعل البحر طريقاً يبساً هذا ينبغي أن يكون رسول الله ، الذي جاء بهذا التشريع المُعْجِز الذي لم يغادر صغيرةً ولا كبيرة هذا أيضاً رسول الله ..

(فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

إذاً بعض تفسيرات البيِّنات المعجزات التي أيَّد الله بها أنبياءه .

5 ـ البينات هي الحجج القاطعة :

وبعضهم قال يضيف إلى هذا المعنى : " البينات هي الحجج القاطعة " ، كيف يُقال : إن محمداً سحر أصحابه ، بماذا سحرهم ؟ بالمنطق ، بالحق الذي لا يُرَدُّ عليه ، ماذا قال بعض الأعراب ؟ قالوا : " والله ما قال النبي شيئاً وقال العقل خلاف ذلك " ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((قِوام الرجل عقله ، ومن لا عقل له لا دين له ، ومن لا دين له لا عقل له))

[ورد في الأثر]

((وتبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً ، إن الرجلين ليستوي عملهما وبرُّهما وصومهما وصلاتهما ، ويختلفان في العقل كالذرَّة جنب أحُد))

[ورد في الأثر]

عندما خلق الله العقل قال له :

((أقبِلْ فأقبَلْ ، ثم قال له : أدْبِر ، فأدْبَر ، فقال : وعزَّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبَّ إليَّ منك بك أعطي وبك آخذ))

[ورد في الأثر]

فإذا استخدم الإنسان عقله استخداماً صحيحاً لحظة واحدة ، وأجرى محاكمةً منطقيَّة سَعِدَ إلى الأبد ، فإذا عطَّل عقله أو أساء استخدامه شقي إلى الأبد ، مناط السعادة والشقاء .. بك أعطي ، وبك آخذ .. فاستخدام العقل بشكلٍ صحيح مناط السعادة ، ومناط الشقاء تعطيله أو إساءة استخدامه ..

(فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

6 ـ المؤمن له من هذه الآية نصيب :

المؤمن له من هذه الآية نصيب ..

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 83)

مؤمن ، مخلص ، صادق معه حجَّة ، ويمشي على بيّنة ..

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : من الآية 108)

علامة المتبع لرسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه يدعوك على بصيرة ، الأمور عنده واضحة تماماً ..

(فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ)

فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ

التكذيب صفة للأمم الكافرة قديما وحديثا :

لهذه الآية مجموعة تفسيرات ، أوجه هذه التفسيرات : أن الكفر هو هُو ، قديماً وحديثاً ، كل أمةٍ كفرت بربها لها موقفٌ من الحق ثابت هو التكذيب ، التكذيب في الأمم جميعاً مهما اختلفت عصورها وأمصارها..

(فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا)

هذه الصيغة أشدُّ أنواع النفي ، لا تنفي الحَدَث إنما تنفي الشأن ، قلت هذا كثيراً سابقاً : إذا قلت : فلان لم يسرق فأنت بهذا نفيت عنه الحدث ، أما إذا قلتَ : فلان ما كان له أن يسرق نفيتَ عنه إمكانيَّة السرقة، فهذا الذي يغرق في بحر شهواته ، وينغمس في الباطل ، ويعتدي، ويطغى ما كان له أن يؤمن ، فإذا أمضى الإنسان كل وقته في الملاهي ما كان له أن يكون طبيباً ، لا ننفي عنه حيازته لهذه الشهادة بل ننفي عنه إمكانيَّة أن يكون طبيباً ، هذا تقريب للواقع ، فهؤلاء الأقوام :

(فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ)

هذا الذي كذَّب به أسلافهم هم سيكذِّبون به ، ولم يؤمنوا ولن يؤمنوا لأن إمكانيَّة الإيمان وهم على ما هم عليه معدومة ، كأن تنظر إلى إنسانٍ غارق في ملذاته وفي شهواته ثم يقول لك : سأكون مهندساً ، تقول له : ما كان لك أن تكون مهندساً ، إنَّك في وادٍ والعلم في وادٍ آخر ، فهذا النفي المراد منه أشدُّ أنواع النفي ، المبالغة في النفي ..

(فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

1 ـ الطبع على القلب نتيجة لكسب الإنسان :

أي أن الإنسان أحياناً لضيقٍ في أفقه أو لسرعةٍ في فهمه يظنُّ أن الله سبحانه وتعالى ختم على هذا القلب فلا يهتدي أبداً ، يقول لك : الأمر بيد الله ، فعلاً بيد الله هذه كلمة حق ، لكن إذا قلت في مَعْرِض الهداية ، إذا اعتذرت بعدم هدايتك أن الأمر بيد الله فهذه كلمة حقٍّ أريد بها باطلٍ ، أودُّ أن أضرب لكم بعض الأمثلة : فإذا دخلت إلى بيت صديقٍ لك يحمل الدكتوراه ، وهذه الشهادة معلَّقةٌ على الحائط ، فقرأتها فإذا فيها : " لقد منح مجلس الجامعة فلاناً الفلاني درجة الدكتوراه في الطب ، أو في الهندسة ، ونال حقوق هذه الشهادة وامتيازاتها "، أنت في هذا العصر هل تفهم من هذا الكلام أن رئاسة الجامعة طرقت أحد الأبواب ، وقالت لفلان : تعال لنعطيك الدكتوراه ، أم أن هذا الذي مُنحَ هذه الشهادة كان أهلاً لها ؟ أُلِّفَتْ لجنةٌ للإشراف على أطروحته ونُوقِشت هذه الرسالة ، وقد مضى على تأليفها سنواتٌ عدَّة ، وكان قبلها قد حاز الماجستير ، وقبلها قد حاز اللّيسانس ، وقبلها قد حاز الثانويَّة بعلاماتٍ مرتفعة، فهل تفهم أيها الأخ الكريم من كلمة : منح مجلس الجامعة فلان الفلاني الدكتوراه ، هل تفهم من هذه الكلمة أن هذا المنح بلا مقابل ؟ بلا استحقاق ، بلا جهد ، بلا تعب ، بلا كسب ، بلا أهليَّة ، بلا اصطفاء ؟ أخي : الله جعل فلاناً نبيَّاً ، هذه النبوَّة هبة من الله ..

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

بالمقابل إذا قرأت في بعض البلاغات : يُحْرَم فلان الفلاني من التقدُّم للامتحان ، فهل تظن أن مجلس الجامعة يحرم طالباً بلا سبب ؟ لا بل حرمه إما لانقطاعه عن الدوام ، أو لتطاوله على بعض المدرِّسين؟ أو لإساءته للنظام ، فكلمة مُنِحَ وكلمة حُرِمَ بالبديهة من دون تعقيد مقابلها أعمال قام بها هذا الذي مُنْحَ الشهادة ، وأعمال سيِّئة قام بها هذا الذي حُرِمَها ، إذاً عندما يقول ربنا عزَّ وجل :

(كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

لا ينبغي لك يا أخي الكريم أن تفهم كلمة نطبع بمعنى أن الله عزَّ وجل شاءت إرادته أن يختم على قلب فلان فلا يهتدي ، لا ، الإنسان من بني البشر يترفَّع عن ذلك ، لا يَحْرِم ، ولا يعاقب ، ولا يفصل ، ولا يطرد ، ولا يمنح إلا ذا استحقاق ، فهل يُعقَل أن الله سبحانه وتعالى و بلا سبب طبع على قلب فلان ؟ إن طبع على قلب فلان فلا بد من سبب ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ

(كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)))

[سنن الترمذي]

2 ـ الفعل من الله والسبب من العبد :

إذاً : ربنا عزَّ وجل إذا عزا الفعل إليه فمعنى ذلك : أن هذا الفعل من حيث التنفيذ بيده ، أما من حيث السبب بيد فلان ، كأن تقول : المعلِّم رَسَّبَ فلاناً الفلاني ، قرار الترسيب بيد المعلِّم ، وهو الذي كتب رَسَبَ في صفِّه ، وهو الذي وقَّع ، لكن هذا الطالب رسب لاستحقاق ، لأنه كسول ، فإذا رأيت فعلاً في القرآن قد عُزِيَ إلى الله لا يذهبنَّ بك الظن إلى أن الله شاءت إرادته أن يفعل بفلانٍ كذا وكذا من دون اختيارٍ منه ، نحن مخيَّرون في إرادتنا ، ومسيَّرون في أعمالنا ، وتسييرنا لما اخترنا .

تسيير الله عزَّ وجل يُحْمَلُ على ثلاث احتمالات ، إما أن يسيرنا الله سبحانه وتعالى لتحقيق اختيارنا ، فهذا التسيير تجسيدٌ لاختيارنا ، وإما أن يسيرنا لتشجيعنا على نيات طيّبة أو عملٍ طيّب ، فهذا إكرام ، وإما تسييرٌ يؤدِّبنا فيه على تقصيرنا ، إذاً التسيير من الله تعالى إما تجسيد ، أو تشجيع ، أو تأديب ، وعمل الإنسان مبنيٌّ على اختياره ، والإنسان مخيَّر ، لكنَّه إذا اختار معصية الله عزَّ وجل يسيِّرُهُ الله لتحمُّل نتائج عمله ، كما لو أن مواطناً اختار أسلوباً خاطئاً في التعامل ، والقوانين تحظِّر هذا الأسلوب.. مثلاً .. هو اختار ذلك ، وبعد أن اختار ذلك ليس مخيَّراً بعدها في أن لا يلقى نتائج أعماله ، لابدَّ من أن يلقى نتائج أعماله بحسب اختياره ، فكلمة :

(كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

إذا عُزِيَ الطبع إلى الله عزَّ وجل فلأسبابٍ تعود كليَّةً إلى العبد لقوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : من الآية 5)

3 ـ الذي يعتدي لا بد له من عقاب :

هناك معنى آخر يُستنبط من هذه الآية ، وهو أن الذي يعتدي .. بالمعنى الواسع لا بد له من عقاب ..

العدوان هو تجاوز الحد :

الكلمات في القرآن الكريم تأخذ معنىً ضيّقاً ومعنىً واسعاً ، فالعدوان في القرآن بمعناه الواسع كل تجاوزٍ للحقوق ، لو تجاوز الإنسان على حقِّ إنسانٍ ما فقد اعتدى عليه ، لو جعلت إنساناً ينتظر بلا سبب ساعةً فقد اعتديت على وقته من دون سبب ، إذا سمحت لنفسك أن تأخذ من ماله فوق ما تستحق فقد اعتديت على ماله ، إذا نظرت إلى امرأةٍ لا تحلُّ لك فقد اعتديت على زوجها ، هذه عِرْضُهُ ، واعتديت عليه ، واعتديت على نفسك فَحَرَمْتَها الإقبال على الله عزَّ وجل ، فالعدوان بهذا المعنى واسعٌ جداً ، إلقاء نظرةٍ على امرأةٍ لا تحلُّ لك نوعٌ من أنواع العدوان ..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6)فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ(7))

(سورة المؤمنون)

تجاوَزَ الحد ، إذا أساء إنسانٌ إليك فرددت عليه بإساءةٍ أكبر فأنت معتدٍ ..

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

(سورة الشورى : من الآية 40)

4 ـ المعتدي لا يهتدي :

الملخَّص : المعتدي لا يهتدي ، لماذا ؟ تفسير ذلك أنه بعدوانه منقطعٌ عن الله عزَّ وجل ، وأنت تعرف الله بنور الله ، وتهتدي إلى الله بالله ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، فالمعتدي بعدوانه محجوبٌ عن ربِّه ، وإذا حُجِبَ عن الله عزَّ وجل حُجِبَ عن أنواره ، أنَّى لأنوار الله عزَّ وجل أن تدخل إلى قلبه ؟! ..

(كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

لذلك :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

هو نفسه ..

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : من الآية 50)

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10))

(سورة العلق)

انتهت الآية ، أي أن هذا الذي ينهاك عن الصلاة لا تُجَشِّم نفسك مشقَّة سماع كلامه إطلاقاً ، وليكفك منه أن تنظر إلى أفعاله الدنيئة ، إلى انحرافاته ، إلى شذوذه ، إلى أنانيَّته ، إلى حبِّه لذاته ، إلى استعلائه، إلى بناء مجده على أنقاض الآخرين ، إلى بناء غناه على فقرهم ، إلى بناء حياته على موتهم، هذا الذي ينهاك عن الصلاة لا تنظر إلى كلامه ، لا تنظر في فحوى كلامه ، بل انظر إلى أفعاله ، أفعاله تؤكّد لك أنه ليس على الحق ، لو أنه على الحق لأمرك بالصلاة ..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10)أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11)أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12))

انظر إلى أخلاقه ، إلى ورعه ، إلى عفّته ، إلى كماله ، إلى شجاعته ، إلى كرمه ، انظر، لو لم يكن للمؤمن لسان فَعَمَلُهُ ينطق بأنه مؤمن ، ولو بقي الكافر صامتاً فَعَمَلُهُ وحده ينطق بأنَّه كافر ، فيه لؤم ، يقابل الإحسان بالإساءة ..

أعلّمه الرماية كل يومٍ فلمَّا اشتدَّ ساعده رماني
وكم علّمته نظم القوافي فلمَّا قال قافية هجاني

***

فلذلك :

(كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

بمعنى أن المعتدي لا يهتدي ، لذلك لا تُحمِّل نفسك مشقَّة مناقشة المعتدي لأنه لن يهتدي ..

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى(9))

(سورة الأعلى)

ولكن شَمِّر لهداية المُستقيم فإنه قريب المأخذ ، سريع التأثُّر ، سريع الاستجابة .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

1 ـ هذا هو فرعون بطغيانه :

من فرعون ؟ ماذا قال فرعون ؟ قال فرعون :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص : من الآية 38)

هذا قاله في المرة الأولى ، أما في المرَّةِ ثانية :

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

فربنا عزَّ وجل قال :

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى(25))

(سورة النازعات)

يعجب المفسِّر لماذا بدأ الله بالآخرة وثنَّى بالأولى ، مع أن الترتيب المنطقي الأولى والآخرة ، لأن قوله الآخر الثاني كان أشدَّ كفراً من قوله الأول ، فالله سبحانه وتعالى بدأ بالأقوى .

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى(25))

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ(51))

(سورة الزخرف)

رجل بدأ يناجي ربَّه فقال متعجباً : يا رب ..

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا)

(سورة طه)

2 ـ مع ذلك فلابد من اللين والرفق :

نبيٌّ كريم .. هو سيدنا موسى .. يأمره الله سبحانه وتعالى أن يُلين القول لمن قال :

(أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

ولمن قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص : من الآية 38)

فأنت أيها الأخ الكريم المؤمن إذا كان فرعون على ما هو عليه من الكفر يجب أن تقول له قولاً ليناً ، فما قولك إذا دعوت إنساناً إلى الله عزَّ وجل ؟ فهل تقسو أنت عليه ؟

يروي التاريخ أن أحد الأمراء جاءه واعظ فقال له : " أيها الأمير سوف أعظك بغلظة " ، فقال هذا الأمير : "ولِمَ الغلظة يا أخي ؟ لقد أرسل الله مَن هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌّ مني ، أرسل موسى إلى فرعون فقال له :

(فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا)

(سورة طه من الآية 44)

إذاً : مَن أمر بمعروفٍ فليكن أمره بمعروف ..

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

ولن تستطيع أن تؤثِّر في قلوب الناس إلا بإحسانك قبل لسانك ، وقلوب أهل البلاد المفتوحة فُتِحَت للمسلمين قبل أن تُفْتَح بسيوفهم ..

((رأس العقل بعد الإيمان بالله التودُّد إلى الناس))

((بُعِثْت بمداراة الناس))

[ورد في الأثر]

والمداراة بذل الدنيا من أجل الدين ، بينما المُداهنة بذل الدين من أجل الدنيا ، لذلك التودُّد إلى الناس ، لين القول ، الرحمة ، العمل الطيّب ، الخدمة ، هذه رسل الهدى ، قبل أن تنصحه بالصلاة أرِهِ من شخصك مثلاً أعلى في التعامل ، كن صادقاً معه ، كن رحيماً به ، كن عطوفاً عليه ، ابذل من وقتك ومالك لخدمته حتى يهتدي بهداك .

إذاً :

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)

حتى الكافر ..

وفي الأثر : " لو يعلم الكافر انتظاري لتركِ معاصيه لتقطَّعت أوصاله من حبّي ، و لمات شوقاً إليّ ، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف إرادتي بالمقبلين " .

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(44))

(سورة طه)

قال أحد العلماء : علمت رحمتك بمن قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص : من الآية 38)

فكيف رحمتك بمن قال : لا إله إلا الله ؟!

هذه الآيات تعلّمنا الأدب ، تعلمنا اللطف في الدعوة إلى الله ، والآية الكريمة تكفي ..

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(159))

(سورة آل عمران)

جاءه أعرابيٌّ وقال له : " أعطني مما أعطاك الله " ، فأعطاه النبي عليه الصلاة والسلام ، قال له : يا أعرابي هل أحسنت إليك ؟ " قال : " لا ولا أجملت " ، فهبَّ أصحاب النبي ليقتلوه لأنه تجاوز الحدود ، فقال النبي: " دعوه " ، أخذه إلى البيت وزاده من العطاء ، فقال : " يا أعرابي هل أحسنت إليك ؟ " ، قال : " نعم وأجملت " ، قال : " لقد جئتنا فسألتنا فأعطيناك ، فقلت ما قلت ، وفي نفوس أصحابي من قولك شيء ، فإذا خرجت إليهم فقل لهم مثلما قلت إلي " ، فلمَّا خرج إليهم قال النبي الكريم : " إنَّ هذا

الأعرابي سألنا فأعطيناه فقال الذي قال ، فلمَّا زدناه قال غير ذلك ، أهكذا يا أعرابي ؟ " قال : " نعم أحسنت وأجملت " . ثمَّ انطلق في سبيله ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : " مثلي ومثل هذا الأعرابي كرجلٍ له ناقة شردت عنه فجعل أصحابه يتبعونها فزادوها نفوراً فقال : خلُّوها إليّ ، تبعتها ووضعت لها من خشاش الأرض وأرحلتها فانقادت إليّ ، لو تركتكم وشأنكم لهلك وهلكتم " .

[ورد في الأثر]

هذه رحمته صلَّى الله عليه وسلَّم .

قال أعرابي جلف للنبي : " والله ما عدلت يا محمَّد " ، فقال عليه الصلاة والسلام وقد نبض عرقٌ في جبينه ، وكان هذا العرق إذا غضب ينبض ، قال له : " ويحك فمن يعدل إن لم أعدل ؟ " . مَنْ في الأرض يعدل إن لم أعدل ..

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)

3 ـ عليَة القوة قدوة لغيرهم :

إلى فرعون ومَلَئه ، ليس فرعون وحده هو المقصود بل عليَّة قومه ، هؤلاء الذين هم قدوةٌ للناس ، يميل الناس حيث يميلون ، إن سيدنا عمر رضي الله عنه كان إذا أراد إنفاذ أمرٍ جمع أهله وخاصَّته قبل كل شيء وقال : " إني قد أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير ، إن رأوكم وقعتم وقعوا ، وايم الله لا أوتينَّ بواحدٍ وقع فيما نهيتُ الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني " ، فعلَّق بعضهم على هذه القصَّة بقوله : " فصارت القرابة من عمر مصيبة " ، مصيبةٌ كبيرة أن تكون قريباً من عمر ، لأن العقاب سوف يتضاعف .

المقصود إذاً فرعون وملئه ، هؤلاء الذين ينظر الناس إليهم .. ويجلونهم .

(بِآيَاتِنَا)

الدالَّة على الرسالة والنبوَّة ؛ العصا ، وشقُّ البحر ، واليد البيضاء..

(فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ

1 ـ من أسباب الكفر الاستكبارُ ، والتواضع علامة الإيمان :

أحد عوامل الكفر الكِبْر ، ومن علامات المؤمن التواضع ، تواضعوا لما تتعلَّمون منه ، وتواضعوا لمن

تعلّمونه ، والتواضع لابدَّ منه في التعلُّم والتعليم ، وقال أحد العارفين بالله لبعض تلامذته وقد تجاوز حدَّه: " يا فتى نحن إلى أدبك أحوج منَّا إلى علمك " .

الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215))

(سورة الشعراء)

2 ـ تواضع النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه :

اخفض جناحك ، كان عليه الصلاة والسلام يُكْرِمُ أصحابه كثيراً ، كان يحبُّهم ، كان يثني عليهم ، كان يعرف أقدارهم .. " والله يا معاذ إني لأحبُّك " .. ولسيدنا سعد : " هذا سعدُ ، هذا خالي أروني خالاً مثل خالي ".

سيدنا أبو عبيدة أمين هذه الأمَّة ، كل صحابيٍّ جليل أعطاه النبي عليه الصلاة والسلام وصفاً يليق به .. " لو كان نبيٌّ بعدي لكان عمر " .. "تسابقت أنا وأبو بكر فكنَّا كهاتين ، ما صُبَّ في صدري شيء إلا وصببته في صدر أبي بكر " ، هكذا يجب أن تحبَّ من تعلّمه ، تحبَّهم ، أن تعرف أقدارهم ، أن تنزلهم منازلهم ، أن تقدِّر أعمالهم ، تضحيَّاتهم ، ورعهم ، استقامتهم لكي يحبُّوك ، يحبَّهم ويحبُّونه ..

(فاسْتَكْبَرُوا)

أمَّا فرعون وملؤه فقد استكبروا ، والكِبْر مدمِّر ..

((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

[مسلم عن عبد الله بن مسعود]

ما من فاتح على وجه الأرض فتح بلدةً إلا وأخذه التيهُ ، وأخذته الغطرسة والاستعلاء والعلو ، وما شاكل ذلك ، إلا النبي عليه الصلاة والسلام حينما فتح مكَّة دخلها مطأْطِئَ الرأس ، فلمَّا جمعهم ، وكان بإمكانه أن يقضي عليهم وَاحداً واحداً ، هؤلاء الذين كذَّبوه ، هؤلاء الذين أخرجوه ، هؤلاء الذي ائتمروا على قتله ، هؤلاء الذين عذَّبوا أصحابه ، هؤلاء الذين قتَّلوا أصحابه ، هؤلاء الذين حاربوه ليستأصلوا شأفته ، هؤلاءِ هؤلاء لمَّا كانوا في قبضته وكان بإمكانه أن يقضي عليهم، وأن يدمِّرهم عن آخرهم قال لهم : " ما تظنُّون أني فاعلٌ بكم ؟ " ، قالوا : "أخٌ كريم وابن أخ كريم " . قال : " اذهبوا فأنتم الطُلَقاء ". هكذا الرحمة ، هكذا الحكمة .

أبو سفيان قُبيل إسلامه قال له : " والله ما أعقلك ، ما أحكمك ، ما أرحمك ، ما أوصلك!"، قال عليه الصلاة والسلام : " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن " .. أي أن هذا زعيم قريش ، فجعل له شأناً .. من دخل الكعبة فهو آمن ، ومن دخل بيته فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .. فلمَّا عَلِمَ أبو

سفيان قال : " ما أعقلك ، ما أرحمك ، ما أحكمك ، ما أوصلك ! " .

(فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)

عدي بن حاتم عندما رأى النبي يكلِّم امرأةً مسنَّةً ، ضعيفة ، فقيرةً وقف معها طويلاً قال : " والله ما هذا بأمر ملك " ، هذا ليس ملك ، دخل إلى البيت وليس في بيت النبي الكريم إلا وسادة من أدمٍ محشوَّةً ليفاً ، قال له النبي : " اجلس عليها " ، قال : " بل أنت " ، قال : "بل أنت ضيفنا " ، قال : " فجلست عليها وجلس هو على الأرض " .

يا محمَّد أتحبُّ أن تكون نبيَّاً ملكاً أم نبياً عبداً ؟ قال له : " بل نبيّاً عبداً أجوع يوماً فأذكره وأشبع يوماً فأشكره " ..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(21))

(سورة الأحزاب)

(فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)

3 ـ أكبر جريمة أن تجرم في حق نفسك :

فكلمة جريمة لا يوصف بها إنسان لم يدفع فاتورة الهاتف أبداً ، هذا يقال له : مُقصِّر، إن لم يدفع الفاتورة يقطعوا عنه التيار ، يدفع الغرامة مع الفاتورة ، هل تصف إنساناً خالف القانون مخالفة طفيفة بأنه مجرم ؟ لا ، كلمة مجرم للقصم ، لعمل كبير ، لعمل له مضاعفات خطيرة ، تقول : هذه جريمة يا أخي ، هذا مجرم قتل إنساناً بريئاً ، يجب أن يُقتَل ، فإذا وصف الله سبحانه وتعالى إنساناً ما بأنَّه مجرم فمعنى هذا أنَّ جريمته كبيرةً جداً ، وهل مِن جريمةٍ أكبر من أن تكون مجرماً بحقِّ نفسك ؟ هذه النفس التي ملَّكَكَ الله إيَّاها ، جعلها أمانة بين يديك ..

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

إنسان حضر مجلس علم ، تعرَّف إلى الله ، تعرَّف إلى شرع الله ، تعرَّف إلى أحكام القرآن ، تعرّف إلى هذا الدين الصحيح ، وطبَّقه والتزم به فسعِد وأسعد ، هذا زكَّاها ، أما هذا الذي بقي جاهلاً ، وتاه في شهواته ، وانغمس في ملذَّاته ، وأكل من مالٍ حرام ، واعتدى وطغى وبغى ، ونسي المبتدى والمنتهى هذا مجرم ، ما قتل قتيلاً ، ما آذى أحداً ولكنه لحِقَ شهواته ، هذا مجرمٌ بحقِّ نفسه ، هذه النفس بدل أن تَخْلُدَ في الجنَّة جعلها تخلد في جهنَّم ، وهل من جريمةٍ أكبر من أن يكون الإنسان مجرماً بحقِّ نفسه ؟ يكفي ألا تصلي ، ألا تذكر الله سبحانه وتعالى ، يكفي أن تدع نفسك وما تشتهي ، يكفي ألا تحاول تطهير نفسك من عيوبها ، فأنت بحقِّ نفسك مجرمٌ ..

(فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ(75)فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا)

مِنْ عند مَنْ ؟ من عند خالق الكون ، خالق السماوات والأرض ، رافع السماء بلا عمد ، من عند الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون..

((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه .

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا)

فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ

تهمة السحر قديمة متجددة :

من عند الذات العَلِيَّة ، مِن عند الرحمن الرحيم ، من عند الحكيم العليم ، من عند الغني ، من عند القوي ، من عند العزيز ، من عندنا ، لذلك قال بعضهم : " لا تنظر إلى صِغَر الذنب ، ولكن انظر على من اجترأت " ..

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)

قالوا عن سيدنا موسى : إنَّه ساحر ، وقالوا عن سيدنا رسول الله : إنَّه ساحر ، وشتَّانَ بين المعجزتين ، تشابهت قلوبهم وتشابهت أقوالهم .

مرَّةً طُلِبَ من بعض البلاد الإسلاميَّة أن تُوفِد إلى عاصمة أوروبيَّة بعض المنشدين وبعض قُرَّاء القرآن ليُتلى في هذه العاصمة الأوروبيَّة على أنَّه فلكلور أي على أنه فن شعبي ، أي أنه مثل الرقص الشعبي.. تشابهت قلوبهم ، سحر ، تقاليد ، عادات ..

(إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)

أهذا سحر ؟! كتاب هداية يقال له : سحر ؟ لو عرفه البشر لآمنوا به ولسعدوا به ، سحر ؟! ..

(قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ

هكذا تقولون ؟ حقٌّ واضحٌ كالشمس ، دلائل واضحة ، حجج قاطعة، معجزات ، أهذا سحر ؟

(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)

استمعوا الآن إلى حجَّتهم في ردِّ الحق :

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ)

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ

1 ـ تهمة تغيير العادات والتقاليد :

أي أنت يا موسى هدفك أن تغيِّر عاداتنا وتقاليدنا ، أن تغيّر معالِم البيئة ، أن تغير طبيعة العلاقات فيما بيننا ، وهذا كلامٌ يقوله الناس اليوم ، هكذا نشأنا يا أخي ، هكذا رُبّينا ، أنت مِن أين جئت بهذا الدين الذي يفرِّق بيننا ؟ الإنسان المُعْرِض يحب أن يستمر على خطئه ، على ضلاله ، المفكِّر ليس له حق في أن يتقبَّل البيئة إلا إذا تطابقت مع كتاب الله ، ما هذه الدعوة الباطلة ؛ بيئة ، محيط ، تراث ، معطيات ، المحيط الخارجي ، المؤثِّرات ، التفاعل بين البيئة والمحيط ؟ لا يوجد إلا الحق ، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال .

جلس شاب مسلم على كرسي إلى جانب زوجته الشابَّة أمام مائتي امرأةٍ في أبهى زينة ، ما هذا ؟ عادات ، هكذا الأصول ، يصمد أمامهم ، فيقول عاقل ناصح ، ولكن لا يجوز ذلك ، فيجيبوه : لا لكي لا يتكلَّموا علينا نحن أهل الفرح ، يجب أن نري الناس أنَّ عندنا عروساً لائقاً ، أتعبد البيئة ؟ أتعبد التقاليد؟ أتعبد العادات ؟ يجب أن تكون التقاليد غير الإسلاميَّة تحت أقدامنا ، أترتدي زوجتك هذه الثياب التي تبيّن خطوط جسمها ؟ هكذا الموضة ، أتعبدها من دون الله ؟ لا يجوز ، المسلم لا يبالي لا بتقاليد ، ولا بعادات ، ولا بأعراف ، ولا بأساليب ولا أنماط معيشة زائفة ، لا يبالي إلا بما في الحق من حق ، إلا بما في كتاب الله من دلائل ، وما عداه لا أفعله .

قالت أم سيدنا سعد له : " يا بني إن لم تكفر بمحمَّد لن أذوق الطعام حتى أموت " ، فقال سيدنا سعد : " يا أم لو أنَّ لكِ مائة نفسٍ فخرجت واحدةً وَاحدةً ما كنت لأكفر بمحمَّد ، فكلي إذا شئتِ أو لا تأكلين " ، بعد ذلك أكلت .

أحد الصحابة طلبت منه زوجته حاجة لم يفعلها النبي عليه الصلاة والسلام فقال لها : " والله يا فلانة إن في الجنَّة مِنْ الحور العين ما إنْ أطلّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، َفلأن أضحّي بكِ مِن أجلهن أفضل مِن أن أضحي بهنّ مِن أجلكِ " ، هكذا المؤمن حازم ، مواقفه صلبَة ، مواقفه واضحة ، لا يلين ، يلين في الدنيا أما في أمور الدين فلا يلين .

(قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ(77)قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

أخي هذه تقاليد موروثة ، هكذا أصول الاحتفال بالزواج ، هكذا فعل آباؤنا وأجدادنا ، من أنت ؟

(وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ)

2 ـ تهمة السعي وراء الجاه والرياسة والمنازعة عليها :

ظنَّ فرعون وملؤه بموسى الظنون ، ظنُّوه مثلهم يحبُّ الكِبْر ، لا فقد قيل : " إن الطيور على أشكالها تقعُ " ، الإنسان دائماً يظنُّ ما في نفسه ، الكذّاب لا يُصدّق الصادق ، يظنّه كذَّاب ، والصادق يصدِّق الكاذب ، ويظُنّه صادقا ، وإن الطيور على أشكالها تقع ، ففرعون اتهم سيدنا موسى بأنه إنما جاء بهذه الدعوة لينازعه على الكبرياء في الأرض ..

(وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ(78)وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ

التحدي الفرعوني :

أي أنَّ فرعون حوَّل هذه الدعوة إلى الله ، وهذه البينات ، وهذه المعجزات حوَّلها تحويلاً آخر ، ووصفها بأنَّها سحر ، أي أنَّ هذه الدعوة العظيمة كما يقال : فرَّغها من مضمونها ، ووصفها بوصفٍ ساذج ، بل ماكر خبيث ، وادعى أن هذا سحر ، وأنا عندي سحرة وسوف يردُّون عليك ..

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ(79)فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ(80)فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ

1 ـ لا نجاح للمفسد :

أي أنه لا يمكن المفسد أن يحقّق النجاح في الحياة ، المفسد لن يحقّق النجاح لهذه الآية :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

هؤلاء السحرة أرادوا إفساد هذه الدعوة الإلهيَّة فَسِحْرُهُم باء بالإخفاق ، سحرهم أبطله الله سبحانه وتعالى ، طبعاً القرآن الكريم من إعجازه أن الآية القرآنيّة الواحدة لها معنى في السياق ، فإذا نزعتها من بين أخواتها أصبحت مبدأً عاماً ، قاعدة ثابتة ، دعنا من هذه القصَّة كلّها ، وانزع هذه الآية وحدها ، واكّتبها على لوحة ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

كل عمل هدفه الإفساد فأنت الذي تؤدي الثمن جراء إفسادك ، تبوء بالإخفاق ، لن يُصلِح الله عملك ، ما دامت النوايا سيئة ، ما دام الهدف دعم الباطل ، ما دام الهدف تبديل دين الله عزَّ وجل وشرعه ، إطفاء نور الله فلن يُصْلِح الله عملك ، لماذا ؟ لأنك تخالف سنَّة الكون ، ما معنى الحق ؟ الشيء الثابت ، ما معنى الباطل؟ الشيء الذي سوف يبطل ، لا يقف على قدميه ، سرعان ما يتهاوى ..

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

2 ـ الباطل زهوق :

أي أن من صفات الباطل الثابتة الزُهوق ، الزُهوق والباطل مترابطان ترابطاً وجودياً ، هذه فكرة دقيقة جداً ، فلنضرب الطائرة مثلاً تقول : شكل الطائرة كبير ، هناك بيت كبير أيضاً ، و بناء كبير ، و ساحة كبيرة ، هذا وصف غير صحيح ، ليس وصفاً جامعاً مانعاً ، صفها أيضاً تقول لي : فخمة ، هناك بيت فخم ، وهناك أثاث فخم ، وهناك سيَّارة فخمة ، هذا الوصف ليس صالحاً ، لازلت تقول كذا وكذا ، إلى أن تقول : تطير ، كلمة تطير هذه صفة مترابطة مع الطائرة ترابطاً وجوديّاً ، فإذا أُلغي الطيران أُلغيت الطائرة ، القرآن الكريم عبَّر عن هذه الحقيقة ، عن الترابط الوجودي بفعل كان التام .

فعل كان له معنيان ، توجد عندنا كان الناقصة مثل قولك : كان الجو ماطراً ، وأصل الجملة الجو ماطرٌ ، تركيب اسمي إسنادي ، إذا قلت : كان الجو ماطراً ، فأنت بهذا نقلت هذا التركيب الاسمي إلى الزمن الماضي ، فكان أفادت معنى المضي فقط ، ولم تفد معنى الحدث ، من هنا قالوا : فعل ماض

ناقص ، لكنْ هنا كان ذات دلالة أخرى ، وهي كان التامَّة قلّما ينتبه لها الناس ، وهي مثل : ما كان الإنسان ليظلم أخاه ، وهذه بمعنى ما وُجِدَ الإنسان ليظلم .

الآن :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

أي منذ أن وُجِدَ الباطل صفته اللازمة المترابطة معه ترابطاً وجوديَّاً أنه زاهق ، فإذا كنت مع الباطل عقيدةً فأنت زاهقٌ معه ، وإن كنت مع رجل مُبْطِل فأنت زاهقٌ معه ..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

أي أن الحق ثابت منذ الأزل وإلى الأبد ، وكلمات الله سبحانه وتعالى تبَيِّن الحق وتُحِقُّه وتوضِّحه ، وسوف نتابع هذه القصَّة إن شاء الله في درسٍ قادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (16-17): تفسير الآيات 83 – 93
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-01-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في قصة سيدنا موسى في سورة يونس إلى قوله تعالى :

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُسْرِفِينَ)

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

قبل هذه الآية :

(وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

كلمات الله ثابتة وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ :

فهذه الكلمات التي بين أيدينا تعني أن المقصود بها القواعد الثابتة التي سنها الله سبحانه وتعالى ، هذه الكلمات ثابتة ، راسخة ، سوف تتحقق .

(وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

فالمجرمون أعجبهم أم لم يعجبهم فكلمات الله ثابتة ، وعده حق ، ووعيده حق ..

(وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ)

قد يستقيم الرجل على أمر الله ، فيناله وعد الله بالحياة الطيبة ، أأعجب الكفار أم لم يعجبهم ، أرضوا بهذا أم لم يرضوا ، ما دام قد طبق أمر الله عزَّ وجل فقد نالته هذه الآية ، فالآيات التي تأخذ شكل القواعد الثابتة أو شكل العلاقات الثابتة ، هذه الآيات الله سبحانه وتعالى يسميها كلمات :

(وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

أحياناً يتوهم الكافر أنه هو الأذكى ، وهو الأقوى ، وبيده الأمر كله ، لكن الحقيقة غير ذلك ، الأمر بيد الله ، وأن الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالعطاء الجزيل ، وأن العاقبة للمؤمنين ، وأن الويل والدمار للكفار المشركين ، هذه كلمات الله .

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ)

معنى : فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ

المعنى الأول :

بعض المفسرين يقول : إن الذين عاصروا سيدنا موسى لم يؤمنوا ، والدليل أنهم بعد أن اجتاز بهم البحر ، وبعد أن رأوا أن عصاه قد أصبحت ثعباناً مبيناً ، وبعد أن رأوا فرعون يغرقُ في اليَم قالوا :

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

(سورة الأعراف : من الآية 138)

إذاً : هؤلاء عَطَّلوا تفكيرهم ، أو أساءوا استعماله فلم يهتدوا إلى الحقيقة ، لذلك هذا الجيل الذي نشأ على المعصية ، وعاصر سيدنا موسى لم يؤمن ، إنما أبناؤهم الذين أنجبوهم هم الذين آمنوا بسيدنا موسى من بعدهم ، هذا بعض معاني قوله تعالى :

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ)

المعنى الثاني :

وبعض المفسرين على أن هذه الذرية تعود إلى فرعون ، من قوم فرعون ، فعبارة : من قومه اشتملت على هاء الغائب ، وهذه الهاء إما أن تعود على سيدنا موسى ، أو تعود على فرعون ..

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ)

المقصود بالذين آمنوا بموسى امرأة فرعون ، ومؤمن آل فرعون ، وبعضٌ من حواشي فرعون كانوا قد آمنوا بسيدنا موسى .

المعنى الثالث :

وتفسير ثالث ، هو أن هذه الذرية التي آمنت من قومه هم بعض الأقباط الذين تزوَّجوا من بني إسرائيل، على كلٍ فالمؤمنون قلة ..

(عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ)

1 ـ ثمن الإيمان كبير :

أي أن الإيمان ثمنه باهظ ، وهذا الثمن الباهظ قد يكون متاعب ، قد يكون قلقاً ، والإنسان أحياناً من أجل الدنيا فقط يفتح محلاً تجارياً ، وتكون بضاعته ليست نظاميةً مائة بالمائة ، وهو يتحمِّل الأخطار ، خطر المصادرة ، وخطر السجن ، وخطر الغرامات ، من أجل الدنيا يتحمَّل كل هذه المخاطر ، فكيف بك من أجل حياةٍ أبديةٍ ؟ ألا تستدعي هذه الحياة الأبدية أن يتحمل الإنسان من أجلها بعض المتاعب ، بعض المخاوف ؟ فمن قال لك : إن طريق الإيمان مفروشٌ بالورود ؟ لكن هذا الذي يأتي إلى الدنيا ، ويؤمن بالله عزَّ وجل ، ويتحمَّل من أجل إيمانه المتاعب والمخاوف ، ويجاهد نفسه وهواه ، هذا له عند الله أجرٌ لا يعلمه إلا الله ..

((ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غالِيَةٌ ، ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : من الآية 92)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

طلب الجنة بغير عملٍ ذنبٌ من الذنوب .

إذاً كلمة :

(عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ)

2 ـ البلاء كشف للحقيقة وتعظيم للأجر :

فكلمة خوف وردت في سياق الآية نكرة ، أي أن الخوف يقدّره الله سبحانه وتعالى ، وهو الذي يسمح به ليتعاظم الأجر ، فكما أن هناك أعمالاً أجرها بسيط ، فكذلك هناك مخاطر أجرها كبير ، فسائق السيارة يأخذ راتباً أقل بكثير من رُبَّان السفينة ، وربان السفينة راتبه أقل من راتب قائد الطائرة ، كلما كانت هناك مسؤولياتٌ جسام ، وكلما كانت هناك مخاطر فالأجر يرتفع ، فإذا جعل الله عزَّ وجل للإنسان في مسار الإيمان بعض المخاوف ، بعض المخاطر ، بعض المُقلقات ، فهذه كلها من أجل أن

يتعاظم أجره ، ومن أجل أن يكشف على حقيقته ، ومن أجل أن يظهر صبره وثباته على المبدأ .

لو أن طريق الإيمان كما يشتهي بعضهم مفروشٌ بالورود ، أين أجر الصحابة الكرام في نشر هذا الدين ؟ هاجروا مرةً إلى الحبشة ، ومرةً إلى المدينة ، وضيَّقت عليهم قريش ، وحاربتهم ، وقاطعتهم ، ونكّلتْ بهم ، وعذبتهم ، وأخرجتهم ، وائتمرت على قتلهم ، لكن هؤلاء الصحابة بلغوا عند الله منزلةً لا يعلمها إلا الله بفضل ثباتهم على المبدأ ..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا(23))

(سورة الأحزاب)

والله سبحانه وتعالى هو هُو في كل زمانٍ ومكان ..

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(4))

(سورة الحديد)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

هذه الآية مستمرةٌ إلى آخر الزمان ، إذاً هذا كله على كلمة :

(عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ)

فالإنسان مثلاً من أجل المال يتحمل المخاوف ، هذا الذي يأتي بالبضاعة ، ويبيعها ، وليست وفق الأصول ، ألا يتحمل مخاطر كبيرة جداً ؟ من أجل المال فقط ، من أجل المال يتحمَّل المخاوف والمتاعب والمقلقات ، وقد يتعرَّض للسجن ، من أجل كسب المال فقط ، فكيف إذا كان الهدف نبيلاً والعطاء جزيلاً والآخرة أبدية ، ألا تستأهل الآخرة أن يتحمل الإنسان بعض المخاوف ؟!

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ)

أي مع هذه المخاوف يتضاعف الأجر عشرات المرَّات ، ليسوا سواءً ، من آمن قبل الفتح وغيره ممن آمن بعد الفتح.. هذا الذي آمن قبل الفتح تحمل المتاعب والمخاوف ، أما الذي دخل بعد فتح مكة ، وكان الأمر قد استتب للمسلمين ، وكلمتهم هي العُليا ، وبيدهم مقاليد كل شيء ، فالدخول في الإسلام بعد فتح مكة يسمى نوعاً من أنواع التغطية ، أو يسمى نوعاً من أنواع الانتهاز ، الدخول في الإسلام بعد فتح مكة حالةٌ ضعيفة ، خاف على حياته ، خاف على مصالحه ، خاف على مستقبله ، خاف على ماله فأسلم مع من أسلم ، ولكن البطولة أن تُسْلِمَ في الوقت العصيب ، في الوقت الذي إذا أسلم الإنسان يخاف على حياته ، أو على ماله ، أو على مكانته ، أو على عمله .

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ)

3 ـ فرعون وراءه رجال أشداء :

بعضهم تساءل : لمَ لمْ يقل الله عزَّ وجل : على خوفٍ من فرعون وملئه ؟ بل قال :

(وَمَلَئِهِمْ)

أي أن فرعون ليس وحده فهو يعتمد على رجال أشدَّاء ، وعلى رهط ، وعلى أتباع ، وعلى مؤيِّدين ، هؤلاء كلهم فراعنة أيضا ..

(عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ)

أي أنهم خافوا أن يفتنهم عن دينهم ، خافوا أن يضيِّقُ عليهم فيتركوا دينهم حفاظاً على حياتهم وهذه هي الفتنة ، لكن :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ)

(سورة الحج : من الآية 11)

الإنسان عليه أن يعبد الله في الأعماق ، إذا عبده على حرف تأتي موجةٌ صغيرةٌ فتسقطه في اليَمِّ ، أما إذا كان يعبده في الأعماق فلن يهتز ، ولن يتأثر ، ولن ينصرف عن هدفه مهما احلوْلَكَ الليل .

(وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُسْرِفِينَ)

وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُسْرِفِينَ

1 ـ الإسراف يقتضي الخروج عن الحق :

أي أنه متكبر ، ومسرف ، مسرف في كل شيء ، والإسراف يقتضي أحياناً الخروج عن الحق ، مثلاً ربنا عزَّ وجل قال :

(فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ)

(سورة الإسراء : من الآية 33)

فهذا الذي قُتِل أخوه ، أو أبوه ، أو ابنه ، هو ولي القتيل ..

(فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ)

فَسَّر العلماء الإسراف في القتل: أن يقتل اثنين بواحد ، وفسره بعضهم أن يقتل غير القاتل ، هذا هو الإسراف ، فالإسراف مجاوزة الحد المعقول ، مجاوزة الحد الصحيح إلى العدوان .

(وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُسْرِفِينَ)

2 ـ فرعون ذو نفسية متعالية وأعمال مسرفة :

أوصاف ربنا عزَّ وجل دقيقة ، ففرعون كما وصفه الله سبحانه نفسيته متكبرة وأعماله مسرفة ، والإنسان عامة له حال وله عمل ، أما نفسيته ففيها علوٌ في الأرض واستكبارٌ واستعلاءٌ ، وعمله فيه إسراف في كل شيء ، في عطائه إسراف ، وفي منعه إسراف ، وفي عقابه إسراف ، وفي قمعه إسراف ، والأخذ بحقائق الدين يهذب ويصلح .

(وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ

1 ـ التوكل على الله من كمال الإيمان :

العلماء قالوا : من كمال الإيمان التوكل على الله ، فهناك إيمانٌ ضحلٌ درجته غير كافية لإسعاد صاحبه من هنا كان قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ)

(سورة النساء : من الآية 136)

من هنا كان قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران : من الآية 102)

من هنا كان قوله تعالى :

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(سورة الحج : من الآية 78)

فليس كل إنسان آمن بوجود الله عزَّ وجل ، وآمن بالآخرة يملك درجة من الإيمان كافية كي تُنَجِّيهِ من عذاب النار ، لا ، فالإيمان له درجات دنيا لا تكفي ، وله درجات تكفي ، وله درجات عُليا ، على كلٍ الإيمان ما وقر في القلب ، وأقر به اللسان ، وصدَّقه العمل .

((وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[مُتَفَقٌ عَلَيهِ]

((الإِيمَانُ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ بَابًا ، أَرْفَعُهَا وَأَعْلاهَا قَوْلُ : لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ))

[أحمد عن أبي هريرة]

الإيمان أن تَكُفَّ جوارحك عن المعاصي .. هذا هو الإيمان ، فلذلك :

(وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا)

2 ـ عدم التوكل على الله دليل ضعف الإيمان :

عندنا قضية محرجة ، فإذا كنت مؤمناً أن الأمر كله بيد الله ، وإذا كنت مؤمناً أن الله سميعٌ بصير ، وإذا كنت مؤمناً أنه ما من حركةٍ ولا سكنةٍ إلا بأمر الله تعالى ، وإذا كنت مؤمناً أنه بيده الأمر كله ، وأنه بيده ملكوت السماوات والأرض ، وأن عدوك بيده ، فإن لم تتوكل بعد كل هذا ففي الإيمان ضعف ، و في الإيمان خلل ، من علامة الإيمان الصحيح التوكل على الله ، والتفويض لله ، والتسليم لأمر الله ، والرضا بقضاء الله ، هذه من علامات الإيمان الصحيح ، التوكل على الله ، والتفويض لله ، والتسليم لأمر الله ، والرضا بقضاء الله .

(إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا)

ألست مؤمنا أن بيده كل شيء ؟ نعم ، توكل عليه إذاً ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله))

[ورد في الأثر]

فالمؤمن أقوى مخلوق على وجه الأرض ، بمعنى أنه مع الخالق ، ما دام هذا المؤمن مع خالقه ، والخالق بيده كل شيء فهو أقوى من كل شيء ، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتَّق الله ، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك .

(فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

1 ـ المعنى الأول : إذا قصر المؤمن سلط الله عليه من لا يخافه :

هذا دعاء مهم جداً ، هذا الدعاء يعني أشياء كثيرة ، يعني أول ما يعني أن المؤمن إذا قصَّرَ في علاقته مع ربه سَلَّطَ عليه من لا يعرفه ليعيده إلى جادة الصواب ، وفي الأثر : " إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني " .

" أنا ملك الملوك ومالك الملوك قلوب الملوك بيدي ، فإن العباد أطاعوني حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن العباد عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسُخْطَةِ والنقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك وادعُوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم " ، فإذا قصر المؤمن سلط الله عليه من لا يخافه ، هذا أحد معاني هذه الآية ..

(لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

القوم الظالمون إذا رأوا مؤمناً ، وكان فيما بينه وبين ربِّه مقصراً أصابوه بالأذى ليشفوا غليلهم ، هذا المعنى الأول .

2 ـ المعنى الثاني : لا تجعل الكافرين فوق المؤمنين :

يا رب لا تجعل الكافرين فوقنا في الدنيا فيظنوا أنفسهم أنهم على حق ، ونحن على باطل ، الكافر إذا قوي ، وتَغَلَّبَ على المؤمن بماذا يُفَسر هذا التغلب ؟ بأنه على حق ، وأن المؤمن على باطل ، ولو كان على حق لما انهزم أمامه ، أيضاً هذه فتنة ، فتنة للظالمين وللمظلومين ، للظالمين يتوهَّمون أنهم على حق ، وللمظلومين يكاد المظلوم أن ييأسَ من روح الله.

(لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

اللهم لا تجعلني عبرةً لأحد من خلقك :

هذه الآية يجب أن يدعو بها الإنسان فيما بينه وبين ربه لئلا يكون عبرةً لمن يعتبر ، فأحياناً يصبح الإنسان المقصر وسيلة إيضاحٍ للناس ، لذلك بعضهم إذا دعا يقول : اللهم لا تجعلني عبرةً لأحد من خلقك ، فلا أكون أنا الدرس ، لا أكون أنا القصة ، ولا الأحدوثة ، ولا أكون أنا طريقة من طرق توضيح الحقائق .

(لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

لا تجعلني عبرةً لأحدٍ من خلقك ، لما يقصّر الإنسان ثم يبتليه الله عزَّ وجل بعد ذلك بعقابٍ بَئيس تصبح قصته متداولةً بين الناس ، وكأن هذه القصة أصبحت وسيلة إيضاحٍ للحق .

(فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(85)وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

المخاوف تلجئ العبدَ إلى الله :

أي أن هذه المخاوف في الدنيا من أجل أن تزيد التجاء المؤمن إلى ربه ، أحياناً يكون الطفل في الطريق شارداً عن أمه ، بعيداً عنها ، مُتَلَهِّياً بحاجاتٍ لا تنفعه ، فيلمح جرواً مخيفاً فيركض إلى أمه ملتجئاً إليها ، ما الذي دفعه إلى أمه ؟ خوفه من هذا الجرو ، إذاً هذا الجرو ساقه الله إليه لحكمةٍ بالغة ، أحياناً تكون المخاوف مُلْجِئَةً إلى الله عزَّ وجل ، هذه المخاوف وسيلة من وسائل تقوية ارتباط الإنسان بالله عزَّ وجل ، ولله في خلقه شؤون ، أحياناً شُحُّ المطر يُلْجِئ الفلاح إلى الدعاء ، وكساد البضاعة يلجئ التاجر إلى الدعاء ، ومرض الابن يلجئ الأب للدعاء ، وغياب الزوج يلجئ الزوجة إلى الدعاء ، والمرض يلجئ إلى الدعاء ، ولله في خلقه شؤون ، إذاً هذه المخاوف تحثُّ الإنسان على الاتصال بالله اتصالاً صحيحاً .

(وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(86)وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ)

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا

1 ـ أمرُ الله لموسى باتخاذ البيوت قبلة :

لهذه الآية أيضاً تفسيراتٌ عديدة ، أوجه هذه التفسيرات أن الله سبحانه وتعالى أوحى لسيدنا موسى أن يتخذ قومه من بيوتهم مساجد ، ولتكن هذه البيوت متجهة إلى بيت المقدس ، واتضح من هذه الآية أن التوجُّه في الصلاة إلى قبلةٍ ما شيءٌ ثابتٌ في الأديان كلها ، وقالوا : إن اليهود على عهد سيدنا موسى توجَّهوا إلى الكعبة ، وقيل توجَّهوا إلى بيت المقدس .

2 ـ لا تجعلوا بيوتكم قبوراً :

والحقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام نهانا عن أن نجعل بيوتنا قبوراً ، متى يكون البيت قبراً ؟ إن لم يُصَلَّ فيه ، فالنافلة يزيد أجرها إن أدِّيَتْ في البيت ، لأن في النوافل رياءً ، فمن تمام الإخلاص أن تؤدي النافلة في البيت ، السنة القبلية يصح أن تصلى في البيت ، والسنة البعدية يصح أن تصلى في

البيت ، أما المكتوبة فتصلى في المسجد ، إن لم يكن هناك عذرٌ قاهر ، إذاً النبي عليه الصلاة والسلام مما اختصه الله به أن جعل له الأرض طهوراً ومسجداً ، جعل الله لأمة سيدنا محمد الأرض طهوراً ومسجداً ، وبنو إسرائيل على خوفهم من فرعون أن يفتنهم جاءهم الأمر أن يصلوا في بيوتهم ، وليتجهوا نحو القبلة ، وقد اختلف فيها وفي أرجح الأقوال إلى بيت المقدس .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ(87)وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

1 ـ عطاء الدنيا ليس دليل محبة الله :

عطاء الله سبحانه الإنسان في الدنيا ليس دليل المحبة ، هذه قاعدة ، لأن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ، فالعطاء في الدنيا لا يُعَدُّ أبداً دليل المحبة ، لكن الآخرة لا ينالها إلا المحبوب .

2 ـ أفضلُ عطاءٍ العلمُ والحكمة :

شيءٌ آخر .. العطاء الثمين العلم والحكمة ..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22))

(سورة يوسف)

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة الجمعة : من الآية 2)

" وما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب " .

فالعطاء السليم هو العلم والحكمة ، أما الدنيا ومالها فلا شأن لها عند الله .

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا)

3 ـ لا ينبغي للمؤمن أن يغتر بدنيا الكافر:

هذا الغنى الفاحش ، وهذه الزينات ، وهذا الترف ، وهذا الانغماس في الملذّات ، وهذه الأموال الطائلة

التي قد تنال الكافر ليس للمؤمن أن يغترَّ بها ولا أن يتمنَّاها ..

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص : من الآية 80)

إذا رأيت الدنيا مُقبلةً على إنسان بأبهى زينة وتمنَّيْتها لنفسك فهذا خللٌ في إيمانك ، والنبي عليه الصلاة والسلام كلما وقعت عينه على مظاهر الدنيا وعلى زينة الدنيا قال يقول :

((اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَهْ))

[البخاري عن سهل]

(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا)

لذلك ربنا عزَّ وجل قال :

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)

(سورة آل عمران)

الله سبحانه وتعالى يقول في بعض الآيات :

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

في آيةٍ أخرى :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(77))

(سورة النساء)

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)

(سورة النساء : من الآية 78)

(لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ)

لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ

المعنى الأول للآية :

هذه الآية دقيقة جداً ، أن تفهم الآية أن الله سبحانه وتعالى آتى فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ليضلوا عن سبيله ، هذا المعنى مستحيل ، وهذا المعنى فاسد ، الله سبحانه وتعالى إذا أعطى إنساناً مالاً أو زينة أو جاهاً لا ليضل عن سبيله بل ليهتدي إليه ، أما هذه اللام أعربها علماء التفسير لام المآل، أو لام الصيرورة ، مثلاً :

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

(سورة القصص : من الآية 8)

سيدنا موسى ، حينما التقطه آل فرعون لماذا التقطوه ؟ ليسعدوا به ، ما الذي حصل في النهاية ؟ أن ملك فرعون تقوَّض على يد هذا الغلام ، فكانت نهاية ملك فرعون أنه تقوَّض على يد سيدنا موسى ، فهذه اللام ليست لام التعليل إنما هي لام المآل والصيرورة ، وهذه اللام أيضاً على هذه الشاكلة ، أي أن الله سبحانه وتعالى إذا أعطانا صحة ، من أجل أن نتعرف بها إلى الله ، إن أعطانا مالاً ، من أجل أن نشكره ، إن أعطانا عقلاً ، من أجل أن نستخدمه في التعرف إليه ، إن أعطانا أولاداً ، من أن أجل أن نربيهم تربيةً صالحة ، إن وهبنا زوجةً صالحة ، من أجل أن نأخذ بيدها إلى الجنة ، هذا هو الهدف النبيل ، ولكن الكافر يأخذ هذه النِعَم ويحوِّلها إلى نِقَم ، يأخذ هذه النعم ويتقوَّى بها على معصية الله ، فيكون في النهاية هالكاً عن طريق هذه النعم ، فالذي حصل أن فرعون استخدم هذا المال ، وهذه القوة ، وتلك الزينة ليضل عن سبيل الله ، وفي آية آخرة مطمئنة يقول تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال : من الآية 36)

المعنى الثاني للآية :

وبعضهم فسَّرَ هذه الآية :

(إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ)

فهل يعقل هذا أن يفعلوه ؟ إما أنه استفهامٌ إنكاري من دون أداة استفهام ، كما ورد هذا في بعض آيات القرآن الكريم ، وإما أن هذه اللام لام المآل والصيرورة وليست لام التعليل .

دعاء موسى عليه السلام على فرعون وقومه :

1 ـ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ)

أي بدد أموالهم ، أهْلِك أموالهم ..

2 ـ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ

(وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

ضيِّق عليهم قلوبهم ..

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

(سورة التوبة : من الآية 118)

العوام يقولون : ضاق قلبي ، هذا عقاب من الله ، " إذا قصر العبد بالعمل ابتلاه الله بالهم والحزن " ، أحياناً جميع وسائل السرور متوافرة والقلب في ضيق ، حتى إن بعض المفسرين حينما فسر قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

كيف نفسر هذه المعيشة الضنك بالنسبة إلى رجلٍ غنيٍ جداً ، يسكن في أجمل بيت ، ويأكل ألذ أنواع الطعام ، ويرتدي أجمل الثياب ، ويركب أفخر السيارات ، ويسيح في كل صيف في أنحاء أوروبا ، ويذهب في الشتاء إلى إفريقيا ، ويفعل ما يفعل ، فكيف نفسر هذه الآية بحق هذا الغني ؟ قال علماء التفسير :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

أي ضيق القلب ، في قلبه ضيق ، واكتئاب ، وسوداوية ، وقلق ، وخوف ، وذعر ، ورعب ، ما لو وزِّع على أهل بلد لكفاهم ، لأتعسهم ، هذه هي المعيشة الضنك بالنسبة للأغنياء أو الأقوياء .

(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ)

أما أنه ينكر عليهم ذلك ، فلأنه لا يُعقل أن يكون هذا المال أعطاهم الله إياه لإضلال الناس عن الحق ، أو أن الذي حصل أن هذا المال صار قوةً لهم فضلوا بها عن سبيلك .

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

من علامات تعطيل الفكر أن الإنسان لا يتحرَّك إلا عند الإحساس بالألم :

لماذا ؟ لأن هؤلاء من نوع لا يخافون إلا بأعينهم ، فمن علامات الغباء ، ومن علامات تعطيل الفكر أن الإنسان لا يتحرَّك إلا عند الإحساس بالألم ، فمثلاً : يقوم بزيارة دورية للطبيب ، لا ، ولكن حينما يحس بألم شديد يذهب إليه ، ينصحه الناس بعدم التدخين ، لأن الدخان يضيِّق الشرايين ، وأن أكثر أمراض القلب والأوعية الآن مبعثها التدخين ، فيدخن ، ويدخن إلى أن يأخذوه في حالة إسعاف إلى

المشفى ، إلى غرفة العناية المشددة ، الآن يقلع عن التدخين ، إن هذا التصرف علامة الجهل ، علامة الغباء ، وأن الإنسان عند الألم الشديد يعرف خطورة أعماله ، أحياناً يكون البيت في خطر ، ينصحونه، يبلغونه ، يحذرونه ، ينذرونه فلا يعمل شيئاً ، حتى يسقط البيت فوق أولاده ، ثم يقول : والله كان معهم الحق ، العوام يقولون : يخاف من عَيْنِهِ فقط ، إلى أن يرى الخَطَر يخاف ، أما المؤمن فأذكى من ذلك ، المؤمن يُعِدُّ لكل شيءٍ عدته قبل أن يقع ، ومن تمام العقل أن تصل إلى نتائج الأشياء قبل أن تصل إليها ، أن تصل إلى النتائج بفكرك قبل أن تصل إليها بجسمك .

(فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

3 ـ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

ينحرف حتى يصاب بمرض ليس له حل ، مرض عضال ، عندئذٍ يؤمن أن هذا المرض كان عقاباً على هذا الانحراف ، تراه يأكل الربا ، ويظن أنه لن يحدث له أي شيء ، حتى يأتي يوم يتبدد فيه ماله ، ويهلك ماله ، عندئذٍ يؤمن بأن الربا حرام ، ويمحق الله الربا ، يتساهل في علاقته مع النساء حتى يقع في الزنا ، يتساهل مع زوجته حتى تخونه ، يتساهل بعمله حتى يُفْصَل منه ، لا يخاف إلا بعينه ، أما العاقل فيخاف بعقله قبل عينه .

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

هؤلاء من النوع الذي إذا رأى العذاب يقول : آمنت ، أما أن يأخذ موقفاً منطقياً منصفاً قبل فوات الأوان فلا يفعل ذلك ..

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

قال الله عزَّ وجل :

(قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا)

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا

موسى عليه السلام يدعو وهارون يؤمِّن :

من الداعي ؟ الداعي سيدنا موسى .

(وَقَالَ مُوسَى)

لماذا قال الله عزَّ وجل :

(قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا)

لأن سيدنا هارون كان معه ، فلما دعا سيدنا موسى عليه السلام قال هارون : آمين ، والتأمين دعاء ، التأمين على دعاء الداعي دُعاء ..

(قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

1 - لا تستعجلوا إجابة الدعاء :

قال العلماء : بين الدعاء والإجابة أربعون عاماً ، الزمن عند الله هو من خلق الله ، لقد صدر الأمر من الله سبحانه باستجابة هذا الدعاء ، ولكن لكل شيءٍ أوان ، وتلبية الدعاء مرهونة بمشيئة الله ، فمن تَعَجَّلَ الشيء قبل أوانه عوقِبَ بحرمانه ، لكن اطلب من الله واستسلم ..

(فَاسْتَقِيمَا)

المعنى الأول :

بعضهم حمل هذه الآية على الثبات على الاستقامة ، هما مستقيمان ، ما معنى قولك لطالب مجتهد : اجتهد ؟ أي داوم على اجتهادك ، استمر على اجتهادك ، اثبت على اجتهادك .

(فَاسْتَقِيمَا)

المعنى الثاني :

تابعا نُصْحَ فرعون ، المعنى الأول : اثبتا على تلك الاستقامة ، المعنى الثاني : تابعا نصح فرعون .

(وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

هؤلاء الذين لا يعلمون يستعجلون قضاء الله وقدره ، والإيمان بالقدر يُذهب الهمَّ والحزن ، ولكل شيءٍ أوان ، لكل شيءٍ قَدَر ، الأمور بمواقيتها ، فالإنسان يجب ألا يتجاوز حدوده في تعيين وقت الإجابة ، ادع الله ثم اترك الأمر لله سبحانه..

(قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(89)وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا)

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا

1 ـ البغي والعدوان صفتان أهلكتا فرعون :

البغيُ صفة نفسية هدفها الكِبْر ، والعَدْو : العدوان ، أي أنَّه كان مستعلياً عليهم بنفسه ، معتدٍ عليهم بيده..

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ)

2 ـ هكذا أغرق الله فرعون وجندَه :

يقولون : إن سيدنا موسى دخل في البحر هو وقومه ، وتردد فرعون في دخول البحر ، هكذا يقال : تردد ، كأنه شعر أن في هذا النزول فَخًّا ، تردد ، ثم تراءى له هامان أمامه ينطلق في البحر فتبعه ، وقال بعضهم : إن الله أرسل أحد الملائكة على شكل هامان وهو يمتطي فرسه ، ويُغْري فرعون بالنزول في البحر ، فنزل فرعون وجنوده ، فلما خرج آخر من كان مع سيدنا موسى عاد البحر بحراً فأدركه الغرق .

قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ

1 ـ لم ينفع فرعونَ إيمانُه بالله حين أدركه الغرق :

حينما أدركه الغرق قال :

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

2 ـ كلُّ إنسان يعرف الحقيقة في وقت لا ينفعه ذلك :

بعد فوات الأوان ، هذا سوف يحصل لكل إنسان ، كل إنسانٍ سوف يعرف الحقيقة ، ويؤمن ، ولكن في وقتٍ لا ينفعه إيمانه .

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا)

(سورة الأنعام : من الآية 158)

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

وأنا متأكّد أن كل إنسانٍ منحرفٍ ، وأن كل إنسانٍ عاصٍ إذا جاءته مصيبة خلال ثوانٍ يعرف أن هذه المصيبة عقابٌ من الله عزَّ وجل .

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ

المعنى الأول :

بعضهم قال : هذا كلام فرعون نفسه ، نفسه حدَّثته : الآن تؤمن ، دُعِيتَ قبل أربعين عاماً إلى الإيمان فلم تؤمن ولو أنك آمنت لمكّنك الله في الأرض ولرفع شأنك ، الآن تؤمن ؟ .

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

خاطب نفسه بهذا الخطاب .

المعنى الثاني :

وقيل : إن الله سبحانه وتعالى قال هذا الكلام :

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

المعنى الثالث :

وقيل : إن الملائكة ، هي التي قالت ، فنَصُّ الآية إما أنه قول الله عزَّ وجل ، أو أنه قول الملائكة ، أو أنه قول فرعون نفسه .

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ)

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ

الحكمة من إنجاء فرعون ببدنه :

فلشدة رهبته في قلوب الناس ، وشدة استعلائه في الأرض ، ولشدة اعتقاد الناس أنه ربُّهم الأعلى ، ولشدة ما بثَّهُ في قلوب الناس من ذُعر ، لم يصدق أحد أنه غرق ، فأخرجه ربنا من البحر وألقاه على

شاطئ اليَمِّ ليراه القاصي والداني ، وأن هذا هو فرعون بلحمه ودمه ، فرعون نفسه مُلْقىً على شاطئ البحر ميتاً غرقاً ..

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

وأغلب الظن إن لم يكن مائة بالمائة أن فرعون موسى مُحَنطٌ في الأهرامات ، والذي يصوَّر في الصحف هو فرعون موسى نفسه الذي نجَّاه الله ببدنه ليكون لمن خلفه آية ، وقد بلغني أن علماء كباراً وصلوا إلى مصر ، وفحصوا الجثة المحنطة ، واستنبطوا منها أنها ماتت غرقاً ، وقد نُقِلَ فرعون إلى فرنسا لينال بعض الترميم لجثمانه ، وأعيد إلى مصر ، وأغلب الظن أن هذا هو نفسه فرعون موسى ، ولأن كلام الله حق ..

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)

وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ

الناس يؤخذون بالباطل ، يؤخذون بالوهم ، يؤخذون بالظن ، يؤخذون بما يقال لهم ، وهذه هي الحقيقة، الإنسان ضعيف لا يقوى على النجاة بنفسه ، الإنسان إذا عرف الله تضاءلت نفسه ، فإذا جهل تعاظمت نفسه .

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ(92)وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمْ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

بنو إسرائيل كانوا يعلمون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام :

أي أن بني إسرائيل كانوا أول الناس إيماناً بالنبي عليه الصلاة والسلام ، و قبل أن يأتي ، قبل أن يأتي كانوا يقولون : سيبعث نبيٌ في العرب ، واسمه كذا ، وهذا مكتوبٌ عندنا في التوراة ، والله سبحانه وتعالى قال :

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة : من الآية 146)

فلما جاءهم الحق من عند الله كفروا به ..

(فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمْ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(93)فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ

مِنْ الْمُمْتَرِينَ(94)وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنْ الْخَاسِرِينَ(95)إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ(96)وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

تعليق على قصة موسى :

التعليق الأول :

هذه الآيات نتابع تفسيرها إن شاء الله في درس الجمعة القادم ، والتعليق الطفيف على هذه القصة : أن هذه القصة ليست رواية لأحداثٍ مضت ، لكنها مناطٌ للعبرة ، كل إنسان لابدَّ من أن يموت ، ولابدَّ من أن تُكْشَفُ له الحقائق عند الموت ، فإذا عرفت الحقيقة قبل الموت فأنت من السعداء ، وإذا عرفتها أثناء الموت فهذا من الشقاء الأبدي .

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

على مستوى حياتنا الدنيا ، بعد ما دُمِّر المال ، آمنت أن الربا حرام ، الآن آمنت ؟ بعد ما الزوجة خانت ، آمنت أن الاختلاط حرام ؟ بعد ما المصيبة وقعت ، آمنت أن هذا السلوك منحرف ؟ أما العاقل فيتعظ بغيره .

التعليق الثاني :

فرعون موسى ليس هو رمسيس الثاني الذي عولج في فرنسا ، وليس مدفوناً في أهرامات مصر ، فهو محنَّط ومحفوظ في قاعة المومياوات بالمتحف المصري مع فرعون موسى الذي مات غرقا ، والذي أثبتت التحاليل وجود آثار من الرمال البحرية والقواقع في داخل جسده ، واسمه(امننفتاح)وهذه أحدث نظرية إلى الآن ، والله أعلم بالحقيقة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (17-17): تفسير الآيات 94 – 109
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-01-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في تفسير سورة يونس إلى قوله تعالى :

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ)

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ

لمَن الخطاب في هذه الآية ؟

بالتأكيد ليس الخطاب لرسول صلى الله عليه وسلَّم ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن في لحظةٍ واحدة في شَكٍّ مما أُنْزِلَ إليه ، ولكن هذه الطريقة في التعبير القرآني فسَّرها بعض المفسِّرين : أي قل لهم يا محمَّد :

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ)

المعنيّون بهذه الآية هم عبدة الأوثان في عصر النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان أهل الكتاب في ذلك الزمن يتمتَّعون بمكانةٍ مرموقةٍ عند هؤلاء ، عند عبدة الأصنام ، لأنهم أصحاب كتاب ، فأُمِرَ النبي عليه الصلاة والسلام أن يخاطبهم بأنهم إذا كانوا في شكٍ من هذا القرآن الكريم فليسألوا أهل الكتاب : ألم يَرِد في كتبهم هذا الذي جاء به القرآن الكريم من قصص الأنبياء ، ومن الوَعْدِ والوعيد ، ومن الجنَّة والنار ؟

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ)

لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ

1 ـ الشك حالة خطيرة :

لا تكونَنَّ من الممترين أيضاً النهي قُصِدَ به هؤلاء الذين في شك ، والحقيقة أن الشك حالة خطرة ،

والشَّاكُّ لا هو مؤمنٌ فيفيد من إيمانه ، ولا هو ملحدٌ كافرٌ فيُضْرَبُ اسمه من قائمة المؤمنين ، لا هو مؤمنٌ فيفيد ، ولا هو غير مؤمن فيُقْطَعُ الأمل منه ، إنه بينَ بينْ ، هذه الحالة من أخطر حالات الإنسان، إنه متردِّد .

مثلاً : لو أنك متأكّد من أنه لو افتتح اكتتابٌ لبناء البيوت ، وثمن البيت لا يزيد على مائة ألف ، بيت صحّي ممتاز بمائة ألف ، والمبلغ معك ، لو كنت مُتَيَقّناً من أن هذا المشروع سوف يُنْجَزْ في الوقت المناسب ، ووفق المواصفات التي أُعْلِنَ عنها ، وأن هذا المبلغ لا يعدل خُمْسَ ثمنه الحقيقي ، ماذا تعمل؟ إنك تبادر إلى دفع المبلغ ، هذه حالة اليقين .

2 ـ اقطع الشكَّ باليقين :

كل إنسان لم ينطلق إلى العمل فهو في شَكٍ من هذا الكتاب ، ما دام الإنسان يقف موقف المتفرِّج ، ما دام الإنسان متردِّداً يقول لك : والله شيء يحيّر ، تجلس مع إخوة الإيمان فتقتنع ، تجلس مع أهل الدنيا فتقتنع ، معنى هذا أنك في شك ، والذي يعيق حركتك هو الشك ، لذلك قالوا : " اقطع الشكَّ باليقين " ، وأيَّة حالةٍ أفضل من هذه الحالة ، إما أن تقول : ما جاء في هذا الكتاب حقٌّ من عند الله ، إذاً انطلق إلى تطبيقه ، وإما أن تأتيني ببرهانٍ على أنه ليس من عند الله ..

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117))

(سورة المؤمنون)

3 ـ العاصي فيه اختلال توازن وانفصام شخصية :

حالة الشك حالة خطيرة ، والإنسان عندئذٍ عزيمته مثبَّطة ، قدراته معطَّلة ، نشاطه موقوف ، إمكاناته مُفَرَّغة ، اهتماماته أرضيَّة ، أهدافه ضبابيَّة ، هذه هي حالة الشك ، وهذا الحال يصيب معظم المسلمين، قل لمسلمٍ : هل أنت موقنٌ أن هذا العمل فيه معصيةٌ للنبي ؟ يقول لك : الله يتوب علينا ، قل له : هل هناك حسابٌ دقيق ؟ يقول لك : طبعاً ، فماذا تفعل ؟ كيف توقن أن هناك حساباً ، وأن هناك جنَّة وناراً ، وأنَّ هذا العمل غير صحيح ، وكيف إذّا أنت مقيمٌ عليه ؟! شيء عجيب ، لذلك أسعد الأشخاص هم المتوازنون عقليًّا ، هذا المسلم الذي يعصي الله هو مسلم مختل ، عنده اختلال داخلي ، ما حقّق توازناً في نفسه ، عنده انفصام شخصيَّة ، عقيدته في واد ، وعمله في واد آخر ، تمنيَّاته في واد ، وواقعه في واد ، عنده خلل داخلي .

مثلاً : على مستوى الصحَّة ، عندما يكون عند الإنسان مرض عُضال ، ويعطيه الطبيب أوامر مشدَّدة،

مثلاً : ألا يأكل المِلح إطلاقاً ، عندما يكون عنده مرض عُضال ، وهذا المرض يزيده تناول الملح ، فعندما يأكل الإنسان صحناً واحداً فيه ملح يشعر بانقباض نفسي ، لأن هذا الصحن سوف يُسْهم في تفاقم المرض ، عندما يمتنع عن الملح إطلاقاً يشعر براحة نفسيَّة ، لأن الامتناع عن الملح سوف يُسْهم في شفائه من هذا المرض ، فالإنسان عندما يقنع أن الملح سوف يؤذيه أذىً كبيراً ، ثم يأكل الملح فهذا أمره عجيب ، فإما عنده انفصام في شخصيَّته ، أو غير متوازن ، أو عنده خلل ، أو تمنيَّاته في واد ، وواقعه في وادٍ آخر .

إن هذه الشخصيَّة الازدواجيَّة هي الشخصيَّة السائدة في العالَم الإسلامي ، عواطف المسلم مع الدين ، تمنيّاته دخول الجنَّة ، مخاوفه دخول النار ، وعمله يؤدِّي به إلى النار ويبعده عن الجنَّة ، وينام قرير العين ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((عجبت لثلاث : عجبت لغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه ، وعجبت لمؤمِّلٍ والموت يطلبه ، وعجبتُ لضاحكٍ ملء فيه ولا يدري أساخطٌ عنه الله أم راضٍ))

[ورد في الأثر]

جزء كبير من السعادة يتحقَّق من الانسجام بين عقيدة الإنسان وعمله ، إذا حصل انسجامٌ وتناسق تحصل السعادة ، وكل مسلم مقصِّر عنده انفصام في شخصيَّته ، عنده خلل داخلي ، عنده صراعات مزمنة ، والصراعات المزمنة تؤدِّي إلى حالةٍ أخطر من الصراع وهي اللامبالاة .

ليكن موقفك واضحاً ، هذا الكتاب إما أن تتأكَّد أنه من عند الله ، وأن ما فيه من وعد حقٌ ، وأن ما فيه من وعيد حقٌ ، وإما أن تأتي ببرهان قاطع على أنه ليس كتاب الله ، عندئذٍ افعل ما تشاء ، أما أنك معتقد أنه من عند الله ، وعملك لا ينطبق عليه ، أو معتقد أن ما فيه هو الحق وتخالفه ، كيف تستسيغ هذه الحالة ؟

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ(94)وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنْ الْخَاسِرِين

1 ـ التكذيب بآيات الله سبب الخسران :

والحقيقة هي أن الله سبحانه وتعالى بيّن أن سبب الخسران الكبير هو التكذيب بآيات الله ، و التكذيب بآيات الله يعيق الإيمان بالله ، وسبب الخسارة التكذيب بآيات الله ، والمعنى المعاكس المُسْتَفَاد من هذه

الآية : طريق الإيمان بالله هو الإيمان بآيات الله ..

(إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(104))

(سورة النحل)

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ)

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

كلمات الله هي القواعد الأساسيَّة في تعامل الله مع الخلق :

هذه الآية دقيقة جداً ، بعضهم قال : " أي أن هذا الذي كتب الله عليه أن يكون كافراً منذ الأزل فلن يؤمن في الدنيا " ، فما ذنبه ؟ لكنَّ بعضهم قال في تفسير هذه الآية : " كلمات الله هي القواعد الأساسيَّة التي يبني الله على أساسها تعامله مع الخلق " .

الآن طلاب الجامعة ما الذي ينظِّم العلاقة بينهم وإدارة الجامعة ؟ النظام الداخلي ، لو بلغ الغياب عن هذا المقرَّر مثلاً عشر مرَّات يُحْرَم من أداء الامتحان ، لو أدخل ورقة فيها بعض الإجابات يُحْرَم ست سنوات ، تنظيم العلاقة بين الطلاب وإدارة الجامعة يتم عن طريق نظام داخلي ، فالعلاقات واضحة فيه، فكل مخالفةٍ لهذا النظام تقتضي العقوبة .

ولكن العلاقة بين العبد وربِّه ما الذي ينظِّمها ؟ كلمات الله ، آيات الكتاب تنظِّم العلاقة ، فإذا أخَلَّ الإنسان بهذه القوانين فلن يؤمن ، من هذه القوانين أنه يجب أن تفكِّر بآيات الله ، إن لم تفكِّر فلن تؤمن ، من هذه القوانين أنه يجب أن تستقيم على أمر الله ، إن لم تستقم فلن تؤمن ، من هذه القوانين أنه يجب التقرُّب إلى الله بالعمل الصالح إن لم تفعل ذلك لن تؤمن ..

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ)

أي إذا انطبقت حالةٌ على مخالفةٍ لكلمات الله فالنتيجة اليقينيَّة أن هذا الإنسان لن يؤمن ، فمثلاً : لن يصبح الطالب طبيباً إلا إذا دخل في كليَّة الطب ، فالذي لا يدخل في هذه الكليَّة لن يكون طبيباً ، هذا هو الطريق ، طريق الطب أن تكون طالباً في كليَّة الطب ..

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ(96)وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

لإعراض نفوسهم عن الله عزَّ وجل ، ولاختيارهم الدنيا مهما أريتهم من آية فلن يؤمنوا بها ، لكن

العذاب الأليم هو الذي يخيفهم ، وهو الذي يحرِّكهم ، كما قلنا في درس سابق :

(فلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ(88))

(سورة يونس)

1 ـ من طبيعة الكافر أنه حسَّي :

من طبيعة الكافر أنه حسَّي ، يتعامل مع المحيط بحواسِّه فقط ، وليس عقليًّا ، فحتى تقع الخيانة في بيته يوقن أن الاختلاط مخالفةٌ لقواعد الدين ، حتى يُتلف ماله كلُّه يؤمن بقوله تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة : من الآية 276)

حتى يرى النتائج المؤلمة رأي العين ، وحتى تكون النتائج مدمِّرةً له عندئذٍ يؤمن ، فتعامل الكافر مع الأشياء تعامل حسّي ، لكن المؤمن يتعامل مع الأشياء تعاملاً عقليًّا ، يرى النتائج قبل أن يصل إليها فيتلاءم معها في الوقت المناسب ، والعاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، والغبي والأقل عقلاً يحتاط للأمور حين وقوعها ، والعاجز هو الذي لا يحتاط للأمور لا قبل وقوعها ، ولا حين وقوعها ، ولا بعد وقوعها ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[سنن الترمذي عن شداد بن أوس]

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ(96)وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

الكافر حسي في تعامله مع المحيط ، والمؤمن عقلي يعرف النتائج قبل أن يصل إليها ..

(فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ

1 ـ قوم يونس انتفعوا بإيمانهم :

أي أن قوم يونس نموذج لقومٍ كانوا في تيهٍ ، وفي ضلالٍ ، وفي عصيانٍ لله عزَّ وجل ، وضلالهم وعصيانهم وظلمهم أوردهم موارد الهَلَكَة ، واستحقوا به العذاب الأليم ، عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، فلمَّا آمنوا كشفنا ما بهم من ضر ..

(وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

2 ـ هذه الآية تنطبق على كل مؤمن :

وإذا انطبقت هذه الآية على قوم يونس فإنها تنطبق على كل مسلمٍ مؤمنٍ في أي مكانٍ وزمان ، إنسان معذَّب ، دخله قليل ، عنده أمراض ، في بيته شقاق زوجي ، بين أولاد من هو عاق ، لديه منغِّصات في العمل ، يعاني من متاعب صحيَّة ، ومتاعب اجتماعيَّة ، متاعب مع الجيران ، أزمات خانقة ، لو أن هذا المُسْلِمَ تاب توبةً نصوحاً ، وأخلص لله إخلاصاً تامًّا ، واستقام على أمره ، وفعل الصالحات ، عندئذٍ لابدَّ من أن يبدِّل الله له حياته تبديلاً جذريًّا ، لذلك أنا أقول دائماً : هؤلاء الذين يلتصقون بالدين التصاقاً شديداً ، يتمسَّكون به ، يحرصون عليه ، لماذا هم كذلك ؟ لا لأنهم قانعون بأن ما جاء به الدين هو الحق فحسبُ ، بل لأنهم رأوا رأي العين النتائج الباهرة لمن يتَّبع قواعد الدين .

أحياناً يكون هناك قناعة أن هذا المحل التجاري الموجود في هذا الشارع الفلاني ، بهذه البضاعة سوف يربح أرباحاً طائلة ، هذه قناعات ، لكن الذي يفتح هذا المحل ، ويملؤه من هذه البضاعة ، ويباشر البيع والشراء ، ويرى غلَّته كل يومٍ خمسين ألفاً ، والتمسُّك الشديد بهذا المحل ليس لقناعاته فحسب ولكن لهذه الغلَّة الكبيرة التي يجنيها كل يوم ، لذلك يحرص عليه كحرصه على روحه ، فعندما يستقيم المؤمن على أمر الله ، ويتبع قواعد الدين ، ويجد أن حياته تبدَّلت تبدُّلاً جذرياً ؛ صار سعيداً في بيته بعد أن كان شقيًّا، صار في عمله مطمئناً بعد أن كان قلقاً ، صار في صحَّته متوازياً ومتوازناً بعد أن كان مضطرباً، إذا تبدَّلت حياة الرجل تبدُّلاً جذريًّا فهذه علامة صحَّة إيمانه وصدقه في طلب الحق ..

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء : من الآية 147)

" إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهِّرهم من الذنوب والمعايب".

إذاً : قوم يونس عندما آمنوا بما جاء به يونس عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام ، واتَّبعوه بإحسانٍ وصدقٍ ..

(كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

شتان بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن :

أي أنك أيها المؤمن موعودٌ من قِبَل الله عزَّ وجل خالق السماوات والأرض أن يمتِّعك إلى حين ، أن يمتِّعك بصحَّتك ، أن يمتِّعك بسمعك ، أن يمتِّعك ببصرك ، أن يمتِّعك بعقلك ، أن يمتِّعك بأجهزتك المختلفة ، أن يمتِّعك بزوجتك ، بأولادك ، ببيتك ، بعملك ، بدخلك إلى حين ، إلى أن ينقضي الأجل ، لذلك لو وازنا بين حياة المؤمن وحياة الكافر فشتَّان ما بينهما ..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

دع الآخرة ، دع ما بعد الموت ، وانظر لما قبل الموت ، ما قبل الموت شتَّان بين حياة المؤمن وحياة الكافر ، حياة المؤمن لها طعمٌ خاص ، لها مذاقٌ خاص ، تُخيِّم عليها الطمأنينة ، تخيِّم عليها السعادة ، ينعم المؤمن بالثقة بالله عزَّ وجل ، تراه هادئاً ، مستسلماً ، متوكّلاً ، مفوِّضاً ، قانعاً ، راضياً ، راكعاً ، ساجداً ، صابراً ، متفائلاً ، متطلّعاً للآخرة ، زاهداً في الدنيا .

3 ـ قوم يونس مَثَلٌ لكل قوم ضاقت بهم السُبُل :

إذاً : قوم يونس مَثَلٌ لكل قومٍ ضاقت بهم السُبُل ، واحْلَوْلَكَتِ الحياة في وجوههم ، وأصابهم ما أصابهم، وكل قومٍ في آخر الزمان يعانون من عذاب شتَّى ، يعانون من أزماتٍ شتَّى ، إنهم لو فعلوا كما فعل قوم يونس لكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولمتَّعهم إلى حين ، وهذه الآية تنطبق على الجماعات كما أنها تنطبق على الأفراد ..

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

1 ـ الإيمان تحت الإكراه لا يُسعِدِ الإنسان :

مثلاً : إذا كان مدرِّس يدرِّس اللغة العربية ، وله ابن عنده في الصف ، وفي الامتحان الحاسم ، وهو امتحان نهاية العام ، لو شاء هذا المدرِّس أن يملي على ابنه الأسئلة قبل يوم ، وأن يعرِّفه بالأجوبة ، ألا يستطيع هذا الابن أن ينجح نجاحاً باهراً في اليوم التالي ؟ لا شك ، ولكن لو أنه أملى عليه الأسئلة والأجوبة ، وبقي جاهلاً في هذا الكتاب ، وما فيه من حقائق هل هذا النجاح له قيمة عند الابن ؟ لا ، ولا عند الأب ؟ ولا ، عند الناس ؟ لا ، لو أن إدارة الجامعة جاءت ، وأنعمت على أحد المواطنين بلقب الدكتوراه من دون أن يكون أهلاً لها ، هل لهذه الشهادة قيمة عند صاحب الشهادة ؟ لا والله ، ولا عند أترابه ، ولا عند أقرانه ، ولا عند أهله ، ولا عند أصحابه ، ولا عند الناس ؟ ولا عند أحدٍ أبداً ، فالله سبحانه وتعالى لو شاء لأكره الناس على الإيمان ، ولكن إكراه الناس على الإيمان لا يُسْعِدُهم ، لذلك فالله سبحانه وتعالى قال :

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة : من الآية 256)

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا)

هل القضية قضية إيمان أو عدم إيمان ؟ القضيَّة قضيّة سعادة أو شقاء ، الإيمان القسريُّ لا يسعد الناس، لا يسعدهم إلا أن يأتوا لله عزَّ وجل طائعين بمحض اختيارهم ، لا يسعدهم إلا أن يحبُّوه ، فلو أكرههم فإنهم لا يحبُّونه ..

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ)

يا محمَّد أفأنت ..

(تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

لا ..

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة : من الآية 272)

تعود كلمة يشاء على العباد ، أي أن العبد إذا شاء الهُدى يهتدي ، أما أن تجبره على الهدى هذا مخالفٌ للسنَّة ، هذا مخالفٌ لسنَّة الله في الأرض ..

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة : من آية 272)

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص : من الآية 56)

إذاً كأن في هذه الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام ..

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

2 - هدى الناس ليس وفق مشيئة البشر :

هذا الكلام أحياناً يوجَّه إلى الآباء ، قد تجد أباً يكاد قلبه ينفطر حزناً لأن ابنه ليس على شاكلته ، نقول له : لا تحزن كل هذا الحزن ، هُدَى ابنك ليس وفق مشيئتك بل وفق مشيئته هو ، فإن لم يشأ الهدى لن تستطيع أن تلزمه أن يكون مهتدياً ، كل إنسان له اختيار ، أنت وضِّح ، وبيِّن ، وعرِّف ، وأنذر ، وحذِّر، وراقب فإذا أصرَّ الابن على موقفه فهذا اختياره ، وسوف يُحَاسَب عليه .

إذاً :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(99)وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

معاني الحروف المقطّعة :

هذه الآية من الآيات المتشابهات :

أيضاً هذه الآية من الآيات المتشابهات ، أي أن هذه النفس لن تؤمن إلا إذا سلكت السبيل التي رسمها الله ، بهذا المعنى ، إذن فالله ليس عمله اعتباطيّاً ، إذن فالله ليس تصرفه مزاجيًّا ، إذاً فالله يقضي وفق خطَّةٍ دقيقةٍ رسمها للإنسان..

(إنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(104))

(سورة النحل)

فلذلك :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

والله لا يأذن لنفس أن تؤمن إلا إذا دفعت ثمن الإيمان وكانت أهلاً للإيمان ، إن كانت أهلاً للإيمان ودفعت الثمن يأذن الله لها أن تؤمن .

مثلٌ من واقع الناس يفسر الآية :

مثلاً : نقول للطلاب الذين تخرَّجوا حديثاً من الشهادة الثانويَّة : قدِّموا الأوراق للجامعة ، واختاروا الفروع التي ترغبونها علماً بأن المعدَّلات هكذا ؛ الطب علامته كذا ، الهندسة ، الصيدلة ، العلوم ، الرياضيات ، فهذا الذي نال مجموع مائة درجة أو مائة وخمس درجات كتب في استمارة القبول طب ، هو اختار الطب ، ولكن تأتي مشيئة الجامعة فترفض هذا الطلب ، لماذا ؟ لأنه لم يحقِّق المجموع الذي يؤَهِّلَ صاحبه أن يدخل كلية الطب ، إذاً :

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا(19))

(سورة المزمل)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الإنسان : من الآية 30)

أي أن مشيئة الإنسان مشيئة اختيار ، لكن مشيئة الله عزَّ وجل مشيئة فحصٍ واختبار ، هل هو أهْلٌ لهذا الفرع الذي كتبه ؟ هل حقَّق المجموع الذي يناسب هذا الفرع ؟ إن كان كذلك تأذن إدارة الجامعة بدخول هذا الطالب ذلك الفرع ، وإن كان ليس كذلك يُرْفَض الطلب ، إذاً : الأمر كله ينفذ بإذن الله ، وهذا الإذن وفق قواعد ثابتة ، ليس إذناً مزاجيّاً ، ولا اعتباطيَّاً ، ولا كيفيَّاً ولكنَّه إذنٌ مقنَّن .

(وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ

1 ـ تعقيبٌ مفسِّرٌ لصدر الآية :

هذا التعقيب فسَّر صدر الآية ، أي أن هؤلاء الذين يعقلون يأذن الله لهم بالإيمان ، وهؤلاء الذين لا يعقلون هم الذين يرفضهم الله عزَّ وجل ، ولا يأذن لهم إطلاقاً بدخول الجنَّة ..

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

هذا هو الإذن قد وضِّح ، فإذن الله متعلّقٌ بالعقل فإن عقلت أذِنَ الله لك ، وإن لم تعقل لم يأذن الله لك ، لمَّا خلق الله العقل قال له : " أقبِلْ فأقبَلَ ثمَّ قال له : أدْبِر فأدْبَرَ ، قال : وعزَّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبَّ إليَّ منك بك أعطي وبك آخذ " ، من استخدمك فأحسن استخدمك يستحقُّ سعادة الدنيا والآخرة ، ومن عطّلك وأساء استخدامك يستحقُّ شقاء الدنيا والآخرة .. إذاً :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

2 ـ من لم يتبع الحق ابتع هواه وشهواته :

إذا لم يعقل الإنسان الحقائق سوف يلتفت إلى الشهوات ، فليس هناك إلا هاتان الحالتان ، إما أن تكون مع المعقولات ، أو أن تكون مع الشهوات ، فالذي لا يعقل لابدَّ من أن ينغمس في الشهوات إلى قمَّة رأسه ، عندئذٍ يستحقُّ لعنة الله ، وينالُه رجسٌ من الله عزَّ وجل ، أين الطريق إذاً ؟ جاء الطريق :

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ

النظر في الكون طريق الإيمان :

أي أن الإنسان إذا دخل إلى محلٍ تجاري ويريد منه حاجة ليست في هذا المحل ، كل البضاعة في المحل لا يراها ، لأن هذه البضاعة ليست متصلة بحاجته ، فأحياناً ترى ولا ترى ، ترى الشيء ولا تراه لأنك مشغولٌ عنه بغيره ، أحياناً يزورك زائر فتقول : زارني فلان ، اسأل نفسك ماذا كان يرتدي

من الثياب ؟ والله لا أتذكَّر ، لا تذكر لا نوع الثياب ، ولا لونها ، ولا بعض مظاهره إطلاقاً ، أنت ملتفت لذاته ، زارك ، وتحدَّث معه ، وتركك ، ألم ترَ ثيابه حينما كان عندك ؟ كنت تراها ، فلِمَ لمْ تذكرها ؟ لأنك لم تكن مهتماً بالثياب بل كنت مهتماً به ، إذاً أنت رأيت الثياب ، وكأنَّك لم ترها .

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

إذا التفت الإنسان للشهوات ، التفت للدنيا ، انغمس في حمأتها ، جعل إلهَهُ هواه ، لو رأى الشمس ، ورأى القمر ، ورأى المجرَّات والمذنَّبات ، وعرف أن الأرض كرويَّة ولها محور مائل ، ولها دورة حول نفسها ، ودورة حول الشمس ، والشمس والقمر يجريان إلى أجلٍ مسمّى ، لو رأى كل هذا لا يراه إلا كما ترى ذلك البهائم ، لو وضعت أمام دابَّةٍ حجراً لحادت عنه ورأته ، رؤيتها لهذا الحجر كرؤيتك له ؟ لكن لو وضعت أمام دابَّة فلَّة تقضمها وتأكلها ، فهل عرفت أنها ليست للأكل إنما هي للشمِّ ؟ لا ، فعندما يكون الإنسان بعيداً عن الحقائق لا يرى الأشياء على حقيقتها..

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ(101)فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ)

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ

المعرض ينتظره علاج من الله :

حينما يُعْرِضُ الإنسان عن الإيمان ، وحينما لا يبالي بقواعد الدين ، ولا يتَّبع لتعليمات الدين ماذا ينتظره ؟ تنتظره العلاجات التي عالج الله بها الأقوام السابقة ، هذا الذي يدير ظهره للدين ماذا ينتظره ؟ ينتظره علاج ربِّ العالمين ؛ التضييق إما بدخله ، أو بصحَّته ، أو بحياته الزوجيَّة ، أو بعمله ، لابدَّ من ذلك ، وإذا أصرَّ على موقفه لابدَّ من إهلاكه ، كما أهلك الله قوم عادٍ وثمود وقوم فرعون من بعدهم ..

(فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ)

إذاً : كأنَّ الله سبحانه وتعالى يَعِدُ الكفَّار المصريّين على كفرهم بالهلاك الشامل ، لكنَّ هذا الهلاك الشامل ليس شاملاً كل الناس قاطبة بل الكفَّار حصراً ، والدليل قوله تعالى :

(ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ)

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ

1 ـ لن يؤخذ الطائع بالعاصي :

أي أن الله عزَّ وجل لو قرَّر تدمير قرية تدميراً شاملاً ، وفيها رجل مؤمن ، لابدَّ من أن يجعل له حاجة خارج القرية ، فإذا ما خرج منها جاء التدمير ، فاطمئن ، لن يؤخذ الطائع بالعاصي كما يفعل الناس أحياناً ..

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام : من الآية 164)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(35)فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ(36))

(سورة الذاريات)

ثم دمَّرنا ، إذاً : البلاء خاصٌّ ، والرحمة خاصَّة ، ولن يؤخذ إنسان بجريمة إنسان ..

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ)

(سورة العنكبوت : من الآية 40)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ(17))

(سورة سبأ)

اطمئنَّ ، كن مؤمناً واستحقَّ حفظ الله لك ..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجبنا فإنَّا منحنا بالرضا من أحبَّنا
ولذ بحمانا واحتم بجنابنا... لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

(ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ)

2 ـ الحكمة من استعمال الفعل ننجي مضارعًا :

جاء الفعل ننجي بصيغة المضارع ، ومن معاني الفعل المضارع الاستمرار ، أي إلى نهاية الحياة ، في كل مكانٍ على وجه الأرض ، في كل زمان ، في كل عصر ، في كل مصر ، في كل صقع ، في كل بلد ، في كل قرية ، على اليابسة ، على ظهر البحر ، على مَتْنِ الجو ، في أيّ مكانٍ كنت إن كنت

مؤمناً تستحقُّ النجاة من الله عزَّ وجل .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

1 ـ لا تحمِّل نفسك مشقة إقناع الجاحد والمكابر بالدين :

إن كنتم في شكٍّ من ديني فلكم دينكم ولي دين ، لا تحمِّل نفسك مشقة أن تقنع الجاحد والمكابر بالدين ، إن كنت في شكٍ من هذا الدين فلك دينك ولي ديني ، هذا جوابٌ حاسم ، إن كنت في شكٍ مما أعبد فلك ما تعبد ولي ما أعبد ، لن أسأل عنك ولن تُسأل عني ، لك ما كسبت ولي ما كسبت ، لي عملي ولك عملك ..

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

2 ـ التشكيك في الدين لا يحمل المسلم على التخلي عنه :

أي أن الإنسان أحياناً إذا شكَّك بمعتقداتك ، أو شكَّك بقيمك ، هل معنى ذلك أنك تتخلَّى عن هذه القيم ؟ أو تتخلَّى عن هذه المعتقدات ؟ أو أن تغيِّر خطَّ سيرك في الحياة ؟ أو أن تتنكَّب الصراط المستقيم ؟ هذا منتهى الغباء ، إن شكَّ فليشك ، وعدم الوجدان لا يدلُّ على عدم الوجود ، إن كان عمىً في قلبه ماذا أفعل له ؟ ..

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(سورة هود)

إذا كان الله يرحمك وهذه الرحمة عُمِّيَّت على بعض الناس وأنكروها عليك فهل تتخلَّى عنها ؟

(فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ)

وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم

1 ـ لقد متَّ وتمتّع ورثتك بمالك :

رجعوا من المقبرة وتركوك ، رجعوا إلى البيت ، وتناولوا على روحك ما لذَّ وطاب ، وأظهروا الحزن والألم ، ولكنَّ قلبهم يرقص فرحاً ، وما هي إلا أيام أو أسابيع حتى نزعوا ثياب الحزن ، وتمتَّعوا بهذا المال ، وشرَّقوا به وغرَّبوا ، وأنت تُحَاسب عنهم ، كيف جمعت هذا المال وكيف أنفقته ؟ هنا المصيبة.. " رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحيُّ الذي لا يموت " ..

(وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ)

2 ـ علاقتك بمن يتوفاك :

لو تعاملت مع مائة ألف رجل ، وكلُّهم لا علاقة لهم بوفاتك ، لا شأن لهم فلن تفيد منهم شيئاً ، عليك أن تتعلّق بمن يتوفّاك ، بمن مصيرك إليه ، بمن نهايتك عنده ، بمن إليك مرجعه ، بمن بيده الموت ، اعبُدِ الله ..

(وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

شيء جميل ، أي أنك عليك أن تعبد الذي يتوفّاك ، أما الإنسان لا يملك أمر وفاتك ولا أمر حياتك ، ولا أمر رزقك ، ولا أمر سعادتك ، ولا أمر شقائك ، فلمَ تعبده إذاً ؟

أحد الناس دخل إلى دائرة حكوميَّة ، ومعه معاملة تحتاج إلى توقيع ، والتوقيع من حقِّ المدير العام ، أليس من الغباء أن يتجه إلى مستخدم ويرجوه أن يوقّعها له ؟ ليس بيده توقيع هذه المعاملة ، فمن الغباء أن تتجه إليه ، أو أن ترجوه ، أو أن تستجير به ، أو أن تكرمه ، لا ، اذهب إلى من بيده التوقيع ، اطلب من الله عزَّ وجل ..

(وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(104)وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا)

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

اتجه بجميع جسمك إلى الدين :

هذه آية دقيقة جداً ، أنا أنظر إلى هذه الجهة جهة اليمين قليلاً ، هذا النظر إلى جهة اليمين مثلاً مع أن صدري بهذا الاتجاه ، جهة اليسار ، لا يقال عن هذا إقامة الوجه لهذه الجهة ، جهة اليمين التي مثلنا بها أي يجب أن تتجه لا بعينيك ولا برأسك ، ولكن بكلّك إلى الدين .

(وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا)

أحياناً قد يتجه إنساناً إلى الدين اتجاهاً يسيراً ، يحضر درس الجمعة ، يحضر الخطبة ، يقول لك : هناك درس في الساعة الثالثة أحب أن أسمعه .. لكن له نشاطاته المخالفة للدين ، له نزهاته ، له اختلاطاته ، له حركاته ، له انغماسه في الدنيا، لا يقال عن هذا الإنسان : إنه أقام وجهه للدين ، لو نظر إلى الدين بعينيه ما أقام وجهه ، لو نظر إليه بوجهه لا يكفي ، لابدَّ من أن يقيم وجهه كلَّه ، والوجه هنا بمعنى وجْهَتَهُ ، والوجهة أي جسمه بكامله يجب أن يكون باتجاه الدين ، أي أن الدين لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلَّك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً .

(وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ

احذر الشرك بجميع أنواعه :

هناك شركٌ في القلب ، وهناك شركٌ في الجوارح ، وهناك شركٌ في الوجهة ، وهناك شركٌ في الاعتقاد ، وهناك شركٌ في النيَّة ..

(وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

لا تكن مشركاً بأي نوعٍ من أنواع الشرك .

(وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ)

أي أنه غباءٌ ، و سخفٍ ، و ضلالٍ ، و سوء تقديرٍ ، و ضيق أفقٍ أن تدعو من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرُّك .

(فَإِنَّكَ إِذًا مِنْ الظَّالِمِينَ)

لنفسك ، إن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرُّك إنك إذاً من الظالمين ..

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ)

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ

أتمنَّى عليكم أن تدقّقوا في هذه الآية :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)

المعنى الأول للمفارقة بين المس والإرادة :

لماذا قال الله عزَّ وجل في موضوع الضر : يمسسك ، وقال في موضوع الخير : يردك؟ قال بعض المفسِّرين : " إن كل إرادةٍ لله عزَّ وجل لابدَّ من أن تقع " ، الإنسان قد يريد وهذه الإرادة قد لا تقع ، ولكن الله إذا أراد وقع ما أراد ، فالتبديل بين المَس والإرادة تبديل يعني أن كلاً منهما يغني عن صاحبه ، لو أنَّ الإرادة وقعت لنُفِّذَتْ ، ولو أن شيئاً وقع على وجه الأرض لكان بإرادة الله ، الذي وقع إنما وقع بإرادة الله ، وإذا أراد لشيءٍ أن يقع وقع ، التبديل إذا أراد الله لشيءٍ أن يقع فلابدَّ من أن يقع ، وإذا وقع شيءٌ ما كان له أن يقع إلا بإرادة الله ، هذا المعنى الأول للمفارقة بين المسِّ وبين الإرادة .

المعنى الثاني :

المعنى الثاني : الضرُّ ليس مقصوداً لذاته من قِبَل الله عزَّ وجل ، إنما هو وسيلة للخير ..

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)

الخير مقصودٌ لذاته ، والضرُّ ليس مقصوداً لذاته إنما هو وسيلةٌ لردِّك إلى الحق ، الخير من قِبَل الله ، والشرُّ من الله تنفيذاً بسبب أفعالنا إرادةً ، فالخير مقصودٌ لذاته ، أما الشر فمقصودٌ لغيره .

مثلاً : متى يستخدم المعلِّم العصا ؟ هل ضرب التلاميذ مقصودٌ لذاته ؟ لا ، تعليمهم وتأديبهم ورفع مستواهم هو المقصود لذاته ، فإذا قصَّروا نضربهم ، والضرب وسيلة ، وليس غاية ، نضربهم كي يجتهدوا ، ونضربهم كي يتأدَّبوا ، إذاً :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(107)قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

الخير لك ثماره ، والشر عليك وزره

الخير لك ثماره ، والشر عليك وزره .

(وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلا عَلَيْهَا)

(سورة الأنعام : من الآية 164)

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة : من الآية 286)

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

واتبع ما يوحى إليك أمرٌ من عند الله .

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

(وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ)

لابد من الصبر حتى إلى أن يتحقق وعد الله ووعيده :

أي إلى أن تتحقَّق النتائج عليك أن تصبر ، الله وعدك بالعطاء ، ووعد العصاة بالعذاب ، أنت تصبر على وعد الله ووعيده ، لابدَّ من مسافةٍ بين الوعد وتنفيذه ، وبين الوعيد وتنفيذه لينكشف الإنسان على حقيقته ، من كان مُصَدِّقًا ، ومن كان مُكَذِّباً ..

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(109))

أي أن العاقبة للمتقين ..

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1))

(سورة المؤمنون)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(14))

(سورة الأعلى)

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

لكنَّ هذا الفوز قد لا تراه رأي العين ساعة البدء بالاستقامة ، لكن اصبر فلابدَّ من تكون النهاية لك ، لابدَّ من أن تدور الأمور لمصلحتك ، لابدَّ من أن تسعد في الدنيا والآخرة ..

(وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

لأن حكمه يعود بالخير على كل الناس ، وبهذا انتهت سورة يونس .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (01-16): تفسير الآيات 01 – 05
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-01-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، السورة الجديدة اليوم هي سورة هود وهذه السورة فيها مقطعٌ من آيات الله تعالى تتحدَّث عن الإيمان بالله ، وعن الإيمان برسالة رسول الله، وعن اليوم الآخر، وفيها مجموعة قِصص من قِصص الأنبياء تؤكِّد هذه الحقائق ، ثمّ تنتهي هذه السورة بمُلخَّص بالحقائق المستنبطة من هذه القصص ، فالله سبحانه وتعالى في هذه السورة يقول :

(الر)

(سورة هود)

معاني حروف أوائل السور :

قد تحدَّثنا بالتَّفصيل في مطلع سورة يونس عن معنى هذه الحروف وكيف أنَّ هناك اجْتِهادات عِدَّة في تفسيرها ، مِن أوْجه هذه التفسيرات أنَّها أوائل لأسماء رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، لأنَّ الذي جاء بعدها يُشير إلى ذلك ، فهو أحْمَدُ الخلق ، وهو اللطيف ينقل الخلق إلى الله عز وجل بلُطْفٍ بالغ ، وهو الرحيم بأمَّتِهِ ، بل هو أرْحَمُ أمَّة محمّد بها . قال تعالى :

(كِتَابٌ)

(سورة هود)

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ

هذا القرآن الذي بين أيدينا كتاب ، والتَّنْكير هنا كما يقول بعض العلماء تنكير تعظيم ، قال تعالى :

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)

المعنى الأول :

آياتهُ مُحْكَمَة ، ومعنى مُحكمة أيْ مُترابطة ، فبين الآيات علاقة سبب بنتيجة ، وعلاقة مُقَدِّمة بمُؤخِّرة ، وعلاقة مُقابلة ، إذا ذكر الله عز وجل مَشاهِد أهل الجنَّة ، ذكر مشاهِدَ أهل النار ، وإذا ذَكَرَ الله الدنيا ذَكَر الله الآخرة ، وإذا ذَكَر واقِعَ الحياة ذَكَر مآلها ، على كُلّ كلمة أُحْكِمَت آياته واسِعَةُ المعنى .

فَمِن معانيها أنَّ الآيات القرآنيَّة مترابطة فيما بينها ، ومن آتاه الله عِلْمًا بهذا الكتاب وفهْمًا لِحَقائقِهِ يرى

هذا التَّرابط ، وهذه العلاقة ، ومن كان في عَمًى عن كتاب الله يراهُ مُفَكَّكًا ، بل يزْعُمُ أنَّ هذا القرآن يحتاج إلى تنسيق ، وتبويب ، وتفصيل ، وهذا هو المعنى الأوّل ، ومن خِلال تفسير كتاب الله فيما مضى بُيِّنَ لكم بعض هذا الإحكام .

المعنى الثاني :

أنَّ آيات القرآن الكريم مُحْكمة ، بمَعنى أنَّها موجَزَة أوجز الله سبحانه وتعالى أحيانًا ، ثمَّ فصَّل هذا الموجَز ، مثلاً ، قال تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : من الآية 16)

هذه حقيقة جاءَت بشَكلٍ موجَز ، ثمّ جاءَتْ قِصَّة يوسف عليه السلام ، وهذه القِصَّة على ما فيها من تفصيلات ، إنَّما تؤكّد ما أوْجز الله سبحانه وتعالى في القَوْل ، فقِصَّة يوسف تؤكّد أنَّه لا إله إلا الله مِن خِلال الحَدَث ، والوصْف ، والحِوار ، وتعقيب الأحداث ، ثمّ انتِهائِها إلى وضْع مُعَيَّن ، فربُّنا سبحانه وتعالى يوجِزُ حينما يُقرِّر الحقائق ، ويُفصِّل حينما يأتي بالتَّطبيقات العمليَّة .

المعنى الأوَّل ؛ معنى الإحكام يعني الترابط ، والمعنى الثاني ؛ معنى الإحكام أيْ الإيجاز.

المعنى الثالث :

والمعنى الثالث أحْكَمَ الشَّيء أتْقَنَهُ ، أيْ كتابٌ آياتهُ لا يأتيها الباطل ، ولا الخلل ، ولا النَّقْص ، ولا الزِّيادة ، ولا الخطأ ، ولا الخلط ، متناسِقةٌ ومَضْبوطة ، وهذا المعنى الثالث .

المعنى الرابع :

ومعنى الإحكام الرابع ، مِن الحِكْمة ، أيْ ذكَرَ أشياء لِحِكمة بالغة ، وأمرَ بأشياء لِحِكمة بالغة ، ونهى عن أشياء لِحِكمة بالغة ، وسكَتَ عن أشياء لِحِكمة بالغة ، فالإحكام من الحِكْمة ، والإحكام من الترابط ، والإحكام من الإيجاز ، والإحكام مِن دِقَّة الصِّياغة ، قال تعالى :

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)

القرآن يحتاج إلى نفس صافية ودقة نظر :

لكنَّ هذا الكتاب هو على الظالمين عمًى ! قال تعالى :

(وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ولا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا(82))

(سورة الإسراء)

هذا الكتاب يحتاج فضْلاً عن دِقَّة الفَهْم وإحكام النَّظَر ، يحتاج إلى نفسٍ صافِيَةٍ ، وقلبٍ سليم ، بل إنَّ بعض العلماء حينما فسَّرَ قوله تعالى :

(لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ(79))

(سورة الواقعة)

وجَّه الآية توجْيهًا إضافيًّا يزيدُ عن معناها المادّي ، وجَّهَهَا توجيهًا إلى أنَّ طاهِرَ النَّفس هو الذي يُدْرِكُ معاني القرآن الكريم ، ولهذه الحقيقة تفسير واضِح ، الإنسان المُتَلَبِّس بالرِّبا لا يستسيغُ أن يفهمَ آيات الرِّبا كما هي عليه ، يُحاوِلُ أنْ يُزَوِّرَها ، وأنْ يفْهمها فهمًا خاطئًا ، كي يُغَطِّي نفسَهُ ، هذا عنده خللٌ داخلي يُحاوِلُ أن يُصلِحَ هذا الخَلَل ، وأن يُقيمَ توازنهُ من توجيه الآيات توجيهًا خاطئًا ، فالمُتَلَبِّسُ بالمعاصي ، إذًا : لا يُمْكِنُ أن يفهم كتاب الله تعالى على حقيقته ، ولن يفْهمهُ على حقيقتِهِ إلا مَن كان مستقيمًا على أمرهِ ، لذلك قال تعالى :

(لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ(79))

(سورة الواقعة)

مَن كان طاهِرَ النَّفس ، طاهِرَ السُّلوك ، ونقِيَّ القلب ، إذا قرأ القرآن الكريم يفْهَمُهُ على حقيقتِهِ ، أما من تلبَّس بالمعْصِيَة ، وزيَّف ، وانْحاز وخرَجَ ، وطغى وبغى ، هذا قلبهُ مُغْلَقٌ بالمعْصِيَةِ أوَّلاً ، ويُحاوِلُ أن يجرّ الآيات إلى تغْطِيَة انْحِرافاته ثانيًا ، فهو إذًا لن يستطيع فهْمَ كِتاب الله .

ملخَّص المعاني الأربعة للإحكام :

كِتاب الله آياتُهُ مُحْكمة ، بِمَعنى أنَّ في ذِكْرها حِكْمَةٌ بالغة ، فالله عز وجل سَكَتَ عن أشياء كثيرة ، سَكَتَ عن نوع الثِّياب ، وسكَتَ عن نوْع الطَّعام ، وسكتَ عن نوع الأثاث ؛ هذه أشياء مُتَبَدِّلة ، ومُتَغَيِّرة في كلّ عَصر ، وسكَتَ عن نسبة الرِّبْح ، لأنَّه لو حدَّدَها لَهَلَكَ الناس ، هناك أشياء كثيرة في الكتاب ذكرها لِحِكمة بالغة ، ونهَى عن بعضِها لِحِكمة بالغة ، وسكَتَ عنها ، ولو أنَّ إنسانًا لديه فراغ كثير ، وتتَبَّعَ الحِكمة في سُكوت القرآن عن بعض الموضوعات لوَجَدَ في هذا السُّكوت حِكْمةً لا تَقِلّ عن حِكمة الذي أمرنا به أو نهانا عنه .

أُحْكِمَتْ آياته ، أيْ الآيات مُفْعَمَةٌ بالحِكمة ، المعنى الأوّل ، وأُحْكِمَت آياته أيْ ترابَطَتْ ، في السورة الواحِدَة عرْضٌ لِحَقائق التَّوحيد ، ثمَّ قِصَّة فيها تطبيق عملي لهذه الحقائق ، ثمَّ وصْفٌ لمَشاهِدِ الآخرة ، وهي العِقاب الذي ينتظر المنْحَرفين والثَّوَاب الذي ينتظر المستقيمين ، فَذِكْرُ حقائق التَّوحيد ، ثمَّ ذِكْرُ

قِصةَ تُجسِّدُها ، ثمَّ ذِكْرُ المآل مِن جنَّة أو نار ؛ هذا ترابط ، أحيانًا تأتي آيات العذاب فَتَخاف النفس لكي لا يُفضي بها الخوف إلى اليأس تأتي آيات الرَّحمة فَتَقْلِبُها من التَّشاؤُم إلى التفاؤل ، والله سبحانه وتعالى جعلَ هذا الكتاب كِتاب تفاؤُلٍ وهداية ورشاد ، فيه تَبْيينٌ للحلال والحرام ، وتبْيينٌ لِعَظمة الله عز وجل عن طريق آياته الكَوْنِيَّة ، وفيه ذِكْرٌ لِما مضى ، وذِكْرٌ لما سيَكون وفيه وصْفٌ لِمَشاهِدِ يوم القيامة ، وفيه آياتٌ كَوْنِيَّة .

ومعنى الحِكمة والإحكام ، ومعنى الإحكام الترابط ، ومعنى الإحكام دِقَّة الصّنع ، ومعنى الإحكام الإيجاز ؛ كلّ هذه المعاني الأربعة تنْضَوي تحت كلمة كتاب أحكِمَتْ آياته .

قال تعالى :

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)

ثُمَّ فُصِّلَتْ

1 ـ معنى : فُصِّلَتْ

فُصِّلت سُوَرًا ، وفُصِّلت السُّوَر آياتٍ ، وكلّ آيةٍ لها معنى قائمٌ بذاته ، لو نزَعْتَ هذه الآية مِن السِّياق لكان لها معنى قائِمٌ بذاته ، قال تعالى :

(وَلا تُؤْمِنُوا إلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ)

(سورة آل عمران : من الآية 73)

لو جاءَت هذه الآية في سِياق الآيات لها معنى ، فلو نُزِعَتْ مِن سِياق الآيات لكان لها معنى آخر ، فهذه فُصِّلت آياتٍ ، وفُصِّلت سُوَرًا ، وفصِّلت أحكامًا ، وفصِّلت حلالاً وحرامًا ، ووعْدًا ووعيدًا ؛ هذا كلّه أيضًا ينضَوي تحت كلمة فصِّلت .

2 ـ الحكمة من كلمة (ثُمَّ) :

أمّاَ ثمّ ، فهذه الكلمة للتَّرتيب ، لا للتَّرتيب الزمني ، بل للتَّرتيب الرُّتَبي فأنت في الكتاب تذكرُ في المقدِّمة مِحْور الكتاب ، ومُجْمَلَ النَّظرِيَّات التي طرحها ، ثمَّ تأتي فُصول الكتاب لِتَشرح هذه النَّظَرِيَّات، وتُوَسِّعها ، وتذكرَ أصلها وتُعَلِّلها ، وتؤيِّدها بالشَّواهد ، وتُقيم موازنات بينها وبين غيرها ؛ هذا هو التَّفصيل ، فالإحكام هو الإيجاز ، والتَّفصيل هو التَّوسيع ، قال تعالى :

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

(سورة هود)

مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ

1 ـ القرآن غنى ما بعدة غنى :

كيف لا تكون آيات الكتاب مُحْكمة ، وهي من عند الحكيم ؟! كيف لا تكون آيات القرآن مترابطة ، والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق المنطق ؟ وكيف لا تكون آيات القرآن الكريم دقيقة في صِياغتها ، والله سبحانه وتعالى هو المطلق ، كمالهُ مُطْلق ، وعلمُهُ مطلق ، وقُدْرتُهُ مطلقة ، وبيانُهُ مُطلق ، إذا تعامَلْتَ مع كِتاب الله فاعْلَم أنَّك تتعامَلُ مع كلام الله وفضْلُ كلام الله على كلام خلقهِ ، كَفَضْلِ الله على خلْقِهِ ، فالحرف الواحد في القرآن له معنى ، والحركة في القرآن لها معنى ، أنْ يَعْدِل الله سبحانه وتعالى عن رفع بعض الآيات المتعاطفة إلى نصب إحداها ، هناك معنى دقيق جدًّا ، فإذا ضيَّعْت الحياة كلّها في فهْم كتاب الله فهذا هو الغِنى الحقيقيّ ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((القرآن غِنًى لا فقْر بعده ، ولا غنىً دونه))

[ورد في الأثر]

هو الغِنَى الحقيقيّ ، ولذلك أهل القرآن أهل الله ، ومَن تعلّم القرآن متَّعَهُ الله بعَقلِهِ حتى يموت ، ولا يَحْزنُ قارئ القرآن ، وخيرُكم مَن تعلّم القرآن وعلّمَه .

2 ـ القرآن والكون :

إنّ الله سبحانه وتعالى جعَلَ الكون كله في كِفّة ، وجعل هذا الكتاب في كِفّة أخرى ، قال تعالى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)

(سورة الأنعام : من الآية 1)

وقال تعالى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا(1))

(سورة الكهف)

قال تعالى :

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(77)فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ(78)لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(79))

(سورة الواقعة)

قال تعالى :

(فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(38)وَمَا لا تُبْصِرُونَ(39))

(سورة الحاقة)

يُقْسِمُ الله سبحانه وتعالى بالكَون كلّه ، ويأتي موضوع القسَم أنَّ هذا الكتاب كريم ، إنَّه لقرآن كريم ، فالكون في كفَّة ، والقرآن في كفَّة .

بِشَكلٍ آخر قد تمْلِكُ جهازًا بالغَ التَّعقيد ، وباهظ التكاليف ، ولن تستطيع تشْغيلهُ إلا إذا اطّلَعْت على دْفترٍ مطبوعٍ فيه تعليمات التّشغيل ! إنَّ هذه التعليمات لا تَقِلّ شأنًا عن هذا الجِهاز ، بل إنَّ اسْتِعمالها مصيري، ولو لم تسْتعمِل هذا الجِهاز وِفْق هذه التعليمات لأتْلَفْتَ الجِهاز ! إذًا لهذه التعليمات قيمة كُبْرى ، وهذا الكون العظيم بمَجَرَّاته المتراميَة ، بِمَسافاته التي لا تُعْقَل لِحِدَّة بُعدِها ، شمْسُهُ أرْضُهُ سماؤُهُ ، وما في الأرض ، وما فوقها وتحتها ، مِن مخلوقات دَقَّتْ أو جلَّت ، صَغُرَت أو كَبُرَت ، تَعَقَّدَت أو انْبسَطت ؛ كلّ هذا يُقابلهُ هذا الكتاب الذي فيه تفسير لِهذا الكون ونشأة هذا الكون ومصيرهِ ، وبيان لِجَدْوى وجود الإنسان على الأرض ، ومُهمَّتُهُ الأساسيَّة ، أين كان ؟ وإلى أين ذاهِب ؟ قال تعالى :

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

(سورة هود)

خبير بِنُفوسنا ، يعْلَمُ ما يُصلِحُها ، وما يفْسِدُها ، ويعلمُ الذي يُسْعِدُها ، والذي يُشْقيها ، يعْلَمُ ما نُسِرّ ، وما نُعْلِن ، إنَّه حكيم خبير ، هذا الكتاب مِن الدَّقَّة إلى أختها كما يقولون ، مِن سورة الفاتحة إلى سورة الناس ذكر اللهُ سبحانه وتعالى فَحْواه ومضمونه ، فقال تعالى :

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة هود)

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّه

1 ـ ملخّص القرآن : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

طبعًا هذا الملخَّص ! أما قِصص الأنبياء وآيات الكون ، والحديث عن الأُمَم السالفة ، ومشاهِد القيامة ، هذا كله تفصيل كي تَصِل إلى هذه الحقيقة الكبرى ، ألاّ تعبدوا إلاّ الله ، فما العبادة ؟ بعضهم يظنّها الطاعة ؛ إنَّها كذلك وليس كذلك !! العبادة هي الطاعة ، وليْسَت قاصِرَة على الطاعة ، إذا أشْهَرْتَ على أحدٍ سِلاحًا ، وأمرتَهُ أن يُطيعَك فإنَّه يُطيعُك ؛ فهل هذه عِبادة ؟! العبادة هي الطاعة المَبْنِيَّة على معرفة الله سبحانه وتعالى ، وهذه الطاعة ليْسَت هدفًا بِذاتها ، إنّما نتيجتها هي الهدَف ، ونتيجتها هي السَّعادة

تعرفُهُ فتُطيعُهُ فتَسْعَدُ به في الدنيا والآخرة ، وإلى الأبد .
الخُلاصة أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان على وجْه الأرض كي يتعرَّف إليه ، فإذا تعرَّف إليه طبَّقَ منهَجَهُ ، وإذا طبَّقَ منهجه سَعِدَ بقُربِهِ ، فالكتاب كلّه ملخَّصه أن لا تعبدوا إلا الله ، لذلك ربنا عز وجل قال في آيات أخرى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ))

[رواه الإمام مالك]

2 ـ حقيقة : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

لأنَّك إذا ما قلت : لا إله إلا الله ، ثُمَّ رأيْت أنَّ هناك آلهة غير الله ، فإنَّك سوف تُطيعُهم فيما يُسْخِطِ الله ، وإنَّك سوف تخاف منهم ، وسوف ترْجوهم وهم لا شيء ، تنتظر عندهم السَّعادة ، وهم لا يمْلِكونها لأنفسهم ، وتنتظر منهم أن يُخَلِّصوك ، وهم لا يستطيعون تخليص أنفسهم ! وليس شرطًا أن تقول : فلانٌ إله ! لا ، إذا اعْتَقَدْت أنَّ بيَدِ فلان نفْعك وضرّك فهذا هو الشِّرك ، فأنت إن قلت : لا إله إلا الله ، واعْتَقَدْت أنَّ فلانا ينفعُكَ ويضرّك ، وأنّ أمْركَ بيَد فلان ، ومصيرك بيَدِهِ ، وأنَّ فلانا إذا رضي عنك أسْعَدكَ ، وإذا غضب عليك أشْقاك ، إذا تصوّرْت أو توهَّمْت هذه الحقائق فهذا هو الشِّرك .
إن كلمة : ألاّ تعبدوا إلا الله ، هي كلمة محدودة نقولها ، ولكنّ مَضْمونها كبير جدًّا ، يعني أنَّ محصّلة معرفة الله أن تعبدَه وحده ، لذا قال بعض العلماء : إنَّ أعلى رُتْبةٍ بلغها إنسانٌ هي رتبة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ ما هي هذه الرُّتبة ؟ رتْبة العبودِيَّة ، العبودِيَّة لله هي الخضوع التامّ لله ، وأنت لن تخْضع إلا إذا عرفْت أنَّ خُضوعك هذا يُحَقِّق لك كلّ السَّعادة ، لذا قال تعالى :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا(36))

(سورة الأحزاب)

تختار أنت هذا البيت أو ذاك ، وهذه الزوجة أو تلك ، وتختار عملاً حُرًّا أو وظيفة ، أما أن تختار شيئًا نهى الله عنه ، وأن تقول : أفْعل ولا أفعل في شيء نهى الله عنه ، فهذا ليس من صفة المؤمن ، قال تعالى :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِينًا(36))

(سورة الأحزاب)

ألا تعبدوا إلا الله ، فمَضْمون هذا الكتاب بِمُوجَزِهِ وتفْصيلِه ، وبِمُحْكَمِهِ ومُتشابِهِهِ ، مضمون هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله ، فلو أنَّ الإنسان قرأ هذا الكتاب وتفسيرهُ ، وأتْقَنَهُ وقرأهُ ، وجوَّدَهُ ، وعبدَ غير الله ، لما استْفاد منه ! الاسْتِفادة من الشيء مرْهونة بِتَحصيل النَّفع من ذاك الشيء ونَفْعُ هذا الكتاب ألا تعبد إلا الله ، قال تعالى :

(وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(51))

(سورة الذاريات)

3 ـ رسالة النبي توضيح معنى : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

هذه رِسالة المصطفى صلى الله عليه وسلّم ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(45))

(سورة الأحزاب)

تشْهَدُ للناس بالحقائق ، وتُبشِّرُهم إذا اتَّبَعُوها ، وتُنْذِرُهم إذا خالفوها ، هذه هي الحقيقة منْ طبَّقَها سَعِدَ ، ومن حادَ عنها شَقِيَ ، قال تعالى :

(وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(51))

(سورة الذاريات)

ففي هذه الآيات توضيح لِمُهِمَّة النبي عليه الصلاة والسلام في أُمَّتِهِ ؛ أن يكون بشيرًا لِمَن أطاعه ، ونذيرًا لِمَن عصاه ، بشيرًا لِمَن اتَّبَعَ سنَّتَهُ ونذيرًا لِمَن حاد عن أمره .

4 ـ معنى آخر لقوله : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

هناك معنى آخر لهذه الآية ، هنا حمَّلْناها معنى التَّفسير ، أي هذا الكتاب مُلَخَّصَه ، ومضمونه ، وفَحواه، ألاّ تعبدوا إلا الله ، هناك تفسير آخر ، وهو أنَّ عبادته هي مفْعولٌ لأجله ، أيْ أنَّ هذا الكتاب فُصِّل وأُحْكِمَ وبُيِّن مِن أجل أن تعبُدَهُ ، فإذا عبَدْتَهُ فقد قرأتَ هذا الكتاب ، وإذا لم تعْبُدْهُ فإنَّك قد جَهِلْتَ مَضْمونه ، ولو ردَّدْتَهُ بلسانِكَ ، قال تعالى :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

1 ـ معنى الاستغفار :

الاسْتِغفار هو الأصل ، وهو طلبُ المغفرة ، والمغفرة هي الشِّفاء من الذُّنوب ، والإنسان بين حالتين ؛ إن كان في إقبال على الله عز وجل فنَفسُهُ طاهِرَةٌ مُطَهَّرة ، لأنَّ إقباله على الله يشْفي نفْسَهُ ، قال تعالى :

(إِنَّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(45))

(سورة العنكبوت)

الإقبال على الله بالاستغفار يُكسِب الصفاءَ :

قطعةُ حديدٍ باردة جدًّا ضَعها في الشَّمس ، بعد ساعة تجدها فقدَتْ شيئًا ، واكْتَسَبتْ شيئًا ، فقدَتَ البرودة ، واكْتسَبَت الحرارة ، وكلّ نفْسٍ تُقْبِلُ على الله عز وجل إقْبالاً صحيحًا فلا بدّ مِن أن تَفْقد شيئًا ، وإنّ الأدْرانَ والكِبْرَ والأنانيَّة ، وحُبّ الذات ، والاسْتِعلاء والحِقْد ، والضَّغينة والحسَد والنَّميمة هذه صِفات ذميمة ، وهي أعْراضُ الإعراض ! ليْسَت أمراضًا ، ولكنَّها أعراضٌ لِمَرَضٍ واحد ، وهو الإعراض ، فأنت إذا أقْبَلْت تحلَّيْت بالكمال، وإذا أعْرضْت بَدَتْ منك هذه العُيوب .

الناس إما تقي وإما فاجر :

الناس رجلان : بر تقيّ كريم على الله ، وفاجر ، وكلّ تقسيمات الأرض باطلة ؛ يقولون لك : الشُّعوب الآريَّة ، والشُّعوب الساميّة ، والبيض والسود ، والأغنياء والفقراء ، كلّ هذه التَّقسيمات باطلة ، الناس رجلان : رجل أقْبَلَ على الله تعالى فاصْطَبَغَ بالكمال ، ورجل أعْرضَ عنه فاصْطَبَغَ باللُّؤْم ، فأبو لهب عمّ النبي عليه الصلاة والسلام فلأنَّه أعرض عن الله عز وجل كان كُتلة من اللُّؤْم والخِفَّة ، وبلال رضي الله عنه أقْبَلَ على الله عز وجل فامتلأ كرمًا وعِفَّة ، وطهارةً ، وإخلاصًا ، وشَجاعة ، وهذا هو التَّقسيم الصحيح ، فأنت قد تُحبّ الغني لشِدَّة سخائه وتواضُعِه وتكرَهُ الفقير من شِدّة فقرِهِ واسْتِعلائه ، هذه التقسيمات باطلة ، فلا مدني ، ولا قَرَوِيّ ، ولا غِنَى ولا فقير ، وهذا أصله إنجليزي ، وهذا ألماني، ونحو ذلك ، وقد قالَ هيتْلر مثلاً : نحن أعلى درجة في الشُّعوب ، وجعل العرب مع البرابرة ، هذه كلّها تقسيمات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان ، ولكنّ التقسيم الصحيح رجل عرف الله فأقْبَلَ عليه ، فأصبَحَ كاملاً ، ورجل أعْرض عنه فأصبَح ناقصًا لئيمًا ، والمروءة مَجْمعٌ لصِفات حميدة ، واللُّؤْم مَجمعُ

لِصفات ذميمة قال تعالى :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

فالاستغفار طلب المغفرة ، و المغفرة شفاء من هذه الذنوب ، فكلُّ إنسان له إقبال على الله عز وجل تراه كريما متواضعا مؤنسا حليما كريما شجاعا ودودا تحبُّه ، أنا أرى هذا المقياس ، وعلامة صدق المؤمن أنه يجب أن تحبَّه ، و لا بدَّ أن تحبَّه ، و محبَّته واجبة لأنه اصطبغ بكمالات الله عز وجل ، ولماذا أحبَّ أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم محمّدًا صلى الله عليه وسلم ؟ ما رأيت أحدا يحب أحدا كحبِّ أصحاب محمدٍ محمدًا ، اللهمّ صلِّ عليه ، لكماله الرفيع ، و لماذا أحبَّ الناسُ أصحابَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؟ لكمالهم الرفيع ، ولماذا أحبَّ الناسُ المؤمنين ؟ لتواضعهم ولكمالهم ، ولإنصافهم ، وعِفَّتهم وطهارتهم وسُمُوّهم ، ولماذا يكره الناس الكافر ؟ لِفَظاظَتِهِ ، ولُؤْمِهِ وخِفَّتِهِ ، ودناءتِه ، وحبِّه لِذاته ، فهذه الصِّفات كلّها أعراض لِمَرَضٍ واحد وهو أعْراضُ الإعْراض ، والكمالات كلّها ثِمارٌ لِعَمَلٍ واحد ، وهو الإقبال على الله عز وجل ، وإنَّ مكارم الأخلاق مَخزونة عند الله ، فإذا أحبَّ الله عبدًا منَحَهُ خُلُقًا حسنًا .

2 ـ الاستغفار أحد أهداف الدِّين الكبرى :

إن الله تعالى أمر بالاستغفار ، وهو أحد أهداف الدِّين الكبرى ، وأحدُ أهداف الدِّين الكبرى أن يسْمو بهذا الإنسان ، الناس فَهموا في هذا العصر الدِّينَ فهمًا ضيِّقًا ، فهموهُ ركعاتٍ تؤدَّى في المسجد ، وفَهموه دُرَيْهمات تُعطى للفقير ، وفَهموه سِياحةً مُتَّجِهَةً نحو البيت الحرام ! وكفى !! صلاة وصِيام وحجّ وزكاة ، وانتهى الأمر ، ليس هذا هو الدِّين ، ولكن الدّين أن تنقلب النَّفس رأسًا على عَقِبَ ، وأن تسْمو ، وتصْطَبِغَ بالكمال ، قال جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :

((أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ...))

[أحمد عن أم سلمة]

هذه هي الجاهليّة ، وهذا هو البعد عن الله عز وجل والإعراض عنه ، وهذا هو اللُّؤْم بعَيْنِهِ ، حتى أتى النبي عليه الصلاة والسلام فأمر ونهى ، الدِّين سُمُوّ النَّفس ، وعَدْكَ دقيق ، وعَمَلُك مثقَن لا تكذب ، ولا تغشّ ، لو صلَّيْت وصُمْت آلاف الرّكعات ، وصلَّيت وصمتَ طوال حياتك ، وغَشَشْت مسلمًا واحدًا بطل معنى ما تفعله .

جوهر الدين الاستقامة :

إن رجلا خاض بدْرًا وأحُدًا ، وباع شيئًا بثمَنين بلغ السيّدة عائشة فقالتْ : قولوا له : إنَّه أبْطَلَ جِهادهُ مع رسول الله ! جَوْهر الدِّين الاستقامة ، ومعْدنه العمل الطيّب ، وشرفه السموّ الأخلاقي ، هذا هو الدِّين فإن فهمْتهُ هكذا أحبّ الناس كلّهم الدِّين ، وإن فهمْتَ الدِّين صلاةً وحجًّا ، وصيامًا ، وزكاةً وإيذاءً للخلق، وأخْذًا لأموالهم ، واستِعلاءً عليهم ، وخذلاً ، وكذبًا واحْتِيالاً ، إن فهمت الدِّين هكذا نفر الناس من الدِّين ، وهناك أناسٌ كثيرون لا يستطيعون سَمَاعَ كلمة الدِّين ؛ لماذا ؟ لأنَّ لهم تَجارب مُرَّة مع بعض الدَيِّنين ، يَحُجّ كلّ عام ، ويُصلّي صلاة الضُّحى وقيام الليل ، ويفعل في النهار ما يفعل !

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي النَّارِ ...))

[أحمد]

تَرْكُ دانِق من حرام خير من ثمانين حجَّة بعد حجّة الإسلام ، ولأنْ أمْشِيَ مع أخ في حاجته خير من صيام شهرٍ ، ومن اعْتِكافِه في مسجدي هذا ! لن تذوق طعْم الإيمان إلا إذا كنتَ مستقيمًا ، ولن تذوق طعْم الإيمان إلا إذا كنتَ مُحْسِنًا ، ولن يعرف الناس لك قيمة الدِّين إلا إذا كُنْتَ طاهرًا ، وكريمًا ، إنَّ هذا الدِّين قد ارْتَضَيْتُهُ لِنَفسي ، ولا يُصْلِحُه إلا السَّخاء ، وحُسْن الخلق ، فأكْرموه بهما ما صَحِبتُموه .

ما هذا السرّ الدَّفين ؟! ألف أو يزيدون من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فتَحوا الآفاق ، ورفْرفَتْ راياتهم في مشارق الأرض ومغاربها ، ووصَلوا إلى الصِّين ، وفتَحوا قبرص ، وإلى القسطنطينيَّة ، وإلى فيينا ، وإلى الأندلس ، كيف وصلوا إلى ما وصلوا إليه ؟! بأخْلاقيَّتهم ، ففي فْيينا هناك مَتْحف لِرَسَّامِين كِبار إحدى هذه اللَّوْحات مضمونها أنَّ الجنود المسلمين حينما وصَلوا إلى فيينا فاتِحين كانوا يشْتَرون عنَبًا من بعض الفتيات من فيينا ، الرَّسام يُصَوِّر هذه الظاهرة ؛ يَدْفَعُون لهم الثَّمَن ، ويَغُضُّون الطَّرْف عن النَّظَر إليْهنّ ! بهذه الأخلاق وصلوا إلى فيينا ، فلمَّا نظروا تراجَعوا !

العرب في الأندلس حينما أرادوا فتْح هذه البلاد ، وبثّ الهدى والفضيلة ، فتحوها واسْتَقرُّوا فيها ، فلمَّا الْتَفَتوا إلى الغناء ، واصْطِحاب القِيان ، وصنَعوا الموشَّحات ، وغرقوا في الملذَّات خرَجوا منها ، وآخر مُلوكهم حينما خرج من قصْرِهِ صار يبكي ! فقالت لهم أمُّه عائشة :

ابْكِ مثل النِّساء مُلْكًا مُضاعًا   لم تُحافِظ عليه مثل الرِّجال

حينما كانوا مع الله كان الله معهم ، وقال تعالى :

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(12))

(سورة المائدة)

مَعِيَّتُهُ تعالى مَشروطة ، كُنْ مع الله تَرَ اللهَ معك ! الآن على مُسْتوى فرْدي ، كُنْ معه ، وانْظُر كيف يكون معك ، وكيف يُدافِع عنك ويَحْفظُك ويؤيِّدُك ؟ وكيف ينصرك ؟ وكيف يُسْعِدُك ويرفع شأنَك ؟ وكيف يُوَفّقك لما تحبّ وترضى ؟

حينما فتَحوا البلاد فتَحوها بِنِيَّة الفضيلة ، وبثّ الهدى وإسعاد الخلق ، فأعانهم الله عز وجل ، فلمَّا ركنوا إلى دُنياهم واستمرءوا الشَّهوات ، وانْغَمَسوا في الملذَّات أخرجهم الله منها ! أنتم لسْتُم أهلاً لذلك ، أنتم فقدْتُم هَوِيَّتَكُم ، وفقَدْتم الرِّسالة التي جئتم من أجلها ، وضيَّعتموها ، فأخرجناكم ، قال تعالى :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

الاستغفار هو المقصود ، وهو طلب المغفرة وهي الشِّفاء ، يقول تعالى بعدها :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

التوبة طريق الاستغفار :

هنا التَّوبة طريق الاستغفار ، ولكنّ الله سبحانه وتعالى كما يقول بعض المفسِّرين : قدَّم الاستغفار على التَّوبة لأنَّه هو المقصود ، والتوبة طريق الاستغفار ، إذا تُبْت إلى الله توْبة نصوحاً تُقْبِلُ عليه ، فإذا أقْبلتَ عليه يشْفيك من كلّ الأمراض ، علاقات عِلْمِيّة وعلاقات سَبب بِنَتيجة ! إذا تُبّت إليه توبة نصوحًا أقبلْت عليه ، وذهب عنك الخَجَل والحِجاب ، إن تُبْت إليه أقبلتَ عليه ، فإذا أقبلْتَ عليه شَفاك من كلّ الأمراض ، قال تعالى :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا)

(سورة هود)

1 ـ معنى : يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا

بعضهم قال :

(يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا)

أي يُوَسِّع أرزاقكم ، ويُطَيِّب معيشتكم ، ويُسْعِدكم بأهلكم ، ويرْفع ذِكْركم ، تَسْعدون في الدنيا ، وهذا مِن وعْد الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(97))

(سورة النحل)

2 ـ الاستغفار والتوبة سبب الرزق :

قال أحدهم للإمام الحسن البصري : إنِّي أشْكو الفقر ! فقال : اسْتَغفر الله تعالى ، فجاءه رجل آخر : وقال يا إمام ، إنَّ زوجتي لا تُنْجب ! فقال : اسْتغفر الله ، وجاء رجل ثالث ، فقال : يا إمام ، إنّا نشْكو قحْط السماء فقال : استْغفروا الله ، فقال بعض من حضر هذا الكلام : يا إمام ، أو كُلَّما جاءك رجل ، وشكا لك همَّه تقول له : اسْتغفر الله ؟! فقرأ عليهم قوله تعالى :

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10)يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12))

(سورة نوح)

وقال تعالى :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجنّ)

مدينة دمشق كانَ معدَّل أمطارها السَّنَوي مائتين وخمسين ميلميترًا ، وبعد سنواتٍ طويلة رضوا بِمُعدّل مائتين ، الآن يرْضَون بمائة وثمانين !! وفي أيامنا هذه لا يصل معدل الأمطار السنوي خمسةٍ وأربعين ميلميترًا ! وقال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96))

(سورة الأعراف)

فهذه كلها مُعالجات من الله ، فالاستغفار هو الهدف ، والتَّوبة هي الطريق ، وإذا فعلتم هذا يُمَتِّعنا الله تعالى متاعًا حسَنًا ، فإذا لم يفعله المجموع ، وفعله واحدٌ فقط فإنَّ هذه الآية تُصيبُهُ ، هذه الآية كلام الله وكلام خالق السماوات والأرض ، وكلام من بيَدِهِ كلّ شيء ، قال تعالى :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا)

(سورة هود)

3 ـ إذا لم يتب الناس عامة لابد من توبة الفرد :

يُمَتِّعك بصِحَّتك ، ويُمَتِّعُك بزَواجِك ، ويُمَتِّعُك بأولادك ، ويُمَتِّعُك بعَملك ويُمَتِّعُك بمَكانتك ، تسْعَدُ ، وتُسْعِد ، تُرْضي ، وتَرْضى .

على مستوى جماعي وفردي ، وإذا كان الناس في غفلة فَكُن أنت في صَحوَة ، إذا كان الناس في جَهل فكُن أنت على عِلمٍ ، وإذا كان الناس في ضَياع فكُن أنت على هُدَى ، إذا رأيْت أناسًا غارقين في مِياه آسنة ، وأنت نظيف مُعافًى من هذه المياه الآسنة ، فهل تقول : ما دام الكل في هذه المياه الآسنة ، فلا بدّ أن أشاركهم ! هذا حُمقٌ من الإنسان وغَباءٌ ، فالناس إن لم يرجعوا عن غيهم وضلالهم يُرجعهم الله إليه، ولا تمسهم رحمته ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(105))

(سورة المائدة)

إذا لم يتب الناس ، ولم يستغفروا كان عليك أنت أن تتوب وتستغفر ، فإذا فَعَلْت قيَّض الله لك حياةً خاصَّة لا تنتمي إلى حياة الآخرين ، فالناس في قلق وأنت في طمأنينة ، والناس في ضيق وأنت في بَحْبوحةٍ الناس في خوف ، وأنت في أمْنٍ ، الناس في شيءٍ يشْغلُهم ، وأنت خالي البال . قال تعالى :

(يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة هود)

إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى

التمتيع مؤقت :

فالمتاع ليس دائمًا ، إلى أن تنتهي الحياة وإلى أن ينتهي الأجَل ، وإلى أن ينتهي العُمر :

إنَّ الطبيب له عِلمٌ يُدِلَّ بــه   إن كان للناس فـي الآجال تأخير
حتى ما إذا انْقضَت أيام رحلته   حار الطبيب و خانثهُ العقاقيــر

***

فأنت في رحلة ، وإلى أن تنتهي هذه الرِّحلة تُمَتَّعُ متاعًا حسنًا ، ويُؤتي كلّ ذي فضْلٍ فضله ، فإن ربَّيت أولادكَ تربيَةً صالحة ، فهذا فضل يُؤتيك الله فضلاً يكافئه ويزيد عليه ، وإذا تصدَّقت بمالٍ حلال يُؤتيك فضلاً يكافئه ، ويزيد عليه إذا استقمت ، وأيُّ عمل تفعله يؤتك ثوابه في الدنيا والآخرة .

معنى : وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ

المعنى الأول :

بعض المفسِّرين ، بل إن جلَّ المفسِّرين قالوا : إن هذه الآية متعلّقةٌ بالآخرة .

المعنى الثاني :

لكنّ بعضهم قال : لا ، المطلَق على إطلاقه ، يؤتي كل ذي فضل فضله في الدنيا و الآخرة ، أي إذا فعلتَ الخير في الدنيا تلقاه في الدنيا و الآخرة ، لذلك من آثر دنياه على آخرته خسرهما معًا ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معًا ، قال تعالى :

(يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ)

(سورة هود)

فلا تمننْ على الله بشيء ، والذي تفعله من خير يؤتيك إياه و زيادة . قال تعالى :

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)

(سورة هود)

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ

الوعدُ و الوعيدُ ملخَّصُ الكتاب ، صفاتُ الكتاب ، و ملخَّصه و رسالة النبيِّ عليه الصلاة و السلام و الطريق إلى السعادة التوبة ثم الاستغفار ، و الوعد قال تعالى :

(يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ)

(سورة هود)

والوعيد قال تعالى :

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)

(سورة هود)

وهذا الشيء لابدَّ أنه واقع بسبب ، قال تعالى :

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة هود)

هناك أشرطة في المطارات محرِّكة للحقائب ، إذا وضعتَ هذه الحقيبة على هذا الشريط المتحرِّك لا بدَّ من أن تصل إلى نهاية الطريق فالإنسان على شريط متحرِّك لا بدَّ من أن ينتهي به هذا الشريط إلى الموت ، والأنبياء ماتوا ، وزعماء الشرك في مكة ماتوا ، أبو جهل وأبو لهب وأميَّة بن خلف كلهم ماتوا ، والفقراء ماتوا ، والأغنياء ماتوا ، والصالحون ماتوا ، والطَّالحون ماتوا ، والأقوياء ماتوا ، والضُّعفاء ماتوا ، قال تعالى :

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة هود)

إذًا ما لنا سوى الله ولابد من العودة إليه . قال تعالى :

(أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ)

(سورة هود)

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ

1 ـ السرائر لا يعلمها إلا الله :

يعني : يظنون أن لهم سرائر لا يعرفها أحدٌ ، عُمَيْرُ بن وهبٍ خرج مع صفوان بن أمية بن خلف إلى ظاهر مكة في الصحراء ، قال : والله لولا أطفال صغار أخاف عليهم الفقر ، ولولا ديون ركبثني لا أطيق سدادها لقتلتُ محمدا ، وأرحتُكم منه ، فقال له صفوان : أما أولادك فهم أولادي ما امتدَّ بهم العمُر، وكان غنيًّا ، وأما ديونك فعليَّ بلغتْ ما بلغتْ ، فامضِ لما أردتَ ، فمضى عميرٌ ، وأخذ سيفه ، وسقاه سُمًّا ، ووضعه على عاتقه ، وجهَّز راحلةً ، وامتطاها ، وذهب إلى المدينة ، هذا بعد بدرٍ ، وله غطاء لنيته الماكرة ليفدي أخاه ، ليدفع الفدية ويأخذ أخاه ، وصل المدينة فرآه عمرُ فقال : هذا عدوُّ الله عمير بن وهبٍ ، جاء يريد شرًّا ، قيَّده بحمَّالة سيفه ، واقتاده إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام ، النبيُّ عليه الصلاة والسلام كان رقيقا قال : يا عمر ، أطلِق سراحَه ، فكَّ القيد ، قال : يا عمر ، ابتعِد عنه ،

فابتعد عنه ، قال : يا عميرُ أدنُ مني ، اِقترب مني ، فلما دنا منه قال : ألا تسلّم علينا ؟ قال : عِمتَ صباحا يا محمد ، قال له : قُل السلام عليكم ، قال : لستَ بعيدَ عهدٍ بالجاهلية ، هذا سلامي ، قال : يا عمير ، ما الذي جاء بك إلى هنا ، قال : جئتُ لأفديَ أخي ، قال : وهذا السيف الذي على عاتقك ؟ قال: قاتلها الله من سيوف ، وهل نفعتْنا يوم بدر ؟ ألم تقل لصفوان بن أميَّة بن خلف : لولا دُيون ركبتني لا أطيق سَدادها ، ولولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت لذَهَبتُ ، وقتلتُ محمَّدا ، وأرَحْتكم منه ! كان جالسًا فَوقفَ ، فقال : والله إنّ هذا الذي قُلتهُ لِصَفوان لا يَعْلمُهُ أحد في الأرض إلا الله ، وأنت رسول الله! أسْلَمَ وقبّلهُ النبي ، فلمّا خرجَ قال سيدنا عمر رضي الله عنه : والله ، لقد دَخَلَ عُمَير على رسول الله والخِنزيرُ أحبُّ إليّ منه ، وخرج مِن عنده ، وهو أحبّ إليّ من بعض أولادي ! لكن صفوان بن أُميَّة بن خلف مسرور جدًّا ينتظر خبرًا سارًّا فكان يقول للكفار بمكة : انتظروا خبرًا سارًّا ! انتظروا خبرًا سارًّا! مضى يوم ويومان وأسبوع وأسبوعان ، ولم يأت هذا الخبر السارّ فخرَجَ إلى ظاهر مكَّة ينتظر الرُّكبان المسافرين ، فلمَّا سألهم عن عُمَير ، قالوا : أسلم ! فربُّنا عز وجل قال :

(أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

(سورة هود)

2 ـ الله يعلم كل شيء في الخلوة والجلوة :

أنتَ مستلقٍ بالبيت على البيت ، قلتَ : أعملُ غدًا كذا وكذا ! أنت مكشوف ، أنت أمام الله تعالى خواطرك مكشوفة ، وحديث نفسك ، وصِراعاتك الداخليَّة وتمنِّياتك كلّ هذا معروف ، نياتك ، بل أبلغ من ذلك أنه يعلم السرّ وأخفى ، فأنت لك جهْر ، ولك سِرّ ، ولك شيءٌ ثالث ، فالجهر معروف ، وهو مواقفك المعلنَة ، والسرُّ مواقفُك الداخليَّة الحقيقيَّة ؛ ما تُبطِنُهُ عن الناس ، ما تُحَدِّث به نفسك ، ولا تنطق به ؛ هذا السرّ ، وشيءٌ ثالث لا تعرفه أنت خَفِيَ عنك أنت ، مثلاً عَلِمَ ما كان ، وعلم ما يكون لو كان كيف كان يكون !! تقول : لو كان معي ألف مليون لعمّرتُ بكلّ مدينة جامعًا ! هذا تقوله أنت ، لكنّ الله تعالى يعلم ما إذا كنتَ أنت بهذا الغِنَى تفعل هذا أم لا ؟ تقول : لو جاءني أولاد ذكور لكنتُ أحسن مؤمن! لو كنتُ مولودًا في عهد الصحابة لكنت مِن الصحابة الكبار !! لا ، أنت أنت الباب مفتوح الآن وسابقًا ، فلذلك الإنسان مكشوف ، وأسراره مكشوفة ونياته وطموحاته ، وصِراعاته ، وخواطره وحديث نفسِهِ الداخلي ، لذا التعامل مع الله تعالى ليس فيه مزحٌ أبدًا ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

وقال تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

وقال تعالى :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(4))

(سورة الحديد)

إذا دخلتَ البيت وحدَكَ ، هو معك ، فُتِحَ باب ، فُتِحَت نافذة من بيت الجيران ، وأطلَّتْ منها امرأة ، فنَظَرْتَ إليها ، هو يراك ، كلّ مظاهر الصَّلاح خارج البيت لا قيمة لها! مَنْ لم يكن له ورعٌ يصدّه عن معصيَة الله إذا خلا ، لم يعْبأ الله بِشَيء من عمله ، وركعتان من وَرِعٍ خير من ألف ركعة من مُخَلِّط ! إيَّاكم ومُحقّرات الذنوب فإنَّهنَّ يجتمعن على الرجل حتى يُهلِكنه! فلا تقل : أنا لا أسرق ، وأنا لا أشرب !! لكنّ الصَّغائر التي لا تهتمّ لها تغدو كبائر مع الإصرار و التمادي ، اللهمّ إنِّي أعوذ بك مِمَّا أهتم له ، ومما لا أهتمّ له ، تُسلّم على أخت زوجتك ، ثمّ تقول : ما فعلتُ شيئًا ، وتذهب للصلاة ! هذه المعاصي إن اجْتَمَعَت على الرجل تُهْلِكهُ ، فإذا ظَنَنْتها صغائر فلا صغيرة مع الإصرار ، ويجب أن تقْلِعَ عنها فَوْرًا ، فإذا بقيتَ عليها انقلَبَت إلى كبائر .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (02-16): تفسير الآية 6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-01-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي من سورة هود ، عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

مقدمة بين يدي الآية :

هذه الآية قادَتْني إلى موضوع دقيق جدًّا في الإسلام ، هذا الموضوع سأُسَلسِلُهُ وَفْق الترتيب التالي :

1 ـ الدِّين له جَوْهر :

أوَّلاً : ما هو جَوْهر الدِّين ؟ في الدِّين أشياءُ مُتَعلّقة في الجوهر ، وأشياء متعلقة بجُزئيَّات لا علاقة لها بالجوهر ، فسيِّدُنا ابن عمر رضي الله عنه حينما رأى بدَويًّا يرْعى شِياهًا ، وقال له : بِعْني هذه الشاة ، وخُذْ ثمنها قال : ليْسَتْ لي ، فقال ابن عمر : قُلْ لصاحبها ماتتْ أو أكلها الذئب، فقال : والله لو قلتُ لِصاحِبِها ماتَتْ أو أكلها الذئب ، لصدَّقني ، فإنِّي عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟! هذا البدَوي قد تكون معْلوماته الفقْهيَّة محدودة ، وقد تكون معلوماته في فقه المواريث معدومة ، وقد لا تجد في خَيْمتِهِ مكتبة ، ولكنّه خشي الله تعالى في الغيب ، هذا البدَوِي وضَعَ يدهُ على جوهر الدِّين .

قد تلتقي بإنسان يحْمِلُ أعلى الشهادات ، وفي بيته مكتبة عامرة ، وآتاه الله تعالى ذكاءً ولِسانًا طليقًا ، ومع ذلك ، ومع كلّ هذا الاطّلاع ، وهذا العِلْم الظاهري ، وهذه الشهادات قد لا يضَعُ هذا الإنسان يدَهُ على جوْهر الدّين !

الدِّين له جوهر ، لمّا عرف أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام جوهر الدِّين فتَحوا الآفاق ، ونفَّذ الله وعدهُ ، قال تعالى :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(55))

(سورة النور)

جوهر الدّين لمسه أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فَسَعِدُوا وأسْعَدوا ودانَتْ لهم الأرض ، ورفَعَ الله ذِكْرهم ، وأعزَّهم ومكّنَ لهم دينهم ، وبدَّلهم من بعد خوفهم أمنًا ، وقد تجدُ الصحابة الكرام لا يزيدون على ألف ، وقد تجد ألف مليون من المسلمين في بيتِ معظمِهم مكتبات عامرة ، وسائر المعلومات متوافرة بين أيديهم ، ومساجدهم فَخْمة ومُزَيَّنة ، وجميع وسائل نقل المعرفة متوافرٌ في عصرهم ، ولكنّ معظم هؤلاء ما وضَعوا أيديهم على جوهر الدِّين ، فخَذَلهم الله سبحانه وتعالى ، وجعلهم في آخر الأمم ، وجعل كلمتهم ليْسَت هي العليا ، فالذي أريد أن أقوله لكم : إنّ في الدِّين حقائق متعلقة بجَوهره ، فعَنْ مَسْرُوقٍ قال :

((كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ))

[رواه أبو داود]

وعَنْ أبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ : هِيَ فِي النَّارِ ...))

[أحمد]

ما جوهر الدِّين ؟ انتَهَيْتُ الآن إلى أنَّ في الدِّين جوهرا ، وفي الدِّين عرَضا ، كما أنَّ في السيارة محرِّكًا هو المعوّل عليه في حركتها ، وهناك أشياء كثيرة تزيّنها وتحسّنها ، ولكن لا علاقة لها بتَحريكها ، إذا كان في السيارة شيء أساسي ، وتعطل تعطّلت ، وفيها أشياء ثانويّة لا تُقدّم ولا تؤخّر ، فأين جوهر الدِّين ؟ ليس من عندي شيء ، من عند الله ، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

2 ـ جوهر الدين عبادة الله وحده :

الأديان كلّها التي جاء بها الأنبياء الكرام كلّها جوهرُها

(لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

((... وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))

[الترمذي عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]

ولا إله إلا الله لا يسبقها عمل ، ولا تترك ذنبًا ، والأنبياء جميعًا كما تجد في بعض السور كلامُهم موحَّد ؛ أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هذه الكلمة كلمة التوحيد يقولها الإنسان في اليوم عشرات المرات ، بل مئات المرات ، والأديان كلّها متعلقة بهذه الكلمة ، لا إله إلا الله تعني أنّ الأمر كلَّه لله ،

وإليه يرجع الأمر كلّه ، قال تعالى :

(أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41))

(سورة الرعد)

وقال تعالى :

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

قال تعالى :

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

وقال تعالى :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ(11))

(سورة الرعد)

وقال تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ(19))

(سورة محمد)

وقال تعالى :

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ(107))

(سورة البقرة)

3 ـ كلمة التوحيد بين الجانبين النظري والتطبيقي :

جوهر الدِّين أن تعتقد أنَّ الأمور كلها كبيرها وصغيرها ، جليلها وحقيرها بيَدِ الله سبحانه وتعالى ، هذا الكلام ًفِكْرة يسْهُل إدراكها ، أما حَقيقةٍ تعيشها النّفس فهذا يحتاج إلى جهد كبير ، أنْ تُدْرِكَ بِعَقْلِكَ وفِكرك أنّ الأمور بيد الله قضيَّة سهلة ، ولكن أن تعيش هذه الحقيقة فلا ترى مع الله أحدًا ، وترجو الله ، ولا تعلّق الأمل على غير الله ، ولا تخْشى إلا الله ، ولا تخاف من غير الله ، ولا تحبّ غير الله ؛ هذا هو التوحيد ، وما تعلمَّت العبيد أفضل من التوحيد ، لذلك قال تعالى :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(106))

(سورة يوسف)

أخوف ما أخاف على أُمَّتي الشرْك الخفي ، أما إنِّي لستُ أقول : إنَّكم تعبدون صنمًا ولا حجَرًا ، ولكن شهوةٌ خَفِيَّة ، وأعمال لغير الله والشِّرك أخفى بأحدكم من دبيب النملة السوداء على الصَّخرة الصمّاء في الليلة الظلماء ، لذا جوهر الدّين التوحيد ، والتوحيد يقتضي معرفة ربوبيّة لله سبحانه وتعالى ، وأنَّه ربّ العالمين ، وألوهيّته وأسماؤُهُ الحسنى تقتضي ألّا يُسلم أمرَك لإنسان ، و لو أنه أسلم أمرَك لإنسان كيف يقول لك :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود)

كيف يطالبك أن تعبده وحدَه ، وبعضٌ من أمرك بيد فلان وفلانٌ كما تدَّعي ؟ أو كما تظنُّ ، أو كما تتوهَّم بيده أمرُك ، و بيده حياتُك ، أو موتك ، وبيده رزقك ، و بيده إسعادُك ، وبيده النفع والضرُّ ، إذا كان فلان وفلان ، وزيد وعُبيد بيدهم شيء من أمرك فالآية كيف تقبلها ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود)

لماذا تعتقد شيئا وتفعل شيئا ؟ إما أن تعتقد أن الأمر كله بيد الله ، وهذا يقتضي ألّا تخاف إلا من الله ، و ألّا ترجوَ إلا الله ، و ألّا تعتقد أن في الكون فاعلا إلا الله ، و ألّا تخشى إلا الله ، و ألّا تحبَّ غير الله ، فهذه الحقيقة ، حقيقة التوحيد تقتضي أن أمرك كله بيد الله ، لكنَّ بعض العلماء وقفوا عند قوله تعالى :

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ(53))

(سورة الشورى)

تساءل بعضُهم ، إذا آلتْ الأمور إلى الله يوم القيامة ، ففي الدنيا بيد مَن كانتْ ؟ سؤالٌ دقيق ، هم تساءلوا ، و هم أجابوا ، فقالوا : الأمور كلها بيد الله في الدنيا والآخرة ، و لكنه في الدنيا يبدو لعامة الناس أن الأمور بيد فلان أو فلان ، ولكنه في الحقيقة الأمر كله لله ، قال تعالى :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(17))

(سورة الأنفال)

وقال تعالى :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

وقال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(84))

(سورة الزخرف)

وقال تعالى :

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(51))

(سورة النحل)

الأمر كله لله في الدنيا والآخرة ، ولكنَّ هذه الحقيقة مستترة في الدنيا ، تحتاج إلى كشف ، المؤمن كشف الحقيقة ، وغيرُ المؤمن متعلّق بظواهر الأشياء ، ولكن في الآخرة تغدو هذه الحقيقة المستترة واضحة لكل الناس ، في الدنيا يُمَيَّز المؤمن عن غير المؤمن بأنَّ المؤمن كُشف له الحجابُ ، وعرف أن الله وراء كلِّ شيء ، كُشِف له الحجابُ فعرف أن يدَ الله فوق أيديهم ، و كُشِف له الحجابُ فلم يَرَ مع الله أحدًا .

الآن يقتضي التوحيدُ أنَّ أمرك كلَّه بيد الله ، ومعنى كلّه ، أمر صحَّتك إلى أمر عملك إلى زوجك و إلى أمر بيتك و إلى أمر مكانتك إلى أمر تعقيداتك الاجتماعية ، إلى أمر ما سيكون ، إلى أمر ما هو كائن إلى أمر ما يجب أن يكون ، هذا كلُّه بيد الله .

الآن نعود إلى آية الدرس ، قال تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

الآن أبرزُ هذه الأمور ، ألم يقل الله عز وجل :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود)

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا

1 ـ أمرُ الحياة والموت :

أبرز هذه الأمور أمرُ الحياة والموت وأمر الرزق ، وهل يعصي الناسُ ربَّهم إلا من أجل حبِّهم للحياة ، وخوفهم من ضيق الرزق ، وفي الأثر : " خلقتُ لك ما في السماوات والأرض ، ولم أعيَ بخلقهن ، أفيُعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين ؟ و عزَّتي و جلالي إن لم ترضَ بما قسمتُه لك فلأُسلّطنَّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي " .

إذًا : الموضوعان الكبيران اللذان يحملان الناسَ على المعصية والكذب والدَّجل والخداع والاغتصاب ، وأكل المال بغير الحق هو خوف الموت و خوف ضيق الرزق .

2 ـ آيات خاصة بذكر الموت :

بحثتُ في القرآن الكريم عن الآيات المتعلّقة بالموت ، آياتٌ كثيرة ، فانتقيتُ لكم أبرزَها .

الآية الأولى :

ربُّنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ(145))

(سورة آل عمران)

أشدُّ أنواع النفي في القرآن الكريم هذه الصياغة ، و ما كان ، يعني أنه مستحيل :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّه)

(سورة آل عمران)

أمر الموت بيد الله .

من لم يمُتْ بالسيف مات بغيره تنوَّعت الأسباب والموتُ واحدٌ

قال تعالى :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّه)

(سورة آل عمران)

فلان عمره ثلاثة وسبعون عاماً وتسعة شهور وثلاثة أسابيع وأربعة أيام وتسع ساعات و أربع دقائق وعشر ثوانٍ ، كتابا مؤجَّلًا لا يزيد ولا ينقص ، لذلك قرأتُ كلمة ترك في نفسي أثرا بليغا خلاصته : كلمةُ الحق لا تقرِّب أجلا ولا تقطع رزقا ، من علامات المؤمن أنه لا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ .

الآية الثانية :

قال تعالى :

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا(44))

(سورة النجم)

لم يقل الله : وأنه أمات وأحيا ، بل قال :

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا(44))

(سورة النجم)

تأكيد بالضمير هو ، الذي يميت هو الله ، و الذي يحيي هو الله ، ولا يملك إنسانٌ كائنًا من كان على وجه الأرض أن يحيي وأن يميت .

الآية الثالثة :

قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258))

(سورة البقرة)

الآية الرابعة :

وقال تعالى :

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ(23))

(سورة الحجر)

الآية الخامسة :

وقال تعالى :

(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(81))

(سورة الشعراء)

لذلك :

إن الطبيب له علمٌ يُدِلُّ بــه   إن كان للناس في الآجال تأخيرُ
حتى إذا ما انتهت أيام رحلته   حار الطبيبُ و خانته العقاقيرُ

3 ـ أمرُ الحياة والموت بيد الله :

هناك طائرةٌ احترقتْ فوق جبال الألب على ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدمٍ احترقت وانفجَرَت ، من مكان التَّصدّع وقع راكب ، لم ينتَهِ أجلهُ ، وبعد أن نزَلَ مِن على ارتِفاع ثلاثة وأربعين ألف قدَم ، ووصَلَ إلى غابات يُجَلِّلها الثَّلج بسَماكة خمسة أمتار ، فكانت هذه الأمتار الخمسة ، وأغصان الصَّنوبر اللّيِّنة قد امْتصَّت كلّ هذه الصَّدمة ، ونزل واقفًا على الأرض ، لم ينتَهِ أجلهُ بعد ، إنسانٌ خاض معركة ،

فدَخَلَتْ رصاصة في بطنه ، وهذه الرصاصة دخلت من بطنه ، وخرجت من ظهره ، أما كيف سارَتَ بِخَطٍّ متعرِّج فلم تثْقِب الأمعاء ، فلا أحدَ يعرف ، خرجَت وأمعاؤُهُ بقيت سليمة ولم يمت .

سيّدنا خالد رضي الله عنه قال : << خُضْتُ مائة معركة أو زهاءها ، وما في بدني موضع شِبْر إلا وفيه ضربة بسَيفٍ ، أو طعنة برُمْحٍ وها أنا ذا أموت على فراشي >> .

فرعون رأى في المنام أنَّ طِفلاً من بني إسرائيل سوفَ يقضي على مُلكِهِ فقال : القضيَّة سهلة ؛ سأقتل جميع أبناء بني إسرائيل ، أما الطِّفل الذي قضى على مُلكِهِ فقد ربَّاه في قصره .

هذا هو التوحيد ؛ الإيمان بأنَّ لك أجلاً لا يزيد ولا ينقص ، لا ينقص ثانِيَةً واحدة ، ولا يزيد ثانيَةً واحدة هذا يبثّ في نفسك الطمأنينة والشَّجاعة ، والتَّوكّل والرّضا ، والتوازن فأحَدُ أسباب القلق عند الناس شُعورهم أنَّ حياتهم تمتلكُها عوامل عديدة فالمرض لا يُميت ، واسمع قول القائل :

حتى إذا ما انقضَت أيام رحلتِهِ حار الطبيب وخانته العقاقير

***

قال الطبيب : المريض ميؤوس من حياته ، ما هي إلا ساعة أو تزيد ، ويكون في عِداد الموتى ، فانطلق الأهل لِيَضَعوا مُسْودَّة النَّعْي ! وانطلَق الآخرون لِيَشْتروا الكفن ، وتوزّع الإخوة الكُثر لِيَنْعوا مريضهم ، وبعد ساعة قوِيَ النَّبض قليلاً ، وارتفع الضغط قليلاً ، وما هي إلا ساعات حتى اسْتعاد هذا المريض صِحَّتَهُ ، ثمّ بعد أشهر عديدة صار صحيحًا صِحَّة تامّة ، والذي كتب النِّعي هو الآن تحت الثرى !!

طبيب صديق لي حدثني قال : اسْتُدعيتُ لإسعاف امرأة ميؤوس من حالتها ، وما هي إلا دقيقة أو دقيقتان حتى فارقت الحياة ، فقلتُ لهم : عظَّمَ الله أجركم ، ولِيأتِ أحد منكم إلى عِيادتي لأعطيه ورقة الوفاة ، كيف عرف هذا الطبيب أنَّ هذه المرأة قد تُوُفِّيَت ؟ الضَّغط صفر ، والنَّبض متوقف ، وحدقة العين لم تستَجِب للضَّوء ، والمرآة على فم المريضة لم تتأثَّر ببُخار الماء ، والأطراف باردة ، والجسم أزرق ، كلّ علامات الوفاة موجودة ، فغادر الطبيب البيت ، ونزل إلى سيارته ، وعَقِبَ مغادرته بقليل سَمِع صوتًا يُناديه ؛ تعالَ أيُّها الطبيب فقد تحرَّكت رجلها ! فقال لي : عُدْتُ إلى المريضة ، ووضَعتُ السماعة على صدرها ، فقال لي : كلّ دقيقتين نبضة واحدة ، وتسارعَتْ هذه النَّبَضَات إلى أن أصبح نبضها طبيعِيًّا ، وقال لي : وزارتني بعد ثلاثة أعوام من هذه الحادثة في عِيادتي !! فأَمرُ الحياة والموت بيَدِ الله .

4 ـ عمرُ الإنسان في الدنيا هو الأنسب له :

هناك موضوع دقيق ، وهو أنَّ هذا العُمر الذي سطّره الله لنا ، وأعطانا إياه أنه كذا سنة ، يا ترى هل بُنِيَ على حقيقة أو أساس ، أو حِكمةٍ ؟ الجواب : نعم ، عمرُ الإنسان في صالحه ، فحينما يقوم الناس لربّ العالمين ، يرَون أنّ هذا العمر الذي عاشوه في الدنيا هو أمثل عُمرٍ لهم ، فهذا الذي يموت في سنٍّ مُبكِّرة يقول الناس عنه : مِسكين ! ولكنّ هذا المِسْكين بالذات حينما يأتي يوم القيامة يرى أنَّ هذا العمر القصير هو أنسبُ عمر له ، فالأعمار بيَدِ الله وكذا الآجال ، ولكلّ مِنَّا أجل محتوم ، ومحدود ، ولكن يجب أن نعتقد أنّ هذا الأجل المحتوم المحدود الذي سطَّرهُ الله عز وجل هو في صالحنا عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ : مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْمُسْتَرِيحُ ، وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ ؟ قَالَ : الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

[رواه البخاري]

الشيء الظاهري أنَّه مات ، ولكنّ الحقيقة أنَّهُ بهذا الموت استراح من عناء الدنيا ، ودخل جنَّةً عرضها السماوات والأرض .

2 ـ الرزق :

الموضوع الأوّل هو الموت ، والموضوع الثاني هو الرِّزق .

1 ـ آيات قرآنية في ذكر الرزق :

الآية الأولى :

ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(40))

(سورة الروم)

ما دام هذا الفم يتكلّم فله عند الله تعالى رزق .

الآية الثانية :

وقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(172))

(سورة البقرة)

بالمناسبة لفَتَ نظري آيتان ، الآية الأولى :

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(172))

(سورة البقرة)

الآية الثالثة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ)

(سورة البقرة)

أنت مأمور بالإنفاق من هذا الرِّزق الحلال الذي أعطاكه الله ، كما أنَّك مأمور أن تأكل منه، فيجب أن تأكل وأن تُطْعِم .

الآية الرابعة :

قال تعالى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

(سورة الأنعام)

إن كان الفقرُ حقيقة واقِعة ، لا تخشَ الفقرَ ولو كان واقعًا بك ؛ نحن نرقكم وإياهم !

الآية الخامسة :

وقال تعالى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا(31))

(سورة الإسراء)

الآية السادسة :

وقال تعالى :

(وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(212))

(سورة البقرة)

إذا أعطى الله تعالى أدْهش .

الآية السابعة :

وقال تعالى :

(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(3))

(سورة فاطر)

إذا شحَّت السماء بالأمطار ، كلكم يرى أنّ انقطاع الماء بسبب شحّ الأمطار ، وانقطاع الكهرباء بسبب شح الأمطار ، قِلّة الموارد بسَبب شحّ الأمطار ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ الله هو المُسَعِّر .

حدَّثني صديق عنده مزرعة ، يزرعها تفاحًا ، قال لي : في إحدى السَّنوات ثلاثمائة دُنُم مزروعة من صنف التفاح لم تُنْتج إلا ثلاثة عشر صندوقًا ، وفي بعض السَّنوات أنتجَت الشجرة الواحدة طنًّا وربعًا ، قال تعالى :

(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(3))

(سورة فاطر)

الآية الثامنة :

قال تعالى :

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ(21))

(سورة الملك)

هؤلاء الذين قالوا : اسْتغنينا عن رحمة السماء ، نقول لهم : فمن يرزقنا إن أمْسَكَ رزقه ؟! في إفريقيا خلال سبع سنوات كانت مجاعة ، مات أُناسٌ كثيرون وماتَتْ الماشية ، وجفَّ النبات ، ويبسَت الأشجار ، ولم يبْق على الأرض شيء .

الآية التاسعة :

قال تعالى :

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(31))

(سورة يونس)

بالمناسبة ؛ إنّ الله عز وجل إذا قنَّنَ فتقنينُهُ تقنين تأديب ومعالجة ، لا تقنين عَجْزٍ كما نُقنِّنُ نحن ، نحن إذا قنَّنا فهو تَقْنين عَجْزٍ ، لكنّ الله تعالى إذا قنَّن فتقنينه تقنين معالجة وتأديب ، والدليل قوله تعالى :

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(27))

(سورة الشورى)

الآية العاشرة :

قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2))

(سورة الطلاق)

((إنّ روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها و أجلها ...))

[الحاكم عن أبي أمامة]

الآية الحادية عشرة :

ربنا عز وجل قال :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

الآية الثانية عشرة :

وقال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96))

(سورة الأعراف)

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ ، قَالُوا : وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ ؟ قَالَ : يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ))

[رواه الترمذي]

شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعِزُّه اسْتِغناؤُه عن الناس ! ويقول عليه الصلاة والسلام :

((ابْتَغوا الحوائج بِعِزَّةِ الأنفس فإنّ الأمور تجري بالمقادير))

[ورد في الأثر]

في موضوع الرِّزق أحاديث كثيرة ، فهذا الصحابي الجليل الذي جاء المدينة مهاجرًا ، فقال له : يا أخي ، دونَكَ مالي فَخُذْ نصفهُ ، فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : بارك الله لك في مالك ، ولكنْ دُلَّني على السوق ! عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ))

[رواه البخاري]

وما فتح عبدٌ باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقْرٍ ، وأبى الله أن يرزق عبدهُ المؤمن إلا من حيث لا يحْتَسِب ، وإنّ الله حييٌّ كريم يستحي من عبده إذا بسط إليه يديه أن يردّهما خائِبَتين ، فاتقوا الله عباد الله فيما تدعون .

2 ـ الاعتقاد بأجل الموت وكتابة الرزق سبيل للعزة :

عَوْدةٌ إلى الآية التي وصلنا إليها ، إذا اعْتَقدنا أنّ حياتنا بيَدِ الله ، وموتنا بيَدِ الله ، ورزْقنا بيَدِ الله ؛ رفعنا رؤوسنا ، وكنَّا أعِزَّةً ، وقد قيل للإمام الحسن البصري : " ما سرّ عِزّك يا إمام ؟ فقال : عَلِمتُ أنّ رزقي لا يأخذه أحد غيري فاطمأنَّتْ نفسي " .

الرزق له أسباب :

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل للرِّزق أسبابا ، وما لم نأخذ بالأسباب فنحن لسْنا مُتَّبِعين لِهَدي الله الكريم ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ ، تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا))

[رواه الترمذي]

أما أن يبقى هذا الطَّيْرُ في عُشِّه ، ويظنّ أنّ الله يرزقه فليس هذا من نواميس الكون في شيء ، قال تعالى :

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(25))

[سورة مريم]

فلا بدّ من حركة ، إنّ الله كتب عليكم السَّعيَ فاسْعَوا ، وسيّدنا عمر رأى أُناسًا محتاجين ، فقال : >> مَن أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكّلون ! فقال كذبتم ، المتوكّلُ من ألقى حبَّة في الأرض ثمّ توكّل على الله<<. أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام رأوا شابًا ينطلق من بيته مُبكّرًا ، فقال بعضهم : لو كان هذا الشباب في سبيل الله !

فقال عليه الصلاة والسلام :

((لو أنّ هذا الشابّ خرج من بيته يسعى على أطفال جياع فهو في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

3 ـ كسب الرزق جزءٌ من طاعة الله :

كَسْبُ الرّزق جزء من طاعة الله عز وجل ، من باتَ كالاً في طلب الحلال بات مغفورًا له ، كسْبُ الرِّزق من طريق مشروع ، وبِشَكل لا يطغى على العبادة هو أحدُ أنواع العِبادة ، والآية الكريمة :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

[سورة هود]

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ

1 ـ ما هي الدابّة ؟

الدابة كلمة واسعة جدًّا ، فكُلُّ مخلوق يدبّ على وجه الأرض فهو دابّة ، أحيانًا وأنت تكتب على دفترك ترى نقطة لا يزيد قطرها على عُشر الميليمتر ! نقطة لا تكاد تراها قد تَلفتُ النَّظر ، لأنّ هذه النقطة تتحرّك ، إذًا هي مخلوق ، هذه دابَّة ، والجراثيم دابّة ، والفيروسات دابّة ، وحيوان وحيد الخلية دابة ، والرَّخَوِيَّات دابة وديدان الأرض دابّة ، والبعوضة دابّة ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

[سورة البقرة]

كل ما يدبّ فهو دابة ، صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها :

هذه البعوضة التي إذا قتلتها لا تشعر بوَخز الضمير أبدًا ، لأنها هيِّنة على الناس ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي]

فهذه البعوضة التي تحتقرها فيها جهاز رادار تعرف النائم على الوسادة مِن الوسادة ! فتنطلق إليه مباشرة ، وفيها جهاز تحليل الدمّ ، دم هذا النائم يناسبها ، ودم ذاك النائم لا يناسبها . قد ينام أخوان على الفراش فيستيقظان ؛ أحدهما قد لدِغ من الناموس ، والثاني معافى من لدغه ! فيها جهاز رادار ، وجهاز

تحليل دم ، وجهاز تخدير ، تُخدِّر الإنسان حين تُدْخل خرطومها في جلده ، وفيها جهاز تمْييع دم ، ولها ثلاثة قلوب ! وأجنحتها ترفّ أربعة آلاف رفَّة في الثانية الواحدة ، وليس لها صوت ، بل لها طنين ، وهو هذا التواتر في أجنحتها ، ولها في أرجلها مخالب ، إذا كان السَّطح خشِنًا لتثبت نفسها عليه ، ولها محاجم إذا كان السَّطح أمْلس ، هذه دابّة رزقُها مِن دم الإنسان .

والحوت الذي يزن مائة وخمسين طنًّا ، وطوله أربعون مترًا ، وفيه خمسون طنًّا دهنًا ، وخمسون طنًّا لحمًا ، وتسعون برميل زيت ، ووجْبتُهُ المعتدلة أربعة أطنان ، وولده يرضع ثلاثمائة كلغ ، هذا الحوت أيضًا له رزق من الله تعالى ، رزقه في اليوم عشرة أطنان إلى خمسة عشرة طنًّا من السَّمَك .

وهذه الدابة الصغيرة التي لا تُرى بالعَين رزقها على الله تعالى ، وهذا الحوت الكبير رزقه على الله ، وهذا الفيل رزقه على الله ، والإنسان رزقه على الله ؛ ما من دابَّة ! والدابّة كلّ ما يَدِبُّ على وجه الأرض ، صَغُرَتْ أم كَبُرَت ، رأيتَها أم لم ترها ، دخلَتْ في علمك أم لم تدخل ، إنَّ الله يرى دبيب النَّمْلة السوداء ، على الصَّخرة الصَّماء ، في الليلة الظلماء .

هناك بعض الوُعول تعيش في قِمَم الجبال ، وفي قِمَم الجبال شيءٌ لا يُصَدَّق ، في قِمَّة الجبل نبْعٌ ، كيف نُفسِّر وُجود هذا النَّبْع في قِمَم بعض الجبال ؟ لا بدّ أن يكون خزّان هذا النّبْع في جبلٍ آخر أعلى منه ، وهناك تَمديدات دقيقة من الجبل الكبير الأعلى إلى الجبل الصغير ، أو إلى قِمَّة الجبل الصغير ، لأنّ هذا الوعل الذي يعيش في قِمم الجبال رزقه على الله ، لولا أطفال رُضَّع ، وشُيوخٌ رُكَّع ، وبهائم رُتّع ، لَصُبَّ عليكم العذاب صبًّا ، قال تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

[سورة هود]

فَكَلِمَة دابّة جاءت هنا منوَّنة ، وهذا التَّنْوين تنوين الشُّمول ، كلّ أنواع الدواب على وجه الأرض على الله رِزْقها .

2 ـ الفائدة من حرف من تنكير دابة وإيراد (مِن) :

أما كلمة مِنْ ، فقد قال العلماء : مِن للاسْتِغراق ، اسْتِغراق أفراد كلّ نَوْع على حِدة ، فقد تقول : طلاَّب هذا الصَّف مدْعوُّون إلى حفلة ، الطلاب ثلاثة وأربعون ، فإذا قلنا : ما من طالب إلا و هو مَدْعُوٌّ إلى هذه الحفلة ، أي أنَّك تُبَلِّغُهم واحدًا واحدًا ، وهناك دعوة عامَّة قد لا تُعَلِّق أهَمِيَّة على حضور الطلاب جميعًا أو بعضهم ، أما إذا قلتَ : ما من طالبٍ إلا و هو مَدْعُوٌّ لِهذا الاحتِفال ، فَمِنْ هذه لاسْتِغراق أفراد كلّ نَوْعٍ على حِدَة ، فإذا قلنا : عالم النَّمْل على الله رزقهُ ، أما قولنا : ما من نملة إلا على الله رزقها ، أيْ لو أحصَينا النِّمال على وجْه الأرض نمْلةً نملةً ؛ كلّ نملةٍ على الله رزقها ، فتنكير كلمة دابَّة هو

تنكير الشُّمول ، يعني أنواع الدَّواب قاطبة ، وأما مِن فلاسْتغراق أفراد كلّ نوعٍ على حِدَة ، أما كلمة ما مِنْ إلا ؛ هذه الصِّياغة هي صِياغة قَصر ، فلو قلنا الدَّواب على الله رزقها ، يعني رزقها على الله ، وقد يكون رزقها على غير الله ، فإذا قلتَ : هذه الآلة لي ، هذه العِبارة تعني أنَّ هذه الآلة لي ، ولا يمْنعُ أن تكون هذه أيضًا لي ، ولكن إذا قلتَ : ليس لي إلا هذه الآلة ؛ فهذا قصْر ، فنحن لمّا قلنا : الدّواب على الله رزقها ، أيْ قد يكون على الله ، وعلى غيره رزقها ! أما إذا قلنا : ما من دابّة إلا على الله رزقها فيعني أن الرِّزق مَقصور حصرًا على الله سبحانه وتعالى ، وأنواع الدّواب وأفراد كلّ نوعٍ على حِدَة ، والرّزق مقصور على الله وحدهُ .

3 ـ الفائدة من الحرف (على) :

أما كلمة على ، فتعني الإلزام ، إنَّ الله سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفسهُ مختارًا برزْق العِباد ، لو لم يقل على، وقال : ما مِن دابّة إلا والله يرزقها ! يرزقها أو لا يرزقها ، ولكن ما من دابّة إلا وعلى الله رزقها فتعني عليه رزقها على وجه الإلزام ، والله سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفسهُ مختارًا برزْق العِباد ، قال تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

[سورة هود]

وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا

1 ـ مستقر ومستودع الإنسان معلومان عند الله :

كلّ إنسان أين مستقرّه ؟ مَعلوم عند الله تعالى ، وأين مستودَعُ رِزْقه ؟ مَعلوم عند الله تعالى .

أحيانًا تكون فِرْقة عَسْكريّة موجودة بالمكان الفلاني ، لها مستودعات للإمداد والتَّموين ، فكلّ إنسان مستقرّه ومكانه معلوم عند الله ، ومستودع رزقه معلوم عند الله ، لذلك في الأثر : " عبدي ، لي عليك فريضة ، ولك عليّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أُخالفك في رزقك " ! فهذا هو الذي يبعث في نفسك الطمأنينة ، وهو أنّ رزقك على الله ، ولكن يحتاج إلى سعي ، لماذا ؟ لأنَّ سنّة الله في الخلق أنَّه أودع في الأرض الأرزاق ، وأودع في التربة العناصر المغذيّة للنبات ، وأنزلَ من السماء ماءً وخلق البذور .

2 ـ النبات معجزة من معجزات الرزق :

إن معجزة النبات وحدها رائعة ! تأكل الفاكهة وفي نواتها بذرة ، إذا زرعتها أنْبَتَتْ لك فاكهة جديدة ، وتأكل الخضراوات ، وفيها بذور تزرع البذور فتُنْبت خضراوات أخرى ، فَنِصفُ غرامٍ من بذور البندورة ينتج خمسمائة كيلو .

سألت مزارعًا ، و كان الفلاحون يزرعون الخيار بذورًا ، كم تنتج هذه البذرة ؟ فقال اثني عشر كيلوا إلى خمسة عشرة ، ومدّ القمح في سنوات الاستقامة ينتج مائة مدًّا ! أما الآن فعشرة أمدد ، قال تعالى :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

شجرة التفاح تنتج طنًّا أو أكثر ، فَفِكرة أن الله أودعَ في التربة المواد المغذية ، وأنزلَ من السماء ماء ، وخلقَ البندورة وأعطاها الحياة فكرة مطمئنة للناس على أرزاقهم ، ففي البذرة رُشَيم ، وهو الجزء الحي من البذرة ، إذا جاءته رطوبة ينبت سُوَيق وجُذَير ، ويستهلك هذا الرُّشيم ما في البذرة من مواد غذائيّة إلى أن يخلق الله له جذيرًا يمتصّ له الغذاء من الأرض ، فتكون هذه الحبّة قد فرغَت ، ضَع حبّة فاصولياء في قطن مبلّل تَرَ أنَّ هذه الحبّة نما لها سوَيْق ، ونما لها جُذّير ، إلى أن يُصبحَ الجذير قادرًا على امتِصاص الغذاء من التربة ، وترى أنّ الحبّة من الفاصولياء أصبَحت فارغة ، هذا النشاء الموجود في حبّة الفاصولياء صارَ سُويقًا وجذيرًا ، ويأتي الغذاء من الأرض ، والماء من السماء فيَنْبُت ! لذا كلمة رزق كلمة واسعة جدًّا .

3 ـ الإنسان له قدرات على طلب الرِّزق :

الشيء الآخر أنَّ الله تعالى أعطى الإنسان قدرات على طلب الرِّزق ألهَمَ كلّ إنسان مصلحة ، هذا يزرعها ، وهذا يحرثها ، وهذا يحصدها ، وهذا يبذرها ، والإنسان بحاجة إلى آلاف الحاجات ، جعل الله سبحانه وتعالى كل إنسان يتقن واحدة من هذه الحاجات ، وبها يكسب رزقه ، مَن الذي جعل الحرّ يرتفع قليلاً ؟ يرزق مِن الحرّ مئات الألوف بل الملايين الذي يعيشون على انخفاض الحرارة ، وإذا خلق الله حشرةً زراعيّة فالذين يعيشون بِفَضلها كثيرون ، يبحثون عن دواء لها ، والمِضَخَّات ، ونقل الأدوية ، والاستيراد ، والحمولات ؛ كلّ هذا بفضل هذه الحشرة ، فربنا عز وجل خلق في الإنسان إمكانات لِكَسب الرّزق ، ومعايشَ ، وسُبلاً ووزّع الرّزق على العباد توزيعًا فيه حكمة بالغة ، وهذا كله نفيدُهُ من قوله تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

4 ـ كلّ إنسان له رزقه المحدَّد فليطمئِن :

آخر فقرة ؛ أنّ كلّ إنسان له رزقه عند الله ، فهذه الشَّجرة كأنّ كلّ تُفاحة كُتبَ عليها اسم آكِلِها ، كأنَّ كلّ خوخة كُتِب عليها اسم آكلها ، فواكه مسوَّمة ، وانتقال هذا الطَّعام إليك باختيارك ، قد تأخذه شراءً ، وقد تأخذه هدِيَّة ، وقد تأخذه ضِيافة ، وقد يأخذه بعض المنحرفين سرقة وتسوُّلاً واغتِصابًا ، وقد يأكله دناءةً ، فانتقال هذا الطعام باختيارك ، علمت أنّ رزقي لا يأكله أحد غيري فاطمأنَّت نفسي ، وإذا أحرزَت النَّفس قوتها اطمأنَّت ! فأيَّة فِكرة تبعث على الطمأنينة كهذه الفِكرة ؟ حياتك و موتك ، ورزقك بيد الله ، وكلمة الحق لا تقرّب أجلاً ، ولا تقطعُ رزقًا ، فكُن مع الله ولا تبالِ ، ولا تخش في الله لومة لائم ، قال تعالى :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175))

(سورة آل عمران)

وأبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (03-16): تفسير الآيات 07 – 11
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-01-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

تذكير بفوائد الآية :

1 ـ الحياةُ والموت والرِّزق بيد الله :

بيَّنا في الدرس الماضي أنَّ كلمة الحق لا تقطع رزقًا ، ولا تقرِّب أجلاً ، وأنَّ شؤون الإنسان كلها بيَدِ الله سبحانه وتعالى ، ومن أبرز هذه الشؤون : الحياةُ والموت والرِّزق ، وهذه الآية متعلّقة بالرِّزق .

2 ـ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا

أي ما مِن كائن حيّ على وجه الأرض يَدِبّ ، كلمة دابّة شَمَلت أنواع الدواب كلّها .

أما كلمة مِن فلاستغراق كلّ نوعٍ على حِدة ، ما من دابّة إلا على الله رزقها ، فالنَّفي والاستثناء لِتَأكيد أنَّ الرِّزق قاصرٌ على الله سبحانه وتعالى ، وليس على جهة أخرى .

وأما كلمة " على " فَمِن باب أنَّ الله سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفسه برزْق العباد ، " ابنَ آدمَ لي عليك فريضة ، ولك عليّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أُخالفْك في رزقك ! وعِزَّتي وجلالي إن لم ترْضَ بما قسَمْتُهُ لك فلأُسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ فيها ركض الوحْش في البريّة ، ثمّ لا ينالك منها إلا ما قسَمْتُهُ لك ولا أبالي ، وكنتَ عندي مذمومًا " !

3 ـ من أسباب المعصية خشية الفقر ، والطاعةُ سبيل الغنى :

لو تتبَّعْتَ الأسباب الكبرى التي تدفع الناس إلى المعصيَة ، لوجدت أنَّ مِن أبرزها خشية الفقر ، وخشيَة نقصان الرِّزق ، مع أنّ الرزق بيد الله سبحانه وتعالى ، والرّزق بيد الله حقاً ، والله سبحانه وتعالى ربطه بالاستقامة ، قال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96))

(سورة الأعراف)

وقال تعالى :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

قال تعالى :

(وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

(سورة هود)

4 ـ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا

هذه الدابة التي على الله رزقها يعلم مستقرّها ومستودعها ، قال بعض العلماء : أين هي الآن ؟ وأين سوف تموت ؟ هذا هو مستودعها إلى أن يأتي يوم الدِّين ، مستودع هذه الدّابة إلى أن يأتيَ يوم الدِّين يعلمه الله سبحانه وتعالى يعلمهُ ، قال تعالى :

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ(8)عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ(9))

(سورة الرعد)

قال تعالى :

(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(34))

(سورة لقمان)

قال تعالى :

(وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

(سورة هود)

بعضهم قالوا : يعلم مستقرّ هذه الدابة ، وأين مستودعُ رزقها ؟ وبعضهم قال : أين مستقرّها ؟ وأين مستودعها ، بمَعنى في أيِّ أرضٍ تموت ، كلٌّ في كتاب مبين ، كما قال الله عز وجل في كتابه :

(لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى(52))

(سورة طه)

قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

(سورة هود)

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

1 ـ عظمة الكون :

إذا قلنا : السماوات والأرض فنعْنِي بهنّ الكَون ، نحن على الأرض ، وكلّ ما علانا فهو سماء ، فإذا صَعِدْنا إلى القمر ، وكان هذا الصُّعود يُشْبِهُ أن يكون إنجازًا كبيرًا للإنسان ، ماذا قطعنا ؟ ثانيَةً واحدة ، كم تبْعُد الشَّمس عنَّا ؟ ثماني دقائق ضَوْئيَّة ، فالضَّوء يسير في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر ! كم يبلغُ قطر المجموعة الشَّمسيّة ؟ ثلاثَ عشرة ساعة ، وكم يبعُدُ أقرب نجْمٍ لنا ، نجم القطب ؟ أربعة آلاف سنة ضَوْئيَّة ! وكم تبعدُ عنَّا بعض المجرّات ؟ وكم يبلغ طول درب التبانة ؟ هذه المجرّة التي نحن فيها ، على شَكل مِغْزلي ، كم يبلغ قطرها الأطْوَل ؟ مائة وخمسون ألف سنة ضَوْئيَّة ! وكم يبلغ قطرها الأصغر ؟ خمسة عشر ألف سنة ضَوْئيَّة ، وهناك بعض المجرَّات تبعُدُ عنَّا ثلاثة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة ! نجم العقرب يتَّسِع للأرض والشَّمس مع المسافة بينهما ! فإذا قلنا : وهو الذي خلق السماوات والأرض أي هو الذي خلق الكون ؛ أعَرَفْتَ مَنْ هُوَ ؟! هو الذي خلقهنّ .

كلمة " وهو " أعرَفْتَهُ مَنْ ؟ هذا الذي يدْعوك لِطاعته ، هذا الذي يدْعوك أن تستقيم على أمره ، هذا الذي يدْعوك لِتَعْبدَهُ ، هذا الذي ينصحُك بطاعته ، هذا الذي يُحَذِّرُكَ مِن مَعْصِيَتِهِ ، هذا الذي يدعوك للإيمان به ، أعَرَفْتَهُ مَن هو ؟ إنّه الذي خلق السماوات والأرض ، وحتى يتذوَّق الإنسان هذه الآية :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة هود)

2 ـ الذي خلق السماوات والأرض هو الرازق :

فهذا الذي تكفَّل لك بالرِّزْق ؛ مَنْ هو ؟ الذي خلق السماوات والأرض وما مِن دابَّة إلا على الله رزقها ، مَنْ هُوَ اللهُ ؟ هو الذي خلق السماوات والأرض ؛ الكون بأكمله ، هل يُعْجِزُهُ أن يرزقَكَ ؟ خلقتُ السماوات والأرض ، ولم أعْيَ بِخَلْقِهِنّ ، أفَيُعْيِيني رغيفٌ أسوقهُ لك كلّ حينٍ ؟!

هذا الذي تكفَّل لك بالرِّزق ؛ هل عرفْتَهُ ؟ إنَّه الذي خلق السماوات والأرض ، والإنسان حتى الآن لا يستطيع تصوّر الكون ، ثمانية عشر ألف سنة ضوئيّة بعض المجرَّات ، والمجرة المُسلسلة ثلاثة عشر ألف مليون ! فلو أنَّنا رصَدْنا هذه المجرَّة ، كانت في مكانها قبل ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوْئيَّة ،

ولكن الآن أين هي ؟ لا ندري !! كانت في هذا المكان الذي يبعدُ عنّا هذه المسافة قبل ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة ، أما الآن أين هي ؟! قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة هود)

أحيانًا ، ولله المَثَل الأعلى شركةٌ كُبرى تقول : إنَّ هذه الشركة هي التي بَنَتْ أطْوَلَ جِسْرٍ في العالم ، وهي التي بَنَتْ أطولَ ناطِحَة سحابٍ في العالم ، وهي التي بنَتْ هذه الناقلة التي تحمِلُ ثلاثمائة ألف طنٍ من البترول ، إذا قالت لك هذه الشركة : إنَّ هذه الأعمال الضَّخمة هي التي صنَعَتْها مِن أجْلِ ماذا ؟! مِن أجل أن تعرف إمكاناتها اللامتناهِيَة ، فالإنسان يفْعل هذا ، ويشمخ بنفسِهِ فكيف بخلق الله سبحانه ؟ وربُّنا عز وجل تكَفَّل لك بالرِّزق .

هل تعلم أيها الإنسان من الذي تكفّل لك بالرِّزق ؟ إنَّه الذي خلق السماوات والأرض ، " خلقتُ السماوات والأرض ، ولم أعْيَ بِخَلْقِهنّ ، أفَيُعْييني رغيفٌ أسوقهُ لك كلّ حينٍ " ؟! فهذا الذي يقول : انفِجار سُكاني ، ونقص المواد الغِذائيّة ، والعالم ينتظر مجاعة كُبرى ، هذا كلام تخريفٌ في تَخريف ، الله سبحانه وتعالى لحِكْمة بالغة قد يُقَنِّن الأرزاق ، وقد يُضيِّق على الناس ، وقد تشح السماء ، ولكنّ هذا بتَقدير عزيز حكيم ، قال تعالى :

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(38))

(سورة يس)

هناك شخص جعل هذه الآية وِرْدَهُ ، قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

(سورة هود)

3 ـ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

ما قبل خلق الإنسان نقتصر فيه لما ورد به النص :

كان عرشُهُ على الماء ، هنا ننتقِلُ إلى ما قبل الحياة ، وما قبل الحياة لا نعرف عنه إلا بالقدر الذي ذكره الله تعالى في القرآن الكريم ، فأنت مثلاً تسكن في دمشق ، فإذا رأيتَ كتابًا عن الشام تقرؤُهُ بِشَغَفٍ ومتعةٍ ، ولكنّ طوال قراءتك توازن بين ما في الكتاب والواقِع ، لأنَّك مؤهَّل كي تتوسَّعَ في معلومات الكتاب ، قد يذكر المؤلِّف معلومات محدودة عن موضوع مُعيّن ، ولكن من أجل أنَّك مِن سُكان دمشق قد تعرف أشياء أكثر من ذلك ، ولكنَّك إذا قرأت كتابًا يتحدَّث عن مدينة لا تعرفها إطلاقًا ، فمعلوماتك

عن هذه المدينة محدودة بِقَدْر النصّ فقط ، فحتى لا يسمح الإنسان لِنَفسه التجاوز في الحديث عمَّا لم ندْرِكْهُ نحن ، وعمَّا كان قبل الحياة ، فما كان قبل الحياة لا نعرف منه إلا بالقَدْر الذي ذكره الله سبحانه وتعالى ، ولكنَّنا مأمورون في الدنيا أن نفكِّر في ملكوت السماوات والأرض ، ونحن مأمورون في الدنيا أن نفكِّر في مخلوقات الله ، وهذا الباب واسعٌ جدًّا ، تفكَّر في ملكوت السماوات والأرض ما شاء لك التَّفكّر ، لأنَّك كلَّما زِدت هذا الموضوع فِكرًا زادك معنًى ، كلَّما تعمَّقت في التَّفَكّر في آيات الله ازْدادت معرفتك بالله ، وكلما تعمَّقت في التَّأمّل في آيات الله ازْدادَتْ خَشْيَتُكَ لله تعالى ، ففي هذا المجال فَكِّرْ ولا حرَجَ ، لكنَّك إذا وصلْت إلى عالم ما قبل الخلق ؛ عالم الغيب والأزل فاكْتَفِ بِما ورَدَ في القرآن الكريم ، لأنَّ الحقائق محدودة بالقدر الذي سمَحَ الله به ، لذلك فإنّ ربنا عز وجل قال :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

(سورة هود)

4 ـ مفهوم ستة أيام :

بعضهم يقول : في ستَّة أيام كما تفهمونها على ظاهرها ، ولِحِكمة بالغة ، وبعضهم يقول : في ستَّة أدْوار ، فاليوم هو الدَّوْر ، فالليل والنهار يومان ، والصيف والشتاء والخريف والربيع أربعة أدْوار ، وهناك آيات تؤكِّدها ، قال تعالى :

(وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ(10))

(سورة فصلت)

قد نستأنس بِتِلك الآية على فهْم هذه الآية ، فَيُصبحُ معنى قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

(سورة هود)

أي هو الذي صمَّم السماوات والأرض ليلاً ونهارًا ، وصيفًا وشتاءً ، وربيعًا وخريفًا ، والحقيقة مِن تعاقب الليل والنهار ، والصيف والشِّتاء والربيع والخريف تُنْبتُ الأرض النبات ، وتُمطر السماء المطر ، فكأنَّ هاتين الآيتين مترابطتان ، قال تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(6)وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

(سورة هود)

لولا الليل والنهار لما بقيَت حياة على وجه الأرض ، لو أنَّ الأرض ثابتة لا تدور لكانت الحرارةُ في وجهها مائتين فوق الصفر ، وفي الوجه الآخر مائتين وخمسين تحت الصّفر ، أو ثلاثمائة وخمسين تحت الصّفر ، ولانتهَت الحياة بعد ذلك ، فالذي خلق الليل والنهار مِن أجل أن نحْيا ، ومن أجل أن

نأكل، ولو لم يكن هناك فُصول لما نبَتَ نباتٌ ، فلا بدّ إذاً مِن صيف وشِتاء وربيع وخريف ، إذًا كأنَّ هناك علاقة بين هذه الآية والتي قبلها .

لأنَّ الذي تكفَّل لها بالرّزق هو الذي خلق السماوات والأرض في سِتَّة أيام ، و فيها ليل ونهار ، وصيف وربيع وخريف وشتاء ، وإن شئتَ أنْ تفهَمَها على ظاهرها ، أنَّ الله سبحانه وتعالى لِحِكمة بالغة خلق السماوات والأرض في ستّة أيام فهذا أيضًا مقبول .

قال تعالى :

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

(سورة هود)

5 ـ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

الماء مستند الحياة :

هكذا قال سبحانه وتعالى ، يا ترى إنَّ خلق السماوات والأرض مُتَعَلِّق بالماء ؟ فقد يكون ذلك ، قال تعالى :

(وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(30))

(سورة الأنبياء)

العلماء يقولون : هناك عصور مطيرة شكَّلت البحار ؛ قد يكون ذلك ، فالله سبحانه وتعالى قال :

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

(سورة هود)

قد يكون هذا يعني أنَّ الحياة تستند إلى الماء ، يؤكّد هذا المعنى قوله تعالى :

(وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(30))

(سورة الأنبياء)

6 ـ العرش :

أما العرش فكما يقول ابن عباس : " مِن معاني العرش العلم الإلهي ، أي ربّنا عز جل صمَّم الحياة كي تكون مُتَعَلِّقة بالماء ، على كُلٍّ الله تعالى أعلم ، لأنَّ هذه الآية نافذة نُطِلّ بها على ما كان قبل أن نكون ! ففي حُدود هذه الآية إما أن نفهم أنَّ هناك عصورًا مطيرةً كما يؤكّد العلماء هي التي شكَّلت البحار ، وشكَّلت الغابات الضَّخمة والحيوانات العِمْلاقة ، والتي ساهَمَتْ في تهيئة الحياة لِبَني البشر ، أو أنَّ

طبيعة الحياة مَبنيَّة على الماء ، فلا بدّ من الماء كَوَسيط للحياة .

قال تعالى :

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة هود)

7 ـ وقفة مع : لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

الوقفة الدقيقة عند هذه الآية في اللام " لِ " هذه لام التعليل ، مثلاً تقول : أنا أدرسُ لأنجَحَ أي عِلّة الدِّراسة النَّجاح ، والحافز هو النَّجاح ، والسَّبب هو النجاح ، والهدف والنتيجة هما النجاح ، فحيثما وردَت لام التعليل ، كما في قوله تعالى مثلاً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(183))

(سورة البقرة)

التقوى إذًا هي عِلَّة الصِّيام ، ربنا عز وجل قال :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة هود)

خَلْقُ اللهِ للعباد من أجل الابتلاء :

فنحن حينما جاء الله بنا إلى الدنيا لِعِلَّة واحدة هي أن يمْتَحِننا ، فالدنيا دار امتِحان وابتِلاء ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((إنّ هذه الدنيا دار التِواء لا دار استِواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لِرَخاء ، ولم يحزن لِشَقَاء ، قد جعلها الله دار بلْوى ، وجعل الآخرة دار عُقبى ، فجَعَل بلاء الدنيا لِعَطاء الآخرة سببًا ، وجعل عطاء الآخرة مِن بلْوى الدنيا عِوضًا ، فيأخذ لِيُعطي ، ويبْتَلي لِيَجْزي)).

[ورد في الأثر]

وآيات كثيرة تؤكّد هذا المعنى ، فالهدف من الخلق الابْتِلاء ! قوله تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(30))

(سورة المؤمنون)

وقوله تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

لابدّ إذاً مِن أن تنكشف على حقيقتك ، ولا بدّ من أن ينكشف معْدنك ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

كلّ إنسان جاء إلى الدنيا لِيُؤكّد ذاته ، ذاته الخَيِّرَة ، أو ذاته الشرِّيرة ، وليظهر ما إذا كان أمينًا أم خائنًا، صادقًا أم كاذبًا ، مُحْسنًا أم مسيئًا ، مؤمنًا أم كافرًا ، رحيمًا أم قاسيًا ، منصفًا أم ظالمًا ؛ طبيعة الحياة ، وطبيعة الأعمال ، وطبيعة الشهوات ، وطبيعة الأموال ، وطبيعة العلاقات الاجتماعيّة ؛ هذا كلّه يكشف الإنسان ، فيوضع كلّ يوم أمام امتِحانات صعبة ؛ إما أن ينْحاز إلى الحق أو إلى الباطل ، إما أن ينضمّ إلى مبدئِهِ ، أو إلى مصلحته ، إما أن يضَع مبدأهُ تحت قدمِهِ ، وإما أن يضع شهوته تحت قدمه، قال تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(30))

(سورة المؤمنون)

كلّ واحد منّا يوضع في مواضع كثيرة يُمْتَحَنُ بها ، يُمْتَحَنُ صبرُهُ ، ويُمْتحنُ توكّله ، ويُمْتحنُ تفويضه، ويُمْتحنُ استسلامه لله عز وجل ، وتُمْتحنُ قوّة إرادته ، قال تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(30))

(سورة المؤمنون)

كأنّ الله سبحانه و تعالى قد خلقنا في عالم الأزل ، وجاء بنا إلى الدنيا لِيُثبت كلّ مِنَّا ذاته وصفاته ، وخيره أو شرّه ، والحياة الدنيا دار ابتلاء ، لذلك قال العلماء : الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف ، والدنيا دار امتِحان ، والآخرة دار العطاء ، والدنيا إعداد ، والآخرة رشاد ، فالإنسان في الآخرة يسْعد ، ولكن في الدنيا يُمتحن ، فعَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى المَسْجِدِ وَهُوَ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا ، فَأَوْمَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِيَدِهِ إِلَى الْأَرْضِ :

((مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ثَلَاثًا ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ ، وَمَا مِنْ جَرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلَّا مَلَأَ اللَّهُ جَوْفَهُ إِيمَانًا))

[رواه أحمد]

ولِحِكمة بالغة فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى جعل كسْب الحلال صعبًا ، وقد يجعل الحرام سهلا ، ولو كان الحلال سهلاً لأقبل الناس على الحلال لِسُهولته ، ولكنّ حِكمة الباري أنَّ الحلال صعب ، والحرام سهل، بهذا يُمْتَحَن الناس ، فمن كان منهم يعرف الله ، ويصبر على طاعته ، ويصبر عن معصيته فهو الفائز الأوّل في الحياة الدنيا ، إذا كما قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة هود)

أنت ممتحَنٌ في كل شيء :

قد تقول لك أمّك : يا بنيّ ، أعْطِني مبلغًا من المال ، فتُمْتحن بهذا الطلب ، إما أن تؤثر رضاها ، وإما أن تؤثر لذَّتَك وشهوتك على رضاها .

تمتحن في علاقتك مع ربّك ، وتُمتحن في علاقتك مع أبيك ، وفي علاقتك مع زوجتك ، تمتحن في علاقتك مع جيرانك ، وتمتحن مع زبائنك ، وتُمتحن في علاقات العمل ، وتمتحن في العلاقات الخاصة، قال الله سبحانه وتعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك)

فهنيئًا لِمَن امْتَحَنه الله عز وجل ونجَحَ في الامتحان ، قد يضيق دَخلك ماذا تقول : الحمد لله رب العالمين ، أو تقول على الله ما لا يليق ، أنت في البحبوحة مؤمن ، وصادق وتقول ما تقول ، أما في البلاء فماذا تقول ؟ ، قال تعالى :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(11))

(سورة الحج)

فالله عز وجل يعرفك تمام المعرفة ، ولكنه إذا امتحنك لِتَعْرف أنت ذاتك وحجمك الصحيح والحقيقي ، ولكيلا تتوهَّم أنَّك مؤمن كبير توضَع في امْتِحانات صعبة فيَنْكشف هذا الإيمان ، هذا الذي يضيق برزقِهِ امتحَنَهُ الله ورسب في الامتحان ، وهذا الذي لا يرضى عن قِسمة الله له في زوجته ، هذه الزوجة التي اخْتارها الله لك هي التي أرادها الله ، فهل أنت مستَسْلِمٌ لِمَشيئته ؟ وهل أنت راضٍ بحُكمِهِ ؟ وهل أنت صابرٌ على بلائِهِ ؟ تُمتَحَنُ بالزَّوجة ، وتُمْتحن بالغنى ، وتُمتحن بالفقر ، الغِنى والفقر مَطِيَّتان إلى الله عز وجل ، قال عمر رضي الله عنه : << لا أبالي ما إذا كنتُ غَنِيًّا أو فقيرًا >> ! لأنَّ الغنى والفقر مَطِيَّتان إلى الله عز وجل ، فالفقير الصابر مَطِيَّتُهُ إلى الجنَّة صبرُهُ ، والغنيّ الشاكر مَطِيَّتهُ إلى الجنَّة شكرهُ ، وليس الفقير الصابر بأعْظَمَ أجرًا من الغنيّ الشاكر، قال تعالى :

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة هود)

الابتلاء يكشف حقيقة الإنسان :

الغنى امتِحان ، فهذا الرجل الذي كان صحابيًّا ؛ " ثعلبة "، و كانَ يقال له : حمامة المسجد ، و هو الذي كان يُصلّي خلف النبي عليه الصلاة والسلام ، لا تفوتُهُ تَكبيرة الإحرام خلف النبي عليه الصلاة والسلام ، جاء النبي مرَّةً فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : كيف حالك يا ثعلبة ؟ فشكى ثعلبة الفقر فقال يا ثعلبة : قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تؤدّي شكره ، فقال : اُدْعُ الله لي أن يُغْنِيَني ، فقال : يا ثعلبة إنّ الغنى غنى النَّفس ، فقال : اُدْعُ الله لي أن يُغْنِيَني ، فقال : يا ثعلبة ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكنّ الغنى غنى النَّفس ، فقال : اُدْعُ الله لي أن يُغْنِيَني ، فرفَعَ النبي الكريم يَدَيْه ، وقال : اللهمّ أغْنِ ثعلبة بما شئتَ ، وكيف شئت ، وما هي إلا فُصول حتى أصبح له وديانٌ مِن الغَنَم ، أين ثعلبة ؟ غاب ثعلبة ! أين حمامة المسجد ؟ غاب ! منغَمِسٌ في تِجارته ، وتحصيل أمواله ، وحِساباته ، بعث له النبي رسولاً لِيَأخذ منه زكاة ماله ، ويسأل عنه ، فلمَّا لَقِيَ رسول النبي قال : قُلْ لِصاحِبِكَ - يعني محمَّدًا صلى الله عليه وسلم - ليس في الإسلام زكاة ! فقال له : أوَ ما تراهُ صاحِبًا لك ؟! قال تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ(75))

(سورة التوبة)

فثعلبة هذا امْتَحَنه الله عز وجل ، ورسَبَ في الامْتِحان .

قد تقول : يا ربّ ، زوجة أصون بها نفسي ، تأتيك الزَّوجة فتنسى بها المسجد ! أين المسجد ؟ وأين مجلس العلم ؟ فالزَّوجة امتِحان ، والغِنى امْتِحان ، والفقر امْتِحان ، وقوّة الجسد امْتِحان ، والضَّعف امْتِحان والصِّحة امْتِحان ، والمرض امْتِحان ، ورفْعة القدر امتِحان ، والخمول امتحان ، هل تضيق ذرعًا لأنَّ الناس لا يعرفونك ، سيّدنا عمر رضي الله عنه جاءهُ رسول يُخْبرُهُ أنَّ أناسًا كثيرين من المسلمين ماتوا في بعض المعارك ، فقال له عمر رضي الله عنه : << يرحمك الله ، من هم ؟ فقال : إنَّك لا تعرفهم ، فبكى عمر رضي الله عنه ، وقال : ما ضرَّهم أنّي لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم >> ! أيْ إذا كنت غير معروف ، وليس لك هذا الصيت العريض والسمعة والشهرة ، ولم يكن لك شأن كبير في المجتمع ، وكنتَ إنسانًا مغمورًا ، ولا أحد يعرفك ، فهل هذا مِمَّا يُثبِّط عزيمتك ؟ لا ، مَن عرف نفسهُ ما ضرَّتْهُ مقالة الناس به .

هل تدري من هو أشهر مخلوق على وجه الأرض ؟ الشيطان ، ما مِن أمّة ، وما مِن شعب ، وما من لغة إلا وفيها اسم الشيطان على ألسنتهم ، فالشُّهْرة وحدها ليسَتْ مِقياسًا ، ولكن البطولة أن تكون طائِعًا لله عز وجل ، فأن تكون عالي الذّكر ، امتحان ، وأن تكون خامل الذّكر امتِحان ، والفقر والغنى والصحّة والمرض والزواج كلها امتحانات فالمتزوّج ممتَحن ، وغير المتزوّج يُمْتَحَن ، هل يصبر عن

الحرام حتى يأتيه الحلال أم لا يصبر ؟ هناك ربّ يُحاسِب ، فهذه الآية دقيقة جدًّا ، قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة هود : من الآية 7)

يضيق الدَّخْل ، ويضيق ، ويضيق إلى أن تحسّ أنَّك في فقْر مُدْقِع ، ثم يأتيك عَرْضٌ مِن المال مِن طريق غير مَشروع ؛ امتِحان صعب ، فإما أن تبقى مُتماسكًا ، وتقول : لا ، لا آكل إلا مالاً حلالاً ، وإما أن تنهار مُقاومتُك فتأكل المال الحرام ، اُمتُحِنتَ ، ورسبتَ في الامتِحان ، تقول لمن ينصحك : واللهِ أنا مضطر ، وعندي أولاد ، ومثلي مثل هؤلاء الناس كلُّهم ، إذاً رسبتَ ، و لو قلتَ : إني أخاف اللهَ ربَّ العالمين لنجحتَ ، و لو قلتَ : من ترك شيئا لله عوَّضه اللهُ خيرا منه في دينه ودنياه ، لنجحتَ .

ربُّنا عز وجل له آلاف الأساليب في وضع الإنسان في ظرف ينكشف على حقيقته ، يقول لأمه : يا أمَّاه لو تزوَّجت لكنتُ أنا وزوجتي في خدمتك ، كلام طيِّب ولطيف ، يتزوج ، ويأتي في أحد الأيام فيرى خصاما بين زوجته وأمه ، يقول لأمه : أنتِ كذلك ، بالغْتِ في ذلك ، وكلُّ البلاء منك ، هذا الذي قلتَه امتحنك اللهُ به ، لم تحسن تصرُّفا ، ولم تحسن صنعا ، ولم تكن بارًّا بأمِّك ، فلا تنسَ حقَّ زوجتك ، ولا تهضم حقَّ أمِّك ، اُمتُحِنت ولم تنجح .

الموضوع طويل ، ولكن تأكد أن في كلّ حركة من حركاتك ، وكلِّ سكنة من سكناتك تُمتحَن ، و أنت لا تدري ، قل ما شئت ، و لكنَّ الأحداث تكشفك على حقيقتك ، تحدّثْ عن ورعك ما شئت ، و توضَع في مكان لا أحد يراك و تمرّ امرأةٌ فهل تنظر إليها ؟ إذا نظرت ، و من لم يكن له ورع يصدّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله ، اُمتُحنتَ و رسبتَ .

قد ينسى البائع معك مبلغا من المال ، تقول : أنا أحاسب على الدرهم ، هل تعود إلى البائع لتنقده ما له معك ، مثلاً خمسون ليرة ، وفي الجمع كان خطأ هل ترجع إليه ، تُكتشَف في هذا على حقيقتك ، على كلِّ إنسان أن ينتبه لأحواله كلها ، في كل حركة ، و في كل سكنة ، و في نومه و يقظته ، و في صلاته، تحدِّث الناس أن الصلاة يجب أن تكون مُتقنة ، أتفعل هذا أنت ؟ رسبتَ في الامتحان ، أو نجحتَ ، تحدَّث الناسَ عن قيام الليل ، فهل تصلّي قيام الليل ؟ تحدِّث الناس عن الصدقة فهل تدفع الصدقة أنت بسخاء ؟ قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

وقال تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

فهذِهِ اللام "ليبلوكم " لام التعليل ، علّة خلق السماوات والأرض وعلّة مجيئنا إلى الدنيا الابتلاء ، قال تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(30))

(سورة المؤمنون)

وقال تعالى :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

وقال تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

أبدا فالامتحانات مستمرة ، في المدارس الامتحان مَرَّتان في السنة ، وهناك امتحان فصلي على النظام الجديد في الجامعة ، وهناك امتحان ثانوي ، وهناك مذاكرات ، ولكنَّ امتحانات الله سبحانه وتعالى مستمرة مع الحياة كلَّ يوم تُمتحن ، أذَّن الصبحُ ، و أنت في فراشك ، والفراش وثير ، و الدفء عميم ، والجو باردٌ ، وليس عندك عملٌ ، وليس هناك مواعيد ، هل تركن إلى النوم ، وتقول : أصلّي بعد الشمس ، أم أنت كما قال تعالى :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(16))

(سورة السجدة)

تُمتحن ، تقول : ليتني أصلّي قيام الليل ، اللهُ سبحانه و تعالى يوقظك في الساعة الثالثة و الربع ، تفتح عينيك ، وأنت صاحٍ مرتاح ، تفضَّل ، و صلِّ قيام الليل ، لا تقوم ، وإذا خطَرَ ببالك خاطر : ليتني أصلّي قيام الليل ، يوقظك اللهُ سبحانه و تعالى في الوقت المناسب ، وتبقى نائما ، لا تُعِد هذه الكلمة مرة ثانية ، اُمتُحنت و رسبتَ في الامتحان ، قال تعالى :

(وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

(سورة هود)

وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

الكافر رجلٌ حسيٌّ مادي :

لو قال النبيُّ لكفار قريش : إن هناك بعد الحياة حياة لقالوا : إن هذا إلا سحر مبين ، وقال تعالى :

(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

(سورة هود)

فهؤلاء الكفار كما قلت قبل قليل : حسِّيُّون ، ما داموا في بحبوحة وفي صحة جيِّدة يقولون : ليس هناك حساب ، وليس هناك عذاب ، وليس هناك عقاب ، أين هو العقاب ؟ إيتِ به إن كان صحيحا ، هذا رجل حِسِّي ، قال تعالى :

(أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

(سورة هود)

أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

لا رادَّ لعذاب الله :

إذا جاء أمر ربِّك فلا رادَّ لِمَشيئتهِ ، قال تعالى :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ(11))

(سورة الرعد)

وإذا أخذ الله أخذ أخْذَ عزيز مُقتَدِر ، وإنَّ الله يُمْهل ، ولا يُهْمِل ، يُرْخي الحَبل ، ولكن إذا أخذَهُ لم يُفْلِتْهُ، يقول الكافر : أين الله ؟ أين العذاب ؟ أين العِقاب ؟ إذا جاء العِقاب فلا مردَّ له ، إذا قبضَهُ الله فلن يُفْلِتَهُ ، قال تعالى :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

أحدهم طغى وبغى ، وفسقَ وفَجَر ، وتزوّج زوْجةً صالحة فجعَلها سافرة ، وحملها على الاخْتِلاط ، وأفْسدَها ، ورقَصَتْ له الدنيا كما يقولون ؛ ثم لم يلبث أن آلَمَتْهُ عَيْنُهُ ذات يومٍ فتفاقَمَ الألَم ، انتَقَل من

طبيب إلى طبيب ، إلى أن قلعت عينه ، ووجد عيْنَهُ في كفّه ، فخَنَعَ عندئذٍ ؛ أين العذاب ؟ أين العِقاب ؟ هذا نموذج من العقاب ، قال تعالى :

(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ)

(سورة هود)

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ

1 ـ هذه هي حال الجاهل في النعمة والفقر :

هذا الإنسان الجاهل أكرمه الله عز وجل بنِعمة الصحّة ، وأكرمه بنِعمة الزَّوجة ، وأكرمه بنِعمة البيت، أكرمه بنِعمة العمل وبنِعمة الأولاد ، إذا نزعَ الله إحدى هذه النِّعم منه ينقمُ على الله عز وجل ، وييْأسُ من رحمته ، ويتكلّم كلامًا لا يليق بالله عز وجل .

أنت عبْدُ الله أم عبد الدنيا ؟ أنت عبْدُ الفتاح أم عبدُ الفَتْح ؟ هذا الذي استَمْرأ الحياة واطْمأنَّ لها ، وشَعَر بخُلودٍ لها ، إذا نزَعَ الله منه صِحَّتَهُ يخْتَلُّ توازنَهُ ، وإذا حرَمَهُ الزَّوجة لا يطيق حياةً بعدها ، إذا حرمه نِعمة الولد ، أوْ قبض أحد أولاده إليه ينْقم على الله عز وجل ، يقول كلامًا لا يليق ، قال تعالى :

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ)

(سورة هود)

ماذا ينبغي أن يقول إذا نُزعَت منه النعمة ؟ ينبغي أن يقول : إنَّ لله ما أعطى ، وله ما أخذ ، قال أحد الصحابة وكان قد سافر ، وترك ابنه مريضًا مرضًا شديدًا ، فلما جاء تلقَّتْهُ زوجته بالترحاب ، والتَّطمين ، وأعدَّتْ له الطعام ، وهيَّأت له نفسها ، فقال : يا فلانة كيف ابني ؟ فقالت : هو في أهدَأ حال، اطْمئِنّ ، فاطْمأنَّ ، في اليوم التالي قالت له : إنَّ الجيران إن أعْطَوْنا حاجة ، ثمَّ طلبوها مِنّا ، فقال: هي لهم ، وما شأْنُكِ بهم ، فقالت : كذلك فعَلَ الله عز وجل ؛ وَهَبنا الله عز وجل ولدًا ثمّ اسْتَرَدَّهُ ! أيْ هي نقَلَتْ له الخبر تقسيطًا ، وبالتَّدريج ، فالمؤمن يؤمن أنَّ لله تعالى ما أعطى ، وله ما أخذ ، قال تعالى:

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ(9)وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

(سورة هود)

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ

فهذا الإنسان الغافل الشارد على الله سبحانه وتعالى هذه هي صفاته إذا أذاقهُ رحمة ثمَّ نزَعَها منه إنَّه يئوس كفور ، يئوس من رحمة الله جاحدٌ لِفَضله ، قال تعالى :

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

(سورة هود)

1 ـ الإنسان في حال الفرح ينسى ربه :

إذا جاءتْهُ الدنيا كما يشتهي ، وربحَ في تِجارتِهِ ، واقْتَرَن بزَوجة تروق له ، واشترى بيتًا مناسبًا ، وركب سيارة فارهة ؛ نَسِيَ الله ، ونسيَ الحِساب ، ونسيَ الذي يُراقبه ويُحاسبه ، تراه يفرح الفرح كله ، لذلك فإنَّ الفرح الفرَحُ بالدنيا مِن نَقْص العَقل ، مَن عرفها لم يفرحْ لِرَخاء ، ولم يَحْزن لِشَقاء ، ماذا قال قومُ قارون لِقارون ؟! قال تعالى :

(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76))

(سورة القصص)

2 ـ لا تدوم نعمة في الدنيا :

هذا الذي يفرحُ بالدنيا هو ضَيِّقُ الأفق ، وهذا الذي يفرح بالدنيا ، ويرضى بها ، ويطمئنّ لها لا يعرف الله سبحانه وتعالى ؛ إنَّها زائلة .

جاء رجلٌ لسيّدنا علي رضي الله عنه ، فقال له : << يا أمير المؤمنين ، أكْتُب لي عَقْد شِراء لِهذا البيت ، نظر إليه فإذا الدنيا متربِّعة على قلبه ، فقال له : هات القلم ، وكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما اشْتَرى ميِّتٌ مِن ميِّتٍ ! بيتًا في دار المذنبين ، وسِكَّة الغافلين ، يحُدُّ هذه الدار أربع جِهات ، فجِهة إلى الموت ، وجِهة إلى القبر ، وجِهة إلى الحِساب ، وجِهة إلى الجنة أو النار >> ، وقدَّم له هذا العقد !!

الموت لا بدّ واقِع ، ولا بدّ أن تترك هذا البيت ، وجِهة إلى القبر ، وجِهة إلى الحِساب ، وجِهة إلى الجنة أو النار .

3 ـ من علامة الجاهل الفرح بالدنيا والركون لها :

مِن علامة الجاهل أنَّه يفرح بالدنيا ، ويتباهى بها ، وقيمة المرء متاعُهُ ، وهذا يكون في آخر الزمان ، فلا العلم والخُلُق لهما قيمة عنده ، ولا الإيمان ، بل متاعُهُ نوعُ داره ، ومساحتها ، وفخامتها ، ونوعُ سيّارتِهِ ، ومحلُّه التّجاري ، وفي أيّ شارعٍ يقع ، وما مساحته ، وما نوع البضاعة التي يتعامل بها ؟ هذه من علامات قيام الساعة ؛ أنّ قيمة الرجل متاعه فقط ! قال تعالى :

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

(سورة هود)

عند الله تعالى عِلاجات لا يعلمها إلا الله ، عند الله أدْوِيَةٌ لا تُعَدُّ ولا تُحْصى ، لِكُلّ بلدٍ ، ولكلّ إنسان ، ولكلّ مجتمعٍ دواءٌ يُصيب موطن الداء ، قال الله تعالى :

(إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

(سورة هود)

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ

1 ـ الصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى قضاء الله وقدره :

هؤلاء الذين صبروا عن المعاصي ، وصبروا على الطاعات ، وصبروا لحُكم الله ، وهؤلاء الذين عملوا الصالحات في السراء والضراء ، وفي الغِنى والفقْر ، وفي الأثر : " أُحِبُّ ثلاثًا ، وحُبّي لِثلاثٍ أشدّ ، أُحبّ الطائعين وحُبِّي للشابّ الطائع أشدّ ، وأحبّ الكرماء ، وحُبِّي للفقير الكريم أشدّ ، وأحبّ المتواضعين ، وحُبي للغني المتواضع أشدّ وأبغُض ثلاثًا وبُغضي لِثلاثٍ أشدّ ، أبغض العصاة ، وبُغضي للشيخ العاصي أشدّ ، وأبْغُض المتكبِّرين ، وبغضي للفقير المتكبّر أشدّ ، وأبغض البخلاء ، وبُغضي للغني البخيل أشدّ " ، قال الله تعالى :

(إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

(سورة هود)

صبروا على الطاعات و عن المعاصي ، وعلى حكمة الله ، شاءَتْ حِكمتُهُ أن يكون أولادك جميعًا إناثًا، الحمد لله، لو كُشِفَ الغِطاء لرأى أن أمره في خير ، لو صبَرَ على أنّ زوجته لا تروق له ؛ هذه قِسْمَتُهُ ، وصبر على أنَّ أولادهُ ليسوا كما يريد هكذا شاءَتْ حكمة الله عز وجل ، وصبر على دَخْلِهِ المَحدود ، منزله الضيق ، وعلى عِلَّة في جسده ، صبر على الطاعات وعن المعاصي ، وعمل

الصالحات في الرخاء والشِّدة ، والغنى والفقر ، وفي إقبال الدنيا أو إدبارها لكان في عداد الصابرين ، وله ثوابهم ، قال تعالى :

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر : من الآية 10)

أما المؤمن حقاً فالعمل الصالح دَيْدَنُهُ ، ومطِيَّتهُ إلى الله تعالى ، ولا يبْخل بما أعطاه الله ، فهؤلاء ليسوا كَهَؤُلاء ، إنَّ الكافر إن جاءَتْهُ الدنيا مشي تيهًا ، وعُجْبًا ، و زها غروراً ، وما عرف الله من خلال النعمة فرسب ، وإن زُوِيَتْ عنه ضاقتْ نفْسُهُ وكفَرَ بالله ، ويئِسَ مِن رحمة الله عندما امْتَحَنَهُ الله سبحانه وتعالى ورسَبَ في الامتِحان أيضاً فكان راسباً في كلا حالتيه ، عند إقبال الدنيا عليه و عند إدبارها عنه، فكانت عاقبته الخسران و البوار .

2 - الصابر له جزاء كبير في الدنيا والآخرة :

الشيء الآخر ، قال تعالى :

(إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

(سورة هود)

هؤلاء الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير مغفرة في الدنيا ، و المغفرة شِفاءٌ من كلّ أمراضهم ، وأجر كبير في الآخرة ينْعُمون به إلى أبد الآبدين .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (04-16): تفسير الآيات 12 – 24
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-02-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم ، وصلنا في الدرس الماضي في تفسير سورة هود إلى قوله تعالى :

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة هود)

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ

1 ـ النبي عليه الصلاة والسلام ضاق صدره من قول الكفار :

النبي عليه الصلاة والسلام ضاق صدره بالكفار ، لأنَّهم لم يُقَدِّروا رسالته ، ولم يعرفوا نُبْلَ هدفه ، ولم يُعْطوهُ أُذُنًا صاغِيَةً ، بل سألوه أسئلة سخيفة ، وطالبوه بأدِلَة لا يليق به أن يُطالبَ بها ، جاءهم بالحق فقالوا :

(أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ)

(سورة هود : من الآية 12)

جاءهم بالحق فقالوا كما قال اليهود :

(أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً)

(سورة البقرة : من الآية 153)

2 ـ القرآن معجزة :

فأخذتهم الصاعقة ، فالكفار دائمًا إذا دُعُوا إلى الله سبحانه وتعالى يتحجَّجُون ، ويُطالبون بالمعجزة ، مع أنَّ الكون كلّه معجزة ، وحَسْبُكُم الكون معجزةً ! هذا الذي يُريد خرقًا لِقوانينه متَعَنِّتًا ، غاب عنه أنَّ خلقهُ معجزة ، أنَّ خلقه من ماءٍ مهين ، وأنَّ أولاده ، طعامه ، وشرابه والبيت الذي يأوي إليه والزوجة التي يسْكنُ إليها ، ما حوله ، وما أمامه ، وما وراءهُ ، في كلّ شيءٍ له آية تدلّ على أنَّه واحِدُ ، لذلك قال بعضهم : لم أجِد أشدَّ صممًا مِن الذي يريد ألا يسْمع ، فالذي يتكلّم عن الله سبحانه وتعالى إنَّما يتكلَّم لإقبال الناس عليه ، وبِتَشْجيعِهِم له ، وبِقُبول كلامه ، وبإصْغائِهِم إليه ، فإذا صَدُّوا وأعْرَضُوا وتعنَّتوا

وطالبوا وسَخِروا ، واسْتَخَفُّوا وتتبَّعوا بعض الهَنات ، فإنَّ المتكلّمَ تَضيقُ نفسهُ ، ولا ينطلقُ لِسانهُ ، لأنَّ المُسْتَمِع ليس مُصَدِّقًا ، إنَّما هو متعَنِّت ، لذلك هناك سائلٌ يسأل سؤالَ من يريد أن يعلم ، سؤال المستفهم، فتُجيب عنه بنَفْسٍ رَضِيَّة ، ولكن سؤال المتعنِّت تُجيب عنه ونفسُكَ ضيِّقةٌ به ، ولما طال تعنت الكفار أراد الله سبحانه وتعالى أن يُبيِّن للنبي صلى الله عليه وسلم تعنُّتهم وسُخفهم ، ومطالبتهم له عليه الصلاة والسلام بأشياء مِن باب التعجيز ، هذه حقيقة ، والله سبحانه وتعالى في الوقت نفسه أيضاً أراد أن يُسَلِّي نبيّه عليه الصلاة والسلام ويثبِّتهُ ، ويَدْعوه أن يُواجه هذه المتاعب بِثَباتٍ وأنَّ حِسابهم ليس عليه إنَّما على الله رب العالمين ، قال تعالى :

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ)

(سورة هود)

مثلاً حينما أسْرى الله به مِن مكّة المكرّمة إلى بيت المقدس ، كان النبي عليه الصلاة والسلام يخشى أن يقول الذي حدث معه فيزيد الناس له تَكْذيبًا ، وكلّما أراه الله آية من آياته الكُبرى كانتْ نفسُهُ تضيق عن أن يذكرها خشيَة التكذيب وخَشْيَة التَّعَنّت ، ومطالبتِهم بالمُسْتَحيلات ، قال تعالى :

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ)

(سورة هود)

أحيانًا يُسأل الإنسان سؤالاً عن حُكْم الشرع في هذا الموضوع ، فيقول المسؤول : ليْتَهُ لم يسألني هذا السؤال ، لأنّني إذا أجبته وِفْقَ الحق قد لا يتحمَّل هذه الإجابة ، وإن قلتُ له : إنَّ هذا العمل حرامٌ فإنه يقول : هذا عملي ، فماذا أصنعُ به ؟ لو كان الإيمان بدَرَجةٍ أكبر لضحَّى الإنسان بِكُلّ شيء اتِّجاه مرضاة الله ربّ العالمين ، فالإنسان في أوَّل الأمر ليس له أن يُكْثِرَ الأسئلة ، لأنَّه إن أكثرها ضاق عليه الشرع ، وضاق إلى درجة أنَّه قد لا يحْتمِلُ مُتابعة الطريق ، فالإنسان كما قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(101))

(سورة المائدة)

إذا عرفت الآمر قبل الأمر هان عليك أمرهُ :

لأحدهم محلٌّ تجاري ، والبِضاعة كلّها حرام ، تعاملُهُ كلّه حرام ، فإذا سألك عن شرْعِيَّة هذا العمل فأنت ليس لك خِيار ، فلا بدّ أن تقول الحق كائنًا ما كان ، ولِيَكُن ما يكون ، فالإنسان في أوَّل الطريق عليه أن يتعرّف إلى الله رب العالمين ، وأن يلْتَفِت إلى الكون لِيَرى عظمة الخالق ، فإذا عرف عظمة الخالق هانَ عليه طاعتهُ مهما كان ثمنها باهظًا ، فلو تعرَّفْت على إنسان يستطيعُ أن يُمِدَّك بآلاف

الملايين ، وقال لك : سلِّم هذا المحلّ ، فُروغُهُ خمسون ألفًا إذا عرفت حجْم ماله ، وحِرْصهُ على منْفَعَتِك وصِدقهُ في وعدِهِ ، وغِناهُ إذا عرفت كلّ هذه الحقائق يهون عليك إذا وجَّه لك أمرًا أن تُسلِّم هذا المحل أنْ تستجيب له ، لذلك المشكلة دائمًا أن تعرف الآمِرَ قبل أن تعرف أمرهُ ، فإذا عرفت الآمر قبل الأمر هان عليك أمرهُ ، فإذا تعرَّفْت إلى أمرِهِ قبل أن تتعرَّف إليه صَعُب عليك أمره وهذه هي المشكلة ، النبي عليه الصلاة والسلام أمضى مع صحابته الكرام بضْع عشرة سنة يُعَرِّفهم إلى الله سبحانه وتعالى ، ويَلْفِتُ نظرهم إلى الكون ، قال تعالى :

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ(101))

(سورة يونس)

وقال تعالى :

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1)وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2)وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3)وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4)وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5)وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6)وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

وقال تعالى :

(وَالْفَجْرِ(1)وَلَيَالٍ عَشْرٍ(2)وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ(3)وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ(4))

(سورة الفجر)

هذه الآيات إذا الْتَفَتْنا إليها ، وعرفنا مدلولاتها ، وعرفنا الخالق العظيم الذي خلقها والمُرَبِّي الكريم الذي أمدّها ، والمُسيِّر الحكيم الذي سيَّرَها ، إذا عرفناه حقّ المعرفة هان علينا أن نترك كلّ شيءٍ من أجله ، تقول رابعة العدويّة :

فليتَكَ تحلو و الحياة مـريرةٌ و ليتك ترضى والأنام غِضاب
وليت الذي بيني وبينك عـامر وبيني و بين العالمين خـراب
وليَت شرابي مِن ودادِكَ سائـغٌ وشُربيَ مِن ماء الفرات سراب
إذا صحّ منك الوصل فالكلّ هيّن وكلُّ الذي فـوق التراب تراب

****

الذي أتمنّى عليكم أن تتَّجِهوا بِكُلّ طاقاتكم إلى معرفة الله ، فإذا عرفتموه حقّ المعرفة هانَ كلّ شيءٍ في سبيله .

فلو شاهَدَت عيناك من حسننا الذي رأوْهُ لما ولَّيْت عنَّا لِغيرنـا
ولو سَمِعت أذنك حُسْن خِطابنا خَلَعْتَ عنك ثِيابَ العُجْب وجِئتنـا
ولو ذُقتَ من طعْم المحبّة ذرَّةً عَذَرْتَ الذي أصحى قتيلاً بِحُبِّنـا

ولو نسَمَتْ مِن قُربنا لك نسْمة لَمُتَّ غريبًا واشْتِياقا لِقُربنـــا
فما حُبُّنا سهل وكلّ من ادَّعى سهولته قلنا له قد جهلتنـــا
فأيْسَرُ ما في الحبّ للصدّ قتله وأصعبُ مِن قتل الفتى يوم هجرنا

***

أنت طالبٌ وُدَّ الله عز وجل ، وطالب وُدَّ خالق الأكوان ، ويجب أن تدفعَ الثَّمَن ، ألا إنَّ سِلعة الله غالية، ألا إنَّ سِلعة الله الجنَّة ، قال تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

وقال تعالى :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

لا بدّ مِن أن تُمْتَحَن ، ولا بدّ مِن أن يمتحن إيمانك ولا بدّ من أن يُمْتَحَن توكّلك وصبركَ ، ولا بدّ من أن يُمتحن حبّك ، مثلاً لو أنَّ أمًّا تسْكنُ عند ابنها ، وهو يملأُ سمعها من ألفاظ الإخلاص والوُدّ والطاعة ، وما شاكلَ ذلك ، فقالتْ لهُ مرّةً : أعْطِني هذه الغرفة أختص بها ؟ فقال : لا أستطيع **!!** هذا الكلام الذي يقوله تلاشى أمام رفضِه لِهذا الطَّلَب ، لأنَّه حينما رفض طلبها تبيّن أنّ البقاء بهذه الغرفة أغلى عليه من رضاها ؛ هذا مثلٌ ، وأحيانًا يعصي الإنسان ربّه من أجل شَهْوةٍ ، ماذا يعني ذلك **؟!** يعني ذلك أنَّ هذه الشَّهوة أغلى عليه مِن ربِّه ، إذا قال لك واحدٌ من الناس : لا أستطيع أن أغضّ بصري ، هل تعرف ماذا تعني هذه الكلمة ؟ تعني أنّ اسْتِمتاعه بالنَّظر إلى النِّساء أغلى عليه مِن رضاء الله رب العالمين ، قال تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

فلما يتعرّف الإنسان إلى الله عز وجل معرفةً حقيقيّة ثم سمع أمره طبَّقه طواعِيَة ، وليس في حياةِ المؤمن شيءٌ مستحيل ، ما دام يُرضي الله رب العالمين ، ذهب إلى الطائف مشيًا على قَدَميه ، وتهجَّم عليه أهل الطائف ، وردُّوه وكذَّبوه ، واسْتَخَفُّوا به ، ثم قال :

((إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولكن عافيتَك أوسَعُ لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

وكُلٌّ يدَّعي وصلاً بِليلى ، فما مِن مؤمن على وجه الأرض إلا ويدَّعِي محبّة الله عز وجل ، ولكنّ المحبّة لها ثمن ، آيات كثيرة بهذا المعنى ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(124)﴾

(سورة البقرة)

الآن تستحقّ أن تكون إمامًا ؛ بعد أنْ امْتَحَنْتُكَ ، وبعد أن نجحْت في الامتِحان ، فلا بدّ من مرحلة مكّيَّة في كلّ عصرٍ ، ولا بدّ مرحلةٍ مدنيَّة في كلّ عصرٍ ، ففي المرحلة المكيّة نتعرّف إلى الله عز وجل ، وفي المرحلة المدنيّة نتعرّف إلى أوامره ، فإذا جاءَت معرفة الله قبل أوامره هان علينا تطبيق أوامره ، فإذا جاء تعريف الناس بالأوامر قبل معرفتهم بالله تملّصُوا منها كما يتملّص المُخادع من أمْرٍ نزَلَ به ، فَكُلُّكُم يعلم كيف أنَّ الناس يحْتالون على الشَّرْع ، فالشخص الذي يضع أمام دكانه صندوقًا من الشاي ، ويأتيه رجل ليستقرض منه دَيْنًا بالربا ، يقول له : بكَم تبيعني هذا الصندوق من الشاي ؟ فيقول مثلا : بألف ، فيقول : اشْتَريتُ ، سجِّلهُ عليّ دينًا ، ثمّ يقول له : أتشتري منِّي هذا الصندوق فيقول له : نعم ، فيقول : بِكَم ، فيقول الآخر : بثمانمائة نقدًا ، فهذه عمليّة ربا ، هذا الصندوق يبقى سنوات وسنوات ، لا ينتقل لا إلى المشتري ، ولا إلى البائع ، بل يباع ويشتري عشرات المرات ، وهو مكانه لا يتزحزح ، والأمر كله ربا ، فإذا عرفتَ الأمر الإلهي قبل أن تعرف الآمر تحتال على الأمر ، كيف يستطيع الإنسان أن يرى زوجة أخيه ؟ هذه لها فتوى ! لابدّ أن تأخذ بنتًا من الجيران ، ترضّعها امرأة أخيك ، ثمّ تعقدُ عليها ، ثمّ تطلّقها ، تصبح زوجة الأخ أمّ زوجتك بالتقليد ، حرمتها مؤبَّدة ، وحينها تسكن مع أخيك في بيت واحد !! الذي شرَّعَ لنا أيَخفى عليه هذا الاحْتِيال ؟! إذا عرفتَ الأمر الإلهي قبل أن تعرف الآمر تحتال عليه كما فعل اليهود حينما نُهُوا عن الصَّيْد يوم السبت ، فَحَفَروا الحفر إلى جانب البحر ، ودخلتها الحيتان يوم الجمعة ، وأغلقوها يوم السبت ، واصطادوها يوم الأحد !! نفَّذوا الشرع ، لكن مع الاحْتِيال !! لذلك لا بدّ من أن نعرف الله سبحانه وتعالى الذي لا تخفى عليه خافيَة ، قال تعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾

(سورة هود)

شبهة الكفار في صدق النبي :

1 ـ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ

كان فقيرًا عليه الصلاة السلام فقال : جاءني جبريل فقال لي : يا محمّد أتحبّ أن تكون نبيًّا ملِكًا ، أم نبيًّا عبْدًا ؟ فقلت : بل نبيًّا عبدًا ، أجوعُ يومًا فأذكرهُ وأشبَعُ يومًا فأشْكرهُ ، دخل عليه عمر بن الخطاب مرّة فرآه مسْتَلْقِيًا على الحصير ، وقد أثَّرَ على خدِّه الشريف فبكى عمر، قال : يا عمر ، ما يُبكيك ؟!

فقال عمر : كِسرى ملك الفرس ينام على الحرير ورسول الله ينام على الحصير ! فقال : يا عمر ، إنما هي نبوّة وليسَتْ مُلكًا !! وفي الآية هنا قالوا : لولا أنزل عليه كنزٌ ، لو كان غنيًّا ، أو له مظهر فخم ، أو جاء معه ملك ، يُؤيِّدُهُ ، ويُصدِّقهُ ، لكنا آمنا به .

2 ـ الردُّ الإلهي : إنَّمَا أنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل

قال ربنا عز وجل :

(إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ)

(سورة هود)

وعلى الله تعالى الباقي ، قال تعالى :

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

قال تعالى:

(إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة هود)

هذا الذي لم يصدق لن تحاسب عنه ، وهذا الذي كفر لن تُسأل عنه ، قال تعالى :

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

ومعنى النذير أنَّ مهمَّتك يا محمّد تنتهي بالبيان .

قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

(سورة هود)

تهمة قديمة متجدِّدة :

1 ـ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ

من التُّهَم التي ضاق النبي عليه الصلاة والسلام بها ذرعاً أنَّهم قالوا : إنَّ هذا القرآن من صنعِهِ ، ومِن نَظْمِه وصياغَتِهِ ، قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

(سورة هود)

أي هذا كلام من صُنْع البشر ، وهذا بِمَقدور البشر أن يفعلوا مثله .

2 - الردُّ الإلهي :

قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ)

(سورة هود)

الحقيقة أنَّ ربنا عز وجل تحدَّاهم ثلاث مرات ؛ تحدَّاهم مرَّة أن يأتوا بمِثل هذا القرآن بِكَامله ، وتحداهم أن يأتوا بِعَشر سُور مثله ، وتحدَّاهم أن يأتوا بسُورة واحدة ، والحقيقة أنَّ التحدِّي الأوّل كان بِكلّ القرآن، ثمّ بِعَشر سُوَر ، ثمّ بِسُورة ؛ ليس هذا هو القَصْد ، القصْد تَحَدِّي النّوع ، وليس تَحَدِّي الكمّ ، أي لن يستطيعوا أن يأتوا بِكَلامٍ مثل كلام الله عز وجل ، لا سورة ولا عشر سُوَر ، ولا القرآن بِكَامِلِه ، إنَّ النَّوع مستحيل عليهم ؛ صِياغة كلامٍ كَكَلامِ الله سبحانه وتعالى ؛ هذا يتعذَّر على العِباد ، قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة هود)

أي أنتم ومن معكم ، ومن حولكم ، واستَعينوا بالخُبراء ، واللُّغَويِّين والأدباء والعلماء ؛ لن تستطيعوا أن تأتوا بِعَشر سُوَرٍ مِن مثل هذا الكتاب ، قال تعالى :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة هود)

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ

1 - القرآن حوى جميع أنواع الإعجاز :

الحقيقة هل تستطيع أن تُلقي على الناس محاضرة ، ثمّ يُكتشف من هذه المحاضرة أنَّ فيها كلمات متوازية مع كلمات أخرى ، مثلاً عدد حروف الجر (الباء)كعدد حروف الجر (من) ؟ هذا فوق طاقة البشر ، فإنك تجد في القرآن الكريم كلمة اليوم مذكورة فيه ثلاثمائة وخمساً وستين مرَّة بالضَّبط ، وكلمة شهر مذكورة فيه اثنتي عشرة مرَّة ، وكلمات الملائكة تُكافئ كلمات الشياطين ، وكلمات الجنّة تُكافئ كلمات النار ، وكلمات الدنيا تكافئ كلمات الآخرة ، هذا فوق طاقة البشر ، فلو تتبَّعنا تَكرار الكلمات الحِسابي ، لوَجَدنا العَجَب العُجاب ، فهناك إعجاز حِسابي ، وهناك إعجاز رياضي ، وهناك إعجاز

بياني ، وهناك إعجاز تشريعي ، وهناك إعجاز لُغوي ، لأنَّ الله عز وجل كماله مطلق ، فكما أنّ كماله مطلق فكمال كلامه مطلق ، قال تعالى :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة هود)

2 ـ هل أنتم مستَسْلِمون لما في القرآن من حقائق ؟

لا مُسيِّر إلا الله ولا خالق إلا الله ، ولا مُربِّيَ إلا الله أنتم ماذا تنظرون ؟ فهل أنتم مسلمون ؟ أيْ مستَسْلِمون لما فيه من حقائق .

أحيانًا يكون الإنسان مريضًا ، فيأتيه الطبيب ، ويصِفُ له دواءً ، إذا تيقّن المريض أنّ هذا الطبيب عالم، وأنّ هذا الدواء يشفيه من مرضه ، وأنّ اتّباع تعليمات الطبيب لِمَصلحته يستسلم لأوامر الطبيب ، وهذا الاستِسْلام مهمّ جدًّا ، فالناس الآن لم يستَسْلِموا لله عز وجل ؛ هذا يأكل الربا ! إذًا : هو ما استسلم لأمر الله ، والآخر يؤثر الاختلاط ، فهذا لم يستسلم لأمر الله أيضاً ، وغيره لا يبالي بأغلاط وأخطاء لِسانه ؛ من غيبة إلى نميمة إلى فحشٍ ؛ إذًا : لم يستسلم لله عز وجل ، فالإسلام الأوّل أن تستسلم لأوامر الله صغيرها وكبيرها .

جاء صحابي جليل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله ما الإسلام ؟ ما هذا السؤال ؟! فقال عليه الصلاة والسلام : الإسلام أن تُخلّي لله نفسَك ، هذا القلب وعاء ، عليك أن تخرج منه كلّ شيء ، وألا يبقى في قلبك إلا الله ، وفي الأثر : " عبدي ، طهَّرتَ منظر الخلق سِنين ، أفلا طهَّرتَ منظري ساعة ؟ ما وَسِعني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعني قلب عبْدي المؤمن " ! هذا القلب بماذا ملأتَهُ ؟ قال تعالى :

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

(سورة الأحزاب : من الآية 4)

لك قلب واحد ، ولا يتَّسِع إلا لشيء واحد ، ما هذا الشيء الذي يملأ قلبك ؟ قد تكون الدنيا ، فالدنيا إذًا رأس كلّ خطيئة ، وقد يكون حبّ المال أو الجاه أو حبّ العلوّ في الأرض ، أو حبّ الحياة بأوْسع معانيها ، أو حبّ الملذات ، أو حبّ السمعة ، أو حبّ ما في الحياة من مالها وأولادها ونسائها ، ما الذي يملأ القلب ؟ الدعاء الكريم : اللهمّ لا تجعلها في قلوبنا ، واجعلها في أيدينا ، إن كانت في القلب أعْمَت وأصمَّت ، وحُبّك الشيء يُعمي ويُصمّ ، وإن كانت في اليدين كانت قوّة لك على أمر دينك ودنياك ، قال تعالى :

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة هود)

3 ـ الإيمان مراتب متفاوتة :

هل أنتم منقادون لهذه الأوامر ؟ على كلّ الإيمان مراتب ، هناك أناسٌ مشغولون بمُدافعة التدنِّي ، وهناك أناس مشغولون بمُتابعة الترقّي وشتان بين الفريقين ! مِن الناس شُغلهُ الشاغل ألا يقع في الغلط والأخطاء ، وألا ينظر إلى النّساء ، وألا يكذب ، مشغول بمُدافعة التدنِّي ؛ هذه مرتبة العابدين ، ولكنّ في الإيمان صنفًا آخر مشغولٌ بمُتابعة الترقّي ، ماذا عرفت عن الله اليوم ؟ كيف تقرَّبْت إليه ؟ وماذا فعلت من أجله ؟

موضوع الاستقامة موضوع مفروغ منه ، فأنت بين أن تكون مشغولاً بمُدافعة التدنِّي ، وأن تكون مشغولاً بمُتابعة الترقي ، وهذه مرتبة المؤمنين الصادقين .

قال تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ)

(سورة هود)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ

مَن طلب الدنيا وجَدَها :

إذا أصْرَرْتَ على طلب الدنيا تأتيك الدنيا ، إذا أصْرَرْتَ على أن تكون غنيًّا فسوف تكون غنيًّا ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى حينما جاء بك إلى الدنيا وعدَكَ أن يُعْطِيَكَ سُؤْلَكَ ، قال تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18))

(سورة الإسراء)

وأنا أقول لكم هذا الكلام : أُطلب من الله بصِدْق ، لا بدّ من أن تناله ، أُطلب المال الوفير تُصبح غنيًا ، أطلب الجاه العريض يصبح لك شأن كبير ، ولكن كما قال تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18))

(سورة الإسراء)

بعض العلماء وجَّهوا هذه الآية توجيهًا بليغًا دقيقًا .

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قال تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(115))

(سورة الأنعام)

1 ـ الصدق والعدل ينظمان علاقة العبد بربه :

يا عبادي ، هما كلمتان تنظِّم العلاقة بيني وبينكم ، الصِّدْق والعَدل ، فمنكم الصِّدق ومنِّي العَدل ، أي إن طلبتم منِّي طلبًا بصِدق لا بدّ من أن تنالوه ، وأنا أعْدلُ بينكم ، قال تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(115))

(سورة الأنعام)

لذلك لو جئتَ في آخر العمر ، وتولَّدَ في نفسك طلبٌ للحق وحبّ لله عز وجل ، لا بدّ من أن تتقلَّب في معارج القدس ، لا بدّ من أن تسْمُوَ نفسك ، فأنت في كلّ زمان ومكان ، وفي كلّ عصرٍ ، وفي أيِّ مِصْرٍ ، إذا صدقت في طلب معرفة الله عز وجل لا بدّ من أن تعرفه ، قال تعالى :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(69))

(سورة العنكبوت)

قال تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

(سورة هود)

إذا طلبتها وكان صادقا في هذه الإرادة كأن يحتاج إلى بيتٍ فخمٍ ، بيت مساحته ثلاثمائة وخمسون مترا ! بيت ذو بهاء وزينة ، وفيه جميع الأجهزة الكهربائيّة ، وسيارة من نوعٍ خاصّ ، وإذا أراد أن يخطب فإنه يحبّ امرأة من مواصفات خاصَّة ، مواصفاتها من خمسين شرطاً !! قال تعالى :

(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ)

(سورة هود)

تأتيه الدنيا كما شاء ، خُذْها كما تريد ، فهذا الذي أمضى ثلاثين عامًا يفكِّر في كيفيّة كسْب المال ، لا بدّ من أن يكون غنيًّا كبيرًا ، وهذا الذي أمضى أربعين عامًا يفكّر في نجاح مشروع ما ، لا بدّ من أن ينجح هذا المشروع ، الأعمال الضَّخمة التي صنعها أقطاب الكفر في أوروبا أعمال جبارة ، وصلوا إلى الفضاء ، ولكنَّهم حينما تحدَّوا الفضاء ، فاحترقت المركبة الفضائيّة ! حينما قالوا : نحن نتحدَّى الفضاء!

بعد كذا ثانية أصبحت هذه المركبة كتلةً من اللّهب ، قال تعالى :

(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ)

(سورة هود)

2 ـ القرآن غِنًى لا فقْر بعده ، ولا غنًى دونه :

لكنّ المشكلة أنّك إذا طلبت من الله الدنيا ، وجاءتك الدنيا ؛ فهل أنت رابحٌ ؟! لا ، والله ، القرآن غِنًى لا فقْر بعده ، ولا غنًى دونه ، لو كان دخلك مليوناً باليوم ، فهل أنت رابح ؟ لا ، والله ! قال تعالى :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26))

(سورة الرحمن)

قال تعالى :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(57))

(سورة العنكبوت)

وقال تعالى :

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(88))

(سورة القصص)

فالأنبياء ماتوا ، أين رجالات العمل الإسلامي الذين نعرفهُم جميعًا ، أين النبي عليه الصلاة والسلام ؟ وهو أسعدنا ، توفَّاه الله ، قال تعالى :

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ(30))

(سورة الزمر)

وأين صحابته رضي الله عنهم ، الصديق وصحبه .

ثم أين أبو جهل ؟ أين أبو لهب ؟ ماتوا جميعًا ، ولكنّ سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه الكرام منذ أن توفَّاهم الله فهم في سعادةٍ ما بعدها سعادة ، مضى عليهم في هذه السعادة ألف وأربعمائة عام ، وأبو جهل وأبو لهب وأمثالهما منذ أن ماتوا في شقاءٍ ما بعدهُ شقاء ، ومضى لهم في هذا الشقاء ألف وأربعمائة عامٍ ، قال تعالى :

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

(سورة غافر)

ألف وأربعمائة سنة ، ضرب ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا ، ضرب اثنان صباحًا ومساءً ! إذًا لو نَجَحْت في الدنيا ؛ هل أنت من الفالِحِين ؟ لا ، ولو وَصَلْت إلى أعلى مرتبةٍ عِلْميَّة في الجامعة ، ولم تكن تعرف الله سبحانه وتعالى ؛ هل أنت من الفائزين ؟ لا ، لو وصلْتَ إلى أعلى مرتبةٍ اجتماعيَّة ، ولو

وصلتَ إلى أعلى مرتبةٍ ماليَّة ؛ ماذا فعَلْتَ ؟ حصَّلْت الدنيا والدنيا فانيَة ، الدنيا دار من لا دار له ، ولها يسعى من لا عقل له .

مرَّ النبي عليه الصلاة والسلام في طريقه مع أصحابه على جيفةٍ نَتِنَة فماذا قال ؟ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ ، فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ شَائِلَةٍ بِرِجْلِهَا ، فَقَالَ :

((أَتُرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى صَاحِبِهَا ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا))

[ابن ماجه]

فلو أنّ واحدًا كانت عنده قطعة لحم متفسِّخة ، هل لها قيمة ؟ على القمامة فورًا .

3 ـ المؤمن معنوياته مرتفعة :

المؤمن معنويَّاته عالية جدًّا ، معنويَّاته العالية نابعة مِن أنَّه عرف الحقيقة الكبرى ، والهدف الذي خلق مِن أجله مِن أنَّه على طريق مستمرّة إلى الأبد ، طريق السعادة مهما تكن حياته متواضعة ، ومهما يكن دَخلهُ قليلاً ، ومهما تكن المتاعب مُحيطة به من كلّ جانب فإنه يرضى بها ، لأنَّ هدفه الأكبر تحقَّق ، أجوع يومًا فأذكرهُ ، وأشبعُ يومًا فأشكرهُ .

سيّدنا الصدِّيق كان خليفة المسلمين ، جاءتهُ قضيَّة فحوَّلها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، سيّدنا عمر حكمَ فيها حكمًا اغتاظ منه أصحابها ، فذهبوا إلى الصدِّيق لِيُوقِعُوا بينه وبين عمر ، فقالوا : فعَلَ كذا وكذا ، فالخليفة أنت أم هو ؟ فقال : هو إذا شاء ! هيِّنةٌ عليه ، فأنت إذا عرفْت الله سبحانه وتعالى هانَتْ عليك الأمور ، وهانَتْ عليك الدنيا ، إنك لم ترضَ عن الله عز وجل ، ولن يرضى الله عنك إلا إذا رضيتَ عن الله ، وقد قال رجلٌ وهو يطوف : " يا ربّ ، هل أنت راضٍ عَنِّي ؟ فقال له الشافعي : وهل أنت راضٍ عنه حتى يرضى عنك ؟! قال : سامحك الله ! من أنت يرحمك الله ؟ كيف أرضى عنه ، وأنا أتمنَّى رضاه ؟! فقال له الشافعي : إذا كان سُرورك بالنِّقْمة كَسُرورك بالنِّعْمة فقد رضيتَ عن الله " هذا مِقياس الرضا ! فهل أنت راضٍ عن الله ؟ قال تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ(15)أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا

1 ـ هذا مصير مَن أحَبَّ الدنيا يوم القيامة :

أحبُّوا الدنيا وانتهى الأمر ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ : جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ ، وَعَلَّمَهُ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ : هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : هُوَ جَوَادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ))

[مسلم]

2 ـ الإخلاصَ الإخْلاصَ :

الإخلاصَ الإخْلاصَ أيها المؤمنون ، يا معاذ أَخْلِصْ دينَكَ يكْفِكَ القليلَ من العمل ، فمع الإخلاص ينفع كثير العمل وقليله ، ومن غير الإخلاص لا ينفع قليل العمل ولا كثيره ! إذا أراد أحد الدنيا وصل إليها ، هل لك عندي شيء ؟ ماذا تريد ؟ أردْتَ الدنيا فأعطيناك ، هذه الآخرة لِمن أراد الآخرة ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19))

(سورة الإسراء)

وقال تعالى :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83))

(سورة القصص)

لذلك إذا كنت أنت أيها الأخ الكريم مؤمنًا فأنت مِن مُلوك الدار الآخرة ، قال تعالى :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

تخفض أناسًا ، وترفع آخرون ألا يا ربّ نفسٍ جائعةٍ عاريَةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمة يوم القيامة ، ألا يا ربّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمة جائعةٍ عاريَةٍ في الآخرة في الدنيا ، ألا يا ربّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين ، ألا يا رب مهين لِنَفسه وهو لها مكرم ، فالبطولة كما قال تعالى :

(إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا(1)وَأَخْرَجَتْ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا(2)وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا(3)يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(4)بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(5)يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(6)فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

البطولة في عمل الخير والتقوى والصلاح ، قال تعالى :

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُون)

(سورة هود)

3 ـ معنى حبط :

يُقال : حبطت الناقة ، أيْ انتَفَخَ بطنها انْتِفاخًا شديدًا ، ثمّ ماتَتْ ، والإنسان الكافر في الدنيا له عمل في الظاهر كبير جدًّا ، أما ذو الأعمال السيِّئة فيأتي يوم القيامة ، وقد أهْلَكَهُ هذا العمل ، قال تعالى :

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

قال تعالى :

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُون)

(سورة هود)

4 ـ معنى باطل :

معنى باطل : أنَّه لا استقرار له ، ولا دوام له ، الشيء الباطل هو الذي يتلاشى ، قال تعالى :

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة هود)

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً

1 ـ نظائر هذه الآية في القرآن الكريم :

هذه الآية تُشبْه آيات كثيرة تزيد على عشرين آية ، قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

وقال تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

وقال تعالى :

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ(9))

(سورة الزمر)

وقال تعالى :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ)

(سورة هود)

2 ـ الوقت هو كلّ شيء في الدنيا :

الأمور عنده واضحة ، يعلم أين كان ، وماذا كان ، هناك يوم مفقود ؛ انتهى ، لا يؤسف عليه ، ولا تقل: كنتُ كذا وكذا ، ولا تقل : فعلتُ كذا وكذا ، ويوم مشهود ، ويوم موعود ، ويوم مورود ، ويوم ممدود!

ما مضى فات والمُؤمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها .

***

أيها الإخوة الأكارم ، لا تملكون إلا الوقت ، هذه الساعة التي نحن فيها ، أما كيف كنت ، فهذا مضى ، سأتوب بعد كذا وكذا ؛ هذا قد لا يكون ، قد لا يأتي ذلك اليوم ، المؤمَّلُ غيب ، لذلك ففي كلّ يومٍ يُصبح الإنسان فيه يُنادي عليه ملَكٌ يقول متحدِّثًا بِلِسان اليوم : أنا خلقٌ جديد ، وعلى عملك شهيد ، فاغتنم منِّي قبل الرحيل ، استيقظتَ صباحًا ، ولم تصلّ بعد الصبح ، فاتك الوقت ، وخسرت ما خسرت ، أما اليوم فقد فاتتك الصلاة كلها ، جلست ، ولم تفعَل شيئًا ، وما تقرَّبت إلى الله عز وجل ، وما خَدَمتَ أحدًا ، وما تلَوْت القرآن ، فأنت استَهلكتَ اليوم استِهلاكًا رخيصًا ، هذا من دون سيِّئات ! كأن يقدِّم الواحد امتِحاناً في مادَّة أساسية ، وبقي ساعةً من دون حركة ! فلما الإنسان يستهلك يومه استِهلاكًا رخيصًا يكون أحمق ، ويوم القيامة لا يندم المؤمن إلا على شيءٍ واحد ؛ على ساعةٍ مرَّتْ لم يذكر الله فيها ، هذا الذي يندم على الزمن قد خسر الكثير ، فهذا اليوم يقول للإنسان أنا خَلْقٌ جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزوَّد منِّي قبل الرَّحيل ، وهذا هو اليوم المشهود الذي لا تملك غيره ، وهناك اليوم الموعود ، نحن وُعِدْنا بِسَاعة اللّقاء ، وساعة الموت ، وهناك يوم مورود ؛ وهو يوم القيامة ، وهناك يوم ممدود إما في الجنَّة أو النار ، وهذا اليوم لا نهاية له ، وإلى الأبد واليوم الموعود هو الموت ، وكلّ واحد له ساعة لا بد آتية، وأنّ ملَكَ الموت قد تخطَّانا إلى غيرنا ، وسيتخطَّى غيرنا إلينا ، كلّ يوم تمشي في الطريق ترى نعوات كثيرة ، الشاب والشابة ، ورب البيت ، والطبيب والمحامي ، ووُجهاء البلد ، لكن هناك يوم لا بدّ من أن يأتي ؛ يقف الناس لِيَقرؤوا النَّعْي .

قال تعالى :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

(سورة هود)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ

1 ـ الكذب أسوأ خُلُق :

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد]

قبيحٌ بالإنسان أن يكذب ، أما إذا كذب على الله فهذا أقبح أنواع الكذب ؛ أن تكذب على الله الذي خلقَكَ ولم تكن شيئًا ، قال تعالى :

(وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

(سورة هود)

2 ـ الكاذبُ ظالمٌ لنفسه :

هنا ربُّنا عز وجل بدَّل كلمة الكاذب بالظالم ، أيْ كلّ إنسان يكذب يظلم نفسهُ بهذا الكذب .

قال تعالى :

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

(سورة هود)

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ

1 ـ الكافر همُّه الأول الصدُّ عن سبيل الله :

لا يوجد وصفٌ أبلغُ مِن هذا الوَصْف ، الكافر في الدنيا همُّه الأوَّل أن يصدّ عن سبيل الله ، ويقطع الطُّرُق التي توصِل إلى الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

(سورة هود)

أيْ يُحِبّ الأمر المُلتوي ، وغير الصحيح والوسيلة غير المباشرة ، قال تعالى :

(أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة هود)

2 ـ لا يعجز اللهَ أحدٌ في الأرض ولا في السماء :

أي لا بدّ أن يموتوا ، لم يسبقوا الله سبحانه وتعالى ، هم بِقَبْضة الله عز وجل ، كُنْ فَيَكون ، قال تعالى :

(أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)

(سورة هود)

3 ـ السمع والبصر مرهونان باستعمالهما :

الإنسان إذا كان مزوّداً بسَمعٍ أو بصرٍ ، فإذا استخدم السمع والبصر في معرفة الحقّ كان سميعًا بصيرًا، فإن لم يستخدمهما هو والذي لم يعطهُما سواء ، إذا كانت معك بوصلة ، ولم تستخدمها أنت والذي لا يملكها سواء ، إذا أكرمنا الله عز وجل بالفِكر ، وسخَّرناه للشَّهوات ، ولِكَسْب المنكرات فقط ، وأسأنا استْخِدامه فكأنَّنا لا نملك فِكرًا ، قال تعالى :

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

(سورة هود)

4 ـ المفتري على الله خاسرٌ :

لأنَّ شهواتهم أغلقت عليهم منافذ السَّمع والبصر ، لو ضيَّع أحدهم ألف ليرة ، ألا يتألّم ؟ فكيف إذا ضيَّع مائة ألف ؟ وكيف إذا ضيَّع كلّ ثروته ؟ هل يقول لك : الحمد لله ، الأهل موجودون ، والكلّ يُعَوَّض ! وإن فقَدَ زوجته يقول لك : أتزوج غيرها ، وإن فقَدَ ابنًا له يقول لك : عسى الله أن يرزقنا غيره ، أما إن أحاط به الموت ، فإذا مات الإنسان فهناك آخرة ، فإذا كان عملكَ طيّب فالحمد لله ، فإذا خسِرَ نفسهُ في الآخرة فهذه أكبر خسارةٍ في الكون ، أن تخسر نفسَكَ ، ، لذا قيل : من لم تُحْدث المصيبة في نفسه عظةً ، فمُصيبَتُهُ في نفسه أعظم ! وأكبر خسارة في الكون أن تخسر الحياة الأبدِيَّة التي خلقك الله من أجلها ، لذلك يقول الإمام عليّ : << يا بنيّ ، ما خيرٌ بعدهُ النار بخَير ، وما شرّ بعده الجنّة بشرّ >> ! فمهما بلغت من الخير في الدنيا ، إذا انتهَت بك إلى النار فهذا ليس خيرًا ، مهما كان المرء في الدنيا معذَّبًا ، فإذا انتهى به المطاف إلى الجنة فهو في سعادة كبرى ، << وكلّ نعيم دون الجنَّة مَحقور ، وكلّ بلاء دون النار عافيَة >> ، فأكبر مشكلة أن يخسر الإنسان نفسه ، فكلّ الخسارات معوَّضة إلا خسارة النَّفس ، لأنَّها هالكة ليس في الدنيا فقط ، بل وفي الآخرة ، وإلى الأبد ، قال تعالى :

(لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ)

(سورة هود)

هذا له المعنى ذاته فالذي خسر نفسه حقّق أكبر خسارةٍ في الكون ، قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة هود)

من صفات المؤمنين الناجين :

1 ـ الإيمان والعمل الصالح :

هؤلاء الذين عرفوا الله عز وجل واستقاموا على أمره ، وفعلوا الطيّبات ، وانقادوا إليه ورضُوا به ربًّا، واستقرُّوا في رحمته .

2 ـ الإخبات إلى الله :

قال تعالى :

(وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة هود)

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

1 ـ المؤمن سميع بصير ، والكافر أعمى أصمّ :

يمكنك أن تقول للمؤمن : أنت سميع بصير ، وتقول للكافر : أنت أعمى أصمّ ، قال تعالى :

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ(18))

(سورة البقرة)

لا يرى الحقائق ، ولا يستمع إلى المواعظ ، والضال يرى صور الأشياء ، كمن يستمع إلى صدى الكلمات ، وهناك كلمات خطيرة ، فلو قال أحدهم : هذا البيت سقفه في خطِر ، وأخذت كلامه بالمزاح ! وفي إحدى الليالي وجدت السقف يتحرّك ، فإنك ما سمعت كلام صديقك ، ولكن سمعت صدى كلامه ! أما لو أخذْت كلامه على مَحْمل الجدّ لتركْت البيت منذ أن قال لك ذلك ، لذلك :

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة هود)

2 ـ المؤمن يرى الحقيقة ويستمع إلى الموعظة :

المؤمن سميع بصير ، بِمَعنى أنَّه رأى الحقيقة واسْتَمَع للموعظة ، فأثَّرَتْ فيه ، والكافر أصمّ وأعمى ، لذلك قال الله عز وجل :

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(5))

(سورة الجمعة)

لو حمَّلت على دابّة كتاب فيزياء ! ولو سألتها عما فيه هل تعلم ؟!! هكذا تعامل الناس مع كتاب الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (16-05): تفسير الآيات 25 – 28
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-02-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في سورة هود إلى قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة هود)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

1 ـ الإرسال دليل رحمة الله بعباده :

الإرسال أوّلاً دليل رحمة الله سبحانه وتعالى ، فالمُعَلّم يُدرِّسُ طلابه ، فإذا وجَدَ في أحدهم تَقصيرًا هل يدَعُهُ إلى الامتحان كي يرْسب ؟ لا بدّ من أن ينْصحَهُ ، ولا بدّ من أن يضيّق عليه ، فمُجرّد إرسال الأنبياء للعِباد دليل رحمة الله سبحانه وتعالى ، وإنَّ الله أمر عباده تخييرًا ، ونهاهم تَحذيرًا ، وكلَّف يسيرًا ، ولم يُكلّف عسيرًا ، وأعطى على القليل كثيرًا .

2 ـ الفائدة من التكلم بصيغة الجمع :

أما كلمة أرسلنا بضَمير الجَمع ، معنى ذلك أنَّ أفعال الله سبحانه وتعالى تدخل فيها كلّ أسمائه ، فأيّ فِعْلٍ لله عز وجل فيه رحمة ، وفيه لُطْفٌ وفيه عَدْلٌ ، وفيه غِنًى ، وفيه تَقْديرٌ ، وفيه عِلْمٌ ، وفيه خِبْرةٌ ، فإذا تحدَّث الله سبحانه وتعالى عن ذاته استخدم ضمير المفرد ، قال تعالى :

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)

(سورة هود)

رحمة وعلما ، وخِبرة ، وحكمة ، وقوّة ، ولُطْفًا ، كلّ هذه الأسماء الحسنى مجتمعة في(نا) الدالة على الفاعلين ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)

(سورة هود)

3 ـ الأنبياء صفوة الخَلق :

هذا الذي أرسله صَفْوَةُ القوم ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

فالأنبياء هم صفوة الخلق كما قال الله سبحانه وتعالى :

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ(26))

(سورة الأنبياء)

صَفْوَةَ الخلق الأنبياء ، وصَفْوَةُ الصَّفْوَة سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)

(سورة هود)

4 ـ الانتساب إلى الأنبياء شرف بشرط اتباعهم :

نُسِبوا إليه تشريفًا لهم ، قَوْمِهِ ، ونحن مِن أُمَّة سيّدنا محمَّد صلى الله عليه وسلَّم نُسِبْنا إليه تَشْرِيفًا لنا ، تشَرَّفْنا به فإن نُسْبْنا إليه ينبغي أن نكون عند أمره ونهْيِهِ ، قال تعالى

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة هود)

إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

1 ـ ما هو الإنذار ؟

ما معنى الإنذار ؟ هو بيان الأخطار ، وبيانُ طُرُق الوقاية منها هذا هو الإنذار ، والإنذار لا يكون بعد فوات الأوان ، لابدّ مِن أن يأتي في الوقت المناسب ، فالإنذار بيان الأخطار ، ولكن هذا الإنذار مُبين ، أحيانًا ينهاك الطبيب عن المِلح ويسكت ، أنت لا تعرف لِمَ ينهاكَ ؟ فلو كان طبيبًا حكيمًا لبيَّنَ لك مضارّ المِلح ، المِلح الزائِد يحْبس في الجسد سوائل زائدة ، والسوائل الزائدة تجعل الشرايين منتفخة ، فيرتفع الضغطُ فيجهد القلبُ بالملح الزائد ، فإذا أنذرتَ المريض بمغبّة تناوله الملح ، وبيَّنت له كيف أن الملح يرفع الضغط ، ويجهد القلب فهذا إنذارٌ مع تبيين ، فالإنذار وحده لا يكفي ، ربُّنا عز وجل حينما ينذرنا

يبيِّن لنا أخطار مغبَّة الذي ينذرنا ، ويحذرنا منه ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة هود)

الإرسال رحمة من الله ، و (نا) دليل أن أسماء الله الحسنى كلها داخلة في هذا الإرسال ، (نوحا) صفوة القوم ،

(إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

من صفات الإنسان الكامل الخلقُ الحسنُ :

الله سبحانه وتعالى كماله مطلَق ، لذلك الكامل لا يقرِّب إليه إلا الكامل ، أما بنو البشر فلأسباب خاصة ولأسباب تتعلّق بمصالحهم يقربون إليهم من هم ليسوا في مستوى هذا التقريب ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى لا يقرِّب إليه إلا مَن كاملا رحيما ، لذلك فالنبيُّ عليه الصلاة والسلام كان أرأفَ وأرحم الخلق بالخلق ، استخلف أبا بكر ، وقال : أرأف أمتي بأمتي أبو بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، وقال : أرحم أمتي بأمتي ، هؤلاء الكُمَّل لا يقرِّبون إليهم إلا من كانوا على شاكلتهم ، لذلك طرق القرب من الله عز وجل أسبابها الكمال ، أما الإنسان فقد يقرِّب إليهم من كان شرِّيرا ، ومن كان ناقصا لمصلحة ما ، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا اصطفى الأنبياء فهم صفوة البشر ، لذلك دُعِي النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلى التمثيل بقتلى قريش لشدّة ما عاندوه حينما كانوا أحياء ، ولشدَّة ما أساءوا إليه ، ولشدَّة ما ضيَّقوا عليه ، ولشدة ما تآمروا على قتله ، ولشدة ما أخرجوه من بلده فقيل له : مثِّلْ بهم ، فقال عليه الصلاة و السلام: لا أمثِّل بهم فيمثِّل الله بي ، ولو كنت نبياً ، ولقد جاءه جبريل ، وقد ردّه أهل الطائف فقال : يا محمد ، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك ، لو شئتَ لأطبَقت عليهم الجبلين ، قال : اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون ، لا يا أخي ، عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد اللهَ ، هكذا الأنبياء ، وهكذا الصدِّيقون ، وهكذا المؤمنون ، ولن يكون المؤمن مؤمنا إلا إذا كان كاملا ، قال عليه الصلاة و السلام :

((مَن حدَّث الناسَ ، ولم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، وعاملهم فلم يظلمهم فهو ممن كملت مروءته ، و ظهرت عدالته ، و وجبت أخوَّته ، و حرمت غيبته))

[القضاعي في مسند الشهاب عن علي ، وقد ذكر العلماء أنه موضوع غير صحيح]

صار مقياس الرفعة في سلَّم الإيمان الخلق الحسن ، وما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن ، ولم يُوصف النبيُّ عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم إلا بصفة واحدة ، وهي الخلق الحسن ، قال تعالى :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

وما جاء الأنبياء إلا ليرقوا بأتباعهم إلى المستوى الرفيع ، قال عليه الصلاة و السلام :

((وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا))

[ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو]

وَعَنْ مَالِك أَنَّهُ قَدْ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ))

[رواه مالك]

فالخلق الحسن ، والسُّموُّ النفسي هذا هو الهدف الأكبر من الدين ، تسمو نفوسنا فنصبح أهلا لأن نكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، تسمو نفوسنا كي نكون أهلا لجنة عرضها السماوات والأرض ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة هود)

الإنذار تبيان الأخطار ، وتبيان طرق الوقاية منها ، وتبيان مضار الأذى وأخطاره ، قال تعالى :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

(سورة هود)

أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ

1 ـ الفائدة من صيغة النفي والاستثناء : لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

لم يقل الله عز وجل أن اعبدوا الله هناك آيات أن اعبدوا الله ، أما الآية هنا :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة هود)

هذا النمط الإزدواجي ، فقد يعبد الإنسانُ ربَّه ، ويعبد مع ربه جهة أخرى ، هذا هو الشرك ، أما النهي هنا :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

يجب أن تعبد الله ، ولا أحد مع الله ، والعبادة الطاعة التي يسبقها معرفة بالله عز وجل ، وتعقبها سعادة بسبب القرب منه ، قال تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(56))

(سورة الذاريات)

وقال تعالى :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

(سورة هود)

2 - : إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ

إذا تورَّطتم في عبادة غير الله فلا بد من يوم فيه عذاب أليم ، لكنَّ الحبل مرخى ، والجاهل يغترُّ بإرخاء الحبل ، ولكن إذا أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ، يُشدُّ الحبلُ و يقع الإنسان فريسة عمله السيئ ، قال تعالى :

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39)فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40)عَنْ الْمُجْرِمِينَ (41))

(سورة هود)

لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً :

العاقل هو الذي يحتاط للأمور قبل وقوعها ، والجاهل هو الذي يعيش لحظته ، يعيش وقته يعيش عصره كما يقولون ، مع الناس ، و مع ضلالاتهم ، و مع انحرافاتهم ، مع علاقاتهم المشبوهة التجارية، مع أكلهم الحرام ، مع أكلهم الربا ، مع الاختلاط ، يقول : أنا مع الناس ، فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً ، تَقُولُونَ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا ، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا ، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا))

[رواه الترمذي]

و ما أنا إلا من غزية إن غوت ْ غويتُ و إن ترشد غزية أرشدِ

***

هذا الذي يقول : أنا مع الناس ، مع العادات التقاليد مع ظروف البيئة ، مع معطيات الحياة ، مع تيارات الحياة ، مع عصر العلم ، مع عصر الانفتاح ، هذا الذي يضع الشَّرعَ وراء ظهره ، و يضع هذا الكتاب الذي أنزله ليكون دستورا لنا يضعه خارج اهتمامه ، ويعيش وقته و لحظته ، و يأخذ ، و يعطي ، و يفعل ما يحلو له من دون ضابط من كتاب الله ، و من دون أن يكون وقَّافاً عند كتاب الله ، أمره خطير ، فسيِّدنا عمر رضي الله عن عمر كان وقَّافا عند كتاب الله ، والمؤمن في ليله ونهاره يطرح على نفسه هذا السؤال ، هل هذا العمل الذي أفعله مطابق للشرع ؟ وهل يرضى الله عنه ؟ وهل فيه زيغٌ ؟ وهل

فيه انحراف ؟ و هل فيه تقصيرٌ ، وهل فيه تجاوزٌ ؟ وهل فيه بغيٌ ، وهل فيه عدوانٌ ؟ هل فيه خروجٌ ، وهل فيه فسقٌ ؟ هذا الذي لا يسأل لا يبالي ، وإذا بالَ فمِن بال يبول ، ولا يبالي ، وإذا كان عمله صحيحا أم غير صحيح ، أكان مستقيما أم غير مستقيم ، أكان عمله مطابقا للشرع أم غير مطابق ، كلمته الثابتة أنه لا يبالي ، فالله سبحانه و تعالى يقول :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

(سورة هود)

3 ـ لا تعبد مع الله غيره :

إذا كنت تصلي ، و تصوم ، و تحج ، و تزكي فأنت لا شك تعبد اللهَ ، و لكن هل : لا تعبدوا إلا الله ، إن فعلتَ هذه العبادات فأنت تعبده ، ولكنَّ المهمَّ النهيُ : ألا تعبد إلا الله ، هل تعبد مع الله جهةً أخرى ؟، إنه من ضعف اليقين أن ترضيَ الناسَ بسخط الله ، هذا من ضعف اليقين ، ربُّنا عز وجل و صف حالتين مَرَضيتين : الحالة الأولى ، وهي قوله تعالى :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ(10))

(سورة العنكبوت)

دقة الآية متناهية ، قال تعالى :

(فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ)

(سورة العنكبوت)

جعل ما يفعله الناسُ معه تضييقا عليه كعذاب جهنم ، فعندئذٍ يُحجِم عن الطاعة خوفا من الناس ، يحجم عن حضور مجلس علم لكلمة قالها أحدُهم ، يحجم عن عمل صالح لكي لا يُظنَّ به كذا كذا ، يحجم عن قول المعروف لئلا يُظنَّ به كذا كذا ، النبيُّ عليه الصلاة و السلام أثنى في بعض الأحاديث على الرجل الذي إذا تكلّم غنِم ، وإذا سكت سلم ، ولكنَّ أهل الدنيا يتكلمون فيأثمون ، و يسكتون فيأثمون ، يتكلمون بالباطل فيأثمون ، ويسكتون عن الحق فيأثمون ، لكن المؤمن هذا حاله : رحم اللهُ عبدًا تكلم فغنم ، أو سكت فسلم ، و قال تعالى :

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(57))

(سورة القصص)

هذا الذي يقول مثل هذا الكلام هو منافق لا شك ، هذا الذي يقول إذا طبَّقتُ الشرع أخاف على نفسي ، أو أخاف على دخلي ، أو أخاف على رزقي ، و لو حضرتُ معكم مجلس علم أخاف على رزقي أن ينقطع ، هذا الذي يقول هذا منافق و ربِّ الكعبة ، قال تعالى :

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(57))

(سورة القصص)

هكذا يجب أن تكون أخلاق عباد الله عز وجل ، هذا الذي أطاعه هذا الذي استقام على أمره ، وهذا الذي دخل بيته ليتعلم شرعه ، و ليتعلم قرآنه أيفعل الله به ما تظنون ؟

قال تعالى :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175))

(سورة آل عمران)

لا تخافوهم ، ألا تعبدوا إلا الله ، فرقٌ كبير بين أن يقول الله سبحانه وتعالى : أن اعبدوا الله ، وبين أن يقول سبحانه وتعالى :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة هود)

فرق كبير بين أن تقول : نعبد اللهَ ، وبين أن تقول : " إياك نعبد " ، حينما تقدَّمت إياك على نعبد أفادت الحصرَ ، يعني لا نعبد إلا الله ، قال تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(1)لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(2)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(3)وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ(4)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(5)لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(6))

(سورة الكافرون)

المؤمن متميز عن غيره في كل شيء :

لا بدَّ من التمايز ، إذا كنتَ مختلطًا مع الكفار فهذا يذيب الإيمانَ كما يذوب الملح في الماء ، تذوب فيهم، تتعلم منهم فيسحبونك إلى صفهم ، ويقلّبونك كما يريدون ، أنت مؤمن يجب أن تبقى متميِّزا عنهم، و لا تذهب حيث يذهبون ، ولا تجلس حيث يجلسون ، ولا تخض في حديث كما يخوضون ، ولا تنظر كما ينظرون ، ولا تسمر كما يسمرون ، هذا معنى قوله تعالى :

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(2)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(3)وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ(4)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(5)لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(6))

(سورة الكافرون)

إن تميِّزت عنهم حفظك الله عز وجل ، قال تعالى :

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا(16))

(سورة الكهف)

قال تعالى :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

(سورة هود)

فإذا تورَّطتم ، وعبدتم غير الله ، قال تعالى :

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(فَقَالَ الْمَلَأُ)

(سورة هود)

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا

1 ـ الملأ :

الملأ هم علِيَّة القوم الذين يملئون السمع و البصر ، قال تعالى :

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون)

ثيابهم فاخرة ، وبيوتهم واسعة ، ومركباتهم فارهة ، وحياتهم ناعمة هؤلاء علية القوم ، الأغنياء منهم ، قال تعالى :

(فَقَالَ الْمَلَأُ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا)

(سورة هود)

2 ـ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا

الرسول بشر كسائر البشر :

أي أنت واحدٌ منا تأكل كما نأكل ، وتشرب كما نشرب ، وتمشي في الأسواق ، وتأكل الطعام ، ومن

قال : إن الأنبياء لا يأكلون الطعام ، ولا يمشون في الأسواق ، فهم مفتقرون إلى الطعام ، ومن أجل تأمين الطعام هم مفتقرون إلى العمل ، هذا الإنسان يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ، بشريتهم حجبتهم عن حقيقتهم ، إذا التقيتَ بأكبر جرَّاح قلب في العالم ماذا سوف تُريك عيناك منه ؟ أترى له رأسين ؟ لا ، سترى رأسا واحدا ، أربع أيدٍ ؟ لا ، بل له يدان اثنتان مثلك ، إنه مثل أيِّ إنسان آخر ، إنه أكبر جرَّاح قلب في العالم ، وقد أجرى مائة ألف عملية قلب مفتوح ، ونجحت كلها ، وهو الذي امتلأ علما و خبرة في القلب ، لكنه له عينان كعيني فلان ، له أذنان كأذني فلان ، له رأس كرأس كل إنسان ، له قامة منتصبة ، إذاً هو كغيره من الناس ، امتاز عنهم بعمله وخبرته ، وكذلك الأنبياء هم في أجسامهم كغيرهم من الناس ، لكنهم امتازوا برسالتهم ونبوتهم ؟! هؤلاء الكبراء هؤلاء علية القوم ، هؤلاء الذين يملئون عين أهل الدنيا ، هؤلاء الملأ ، قال تعالى :

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

(سورة هود)

أنت مثلنا ، والله سبحانه و تعالى قال :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة فصلت)

بمعنى أن في جوانحي عواطف و أحاسيس ، اللهم إني بشر أغضب كما يغضب البشر ، و أرضى كما يرضى البشر ، يجوع النبي ويعطش ، و يشعر بالحرِّ و يشعر بالقرِّ ، و يشعر بالدفء ، ويتزوج ، و يأتيه أولاد ، إنه بشر ، و لكن لا كالبشر ، محمدٌ بشرٌ ، و ليس كالبشر ، بل هو جوهرة ، و الناس كالحجر ، الجوهرة حجر ، و ليست كالحجر ، حجر كريم قطعة الماس بحجم الحِمصة يزيد ثمنها على سبعين ألف ليرة ، واذهب إلى سهول حوران ، وانظر كم فيها من أحجار ؟ محمَّدٌ بشر ، و ليس كالبشر، بل هو ياقوتة ، و الناس كالحجر

فإن تفُق الأنامَ فأنت منـهم فإن المسكَ بعض دم الغزال

****

أي أنت منهم ، ولكنك فقتَهم ، قال تعالى :

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

(سورة هود)

فإذا قيل لك : فلان مؤمن كبير ، ماذا ترى فيه ؟ له جسد كسائر الناس ، سيدنا ابن مسعود كان أسمر اللون ، قصير القامة ، صعد شجرةً فخفق الريحُ بثوبه ، فعَن ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنْ

الْأَرَاكِ ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ ، فَجَعَلَتْ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مِمَّ تَضْحَكُونَ ؟ قَالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ ، فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ))

[أحمد]

سيدنا ابن الوليد رضي الله عنه أبو سليمان خالد بن الوليد كان قصير القامة أسمر اللون ، لكنه خاض مائة معركة أو زُهاءها ، و ما في بدنه كما يقول ، وهو على فراش الموت موطن شبر إلا و فيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، عزله سيدنا عمر فجاءه إلى المدينة فقال : يا أمير المؤمنين ، لِمَ عزلتني ، خاف أن يكون قد اقترف إثمًا ، أو فعل شيئًا ، لأنَّ رضاء عمر مِن رضاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ورضاءُ رسول الله مِن رضاء الله ، هكذا قال سيّدنا عمر : << كنتُ سيف رسول الله المَسْلول ، وكنتُ جِلْوادَهُ وخادمه ، فكان يُغْمدني إذا شاء ، وتُوُفيّ وهو عنّي راضٍ ، فالحمد لله على هذا كثيرًا - فهذا رأى رضاء رسول الله عنه أكبر ثَرْوَة يَحْمِلها - ثمّ جاء أبو بكر ، وكنت خادمه وجِلواذه ، وسيف الله المسلول ، فكان يغمدني إذا شاء ، وتُوفّي وهو راضٍ عنّي فالحمد لله ، لقد صَعِد عمر المِنبر لِيَخطب بعد أبي بكر ، انتبَهَ الناس أنَّه هبط درجة ، ثمّ قال : ما كان الله لِيَراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر ، فكان يقف على درجة أدنى من آخر درجة ، لأنّ هذه الدرجة الأخيرة هي مقام سيّدنا أبي بكر ، فما بالك في الأيام هذه ؛ فعلى الناس أن يحفروا خندقًا إذا قاموا خطباء ! ما كان الله لِيَراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر >> ! علماء حكماء كادوا أن يكونوا مِن فقههم أنبياء ، قال تعالى :

(مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا)

(سورة هود)

وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا

3 - معنى الأراذل ومدلولها :

معنى كلمة أراذلنا ، هذه الكلمة لها معنى لغوي ؛ تعني ضعفاءنا وفقراءنا ، وهذه الكلمة فيها استعلاء ، هؤلاء الذين اتَّبعوك من الطبقة الدنيا في المجتمع فقراء أصحاب مصالح ، أصحاب حِرف ، يكسبون قوت يومهم ، ولا شأن لهم ، بيوتهم صغيرة ، أموالهم قليلة ، حياتهم خشنة ، هؤلاء لا نرضى أن نجلس معهم ، ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، قال عليه الصلاة والسلام ، وقد دخل عليه صحابيّ فقير :

((أهْلاً بِمَن خبَّرني جبريل بقُدومه ! قال : أو َمثِلي ؟! قال : نعم ، يا أخي ، خامل في الأرض ، علَمٌ في السماء))

[ورد في الأثر]

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي]

قال تعالى :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

قال : أتُحِبّ أن تكون نبيًا ملِكًا ، أم نبيًّا عبْدًا ؟ فقال : بل نبيًا عبْدًا ؛ أجوع يومًا فأذْكره ، وأشبعُ يومًا فأشكرهُ !

النبي كان أشد الناس تواضعًا :

دخل عليه عمر رضي الله عنه فرآه مضطجعًا على حصير ، وقد أثَّر في خدِّه الشريف ،

((وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا ، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَة ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ ، فَبَكَيْتُ ، فَقَالَ : مَا يُبْكِيكَ ؟ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ))

[متفق عليه]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

قال تعالى :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(17))

(سورة السجدة)

وقال تعالى :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ(12))

(سورة محمد)

قال تعالى :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

قال تعالى :

(مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا)

(سورة هود)

هؤلاء ضِعاف ، فقراء ولهم حِرفٌ قميئة لا نرضاها ، ولا نجلس معهم ، وليْسُوا في مستوانا ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ :

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ ، فَقَالَ لَهُ : هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كانت تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[رواه ابن ماجه]

لا طبقية في الإسلام :

ودخل سيدنا عمر المسجد فداس على يد أحد المصلين ، ويبدو أنه تألَّم فقال : أأعمى أنت ؟ قال : لا ، فقال له مَن معه : أيخاطبك هكذا ؟ قال : سألني فأجبته ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام كان متواضعا ، فكان يجلس جلسة العبد ، وكان يخصف نعله ، و يرفو ثوبه ، و يحلب شاته ، و كان في مهنة أهله ، و كان يصغي الإناء للهرة ، و ربما أخذت بيده الجارية الصغيرة فقادته في أطراف البيت ، هكذا كان الأنبياء ، أما الذين يستعلون في الأرض فإنهم ينبذون ، فقال تعالى :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83))

(سورة القصص)

سيدنا بلال عبدٌ حبشي ، كان عبدا مملوكا عند أمية بن خلف ، وكان يعذِّبه لأنه آمن ، ويقول : أحَد أحَد، أراد الصدِّيق رضي الله عنه أن يشتريه ، ويعتقه ، فذهب إلى سيِّده ، ونقده الثمن ، و أراد أن يعلن عن أخوَّته ، فوضع يدَه الكريمة تحت إبط بلال ، وأن تضع يدك تحت إبط أخيك هذه رمز المودَّة والأخوَّة والتساوي ، فاغتاظ أمية والد صفوان ، وقال : واللهِ لو دفعتَ به درهما واحدا لبِعتُكَهُ ، فأراد الصدِّيقُ أن يرفع من شأن بلال ، قال : واللهِ لو طلبتَ له ثمنا مائة ألفٍ لأعطيْتُكَها ، هذا أخي حقًّا ، هذا الإسلام ، طبقة واحدةٌ ، الطبقية غير موجودة بين المسلمين ، قال تعالى :

(مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا)

(سورة هود)

لا طبقية في الإسلام ، مقياس رفعة الإنسان عند الله طاعتُه لله ، كان يقول عليه الصلاة و السلام إذا دخل عليه سعد قال توَدُّدا له :

((هَذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ))

[الترمذي عن جابر]

عيَّنه سيدُنا أبو بكر قائدا لجيش القادسية ، وقال له : << يا سعدُ ، لا يغُرَّنك أنه قد قيل : إنك خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه و بينهم قرابة إلا طاعتهم له >> .

على جنب النبيِّ الأيسر كان يجلس رجل عظيم الشأن في قومه ، جاءه ملَكُ الموت فطلب قميص رسول الله ، فقال : " أعطوه قميصي ، الآن استقرَّ في جهنم ، كأنه حجرٌ يهوي سبعين خريفا إلى قعرها" ، فمهما كنتَ قريبا جسميا من رسول الله فلا ينفعك إلا عملُك ، قال تعالى :

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ)

(سورة هود)

4 ـ بَادِيَ الرَّأْيِ

بادي الرأي ، يعني هم تسرَّعوا ، وآمنوا ، بدا لهم أن دعوتك حقٌّ فآمنوا بها ، لم يتعمّقوا ، ولم يحلّلوا النيات ، ولم يتفهموا ، هؤلاء الكفار الماكرون يشوّهون كلَّ شيء ، ويظنون السوء بكلِّ شيء ، كلما دعوتَهم إلى الله عز وجل قالوا : ماذا يريد من هذه الدعوة ، و ماذا يبتغي منها ، أن يعلُوَ علينا ، وأن يستعليَ في الأرض ، وأن يخضعنا ، قال تعالى :

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ)

(سورة هود)

يعني هم اتّهموا هؤلاء الرَّعاع على حدِّ زعمهم أن رأيهم متسرِّع ، بدا لهم سريعا أن هذه الدعوة على حقٍّ فآمنوا بها ، لم يحلّلوها ، و لم يتريَّثوا ، و لم يتدبَّروا ، لذلك هؤلاء الذين حلَّلوا ، و قالوا : هذا النبيُّ رجلٌ ذكيٌّ يريد أن يجمع قومَه ، وأن يستعليَ علينا ، فكفروا به ، فكانوا في جهنم ، و بئس المصير ، فإذا دُعِيتَ إلى الحقِّ فاستجِبْ ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(24))

(سورة الأنفال)

باديَ الرأي يعني أنهم قالوا : اتخذوا هذا الرأي السريع ، و اعتنقوه ديناً وعقيدة لم يكن رأيهم متعمِّقا ، و لم يحلّلوا ، و لم يشكّكوا ، قال تعالى :

(وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ)

(سورة هود)

5 ـ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ

دائما هذه كلمة الكفر ، و الكفار يعلنون دائما ، أن المؤمنين ليسوا أفضل منهم ، يقول أحدهم : صحيح أنا لا أصلّي ، ولكن قلبي نظيف ، ونسي أن الصلاة عماد الدين ، من أقامها أقام الدين ، قال تعالى :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10))

(سورة العلق)

راقِبْه أين يسهر ، و كيف معاملته للناس ، إذا اقترض منهم مالاً فهل يؤديه لهم ؟ نفسُه الدنيئة و مواعيده التي يخلفها ، حبُّه لِذاته ، استعلاؤه وأنانيته ، قال تعالى :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10))

(سورة العلق)

قال تعالى :

(وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

(سورة هود)

6 ـ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ :

من صفات الكفار أيضا التحفُّظ والتشكيك في التعبير ، وأحدهم يقول : يبدو لي أن هذا القول منطقيٌّ ، و لكنَّني مُتشكِّك ، ويقول : أنا متفائل ، ولست متفائلاً ، فهو بَين بين ، ولستُ متفائلا ، كيف أنت إذًا ، لقد حيَّرتَنا ، دائما يقول عبارات لا تستطيع أن تفهم منها شيئا عن موقفه ، ولا أن تفهم منها شيئا عن حاله ، قال تعالى :

(وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(27)قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

(سورة هود)

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ

1 ـ الأنبياء معهم حُجة وبينة :

يعني معي هذا الكتاب ، ومعي هذه الحجّة ، ومعي هذا المنطق ، قال تعالى :

(وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)

(سورة هود)

تجلَّى على قلبي ، أسعدني رفعني رفع ذِكري ، قال تعالى :

(فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ)

(سورة هود)

2 ـ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ

لم يقل الله عز وجل : فعمَّاها الله عليكم ! لا ، فَعُمِّيَتْ عليكم ، أيْ حبّكم للدنيا حجَبَكم عن هذه الحقيقة ، وحبّكم للعلوّ في الأرض حجَبَكم عن هذه الحقيقة ، قال تعالى :

(أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

3 ـ المؤمن سعيد في جميع أحواله :

المؤمن في سعادة ينكرها عليه المنافق ، أو الكافر ، لِسان حال المؤمن أن يقول : أنا سعيد بهذا الدَّخْل القليل ، وبهذا البيت الصغير ، وبهذه الزوجة ، وبهذا العمل المتواضع ، مالي حلال ، وأنام مطمئنًا ، لم أبن ثروتي على فقر الآخرين ، ولم أبْنِ مجدي على أنقاضهم ، ورفعتي على تعاستهم ، وحياتي على موتهم ، وأنا سعيد راضٍ عن الله ، والله راضٍ عنِّي ! لا ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

فهذا الزَّعم الذي يزعمه الكفار لأنَّهم يروا أنفسهم في مستوى أرفع من عامة الناس هو زعْمٌ باطل ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، والناس رجلان : برّ تقي كريم على الله ، وفاجر شقيّ هيّن على الله ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13))

(سورة الحجرات)

اسمعوا وأطيعوا ، ولو تولّى عليكم عبْد رأسُه كالزبيبة ، وأنا جدّ كلّ تقيّ ، ولو كان عبداً حبشيّا ، فعَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ : لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا أَبَا ذَرٍّ ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))

[رواه البخاري]

كلنا لآدم ، وهذا هو الإسلام ، فأبو ذرٍ ساوى غلامه بنفسه عندما ألبسه مثل حلته .

قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

على بيّنة ، تركتكم على بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، والأمور واضحة جدًّا في الدِّين ، أين كنَّا ؟ وما سِرّ وُجودنا في الأرض ؟ وما الشيء الذي ينفعنا في الدنيا ؟ وماذا ينبغي أن نكون ؟ وإلى أين نحن ذاهبون ؟ ماذا بعد الموت ؟ الأمور واضحة ، تركتكم على بيضاء نقيَّة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

4 ـ المؤمن راحمٌ مرحوم :

المؤمن مرحوم ، رحم الله عبْدًا سَمحًا إذا باع ، سمحًا إذا اشترى ، سمحًا إذا قضى ، سمحًا إذا اقتضى، ورحم الله رجلاً قام من الليل فصلّى ، الله سبحانه وتعالى يرحمه ، قال تعالى :

(وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)

(سورة هود)

لا يعرف رحمة الله إلا من كان محسنًا ، ولا يعرف رحمة الله إلا من كان مستقيمًا ، ولا يعرف رحمة الله إلا من كان مقبلاً ومخلِصًا ، فاسْتَقِمِ واعْمَلْ صالحًا وأخْلِصْ وأقْبِل ، عندئذٍ قل لي : ما الرحمة ؟ من أخلص لله أربعين صباحًا تفجَّرَتْ ينابيعُ الحِكمة في قلبه ، وأجراها الله على لِسانه ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)

(سورة هود)

5 ـ المؤمن يؤثر الآخرة على الدنيا :

أنتم لا تريدونها ، أنتم آثرتم الدنيا ، آثرتم جمْعَ الدِّرْهم والدِّينار ، آثرتم بيتًا بالحرام ، ومحلاً تِجاريًا محرَّماً ، وبضاعة محرّمة ، وعلاقة ماليّة محرّمة وآثرتم الاختلاط ، وسرتم في مسارب أهل الغرْب ، وتقليد الأجانب ، وآثرتم شهواتكم ، و آثرتم عاجل دنياكم ، قال تعالى :

(قالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

عندما يدخل شخص عند الطبيب يجد عنده حوالي ثلاثين مريضاً ، وكلّ مريض له تخطيط ، وكشف بمائتي ليرة ، يجمع ويطرح ، فيجد دخله باليوم أربعة أو خمسة آلاف ليرة ! فلعله يحسده ، ولكن لما كان هو يدرس ليلا ونهارا ، أنت أين كنت ؟! هو آثر العِلم ، وأنت ماذا آثرْت ؟ الكسل والخمول ، قال تعالى :

(قالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

لا إكراه في الدِّين ! يجب أن تأتي إلى مجلس العلم طواعِيَة ، ومبادرةً منك ، وأن تؤثر رضاء الله ، وأن تؤثر ما يبقى على ما يفنى ، وأن تؤثر طاعة الله ، فإذا آثرت هذا رحمك الله .

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة هود)

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا

من علامات الصدق الترفعُ عن الدنيا :

هذه علامة الصادقين ، قال تعالى :

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

قال تعالى :

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا(9))

(سورة الإنسان)

علامة الإخلاص الترفّع عن الدنيا ، فلا تبتغي أجرًا ولا شكرًا ، ولا ذِكرًا ولا تنويهًا ، ولا تلميحًا ، ولا تصريحًا ، ولا إشادةً ، ولا شيئًا من هذا القبيل ،

خاتمة :

فهذه قصّة من قصص الأنبياء اطلعنا عليها ، ولكنّ قصص القرآن الكريم كلها وقائع ونحياها ، لأنَّ الإنسان هو الإنسان ، والكافر هو الكافر ، والمؤمن هو المؤمن ، والحق هو الحق ، والباطل هو الباطل، وقديمًا قالوا : التاريخ يعيد نفسه ، فأنت إن دعوتَ إلى الله أصحاب المال المترفين عارضوك ، وأما إن دعوت المفكّرين الصادقين المستبصرين اتَّبعوك ، وهذه سنَّة الخلق ، سنَّة الله في خلقه ، وقيمة الإنسان بإيمانه ، وأخلاقه ، ولو كان من أراذل القوم أي من فقرائِهم ، ولو كان من كبرائهم ، وكان بعيدًا عن الله عز وجل فهو في أسفل سافلين .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (06-16): تفسير الآيات 29 – 34
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-02-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي في سورة هود إلى قوله تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(سورة هود)

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ

المؤمن في سعادة عميت على غيره :

أيْ أنَّ هذا الرحمة لا يعرفها إلا من ذاقها ، كما أنَّ العلماء يتمتّعون في الدنيا بِسَعادة لا يعرفها الأغنياء، فإذا أنكر الأغنياء على العلماء سعادتهم فَمِن قبيل الجَهل ، هذا في الدنيا ، ولكنّ الأنبياء والصدّيقين وكِبار المؤمنين يتمتَّعون بِسَعادة لا يعرفها إلا من ذاقها ، فإذا نطقوا بها أنكرها عليهم أهل الدنيا ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(سورة هود)

أنتم لا تعرفونها ، ولم تذوقوها مِن قبلُ ، ولا تعرفون حقيقة الإيمان ، وحقيقة السعادة التي يتمتَّع بها المؤمن ، قال تعالى :

(أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

1 ـ المالُ شيء عزيز على الكافر :

يبدو أن المالَ شيء عزيز جدًّا على الكافر ، فإذا كلّفتَه مالاً ، أو إذا طالبتَه بمالٍ قد يستغني عن الهداية كلها ، لذلك سيِّدنا نوحٍ طمأنهم إلى أن استجابتكم لهذه الدعوة ، وإيمانكم بالله سبحانه وتعالى ، واستماعكم إليَ لا يكلّفكم مالاً .

2 ـ من علامة الدعية الصادق أنه لا يسأل مالا مقابل دعوته :

والقرآن الكريم في آيات كثيرة تحدَّث عن علاماتٍ للصادقين ، فمن هذه العلامات قال تعالى :

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

هذه علامة كبرى على صدق الداعي ، لا يسألكم أجرا ، لا أجرا ماديًّا ولا معنويا ، لا مباشرا ولا غير مباشر ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ)

(سورة هود)

3 ـ خشية الله وحده :

علامة أخرى من علامات الصدق في الدعوة إلى الله ، قال تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا(39))

(سورة الأحزاب)

إذا خشيَ الداعي غيرَ الله نطق بغير الحق ، وسكت عن الحق ، فإذا سكت عن الحق و نطق بالباطل فماذا بقيَ من تبليغ رسالات الله ؟ لم يبقَ شيءٌ .

إذاً العلامة الأولى : قال تعالى :

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

والعلامة الثانية : قال تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا(39))

(سورة الأحزاب)

والعلامة الثالثة : قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ(108))

(سورة يوسف)

4 ـ تبليغ الدعوة على بصيرة وعلمٍ :

فعلامة المتَّبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدعوك على بصيرة ، فالأمور واضحة تماما ، والهدف من الخلق واضحٌ ، هناك انسجام بين الآيات والأحاديث ، هناك هدف كبير يوضِّحه لك ، وهناك شرائع دقيقة يبيِّنها لك ، هناك تعليلات منطقيَّةٌ للعبادات ، قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ(108))

(سورة يوسف)

هذه العلامة الثالثة .

5 ـ أفعال الداعية تشهد له على صدقه :

و أما العلامة الرابعة فقوله تعالى :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(18))

(سورة آل عمران)

الله سبحانه هو الذي تشهد لك عدالتُه ، وتشهد لك أسماؤه الحسنى فهو يفسِّر أفعاله بما يتوافق مع أسمائه الحسنى ، وكذا العالم الصحيح فمن علامات العالم الصادق : قال تعالى :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(18))

(سورة آل عمران)

فالعالم الصحيح تشهد له أفعاله على صدق دعوته وفعالته .

6 ـ النجاح في الابتلاء والامتحان :

علامة أخرى قال تعالى :

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(124))

(سورة البقرة)

أي أن النجاح في الامتحان علامة كبرى من علامات صدق الداعي وصدق الدعوة ، يُمتحن الإنسان بماله ، ويمتَحن في صحّته ، يُمتحَن في رزقه فيصبر ، ولا يرى إلا الله ، ويرى حكمة الله كما يرى رحمة الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(124))

(سورة البقرة)

7 ـ الصبر :

علامة أخرى ، قال تعالى :

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ(24))

(سورة السجدة)

هذه بشارات لك أيها المؤمن :

الصبرُ والنجاح في الامتحان ، وخشية الله وحده ، و تبيان عدالة الله عز وجل ، هذه كلُها من علامات الدعوة الصادقة ، لذلك : " إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم " .

[رواه مسلم من قول ابن سيرين]

ويقول عليه الصلاة و السلام لابن عمر :

((يا ابنَ عمر ، دينَك دِينَك ، إنه لحمُك ودمُك ، خذْ عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[رواه الخطيب البغدادي في كتابه الكفاية في علم الرواية ، وفي سنده ضعف]

فما أكثرَ الذين مالوا عن طريق الحق ، وما أكثر الذين زيَّفوا الدينَ ، وما أكثر الذين أدخلوا في الدين ما ليس منه ، وما أكثر الذين جعلوا من الدين شيئًا يذوب في الحياة العصرية جعلوه وفق أهوائهم ، خُذْ عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا ، والنبيُّ عليه الصلاة و السلام في بعض الأحاديث الشريفة يقول :

((لا تجلسوا عند كل عالمٍ إلا عالما يدعوكم من الخمس إلى الخمس ، ومن الشكِّ إلى اليقين ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن العداوة إلى النصيحة ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد))

[ورد في الأثر]

فإذا كنتَ قبل أن تحضر هذه المجالس راغبا في الدنيا ، ثم أصبحتَ زاهدا فيها فهذه بشارة لك ، ولمن يدعوك إلى الله عز وجل ، وإذا كنت قبل أن تحضر هذه المجالس تؤثر الرياء على الإخلاص ، ثم أصبحتَ مخلصا فهذه بشارة لك ، ولمن يدعوك إلى الله عز وجل ، وإذا كنت قبل أن تحضر هذه المجالس تؤثر العداوة على النصيحة ، ثم أصبحتَ نصوحا لله و لرسوله ولعامة المسلمين فهذه بشارة لك ، وإذا كنت قبل أن تعرف الله متكبِّرا ، ثم تضاءلتْ نفسُك فأصبحت متواضعا ، فهذه علامة طيِّبة لك ، ولمن يدعوك إلى الله عز وجل ، وإذا كنت متشكّكا من بعض الأمور ، ولستَ متأكّدا ويخامرك الشكُّ في بعض المعتقدات ، ثم بلغتَ مستوى اليقين الناصع كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قَالَ :

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ قَالَ : قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ))

[رواه أحمد]

فهذه بشارة طيِّبة لك ، ولمن يدعوك إلى طريق الله سبحانه وتعالى ، إذًا دينَك دينَك إنه لحمُك ودمُك ، خذ عن الذين استقاموا ، و لا تأخذ عن الذين مالوا ، إن هذا العلم دينٌ فانظروا عمن تأخذون دينكم ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

مجالس العلم والدعوة لا تكلف مالاً :

اطمئنوا ، هل تستطيع أن تقابل محاميا ، وتستشيره في موضوع ما من دون أن تدفع له ثمن الاستشارة؟ وهل تستطيع أن تضرب موعدا لدرس خاص في أيِّ مادة من المواد الدراسية دون أن تدفع

الثمنَ ؟ و هل تستطيع أن تزور طبيبا و ليس في جيبك مالٌ ؟ و هل تستطيع أن تتلقَّى خدمة أو استشارةً أو شيئا من أشياء الدنيا من دون ثمن إلا إذا جئتَ إلى مجالس العلم فتجدها مجَّاناً ؟ والدعوة عامة ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

إذا كان الإنسان حريصا على المال أو كان ماله قليلا فليطمئن ، إن حضورك مجلس علم لا يكلّفك مالا، هذا الذي يدخل إلى دُور اللهو ألا يدفع ثمنا باهظاً ، هذا الذي يدخل إلى المسارح ليتلقَّى الفساد أحيانا ألا يدفع ثمن هذا الدخول ؟ إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإن زوَّارَها هم عمَّارُها ، فطوبى لعبدٍ تطهَّر في بيته ثم زارني ، وحُقَّ على المزور أن يكرم الزائر ، لن تدفع شيئا ، بل سوف يكرمك الله سبحانه وتعالى ، وحُقَّ على المزور أن يكرم الزائر ، أنت تزور اللهَ سبحانه و تعالى ، من أقبل عليَّ منهم تلقَّيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودَّتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أُقنِّطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، إذا رجع العبد إلى الله عز وجل نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنِّئوا فلانا فقد اصطلح مع الله ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

مالكم دعوه لكم ، لا أسألكم عليه مالا ، قال تعالى :

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

(سورة هود)

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آَمَنُوا

1 ـ الكبراء يستنكفون عن مجالسة الفقراء :

هناك عقبتان ، العقبة الأولى خوف هؤلاء الكفار في عهد نوح أن يكون هناك التزام مالي ، فجاءت الآيةُ ، وبشَّرتهم بأن الالتزام المالي ليس موجودا إطلاقا ، ليس هناك التزام مالي ، بقي هناك عقبة ثانية أن هؤلاء الكبراء ، هؤلاء الأغنياء ، هؤلاء الوجهاء الذين ينغمسون في النعيم إذا حضروا مجلس نوح

عليه السلام يترقَّعون ، ولا يجالسون الضعفاء ، ولا الفقراء الذين يزعمونهم أراذل القوم بالمعنى اللغوي ، فقال سيدُنا نوحٍ كما حكى عنه الله تعالى :

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة هود)

معنى : إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ

المعنى الأول :

أنا لا أستطيع طردهم ، لماذا ؟ قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)

(سورة هود)

هؤلاء الذين تزدرونهم هؤلاء الذين لا ترونهم في مستواكم المعاشي ، وهؤلاء الذين تحتقرونهم لقلّة دخلهم ، أو لوضاعة شأنهم ، أو لفقرهم ، أو لأنهم غير معروفين ، بل هم مغمورون ضعفاء أتقياء أخفياء ، هؤلاء الذين تترقعون عنهم قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)

(سورة هود)

تكفي هذه ، ملاقوا ربهم ، أي سوف يكرمهم الله عز وجل إذا انقلبوا إليه سوف يجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون ، قال تعالى

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)

(سورة هود)

سوف يرجعون إلى الله عز وجل ، وسيكرمهم ، ويعلي شأنهم ، ويرفع ذكرهم ، ويقرّبهم منه ، ولا قيمة لفقرهم في الدنيا ، إن هذه الدنيا عرض زائلٌ ، يأكل منه البرُّ و الفاجر ، والآخرة وعدٌ صادق ، يحكم فيه ملِك عادل ، والذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنَّة أو النار ، قال تعالى :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

قال تعالى :

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

هل يجرؤ نبيٌّ كريم أن يطرد مؤمنا لفقره ، أو لأنه مغمور غير مشهور ، أو لأنه من طبقة اجتماعية دنيا ، أو لأن له حرفة يترفَّع عنها الغنيُّ ، كل عمل شريف ، الشرف أن تطيع الله عز وجل و الدناءة أن تعصيه ، قال تعالى :

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

هؤلاء على موعد مع الله عز وجل ، هؤلاء سوف يرحمهم الله ، وسوف يكرمهم ، وسوف يصبحون في الآخرة أعلاما ، وسوف يتألّق نجمُهم في سماء الآخرة ، هؤلاء ملوك الدار الآخرة ، قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

نحن نحكم بالظاهر ، واللهُ يتولّى السرائر ، يبدو لي منهم أنهم صادقون ، أنهم مخلصون ، أنهم مطيعون ، و لا علم لي بما تنطوي عليه نفوسهم ، قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي)

(سورة هود)

اللهُ يحاسبهم لا أنا ، أنا أحكم بالظاهر ، واللهُ يتولّى السرائر ، قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي)

(سورة هود)

قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

2 ـ المترَفِّع عن الناس جاهلٌ :

هذا الذي يترَّفع عن الناس ، وهذا الذي يستعلي عليهم ، هذا الذي يرى نفسه فوقهم ، هذا الذي تأبى نفسه أن يجلس بجانبهم ، هذا جاهل ، قال تعالى :

(وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

النبي r أشد الناس تواضعا :

مَن أنتم ؟ دخل أعرابيٌّ على النبيِّ صلى الله عليه و سلَّم فأصابته الرعدة من شدَّة الهيبة ، فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ :

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ ، فَقَالَ لَهُ : هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه]

ودعاه صحابيٌّ جليل إلى خبز وخلٍّ ما قولك ؟ إذا دُعيت إلى وليمة ، وقدَّم لك الداعي خبزا وخلًّا ، وقال لك تفضَّلْ ، ما قولك ؟ فقال عليه الصلاة و السلام :

((نِعْمَ الْأُدُمُ ، أَوْ الْإِدَامُ الْخَلُّ))

[مسلم عن عائشة]

قال عليه الصلاة و السلام من باب التواضع قَالَ :

((لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ ، أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ))

[رواه البخاري]

وفي رواية أخرى : لو دعيت إلى كراع في مكان ناءٍ ـ يعني في أطراف المدينة ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ))

[رواه البخاري]

حينما دخل مكة فاتحًا دخلها مُطأطِئَ الرأس ، وحينما سمع رجلا يقول لرجل : يا ابن السوداء قال : إنك امرؤ فيك جاهلية ، هذا هو الإسلام ، حينما قيل للنبيِّ الكريم مثِّل بهم هؤلاء الذين أخرجوك ، وعذَّبوك ، وتآمروا على قتلك فقال : لا أمثِّل بهم فيمثِّل الله بي ، و لو كنتُ نبيًّا ، قال تعالى :

(وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

هذا الذي يرى نفسه فوق الناس هو جاهل ، ضع في نفسك هذه الحقيقة هذا الذي تراه دونك قد يكون فوقك يوم القيامة ، هذا الذي تراه دونك مالا ، أو دونك جاهاً ، أو دونك صحة ، أو دونك شأنا ، قد يكون فوقك يوم القيامة ، من يدري ؟ قال تعالى :

(وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

من علامة المؤمن التواضع ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرَّة من كِبْر ، والمتكبِّر جاهل ، لأنه لم يرَ عظمة الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة هود)

وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

إن طردتُهم لأرضيكم أتحمونني من الله عز وجل ؟

أرسل رجلٌ إلى سيدنا عمر بن الخطاب كتابا قال فيه : << أما بعد ؛ فإن أناسا قد اغتصبوا مالا ليس لهم ، ولستُ أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسَّهم بالعذاب ، فإن أذِنتَ لي فعلتُ ، فقال سيِّدنا عمر : أتستأذنني في تعذيب بشر ؟ ـ أنا أستأذن في هذا الموضوع ، وهل أنا لك حصن من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ـ أقم عليهم البيِّنة ، فإن قامت فخُذهم بالبيّنة ، ثم ادعُهم إلى الإقرار ، فإن أقرُّوا فخذهم بإقرارهم ، ثم ادعُهم لحلف اليمين ، فإن حلفوا فأطلقْ سراحهم ، وايمُن اللهِ ، لأن يلقوا اللهَ بخياناتهم أهون من أن ألقى اللهَ بدمائهم >> ، من أنا حتى تستأذنني في تعذيبهم ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة هود)

إذا استعليتَ على إنسان فهذا ظلم .

يبدو أن رجلا غنيًّا طرق بابَه سائلٌ ، وكان يأكل دجاجا ، فهمَّتْ زوجتُه أن تعطيه شيئا من الدجاج ، فنهرها ، و قال : اطرديه ، فطردته تنفيذا لأمره ، وبعد سنوات عدَّة نشب خلافٌ بين الزوجين ، و طلَّقها ، و أكرمها الله بزوج آخر أفضل منه ، وعاشت معه سنوات ، وبينما هما جالسان يتناولان دجاجا إذ طرق البابَ طارقٌ ، فذهبتْ لتفتح الباب ، فعادت مضطربة ، قال : من الطارق ؟ قالت : سائلٌ ، لماذا اضطربْتِ ؟ قالت أتدري من السائل ؟ إنه زوجي الأول ، فقال : أتدرين من أنا ؟ أنا السائل الأول.

وهذا مثال آخر : أرادت امرأةٌ أن تغيظ ضرَّتَها فقالت لها : في بطني ولدٌ ، وعلى يدي ولدٌ ؛ طبعا ذكر صبي ، وكذلك على الأرض ولد ، لها ثلاثة صبية ، وضرَّتها عاقر ، لا تلد ، لم تمض سنوات حتى مات الولدُ الأوَّلُ والثاني والثالث ، ورزق اللهُ ضرَّتَها صبيًّا أول ، و ثانيا وثالثا ، قال عليه الصلاة و السلام :

((الذنب شؤمٌ على غير صاحبه ، إن ذكرَه فقد اغتابه ، و إن عيَّره ابتُلِيَ به ، و إن رضي به شاركه في الإثم))

[الجامع الصغير عن أنس ، وفي إسناده ضعف]

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة هود)

إذا رددْتَ سائلا هل تعرف ما سيكون ؟ اللهُ أعلمُ ، الذي أعطاك المالَ يأخذه منك ، أتدري من السائل ؟ قالت : زوجي الأول ، أتدرين من أنا ؟ أنا السائل الأول .

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة هود)

وقال تعالى :

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ)

(سورة هود)

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ

1 ـ الأنبياء أصحاب صدق وموضوعية مع الناس :

انظرْ إلى الأمور النظرة الموضوعية ، هذا الذي يوهم الناس أنه فوق البشر إنما هو مراءٍ ظالمٍ ، قال تعالى :

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ)

(سورة هود)

لا أملك شيئا ، لستُ غنيًّا ، ولا أستطيع أن أمنح الغنى لأحد ، الخزائن ليست عندي ، هي عند الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

[سورة الحجر : من الآية 21]

قال تعالى :

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ)

(سورة هود)

2 ـ الأنبياء لا يعلمون الغيب :

هذا ادَّعاء ، لا يعلم الغيب إلا الله ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ))

[رواه أحمد]

ومن أتى ساحرا فلم يصدقه لم تُقبَل له صلاة أربعين صباحاً ، لأنه لا أحد يعلم الغيب إلا الله . أقرأ أحيانا في بعض الدول عن شخصيات كبيرة تذهب إلى بعض المُنجِّمات ، وتسألها عن المستقبل ، وقد يحمل هذا السائل دكتوراه ، شيءٌ مضحِكٌ أن يكون الإنسان محصِّلا شهادة عالية في الدنيا ، ويذهب إلى منجِّمة ليطمئن من خلال كلامها على مستقبله ، قال تعالى :

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ)

(سورة هود)

أنا لا أنكر بشريتي أنا بشر ، أجوع وأعطش ، وأتعب ، وأمشي في الأسواق ، وآكل الطعام ، اللهم إني بشر أرضى كما يرضى البشر ، و أغضب كما يغضب البشر ، وحينما كان الغزو في أيام الصيام أفطر النبيُّ عليه الصلاة والسلام ، لأنه بشر ، صلى مرة قاعدا لأنه بشر ، غضب مرة لأنه بشر ، اللهم إني بشر أنسى كما ينسى البشر ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[متفق عليه]

سيدنا نوح أعطى نفسه حجمه الحقيقي ، لستُ غنيًّا ، ولن أستطيع أن أمنح الغنى لأحد ، و لا أعلم الغيب ، ولا أدَّعي أنني فوق البشر ، إنني بشر ، النبيُّ الكريم اللهم صلِّ عليه جمع أصحابه وخطبهم لتصحيح مفهوم كبير ، فعن الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ يَقُولُ : انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى تَنْكَشِفَ))

[رواه مسلم]

لا علاقة لكسوف الشمس بموت إبراهيم ، بل الأمر ظاهرة طبيعية .

الآن لو أنَّ رجلا يبتغي الرفعة عند الناس ، وقال له الناس : هذه الظاهرة من أجلك ، تقول له : بارك الله بك يا ولدي ، يؤكِّدها ، ويرضى بها ليزداد رفعة عند الناس ، لكنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال : لا ، هذا هو الحجم الحقيقي ، هذا الذي يدعوك إلى الله ، لا يعلم الغيب ، ولا يملك لك نفعا ولا ضرًّا ، و

يخاف إن عصى ربَّه عذاب يوم عظيم ، استمعوا لآيات القرآن الكريم ، قال تعالى :

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(15))

(سورة الأنعام)

وقال تعالى :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ)

(سورة هود)

وقال تعالى :

(وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(188))

(سورة الأعراف)

هذا حجم النبيِّ ، فهل يستطيع وليٌّ أن يدَّعيَ حجما أكبر من هذا ؟

3 ـ ليس هناك رجل فوق النبي مهما كان :

هناك قصص كثيرة لا طائل منها تُروَى عن بعض العلماء ، إنها ليست من عندهم ، إنها لُقّقتْ على ألسنتهم ، وهم بريئون منها ، مثلاً : يقولون : هناك بعض العلماء إذا نظر إلى إنسان اهتدى ، هذا دجل وتزوير ، هذه لم يملكها النبيُّ الكريم ، إذاً : حسب ادعائهم هناك من هو فوق النبي !! قال تعالى :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(272))

(سورة البقرة)

وقال تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56))

(سورة القصص)

وإذا كان النبيُّ عليه الصلاة والسلام لا يهدي من أحبَّ ، أفيأتي رجلٌ من أتباعه ينظر في الرجل فيهديه ؟!

عالمٌ آخر كان في الحمَّام ، طُرق بابُ الحمَّام ، وأعطيَ ورقةً فيها أسئلةٌ غمسها في الماء ، فكانت الأجوبة على الطرف الثاني ، تفضَّلْ أليس هذا بهتان ؟ اللهُ سبحانه وتعالى قال :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ)

(سورة هود)

هذه الخوارق المزعومة لا تُجدي ، و الحديث عنها لا يجدي ، وقعتْ أم لم تقع .

قال تعالى :

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا)

(سورة هود)

وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا

1 ـ الكبراء مخطئون في تصوراتهم :

هؤلاء الكبراء يحسبون أن الدنيا لهم والآخرة لهم ، ويحسبون أن الله سبحانه وتعالى يحبِّهم دون سواهم، حتى إذا ذهب أحدُهم في نزهةٍ إلى مشارق الأرض ، ومغاربها ، قال لك بالحرف الواحد : إذا أحبَّ اللهُ عبدَه أراه ملكَه ، وقد يذهب من فندق إلى فِندق ، ومن معصية إلى معصية ، ومن شبهة إلى شبهة ، ويقول لك : إن الله يحبُّني ، هؤلاء لا يحتملون أن يكونوا عند الله عز وجل ، بل شأنهم كشأن غيرهم ، مَن أنا ؟ قال تعالى :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(18))

(سورة المائدة)

التواضع علامة الإيمان ، قال الشاعر :

فانظُرْ إلى الأكحال و هي حجارة لانَتْ فصار مقرُّها في الأعين

قال تعالى :

(وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا)

(سورة هود)

هؤلاء الذين تنظرون إليهم بازدراء ، قال تعالى :

(لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة هود)

2 ـ شأن العباد وأمْرهم إلى الله تعالى وحده :

هذا من شأن الله عز وجل ، لا تسألني عن شخص ، جيِّد أم سيء ، هذا من شأن الله لا من شأني ، من يعلم الغيب إلا الله ؟ من يعلم ما في نفسه .

الآن كلُّكم في هذا المسجد ، كلٌّ واحد حضر من هذا الحضور له مطلب ، الذي جاء يطلب رضاء الله وحده له درجة ، والذي يأتي من باب الفضول له درجة ، والذي جاء ولديه فراغ فإنه يأتي ليقضيه في هذه الأمسية ، يقول : نذهب إلى الجامع لنتسلَّى ، له درجة ، هذا له درجة ، و الذي يأتي إلى هنا من مكان بعيد يقصد رضاء الله عز وجل له درجة ، ومن يعلم ما في النفوس ؟ قال تعالى :

(اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنْ الظَّالِمِينَ)

(سورة هود)

أحدُ الأصحاب الكرام في بعض الغزوات تبع مشركا ، وحينما كان السيفُ فوق رقبته قال : أشهد أن لا إله إلا الله فقتله ، بلغ ذلك النبيَ صلى الله عليه و سلم فغضب غضبا شديدا ، فقال : يا رسول الله قالها تقيَّة لينجو من الموت ، قال : أشققتَ على قلبه ؟ أشققتَ على صدره ؟ نحن نحكم بالظاهر ، و اللهُ يتولَّى السرائر ، فلا يعلم ما في النفوس إلا الله .

قال تعالى :

(قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)

(سورة هود)

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ

1 ـ من وسائل معارضة الكفار للأنبياء إغلاق باب النقاش :

أي بالغتَ في الجدال وبالغت في الخصومة ، ومللنا من هذه الموضوعات ، دعْنا منها ، و ضعْ حدًّا لها، وأقفِلْ باب النقاش فيها إلى متى ؟ قال تعالى :

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)

(سورة هود)

2 ـ من وسائل معارضة الكفار للأنبياء العنف والتهديد :

وحينما يفلس الإنسان فكريا يلجأ إلى وسيلة أخرى ، إما إلى التهكُّم ، وإما إلى الضرب ، هذا الذي يفقد الحجَّة يلجأ إلى العنف ، ولا يستخدم العنفَ بعد المناقشة إلا من خسِرَ المناقشة ، لذلك يقول الإمام الغزالي : ما ناقشني عالمٌ إلا غلبْتُه ، ولا ناقشني جاهل إلا غلبني ! لأنّهُ لا يناقش وِفْقَ أُسسٍ صحيحة .

قال تعالى :

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)

(سورة هود)

3 ـ من وسائل معارضة الكفار للأنبياء طلب العذاب من الأنبياء :

من أنا ؟ أنا لا أقدر أن آتيكم بما يعِدُكم الله ، أنا عبْدٌ فقير ، ومخلوق عاجز ، ولكن هذا بيَدِ الله عز وجل ، قال تعالى :

(قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة هود)

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ

1 ـ العذاب بيد الله نوعا وكمًّا وزمانا ومكانا ومعَذَّبا :

الله عز وجل حكيم ، ويعرف متى يرسل العذاب ؟ ومتى يوقفهُ ؟ ومتى يمْنعهُ ؟ هو الذي يتصرَّف ، قال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة هود)

2 ـ الله لا يعجزه شيء :

أمرُ الإنسان متوقف على الله :

إذا كانت آلة كهربائيّة فيها مفتاح كهربائي ، فمهما علا صوتها فبضَغطة زرّ توقِفُها ، وهكذا الإنسان مهما علا وتكبَّر ، ومهما بدا للناس قويًّا إذا قطعَ الله عنه الإمداد ثانيَةً واحدة أصبح جثَّة هامدة !! فهذه الحركة من الله عز وجل ، وهو الذي أمدَّك بها ، فإذا قطع عنّه هذا الإمداد ثانيَةً واحدة أصبح الإنسان جثَّة هامدة .

يُرْوى أنَّ سيّدنا سليمان ـ هذه قصّة ـ جاء إليه ملكُ الموت ، وعنده رجل ، فصار ملكُ الموت يُحدِّق في هذا الرجل تحديقًا غريبًا ، قال : يا نبيّ الله ، من هذا الذي يُحدِّق فيّ ؟! فقال : هذا ملكُ الموت !! فانْخَلَعَ قلبهُ خوفًا ، وقال : خُذْني إلى أقصى الدنيا ، وقد أوتي الرياح ، فنَقَلَهُ إلى الهند ، وهناك قُبِضَتْ روحُه ، فلمَّا سأل نبيّ الله سليمان ملَكَ الموت ؛ لماذا فعلت هذا ؟ وحدَّقتَ فيه هذا التحديق !! فقال :

عَجِبْت للأمر ، فأنا موكّل بقبض روحه في الهند ، فلما رأيْتُهُ هنا قلتُ : ماذا يفعل هنا ؟!! قال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة هود)

هؤلاء الذين أرادوا أن يغزو الفضاء ، ونجحَتْ لهم ستّ أو سبع رحلاتٍ ، وبعد اثنتين وسبعين ثانية من إقلاعهم برحلة جديدة أصبحَتْ المركبة التي وزنها ثلاثة آلاف طنٍّ كرةً من اللّهَب !! قال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة هود)

في بعض المعامل معامل الصلب يُنقل الحديد الخام من مكان إلى آخر برافِعة مِغناطيسيَّة ، عبارة عن دائرة من الحديد لُفَّ حولها وشيعة ، فإذا سرى التيار في الوشيعة أصبح هذا الحديد ممَغْنطًا يحمل عشرة أطنان ، إنَّك لن تستطيع إنزال قِطعة حديد مهما أوتيتَ من قوَّة من شِدَّة الجذب ، فإذا ضغط عامِلُ هذه الرافعة الزرّ وقطع التيار الكهربائي ، فهذه الأطنان العشرة تقع فوْرًا ؛ ضغطة زرّ ، فهذا الذي تراه كبيرًا وقويًا إذا قطع الله عنه الإمداد ثانية واحدة أصبح جثّةً هامدة ، فلذلك يقول الله عز وجل:

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة هود)

مهما علوْت ، وأينما ذهبت .

لا تأمن الموت في طرْفٍ ولا نفس وإن تمنَّعْت بالحجاب و الحــرس
فما تزال سهام المــوت نافـذة في جنب مدَّرِع منها ومتــّرسِ
أراك لسْت بوقـــاف ولا حـذِرٍ كالحاطب الخابط الأعواد في الغلس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكــها إنّ السفينة لا تجري على اليبــس

قال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة هود)

وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ

1 ـ تأويل الآية :

هذه الآية من الآيات المتشابهات تحتاج إلى تأويل دقيق ، هذا الإنسان إذا أعرض عن الله سبحانه وتعالى امتلأ قلبه شهواتٍ خبيثةً ، فإذا أصرَّ على هذه الشهوات ، وكانت هذه الشهوات حِجابًا بينه وبين الله سبحانه وتعالى أصبحت هذه الشَّهوات وقرًا في أُذُنَيه ، وغِشاءً على عَيْنيه ، وإنَّ أحْكَمَ ما يكون أن تخرج هذه الشَّهوات إلى حيِّز التنفيذ ، فإذا رأيْتَ أنَّ ابنك تعلَّق بهذه اللُّعبة ، ولن يسمعَ منك كلمةً ، ولن يفتح كتابًا ، ولن يذهب إلى مدرسةٍ ، ما لم يُفَكِّك هذه اللعبة ، ويستمتع بها ؛ أنت كأبٍ مربٍّ ترى من الأنسب أن تُعْطِيَهُ سؤْلهُ لِتَشْفيه من هذه الشَّهْوَة ، فإذا شفِي منها عندئذٍ يُصْغي إليك ، فقد تقتضي حِكمة الله سبحانه وتعالى لإنسانٍ أصرَّ على المعصيَة ، وتشبَّث بها ، وجعلها كلّ همِّهِ ، أن يُعينهُ الله على تنفيذ هذه الشَّهوة ، في أثناء هذه المرحلة ؛ هذا الإنسان أصمّ أعمى لا يستجيب لِنَصيحة ، ولا يصغي إلى خير ، قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ)

(سورة هود)

2 ـ لا ينفع نصحٌ لمن تعلق بالدنيا وشهواتها :

أيْ إذا تعلَّقتُم بالدنيا ، واستحكَمَت الشَّهوات في نفوسكم إلى درجة أنَّها أصبَحَت غِشاءً على أعينكم ، ووقْرًا في آذانكم ، عندئذٍ نُصْحي لا ينفعكم ولا يُجدي ، ولن تتأثَّروا به ، ولن تستجيبوا له ، والله سبحانه وتعالى هو الذي يتولَّى مُعالجتكم بإخراج هذه الشهوات من نفوسكم ، فهذا الذي امتلأ قلبه من شهوات الدنيا الخسيسة ، ولْتَكُن الزنا مثلاً ، لن يستطيع أن يستمع إليك حتى تخرج هذه الشهوة من قلبه ونفسه ، يسوقهُ الله إلى زانيَةٍ مثله ، ثمّ يأتي العِقاب الأليم ، فيصاب بالإيدز ربّما يستفيد بعدها ؛ وإذا أخْرَجَ الإنسان شهوته التي أصرّ عليها ، ثمّ جاءهُ العِلاج الأليم ربّما تاب ، وربّما أصغى للحق ، وأحيانًا ترى شخصًا في عمى ، وشهوته صارَتْ حِجابًا ، ولا يعي خيراً ، ويرى ذاته مضخَّمة ، ولا يرى معها أحدًا ، هذا لا يُجديه النُّصح حتى تخرج هذه الشهوة الخسيسة من نفسه عندئذٍ يُصغي ، قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ)

(سورة هود)

3 ـ إنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ

بمعنى يُخْرِج هذه الشهوات التي امتلأتْ قلوبكم بها ، أحيانًا قد يتجمَّع قيْحٌ تحت الجلد ، ماذا يفعل الطبيب ؟ يضعُ مرْهمًا ، أو دواءً ليزيد هذا التجمّع تمهيدًا لِشَقّ الجلد ، وإخراج القيح كلّه ، وهذه العمليّة البسيطة مثلٌ بسيط لما يفعله الله في النفوس ، تمتلئ النفس شهواتٍ خسيسة ، ويصرّ عليها الإنسان ، ويتشبّث بها ، ويضعها حجابًا أمام عيْنيه ووقرًا في أذنيْه ، ولا يعي على خير ، ويسوق الله له الشيطان، ويزيّن له هذه الشهوة حتى تخرج منه فيَشْفى منها ، وكم من إنسانٍ تابَ بعدما أخرج ما في نفسِه من شهوات ، وكم من إنسان أناب بعد أنْ اسْتراحَتْ نفسُهُ مِن ثِقَل الشهوات التي يحملها ، قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ)

(سورة هود)

نصائح الطبيب الوقائيَّة بعد أن يقع المرض الخطير لا تُجدي ، الآن يُجديه أن يدخل إلى المستشفى .

إذا كان في بيتٍ من البيوت مُبيد زراعي ، وكان في متناوَل أيدي الأطفال ، وقد شَرِب بعض الأطفال هذا المُبيد ، وبدأ فِعْلُ هذا السمّ القاتل في الأحشاء ، في هذه اللحظة هل ينفع هذا النّصح ؟ وهل يُجدي العِتاب ؟ ماذا ينبغي أن نفعل ؟ يجب أن نأخذ هذا الطّفل إلى المستشفى ، ونُجْري له غسيل معِدَة ، هذا الكلام وهو النُّصْح ؛ متى يجب أن يكون ؟ قبل أن يشْرب هذا المبيد ، ولكن بعد الشّرب الكلام ، والعتاب والنّصح لا يجدي ، إلا أنّ قبله قد يجدي ؛ ضَعْ هذا المبيد في مكانٍ بعيد ، انْتبه لمكان وجوده ، وحين اسْتِعماله ، فهذا الذي امتلأتْ نفسُه شَهَواتٍ لا يُجدي معه إلا أن تخرج هذه الشهوات من قلبه ونفسه كَغسيل المعدة تمهيدًا لِتَوبتِهِ ، فقد ترى طالباً غافلا عن الدراسة والعلْم ، والنتائج والمستقبل ، وهو غارق في بعض الشهوات ، هذا لن يُعطيك أذنًا صاغِيَة إلا بعد ضربْةٍ قاسِيَة مِن قِبَل الله عز وجل، وكذلك منحرفٌ إذا أوْدى به انحِرافهُ إلى عُقوبةٍ بالغة عندئذٍ يُصغي إليك ، وهذا هو المعنى الدقيق لهذه الآية .

أما أن تظنّ أنّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يُغْوِيَ الإنسان من دون ذَنْبٍ ارْتَكَبهُ فهذا لا يليق بحَضرة الله سبحانه وتعالى ، ولا يتناسب مع أسمائه الحسنى ، والدليل قوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(5))

(سورة الصف)

لأنَّهم فاسقون زاغوا فأزاغ الله قلوبهم ، فهذه الآية تقترب من هذه الآية ، قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ)

(سورة هود)

هُوَ رَبُّكُمْ

1 ـ دِقَّة القرآن :

دِقَّة القرآن هو ربكم فإذا قلنا : شاءَت الأمّ أن تمْنَعَ ابنها طعامها اللذيذ فهي أمّه ، أقرب الناس إليه ، وأكثرهم عطفًا عليه ، وأكثرهم حنانًا ، وما من أحدٍ يحبّه كحبها فهي أمه ، فالتعقيب هنا : هو ربّكم ، ولم ينتبه بعض الناس إلى هذا التعقيب ، قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أنصحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ)

(سورة هود)

يعني هو الذي يرْعاكم ، هو الذي يُربِّيكم ، هو الذي يُربّي نفوسكم ، هو الذي يضيّق عليكم من أجل صلاحكم ، هو الذي يُذيقكم هذا العذاب من أجل ألا تقعوا في عذاب أكبر ، قال تعالى :

(هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة هود)

2 ـ إغواء رب العالمين تمهيد للشفاء :

كلمة ربّكم تكفي لإلقاء الضوء على كلّ هذه الآية ، لو فرضنا أنّ إنساناً صار معه الْتِهاب الزائدة ، ماذا يفعل أقرب الناس إليه ؟ وأشدّهم عطفًا عليه ؟ أكثرهم رحمةً به ؟ يأخذه إلى المستشفى الذي يستدعي طبيبًا ماهرًا لِفَتحِ بطنِهِ يُخدّره فَيُغْمى عليه ، ويفتح بطنه ويسيل الدم ، تؤخذ هذه الزائدة وتستأصَل ، وهذا ما يفعله الأب الرحيم ، والأم الحنون ، وهذا ما يفعلهُ الأخ ، فالإغواء مِن قِبَلِ الله تعالى هو الشّفاء فإخراج هذه الشهوات تمهيدًا للشّفاء ، ففي هذه المرحلة مرحلة إجراء العمليّة الجراحيّة لا ينفعُ النّصح ، قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أنصحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ)

(سورة هود)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (07-16): تفسير الآيات 35 – 49

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-02-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في قصة سيّدنا نوح عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى :

(وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة هود)

ثمّ يقول تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)

(سورة هود)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ

1 ـ التفاتٌ من قصة نوح إلى النبي عليه الصلاة والسلام :

هذا في أُصول التعبير اسمه الالتِفات ، وبينما نحن في نَشْوة قصّة سيّدنا نوح ، الله سبحانه وتعالى يلتفت إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، ويقول :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

(سورة هود)

2 ـ جريمة قريش في رميهم القرآن بالافتراء :

زعماء قريش وكفارها يتَّهمون النبي عليه الصلاة والسلام بأنّ هذا القرآن من عنده ، أو أنَّ قصّة نوحٍ مِن نسْجِ خَيالِهِ ، قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي)

(سورة هود)

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وصَفَ الافتراء على الله سبحانه وتعالى ، بأنَّه جريمة ، أن تفتري على الله هذه جريمة ، أن تقول على الله ما لا تعلم ، أن تقول على الله كذبًا ، وأن تقول : أُوحِيَ إليّ ،

ولم يُوحَ إليك ، أن تقول : رأيتُ في المنام كذا وكذا ، وتنسب ذلك كله لله ولرسوله وللدين ، وأن تقول : حدَّثني قلبي عن ربِّي !!

فأحبابنا اختاروا المحبّـة مذهبًا وما خالفوا عن مذهب الحبّ مذهباً

قيل للجُنَيْد : " من هو وليّ الله ؟ أهُوَ الذي يطير في الهواء ؟ أم الذي يمشي على وجه الماء ؟! فقال : الوليّ الذي تراه عند الحلال والحرام " ، فلو أنَّ إنسانًا قال : رأيت النبي عليه الصلاة والسلام في المنام، وقال لي كذا وكذا ، وهذا القول مخالف للشَّرْع ، يثبت الشَّرْع وتُرَدُّ الرؤيا ، ديننا لا يؤخذ عن المنامات ، الرؤيا يُسْتأنس بها ، أما أن يُبْنى عليها تَشريع فحاشا لله تعالى ، قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي)

(سورة هود)

3 ـ أساس الضلال الافتراء على الله :

فأهل الافتراء على الله سبحانه هم الذين ضلّوا وأضلّوا ، وأساس الضلال في الأرض أنَّ إنسانًا افترى على الله الكذب ، فمثلاً تجد أن فلاناً قال : رُفِعَتْ عنكم الصلاة فلا تصلوا ! وإنساناً آخر ألغى الصّيام ، وثالثًا ادَّعى النبوَّة ، فهذا الذي يفتري على الله الكذب وصفه الله سبحانه وتعالى بأنَّه مجرم ، فالحقّ حسب ما جاء في هذا الكتاب ، والباطل كل ما حاد عنه ، تركتم على بيضاء نقيّة ليلها كنهارها لا يزيع عنها إلا هالك ، وقال الإمام مالك : " ما جاءنا عن صاحب هذه القبّة الخضراء ـ يعني النبي عليه الصلاة والسلام ـ فعلى العَين والرأس ، وما جاءنا عن سواه فهم رجال ونحن رجال " ، وكلّ إنسان يؤخذ منه ويُردّ عليه إلا صاحب هذه القبّة الخضراء ، وما من إنسان أكبر من أن يُنْقَد ، وما من إنسان أصغر مِن أن يَنْقُد ، لذلك من افترى على الله الكذب فقد أجرم .

هذا الذي يُوجّه الآيات توجيهًا يتوافق مع هواه هو مُجْرِم ، وهذا الذي يقول لك : لا تأكل الربا أضعافًا مضاعفة ، أيْ أنَّ الله تعالى رخَّص في القليل منه ، ونهانا عن النسب العالية ، هذا مجرم ؛ لأنّه دفع الناس إلى أكل الربا ، وهذا الذي يقول : الخمر ليْسَت محرّمة ، وليس في القرآن آيةٌ تحرِّم الخمر ، إنما قال سبحانه وتعالى :

(فَاجْتَنِبُوهُ)

[سورة المائدة : من الآية 90]

هذا مجرم ، لأنَّه افترى على الله الكذب ، لأنه وجَّهَ الآية توجيهًا يتوافق مع الهوى ، قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي)

(سورة هود)

4 ـ المفتري على الله عليه إجرامه :

هذه جريمة ، فلو أنَّني افتريْتُ هذا القرآن من عندي ، أو لو أنني تأوَّلت القرآن بالكذب سوف أُحاسب عند الله بِجَريمة ، قال تعالى :

(وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)

(سورة هود)

وهذا الذي يكذّب بالحق ، ولا يعبأ به ، ولا يصدّقه ، ولا يأْتَمِرُ بما أمر الله ، ولا ينتهي عمَّا نهى عنه الله ، يستخفّ بالدِّين وبِقَواعِدِ الدِّين يأخذها على سبيل الهزل ، لا يعبأ بِمَن يعلّمه الحق ، هذا عند الله مجرم أيضًا ، فأنْ تفتري على الله جريمة ، وأن تردّ الحقّ جريمة ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(24))

(سورة الأنفال)

قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)

(سورة هود)

أنا مُبرَّأٌ مِن مواقفكم ومِن خِذلانكم ، ومن تكذيبكم ، ومن ردِّكم للحق ، ومِن سعْيكم لإطفاء نور الله ، أنا بريء من هذه الجريمة ؛ جريمة التَّكذيب ، وبريء من جريمة الافتراء على الله سبحانه وتعالى .

5 ـ هذه الآية من حيث خصوص سياقها وعمومه :

بعض المفسِّرين قال : هذه الآية تتعلّق بسيِّدنا نوح ، مراعاةً للسِّياق العام ، وبعضهم قال : هذا التفات من الله سبحانه وتعالى للنبي عليه الصلاة والسلام لِتَسْلِيَتِهِ والتخفيف عنه حينما شعرَ بالضِّيق مِن جرَّاء تكذيب قومه له ، فالآية هذه تُحْملُ على مَحْمَلَيْن ، والقرآن الكريم كما قال الإمام عليّ كرّم الله وجهه حَمَّالُ أوْجُه ، قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

(سورة هود)

أي يقول كفار قوم : نوح إنّ هذا النُّصح الذي نصحهم إياه افتراه على الله ، وهو من عنده ، قُلْ لهم يا نوحُ : إن افتَرَيْتُهُ فعليَّ إجرامي ، والأقرب إلى النصّ اللّغوي أن تكون هذه الآية التفاتٌ كريم من الله سبحانه وتعالى إلى النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام مسلّيًا إياه ، ومُخَفِّفًا عنه ، ومثبِّتًا لِعَزيمته ،

يُذكّرُهُ بأنّ هؤلاء الذين يتَّهمونه بالكذب إنَّما هم مجرمون في حقه ، وأنَّه بريءٌ من هذه الجريمة.
قال تعالى :

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

1 ـ طُرقُ هدايةِ الله لخَلقه :

الحقيقة أنّ الله سبحانه وتعالى يستخدم كلّ الطُّرُق للهداية الحق ، طريقة بثّ الآيات في الأرض ، هذه طريقة ، وطريقة بثّ الآيات في السماء ، وبثّ الآيات في الطعام والشراب ، وبثّ الآيات في النبات ، وبثّ الآيات في الحيوان ، وبثّ الآيات في ظواهر الكون ، وظواهر الأرض ، هذه طريقة مثلى ، وهي أولى الطرق .

طريقة ثانية : إرسال الأنبياء ، وإنزال الكتب .

وهناك طريقة ثالثة هي : تسخير الناس ليعِظَ بعضهم بعضًا .

وطريقة رابعة ؛ المصائب والهموم والأحزان ، والشدّة والفقر والمرض .

إنّ كلّ هذه الطُّرُق استخدمها الله سبحانه وتعالى لِيَلفِتَ هذا الإنسان إليه ، ومع كلّ هذه الطّرق يبقى الإنسان كافرًا جاحدًا ، ومُدْبِرًا معْرِضًا ، أي أن الله سبحانه وتعالى يستنفذ كلّ الوسائل لهداية الإنسان ، فإذا لم تُجدِ معه كلّ هذه الوسائل أهلكه الله سبحانه وتعالى .

2 ـ استنباط من الآية : الله لا يهلك إنسانا فيه بقيةُ خيرٍ :

يُسْتَنبَطُ من هذه الآية أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُهْلك إنسانًا فيه ذرَّة خير ، وما دام في هذا الإنسان ذرَّة من خير فإنَّ الله يمدّ بأجله ، ويمهلهُ ، ويُعطيهِ فرصةً كي يتوب مما اقترفت يداه ، وينيب إلى الله سبحانه وتعالى ، والآيات الأولى في سورة البقرة تؤكّد هذا المعنى ، وهو أنَّ من المنافقين كما قال تعالى :

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ(17))

(سورة البقرة)

فإلى أن تصبح الدنيا لديه في أبهى زينة ، وإلى أن يمتلك من المال ما شاء ، ومن الجاه ما شاء ، ومن وسائل الدنيا ما شاء ، وإلى أن ينغمس في الملذات ما شاء يقبض الله روحه فجأةً ، قال تعالى :

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ(17))

(سورة البقرة)

هذه الدنيا العريضة ، وهذا المال الوفير ، وهذا البيت الفخم ، وهذه المكانة الرفيعة ، وهذه الأدوات الحديثة ، هذه الحفلات ، وهذه السهرات وهذه النزهات وهذه الرّحلات ، هذا العزّ ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بِنُورهم ، أي أهلكهم ، قال تعالى :

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

(سورة القصص)

فهذا نوعٌ من أنواع المنافقين يَقْصِمُهم الله سبحانه وتعالى قصماً ، ويهلكهم ، لأنَّه لا خير فيهم ، قال تعالى :

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ(19))

(سورة البقرة)

وهناك صِنفٌ آخر من المنافقين إذا لاحَتْ لهم الجنَّة ، وإذا قرؤوا في القرآن وصفَ الجنَّة اشتاقتْ نفوسهم للجنة ، ثم نكسوا على رؤوسهم قال تعالى :

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(20))

(سورة البقرة)

إذا كلَّفتهم بِغَضّ البصر ، وإذا كلفتهم بتحرير الدَّخل ، وإذا كلَّفتهم بِعَدم الاختلاط أبوا ، وركبوا مطايا الهوى ، أما إذا جاء الشرع موافقًا لِشَهواتهم ، يقول لك : الزواج سنَّة !! أو ليس غضّ البصر كذلك من السنَّة ؟! إنها نزوة الهوى ، إذاً قال تعالى :

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ)

(سورة البقرة)

لكنّه لم يذهب لا بِسَمعهم ولا بأبصارهم ، لماذا ؟ لأنَّ فيهم بقيَّة خير ، ما دام البرق قد أضاء لهم فمشَوا فيه ، فهذا يعني أنَّ فيهم بارقة أمل ، واستنبط علماء التفسير من هذه الآية أنَّ الإنسان أيّ إنسان ما دام فيه بارقة أمل فلن يهلكه الله سبحانه وتعالى ، قال عليه الصلاة والسلام :

((وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ))

[مسلم]

فالطالب متى يفصل من المدرسة ؟ إذا نال في كلّ المواد صفرًا، ولا أمل فيه ، أما إذا كانت مادّة أو مادَّتَان أو ثلاث فيوضع خطّ أحمر تحت هذه المادة ، ويُستَدعى الوليّ ، ويؤخذ عليه تعهّد ، ويضيّق على الطالب ، ما دام هناك أمَل ، وهناك عمل ، فإذا ذهب الأمل حقّ الهلاك ، والذي أريد أن أُثبِّتهُ في أذهانكم أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُهْلكُ إنسانًا فيه بقيَّة خير ، إذًا معنى قوله تعالى :

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

الله خبير عليم ، خبير بِنُفوس عباده ، حينما استنفذ الله سبحانه وتعالى كلّ الوسائل ، وحينما حكم عليهم بِعَدم الإيمان قرَّر إهْلاكهم ، قال تعالى :

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

3 ـ أمرُ الله نوحًا بعد الحزن على قومه الضالين :

أيْ لا تَحزَن من تكذيبهم إيّاك فهؤلاء ليس في قلوبهم ذرَّة خير ، وليس في أدْمغتهم ذرّة من عقل ، لا عقل ولا خير ، قال تعالى :

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

معنى آخر لقوله : فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

وهناك تفسير آخر لهذه الآية : أنّني إذا أهلكتهم فلا تبتئِس عليهم لأنَّني أهلكهم باسْتِحقاق ، قال تعالى :

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ(42))

(سورة الأنفال)

إنما أهلكهم بعدما استَحكم الكفر في قلوبهم ، وبعد أن سَدُّوا آذانهم ، ووضَعوا على أعينهم غِشاوَةً ، وصرفوا أنفسهم عن الحق فاستَحَقوا الهلاك ، قال تعالى :

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

تروي القصص أنّ نفرًا لا يزيد على سبعين رجلاً من قومه آمنوا به ، وهم من ضِعاف القوم ، من الفقراء ، من أصحاب الحِرَف ذات المستوى الأدنى ، قال تعالى :

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

عليك أن تدْعُوَ إلى الله ، ولكن ليس عليك هُداهم ، ولكنّ الله يهدي من يشاء ، قال تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56))

(سورة القصص)

لا يهتدي المهتدي بِتَعَلّق إرادتك بِهُداه ولكنّ المهتدي يهْتدي إذا أراد هو الهُدَى قال تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56))

(سورة القصص)

آية في القرآن تؤكّد هذا المعنى ، قال تعالى :

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(88))

(سورة الأنعام)

من يشاء من العباد الهدى يهتدي ، قال تعالى :

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

لا تبتئس يا نوح بِتَكْذيبهم ، ولا تبتئس يا نوح بِمُعارضتهم ، ولا تبتئس يا نوح بِسُخريتِهم ، إنهم جاهلون ، إنهم فاقدو الوعي ، وفاقدو الإدراك ، وإنّهم صمّموا البقاء على الكفر ، وإنَّهم اختاروا الكفر ، إنَّهم انْغَمسوا في الشهوات .

قال تعالى :

(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ)

(سورة هود)

أعطاه الله سبحانه وتعالى أمْرًا أوَّليًّا ، قال تعالى :

(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة هود)

وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا

1 ـ حفظُ الله لنوح عليه السلام :

جمْعُ العين هنا جمع تعظيم لا جمع تكثير ، قال تعالى :

(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة هود)

أيْ أنت يا نوح بِعَين الله عَيْنُ الله تحرسك ، وعين الله تدفع عنك أعداءك ، وعين الله تحفظك ، وعين الله تكلؤك .

2 ـ لكلّ مؤمن من هذه الآية نصيب :

وأنا أقول : إن لكلّ مؤمن من هذه الآية نصيب ، قال تعالى :

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

المؤمن له من هذه الآية نصيب ، أنت في حفظ الله ، " يا عبدي ، أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال: يا ربّ أنفقته على كلّ محتاج ومسكين لِثقتي بأنَّك خير حافظًا ، وأنت أرحم الراحمين ، قال : يا عبدي، أنا الحافظ لأولادك من بعدك " ، فإذا كنت في عين الله فَنَمْ مُطمئنًا :

وإذا العناية لاحظتك جفونها نَمْ فالمخاوف كلهنّ أمان

ما مِن إحساس يفوق إحساس المؤمن بالأمن ، كيف لا ؟ والله سبحانه وتعالى الذي بيَدِهِ ملكوت كلّ شيء راضٍ عنك ، لذلك(رضي الله عنه) مرتبة لو يعلم الناس ما فيها من عز واطمئنان ، إنَّها أعلى مرتبة في الوجود ، أن يكون الله راضيًا عنك :

فليتك تحلْو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غِضاب

ليتك ترضى عنِّي يا رب ، والأنام غِضاب ، قال تعالى :

(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة هود)

ينادى له في الكون أنا نحبّه فيسمع من في الكون أمر محبّه

3 ـ حفظُ الله للأنبياء :

سيّدنا موسى قال الله في حقه :

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي(41)اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي(42)اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(44))

(سورة طه)

سيّدنا إبراهيم ألقوه في الجحيم ، فقال تعالى :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

(سورة الأنبياء)

سيّدنا موسى تبعه فرعون وجنوده ، والبحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من ورائهم ، قال تعالى :

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ(62))

(سورة الشعراء)

فانفلق البحر ، وصار طريقا يبساً ، سيّدنا يونس دخل في بطن الحوت في ظلمات ثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ! قال تعالى :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان في غار ثور مع صاحبه أبي بكر ، فعَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ :

((لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

فقال : ألم تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(198))

(سورة الأعراف)

ولكل مؤمن من هذه الآيات نصيب ، إن كنت صادقًا في محبّة الله ، وفي طاعتك لله ، وإن كان عملك طيِّبًا ، ولسانك رطبًا بذكر الله ، ومخلصًا لله عز وجل فلا بدّ من أن يكون لك من كلّ هذه الآيات نصيب، ولو استْمعتَ إلى مؤمن يروي لك كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى يُنَجِّيه ، قال تعالى :

(قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ(64))

(سورة الأنعام)

ما من مؤمن كريم إلا ويعرف مئات القصص ، كيف أنّ الله نجاه من عدوِّه ؟ وكيف وفَّقه ؟ وكيف نصره وحفظه وسدَّده ؟ وكيف أكرمه ؟ هذه قِصص وقعت ، وسوف تقع مع العباد في أثناء حياتهم

وأمثالها يقع ، قال تعالى :

(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة هود)

4 ـ معنى : بِأَعْيُنِنَا

أي بحِراستنا ، وبحفظنا ولطفنا ، فمثلاً : أن الأم إذا كان ابنها يلعب أمامها فإنها ترقبه ، وتحرسه ، وتخاف عليه ، فنقول : إنّ هذا الطفل بِعَين أُمِّه ، فكلّ حركاته وسكناته تحت رقابة ِعَيني أُمّه ، قال تعالى :

(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)

(سورة هود)

5 ـ معنى : وَوَحْيِنَا

الوحي هنا الإرشاد ، أي أن الله سبحانه وتعالى تولى إرشاد سيّدنا نوح لِصُنع السفينة كيف يصنعها ؟ وكيف يُصممِّها ؟ وكيف يصنع بالأخشاب ؟ وكيف يصنعُ هيكلها ، قال تعالى:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة هود)

وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ

1 ـ آخرُ العلاج الكيُّ :

لمْ أرَ مثالاً أقرب لفهم هذه الآية من أنّ أحد الناس له ابن ، وأصابه مرضٌ الموات (الغرغرين)، وبدأ ينتشر في قدميه ، فسارع إلى الطبيب فقال له : لا بدّ من قطعهما ، وليس لك أن تعترض ، فمهما توسّل هذا الأب لهذا الطبيب فلا جدوى ، إذ لَيْسَت القضيّة قضيّة توسّل ، ولكنّ القضيّة قضيّة عِلم ، إنّ هذا المرض سريع الانتشار ، ولا بدّ مِن بتْر العضو ، قال تعالى :

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة هود)

أي أنَّ الله سبحانه وتعالى قرَّر إهلاكهم بعد أن استْنفد كلّ السُّبُل ، وبعد أن حكم عليهم بأنهم لا يهتدون، وبعد أن عرف من طويَّتهم أنَّهم لا يستجيبون ، إذًا : هلاكهم لا محيد عنه ، قال تعالى :

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة هود)

إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له ، ليس معنى لا مردَّ له أي أنّ الله تعالى لا يعْفو ؛ لا ، ليس من هذا القبيل ، ولكن لأنَّ هذا المرض الذي فشا فيهم لا بدّ من معالجته ، وبتْر هذا العضو ، فلو كان الطبيب مختصّ بهذا المرض ، وابنه فلذة كبده أُصيب بهذا المرض الموات ، لا بدّ من أن يقرّر الأب الطبيب قطع هذه اليد ؛ لكيلا يسري هذا المرض في بقيّة الأعضاء ، فالله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ، لا بدّ من ساعة يُحاسب فيها الإنسان ، ولا بدّ من ساعة يدفع ثمن المعاصي باهظة ، قال تعالى :

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ)

(سورة هود)

حكاية الله لصناعة نوحٍ للسفينة :

1 ـ حكاية حال نوح مع السفينة على اليابسة :

نقلَنا الله سبحانه وتعالى إلى صورة أمام أعيُنِنا عن طريق الفعل المضارع ، ويصنع الفلك ، أي بدأ نوح بصِناعة الفلك ، قال تعالى :

(وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ)

(سورة هود)

يعني بِحَسب معطياتهم أنّ هذه السفينة تصنع على اليابسة ، لو أنّ إنسانًا في تدمر أراد صُنْع سفينة ماذا تفعل السفينة هناك ؟ فلا بحر ولا نهر هناك ! بِحَسب معطياتهم وتفكيرهم ، قال تعالى :

(وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ)

(سورة هود)

2 ـ استهزاء قوم نوح به :

يا نوح أأصْبحت نجارًا بعد أن كنتَ نبيًّا ؟ أتخَلَّيْت عن النبوَّة ؟ أسْتبْدلْتَ بها هذه الصَّنعة ، قال تعالى :

(وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

(سورة هود)

3 ـ الفائزُ مَن يضحك في الأخير :

من هو البطل ؟ الذي يسخر في آخر الأمر ، وليس في أوّله ، من الذي يسخر في النهاية ؟ قال تعالى :

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(108)إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(110))

(سورة المؤمنون)

وفي آية أخرى قال تعالى :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

فالبطولة أن تضحك بعد أن كشفت الحقيقة ، وظهر الحق جلياً من الذين ضحكوا منك باطلاً وعماية ، قال تعالى :

(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(82))

(سورة التوبة)

4 ـ في هذه الآية تسلية للمؤمن :

أما المؤمن فيبكي قليلاً ليضحك كثيرًا ، فسيّدنا نوح نبيّ كريم سَخِروا منه ، ولك به أسوةٌ حسنة ، لو أنّك امتنَعْتَ عن مُصافحة امرأةٍ ، وسَخِر منك أصدقاؤك فلا تبتئس أبداً ، ولك بهذا النبي الكريم أسوة حسنة ، ولو أنّك امتنعت عن أكل الربا ، وسخر منك أصدقاؤك فلك بهذا النبي الكريم أسوة حسنة ، لو أنّك امتنعت عن رحلة مختلطة ممتعة على حدّ قول أهل الدنيا ، وسخر أصحابك منك ، فلك بهذا النبي الكريم أسوة حسنة ، لو أنّك رفضْت أن تبيع دينًا بسِعْرٍ مرتفع ورَعاً وخوفًا مِن الله عز وجل ، وسخر منك كلّ من في السوق ، وقالوا لك : هذا هو العُرْف التِّجاري ، إذا سخروا منك فأنت الرابح الأكبر ، قال تعالى :

(قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

(سورة هود)

في الجامع الصغير حديث صحيح إذا فُهم على ظاهره يوقع في حَيْرة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((اطّلعت على أهل الجنّة فرأيت عامة أهلها من البُله))

[الجامع الصغير عن أنس ، وسنده ضعيف]

البُله هم الأغبياءّ ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((المؤمن كيّس حذر فطِن))

[الجامع الصغير عن أنس ، وهو موضوع]

وما اتَّخذ الله وليًّا جاهلاً لو اتَّخذه لعلَّمه ، فكيف يكون أهل الجنّة من البُلْه ؟! بعض علماء الحديث وجَّه هذا الحديث توجيهًا رقيقًا لطيفًا ، قال : إنّ هذا المؤمن في نظر أهل الدنيا أبله ! يعني أن يمتنعُ عن وضع ماله ليأخذ عليه فائدةً كبرى ، يقال لك : هذا المليون فائدته مائتا ألف ! امْتَنَعْتَ أنت عن قبض هذا المبلغ ورعًا ؟ إنك أبله في نظرهم ، هذا العمل يجلب لك مئات الألوف ، لأنه في مكان حسّاس ، يدخل إلى جيبك كل يوم مائة ألف ليرة إذا تساهلتَ ، تشتري البيوت والسيارات ، وتعيش حياة البذخ ، هذا الذي امتنع عن أكل المال الحرام في نظر أهل الدنيا أبله ، عُرِض على شخص أن يذهب إلى بلد فاسد ، و يقيم في هذا البلد أسبوعين يتعرّف على معالمها السياحية ، لكنه يخشى على دينه وعلى نفسه الموصولة بالله ، فيمتنع عن الذهاب يُقال عنه : إنه أبله ، والحقيقة أنهم هم البُله ، وهو العاقل فيهم ! قال تعالى :

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ(80)فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ(81))

(سورة القصص)

وقال تعالى :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83))

(سورة القصص)

ألا يا رُبَّ نفس في الدنيا طاعمة ناعمة جائعةٌ عاريةٌ يوم القيامة ، ألا يا رُبَّ نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة ، ألا يا رُبَّ مكرم لنفسه وهو لها مُهين ، ألا يا رُبَّ مُهين لنفسه وهو لها مكرم ، قال تعالى :

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

(سورة هود)

بعضُ العلماء في أوربا اكتشف كروية الأرض ، و لكنَّ قومه آذَوْه ، وسخروا منه وقد عُرِضتْ هذه المسرحية حديثًا في بعض المدن الأوربية ، فالمشاهدون يسخرون اليوم ممَّن يسخرون من هذا الإنسان بالأمس ، سخرية مزدوجة ، فإن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، و لا بدَّ من أن نسخر منكم في وقت ما ، قال تعالى :

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

(سورة هود)

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ

1 ـ المستهزئ المنحرف ينتظره عذاب دنيوي يخزيه وأخروي مقيم :

يعني : هذا العاصي هذا المنحرف ، وهذا الفاسق ، وهذا الكافر ، وهذا الماجن ، وهذا المكذِّب ، و هذا المنافق لا بدَّ من أن يأتيه عذابٌ يخزيه في الدنيا ، و لا بدَّ من أن يُكشَف عن حقيقته ، ولا بدَّ من أن يُفتَضح أمرُه ، ولا بدَّ من أن يهبط من حيث المكانةُ الاجتماعية ، قال تعالى :

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

(سورة هود)

لا بدَّ من أن يصبح حديث الناس ، حديث القوم ، لا بدَّ من أن يصبح حديثا بعد أن كان شخصا ، قال تعالى :

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

(سورة هود)

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

1 ـ صدور الأمر الإلهي بالإهلاك :

ويحل عليه في الآخرة عذاب مقيم ، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة هود)

القرار صدر بإهلاكهم ، وله أجلٌ زمني لتنفيذه ، فقد يصدر القاضي حكما بالإعدام على هذا المجرم ، ويتأخر موعد تنفيذه ، لقد أُصدِرَ الحكم على قوم نوح ، و صُدِّق الحكم ، وبقيَ تنفيذ الحكم ، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَفَارَ التَّنُّورُ)

(سورة هود)

2 ـ وَفَارَ التَّنُّورُ

والتنور من معانيها وجه الأرض ، أي فارت الأرض بالينابيع ، ومن معانيها أنَّ تنورا في بيت سيدنا نوح جُعِل علامة لبدء الطوفان ، يفور الماء من وسطه ، أو أن فار التنور : كناية ككناية "حمِيَ الوطيس" ، يعني اشتدَّ الأمر ، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)

(سورة هود)

3 ـ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

القراءة هكذا "من كلٍّ زوجين اثنين " لم يقل الله سبحانه و تعالى : " من كلِّ زوجين ، ولو أن الله سبحانه و تعالى قال : من كلِّ زوجين" أي من كلِّ مخلوق زوجين ، لما اتَّسعتْ هذه السفينة لكل مخلوقات الله في الأرض ، لكن من كلٍّ ، سوف تحتاج إلى غنمة واحدة وفحلها وشاة ، واحدة وفحلها ، و بقرة واحدة وفحلها ، وهي الحيوانات التي يحتاجها الإنسانُ لقوام حياته ، قال تعالى :

(احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ)

(سورة هود)

4 ـ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ

أي زوجتك وابنك ، قال تعالى :

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10))

(سورة التحريم)

قال تعالى :

(احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة هود)

طبعا زوجين أي مثنى ، إذا قلت : أخذتُ زوجين من الأقلام ، يعني قلمين ، لأن كل واحد يُسمَّى زوجًا، ولكنَّ الزوج هو الشيء الذي لا يستغني عن قرينه ، قال أحدهم : بكم ثمن هذا الحذاء ، فقال البائع : بأربعين ، فقال : الزوجين معًا ، هذه الأولى يُستغنَى بها عن الثانية ، أتكفي ؟ لا تكفي ، فمعنى زوج هو الشيء الذي لا يُستغنَى عن قرينه ، لكن الزوج تعني واحدًا ، الواحد يتكامل مع الزوج الآخر، قال تعالى :

(احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ)

(سورة هود)

يعني امرأته وابنه هما اللذان سبق عليهما القول فلا يؤمنان ، قال تعالى :

(وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة هود)

5 ـ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ

يعني احمل فيها من كل زوجين ، و أهلك ، و من آمن بك ، قال تعالى :

(وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة هود)

يعني أنت ومعك الأقلّية المؤمنة ، قال تعالى :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(116))

(سورة الأنعام)

و قال تعالى :

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

(سورة يونس)

قال تعالى :

(وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا)

(سورة هود)

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا

للكلمتين قراءات عديدة ، على كلٍّ ، قال تعالى :

(بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة هود)

1 ـ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا

المجرى مكان الجري ، والمرسى مكان الإرساء ، فإما أن تعني هذه مكان بدء الرحلة ، ومكان استقرارها ، أو زمان بدئها ، و زمان استقرارها ، والمَجرى اسم زمان ، أو اسم مكان على وزن مفعَل، المَجرى اسم مكان أو اسم زمان من فعل ثلاثي ، جرى مَجرى ، أما أجرى يُجري مُجرَى ، أما رسا ، يرسو مَرسى ، و أرسى يُرسي مُرسى ، فاسم المكان الرباعي على وزن مُفعَل بضم الميم ، قال تعالى :

(بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة هود)

2 ـ بِاسْمِ اللَّهِ

قال بعضهم ، أي إذا قلتَ : باسم الله مَجراها ، يعني أُجريها باسم الله ، أي تجري بأمر الله ، أي بشرع الله ، إذا ركب الواحد سيارته ليذهب إلى نزهة فيها معصية ، لا يسمي ، لأن هذه التسمية خلاف هذه المعصية ، إذا ركبتَ السيارة لتنطلق منها إلى عملك فقل : بسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا ركبت السيارة لتخدم بها إنسانا فقل : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال تعالى :

(بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة هود)

و معنى باسم الله ، أي أنا أفعل هذا الشيء مرضاةً لله ، و بأمر الله ، ووفق شرع الله ، و مخلصا لله ، هذا هو معنى باسم الله ، قال تعالى :

(بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة هود)

3 ـ مِن آداب السفر وركوب الدابة :

فالإنسان إذا ركب دابة أو سيارة أو طائرة يقول كما علّمنا الله تعالى :

(سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13)وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ(14))

(سورة الزخرف)

إن الإنسان يسافر أحيانا ، و لكن هناك سفر بعيد ، و سفر قريب ، السفر الذي يعود منه سفر قريب ، و هناك سفرةٌ واحدة يذهب و لا يعود ، و هذا هو السفر البعيد ، فإذا رأيت جنازة فاعلم بأن بداخل النعش مسافراً سفراً بعيداً غادر البيت ، و لن يعود .

كلُّ ابن أنثى و إن طالتْ سلامتُه   يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملتَ إلى القبور جنازةً   فاعلم بأنك بعدها محمول

قال تعالى :

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ)

(سورة هود)

مشاهد عظيمة من قصة نوح :

1 - وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ

هذه الآية لا يتذوَّقها إلا من ركب البحر ، و هاج به البحرُ ، و رأى كلَّ موجة كالجبل و كاد قلبه يقف من شدَّة الخوف قال تعالى :

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ)

(سورة هود)

ربُّنا يقول : كالجبال ، المتكلِّم هو الله سبحانه و تعالى ، قال تعالى :

(وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ)

(سورة هود)

2 - نداء نوح ابنه ليركب معه :

أي في معزل عنه قال تعالى :

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا)

(سورة هود)

اركب و اخْز الشيطان ، دعْ ضلالتك ودع كفرك ، واركب معنا وانجُ ، ولا تكن مع الكافرين ، قال تعالى :

(قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ)

(سورة هود)

3 ـ اعتراض ابن نوح على كلام أبيه :

وهذه قصّة الناس اليوم ؛ فهذا يستغني بماله عن الله ، فيأتيه الله من حيث لا يحتسب ، ويأتيه مرض لا ينفعُ معه المال ، كنتُ عند بعض الأطباء ، وقد جاءتْهُ مخابرة سمِعْتُ الطبيب يقول : لا جدوى ، وبعد أن وضعَ السماعة مكانها قال لي : إنّ مريضهم مُصاب بمَرض خبيث ، وعرضوا عليّ أن نأخذه إلى أيّ مكانٍ في العالم ، وأن يدفعوا لمعالجته من المال مهما بلغ بالملايين ، فقلتُ لهم : لا جدوى ! أحدهم فتح دار سينما ، وكسب منها المال الوفير ، وجمّع ، ثمّ جلس على فراشه يبكي ، دخل عليه ابن أخته ، وكان طالبًا عندي ، قال له : يا خالي ما لك تبكي ؟! وكان معه مرضٌ خبيث ، فقال : جمعت المال كلّه كي أعيش سنوات في هناءةٍ ويُسْرٍ ، ولكنّ هذا المال لن ينفعني بعد أن أُصِبْتُ بهذا المرض ، قال تعالى:

(قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ)

(سورة هود)

4 ـ جواب نوح ابنَه : قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ

واستنبط العلماء أنّه لا يجوز أن يُعذَّب الابن أمام أبيه ، ولو كان مستحقًّا هذا العذاب ، رحمة من الله أهلكه بعيداً عن عين أبيه ، وجعل موجة تحول بين نوحٍ عليه السلام وبين ابنه ، قال تعالى :

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ)

(سورة هود)

5 ـ مصير ابن نوح : وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ

هذه نهاية الكافرين ، يا عتبة بن رْبيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا أُميَّة بن خلف أوَجَدْتُم ما وعَدَ ربّكم حقًّا ؟! فإنّي وجدتُ ما وعدني ربِّي حقًّا ، قالوا : يا رسول الله ، أتُخاطب قومًا جيَّفوا ؟! فقال : ما أنتم بِأسمَعَ لي منهم ولكنَّهم لا يُجيبونني ، قال تعالى :

(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)

(سورة هود)

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ

كناية لطيفة ، استقرَّت سفينة نوح على جبل في منطقة الموصِل من أرض العراق يُقال له الجودي قال تعالى :

(وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة هود)

هذه نهاية الكفر ، هلاكٌ مُدمِّر ، وانتهى الأمر ، قال تعالى :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83))

(سورة القصص)

قال تعالى :

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)

(سورة هود)

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ

1 ـ قرابة النسبِ بلا إيمان لا فائدة منها :

بمعنى أنَّ أهلَكَ مَن آمنوا بك ، فالذين لم يؤمنوا بك ليْسُوا من أهلك ، بل القرابةُ قرابةُ دين ، وقرابة عقيدة ، لا قرابة نسب ، بل قرابة النسب لا قيمة لها ، قال تعالى :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2)سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ(3)وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(4)فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ(5))

(سورة المسد)

مع أنَّه عمّ النبي صلى الله عليه وسلّم ، وسلمان مِنَّا آل البيت ، ونعم العبد صهيب إنه يخاف الله فلم يعصهِ ، الحِبّ ابن الحِبّ أسامة بن زيْد ، ففي الإسلام النسَبُ هو نسَبُ الإيمان ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، قال تعالى :

(قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة هود)

2 ـ عتاب الله لنوح حين سأله عن ابنه :

لو أنَّك رجَوْتني في ابنك الذي مات كافرًا لكنت من الجاهلين ، قال تعالى :

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ(67))

(سورة الزخرف)

تقعُ عَيْنُ الأمّ على ابنها يوم القيامة فتقول له : يا بنيّ ، جعلتُ لك صدري سقاءً وبطني وِعاءً ، وحجْري وِطاءً ، فهل من حسنة يعود عليّ خيرها اليوم ؟ يقول لها : ليتني أستطيعُ ذلك يا أمَّاه ، إنَّما أشْكو مِمَّا أنتِ منه تَشْكين !! قال تعالى :

(إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ(46)قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ(47)قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة هود)

وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ

أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهم ، يقول لك يا أخي : بلاد كالجنَّة ؛ الطرقات والحدائق ، وتحت الأرض مواصلات ، والأبنية الشاهقة والدَّخْل مرتفِعٌ جدًّا ، وكل شيء متوفر ، والعيش رغيد ، قال تعالى :

(وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة هود)

أي هناك أُمَم يمَتِّعُهم الله تعالى في الدنيا ؛ بلاد خضراء ، وأمطار غزيرة ، وفِسْق لا حدود له ، والزنا يرتكب على قارعة الطريق ، ليس هناك شيء عندهم حرام ، والدنيا واسعة عطاؤها عريض ، قال تعالى :

(وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة هود)

في هذه الآية كفاية من قصصٍ وأبناء ، وفي الآية الأخيرة عزاءٌ أيُّما عزاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة هود)

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا

1 ـ قصص الأنبياء تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام :

ومن ثم جاءت هذه الآية مطمئنة مع التَّسلية والسلوان لمحمد عليه الصلاة والسلام ، والنبي عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى :

(فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة هود)

2 ـ خلاصة قصة نوح : فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ

والله الذي لا إله إلا هو ، لو لم يكن في هذه القصّة إلا هذه الكلمات فاصبر ! ربٌّ كريم يقول لك : فاصْبِر إنّ العاقبة للمتقين ، وأنت أيها الأخ الكريم ، اصبر على بعدك عن المعصيَة ، واصبر على الطاعة ، واصبر على تربية الله لك ، أن العاقبة للمتقين يا رسول الله اُدْعُ الله أن يرحمني ، فقال : يا ربّ ارْحَمْهُ فقال : كيف أرحمه مِمَّا ألمَّ به ؟ وعِزَّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أُحبّ أنْ أرحمهُ إلا ابْتَلَيْتُهُ بِكُلّ سيّئة كان عملها ، سُقْمًا في جسدِه ، أو إقتارًا في رِزْقِهِ ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذرّ فإذا بقي عليه شيءٌ شَدَّدْتُ عليه سَكَرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدتْهُ أمّه ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ! إن لم يكن لك أولاد ذكور ؛ اصْبِر ، عقيم ؛ اصْبِر ، دخلك محدود ؛ اصْبِر ، عملك شاقّ ؛ اصْبِر ، زوجة مُشاكسة ؛ اصْبِر ، بيتك صغير ؛ اصْبِر ، مرض طفيف أو مرض كبير ؛ اصْبِر ، قال تعالى :

(فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة هود)

والصَّبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان ، فاصبر إن العاقبة للمتقين .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (08-16): تفسير الآيات 50 – 60 ، قصة عاد وأخيهم هود - التوحيد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-03-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أيها الإخوة المؤمنون ، درسنا اليوم قصّة عاد وأخيهم هود ، وقبل أن أمضي في توضيح فقرات القصّة أودّ أن أذكر لكم :

الإنسان بين حرية الاختيار وتوجيه الله له :

إنّ الله سبحانه وتعالى مع أنَّه أعطى الإنسان قضيّة الاختيار ، ومع أنه خلق الكون ليعرِّفه بذاته من خلال خلقه ، و مع أنه أنزل الكتب السماوية ، وأرسل الرسل والأنبياء ، إلا أن اللهُ سبحانه وتعالى لو رأى أن إنسانا اختار اختيارا غير صحيح لأدَّبه وعالجه لأنه ربُّه .

وتوضيح هذه الفكرة بالمثال التالي : أحيانا هناك جامعة تطبع الكتب ، ويلقي المدرِّسون المحاضرات ، ولا تحاسب الطلاب إلا في الامتحان الأخير ، هناك طلابٌ يهملون ، ويضيِّعون أوقاتهم ، ولا يدركون مغبَّة إهمالهم ، هؤلاء في نهاية العام يرسبون ، وهناك جامعات تجري كلَّ أسبوع مذاكرات ، وتحاسب الطلاب على غياب درس أو درسين ، ودائما تتابع مراقبة الطلاب ، وتقويم أعمالهم ، وأغلب الظن أن نسبة النجاح في مثل هذه الجامعات مرتفعة جدًّا ، إذا غاب عن حصَّة مرةً أو مرتين أو ثلاثاً يفصل ، و كلُّ أسبوع هناك مذاكرة ، وتقيَّم علاماته ، ويُخبَر بعلاماته ، ويُوجَّه له إنذار ، وربُّنا عز وجل أعطانا حرِّية الاختيار ، ولو أنه تركنا وشأننا ، ومن دون تربية ، ومن دون معالجة ، ومن دون متابعة ، ومن دون محاسبة لهلك معظم الناس ، ولكن الله سبحانه وتعالى مع أنه أعطانا حرية الاختيار ، ومع أنه وهبنا هذا العقل والتفكير ، ومع أنه أنزل الكتب السماوية ، ومع أنه أرسل الرسل فإنه لم يدعنا وشأننا ، بل يربِّينا ، والتربية على نوعين ؛ تربية جسمية ، أن يمدَّنا بكل ما نحتاج إليه من هواء وماء ، و طعام و شراب ، و نساء و بنين ، و حاجات و معادن ، و طاقة وشمس وقمر ، وكلما انحرفت نفوسنا يقوِّم اعوجاجها ، وكلما نسيت يذكِّرها ، وكلما غفلت يوقظها ، و كلما قصَّرت يدفعها ، و كلما تاهت يرشدها، و كلما ضلّت يهديها ، قال تعالى :

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(64))

(سورة غافر : من الآية 64)

تأكيدا لهذه المعاني من أن الله سبحانه هو ربُّ العالمين ، بمعنى أنه يربِّي أجسامنا ، ويربِّي نفوسنا ، وبمعنى أننا مخيَّرون ، فإن اخترنا شيئا مناسبا شجَّعنا عليه ، وإن اخترنا شيئا غير مناسب عالجنا ، و أدبنا ، و ضيق علينا ، و أرشدنا إلى الطريق الصحيح .

الآيات التي تؤكّد هذا كثيرة ، قال تعالى :

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(16))

(سورة الفتح)

فربُّنا عز وجل يقول :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ)

(سورة هود)

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُون

1 ـ من رحمة الله بالعباد إرسال الرسل من بني البشر :

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الأنبياء من بني البشر ، يحسُّ النبي كما تحسُّ ، و يفكّر كما تفكّر ، و يخاف من الذي تخاف ، و يرجو ما ترجو ، هذه نعمة أولى ؛ أن يكون النبيُّ من بني البشر .

2 ـ من رحمة الله بالعباد أن يكون الرسول من قومه :

والنعمة الثانية أن يكون النبيُّ من القوم الذي أرسل إليهم ، و لو جاءنا إنسان من غير أمَّتنا ، ومن غير قومنا لتهيَّبْنا ، وشككنا ، و لوجلنا ، و لتحفظنا ، و لسكتنا ، و لنقضنا ، ولكن الأنبياء في الأغلب الأعمِّ يأتون من قومهم الذين أرسلوا إليهم ، قال تعالى:

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

أخوَّة نسبية ، و أخوة قومية ، وأخوة إنسانية ، من أجل أن نطمئن ، قال جعفر يخاطب النجاشي :

((يا أيها الملِك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، و نأتي الفواحش ، و نسيء الجوار ، و نقطع الرحم ، و يأكل القويُّ منا الضعيف ، حتى بعث الله فينا رجلا نعرف أمانته و صدقه و نسبه ، فدعانا إلى الله لنعبده و نوحِّده))

[أحمد عن أم سلمة]

إذًا : من فضل الله علينا أن الله سبحانه و تعالى جعل الأنبياء و المرسلين من بني البشر ومن أقوامهم ، قال تعالى :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

3 ـ مهمة الرسول إصلاح عقيدة قومه :

هذا الذي أرسله اللهُ عز وجل إنما أرسله ليصحِّح عقيدة قومه ومنهجهم ، فقد ضلوا ، وتاهوا ، فجاء هذا النبيُّ الكريم ليصحِّح انحراف قومه ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

فحوى الرسالات : اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

هذه الآية تلفت النظر إلى أن الله سبحانه و تعالى صاغ هذه الكلمات ليعبِّر بها عن فحوى الرسالات ، رسالات الأنبياء كلهم ومضمونها عندهم جميعاً واحد ، وملخَّصها ، قال تعالى :

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

لو دقّقنا في هذه الكلمة ، لوجدنا فيها جانبا نظريا و جانبا عمليا ، قال تعالى :

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

هلاكُ الناس في الشرك :

جانب نظري ، لا إله إلا الله ، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد ، وهذا يعني أن الذي يهلك الناسَ أن يتَّخذوا مع الله آلهة أخرى ، قال تعالى :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

والذي أدى إلى شقاء الناس ، وضلالهم تيههم وانحرافهم ، وأنهم دعوا مع الله آلهة أخرى ، فهذه الكلمة التي قالها سيدنا هود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة و السلام :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

ما لكم من إله غيره ، فمثل الجانب النظري ، كما تمثل الجانب العقدي ، اعبدوا الله ، هذا الجانب العملي ، إذًا لا تنجح ، و لا تفلح ، و لا ترقى ، و لا تفوز ، و لا تسعد إلا إذا عرفت أنه لا إله إلا الله ، و إلا إذا عبدت الله ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

التوحيد هو سبيل النجاة :

إذا دقَّقت النظر ، وتأمَّلت في الكون ترى أنه لا إله إلا الله ، و الذي يشقي الإنسانَ أن يتَّبع ، أو أن يستجيب لدعوة مبنية على الشرك ، قال تعالى :

(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ(78))

(سورة غافر)

و قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(123))

(سورة هود)

و قال تعالى :

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

و قال تعالى :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

و قال تعالى :

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

و قال تعالى :

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ(4))

(سورة السجدة)

و قال تعالى :

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41))

(سورة الرعد)

هذا هو التوحيد ، فمن جعل الهموم همًّا واحدا كفاه الله الهموم كلها ، واعمل لوجه واحد يكفِك الهموم كلها ، و من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين ، و أنت تريد ، و أنا أريد ، فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، و إن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد ، و كنْ لي كما أريد أكنْ لك كما تريد ، و اطلُبني تجدْني ، فإذا وجدتني وجدت كلَّ شيء ، و إن فِتُّك فاتك كلُّ شيء ، وأنا أحبُّ إليك من كلِّ شيء ، هذا هو التوحيد ، و الدين كلُّه يُلخَّص في التوحيد ، قال سيدنا عبد الله بن عمر لغلام : << بعني هذه الشاة ، و خذْ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها : ماتت أو أكلها الذئب ، قال : ليست لي ، ووالله ، إنني لفي أشدِّ الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت له : ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني ، وإني عنده لصادق أمين ، و لكنْ أين الله ؟ >>

هذا هو التوحيد ، هذا البدوي وضع يده على جوهر الدين ، رغم أنه لا يقرأ ، و لا يكتب ، وضع يده على جوهر الدين مع بساطته ، و لو قرأت آلاف الكتب ، و ألَّفت مئات المؤلفات ، و لم تنته عما نهى الله عنه ، و لم تأتمر بما أمر الله به فلستَ ديِّناً ، و إنما أنت مثقَّفٌ ثقافة دينية ، و شتَّان بين الثقافة و الهدى ، فالهدى شيء ، و الثقافة شيء آخر ، والثقافة معلومات وأفكار وعلاقات و تنظيمات ونتائج وأشياء طريفة وممتعة ، ومحاورات ومناقشات ، و مؤلفات وملخَّصات ، هذه هي الثقافة ، و لكنَّ الهدى سمُوٌّ في النفس وطمأنينة وسعادة واستقرار ومحبة ، وتوكُّل واستسلام ، وصدق و إيثار ، و إن صحَّ التعبير : للمؤمن معنويات لو اطَّلع عليها الناس لسعدوا ، فمعنوياته عالية جدًّا ، بصرف النظر عن وضعه المادي ، أكان غنيا أو فقيرا مرتاحاً ، أو غير مرتاح في حياته ، ذا دخل قليل أو دخل كثير ، دخله محدود أو غير محدود ، متزوج أو غير متزوج ، بيته مُلْكٌ له ؟ أو بيته بالأجرة ، كل هذه الظروف الموضوعية المادية لا تؤثر في حياة المؤمن ، له معنويات إن الثقافة معلومات ، و لكنَّ الهدى قربات ، و المثقف يدافع التدنِّي ، بينما المهتدي يتابع الترقِّي ، و شتان بين الحالين ، وفي قلب المؤمن ثقة بالله ، يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما ، في معركة حنين بقي النبيُّ وحده يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطَّلب

هذا هو الإيمان ، ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمنِّي ، ليس الإيمان بسملة يكتبها على باب محله ، و إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، و مسبحة و مسواك ، لا ليس هذا هو الإيمان ، و لكن الإيمان ما وقر في القلب ، و أقرَّ به اللسان ، و صدَّقه العمل .

الإنسان بين الثقافة ومعرفة حقيقة وجوده :

كثير من الناس عندهم ثقافة إسلامية ، ولكنَّ الهدى شيء آخر ، الهدى سعادة في الدنيا والآخرة ، الهدى معرفة ، تعرف لماذا خلقك الله عز وجل ؟ تعرف ما الذي يسعدك في الدنيا ؟ تعرف أن الله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد والعقيم الوالد والظمآن الوارد ، ولماذا الله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عبده ؟ إذ ليس لهذا الحديث من معنى لو لم يكن الإنسان مخيّراً ، ولكن الإنسان مخيَّر ، فحينما يختار الإنسان معرفة الله والاستقامة على أمره ، والتقرُّب إليه يتحقَّق الهدف الذي خلقه الله من أجله ، لذلك يفرح الله سبحانه وتعالى ، وإذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنّئوا فلانا فقد اصطلح مع الله ، ومشكلات المسلمين تتلخَّص في كلمة واحدة ؛ الصلح مع الله ، هذا على مستوى المسلمين جميعا ، وعلى مستوى المسلم وحده ، لو أنه اصطلح مع الله عز وجل لحُلّت كلُّ مشكلاته ، لقوله تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

(سورة النساء)

لماذا العذاب ؟ ولمصلحة مَن ؟ ولماذا الضيق ؟ قال تعالى :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

وقال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96))

(سورة الأعراف)

قال تعالى :

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(32))

(سورة المؤمنون)

وقال تعالى :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(103))

(سورة يوسف)

وقال تعالى :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(103))

(سورة يوسف)

إذا قلتَ : فلان بيده النفع والضرُّ ، وفلان بيده إسعادي أو شقائي فهذا هو الشرك ، وأخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي ، أما إني لست أقول : إنكم تعبدون صنما ، ولا حجرا ، ولكن شهوة خفية ، وتأتون أعمالاً لغير الله ، وإن الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء ، قال تعالى :

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(32))

(سورة المؤمنون)

4 ـ بين العبادة والطاعة :

وبعد فالعبادة شيء ، والطاعة شيء آخر ، يجب أن تعرفه أولاً ، ثم تطيعه ثانيا ، ثم تسعد بهذه الطاعة ثالثا ، لذلك قال تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(56))

(سورة الذاريات)

الهدف الأكبر من خلقك أن يسعدك بعبادته ، ولن تسعد بعبادته إلا إذا عرفته ، لذلك أصل الدين معرفة الله ، يا ابن آدم ، اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كلَّ شيء ، خلقت لك السماوات والأرض ، ولم أعيَ بخلقهن ، أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَ حين ؟ خلقت السماوات والأرض من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقِّي عليك لا تتشاغل بما ضمنتُه لك ـ و هو الرزق ـ عما افترضته عليك ـ وهي المعرفة والطاعة والسعادة ، قال تعالى :

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(32))

(سورة المؤمنون)

5 ـ ما أمرَنا الله بعبادته إلا بعد أن طمأننا أن الأمور كلها بيده :

إذًا وحَّدت الله تعبده ، ولن تعبده قبل أن توحِّده ، وإن أشركت به تعبده ، وتعبد هؤلاء الذين أشركتهم معه ، والله سبحانه و تعالى قال :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

إذًا : كل أمورك راجعة إلى الله فاعبده ، وتوكلْ عليه ، ولو أن أمرا من أمورك يعود إلى إنسان لما صحَّتْ هذه الآية ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

أطِعْ أمرنا نـرفعْ لأجلك حجبنا   فإنا منحنا الرضا لـمـن أحبَّنا
ولُـذْ بحمانا و احتـمِ بـجنابنا   لنحميك مما فيه أشرار خـلقنا
و عن ذكرنا لا يشغلنك شـاغل و أخلِصْ لنا تلق المسرَّة و الهنا
وسلِّم إلينا الأمر في كل ما يكن   فما القربُ والإبـعاد إلا بـأمرنـا
يُنادى في الكون أنا نـحبــه   فيسمع من في الكون أمر محـبِّنا
ومن أطاع اللهَ أطاعه كلُّ شيء   و من عصى الله عصاه كلُّ شيء

و من أطاع الله هابه كلُّ شيء ، ومن لم يطع الله أهابه اللهُ من كلِّ شيء ، يخاف من ظله ، ويخاف من أدنى إنسان يواجهه .

6 - إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ

قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

سيدنا هوداً أقام في قومه سنوات طويلة يدعوهم إلى الله عز وجل ، وملخَّص هذه الدعوة ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

ثم قال تعالى :

(إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

أنتم حينما تكذّبون ، وحينما تتَّهمونني بأنني مفترٍ أنتم مفترون ، والدليل قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ(50)يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة هود)

يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ

1 - المؤمن لا يبتغي من دعوته أجرا دنيويا :

لا أسألكم عليه أجرا ، علامة المؤمن أن يبتغي أجراً هو حَبّ الله له ورضاه ، ببذِلْ طاقاته وإمكاناته

وخدماته ، ويدعو إلى الله ، ويعلّم الناس ، ويعينهم على أمر دنياهم ، ويعاون الفقراء ، ويعود المرضى، ويقدِّم خبراته وخدماته في سبيل الله ، قلّما يعنيه الأجر ، قلّما يعلّق أهميّة على المادة ، ولكنّ الذي بعُد عن الله سبحانه وتعالى لا يتحرّك حركة صغيرة ولا كبيرة إلا بالأجر ، ولا يُقدِّم نصيحة إلا بأجْرٍ ، ولا يُعطي إشارةً إلا بأجرٍ ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ(50)يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا)

(سورة هود)

وهذه علامة صدقه ، لو أنّني أطالبكم بأجرٍ لظنّنتم أنَّ لي مصلحةً بهذه الأجرة ، لو أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام فرض على أصحابه مبالغ من المال ، أو خدمات عليهم يؤدُّونها لَظنّ أنّه يبتغي بهذا عرض الحياة الدنيا ، لكنّ الله يؤكّد صِدْق الأنبياء وصِدق الدعاة الصادقين أنَّهم بريئون من المطامع الماديّة ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

الذي يؤكّد صِدق الداعي ترفعه عن أيّ مكسبٍ مادّي ، أو معنوي ، أو ثَنَاء ، أو أي شيء من هذا القبيل ، لا أسألكم عليه أجراً ، ولكن أنظر إلى إنسانٍ لا يعرف الله سبحانه وتعالى لا يُمكن أن يقدِّم خِدْمة لأحدٍ إلا بأجر ، فلو أنَّه ذهب مع إنسان إلى السوق مثلاً واشترى هذا الإنسان حاجة يُطالب بالعُمولة ، ولو أنّ آخر طرَقَ بابه لرَدَّهُ ، ولو أنّك دخلتَ إلى خمسين محلاً تِجاريًا لِتصرْف مائة ليرة لَسمِعتَ السبّ والاعتذار ! قال تعالى :

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

(سورة النساء)

أفضل المعروف إغاثة الملهوف ، لا أحدَ يتحرّك إلى إغاثة الملهوف ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ(50)يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة هود)

2 - أجر المؤمن على الله :

لو أنّ شخصًا ثريًّا كلّف إنسانًا آخر أن يقدِّم خدمات لِجهةٍ من الجهات ، وقال له : عليّ المبلغ مهما بلغَ، ضع الرقم الذي تريده ، فهل يُعقل أن يطالب هذا الذي يقدّم له خدمة بالأجر ؟ الأجر على الذي كلّفه هذه المهمّة كذلك الله سبحانه وتعالى هو الذي كلّفك بهذه المهمة ، وهو الذي يجزيك أَتَمّ الجزاء ، فالله عز وجل حينما يأتي المؤمن إليه ، يرى اللّقمة التي أطعمها في سبيل الله كجَبَل أُحد ، حينما يقدم على

الآخرة ، ويرى ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، قال تعالى :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(17))

(سورة السجدة)

إذا قدِمْت إلى الجنّة تعرف معنى قوله تعالى :

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ)

(سورة سبأ)

لذلك قد تأتي من مكان بعيد لِتَسْتمِعَ إلى درس عِلمٍ ؛ إن أجري إلا على الله ، قد تنفق على إخوتك الصغار الأيتام ، وقد تنكر ذاتك ؛ إن أجري إلا على الله ، قد تخدم والدتك سنواتٍ طويلة خِدْمةً شاقّة ؛ إن أجري إلا على الله ، وقد ترْعى أُختَكَ العانس ، وتبقى عندك في البيت ؛ إن أجري إلا على الله ، وقد تسير مع أخ في حاجته ؛ إن أجري إلا على الله ، وقد تعود مريضًا ؛ إن أجري إلا على الله ، طبيب طرق باب بيته الساعة الثانية ليلاً لِيَذْهب مع الطارق إلى حالة إسْعاف ، والطارق فقير ، فسار معه مشْيًا إلى مكانٍ بعيد ، ودخل على المريض ، وهو يُعاني آلامًا شديدة ، فبَقِيَ معه ساعات طويلة إلى أن زال الخطر عنه ، وكتبَ الوصفة ، وفي أثناء خروجه أعْطَوْهُ مبلغًا يسيرًا يسيرًا من مصروف البيت ، أخذ هذا المبلغ ، وأوى إلى فراشه ، تحرّكت نفسُهُ ، أخذْت هذا المبلغ من مصروف البيت وعنده أدويةٌ في البيت ، فجَمَعَ الأدوية التي وصفها لهم ، وعاد إلى هذا المكان البعيد فأعطاهم الأدوية ، والمبلغ الذي أخذه منهم ، ومبلغًا من عنده أيضاً ؛ إن أجري إلا على الله .

لا أحَدَ يذوق معنى العمل الصالح إلا وتغمره السعادة القلبية ، وكان هناك في أحد أحياء المدينة طبيب صالح إن شاهد المريض فقيرًا ، يوقّع في ذيل الوصفة ، ويبعثه إلى صيدلية معينة ، ويصرفها مجانًا ؛ إن أجري إلا على الله ، وهذا طبيب ، وكذا المحامي والمدرّس ، والمهندس ، لِيَكن لكلِ عمل خالص لله عز وجل .

قال لي أحد سائقي التاكسي : شاهدتُ امرأة مُسِنَّة ، ولا أحدَ يقف لها فوَقَفتُ لها ، وأوْصلتها حيث تريد، فتحَتْ قِماشًا داخل قماش قد صُرَّ صرّاً ، وأعطتْهُ عشرة قروش - والقصّة قديمة - فقال لها : أنا أطلب منك الدعاء ! ولم يلبث أن جاءهُ رجل ، وقال له : خُذني إلى المكان الفلاني فأخذه ، ثمّ قال له : قِفْ ، فوقفْتُ ، ثمّ قال لي: انتظِرْ ، فانتظرتُ حتى فرغ من شؤونه ، ثمّ أعاده إلى حيث كان، فأعطاه مبلغًا يزيدُ عن عمل يومين ! إن أجري إلا على الله ، فأحيانًا لماذا يعجِّل الله للإنسان بالجزاء ، وقد يكون الإنسان ضعيفًا كما أنّه قد يكون قويًا ؟ حتى لا تتوانى النفوس وتتقاعس عن فعل الخير ، ولكن لو أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يُعَوِّض عليك سريعًا فلتقل : إن أجري إلا على الله ، يجب أن يكون لك عمل تبتغي به وجه الله لا ترجو منه مالاً ولا سُمعة ولا جاهًا ، ولا مكانة ، ولا جزاءً ، ولا

ثوابًا ، وكلٌّ منّا له عمل ومهنة وكسبُه ، يجب أن يُبقي فيه شيء لله تعالى .

صاحب مطعم يبيعُ فولاً ، وثمن الصّحن ثلاث أو خمس ليرات ، أحد الأطفال طلبَ منه أن يبيعه فولاً برُبع ليرة ، فقال له : تفضَّل ، وملأ له صحنه ! إن أجري إلا على الله ، كلما ارتقت النفس في الإيمان كلما ازدادت أعمالنا صلاحاً ، فالمال وسيلة لكسب رضا الله ، وما عُبِدَ الله بأفضل من جَبْر الخواطر .

البذل يُسعِد المؤمن ، والأخذ يُسعِد المنافق :

إن أجري إلا على الله فلذلك الأنبياء والصدِّيقون ، وكبار المؤمنين يذوبون سعادة إذا بذلوا ، فعلامة المؤمن أنه يسعد بالبَذْل ، والمنافق يسعد بالأخذ ، والأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، والشرِّيرون أخذوا ولم يعطوا ، وعامة الناس يأخذون ، ويعطون ، يا مَن جئتَ الحياة فأعْطيتَ ولم تأخذ ، والشرِّيرون يأخذون كلّ شيء ، ولا يعطون شيئًا ، فأنت ممَّن ؟ ممَّن يعطي أم ممَّن يأخذ ؟ قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ(50)يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة هود)

هذا يؤكّد صِدْق دعوتي ، لو أنَّني أرجو مالاً لشُكّ في دعوتي ، لو أنَّني أرجو جاهًا لشُكَّ في نِيَّتي ، ولكنَّني لا أرجو منكم شيئًا .

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

1 ـ الاستغفار مقرون بالتوبة :

ما الذي يحصل ؟ قد يستغفر الإنسان ربّه ، ولكن لا يتوب إليه ، يذهب لأداء فريضة الحج فيحصل له صفاء ، ويذهب إلى العمرة لحصل له صفاء ، ولكن البطولة أن تتوب إلى الله بعد الاستغفار ، أنْ تستغفره ، أيْ أن تطلب منه الشّفاء ؛ شِفاء النفس ، لأنَّ أمراض النفس مهلكة ، أما أمراض الجسد فتنتهي بالموت ، ولكن أمراض النفس تبدأ بعد الموت ، والناس نِيام إذا ماتوا انتبهوا ، فلذلك يسعى الإنسان لِتَطهير نفسه ، قال تعالى :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88))

(سورة الشعراء)

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

أي استقيموا على توبتكم ، وتابِعُوا أمره ، انتهوا عمَّا عنه نهى ، قال تعالى :

(يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)

(سورة هود)

2 ـ الاستغفار سبب الرزق :

إذا كانت كميّة الأمطار بدمشق مثلاً بالشكل الاعتيادي مائتين وخمسين ميليمتراً ، ثمّ تتناقص إلى الستِّين ميليمتراً في بعض السنوات، فإن ذلك يدعو إلى مراجعة الناس قلوبهم وإيمانهم ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)

(سورة هود)

حتى يكثر الخير ، وصدق الله تعالى :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ)

(سورة هود)

3 ـ الاستغفار سبيل القوة بكل أنواعها :

وبعد فهذه الآية دقيقة جدًّا ، إن الواحد منا يتمتّع بالشباب ، فإذا عرف الله ، وأطاعه يدوم له هذا الشباب مثلاً إلى نهاية الحياة ، من عاش تقيًّا عاش قويًّا ، من غضَّ بصره عن محارم الله يزده الله قوّة إلى قوّته، ويُمَتّعُهُ الله بهذه العين إلى نهاية الحياة ، ومن كفّ عن سماع الغناء زاده الله قوة إلى قوته ، يُمَتِّعه بهذه الأذن إلى نهاية الحياة ، من سار إلى طاعة الله يَزِدْهُ قوَّة إلى قوّته ، يتمتَّع بحركته ونشاطه إلى

نهاية الحياة ، ومن أطاع الله في زواجه يَزِدهُ قوَّة إلى قوَّته يسْعَدُ بزَوجته أضعاف ما يسعد أهل الدنيا بزَوجاتهم ، أحدهم كان له مطعم يباع فيه الخمر واللحم ! فذهب لأداء فريضة الحجّ ، ونصحه أصدقاؤُهُ أن يكفّ عن بيع الخمر ، وبين أخذ وردّ ، وحَيْرةٍ وصِراع ، اتَّخَذَ في النهاية قرارًا بالكفّ عن بيع الخمر في مطعمه ، ما الذي حدث ؟ أنَّه تضاعفت غلّته وتضاعفت أرباحه ، ويَزِدْكم قوَّة إلى قوَّتكم ، لو تركتَ هذه الشبهة في هذا العمل التّجاري ، لزِادْك قوّة إلى قوّتك ، لو أطعتَ الخالق و عصيت المخلوق لزادك قوة إلى قوتك ترتقي مكانتك عند هذا الذي عصيْتَهُ من أجل الله ، وتكبر في عَيْنِهِ رغم أنك عصيته ، ولم تستجب له ، وأمرك فلم تأتمِر ، وقلت : إنِّي أخاف الله رب العالمين تقول في نفسك : أنا أصبحت مهدَّدًا بالخطر من هذا الرجل ! لا ، يَزِيدْك الله قوّة إلى قوّتك ، تزداد عنده مكانة ، هذه سنّة الله في الخلق ، إنِّي أخاف الله رب العالمين ، قال تعالى :

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(23))

(سورة يوسف)

وصار بعدها عزيز مصر ، إنه سيدنا يوسف ، ولما مرَّ موكبه ، كانت جاريةٌ قد رأتْهُ في قصْر العزيز خادمًا ، ورأته الآن وقد صار عزيز مصر يمشي في موكب الإمارة فقالت : سبحان من جعل العبيد ملوكًا بطاعته ! وسبحان من جعل الملوك عبيدًا بمعصيتِهِ ! قال تعالى :

(وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ)

(سورة هود)

من ابتغى أمرًا بمعْصِيَةٍ كان أبعَدَ مِمَّا رجا ، وأقرب مِمَّا اتَّقى ، وهذا في عملك في زواجك ، وفي صحّتك ، وفي بيتك وفي أولادك ، وفي سفرك وفي إقامتك ، وفي علاقاتك ، وفي كلّ شيء ، إن أطعتَ الله سبحانه وتعالى يزدك قوّة إلى قوتك ، ومن عاش تقيًا عاش قويًا ، ومن تعلّم القرآن متَّعَهُ الله بعقله حتى يموت ، فهذه الدنيا وحدها مسْعدةٌ للمؤمن فكيف إذا جمعت الدنيا والآخرة ؟

ما أجمل الدِّين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلات بالرجل

***

قال تعالى :

(وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)

(سورة هود)

من منكم يُصدِّق أنّ الذي يتولى عن الهُدى ، يتولى عن سماع الحق ، ويتولى عن طريق الله عز وجل، يتولى عن طاعة الله ، ويتولى عن محبَّته ، ويتولى عن الإقبال عليه ، يُعَدُّ عند الله مجرمًا بحَقّ نفسه قبل كلّ شيء ، وبحَقّ أهله وبحَق أولاده ، وبحق من حوله ، الذي يتولى عن طاعة الله ، وعن الإقبال عليه ، ويتولى عن محبّته يُعدُّ عند الله مجرما ، وقوله تعالى يؤكّد ذلك :

(وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ)

(سورة هود)

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ

1 ـ رد الجاهل والسفيه :

أي بِسَبَبِ قولك ، والمفسّرون قالوا : إنّ هذا هو الغباء بِعَينه ، فكلّ هذه البيّنات ، وكلّ هذه الدلائل وكلّ هذا المنطق ، وكلّ هذه الأسباب المؤدِّية لهذه النتائج ، وكلّ هذا الكون لم يُؤثّر فيهم ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ)

(سورة هود)

لذلك فإن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قال : " ما ناقشني جاهل إلا غلبني ! ولا ناقشْتُ عالمًا إلا غلبْتُهُ " ، وأبو حنيفة كان يُدَرِّس درسًا في الفقه ، ويبدو أنّ في رجله ألمًا شديدًا ـ وكذا تروي القصة ـ فكان يمدّها مضطراً فدخل عليه في هذه الأثناء رجل بادي الهيئة ، طويل القامة ، واسع المِنْكبَين ، فاسْتحيا منه ، وضم رجله إليه ، وكان موضوع الدرس صلاة الفجر ، وشرح الإمام أبو حنيفة ملابسات صلاة الفجر ، والفجر الصادق ، والفجر الكاذب وطلوع الشمس ، فهذا الرجل ذو الهيئة بادر الإمام وسأله : ويا سيّدي ، كيف نصلّي الصبح إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟! فقال الإمام أبو حنيفة : آن للإمام أبي حنيفة أن يمُدَّ رجله ثم قدَّمها !! قال تعالى :

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة هود)

لو وضعتهم في دائرة المنطق لظهر لك الغباء المستحكم ، وإنها لشهوات أغلقت عليهم منافذ الحق ، وعلى قلوبهم أكِنَّة ، وفي آذانهم وقر ، وعلى عيونهم غِشاوة ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ(53)إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ)

(سورة هود)

إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ

أي هذا الذي تقوله هذيان ! وهذا الذي تقوله تلقيه على عوامهم ، إنما جاءك بسبب لوثة أصابتك من آلهتنا ، قال تعالى :

(قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

(سورة هود)

حتى النبي عليه الصلاة والسلام قالوا عنه ساحر ومجنون ، قال تعالى :

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1)مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2)وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3)وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ

1 ـ الهدى أكبر نعمة :

هذه الآية تنطبق على كلّ مؤمن ، نعمة الهدى أثمنُ نعمة في الأرض ، إن كنت عرفت الله فلْيَفُتْك من الدنيا ما يفوتك ، وهناك كلمة كنتُ أقرأها عن سيّدنا أبي بكر يقْشعِرّ منها جلدي : ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قطّ ! تجد الناس مشققة قلوبهم ، موزعة أحلامهم وعقولهم ؛ زوجته على غير ما يريد ، نصيبه في الحياة أنَّه موظّف ، ودخلهُ محدود ، ودائمًا يشْكو ، أما العارفون بالله فلا يندمون على شيء فاتهم من الدنيا قطّ ، والدنيا جيفة ، وطلابها كلابها ، والدنيا دار من لا دار لها ، ولها يسعى من لا عقل له ، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

يا شيبة بن ربيعة ، ويا عتبة بن ربيعة ، ويا أُميّة بن خلف ، أَوَجَدْتم ما وعدكم ربكم حقًّا ، فإنِّي وجدتُ ما وعدني ربِّي حقًّا ! لقد كذَّبتموني وصدَّقني الناس ، وخذلتموني ، ونصرني الناس ، وأخرجتموني ،

وآواني الناس ، قالوا : يا رسول الله ، أتُخاطبُ قومًا جيَّفوا ؟! قال : ما أنتم بأسْمع بي منهم ، ولكنّهم لا يجيبونني ، إن نعمة الهدى لا تعدلها نعمة ! قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22))

(سورة يوسف)

أعطى الله سبحانه فرعون الملك ، وهو لا يحبّه ، وأعطى قارون المال ، وهو لا يحبّه وأعطى الأنبياء العلم والحكمة ، فمِن أيِّ نوع عطاؤُك أيّها الأخ الكريم ؟ وما استرذل الله عبدًا إلا حظرَ عليه العلم والأدب ، فعلامة خِذلان المسيء أن يحْجر عليه العلم والأدب ، فمن كان له مكان في هذا المجلس أو في أيّ مجلس ، ومن كان له رغبة في معرفة الحق ، فهذا هو الفلاح ، قال تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3)وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4))

(سورة المؤمنون)

وقال تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(14))

(سورة الأعلى)

ولم يقل : قد أفلح الأقوياء ولا الأغنياء ! لأنَّ كلاّ منهما سيموتون ، ولكن المؤمنين سيَسْعدون في الدنيا، وإلى الأبد ، أيضاً في جنات النعيم .

قال تعالى :

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة هود)

فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ

إذا كان الله معك فأنت الأقوى :

استمعوا إلى رجل واحدٍ يُواجه أُمَّةً بأكملها ، هات إيمانًا كإيمانه ، وخُذْ نصرًا كنَصْرِهِ ! واحد قال : فكيدوني جميعًا !! أنتم ومن معكم ، ومن وراءكم ومن يعينكم ، ومن على شاكلتكم ، ولا تأخذكم بي رأفة ، ولا إشفاق ، ولا تتردَّدوا ، ولا تنتظروا ، ولا تقلّبوا الأمر ، فلن تصلوا إلى ضري ، ولن فقدروا على إيذائي ، قال تعالى :

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

(سورة هود)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ قال تعالى :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ)

(سورة هود)

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا

1 ـ كل المخلوقات بيد الله :

كلمة دابة في هذا الموطن تعني كل مخلوقات الله تعالى على هذه الأرض ، و هذا الذي تخافون منه دابة ، وناصيتها بيَدِ الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

ومؤدى هذه الآية أن كل دابة لا تتصرف حركة ولا سكنة إلا بمشيئة الله ، أما أنْ تقول : إنَّ الله سبحانه وتعالى قد يضعُ إنسانًا في النار ، وقد أمضى حياته كلها في طاعته ، لأن الله يتصرَّف في ملكه بما شاء، فليس هذا مدلول الآية السابقة ، بل قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

2 ـ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الله لا يظلم أحدًا :

ولن يظلم أحداً أياً كان ، فالله سبحانه وتعالى على كلّ شيء قدير ، وعلى صراط مستقيم في الوقت نفسه ، فهو قدير على وضْع الطائع في جهنّم لأنه قادر ، ولكنَّه على صراط مستقيم فلن يفعله ، إنِّي حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا ! أنْ يمضي الإنسان حياته كلها في طاعته ، وقبل أن يموت بساعات يسبق عليه القول فيعْمل بعَمل أهل النار فيدخلها !! لِهذا الحديث تفسير آخر يحتاج هذا الحديث إلى تأويل ، فقد يمضي حياته كلّها منافقًا ، فهو ليس من أهل الجنَّة ، إنَّما يعمل بعَمل أهل الجنَّة فيما يبدو للناس ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه القول ، أيُّ قولٍ ؟ وهو أنَّ الله سبحانه وتعالى يكشف الإنسان على حقيقته ، إذاً فهو لم يكن مؤمنًا ، إنَّما كان يعمل بعمل

أهل الجنَّة ، ظاهراً وفيما يبدو للناس لكنَّه كان منافقًا ، ويرتزقُ بظاهِرِ دينه ، ويخفي في قلبه نفاقاً ، وفي نفسه كفراً ، فلا يمكن لله تعالى أن يظلم أحدًا ، قال تعالى :

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

وقال تعالى :

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر)

وقال تعالى :

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

وقال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(40))

(سورة العنكبوت)

ثمَّ تقول بعدها : إن الله يضعُ إنسانًا أمضى حياته كلّها في طاعته في النار ، وأنَّه يتصرَّف في ملكه بما شاء ، ولأنَّه لا يُسأل عما يفعل ! وهم يُسألون فهذه الآية تفسيرها أنَّ عدله يسكت الألسنة ، وأنّ إحسانه للعباد يُسكت الألسنة ، لذلك لا أحد يسأله فالأمر يتلخَّص كما يلي : مجموعة الحيوانات المخيفة مربوطة جميعًا بأزمّة متينة ، بيد إنسان حكيم خبير رحيم منصِفٍ ، هل تخاف منها أم تخاف منه ؟ تخاف منه ، لأنَّه إذا أرخى الزِّمام وصل هذا الوحش إليك ، فعلاقتي ليست مع هذا الحيوان ، لكن بمَن بيده زمامها ! قال تعالى :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

ملخَّص هذه الآية ، هات لي إيمانًا كإيمان هذا النبي العظيم ، وخُذْ نصرًا وتأييدًا ، وحفظًا ورعاية كما أخذ هو ، قال تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

(سورة هود)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ

إما أن تؤمن أو يؤمن غيرُك :

إن آمنتَ فلك ، وإن لم تؤمن فعليك ، إن آمنت تستفِد ، إن لم تؤمن يأتِ من يؤمن فيستفيد ، فالقضيَّة متعلقة بك ، قال تعالى :

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(17))

(سورة الحجرات)

بعض العارفين بالله يقول : يروح الزاهد ، ويأتي العاشق ! فإن تولَّوا أي تتولَّوا ، هناك تاءٌ محذوفة ، قال تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

(سورة هود)

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ

إذا جاء العذاب نجّى الله من يستحق في الدنيا والآخرة :

فلا ظلم ، ولا بلاء عام ، فالبلاء خاص ، والرحمة خاصَّة ، ونجاهم الله مرَّتين كما في الآية ، وقد قال العلماء : مرَّة في الدنيا ، ومرَّة في الآخرة .

لما جاء أمرنا أي الهلاك والريح العقيم نجينا هودًا ومن معه ، وهذا في الدنيا ، ونجيناهم من عذاب يوم غليظ ؛ وهذا يوم القيامة، فكلّ مؤمن له نجاتان ؛ نجاة في الدنيا ، ونجاة من عذاب غليظ يوم القيامة ، قال تعالى :

(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا)

(سورة هود)

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا

1 ـ عادٌ كفروا بالله وعصوا رسله :

حُمِلت هذه الآية على الكُفر ، أيْ كفروا بآيات ربِّهم ، قال تعالى :

(وَعَصَوْا رُسُلَهُ)

(سورة هود)

2 ـ الكفر برسول واحد كفرٌ بالجميع :

هناك سؤال : جاءهم رسول واحد ، فلماذا قال الله سبحانه وتعالى : عصوا رسله ؟ لأنّك إذا أطعت رسولاً واحدًا ، فكأنَّك أطعت رُسل الله كلهم ، وإن عصَيتَ رسولا واحدًا فكأنَّك عصيت جميع الرسل ؛ لأنَّ دعوتهم واحدة ، لا نفرّق بين أحد من رسله .

وتلك عاد وجاء اسم الإشارة مؤنَّثاً (تلك)! لأنَّه حُمِل على القبيلة أي قبيلة عاد ، قال تعالى :

(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

(سورة هود)

3 ـ من هو العنيد ؟

من هو العنيد ؟ هذه صفة مذمومة في الإنسان ، فأحيانًا الإنسان لا يتراجع عن غلطه مع أنه يرى عمله، ويرعاه مسيئًا وغير صحيح ، ولا جدوى منه ، يربط هذا العمل بكرامته فلا يتراجع ، هذا عنيد ، والعنيد من صفات الجبابرة قال تعالى :

(وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(59)وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً)

(سورة هود)

4 ـ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً

أُتبِعُوا لعنة ، ففي زواجهم ملعونين ، وفي عملهم ملعونين ، وفي أفراحهم وفي أتراحهم ملعونين ، وكذا في نزهاتهم ، حيثما تحرّك فهو ملعون ، أيْ بعيد عن الله تعالى ، ومطرود من رحمته ، فاللَّعْن يتْبعهم كظلّهم ، قال تعالى :

(وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُود)

خاتمة :

هناك نقاط دقيقة في هذه السورة أتمنى أن تعودوا إليها في البيت ، وأن تتذاكروا في المعاني التي وردت في هذه الآية مع أهليكم ، ومع أصدقائكم ، مع من يلوذ بكم ، بحسب القرابة أو الجوار ، لأنَّكم إن عُدتم بهذه إلى البيت زادَت رسوخًا ، وانتقلت من عقولكم إلى قلوبكم ، فإذا انتقلت إلى القلوب كانت هدى ونورًا في الحياة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (09-16): تفسير الآيات 61 – 68
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-03-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أيها الإخوة المؤمنون ، في سورة هود وفي قصة سيدنا نوح عليه السلام جاءت الآياتُ الأخيرة تنبئ أن هناك أُمَماً سوف يمتِّعهم الله ، ثم يمسهم عذاب أليم .

قد يرى الإنسانُ أمةً بمقياس العصر راقية ، مشكلاتها معظمُها محلولة ، رخاءٌ ودخلٌ كبير ، آلاتٌ حديثة ، ورفاهٌ منقطع النظير ، إن كانت هذه الأمة إنما بَنَتْ رفاهها ودخلها الكبير ، واستمتاعها بالحياة على ظلم أو على قهر للشعوب الأخرى فربّنا سبحانه وتعالى يقول :

(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(48))

(سورة هود)

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً

1 ـ قصة سيدنا صالح مع قومه :

من هذه الأمم التي متَّعها الله سبحانه و تعالى ، ثم مسَّها عذاب أليم هذه الأمة التي أرسل الله سبحانه وتعالى إليها نبيًّا كريما هو سيدنا صالح عليه السلام ، فقال تعالى :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً)

(سورة هود)

بعد أن أهلك اللهُ عادا ، وقد أرسل فيهم سيدنا هودا عليه السلام ، و بعد أن أهلكهم جاء من بعدهم قومُ ثمود ، فحينما استعلوا في الأرض ، و ضلوا ، وأضلوا ، وتاهوا عن طريق الحق ، أرسل الله إليهم أخاهم صالحاً .

2 ـ كل نبيٍّ يُبعث من قومه :

حدّثتكم في الدرس الماضي كيف أنّ حكمة الله سبحانه وتعالى تتجلى في أن يكون النبي الرسول من بني البشر ، تربطه بقومه الأخوّة الإنسانيّة ، وكيف أنَّ قرابة أخرى يجب أن تربطه بقومه ؟ يجب أن يكون منهم ، نشأ بين ظهرانيهم ، رأوْهُ ، ورأوا صدقه ، ورأوا أمانته ورأوا عفافه ، وعرفوا نسبه ، واطمأنوا إليه ، قال تعالى :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

3 ـ كلمة أجمع عليها كلُّ الأنبياء : اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ

لعل أحدنا يظنّ أنّ سيّدنا صالحًا عليه الصلاة والسلام قال لقومه هذه الكلمة ! هذا الذي قاله ملخَّصٌ لِحديث طويل ، ولأدلة طويلة ، ولِجُزئيات ولتفصيلات ، والذي دعاهم إليه يتلخَّص بهذه الكلمات النيِّرات ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

أي ملخّص دعوته أن أعبد الله ، واعرفوه وأطيعوهُ ثانيًا ، كي تسْعدوا بقُربه ثالثًا ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

أموركم كلّها بيده ، في هذه الكلمة شيء نظري وعَقَدي ، وشيء سُلوكي فلا بدّ أن تؤمن أولاً أنَّه لا إله إلا الله ، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : من الآية 19)

4 ـ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قولٌ وعملٌ ، وليس كلاما وتمنيات :

بعض الناس يظنّ إذا قالها فقط دخل الجنَّة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((من قال : لا إله إلا الله بحقّها دخل الجنَّة ، قيل : وما حقّها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم ، وإسناده لا يصح]

يجب أن يكون واضحًا في أذهان الإخوة الأكارم أنَّ كلمة تقولها لا تستحقّ الجنَّة عليها ، بِشَكل عابر ، وأنت عاداتك ليْست إسلاميّة ، وتصرّفاتك ليست إسلاميّة ، وسلوكك ليس إسلاميًا ، تنساق إلى نفسك ،

وتتمنّى على الله الأماني ، وتعطي نفسك هواها ، ولا تنضبط بالشَّرع ، فَمِثل هذا الإنسان ولو قال : لا إله إلا الله ، لا يستحقّ بها الجنَّة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((من قال : لا إله إلا الله بحَقِّها دخل الجنَّة ، قيل : وما حقّها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم ، وإسناده لا يصح]

في مقاييس الأرض هل يكفي أن يقول الطالب كلمة لينال بها درجة دكتوراه ؟! يقول كلمة ، وينال بها شهادة عليا يستحقّ بها التبجيل والتعظيم في مجتمعه ؟ هذا مستحيل ، هذا في مقياس البشر ، ألا إنّ سلعة الله غالية ، هذا الذي يظنّ الإسلام كلمات تردَّد وطُقوس تمارس وهو مع شهواته ، هذا بعيد بُعْد الأرض عن السماء عن أن يفهم الدِّين ، الدِّين انضِباط وسُموّ روحي ، الدِّين عمل وتضحية ، والدِّين ورع ، والدين معاملة ، والدِّين صِدْق ، أن يكتفي الإنسان بقول : لا إله إلا الله ، فهذا فهْم ساذج لا يتناسب مع عظمة الله ، ولا مع كمال الله ، يؤكّد هذا قوله تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : من الآية 92)

من وقتك الثمين ، ومن مالك الذي حصّلتَهُ بعَرَق جبينك ، ومن الشيء الغالي عليك ، والعزيز عليك ، هذا يجب أن تنفقهُ في سبيل الله ، أما أن تُتْبِعَ نفسك هواها ، وأن تعيش مع الناس بعاداتهم وتقاليدهم ومرحهم وطربهم ، وتستمعُ ما يستمعون ، وتنظر إلى ما ينظرون ، وتلهو كما يلهون ، وتستيقظ كما يستيقظون ، ويعنيك ما يعنيهم ، ويؤْلمُكَ ما يؤلمهم ، وثم تقول : أنا مسلم ، وتتمنى على الله الأمانيّ ! الله سبحانه وتعالى يقول :

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ)

(سورة النساء : من الآية 123)

وقال تعالى :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة : من الآية 18)

وقال تعالى :

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(111))

(سورة البقرة)

وقال تعالى :

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(80))

(سورة البقرة)

فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ

هذا كلام الله ، وهو غاية في الوضوح ، ولكيلا يغترّ الإنسان بالله سبحانه ، فقد قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

لا تغترّ بالدنيا ، أيْ إياك أن تنظر إليها بحَجم أكبر من حجمها ؛ هي يسيرة وعند الله صغيرة ، ولا شأن لها ، سريعة الزوال ، وشيكة الانتقال ، لا تدوم لإنسان ، قال تعالى :

(كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

(سورة الكهف)

إياك أن تنظر إلى الدنيا بحَجم كبير ! وإياك أن تنظر إلى الدنيا فتملأ قلبك ! إياك أن يكون علمك منتهيًا عند الدنيا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ، ولا مبلغ علمنا ، إياك أن تجعلها في قلبك ، وهذا هو معنى قوله تعالى :

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

(سورة فاطر)

وأما معنى قوله :

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

فمعناه : إياك أن تسمح للشيطان أن يوهِمَك عن الله أشياء ليسَتْ صحيحة ، إذا قال لك : طالبٌ كسول : إنّ هذا الأستاذ إذا قدَّمْت له هديَّة في آخر العام يقدِّم لك الأسئلة قبل يوم ! هذا كلامٌ باطل ، والأستاذ فوق ذلك ، وأرقى من ذلك ، وهذا تغرير بك ، وهذا سوء معرفة بالأستاذ ، أو أن يقول لك : إنَّ هذا القاضي يرتشي ، وبهَدِيّة بسيطة يُصْدر حُكْمًا إلى جانبك ، فهذا كذلك كلام ساذج ، فالقاضي فوق ذلك ، وأنزهُ من ذلك ، وهذا معنى قوله تعالى :

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

إياك أن تسمح للشيطان أن يوهمك أنَّ الله على خلاف ما جاء في كتاب الله ، قال تعالى :

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39)فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40)عَنْ الْمُجْرِمِينَ (41)مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42)قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43)وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44)وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47)فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48))

(سورة المدثر)

وقال تعالى :

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19))

(سورة الزمر)

هذا هو الحق ، إنَّ لكل حسنة ثوابًا ، ولكل سيِّئة عقابا ، ليس هذا من باب التشديد ، ولكن هذا من باب الواقع ، فلذلك قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

ملخّص الرسالة اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، بدَل أن تقول : لا إله إلا الله ، فاعلم أنَّه لا إله إلا الله ، شتّان بين القول والعِلم ، العِلم يحتاج إلى بحث ، وتدقيق ، ملخَّص دعوة سيّدنا صالح أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

قال تعالى :

(هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ)

(سورة هود)

هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ

1 ـ أصل خَلق الإنسان من التراب :

أي أنشأكم أصلاً ، وأنشأكم أفرادًا ، أصلاً سيّدنا آدم إنَّما خلقه الله من طين الأرض ، قال تعالى :

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(29))

(سورة الحجر)

أما أنت أيها الإنسان فقد خُلِقت من تراب الأرض ، حينما يولدُ الإنسان لا يزيدُ وزنهُ على ثلاثة كيلو غرامات ، وكلّ مِنَّا وزنه ستون فما فوق ، هذا الوزن من أين جاء ؟ من الطعام والشراب ، وهذا الطعام والشراب من أين جاء ؟ من التراب ، الأرض تنبت هذه الفواكه والخضراوات والكلأ الذي يأكله الحيوان ، ونأكله نحن في النِّهاية ، إذًا الله سبحانه وتعالى خلقنا من تراب أصلاً وأفرادًا ، قال تعالى :

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى(55))

(سورة طه)

(هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ)

(سورة هود)

هو الذي أنشأكم ، وجعلكم تُعمرون هذه الأرض ، أعطاكم هذا الفِكر ، بِهِ بحثتم عن طعامكم ، وبه زرعتم الأرض ، وألقيتم الحبّ في الأرض حصدتم النبات ، درستم القمح ، عجنتم الطحين ، خبزْتموه خبزًا ، كلّ هذا عن طريق هذا الفِكر الذي وهبهُ الله إيانا ، فعن طريق الفِكر نسجنا وغزلْنا ولبِسْنا ، وعن طريق الفِكر سكنّا ، وأعطانا إمكانيّة الاستفادة ممَّا خلق الله في الأرض ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود)

وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا

1 - الاستعمار بالمفهوم القرآني والمعنى الهامشي :

أي جعلكم تعمرونها ، ألْقِ نظرةً على مدينة ترى فيها بنيانًا ، وفيها طرقات وفيها جُسور ، وفيها معامل وفيها مدارس ، وفيها جامعات وفيها دوائر حكوميّة ، وفيها أنظمة ، وفيها مستودعات وفيها وقود ، وفيها أغذية ، وفيها ملبوسات ، استعمركم فيها ، هؤلاء الذين قالوا : الإنسان أصلهُ قِرْد ، اُنظر إلى مجتمع القِردَة هل تطوَّر مجتمعهم من وضع إلى وضع عبر آلاف السنين ؟ القرد هو القرد ، أما الإنسان فتطوَّر في أسلوب حياته ومعاشه فقط ، قال تعالى :

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود)

وعلى سبيل المثال : ركب الطائرة ، و وصل إلى القمر ، و غاص في أعماق البحار ، ووصل إلى قيعان البحار ، و تعرّف إلى بني جنسه في كل مكان ، إلى المخلوقات ، وعرف الحيوانات و النباتات ، و بيَّن ووصف ، و ألَّف ودرَّس ، قال تعالى :

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود)

فكلمة الاستعمار هنا لها معنى لغوي ، وبالمناسبة الكلمات قد يكون لها معنى لغوي في الأصل ، وقد تكتسب مع الأيام معنى هامشيًّا ، فالاستعمار بمعناها الهامشي ؛ أن تأتي قوةٌ غاشمة تحتلُّ أرضًا لتأخذ خيراتها ، و تقهر أبناءها ، هذا المعنى الهامشي الذي أصاب هذه الكلمة ، ولكنَّ الاستعمار بالمعنى القرآني هو إعمارُ الأرض ، قال تعالى

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود)

انظُر إلى البيت ، له أساسات وهندسة ، هناك هندسة تصميم ، وهندسة تنفيذ ، وهندسة مدنية ، وهندسة جمالية ، وهناك بلاط وملاط ، وطلاء و مواسير ماء ، و تمديدات كهربائية ، و تزيينات وأساس ، وهذا كلُّه بفضل الله سبحانه وتعالى ، هو الذي أعطى الإنسان هذه المواهب ، و جعله يحتاج إلى ملايين الأشياء ، وجعله يتقن صنعة أو أكثر ، ويحتاج لأخيه الإنسان في صنعة أخرى ، هكذا طبيعة الحياة .

2 ـ لا يستطيع الإنسان أن يحيا وحده على الأرض :

استعمركم فيها ، فلا يستطيع الإنسان أن يحيا وحده فيها ، ولو كُلّفتَ أن تصنع رغيفَ خبز ، تصوَّر ؛ يجب أن تشتري أرضًا ، ويجب أن تستخرج الحديد من الأرض ، ويجب أن تصنع محراثا ، ويجب أن تقتنيَ بقرةً أو ثورا ، ويجب أن تحرث الأرض ، وأن تلقيَ الحَبَّ ، وأن تسقيَ الزرعَ ، وأن تحصد ، وأن تدرس الحصاد ، وأن تنظّف ، وأن تطحن الحبَّ ، وأن تعجن ، هذا شيءٌ مستحيل أن تفعله وحدك ، لكنك تشتري الخبز جاهزا ، آلاف الرجال ساهموا في صنع الرغيف ، كذلك الثياب ، فالقطن و الصوف جُمِع كل منهما ، وغُسِل ، وصار غزلا ، وصُدِّرَ ، وصار خيوطا ونُسج ، وخاطه لك الخيَّاطُ ، ولبسته أنت ، قال تعالى :

(هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود)

هذه آية من آيات الله الكبيرة ، كل هذا يُقدَّم لك ، و أنت مكرَّم تسكن في بيت ، وتنام على سرير ، وعلى السرير غطاء ، من صوف شتاءً ، ومن قطن صيفا ، ولك زوجة ، ولك أولاد ، و تأكل ، و تشرب ، ولك عمل تكسب منه رزقك ، و تتعامل مع الآخرين ، قال تعالى :

(هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

1 ـ اقتران الاستغفار بالتوبة دليل الصدق :

يعني اطلبوا منه الشفاء ، و طهِّروا أنفسكم بالقرب منه ، واستقيموا على هذا ، ولا تكن هدايتك ومضات ، فإن هذا الذي يتوب ، ثم ينقض التوبة ، يهتدي ثم ينتكس ، هذا لا خلاق له عند الله ، و إذا تعاملت مع الله سبحانه وتعالى فكنْ صادقا ، قال تعالى :

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا(23))

(سورة الأحزاب)

هذا قرار تتَّخذه مع الله سبحانه وتعالى ، مع الله رب العالمين ، أتعود عنه ؟ أتندم عليه ؟ أتغيِّر ؟ أتبدِّل؟ ضعاف الإيمان يعبدون الله على حرف ، فإن أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم مصيبة انقلبوا على رؤوسهم ، وذلك هو الخسران المبين ، أما المؤمن فلا يغيِّر ولا يبدِّل ، قال تعالى :

(فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

أقبلوا عليه ، و طهِّروا أنفسكم بالقرب منه ، ثم تابعوا الطريق إلى نهايته ، قال تعالى :

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ)

(سورة العنكبوت)

قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)

(سورة هود)

إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيب

1 ـ معنى : قَرِيبٌ مُجِيب

حبَّذا لو تُدرس هذه الأسماء الحسنى دراسة دقيقة ، قَرِيبٌ مُجِيبٌ : فقريب اسم واضح ، و مجيب أيضا واضح المعنى ، أما قريب مجيب فإليك أيضاً حالها ، هناك من يتخَّذ شريكا من دون الله ، هو قريب ، و لكنه لا يجيبك عند الحاجة ، إما لأنه لا يستطيع ، أو لأنه لا يريد ، قد تستجير بإنسان ، و يقول لك : لا أستطيع ، هذا فوق إمكاناتي ، و قد يستطيع لا يجيبك لسبب أو لآخر ، إنه قريب منك ، وقد يكون المجيب بعيدا عنك ، و لو أنه سمعه لأجابك ، ولكنه لن يسمعك ، قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)

(سورة هود)

قريب منك ، قال تعالى :

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(16))

(سورة ق)

2 ـ الله قريب من العبد من كلِّ شيء :

إذا أمسكتَ آلة تعمل على الكهرباء ، وضممتها إلى صدرك ، وأحطت بها ، أنت أقرب إليها أم الكهرباء ؟ الكهرباء التي في داخلها أقرب منك إليك ، ولو فرضنا مسجلة لو أمسكتها بيديك الكهرباء التي بداخلها تحرِّك أقراصها أقرب إليها منك ، فربنا سبحانه وتعالى أقرب إلى الإنسان من روحه ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(16))

(سورة ق)

و قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

فربنا عز وجل قريب و مجيب ، قال تعالى :

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر : من الآية 60)

من لا يدعوني أغضب عليه ، و إن الله يحب المِلحِّين في الدعاء ، و قال تعالى :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186))

(سورة البقرة)

قال تعالى :

(ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا)

(سورة هود)

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا

1 ـ هذا ما قاله قوم صالح لنبيهم :

أي حينما دعوتنا إلى عبادة الله تغيّرتْ نظرتُنا إليك ، كنتَ قبل هذه الدعوة معقد الآمال ، وكنا نتوسَّم

فيك الصلاح ، وكنا نعلّق عليك الآمال ، و كنا ننتظر منك أن تكون معينا لنا ، أمَا وقد دعوتنا إلى أن نعبد اللهَ ، و ندع ما يعبد آباؤنا فقد خيَّبتَ ظننا ، فالإنسان الكافر هو الإنسان الكافر لا يتغيَّر ، و لا يتبدَّل ، هذا القول الذي قاله قومُ صالح لسيدنا صالح حينما دعاهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

(سورة هود)

قصة إسلام عبد الله بن سلام وموقف اليهود منه : حادثةٌ وعِبرٌ :

هذا القول ذكَّرني بقصة كنتُ قد ألقيتها على الإخوة في بعض دروس الأحد ، وهي قصة عبد الله بن سلام ، هذا رجل من اليهود أدرك بعثة النبيِّ عليه الصلاة و السلام ، لا أريد أن أطيل عليكم ، سأقرأ لكم قصته كما رواها هو يقول عبد الله بن سلام : << لما سمعت بظهور النبي صلى الله عليه و سلم أخذت أتحرَّى عن اسمه ونسبه وصفاته وزمانه ومكانه ، وأطابق بينها وبين ما هو مطوّر من الكتب عندنا ، حتى استيقنتُ من نبوَّته ، أنظُر إلى صدقه ؛ يبحث ، ويدقّق ، ويحقّق ، ويتأمل ، ويسأل حتى استيقنتُ من نبوَّته ، وتثبَّتُ من صدق دعوته ، ثم كتمتُ ذلك عن اليهود ، وعقلتُ لساني عن التكلُّم فيه، إلى أن كان اليومُ الذي خرج فيه النبيُّ عليه الصلاة والسلام من مكة قاصدا المدينة ، فلما بلغ يثرب ، ونزل بقباء ، أقبل رجلٌ علينا ، وجعل ينادي في الناس معلنا قدومَه ، وكنتُ ساعتئذٍ في رأس نخلة لي أعمل فيها ، و كانت عمَّتي خالدة بنتُ الحارث جالسة تحت النخلة ، فما أن سمعتُ الخبرَ حتَّى هتفتُ اللهُ أكبرُ ، فقالت لي عمتي حين سمعتْ تكبيري : خيَّبك اللهُ ، و اللهِ لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادما ما فعلتَ شيئا فوق ذلك ، فقلت لها : أيْ عمَّتي ، إنه واللهِ أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، وقد بُعِث بما بُعث به ، فسكتت ، وقالت : أهو النبيُّ الذي كنتم تخبروننا أنه يُبعَث مصدِّقا لمَن قبله ، و متمِّما لرسالات ربه ؟ فقلتُ : نعَم ، قالت : فذلك إذًا ، ثم مضيتُ من توِّي إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام ، فرأيتُ الناس يزدحمون ببابه ، فزاحمتُهم حتى صِرتُ قريبا منه ، فجعلت أتفرَّس فيه ، وأتملَّى منه ، فأيقنتُ أن وجهه ليس بوجه كذَّاب ، ثم دنوتُ منه ، و شهدتُ أنه لا إله إلا الله ، و أن محمدا رسول الله، فالتفت إليَّ ، وقال : ما اسمُك ؟ فقلت : الحُصين بن سلام فقال : لا بل أنت عبد الله بن سلام ـ هذا من عادة النبيِّ كان يبدِّل الأسماءَ إلى أسماء أحسن منها ـ فقلتُ : نعم عبد الله بن سلام ، والذي بعثك بالحق ما أحبُّ أنَّ ليَ به اسما آخر بعد اليوم ، ثم انصرفتُ من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتي ، و دعوتُ زوجتي وأولادي وأهلي إلى الإسلام ، فأسلموا جميعا ، وأسلمتْ معهم عمَّتي خالدة ، وكانت

شيخة كبيرة ، ثم إني قلتُ لهم : أكتموا إسلامي وإسلامكم عن اليهود ، حتى آذَنَ لكم ، فقالوا : نعم ، ثم رجعتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلتُ له : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهتانٍ وباطلٍ ، وإني أحب أن تدعوَ وجوههم إليك ، وأن تسترني عنهم في حجرة من حجراتك ، ثم تسألهم عن منزلتي عندهم قبل أن يعلموا بإسلامي ، ثم تدعوهم إلى الإسلام ، فإنهم إن علموا أني أسلمتُ عابوني ، و رموني بكلّ ناقصة ، وبهتوني ، فأدخلني النبيُّ عليه الصلاة و السلام في بعض حجراته ، ثم دعاهم إليه، وأخذ يحضُّهم على الإسلام ، و يحبِّب إليهم الإيمان ، ويذكِّرهم بما عرفوه في كتبهم من أمره ، فجعلوا يجادلونه بالباطل ، ويمارونه في الحق ، و أنا أسمع ، فلما يئس من إيمانهم قال لهم : ما منزلة الحُصين بن سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا ، وابن حبرنا وعالمنا ، فقال : أفرأيتم إن أسلم أفتسلمون ؟ قالوا : حاش لله ما كان ليسلم ، أعاذه اللهُ من أن يسلم ، فخرجتُ إليهم ، وقلت لهم : يا معشر اليهود ، اتقوا اللهَ ، واقبلوا ما جاءكم به محمَّدٌ ، فو اللهِ إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وتجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته ، وإني أشهد أنه رسول الله ، وأؤمن به ، وأصدِّقه ، وأعرفه ، فقالوا : كذبتَ ، واللهِ إنك لشرُّنا ، وابن شرنا ، وجاهلنا وابن جاهلنا ، و ما تركوا عيبا إلا عابوني به ـ فالكافر هو الكافر ـ فقلتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أقل لك إن اليهود قوم بهتان و باطل ، و إنهم أهل غدر و فجور >> ، وهذا يعني أن أحدهم يمدح ذكاءك ، و يمدح علمك ما دمتَ متحلّلا من الدين ، فإذا عرف أنك ديِّنٌ قال : خيَّبتَ ظني فيك ، هذا ما يقوله الناس ، والكافر هو الكافر، قال تعالى :

(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

(سورة هود)

أأنت عبدُ التقاليد ؟ أنت عبد البيئة ، أنت عبد المجتمع أم أنت عبد الله ؟ تعس عبد الدرهم و الدينار تعس عبد البطن ، تعس عبد الفرج تعس عبد الخميصة ، و سعِد عبد الله ، أنت عبد مَنْ ؟ هذا الذي يعصي اللهَ من أجل التقاليد ، ويعصي اللهَ من أجل ما هو معروف عند الناس ، هذا الذي يستحيي من الناس ، ولا يستحيي من الله ، هذا الذي يخشى الناسَ ، و لا يخشى الله ، هذا لا يعرف اللهَ إطلاقا ، قال تعالى :

(وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

(سورة هود)

2 ـ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ

نحن نشكُّ في دعوتك ونحن لا نصدِّق ما جئتَ به ، ونحن نعبد ما يعبد آباؤنا ، ونحن متعلّقون بالتقاليد والعادات والتراث والقيم الجاهلية ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ)

(سورة هود)

فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ

1 ـ لا أحدَ ينصرك من الله :

مَنْ يضمن لي إن عصيتُ اللهَ أن ينصرني ؟ أموري كلُّها بيد الله سبحانه وتعالى ، ومن يستطيع أن ينصرني من الله ؟ و من يستطيع أن يمنعني من الله ؟

أحدُ الولاة جاءه رجلٌ تابعيٌّ جليل ، وكانت قد جاءت الوالي رسالة من أمير المؤمنين تأمره بما لا يرضي اللهَ ، فقال : يا أيها العالِم الجليل ، ماذا أفعل ، هذا أمر من يزيد أمير المؤمنين يأمر بما لا يرضي اللهَ أفأطيعه أم أعصيه ؟ فأجابه التابعيُّ بكلماتٍ وجيزات ، قال : " إن اللهَ يمنعك من يزيد ، ولكنَّ يزيد لا يمنعك من الله " ، فإذا أطعتَ صديقَك ـ وجه التقريب ـ وعصيتَ اللهَ سبحانه وتعالى فإني محق ، فإذا جاء المرضُ العُضالُ مثلاً فماذا يفعل الصديقُ ؟! قد يتكرَّم عليك بالزيارة ، وإن كان صديقا حميما قد يزورك مرَّتين ، وإن كان أشدَّ من ذلك قد يأتي معه بهديَّةٍ ، وإذا جاءت المنيَّةُ يبعث لك بإكليل وردٍ ، هذا كلُّ ما عنده .

2 ـ كلُّ شيء بيد الله :

أما من يملك لك الصِّحة ؟ ومن يملك الحياة السعيدة في الدنيا ؟ ومن يملك لك قوَّةً ؟ ومن يملك لك رخاءً ؟ اللهُ سبحانه وتعالى ، إنَّ الله يمنعك من يزيد ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ، فلذلك قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ)

(سورة هود)

مَن يستطيع أن يحول بيني وبين عقاب الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد)

ومَن يستطيع أن يمنع عني قضاءَ الله ، قال تعالى :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد)

و قال تعالى :

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر)

و إذا أعطاك فمن يمنعه ، ثم مَن يعطي إذا هو منعك ، قال تعالى :

(فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ)

(سورة هود)

فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ

أي ، أنا إن اتَّبعتُ أهواءكم ، واستجبتُ لكم ، وتخليتُ عن هذه الدعوة ، وعصيتُ اللهَ لأرضيكم أكُن من الخاسرين ، ضع في ذهنك قوله تعالى :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد)

ضعْ في ذهنك هذه الآية ، قال تعالى :

(فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ(49))

(سورة هود)

مهما دارت الأيامُ ، فإن المؤمن في النهاية هو الرابحُ ، وكفاك على عدوِّك نصرا أنه في معصية الله ، وما دمتَ في طاعة وعدوُّك في معصية فأنت منتصر عليه لا محالة .

وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً)

(سورة هود)

1 ـ الناقة معجزة صالح :

يبدو أنهم أصرُّوا على كفرهم ، و استعلوا وركبوا رؤوسهم ، واتَّهموا نبيَّهم الكريم بالكذب والأغراض الشخصية ، وقالوا : له أغراض شخصية من هذه الدعوة ، إنه يريد أن يستعليَ علينا ، وأن يتفضَّل

علينا ، وأرادوا أن يتحدَّوه ، وأرادوا أن يضعوه في وضع حرج ، إن كنتَ تدَّعي أنك رسول الله ، وهذا مستحيل ، إن كنتَ كذلك فأخرج من هذا الجبل ناقة ، فدعا الله تعالى أن تَخرُجَ الناقة ، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعوته ليثبت نبوَّته ورسالته ، فانفلق الجبلُ فخرجت منه ناقة عظيمة ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً)

(سورة هود)

حسبكم الكونُ معجزة :

وبالمناسبة حسبكم الكونُ معجزة ، فالكون بوضعه الطبيعي ، والأرض بدورانها على نفسها ، والشمس بإشراقها وغيابها ، والليل والنهار ، والأمطار والبحار ، والجبال ، خلقُ الإنسان ، وخلق الحيوان ، وخلق النبات ، هذا الكون هو أكبر معجزة ، فإذا طلب الإنسانُ بعدها معجزة ، و لم يؤمن بها استحقَّ الهلاك الفوري ، لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا يهلك إنسانا وفيه بقيَّة من أملٍ لهدايته ، إذا طلب شيئا خارقا للعادة شيئا فوق التصوُّر شيئا غير طبيعي ، و كان قد علّق إيمانه على هذا الشيء ، وجاء النبيُّ بهذا الشيء ، ولم يؤمن به فلا معنى لحياته إطلاقا ، واستنفد الله سبحانه و تعالى معه كلَّ الفرص ، لذلك حقَّ هلاكُه ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً)

(سورة هود)

لكنَّ هذه الناقة التي طلبوها كانت تأكل في أرض الله ، وكانت قد شربتْ في يوم واحد الماء كلَّه ، وهذه معجزة أخرى ، وتركتْ لقوم صالح الماءَ في اليوم التالي ، قال تعالى :

(وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)

(سورة هود)

2 ـ كيف تعامل قوم صالح مع الناقة ؟

طلبوا الناقة متحدِّين ، وجاءت الناقة ، ولم يعجبهم ذلك ، وأرادوا أن يقتلوها ، خاف عليهم نبيُّهم صالحٌ عليه الصلاة والسلام ، خاف عليهم إن قتلوها أن يهلكهم الله سبحانه وتعالى هلاكا مُبرَماً ، قال تعالى :

(فَعَقَرُوهَا)

(سورة هود)

هنا سؤال ، قوم صالح جميعا عقروها ، كيف ؟ الذي عقرها واحدٌ ، والعلماءُ استنبطوا ، أنه إذا أقرَّ الإنسان عملا شائنا فقد شرك الفاعل في الإثم ، وأشقى قوم صالح عقَر الناقة ، وإقرارهم لهذا العمل

يعني أنهم كانوا شركاءَ في الإثم و الجريمة ، لذلك سيدنا عمر استنبط أن أهل قرية لو ائتمروا على قتل واحدٍ لقتلَّهم جميعا ، لأنهم جميعا قتلة ، لذلك قال تعالى :

(فَعَقَرُوهَا)

(سورة هود)

ربنا سبحانه و تعالى أي أن شقيَّ قوم صالح حينما عقر الناقة عبَّر عنهم جميعا ، وحقَّق آمالهم جميعا ، وأرضاهم جميعا لأنهم دفعوه جميعا ، فجاءت الآية ، قال تعالى :

(فَعَقَرُوهَا)

(سورة هود)

ثم قال تعالى :

(فقالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ)

(سورة هود)

3 ـ مصير قوم صالح بعد عقر الناقة : فقالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ

من طلب معجزةً ثم جاءته فكفر بها استحق العذاب :

انتهى ، بعد أن عقروا الناقة ، وعلى وجه التقريب تقول : يا رب إنْ نجحت واللهِ لأصلّين ، فينجح بمعجزة ، ويكون ضعيفا في هذه المادة ، ويأتيه سؤالٌ يتوقّعه ، و قد درسه ، و لما يأتي السؤال كما يتوقع و ينجح و لا يصلي يستحق العذاب الأليم ، ولئن أنجيتني من هذا المرض لأكونن طائعا لك يا رب ، و ينجيه الله من هذا المرض ، ويخلف وعده الله ، لذلك يأتي العذاب الأليم ، فإذا علّق الإنسانُ إيمانه على شيء من الله عز وجل ، و جاء هذا الشيءُ فلم يؤمن ، و لم يتُبْ فلينتظرْ مصيبةً كبيرةً قياسا على هذه الحقيقة ، قال تعالى :

(فقالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ)

(سورة هود)

أي استحقوا الهلاك ، وقُضِي الأمرُ ، فبقيَ الموضوع ثلاثة أيام ، العلماء وقفوا عند هذا الإيمان حتى بعد أن عقروا الناقة ، ولو أنهم ندموا على فعلتهم ، وتابوا إلى ربهم لعفا اللهُ عنهم ، هذه مهلة أخيرة ، كفروا ، و استكبروا ، و استعلوا ، و تحدَّوا ، و طلبوا معجزة في ظنهم أنها مستحيلة ، هل تخرج ناقة من الجبل ، خرجتْ ، فلم يعجبهم ذلك ، و لم يرضوا بها لماذا ؟ لأنها بدأت تجلب ضعافَ الناس إلى سيدنا صالح ، وبدأت تزلزل عقائدهم بكفرهم ، و بدأت تشيع في الناس أن هذا نبيٌّ عظيم ، و لم يرضوا

أن تبقى هذه الآية مستمرة ، ولم يرضوا أن ينصرف الناسُ إلى نبيِّهم الكريم ، عقروها فاستحقوا الهلاكَ، وأعطاهم اللهُ مهلة ثلاثة أيامٍ ، و لو أنهم تابوا ، و عادوا ، و رجعوا ، و أنابوا لقبلهم الله ، فإذا قال العبدُ : يا رب ، و هو راكع قال : لبَّيك يا عبدي ، فإذا قال العبد : يا رب ، وهو ساجد قال : لبّيك يا عبدي ، فإذا قال العبدُ : يا رب ، وهو عاصٍ قال : لبَّيك ، ثم لبَّيك ، ثم لبَّيك ، ولو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطَّعت أوصالُهم من حبِّي ، ولماتوا شوقا إليَّ ، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف إرادتي بالمقبلين ؟ قال تعالى :

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

(سورة هود)

جاء وقت إنجاء صالح ومن آمن معه :

مَن كان مع الله العزيز كان عزيزا :

كنْ مع القويِّ العزيز تكنْ عزيزا ، و تنجُ من كلُّ همٍّ و ألم :

اجعلِ لـربِّك كلَّ عزِّك يستقرُّ و يثبت

فإذا اعتززْتَ بمن يموت فإن عزك ميِّتُ

إذا أردتَ العزة فاعتزَّ بالله سبحانه وتعالى ، سبحانك إنه لا يذلُّ من واليتَ ، و لا يعزُّ من عاديتَ ، قال تعالى :

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

(سورة هود)

القويُّ الذي لا يُدان بقوته ، و العزيز الذي لا يُنال جانبُه ، قال تعالى

(وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

(سورة هود)

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ

بيْن مخلَّد الذِّكر وخبر في طي النسيان :

صيحةٌ واحدة كأن لم يغنوا فيها ، كأنهم لم يكونوا ، صفحةٌ و طُويتْ ، والإنسان يحيا إن عصى اللهَ سبحانه و تعالى و ظلم و بغى ، فيأتِي الموتُ فينهيه كأن لم يكنْ ، ويصبح خبراً ، وبعد أيام يُنسَى ، و انتهى الأمر ، و بقي في العذاب إلى الأبد ، و لكنَّه إذا جاء للدنيا ، و أطاع اللهَ عز وجل خلَّد اللهُ له ذكرَه ، و جعله في قلوب المؤمنين .

كيف أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام بعد ألف و خمسمائة عام تقريبا ؟ اِذهبْ اليوم إلى المدينة المنورة ، و ادخُلْ إلى مسجد النبيِّ عليه الصلاة و السلام ماذا ترى ؟ ترى الشيءَ الذي يُبكِي ، أناس من كلَّ قوم، و من كلِّ عِرق ، و من شرق آسيا ، و من مشارق الأرض ومغاربها ، و من إفريقيا ، و من بلاد العرب ، و من الشرق الأوسط ، كلُّهم يناجونه ، و يبكون ، ماذا فعل النبيُّ عليه الصلاة و السلام ؟ دعانا إلى الله سبحانه و تعالى ، إذًا : إذا عرفتَ اللهَ في الدنيا جعل اللهُ ذكرَك في قلوب الناس ، و يحيي ذكرَك ، و تكون مع السُّعداء ، فإذا جاء الإنسانُ للدنيا ، و انغمس في شهواته يأتي الموتُ ، و يُطوَى ، و كأنه لم يكن ، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس)

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ

كأن لم يغنوا فيها ، أين بيوتهم ؟ وأين مساكنهم ؟ وأين صولتهم ؟ وأين جولتهم ؟ وأين مكانتهم ؟ وأين عزُّهم ؟ و أين حفلاتهم ؟ و أين سهراتهم ؟ قال تعالى :

(كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ)

(سورة هود)

بعُدوا عن الله سبحانه وتعالى ، وأبعدهم ، ولعنهم ، فصاروا مع الأشقياء .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (10-16): تفسير الآيات 69 - 83
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-03-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في سورة هود إلى قصّة سيّدنا إبراهيم وقصّة سيّدنا لوط ، يقول تعالى :

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)

(سورة هود)

قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام :وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى

1 - إبراهيم عليه السلام كان في فلسطين :

قوم لوط يسكنون في أطراف الشام ، وسيّدنا إبراهيم يسكن في فلسطين ، الملائكة الكرام الذين أوكلهم الله سبحانه وتعالى بإهلاك قوم لوط مَرُّوا في طريقهم إلى بلاد الشام ، مروا على سيّدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى)

(سورة هود)

2 - ما هي البشرى التي جاءت بها الملائكة ؟

ما هي البشرى ؟ العلماء فسَّروا هذه البُشْرى بأحد معْنييْن :

المعنى الأول :

أنَّ سيّدنا إبراهيم له مِن هاجر إسماعيل الذبيح عليه السلام ، أما امرأته سارة فقد كانت عقيمًا لا تلِد ، وأراد إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام أن يكون له ولد من امرأته الأولى سارة ، فجاءت الملائكة ، وبشّرَتْهُ بالولد الطيِّب إسحاق الذي أصبح نبيًّا ، والذي جاء مِن نَسْله سيّدنا يعقوب عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام ، فهذه هي البشرى .

المعنى الثاني :

المعنى الآخر للبشرى أنّ الملائكة أخبروه بأنَّهم مُهْلِكوا قوم لوط المفسدين .

3 ـ أفضل كسْب الرجل ولدُه :

إذًا : يُعدُّ الغلام بشرى لِما قد يفتح الله على يديه ، لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[رواه النسائي]

النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((أفضل كسْب الرجل ولدُه ...))

[الطبراني عن أبي بردة بن نيار ، وإسناده ضعيف كما في الجامع الصغير]

فحينما تبذلُ مجهودات كُبْرى في رعايَة أولادك بقَصْد أن يُعينوك في كِبَرك فهذا موضوع ، أما إذا بذلْت عِناية كُبرى في تعليمهم القرآن ، وتفقيههم بأحكام الدِّين ليكونوا دُعاةً إلى الله تعالى من بعدك ؛ فهذا موضوع آخر ، فهذا هو الكسب الذي لا ينقطع ، وهذه هي الصدقة الجارية ، أفضل كسب الرجل ولده ، فالبشرى إذًا : إما بالولد أو إهلاك القوم الفاسقين ، وكلاهما بشرى ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا)

(سورة هود)

4 ـ السلام تحية الإسلام في الدنيا وفي دار السلام :

طرحُ السلام سنَّة لكنَّ ردَّ السلام فرضٌ ، وإذا حيِّيتم بتَحيّة فحيُّوا بأحسن منها علماء النحو قالوا : إنَّ كلمة سلامًا شيء ، وسلامٌ شيء آخر ! الضمّ أقوى من الفتح ، وكلّكم يعلم أنَّ أقوى الحركات الكسر فالضمّ فالفتح فالسكون ، فحينما قال : سلامٌ ، وكانوا قد قالوا سلامًا ؛ قال : سلام ، فحيَّاهم بتَحِيَّة أحسنَ منها ، والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا بإفشاء السلام ، فأحيانًا يكون الإنسان يمشي بطَريق مُسْتوحَش، فإذا مرَّ به رجل يكاد قلبه ينخلعُ خوفا ، فالراكب يُلْقي على الماشي ، والقويّ على الضعيف، وكلمة السلام عليكم تبْعث الطمأنينة في النَّفس ، والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا بإفشاء السلام ، وأن نُسلِّم بِسَلام الإسلام : السَّلامُ عليكم ! والسَّلامُ اسمٌ من أسماء الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ)

(سورة الحشر : من الآية 23)

والآخرة دار السلام ؛ لا نغصَ ولا تعب ، ولا هم ولا حزن ، ولا قلق ولا خوف ، ولا وجل ، ولا كِبَر ولا مرض ، قال تعالى :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

(سورة يونس : من الآية 25)

اللهمّ أبلِغْنا دار السلام بسَلام ، فإفشاء السلام سنَّة نبويّة مطهرة ، ولكنّ ردَّ السلام فرض ، والأولى أن يُردَّ بأحسن منها .

قال تعالى :

(قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(69))

(سورة هود)

قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(69)

1 ـ من آداب الضيافة تعجيل الطعام والقِرَى :

الله سبحانه وتعالى في هذه القصة يُعلّمنا آداب الضِّيافة ، أوّلاً الاستِعداد للضّيْف ، وقتٌ قصيرٌ جدًّا بين دُخولهم عليه ، وبين تقديم العِجل الحنيذ لا بدّ أنَّه مستعدّ للضِّيافة ، والشيء الثاني أنَّه من آداب الضِّيافة السرعة في تقديم الطعام ، قد يأتي المسافر من مكان بعيد ، وقد يكون جائعًا ، وأنت تُدْخِلُهُ غرفة الضيوف ، وينتظر إلى أن يكاد أن ينفجر ، أما السنَّة المطهّرة فما لبثَ ! أيْ سريعًا ما جاء بالطعام ، قال تعالى :

(فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(69))

(سورة هود)

2 ـ معنى : بِعِجْلٍ حَنِيذٍ

الحنيذ هو العِجْل المشويّ على الحجَر ، وقالوا : العِجل السَّمين ، على كُلٍّ قدَّم سيّدنا إبراهيم لِضيوفه أطْيَب الطعام ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((المؤمن كالنَّحلة لا تأكل إلا طيِّبًا ، ولا تُطْعمُ إلا طيِّبًا))

[ورد في الأثر]

هذا الذي يُقدِّم طعامًا لا يأكله ، مُحاسَبٌ عند الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(69))

(سورة هود)

يعني أن العجل سمينٌ مشوي ، ثمَّ يقول تعالى :

(فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ)

(سورة هود)

فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ

1 ـ ضيوف إبراهيم من الملائكة :

لا تنظر إلى الضيف وهو يأكل :

يُكرهُ أن يتأمَّل صاحبُ الدعوة ضيوفهُ كيف يأكلون ؟ يُرْوى أنَّ أعرابيًّا جلس عند رجل وأكل عنده ، فقال هذا الرجل المُضيف : في لقمتك شَعرة ! فقال : تنظرُ إليّ حتّى ترى الشَّعْرة في لُقْمتي ، أنا لا آكُل طعامك أبدًا ، فتأمّل الضيف ، وهو يأكل ليس من آداب الإسلام ، ولكنّه أحيانًا يجب أن تخْتلسَ النَّظر إليه فلعلَّه لا يأكل ! ولعلَّهُ في خجَل ، ويبْدو أنَّ سيّدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام اخْتلسَ النَّظر إليهم ، فرآهم لا يأكلون ، قال تعالى :

(وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً)

(سورة هود)

2 ـ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً

لأنَّ من عادة أبناء الرِّيف الكرام أنَّهم كُرماء ، وأنَّ أحدًا إذا لم يأكل من عندهم يظنُّون به الظُّنون ، لأنَّك إذا أطْعمْتَ إنسانًا ، أو أكلتَ عند إنسانٍ صار بينك وبينه كما يقال خبزٌ وملح ، وهذا الخبز والملح يمْنَعُ الخِيانة والغَدْر ، والقنْص ، ما دام أكل عندك ، وأكلتَ عنده فبينكما عهْدٌ ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إنَّ الله يسأل العبد عن صُحبة ساعة))

[ورد في الأثر]

إذاً : سيّدنا إبراهيم رأى أيْدِيَهم لا تصل إليه ، لا يأكلون ، هذا الذي لا يأكل عند مُضيفِهِ يَنْوي شرًا ، أو يُزْمِعُ أمرًا خطيرًا ، قال تعالى :

(فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ)

(سورة هود)

والعلماء قالوا : من آداب الضِّيافة أن تُسْرعَ في تقديم الطعام ، ومن آداب الضَّيْف أن يُسْرِع في الإجابة، قال تعالى :

(فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً)

(سورة هود)

حينما رأوْهُ خائفًا منهم ، وظنَّ بهم الظنون ، أوْجسَ في نفسِهِ خيفة ، قال تعالى :

(قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ)

(سورة هود)

قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ

تطمين الملائكة لإبراهيم :

نحن لسْنا من بني البشر ، نحن لا نأكل هذا الطعام ، هذا طعام البشر ونحن ملائكة ، قال تعالى :

(إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ)

(سورة هود)

لا تخف إن أرسلنا إلى قوم لوط ، وقال بعض العلماء : لماذا لم يُخْبروه منذ أن دخلوا أنَّهم ملائكة ، كيف يبْدو كرمهُ عليه الصلاة والسلام ؟ لو أنَّه علِمَ أنَّهم ملائكة لا يظهر هذا الكرم الذي ينْطوي عليه ، لكنَّهم أخَّروا تعريفهم بأنفسهم إلى أنْ بدَا كرمُهُ الشَّديد وحِرْصهُ على إطعام الضَّيف ، وفي بعض الأحاديث الشريفة أنَّ الضيف يأتي برزْقه ، ويرْتَحِلُ بذُنوب القوم ! قال تعالى :

(إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70)وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ)

(سورة هود)

وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ

1 ـ المرأة قائمة في خدمة الزوج :

لو تعلم المرأة حقّ الزَّوج ما قعَدَتْ ما حضر طعامه أو غذاؤه بل ظلّت قائمة لِخِدمتهِ وخدمة ضُّيوفه ، ولكنّ في بعض التفاسير ، وهو تفسير القرطبي قال : قائمة خلفَ السِّتار ، أما أنْ تدخل المرأة لِتُقدِّم الطعام للضيوف فهذا يتناقض مع سنَّة النبي عليه الصلاة والسلام ، ومع حقائق الإسلام ؛ هذه امرأة

وهي زوجة ، في هذا التفسير ، هكذا ورَدَ ، و امرأتهُ قائمة خلف السّتار لِلخِدمة ، وعلى كلّ الذي يدْعو إخوانه إلى الطعام لا يذهبنّ به الظنّ إلى أنَّ الأجر له وحدهُ ؛ الأجر منقسِمٌ إلى أقسام ثلاثة فهو له منه الثلث ، ولزوجته التي بقيَتْ تُعدّ الطعام لِساعات طويلة لها الثلث الثاني ولأولاده الذين قدَّموا الطعام ، وخدموا الضيف الثلث الباقي ، وبعض الأحاديث تُشير إلى هذا المعنى ، قال تعالى :

(وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ)

(سورة هود)

أي قائمة بِخِدمته ، وخِدمة ضيوفه .

لي صديق تُوُفِّيَت أمّه فذهَبْتُ لأعزّيه ، وقد مكثْتُ طويلاً عنده إلى أن انْتَهَتْ التَّعزيَة ، وانْفضَّ المُعَزُّون ، فكان أبوه يبْكي بُكاءً مُرًّا ، أمُّه مُتقدِّمة بالسنّ ، وأبوه كذلك ، وقد أمْضَيا معًا أكثر من خمسين عامًا ، ما هذا البكاء المرّ ؟! حينما حاول بعض الأهل أن يهونوا عليه المصاب قال : والله أمْضَيْتُ معها خمسين عامًا ، ما نِمْتُ ليلةً واحدة وأنا غاضبٌ عليها ! وهكذا كان السلف الصالح .

ثمَّ يقول تعالى :

(فَضَحِكَتْ)

(سورة هود)

2 ـ فَضَحِكَتْ

مِمَّ ضَحِكَتْ ؟! هنا معنى آخر ، وهي أنَّ المرأة الصالحة تتعاطف مع زوْجها تعاطفًا كبيرًا ، مأساتُهُ مأساتها ، ومسرَّاتُه مسرَّاتُها .

أوْصَتْ امرأةٌ ابْنَتها قبل أن تُزفَّ إلى زوجها فقالتْ لها : " اتَّقِي الفرَح بين يديه إن كان ترحًا ، والترح بين يديه إن كان فرحًا ، فإنَّ الخصْلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير " .

يبْدو أنَّها لما علِمَت أنَّه قلقٌ من هؤلاء الضيوف ، حينما علمتْ قلقهُ وخوفهُ قلقَتْ لِقَلقِه ، وحزنَت لِحُزْنِه.

خطب إنسانٌ امرأةً من أُسرةٍ صالحة ، فلمَّا دخل بها إلى غرفة الزوجية وجدَ كمالاً وصلاحًا ، فصلى ركْعتين شُكرًا لله على نِعمة الزَّوجة الصالحة ، قال : فلمَّا سلَّمْتُ من صلاتي وجدتها تُصلّي بصَلاتي ، وتُسلِّم بِسَلامي ، وتشْكُر بشُكري ! والنبي قال : المرء على دين خليله ، وكان الإمام الشعراني رحمه الله يقول : أنا أعرف مقامي عند الله من أخلاق زوجتي ، قال تعالى :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(21))

(سورة الروم)

هذا هو الأصل ، وهذا هو التصميم الإلهي ، وهذه هي هندسة الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(21))

(سورة الروم)

فما بال معظمُ بيوت المسلمين فيها المُشاحنة والبغضاء ، والمُشاكسة والخِصام والشِّقاق ؟ السَّبب بسيط جدّا ، إذا أطاع الزوجان ربّهما تولّى الله سبحانه وتعالى التوفيق بينهما ، فكان هذا البيت جنَّة صغرى ، وإذا عصيَا الله سبحانه وتعالى تولّى الشيطان التفريق بينهما قال تعالى :

(وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ)

(سورة هود)

قائمة لخدمته وخدمة ضيوفه ، وقائمة من وراء السِّتار ، حينما علِمَت قلقه قلِقَتْ لِقَلَقِهِ ، وحينما عَلِمَتْ حُزْنَهُ حزِنَتْ لِحُزْنِهِ ، فلما بُشِّر من قِبَل هؤلاء الملائكة أنَّهم ملائكة قد أُرسلوا إلى قوم لوط زال حزنه ، وقلقهُ ووجلهُ ، فعَلِمتْ بذلك فضحِكَت ، هذا هو التعاطف ، والمشاركة الوجدانيّة ، أنت هي ، وهي أنتَ.

قال تعالى :

(فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ)

(سورة هود)

3 ـ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ

العلماء استنبطوا أنَّ الذبيح هو إسماعيل ، وهو أسنّ من إسحاق ، وإسماعيل الذبيح ، وهو من ولدِ هاجر ، وهذه سارّة ، قال تعالى :

(فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)

(سورة هود)

الله لا يعجزه شيء ، وهو خالق الأسباب :

الآن هناك موضوع جديد ، هذه امرأةٌ مُتَقَدِّم في السنّ ، وقد انْقَطَعَت دوْرتها منذ عشَرات السِّنين ، فأنَّى لها أن تلِد ؟! الله سبحانه وتعالى جعلَ لِكُلّ شيءٍ سببًا ، وهو مُسبِّبُ الأسباب ، ومن أجل أن تعرفَ أنّه مُسبِّب الأسباب يُعطّل أحيانًا بعض الأسباب ، ولو أنَّها لم تُعطّل لظَنّ أنّ الأسباب هي التي تخلق المُسبَّبات ، والله هو مُسَبِّبُ هذا السَّبَب ، فمادام السّبب من خلْق الله يُعطِّلُهُ متى يشاء . قال تعالى :

(قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا)

(سورة هود)

قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا

استغراب امرأة إبراهيم من بشرى الملائكة بالولد :

يا ويْلتا !!! هذه من ألفاظ التعجّب ، الله عز وجل جعل هناك نِظام التَّوالد أنْ يكون هناك أبٌ وأمّ وزواج وهذه هي الحالة العامة للتوالد ، ثم إن هناك مولوداً من دون أب ؛ هو سيّدنا عيسى عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام ، وهناك مولود من دون أمّ ، وهي أمّنا حواء ، وهناك من يتزوّج بامرأة ولا ينجبُ أولادًا ، بمعنى أن أحدهما أو كلاهما عقيم ، وسيّدنا آدم من دون أب ومن دون أمّ ، هذه هي الحالات الأربع للخلق والتوالد ، امرأةٌ واحدة يجوز لنا النظر إليها جميعنا ، وهي أمّنا حواء ، وحينما يُعطّل الله الأسباب فهذا إشارة منه سبحانه إلى أنَّه مُسَبِّب الأسباب ، قال تعالى:

(قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ)

(سورة هود)

جملة وأنا عَجوزٌ : جملة حاليَّة ، قال تعالى :

(قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)

(سورة هود)

كُنْ فيكون ، زُلْ فيَزُول ، قال تعالى :

(قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)

(سورة هود)

فالبحر صار طريقًا يبَسًا على يدي سيدنا موسى ، والنار كانت برْدًا وسلامًا على إبراهيم فلم تُحْرق والناقة خرجت من الجبل ، وهذه الأشياء لها معنى كبير ، وهي أنَّ الله سبحانه وتعالى يجعلُ لكلّ شيءٍ سببًا ، وقد يُلْغي هذا السَّبب ، إذًا هذا السَّبب بيَدِهِ فهو مُسَبِّبُ الأسباب ، لو أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يخرق هذه الأسباب ماذا يُظَنّ ؟! أنَّ هذه الأسباب هي التي تخلق المُسَبَّبات ؛ أطِبَّاء مثلاً يقولون لك : هناك حالة نادرة تُسمَّى الشِّفاء الذاتي ، لماذا ؟ لأنَّ الشِّفاء يحتاج إلى سبب ، والله خالق السَّبب ، من أجل أن تعرف أنَّ تأثير هذا السَّبب بالشِّفاء عن طريق الله سبحانه وتعالى قد يخلق الشِّفاء بلا سبب ، والأطباء سمَّوهُ الشِّفاء الذاتي ، أي من عند الله مباشرةً .

قال تعالى :

(قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ)

(سورة هود)

قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ

نساء الرجل من أهله ، فأزواج النبي عليه الصلاة والسلام من أهل البيت ، وهنَّ أمَّهات المؤمنين ، قال تعالى :

(رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ)

(سورة هود)

1 ـ الرحمة هي التَّجلي :

الرحمة هي التَّجلي ، والقُرْب من الله يُسبِّب الشعور بالرحمة ، لذلك عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى))

[رواه البخاري]

فهذا الذي يُعامل الناس باللّين يرْحمهُ الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ(56))

(سورة الأعراف)

هذا هو التَّجلي ، ورحم الله امرأ صلى قبل العصر أربعًا ، وكلّ حديث فيه رحِمَ الله ، أيْ أنَّ الله سبحانه وتعالى يتجلّى على هذا الإنسان بتَجَلٍّ يُسبِّبُ شعورًا بالرّحمة ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، البركات النُّمُوّ والزِّيادة ، قال تعالى :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ(56))

(سورة الأعراف)

وقال تعالى :

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(1))

(سورة الملك)

إنسانٌ مُبارك يعني خيرهُ عميم .

ثمّ يقول تعالى :

(إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ(73))

(سورة هود)

2 ـ إنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

أفعاله سبحانه وتعالى يُحمدُ عليها في النِّهاية ، ما من حدث يقعُ على وجه الأرض ، منذ أن خلق الله الأرض ، وحتى قيام الساعة ، إذا كشف الله للبشر عن أسبابه ، وعن حِكمته لا يملِكُ البشَرُ إلا أنْ يقولوا : الحمد لله رب العالمين ، قال تعالى :

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(10))

(سورة يونس)

عدل الله مطلق لا يشوبه ظلمٌ :

الله سبحانه وتعالى مطلق ، معنى مطلق أنَّ عدالته مطلقة ، وحكمته مطلقة ، ورحمته مطلقة ، فالمطلق لا يُحْتَمل منه أدنى نقص مهما كان صغيرًا ، ستَّة آلاف مليون إنسان على وجه الأرض ، لو أنَّ إنسانًا واحدًا ظُلِمَ لكان هذا يتناقض مع ألوهيّة الله سبحانه وتعالى ، ولا يظلم ربك أحداً ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي ، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلَا تَظَالَمُوا))

[مسلم عن أبي ذر]

قال تعالى :

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

وقال تعالى :

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(17))

(سورة غافر)

وقال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(40))

(سورة العنكبوت)

الله عز وجل لا يغفل عن مخلوق ، ويعطي كلّ ذي حقٍّ حقَّه بالكمال والتَّمام ، فإذا قدِمنا على ربِّنا يوم القيامة وكشف لنا الحقائق ، فلا نمْلكُ إلا أنْ نقول : الحمد لله رب العالمين ، لذلك فإن الإمام الغزالي رضي الله عنه عبَّر عن هذه الحقيقة فقال : " ليس في الإبداع مما كان

" ، بعضهم فسَّرها فقال : ليس في إمكاني أبدعُ مِمَّا أعطاني ، هذا الذي أنت عليه اليوم هو أكْمَلُ شيءٍ لك ، وأنسبُ شيءٍ لك وأحكمُ شيء لك ، أعونُ شيءٍ لك على إسْعادك في الآخرة ، ليس في إمكاني

أبدعُ مِمَّا أعطاني .

قد تحمدُ إنسانًا لا ينْتَزِعُ إعجابك ، وقد تُعجَبُ بإنسان لا تُحِبّه ، في حياتنا اليوميّة قد تلتقي بإنسانٍ ذكيّ جدًّا إلا أنَّه لئيم ، ينتزعُ إعجابك بذكائه إلا أنّ قلبك يمقُته لِلُؤْمِهِ ، وقد تلتقي بإنسان ينْتزِعُ محبَّتك بلُطْفِهِ، ولكنّك لا تُعْجبُ به لِضَعَف تفكيرِهِ ، ولمحدوديَّته ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى حميدٌ مجيد ، عُلُوّه لا حدود له ، ومع ذلك يُعاملُكَ معاملةً تحمدُهُ عليها ، هذا يفسِّر قوله تعالى :

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(78))

(سورة الرحمن)

قد يأخذ الإنسان شهادات عليا ، وقلبهُ معلَّق بوالدَتِه ، ولكنَّ والدته غير متعلِّمة ؛ يُحبّها ولكنَّه إذا طرح معها موضوعًا فكريًا لا تنال إعجابه في أسلوب حديثها ، وأسلوب مناقشتها ، وقد يلتقي بأستاذٍ قدير ، وقاسي القلب يُعْجبُ به ، ولا يحترمه ولا يحبُّه ، وقد تحبّ إنسانًا ولا تحترمهُ، ولكنّ الله سبحانه وتعالى الذات الكاملة ؛ ذو الجلال والإكرام ؛ عظيم لا حدود لعظمته ، وكريم لا حدود لكرمه ، تُحبّه وتعظّمه ، لذلك يا رب ، أيّ عبادك أحبُّ إليك حتى أُحبّه بحُبِّك ؟ قال : أحبّ العباد إليّ تقيّ القلب نقيّ اليدين لا يمشي إلى أحدٍ بسُوء ، أحبَّني ، وأحبَّ من أحبَّني ، وحبَّبني إلى خلقي ، قال : يا ربّ ، إنَّك تعلم أنِّي أحبّك وأحبّ من يُحِبُّك ، فكيف أُحبِّبُك إلى خلقك ؟ قال : ذكّرْهم بآلائي ، ونعمائي ، وبلائي ، ذكرهم بآلائي من أجل التعظيم ، وبنعمائي من أجل المحبة ، وبلائي من أجل الخوف .

لا بدّ من أن يجتمعَ في قلبك محبَّةٌ وإجلال ، وخوف ، فالخوف حتى لا تعصيه ، والمحبّة حتى تُقبِلَ عليه ، والتعظيم حتى تنصرف إليه وتدَعَ ما سِواه إجلالاً وخوفاً ومحبَّةً .

قال تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)

(سورة هود)

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ

1 ـ معنى : يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ

سيّدنا إبراهيم يُجادل الله سبحانه وتعالى من خلال مجادلته للملائكة الذين قدموا عليه بخبر قوم لوط الذين أراد الله إهلاكهم ، هنا المجادلة تعني أشياء كثيرة ، أحيانًا الطبيب يقرِّرُ قطْعَ هذه اليد ، لأنَّ مرض المُوات بدأ يتغلْغلُ فيها ، فإن لم تُقْطع اليوم من هنا قُطِعت بعد يومين من مكان آخر أدنى إلى جسمه ! فقرار الطبيب لا رَجْعة فيه ، لأنَّه مَبْنيّ على علم ، وحكمة ودِقَّة تقدير ، من الذي يُجادل

الطبيب ؟ الأب ، ينطلق الأب من رحمة ، لكنَّ عِلم الأب لا يرْقى إلى عِلم الطبيب ، لذلك يُجادله فربّنا عز وجل أراد إهلاكهم ، ولكنّ سيّدنا إبراهيم لما انطوى في قلبه من رحمة ومحبّة للبشر يُجادلنا في قوم لوط ، قال تعالى :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)

(سورة هود)

2 ـ هذه بعض صفات إبراهيم عليه السلام : حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيب

هذه صفات الأنبياء ، كاد الحليم أن يكون نبيًّا ، والحلمُ سيِّد الأخلاق ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيْتُم كثيرًا .

الأم التي لها ابن مريض لا تضحك ، الأخ يضحك ، ولكنّ الأم لا تضحك ، الأم التي لها ابن مسافر تبْدو قلقة بِشَكل مُسْتمرّ ، والأم التي لها ابن مريض تبْدو قلقة ، لأنَّ قلب الأم لا يعرف القسْوة ، وقلب الأم يسعُ كلّ الأولاد ، ولكنّ الابن إذا كان مُعاقًى يضحك ، ويقول : أخي مريض ، الله يشفيه ، وماذا أستطيع أن أفعل له ؟ قال تعالى :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)

(سورة هود)

معنى منيب راجعٌ إلى الله سبحانه وتعالى في كل أحواله ، قال تعالى :

(يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا)

(سورة هود)

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا

1 ـ أمرُ اللهِ إبراهيمَ بترك جدال الملائكة :

أيْ لا تُجادلني ، لأنَّ الله تعالى قال :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

وردت كلمة الرحمة نكرة في الآية السابقة ـ آية آل عمران فهي تتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم ، أما في الآية التالية من سورة هود فقد وردت معرفة ، وقال تعالى :

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمْ الْعَذَابَ)

(سورة الكهف : من الآية 58)

لأن الله سبحانه وتعالى صاحب الرحمة الكبرى ، ومع ذلك قال تعالى :

(يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)

(سورة هود)

2 ـ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُود

أحيانًا يُقرَّر إعدام إنسان ارتكبَ جريمة كبيرة ، وحينما يصْعد مِنصّة المِشْنقة ، فإن بكى أو لم يبْك ، ورجا أو لم يرْجُ ، تأوَّه أو ضحك ، كلّ هذا سيَّان ، هذا أمْرٌ لا مردَّ له ، البطل هو من يحتاط للأمور قبل وُقوعها ، قبل أن يقعَ أمْرٌ لا مردَّ له ، لأنَّه إذا وقع الأمر الذي لا مردَّ له ؛ إن شئت فاضْحك ، وإن شئتَ فابْك ، وإن شئتَ فتوسَّل ، وإن شئت اُسْكُت ، كُلُّه سيَّان ، أمر غير مردود ، فالبطولة أن تنْجُوَ من هذا العقاب الذي لا مردَّ له ، البطولة وأنت مُعافى ، وأنت في بحبوحة ، و أنت في شبابك ، وأنت في قوَّتك ، وأنت في غِناك ، وأنت في صحّتك تعَرَّف إلى الله في الرخاء من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له ، هذه ساعة عصيبة ، قال تعالى :

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(10))

(سورة المدثر)

قال تعالى :

(وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)

(سورة هود)

هؤلاء الرسل انتقلوا من فلسطين ، إلى أطراف الشام إلى أرض قوم لوط ، قوم لوط كانوا يحْتلون مجموعة أماكن ، في أطراف بلاد الشام ، تروي بعض القصص أنَّ الله سبحانه وتعالى صوَّر بعض هؤلاء الملائكة على شكل شباب جميلي الوُجوه ، دخل هؤلاء الملائكة على صورة شبانٍ جميلي الصورة ، دخلوا إحدى قُرى قوم لوط ، بنتان لِسَيِّدنا لوط كانتا تجلبان الماء ، فسألوهما عن هذه القرية ، فقالتا : إنّها قرية تعمل الخبائث ، وإنَّهم فساق ، فقالوا لهما : أليس في هذه القرية بيت نضيف عنده ؟! فدلّتْ إحداهما هؤلاء الملائكة على بيت أبيها لوط ، فلما دخلوا على سيّدنا لوط سيئ بهم ، أي أصبحَ هؤلاء على ذِمّتِه وفي جواره ، ويعلم من قومه أنَّهم فاسقون فاجرون ، إنْ رأوْهُم تهافتوا إليه لِيَفْعلوا معهم الفاحشة !! سيئ بهم عندئذٍ ، وضاق بهم ذرعًا ، وقال سبحانه :

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)

(سورة هود)

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ

1 ـ الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام :

تروي القصص أنَّ امرأة لوط ذهبت إلى قومها ، وأخبرتهم خِفْيَةً أنَّ عند زوجها شبانًا جميلي السورة ، فإن شئتُم فأتوا لوطًا ، قال تعالى :

(وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ)

(سورة هود)

2 ـ إسراع قوم لوط إلى مكان الملائكة :

معنى يُهْرِعُ أي يُسْرِعُ ، مع اقتراب من غضب أو رغبة أو خوف ، قال تعالى :

(وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ)

(سورة هود)

جاءوه ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)

(سورة هود)

موقف لوط : قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ

1 ـ معنى : هَؤُلَاءِ بَنَاتِي

عند هذه الآية وقفة لا بدّ منها ، فلا يُعْقَل أنَّ سيّدنا لوط عليه السلام ذلك النبي الكريم يريد أن يُزوِّج بناته من هؤلاء الفجرة ، ولكنَّ العلماء قالوا في كلمة

(هَؤُلَاءِ بَنَاتِي)

يقْصِد بهنّ مطلق النِّساء ! فليس المقصود بناته هو ، ولكنّ المقصود جِنْس النِّساء ، هذا طريق شاذّ ، هذا طريق قذر ، أن تضع البذْرة في بيئة نجسة ، ليس هذا وِفْق الأصول ، أعدّ الله سبحانه وتعالى مكانًا طاهرًا تضعُ فيه ماء الحياة ، وهؤلاء القوم منحرفون ومرضى السريرة ، وشاذُّون ، فهؤلاء بناتي هنّ أطهركم ، فكلمة بناتي في هذه الآية تعني مطلق النساء ، وبعضهم قال : هؤلاء بناتي ، أي النبي الكريم يُمَثِّل الأبوّة العامّة ، فإذا كانت للإنسان مكانة اجتماعيّة أو مكانة دينيّة ، يُحِسّ أنَّ بنات إخوانه جميعًا

هنّ بناته ، هذا شُعور ثابت ، فإما أن نفهم كلمة بناتي يعني هؤلاء النساء في هذه البلدة هنّ أطهر لكم ، أو أنَّه دافع من دون أن يقصْد التَّزْويج ، لأنه متأكّد أنّهم لن يرْضَوا ، وهذا من باب المدافعة ؛ فهذه هي المعاني الثلاثة التي تحتملها كلمة بناتي في الآية الكريمة .

2 ـ معنى : أَطْهَرُ

أما كلمة أطْهَرُ ، فليس معناها أنَّ اللّواط شيء طاهر ، والزواج أطْهر منه ، هذه حملت على قوله الله أكبر ، فلا مجال للتفضيل هنا إطلاقًا ، وكذا هنا الهمزة في أطهر لَيْسَتْ للتفضيل .

قال تعالى :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي)

(سورة هود)

3 ـ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي

الوضع صعب ، هؤلاء الشباب ضيوفه ، وعلى ذِمَّته وفي جواره ، ودخلوا بيته آمنين ، كيف يطْمعُ قومه المنحرفون أن يصلوا إلى هؤلاء الشباب ؟ قال تعالى :

(أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)

(سورة هود)

4 ـ تهييج العقول والفطر السليمة :

إذاً : هذا حُمْق ، قبل شهرين تقريبًا أعلن أن خمسة عشر مليون إصابة الإيْدز في أمريكا !! انحلال المناعة ، سَرَتْ إلى أوروبا ، وصلت إلى تركيا ، ووصلت إلى بعض دول الخليج ، فهذا عقاب عاجل من الله عز وجل ، أن قوم لوط عاجلتهم العقوبة ، وأهلكهم الله عز وجل ، ويبْدو أنَّ كلّ من سار على شاكلتهم يهلكه الله عز وجل تحت سمعنا وبصرنا اليوم ، نجد أنه ما من مجلة إلا وفيها مقالة عن مرض الإيدز ! وهذا إهلاك آخر نعيشه اليوم نعاينه ، ونسمع أخباره ، حتى إنَّ طبيبًا حدَّثني أنَّ مريضًا تُوُفِّيَ قبل أيام ، وكان سيئ السمعة ، بعد تحليل دمه وجدوا انعدام الكريات البيضاء كليًّا ! عقاب عاجل ، مرض الهربز ، ومرض الإيدز ، الأمراض الجنسيّة كالزهري ، والسلس ، هذه عقوبات عاجلة في الدنيا قبل أن يأتي عقاب الله عز وجل ، أليس منكم رجل رشيد يحول بينكم وبين هذا العمل ؟ أين أنتم ؟ وكيف أنتم ؟ وسبحان الله ما قرأتُ مقالة عن مرض الإيدز إلا ووجدتُ أنَّ شُغْل الغربيِّين الشاغل هو

البحث عن مصل لإبادة هذا الفيروس ، وهم يذكرون في مقدّمة المقال أنَّ أسباب هذا المرض الشذوذ واللّواط وما شاكل ذلك !! أليس في علمائهم رجل رشيد ، فإذا اختلَط في مدينة مياه المجاري مع مياه الشُّرْب ، وأُصيب الناس بأمراض فتاكة ، وهذه الأمراض معْدِية وانْتشَرَت ، لم يكن من مسؤوليّ هذه القرية والبلدة إلا أن أوْفدوا إلى أوروبا الأطباء ، واستخدموا التجهيزات والآلات ، هذا عمل مضحك !! فما عليهم إلا أن يمْنعوا اختلاط المياه الآسنة بمِياه الشرب وانتهى الأمر ، هذا هو العِلاج ، ولكنّهم لا يفكّرون فيه إطلاقًا ، وإنَّما يُفَكِّرون عن مصْلٍ لإبادة هذا الفيروس ، وكان الأولى منْع العلّة من أساسها! إذا أحدنا ارتفعَت حرارة ابنه كثيرا ، فماذا يفعل ؟! إن وضع على رأسه كمامات باردة ، أو وضعه في غرفة باردة ! الحرارة أصلها من الداخل ، هناك أسباب داخليّة ، هناك التهابات ، هناك انتانات ، فلا بدّ من معالجتها داخليًا ، أن تضع يدك على جبين ابنك هذه أعلى الحرارة ، والحرارة أعراض لأمراض كثيرة ، فالبحث عن عِلَّة الحرارة هو التشخيص الصحيح ، ولكنّ تسكينها لا يُسمَّى علاجًا ، فالقضيّة أعقد من ذلك .

قال تعالى :

(قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ)

(سورة هود)

جواب السفهاء : وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ

هنا قال بعض المفسِّرين أنَّهم طلبوا بعض بناته فرفض ، ومن عادات بعض الشعوب قديماً: أنَّ الأب إذا رفض تزويج ابنته لا يحقّ للخاطب أن يعيد خِطبتها مرَّةً ثانية ، قال تعالى :

(وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)

(سورة هود)

نريد الفاحشة ، نريد الاعتداء على هؤلاء ، قال تعالى :

(قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)

(سورة هود)

لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ

1 ـ أمنية لوط في تلك الساعة الحرجة :

تمنَّى هذا النبي الكريم أن يكون من بين هؤلاء من يعينه عليهم ليثنيَهم عن مُرادهم ، ويحول بينهم وبين

فعْلتهم الشنيعة .

2 ـ يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ :

النبي عليه الصلاة والسلام لما تلا هذه الآية :

(أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)

(سورة هود)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ))

[متفق عليه]

3 ـ الله عز وجل هو الركن الشديد :

الله عز وجل هو الركن الشديد ، فالقصد أنَّ الإنسان قويّ بأخيه ، وهو كان ضعيفًا في قومه ، استضعفوه ، ولم يجدْ واحدًا منهم ينْهاهم للكف عن فعْلتهم ، فتألَّم أشدَّ الألَم ، وقال: لو أنَّ لي بكم قوّة !! عشيرة ، أو قوّة أستخدمها لتحول بيني وبينكم ، ولكنّ هو في الحقيقة آوى إلى ركن شديد ، لقد أوى إلى الله سبحانه وتعالى ، والدليل سيأتي .

الحكمة من عدم إخبار الملائكة لوطا عن أنفسهم :

والآن هناك سؤال يطرح نفسه : لو أنَّ هؤلاء الضيوف حينما دخلوا عليه قالوا له : نحن ملائكة ، ولا تخْشَ أحدًا ، ما الذي يحدث ؟! لا تبدو غيرتهُ ، ولا يبدو حرصُه لا يبدو وفاؤه ، لا يبدو صبرُهُ ، لا يبدو ورَعُهُ ، لا يبدو صحته ؛ كلّ هذه الصفات الراقية لا تبدو ، لكنّهم أخَّروا هذا الخبر إلى الوقت العصيب ، ففي بعض التفاسير أنَّ قومه أرادوا أن يدخلوا عليهم عُنْوةً ، خرجَ إلى قومه يجادلهم ، ويناقشهم ، ويدعوهم إلى ترْك هذا العمل القبيح ، لكنهم استمروا في ضلالهم إلى أن تكاتفوا ، وهمُّوا أن يدخلوا عليه عنوَّةً ، هنا الوقت العصيب ، وهنا العقدة ، يبدو أنَّهم أزاحوه جانبًا ، وحطّموا الباب ، ودخلوا على هؤلاء الملائكة ، وهم يبْغون أن يفْعلوا معهم الفعل القبيح ، عندئذٍ قال هؤلاء الضيوف كما قال تعالى :

(قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ)

(سورة هود)

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ

1 ـ حقيقة الضيوف :

نحن لسنا أشخاصاً عاديِّين ، نحن ملائكة ، لن يصلوا إليك ، قال تعالى :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ)

(سورة هود)

2 ـ ساعة الهلاك :

فأوحى الله تعالى له أن خُذْ أهلكَ ، ومن آمنَ معك ، بِقِطْعٍ من الليل ، أيْ في منتصف الليل الثاني ، قال تعالى :

(وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ)

(سورة هود)

إياكم أن تلتفتوا إلى متاعكم إلى بيوتكم ، أو إلى قومك الهلكى ، قال تعالى :

(وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ)

(سورة هود)

3 ـ معنى الاستثناء : إِلَّا امْرَأَتَكَ

هنا تفسير دقيق جدًّا المعنى الأول فأسْر بأهلك إلا امرأتك والمعنى الثاني : ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، ولإيضاح المعنى الثاني يقول : إنَّ هذا النبي الكريم أمر أهله إذا ساروا بقِطع من الليل أن يتَّجهوا نحو القرية الثانية دون أن يلتفتوا ، لكنَّ امرأته سارت معهم ، فلما سمعَتْ وقْع الحجارة على قومها ، التفَتَتْ فأصابها حجرٌ فقتلها ، قال تعالى :

(إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ)

(سورة هود)

4 ـ إيّاك أن تحب غير المؤمنين :

التفاتها إلى قومها تعبير عن اتِّجاهها إليهم سابقًا ، وتعاطفها معهم وحبّها لهم ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((مَن هَويَ الكفرة حُشر معهم ، ولن ينفعه عمله شيئًا ...))

[ورد في الأثر]

إذا ذهب الإنسان إلى دولة أجْنبيّة ، ورجع محبًّا لها ، ومعْجبًا بأهلها على كفرهم وفِسْقهم وانْحِطاطهم ، وشيوع مرض الإيدز فيهم ، وتفتت أسرهم ، وشرب الخمر ، إذا رجع وهو لا يفتر عن مدحهم ؛ من هويَ الكفرة حُشر معهم ، ولا ينفعه عمله شيئاً ، فهذه امرأة لوط لا تحبّ الانحراف ، ليس في مصلحتها أن يكون الرجل منحرفًا ، ولكنّ تعلقها بقومها جعلها تهلكُ معها ، قال تعالى :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

(سورة هود)

الليل مـهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر

قال تعالى :

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)

(سورة هود)

جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا

1 ـ احذروا سخط الله وغضبه :

نسمع الآن قرية في سفح جبل والثلج على الجبل بارتفاع خمسة أمتار ثار بركاناً فجاءت الحمم مع السيول الجارفة فأهلكتْ أربعين ألف في يومين !! كولومبيا ، وقبلها المكسيك ، قال تعالى :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

كما قال تعالى :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة هود)

2 ـ مَن عمِل عمَلَ قوم لوط قُتل كما قتلوا :

لذلك استنبط علماء الفقه من هذه الآية أنَّ الذي يثبت عليه عمل قوم لوط يقتل ، بطرائق عِدَّة إحداها أن يُلقي من رأس جبل ، إلا أنّ بعض الدوَل ومنها المتقدمة حضارياً أباحت اللّواط ، وجعلته عملاً لا يعاقب عليه القانون !! قال تعالى :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ(81)فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ)

(سورة هود)

3 ـ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ

إنه الحجر القاسي والصَّلْب متتابع كأنهما المطر ، قال تعالى :

(مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ)

(سورة هود)

معنى : مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ

1 ـ المعنى الأول :

لها معنيان ؛ المعنى الأول أنَّ لها شكل خاص ، فليست هذه الحجارة من حجارة هذه البلاد ، بل حجارة خاصة من السماء .

2 ـ المعنى الثاني :

كلّ حجرة عليه اسم من سيصيبه ويقتله ! هذا لفلان ، وذاك لفلان ، وهذا هو معنى مسوَّمة ، وعند الله تعالى لا تجد الغلط ، فهذه الشظيّة لفلان ، وتلك لفلان ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أحمد]

فلا ظلم ولا خطأ . قال تعالى :

(وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)

(سورة هود)

قاصمة الظهور : وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ

أما هذه الآية فإنها تقصم الظهور ، فهذا الذي حدث لِقَوم لوط ، ثم طويت صحيفتهم من بعد ، لكنّ هذه الحجارة ما هي من الظالمين ببَعيد ، أيْ كلّ من سار على نهْجهم ، وانْحرفَ انْحِرافهم ، سيأتيهم نوع من الحجارة كذلك فقد تكون شظايا ، وقد تكون حجارة ، وقد يكون مرضاً داخلياً ، وهذا ما نراه ، ويقع تحت سمعنا وبصرنا ؛ إما حجارة من السماء كما فعل الله بقوم لوط ، أو دمار ببراكين أو زلازل ، أو أمراض داخليّة فتاكة ، وما هي من الظالمين ببعيد .

حدّثني أخ أنَّه كان في قرية من القرى رجل شاذّ أخلاقيًا ، كلّما سافر رجل من أهل هذه القرية تسوَّر جدار منزله ، ونزل على أهل بيته ، واغْتصَبَهم ، كان شرِّيرًا ، وكان مجرمًا إلى أن أُصيبَ بِمَرضٍ خبيث في العضو الذي يستخدمه للزنا ؛ إنه مرض السرطان قال تعالى :

(وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)

(سورة هود)

فهو مخيّر في الانحراف أو عدمه ، أما إذا انحرف فهو ليس مخيّر في ردّ العقاب أو عدم ردّه !! وهذا تحت سمعكم وبصركم ، الأمراض الفتاكة والعقوبات العاجلة ، هناك أفعى يقال لها : أفعى الزنا ، رأيتها مكبّرة بثلاثمائة وستّين ألف مرة في صورة المجهر الإلكتروني ، هذه تدخل من دون إحداث أيّ شيءٍ ، وهي تتوضَّع بالجسم ، فإذا استقرَّت بالدِّماغ يحدث خلل فيه ، وخمسة نزلاء في مصح الأمراض العقليّة مُصابون بالزهري في الدماغ من جرَّاء الزنا ، وإن توضَّعت بالعين تسبِّب العمى ، وهذه عقوبات عاجلة للزناة جزاءً وفاقاً ، قال تعالى :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا(32))

(سورة الإسراء)

والشيء الغريب الذي يأخذ بالألباب أنَّه لم يثبت في العالم كلّه أنَّ إنسانًا أُصيب بمرض جنسي من جراء الزواج ، الزواج علاقة طاهرة ، وعلاقة مشروعة ، وعلاقة قدّسها الله سبحانه وتعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (11-16): تفسير الآيات 84-86

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-03-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في سورة هود إلى قصّة جديدة هي قصّة سيّدنا شعيب عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام ، قال تعالى :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)

(سورة هود)

قصة سيدنا شعيب مع أهل مدين :

1 - أين هي مدين ، ومَن هم أهلها ؟

هذه الآية تضيف إلى القصص السابقة قصة جديدة ، هي قصة مدين ، والمقصود بمدين قوم مدين ، ومدين اسم القوم ، وهم من العرب يسكنون في شمال الجزيرة العربية ، وهم إنما سُمُّوا بهذا الاسم إما نسبة لمدينتهم مدين ، أو نسبة إلى رجل اسمه مدين .

على كلٍّ ، قال تعالى :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

(سورة هود)

2 - وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا

اليوم مع قصة سيدنا شعيب ، أما أنه أخوهم ، فهناك أخوَّةٌ إنسانية ، وهناك أخوَّة متعلّقة بقومه ، أي منهم يعرفونه ، ونشأ بين ظهرانيهم ، مطمئنون إليه ، ولا يشكُّون في نسبه ، و" أخاهم " منصوبة ، هذه من الأسماء الخمسة ، تقول : جاء أخوهم ، ومررت بأخيهم ، ورأيت أخاهم ، ما الذي نصبها ، أي و أرسلنا إلى مدين أيضا أخاهم شعيبا .

قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

3 ـ فحوى جميع الرسالات : اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

المعرفة الفكرية والمعرفة النفسية :

هذا هو ملخَّص الديانات الثلاث ، ملخَّص رسالات السماء ، وجوهر الدين ، أن تعرف أنه لا إله إلا الله، وأن تعبده ، ولا تعبده إلا إذا عرفته ، ولا تعرفه إلا إذا نظرت في الكون ، فمعرفته تكون من خلال آياته ، هذه معرفة فكرية .

أما إذا أقبلت عليه فهذه معرفة نفسية ، وشتَّان بين المعرفتين ، إما أن تستنبط بفكرك أن هذا الإله قويٌّ، و أنه عدلٌ ، ورحيم ، وإما أن تتذوق رحمته ، أن تتذوقها يعني أن يتجلَّى عليك باسم الرحيم فتعرف رحمته ، و قد يتجلَّى عليك باسم القوي فتعرف قوَّته ، و قد يتجلَّى عليك باسم الجميل فتعرف جماله ، هذه معرفة ، معرفةٌ تتأتَّى من الإقبال عليه ، و إذا فكَّرت في آيات الله تعرفه عن طريق الفكر ، معرفة فكرية ، و معرفة نفسية ، المعرفة الفكرية وحدها لا تكفي ، فإذا أُضيف إلى المعرفة الفكرية تلك المعرفة النفسية المبنية على الإقبال عليه ، وبعد هذه المعرفة ليس هناك انتكاسة أبدا .

قال تعالى :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

إذا فكَّرتم ، و دقَّقتم ، و نظرتم ، و استقصيتم في أرجاء هذا الكون ، و في أنفسكم ، وفي طعامكم ، و في النباتات ، و الحيوانات ، و في ظواهر الطبيعة ، و في الكواكب ، و في المجرَّات استنبطتم أنه لا إله إلا الله ، إذا استقمتم على أمره ، و أقبلتم عليه عرفتموه معرفة نفسية .

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لمَّا ولَّيتَ عنا لغيرنا

ولو سمعتْ أذناك حسنَ خطابنا خلعتَ عنك ثياب العجب و جئتنا

***

و لو أنك تذوّقت ما عند الله لزهدت فيما سواه ، و لكن البطولة أن تعرفه ، فإذا عرفته أقبلت عليه ، و زهدت فيما سواه .

قال تعالى :

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود)

4 ـ السبب الذي من أجله أهلك قوم مدين :

ما السبب الذي دعا إلى إهلاك هؤلاء ؟ أنهم أنقصوا المكيال و الميزان ، والله سبحانه وتعالى أهلك قوم لوط لأنهم فعلوا الفاحشة ، وأهلك قوم شعيب لأنهم أنقصوا المكيال والميزان ، وأهلك الأقوام السابقة بذنوب اقترفوها ، فكيف بنا لو أن كل هذه الموبقات وُجدت في مجتمعنا ؟ قال تعالى :

(وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ)

(سورة هود)

5 ـ معنى نقض المكيال والميزان :

المكيال هو وعاء الكيل ، بعضهم يزوِّر هذا الوعاء ، يعطيه حجما أقلَّ من حجمه ، وبعضهم يضع في المكاييل صفائح تقلّل من حجمها ، هذا من إنقاص المكيال ، وبعضهم يغشُّ الحليب فيجعل فيه ماءً ، فكأنه أدَّى ثلثي هذا الحليب ، لأنه أضافه إليه ماءً ، هذا أيضا من إنقاص المكيال والميزان ، وبعضهم يبدِّل و يغيِّر في الميزان ، وبعضهم يضيف مادة ليست من جنس المبيع ، أي يعطيك جبنا فيه مائتا غرام من الماء ، وهذا من إنقاص الميزان ، يبيعك فولاً فيه مرَقٌ يعادل الربع ، هذا من إنقاص الميزان ، يبيعك لبنا مصفًّى وهو غير مصفًّى ، هذا من إنقاص الميزان ، يضع البضاعة في عبوة لها وزن ثقيل لبضاعة غالية الثمن ، هذا من إنقاص المكيال ، وإما أن يضيف مواد مغايرة أو يغش البضاعة أو ما شاكل ذلك .

و يقاس على المكيال والميزان الأطوال ، يبيع القماش بالطول يشدُّه إذا باعه ، فإذا اشترى قماشا يجعل القماش على شكل خط منحنٍ ، يشتري القماش وهو مُرخى ، و يبيعه وهو مشدود ، هذا من إنقاص المكيال والميزان تجوُّزا .

والمساحات فيها غش كذلك ، فهناك من ينقص في المساحة ، يضع الجدار على أرض جاره ، هذا من إنقاص المساحة ، بدلاً أن يضعهُ على أرضه ، وإن كان سورًا يجب وضعه بين أرضين ، تجده يضعه على أرض جاره ، هذا من إنقاص المساحة ويُحْمَلُ على هذا اللّعِبُ في العدادات ، وكذا عدادات الوقود، وإضافة نوع من الوقود رخيص مع نوع غال الثَّمَن ، فَيُتلف المحرّكات ، وهذا كلّه من إنقاص المكيال والميزان ، فالإنسان هو الإنسان ، والمنحرف هو المنحرف في شتَّى العصور ، وفي كلّ الأمصار .

قال تعالى :

(وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود)

6 - إنِّي أرَاكُمْ بِخَيْرٍ

ما هو الخير الذي عبّر عنه هذا النبي الكريم ؟ قال بعض العلماء : الخير وَفْرةُ المواد ، ورُخص الأسعار هذا هو الخير ، إن كان هذا الخير موجودًا مع المعصية فهذا خير سيأتي بعده شرّ لا محالة .

الخير يدوم بالطاعة والشكر ، ويذهب بالمعصية والكفر :

أحيانًا يستخدمون عبارة في بعض البلاغات : هدوء حذِر ، أيْ هذا الهدوء سيأتي بعده قصّف عَشوائي، وهذا الخير إذا توافرت المواد بأسعار رخيصة ، والناس غارقون في المعاصي فهذا الخير لا يدوم ، لا بدّ من أن يأتي بعده شرّ ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

إذا رأيْتَ الله يُتابعُ نِعَمَهُ عليك ، وأنت تعصيهِ فاحْذَرْهُ ، هذا هو الهدوء الحذر ، وسيأتي بعد هذا الهدوء شرّ ، إن لم نشْكُر ، وإن لم نتُب ، وإن لم نستَقِم على أمره ، وإن لم يُحِبّ بعضنا بعضا ، وإن لم يرحم بعضنا بعضا ، فالعاقبة وخيمة ، وكل آتٍ قريب .

قال تعالى :

(إنِّي أرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود)

وهذا الخير لا يدوم ، وهذا هو المقصود من الآية الكريمة السابقة ، أنتم في بحبوحة ونِعَمٍ ، في بعض البلاد الأوربيَّة التي يرخص فيها اللّحم البشري إلى درجة مذهلة حدَّثني طالب لي أنَّه خرج من الفندق في الساعة الثانية من بعد منتصف الليل متوجِّهًا إلى المطار ، وفي أيام الشّتاء ، فرأى صفًّا من الناس في هذا الوقت المبكّر يزيد طوله على أربعة كيلو مترات ، فسأل سائق التاكسي لمَ يقفُ هؤلاء في هذا الوقت المُبَكّر ؟ فقال : هناك توزيع اللّحم في الساعة الثامنة ، إذا رخص لحْم البشر غلا لحم الضَّأن !

إن رأيْت حاجتك في متناول يدك فاحْفظ هذه النِّعمة ، واشْكُر ربّك على هذه النعمة ، وأطِع ربّك شكرًا على هذه النعمة ، يا عائشة أكْرمي مجاورَة نعم الله ، فإنَّ النِّعمة إذا نفَرت قلَّ ما تعود ، وإذا كان الإنسان في بحبوحة ، وإذا كان في يُسْر ، وكان مستقيمًا على أمر الله ، فلا يخشى شيئًا ، لقوله تعالى :

(إنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد : من الآية 11)

إن كنت في بحبوحة وأنت شاكر مستقيم وطائعٌ ، ولك عمل طيّب فلا تخشَ أن تزول عنك هذه النِّعمة، لا تزول أبدًا لأنَّ الله يحفظك ويحفظها لك ، إن لم تُغَيِّر فلن يُغَيِّر ، قال تعالى :

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم : من الآية 7)

قال تعالى :

(وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)

(سورة هود)

7 - وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ

معنى العذاب المحيط :

إن تعودوا ، وإن لم تتوبوا ، وإن لم تُنيبوا ، فإنِّي أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ومعنى مُحيط أي لا مَنْدوحة مِن تحمّل نتائجه الوبيلة ، ولا مندوحة من تحمّل مغبَّته ، كيف يُحاط بالإنسان ، وكيف يضرب على إنسان طوقٌ ؟ إن اتَّجَه إلى هناك يرى الطريق مسدودًا ، وإن اتَّجَه إلى هنا يرى الطريق مسدودًا ، وهذا هو العذاب المحيط .

قد يُصاب الإنسان بمَرضَيْن ، أدْويَة هذا المرض تزيدُ من ذاك المرض ، وأدْوية ذاك المرض تزيد من هذا المرض ! هذا هو المحيط ، قد يفقد الإنسان المال ، وقد يفقِد الزوجة ، ويفقد حريَّته في وقت واحد ! العلماء لهم في تفسير هذه الآية مذاهب شتى ، عذاب محيط ، قال بعض العلماء : غلاء الأسعار ، وعذاب محيط الاسْتِئصال من الدنيا ، وعذاب محيط هو عذاب النار ، فإما غلاء الأسعار ، وإما عذاب الاستئصال ، وإما عذاب النار ، فأنا أراكم بخَير ، ولكنَّكم تنقصون المِكيال والميزان ، ولا تؤدُّون للناس حقوقهم ، قال تعالى :

(وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ)

(سورة هود)

وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ

1 ـ الحكمة من الأمر بوفاء الكيل والوزن بعد النهي عن ضدِّه :

تساءل بعض المفسِّرين ؛ حينما ينهى الله سبحانه وتعالى عن أن يُنْقصَ المِكيال والميزان ، أليس في معنى هذا النَّهي وفاءُ المِكيال والميزان ؟ فلِمَ أعاد الله سبحانه وتعالى علينا الكرَّة وقال : وأوفوا المكيال والميزان **!!** قال : هذا من باب التأكيد ، فقد وصف لك أولاً بشاعة إنقاص المكيال والميزان ، ودفعك ثانياً إلى الوفاء بالتمام والكمال للمِكيال والميزان .

2 ـ معنى : بِالْقِسْطِ

أما كلمة بالقسط ، فتعني أنك لسْتَ مُطالبًا أن تزيد على الحدّ الصحيح ، ولسْتَ مُطالبًا أن تبيع الكيلو ألفاً ومائتي غرام ، فبالقِسط أيْ لسْتَ مُطالبًا أن تزيد في الوزن والكيل عن الحدّ المعروف ، إن كان الله سبحانه وتعالى نهاك عن أن تنقص عن الحدّ المقبول ، فهو تعالى كذلك لم يأمرك أن تزيد على الحدّ غير المعقول ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

دخل رجل إلى هذا المطعم ليأكل طعاماً ، قدَّمت له قطعة اللحم مائة وخمسين غرامًا على أنَّها مائتان ، ماذا فعلت أنت أيها البائع ؟ أنْقصْتَ المكيال ، وبخسْتَ المال ، فدفع الطاعم مبلغًا باهظًا ، ولم يكْتفِ بهذا الطعام ، بخسْتَ أيها البائع الناس أشياءهم ، إن أراد أن يبيعك شيئًا أنقصَه ، قال عليه الصلاة والسلام :

((إنَّ أطْيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدّثوا لم يكذبوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا ائتُمنوا لم يخونوا ، وإذا باعوا لم يُطروا ، وإذا اشْتروا لم يذمُّوا ، وإذا كان عليهم لم يَمْطِلوا ، وإذا كان لهم لم يُعَسِّروا))

[الجامع الصغير عن معاذ ، وفي سنده ضعف]

هؤلاء الذين يحْفظهم الله من هزَّات تُصيب معظم التجار .

قال تعالى :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

1 ـ الزيادة على الشيء أو النقص منه من البخس :

قال بعض المفسِّرين : من نواحي بخْس الناس أشياءهم أن تنقص الكميَّة ، دفع لك مبلغًا على أنَّ هذه الكميّة وزنها كذا ، أو حجمها كذا ، أو مساحتها كذا ، أو طولها كذا ، فإذا هي أقلّ من هذا ، أما فيما يتعلق بالمساحات كمسْح الخشب ، أو مسح الألمنيوم ، أو مسح الأرض بالبلاط ، فأحيانًا يزيد صاحب هذه الصِّنعة بالمساحة ، تم الاتفاق على أن المتر بألف ليرة ، هذا اتِّفاق شرعي ، فكيف كسِبَ مالاً حراماً ؟ بزيادة المساحة ! فمساحة البيت مائتا متر ، فقدرها زوراً بمائتين وثلاثين ! هذا مِن بخس الناس الأموال .

2 ـ من البخس إخفاءُ العيوب :

الشيء الآخر إخفاء العيوب ، إذا بعت البضاعة أخْفيْت عَيبها ، فإذا اشْتريتها دقّقت في عيبها ، وبالغت في تقدير العيب وهوّلت حاله ، حتى إنَّ صاحب هذه البضاعة تنهار معنويَّاته ، ويخشى أن تكْسد ، فيبيعُك إياها برأس مالها ! هذا من بخس الناس الأشياء ، قال تعالى :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

ألا تنقص المكيال والميزان ، وثانيا ألا تخفي العيب إذا بعت ، وألا تُبالغ في هذا العيب إذا اشْتريت .

مثلاً : رجل شاهدَ غرفة نومٍ مناسبة ، لها سريران ، فقال للنَّجار : أنا أريد سريرا واحدا ، كم تحْسم لي؛ يقول : خمسمائة ليرة ، لو أتاه إنسان آخر ، وشاهد غرفة نوم بسرير واحد ، وقال له : أريد فيها سريران ، كم تزيد ؟ يقول : ألفي ليرة !! لماذا حسَمْت للأوَّل خمسمائة ، وأضفت على الثاني ألفًا ؟! إنَّك إذا بِعْتَ بمِقْياس ، واشْتريت بمِقياس ، فهذا بخس ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، إن كنت شاريًا تُبالغ في هذا العيب ، إلى أن تسْودَّ البضاعة في عين صاحبها ، وإن كنت بائعًا لا تبالي بهذا العيب وتهوّن من شأنه ، وتقول له : هذا لا قيمة له ، فهذا من بخس الناس أشياءهم ، إن لم تعط الأجير أجره فقد بخسْته جهده ، وإن لم تُعط الخبير ثمن خبرته ، فقد بخسْته خبرته وإن لم تعط الطبيب أجره فقد بخسْته علمه ، وإن لم تعطِ المهندس ما اتَّفقت عليه فقد بخستهُ علمه ، إن لم تُعط صاحب الحاجة حقَّه فقد سرقت منه حاجته ، قال تعالى :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

احذرْ فـ : إنَّ رَبَّكَ لَبالْمِرْصَادِ

العوام يقولون : هناك لصوص النهار ، هؤلاء هم الذين إذا شعروا أنَّ إنسانًا يبيعُ حاجةً لِضَرورة قصوى اشْتروها منه نهْبًا ! قال لي صديق : اضْطررتُ لِبَيْع سجَّادة ، فأتى بخَبير سجَّاد إلى بيته ، وقال له : كم ثمنها فقال : عشرة آلاف ليرة ، وجاء بآخر : فقال له هذه ثمنها مئة ألف !! فهذا الأوَّل جسّ نبضه أهُوَ جاهلٌ أم واعٍ ؟! فإن كان جاهلاً أخذها منه بِثَمن بخْس ، قال تعالى :

(إنَّ رَبَّكَ لَبالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

هذا الذي تأخذه حرامًا تدفعه أضعافًا مضاعفة ، وقد يذهب بصاحبه ويدمره ويتلفه ، قالوا : المال الحلال يذهب ، ولكنّ المال الحرام يذهب ويذهب بأهله ، ويتلفه الله سبحانه وتعالى ، ومن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّ الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله !

قال تعالى :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

أحيانًا تبدي عدم رغبة بهذه الحاجة ، كأن تعرض عليك بضاعة ثمينة وأنت في أمسّ الحاجة إليها ، تبدي تمثيلاً بارعًا أنّ هذه البضاعة مضى وقتها ، وهذا ليس موعدها ، وفيها عيوب ، وأنك لستُ بحاجةٍ إليها ، وتقول لصاحبها : إن شئت فخُذْ هذا الثَّمَن ، هذا يحْسبهُ الناس مهارة ، وذكاء ، وقدرة على سلْب الناس أشياءهم ، ولكنّ هذا الفعل هو الحمق بعينه ، قال تعالى :

(إنَّ رَبَّكَ لَبالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

كان السلف الصالح ينظرون في الأمر ، فإن كان بائع هذه الحاجة لا يعرف قيمتها ، فإن من يعرف قيمتها منهم يُعرّفه بقيمتها وحقيقة ثمنها .

رجل صالح له ابن شابّ ، كلّفه بشراء حاجة من بعض أسواق دمشق ، فاشْتراها ، ولما أبلغ أباه بالسِّعر قال له الأب : هذا غلط ، هذا السعر رخيص جدًّا ، فرجع الابن ، وقال للبائع : إن أبي يقرئُك السلام ، ويقول لك : إنّ هذه الحاجة قد ارتفع ثمنها ، وخُذ الفرْق ، فقال له : أبقِيَ في الدنيا أمثال والدك؟! خُذْ هذه الحاجة بثمنها الأوّل ، وأنت مُسامَح !

إنسانٌ آخر أعْطوْهُ أرضًا ، وصلتْ إليه بطريقة غير مشروعة ، سأل هذا الإنسان شيخًا له ، فقال له شيخُهُ : هذه الأرض حرام عليك ، ولا بدّ من أن تدفعَ الثَّمَن لصاحبها ، ذهب لِصاحبها ، وعرض عليه

أن يدفع له ثمنها ، نظر إليه وقال له : والله ضاعَ مِنِّي أربعمائة دنُم من الأراضي ، ولم يأتِ واحدٌ لِيَعْرض عليّ هذا العرْض ، هي هِبَةٌ لك ! اِزْرَعها بارك الله لك فيها ، الذي يعرف الله سبحانه وتعالى لا يأخذ مالاً حرامًا ، ولو عُرِضَ عليه بِسَخاء ، قال تعالى :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

3 ـ تلقِّي الركبان من البخس :

ومِن بخْس الناس أشياءهم أن تُحاوِل تلقِّي الرُّكبان ، والنبي عليه الصلاة والسلام نهى عن تلقِّي الركبان، تذهب إلى ظاهر المدينة ، تتلقّى من معهم بضاعة من غذاء أو سمن أو زيت أو جبن ، لئلا يصل صاحب البضاعة إلى المدينة فيعرف السِّعْر الحقيقيّ ، تأخذ منه هذه الحاجة بِثَمنٍ بخْس ، وأحيانًا يبيعُ الإنسان بيتًا ، وليس عنده فكرة دقيقة عن أسعار البيوت ليشْتريَ بيتًا أكبر ، يأتي الدلال أو المشتري فيدفع له ثمناً ، في نظر البائع هو ثمن معقول جدًّا ، ومغرٍ ، فيبيعُهُ ، فيذهب لِيَشتري بيتًا بدَلَ بيته فيرى أنَّ الأسعار مرتفعة لا تُحْتمَل ، وهذا أيضًا من بخس الناس أشياءهم .

حدَّثني رجل من قطر عربي أنَّ بدَويًّا معه حجَّة بأرض ، يعني أوراقاً رسمية بملكية الأرض ، فجاء إلى المدينة لِيَعرضها على بعض سماسرة الأراضي ، فعرفوا أنَّه جاهل ، فاشْتَرَوها منه بِثَمنٍ بخْس ، وأقاموا عليها بناءً ، بلغَ ارتفاعهُ أكثر من عشرين طابقًا ، وكانوا شركاء ثلاثة ، أما الأوّل فقد ماتَ إثر حادث سيارة مؤْسِف ، وأما الثاني فقد وقعَ من على ظهر هذا البناء ، فمات حتْف أنفه ، وأما الثالث فَشَعَرَ أنَّ شريكيْه ماتا بِسَبب أنَّهما نهبا من هذا البدوي أرضه ، وهو شريكهما في عملية النهب ، وتضليل البائع ، و بخسه حقه ، فبقي يبحث عنه أكثر من شهرين ، إلى أن عثَرَ عليه ، وأعطاهُ ثمن الأرض بقيمتها الحقيقيّة ، فقال له هذا البدوي : أما أنت فقد لحَّقْتَ حالك ! يعني تداركت أمرك قبل أن يقع بك ما وقع بشريكيك ، قال تعالى :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

(سورة هود)

وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

1 ـ ما هو الفساد ؟

الفساد : أن تقول : برتقالة فاسدة ، أي أصابها العفن ، وتقول : قطعة لحْمٍ فاسدة ، أصبحَت متفسِّخة هذا هو الفساد المادي ، فالأولى متعفّنة والثانية متفسِّخة ، الفساد أن تفسُدَ العلاقة بين زوجين ، إياك أن تفْسِدِ علاقة بين زوجين ، فأحيانًا كلمة تفسد هذه العلاقة .

2 ـ الفساد طريق الهاوية والهلاك :

إياك أن تفسد علاقة بين شريكين ، فأحيانًا كلمة تفسد هذه العلاقة ، وإياك أن تفسد علاقة بين أمٍّ وابنها، أو بين أخ وأخيه وبين جار مع جاره إياك ثم إياك ، وإذا نظرتَ إلى النساء أفسدْت العلاقة بينك وبين الله ، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنْكسِرَ أضلاعه ، ويتحطم أهون من أن يسقط من عين الله .

إذا أطلقت بصرك إلى محارم الله أفسدْت العلاقة بينك وبين الله ، وأيَّة معصيةٍ ترتكبها تفسد علاقتك مع الله ، هذه المعصيَة تُشَكّل حِجابًا بينك وبين الله ، وكلّما كبرتْ هذه المعصيَة ازداد هذا الحِجاب كثافة ، ويصْعب هتكه بعد ذلك ، لذلك أخطر شيءٍ أن تفسد علاقتك بالله عز وجل ، قال الله تعالى :

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)

(سورة الأنعام : من الآية 124)

قال تعالى :

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا(44))

(سورة الفرقان)

قال تعالى :

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون : من الآية 4)

وقال تعالى :

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ(50))

(سورة المدثر)

3 ـ الفساد مانعٌ من العلم والأدب :

ما اسْترذل الله عبْدًا إلا حظرَ عليه العِلم والأدب ، إذا فسدَت العلاقة بينك وبين الله ، فالعِقاب الصارم أنَّ الله سبحانه وتعالى يحْضر عليك العِلْم والأدب ، كُلْ كما تأكل البهائم وتمتَّع ، ونَمْ نومًا عميقًا مريحًا، اسْتيقِظ الساعة الحادية عشرة ، وافْعل ما تشاء ، واذْهب إلى حيث تشاء ، ولكنَّه محظور عليك العلم والأدب ، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14))

(سورة القصص)

أثمنُ عطاءٍ يُعطاهُ الإنسان ؛ العِلم والحكمة ، أما أن يكون غنيًا فالله تعالى أعطى قارون المال ، وهو لا يحبّه ، وقد تفسدُ العلاقة بين الإنسان وعقله ، فلا يستخدم عقلهُ ولا يُطَوِّرُ مفاهيمه في إدراك الأشياء ، ولا يُنَمِّيها ، ويسيء استخدام قدراته العقلية ويعطّلها ، فإما أن لا يستخدمه إطلاقاً ، وإما أن يستخدمه في الإيقاع بين الناس ، وإما أن يرفض نموّ عقله وانفساحه ، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14))

(سورة القصص)

إذاً : تراه إما أن يُعَطّله ، وإما أن يُسيء اسْتخدامه ، وإما أن يجمِّده ، ومَن فعل هذا فقد فسدت علاقة الإنسان مع عقله ، وأخطر أنواع الفساد أن تفسد العلاقة بينك وبين ربِّك ، وقد تفسد العلاقة مع زوجتك، إذا أطلقت بصرك للحرام يغدو بيتك جحيماً ، أما الذي يغضّ بصرهُ عن محارم الله فإن الله يورثه في قلبه حلاوةً إلى يوم يلْقاه ، وأوّل ثمنٍ لهذا الغضّ أن يُوَفِّق الله بينك وبين زوجتك ، فإذا أقام الزوجان الشرع في البيت تولى الله التوفيق بينهما ، وإذا خالف الزوج والزوجة شرع الله تولى الشيطان الإيقاع بينهما ! وتفسدُ العلاقة بينهما ، ويزداد الخرق اتساعاً بينهما يوما بعد يوم ، وتسوء العاقبة .

الذي يأخذ رَشْوَةً يفسُد ويُفسِد ، والذي يؤديها يُفْسِدُ ويفسُد ، يفسد هذا الموظّف معيشته ، ويجعله يعيش في بحبوحة وسعة لا يرضى أن ينزل مستواها بعد ذلك ، فيُحافظ على أكل الحرام ، والذي يُبالغ بالزِّينة يغرسُ حبّ الدنيا في قلوب الناس ، فإن كانوا مثله قادرين تنافسوا على حُطام الدنيا ، وإن كانوا فقراء أوْدَعَ الله في قلوبهم حُرْقةً طوال حياتهم ، قال تعالى :

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

(سورة هود)

هذه الآية واسعة جدًّا ، فأيَّة معصيةٍ تفسدُ بها مجتمعًا ، وتفسدُ علاقتك بالله عز وجل ، لذلك : ألا يا ربّ شهوة ساعةٍ أوْرَثَتْ حزنًا طويلاً !

قال تعالى :

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ)

(سورة هود)

معنى : بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ

1 ـ هامش الربح المشروع :

هذه آية دقيقة جدًّا ، ما بقيّة الله ؟ أيْ إذا أدَّيْت الوزن الصحيح ، أو الكيل الصحيح ، أو الطول الصحيح أو المساحة الصحيحة ، وإذا كان العداد صحيحًا ، ولم تضف ، ولم تغشّ ... كما حدَّثتكم من قبل إذا فعلتَ هذا فهامشُ الرِّبْح المشروع الذي يبقى لك ، أن يُبارك الله لك فيه ، فهو تعالى يحفظك من أمراضٍ وبيلة ، ومن أجور أطباء ، وأجور تحاليل وهدْر الوقت ، إذا أكلت الحلال بارك الله لك بهذا المال .

أحدهم ذهب ليُصلِّح مركبته ، فقال له المُصلِّح : هذه تكلّفك عشرة آلاف ليرة ، يبْدو أنَّ صاحب المركبة غشيم كما يقولون ، وجاهل ، وحريص على هذه المركبة ، فاتَّفَق معه ، فلما ولَّى صاحب المركبة مُدْبرًا قال المصلح لجاره : هكذا الرِّبْح !! وهكذا العمل !! فقال له : والله هذا حرام ، وكان ابن هذا المُصلِّح يعمل في مخرطة دخلت نثرة فولاذ في عينه فأخذه إلى المستشفى في بلد مُجاوِر ، ودفع عشرة آلاف ليرة كي تُسْتخرج هذه النثرة من عَين ابنه ! فالإنسان حينما يحتال ، حينما يغشّ الناس ليس ذكياً ولا فهيماً ، فالله سبحانه وتعالى بالمرصاد ، لو أخذ ألف ليرة بدل عشرة آلاف ليرة من وجه صحيح فهذا الهامش فيه بركة من الله تعالى .

وأما الذي يُغيِّر ، ويبدل ، ويغشّ ، ويُضيف فإن الله سبحانه وتعالى يُتلفُه مع ماله ، قال تعالى :

(بَقِيَّةُ اللَّهِ)

(سورة هود)

بعض المفسِّرين قال : البقية هي هامش الرِّبْح المشروع ، هذا الذي أبقاه الله لك ، والله سبحانه وتعالى يُبارك لك فيه .

2 ـ طاعة الله :

وبعضهم قال : طاعتك لله عز وجل هي بقيّة الله تعالى ، وهي خير لنا .

3 ـ حِفْظ الله للعبد :

وبعضهم قال : حِفْظ الله لك هذه بقيّة الله ، وهي خير لك من الرِّبح غير المشروع .

4 ـ رحمة الله :

وبعضهم قال : رحمة الله التي يتجلّى بها على قلبك خير لك من هذا المال الحرام ، فالرِّبْح الحلال ، أو طاعة الله ، أو حفظ الله ، أو رحمة الله ، أو رزق الله خير لك من هذا الرّبح غير المشروع ، ومن هذا المال الحرام .

قال تعالى :

(إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة هود)

المؤمنون يعلمون أن المستقيم هو الرابح :

هذا لا يعرفهُ إلا المؤمنون ، فغيرهم يرفضون هذا الكلام ، أما المؤمنون الصادقون يعرفون أنّ المستقيم هو الرابح في النهاية ، والعاقبة للمتقين .

حدَّثني أخ عمِلَ مع أُناسٍ كسبوا مالاً حرامًا فقال لي : والله مضى عليهم ثلاثون عامًا وهم يأكلون أموالاً من الحرام ، وفي النِّهاية ما مِن واحدٍ منهم إلا ومدَّ يدهُ إلى الناس قبل موته !! أقْسمَ لي !

هذا الذي أبقاه الله لك ؛ إما الرِّبح المشروع ، أو رحمته أو توفيقه أو حفظه أو رزقه ، هذا خير لك ، ولكن لا يعرف هذا إلا المؤمن . قال تعالى :

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(سورة هود)

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظ

1 ـ عليك بمراقبة الله :

الإنسان إذا شعر أنّ عليه مراقبة يُضَبِّط الوزن ، وإن لم تكن هناك مراقبة ، أشرك وهو لا يشعر ! المؤمن يضبط من دون مراقبة ، من لم يكن له ورعٌ يصدّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ بِشَيءٍ من

عمله أكان حلالاً أم حراماً ، ويستحيل أن يراقب الإنسانُ الإنسانَ ! مهما ضبطّت الأمور ، من يضبط هذا العامل في الفرن ؟ إذا دخل بيت الخلاء أن يغسل يديه !! لا يوجد إلا الله ، وحتى المراقب يحتاج إلى مراقب !! فهل نضع المراقب في كل مكان ؟ لن نستطيع !! إن لم يكن هناك وازع داخلي فالقضيّة لا نهاية لها ، ففي غياب الإيمان لا بدّ من أجل ضبط الأمور من مراقبة دقيقة ، ولكنّ هذه المراقبة مهما دقّتْ لا تستطيع أن تغطّي كلّ الأشخاص وجميع الأوقات .

2 ـ شتان بين الوازع والرادع :

مثلاً : في بعض البلاد التي تسمَّى بالمتقدّمة ! انقطع تيار الكهرباء في إحدى الليالي ببعض المدن ، فارْتُكِبَت في هذه الليلة مائتا ألف سرقة !!! إذًا الأنظمة الوضعيَّة تعتمد على الرادع ، بينما الأنظمة الإلهيّة تعتمد على الوازع ، وشتان بين الرادِع والوازِع .

سيّدنا عبد الله بن عمر ، وأنا أكرر هذه القصّة مئات المرات ؛ التقى ببَدَوِيّ وقال له : بعْني هذه الشاة ولم يكن صاحبها بل كان راعياً فقال : ليْسَت لي ، قال : قُلْ لِصاحبها ماتَتْ أو أكلها الذّئب ! فقال : ليْسَت لي ، فقال : خذْ ثمنها ، ودع عنك صاحبها فقال : والله إنَّني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلتُ لِصاحبها ماتتْ أو أكلها الذّئب لصدَّقني ، فإنِّي عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟! هذا الذي نطمحُ إليه؛ أن يُراقب العبد ربَّه ، ولا تُحَلّ مشكلاتنا إلا إذا حلَّ الوازع محلَّ الرادِع ، فأنْ يخشى الإنسان ربَّه ، ويراه يراقبهُ في كلّ حركاته وسكناته .

بعضهم قال : كلّ ما نستطيع أن نفعله مع المدرِّس أن نجعله يدخل الصفّ الساعة الثامنة ، فإذا كان مع الطلاب ؛ فهل يُدرِّسهم ؟ وهل يعتني بهم ؟ وهل يُتْقن عمله ؟ هل يُعنى بتَطَوُّرهم وتقدّمهم ؟ هذا عائدٌ إلى وِجْدانه المسلكي ، فمهما ضبطّت الأمور ؛ دخل الساعة الثامنة ، وانتهى الأمر ! جاءهُ المفتِّش في السنة مرّة أو مرَّتين ، وإذا علم مسبقًا بقدومه بدا كأحسن مُدَرِّس ، ولكنّ المعلّم الذي يعرف الله سبحانه وتعالى يراقب الله في كلّ العام ، فبدل أن يكون له درس واحد نموذجي أمام المفتش ، تكون كلّ الدروس نموذجيّة على مدار العام ، هذا إن عرف الله .

إذاً هذا شأن المعلّم ، وكذلك الطبيب والمحامي والمدرّس ، وكذلك العامل ، إذا عرفْت ربّك استقمْتَ على أمره ، وهذا هو الحلّ ، وما من حلّ آخر ، فمهما دقَّقت في المراقبة ، والمراقبْ قد يكون أذْكى من المُراقِب .

مثلاً : كانوا يستخدمون ميزانا ليعرفوا أنَّ الحليب كامل الدسم ، فلجئوا إلى نزع خير الحليب ، ووضْع النشاء مكانه ، فإذا وضعت الميزان بدا وكأنَّه كامل الدَّسم ، استُقْدِمَت أجهزة معقَّدة لِكَشف الدَّسم ،

فأصبح الخلل في الذي يعمل على الجهاز ، إذا قبضَ مبلغًا رشوةً يقول : الحليب جيّد ، فالقضيّة إذاً لا حلّ لها إلا أن يكون في القلب الإيمان ، وأن يخشى الإنسان ربَّه .

مُحَلّلٌ تأتيه عيّنة لِيَفْحصها ، يضعها على الطاولة ، ويكتب : النِّسبة صحيحة مائة بالمائة ، ليقبض الثَّمَن حراماً !!

وقد تجد الأخطاء من أصحاب الخِبرات والمثقَّفين بشكْل أخطر ! إن لم يكن في القلب إيمان فسدت الحياة ، فلا بد من الإيمان كي تصلح أمور الناس ، ولا بدّ من الصلح مع الله ، وإذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أنْ هنِّئوا فلانًا فقد اصطلَح مع الله !!

ما قولكم أنَّ بعض بائعي العصير يضعون خمسين إبرة من الماء للبرتقالة الواحدة وهناك من يمزج الزيت النباتي بالبلدي ، فلا بدّ من الإيمان بالله ، ولا بد من مراقبة الله كي تستقيم الأمور ، أما على أساس الرادع فلا يمكن أن تُغطّي المراقبة كلّ الناس في كلّ الأوقات .

وفي درس آخر إن شاء الله تعالى نتابع قصَّة سيّدنا شعيب ، وصلنا إلى قوله تعالى :

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(سورة هود)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (12-16): تفسير الآيات 87 – 95
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-04-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

(سورة هود)

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ

1 ـ معارضة قوم شعيب لنبيهم :

قوم شعيب الذين كذَّبوه وعارضوه ، وردُّوا الحق الذي جاء به ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ)

(سورة هود)

يذكر بعض المفسِّرين أنَّ سيّدنا شعيبًا عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام كان كثير الصلاة ، فالذي بدا لهم من هذا النبي الكريم الصلاة ، أو كثرة الصلاة ، فلما جاءهم بمنهج ربَّاني يأمرهم وينهاهم عارضوه .

الشهوات بين الطريق الصحيح والقنوات المنحرفة :

كلّ منهج إلهي فيه أوامر ، وفيه نواهٍ ، وقد جعل الله النفس البشريّة نزاعة إلى الشهوات ، منقادة إليها ، مائلة إلى الهوى ، كما أنه فطرها على حب الخير ، فلا بد إذاً من المكابرة ، فإذا طبَّقت هذا المنهج الرباني فإنَّها تأخذ من هذه الشهوات الشيء المسموح به ، وتدعُ ما نهى الله عنه ، وأيّة شهوة أودعها الله فينا إلا وجعل لها قناةً نظيفة شرعيّة ، نظيفة صحيحة فيسعد الإنسان بها ، ويشكر ربّه عليها ، كما أنَّ للشهوات قنوات قذرة ومنحرفة مؤذية قد تؤذيك ، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة ومشروعة ومعزّزة ومبجّلة ومكرّمة ، وما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا ولها طريق قذرة قد يتزوّج الإنسان امرأة وتحمل هذه المرأة فيفرح الزّوج ، ويفرح الأهل وينتظر هؤلاء جميعًا المولود القادم ، و يُعِدُّون له السرير والمهاد ، كما يُعِدُّون له كلّ حاجاته ، يأتي المولود ، ويأتي المهنئون ويقدّمون الهدايا ، وتكون لدى الأهل أفراح ، أما إذا جاء مولود من طريق غير مشروع ، فإما

أن يوضع في حاوية القمامة ، وإما أن يوضع على أبواب البيوت ، أو على قارعة الطريق ، أو الحديقة، وهذا هو الطريق غير المشروع ، فبالطريق المشروع تتزوَّج ، فإذا تقدَّمَت السِنّ بالزَّوجة صارَتْ جدَّةً أحبَّها أحفادها ، وأقبلوا عليها ، وأكرموها وخدموها ، فإذا تقدَّمت بها السنّ أيضًا صار أولادها شبابًا ، وأحفادها شبابًا ، وكانت موضع احتِرام وتبجيل ، وإكرام ، فإذا اختطَّت امرأة طريق الزنا في شبابها ، فماذا فيها مسْحة من جمال أقبل المنحرفون عليها ، فلما ذوى جمالها نبذت كنواةٍ في عرض الطريق ، لا كرامة ولا سلامة ، بل حياة ازدراء ، فهذا طريق الزواج ، وذاك طريق الفاحشة والخفاء ، وكذلك الحال بالنسبة للمال ، فإما أن تكسبه عن طريق مشروع تسْعدُ به ، وتُحصِّن به نفسكَ، وتكفي عِيالك ، وتتقرّب به إلى ربّك ، وإما أن يؤخذ من طريق غير مشروع فيتْلفُ ، ويُتْلِفُ صاحبه ! فالله سبحانه وتعالى رسمَ للإنسان منهجًا فيه أوامر وفيه نواهٍ ، مبدئيًّا هذا المنهج لا يحْرِم الإنسان شيئًا إلا أنَّه يُحِلّ لهم الطيّبات ، ويحرِّمُ عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التي كانت عليهم ، أغلال الشّهوات وهذه القيود التي تُقيِّد الإنسان ، وهذه الشّهوات التي تُذِلُّه وترْديه ، وتهلكه أما المنهج الرباني فيرسُم لك الطريق الصحيح ، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة)

لو أنَّ إنسانًا يسكن في بيتٍ قديم ، وهو صفر اليدين ، وفقير مُعْوز ، وتحت هذا البيت كنزٌ عظيم ، لو استخرجهُ لأغناه إلى أولاد أولاده ، ولكنَّه لا يدري ! بوجود هذا الكنز ، فإنْ رأى ورقةً فيها إشارةً إلى هذا الكنْز ؛ أيُّهما أثمنُ هذا الكنز أم تلك الورقة ؟ الجواب تلك الورقة ، لأنَّه لولا هذه الورقة ما عرف الكنز هو فوق الكنز ، وهو لا يدري ، ولكنّ هذه الورقة نبّهتْهُ إلى هذا الكنز فَسَعِدَ به كذلك فما قيمة الحكمة إذاً ؟ الحكمة أثمن من الدنيا بأكملها ، لأنَّه بالحكمة تعرف كيف يعيش في الدنيا ؟ وبالحكمة تعرَّف إلى الله سبحانه وتعالى ، وبالحكمة يستقيم على أمره ، وبالحكمة تعرف إلى أثمنَ ما في الدنيا وهو العمل الصالح ، وبالحكمة يصل إلى مصدر السعادة ، وبالحكمة يسْعدُ إلى الأبد ، فهل الحكمة أثمنُ أم هذه الدنيا ؟!! الحكمة أثمنُ من الدنيا .

قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

(سورة هود)

2 ـ اعتراض السفهاء في كل زمان ومكان :

وهذا القول نسْمعه في كلّ زمانٍ ومكان ، يقول لك أحدهم : أدينُكَ يأمرنا ألا نسْتغِلَّ أموالنا ؟! تصور

هل أقرض شخصاً مبلغاً ثم استرده كما قدَّمته ؟ أمجنون أنا ؟!!! هذا مال لا بدّ من اسْتثماره فإن أقرضتُه أحداً كان عليّ أن آخذ فائدته ! قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

(سورة هود)

هكذا تريد ! أدينُك يريد أن تفرِّق الأسرة إلى فريقين ؛ نساء ورجال ! هم يحِبُّون الاختلاط ، أدِينُكَ يأمرنا أنْ ندعَ هذه التقاليد وذاك التراث ؟ لذلك الكفار هم الكفار في كلّ زمان ومكان ، ويرَوْن في الدِّين قيودًا ، مع أنَّ الدِّين حدود ، فإذا كنتَ تمشي في حقلٍ ، وقرأتَ لائحة كُتِبَ عليها : ممنوع تجاوز هذه اللوحة ، فالحقل حقل ألغام ، بماذا تُحِسّ في نفسك ؟ أتُحِسّ أنَّ هذه اللوحة فيها تقييد لِحُريّتك ، وحدّ من حركتك ، أتُحِسّ أنّ هذه اللواحة فيها ظلم لك ، أم تحسّ إن هذه اللّوحة ضمان لِسَلامتك ، وحدّ للخطر ، وإن رأيْتَ عمودًا كهربائيًّا عليه توتر عالٍ ، وكتِب عليه : خطر الموت ، ألا ترى أنَّ هذه اللوحة فيها رحمة لك ؟ رحمة تنبّهك إلى خطر مُميت ، وتحذرك منه قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

(سورة هود)

3 ـ العادات السيئة منبوذة :

هؤلاء المتعلّقون بالتراث ، المتعلّقون بالتقاليد ، المتعلقون بالعادات ، ولو أنَّها غير صحيحة يسيرون وراء كل ناعق ، سمعتُ أنَّ بعض من الناس إن جاءهم رجل من البادية لِيَبيعهم صوفًا بيْعًا سَلَمًا ، أي مُقدَّمًا يشترونه منه بأرخص الأثمان ، فقد قال لي أحدهم : هكذا ألفنا ! وهكذا كان أجدادنا !! صوف هذا البدوي ثمنه مائة ألف ليرة ، تشترونه منه بخمسين ألف ليرة ، من أجل أنَّه محتاجٌ لِثَمن العلف ، أتسْتغِلُّون حاجته إلى هذا الحدّ البشِع ؟ هذا أشدّ أنواع الربا يقولون لك : هكذا ألفنا منذ زمن آبائنا ، وهكذا اعتدنا أن نشتري الصوف !! كلّ إنسان له عادات وتقاليد ، وله أشياء ألِفَها خلاف الحق فهي منبوذة ، فمِن العادات السيّئة أن يجلس العروسان على مِنَصَّة مرتفعة جنبا إلى جنب ، وأمامه حشْدٌ كبير من النساء المدعوات بأبهى زينة ! أأنت مسلم ؟ أهذا هو الإسلام ؟ يقول لك : هكذا العادات ، وهكذا نشأنا ، وهكذا فعل ابن عمي وابن خالي وجاري ، وإن لم أفعل هذا أُتّهم أنّي ناقص ومتخلّف ، تستحي بي زوجتي أمام الدعوات ، هذا الذي يتعلّق بالتقاليد ، وما توارثه الناس إن كان مُخالفًا للحق فليس في قلبه ذرَّة من إيمان ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

(سورة هود)

قال تعالى :

(أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ)

(سورة هود)

4 ـ الأموال خاضعة للشرع في التعامل :

الربا مُحرَّم ، بيع التقسيط إذا كان الثّمن قد زاد عن الثمن الذي تبيع فيه البضاعة نقدًا فهذا أيضًا حرام، يقول لك التاجر : كيف تُريدني أن أبيع هذه الحاجة لأجلٍ ، وأقبض ثمنها كما لو بعتها نقدًا ؟ أمجنون أنا؟! قال تعالى :

(قالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

(سورة هود)

5 ـ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ

بعضهم قال : يبْدو أنَّ هذا النبي العظيم كان على خُلُقٍ عظيم ، ومجاراته شيء لا نقدر عليه ، هذا الذي قاله يعني أنه ملتصق بالدين والخلق ، والأنبياء كلهم كانوا كذلك ، ولا من السير على نهجهم ، فهم القدوة وهم سفراء العناية الإلهيّة ، هم سفراء وحي السماء ، والأنبياء قِمم في الأخلاق ، ولا بدّ أن يكون النبي هكذا ، لأنَّه يمثّل الكمال الإلهي ، وأيَّة قصَّة ، وأيّ خبرٍ ، وأيّ كتابٍ ، وأيّ تفسير يقْدح في كمالهم ، أو يجعلهم كعامَّة الناس أو يجعل همَّهم النِّساء ، كما قال بنو إسرائيل عن سيّدنا داود ، أيّ كتاب أو أي تفسير ، أو أية قصّة أو أية رواية تقدحُ في كمالهم ، وتقدح في طهرهم وفي عفافهم ، وفي إخلاصهم وفي رِفْعتهم فهذا افتراء وضلال ، قال تعالى :

(أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ)

(سورة هود)

لسْتَ حُرًّا حرية متجاوز فيها حدود الدين الحنيف أيُّها الأخ الكريم ، فإن هناك علاقات ماليّة محرَّمة ، علاقة الربا محرَّمة ، كلّ قرْضٍ جرَّ نفعًا فهو ربا ، البيع لأجل يجب أن يكون بالسِّعْر الذي تبيع فيه البضاعة نقدًا وإلا وقعْت في الحرمة ، والقرض كذلك يجب أن يكون قرضه خالصًا لوجه الله عز وجل، وحسمُ السَّندات يوقِعُ الإنسان في الربا ؛ أن تقبض مبلغًا حالاً أقلّ من قيمته الآجلة ؛ هذا كلّه محرَّم ، لذا قال سيّدنا عمر : << تفقَّهوا قبل أن تدخلوا الأسواق >> ، لأن مئات العلاقات المشبوهة ، ومئات العلاقات المحرَّمة هذه كلّها تُتلِفُ المال قال تعالى :

(إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

(سورة هود)

6 ـ قوم شعيب أردوا الحرية في أموالهم :

يبدو أنّ سيّدنا شعيبًا كان في نظر قومه ـ وهو كذلك ـ حليم رشيد ، وهذا هو المعنى الأول ، أيْ أنت يا شُعيب نعْهَدُكَ حليمًا رشيدًا ، فكيف تأمرنا أن نُجمِّد أموالنا ؟ وألا نستفيد منها؟ وإذا أقرضناها أحداً أفلا نستفيد من إقراضها ؟ وكيف تأمرنا أن نبيع شيئًا مؤجَّلاً بِسعِر المعجّل ؟! قال تعالى :

(إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

(سورة هود)

لذلك بعض أوامر الله عز وجل تبدو عند بعض الناس غريبة ، فعَن ابْنِ عُمَرَ قَالَ : ابْتَعْتُ زَيْتًا فِي السُّوقِ ، فَلَمَّا اسْتَوْجَبْتُهُ لِنَفْسِي لَقِيَنِي رَجُلٌ فَأَعْطَانِي بِهِ رِبْحًا حَسَنًا ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَضْرِبَ عَلَى يَدِهِ فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنْ خَلْفِي بِذِرَاعِي ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فَقَالَ :

((لَا تَبِعْهُ حَيْثُ ابْتَعْتَهُ حَتَّى تَحُوزَهُ إِلَى رَحْلِكَ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى أَنْ تُبَاعَ السِّلَعُ حَيْثُ تُبْتَاعُ حَتَّى يَحُوزَهَا التُّجَّارُ إِلَى رِحَالِهِمْ))

[رواه داود]

هناك نهْيٌ نبوي من أن تبيع البضاعة قبل أن تصل إلى مستودعاتك ، وإلا وقعْت في المضاربة ، والمضاربة بيعٌ وهمي من شأنه أن يرفع الأسعار دون أن يستفيد الناس شيئًا ، فالمضاربة أن تشتري شيئًا تبيعه ، وتشتريه عشرات المرات ، وهو هو ، أنت ربحتَ أموالاً طائلة ، فماذا قدَّمْت لهذا المجتمع؟! هذا الذي صنعَ بابًا قدّم خِدمةً ، وهذا الذي خاط لك ثوبا قدَّم لك هذا الثوب ، هذا الذي زرع أرضه قدَّم لك خدمة ، وهذا الذي قدَّم لك حاجة من صنعه قدَّم لك خدمة ، أما هذا الذي باع واشترى والبضاعة هي هي فما الخدمة التي قدّمها ؟ هذا إذاً الذي أهلك البشريّة الآن ؟

المضاربات العالمية ، كذا ألف طن من البنّ في مستودعاتها في البرازيل تُباع وتشترى ، من جهة إلى جهة وهي هي في مستودعها !! هؤلاء الذين ربحوا ماذا فعلوا ؟ ما كلفتهم إلا مكالمة هاتفيّة أو برقيّة أو تلكس ، وجاءه جواب فاشترى ، أو عرض فباع ، والبضاعة في مكانها هي هيَ ،

((لَا تَبِعْهُ حَيْثُ ابْتَعْتَهُ حَتَّى تَحُوزَهُ إِلَى رَحْلِكَ))

[رواه داود]

إذا نقلت البضاعة إلى مستودعاتك فأنت جادّ في خدمة مجتمعك ، إذا طرحت هذه السِّلعة حللْتَ بها مشكلات الناس ، وقرَّبْت الحاجات ، وخفضْت الأسعار ، أما إذا بعْت واشْتريْت ، ولم تفعل شيئًا فهذا سُلوكٌ تجاري يُسبِّب متاعب تُصيب الناس جميعًا ، لذلك قال تعالى :

(أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ)

(سورة هود)

لا يجوز بيْعُ المعدوم ، بيتٌ في الهواء تشتريه ، من الذي يضمن لك أن تصل البناية إلى الطابق الخامس ؟ دفعْت مالك الذي هو عصارة جهدك ، فماذا فعلت بنفسك ؟ إن الذي وقَّعتَ معه العقد غادرَ البلاد ، وبقيَتْ حُقوق العباد معلّقة فالبيوع دقيقة جدًّا فبيع المعدوم منهيّ عنه ، ونهى الشارع عن بيع التمر حتى يشتد ، وعن بيع العنب حتى يسْودّ ، ونهى الشارع أيضاً عن بيع الثمر حتى يبْدُوَ صلاحُه ، نهى تلقّي الركبان ، أكثر من أربعين أو خمسين علاقة في البيع محرَّمة ، وهذه كلها تُسَبِّب متاعب للمجتمع ومنازعات خطيرة ، لذلك ينبغي أن تفعل في مالك كما يشاء الله لا كما تشاء أنت .

هناك علاقات محرَّمة ؛ تشتري بيتًا ، وتشتري حِصَّة من بيت ، وتؤدي أجرة بيت تسكنه وتسترد منه بعد حينٍ المبلغ ذاته مقابل إخلائك البيت ، وإن أصابَ هذا البيت الذي اتبعته ، أو استأجرته تلف ، أو وقع تحت تنظيم معيَّن تقول : لا أعترف ، أريد حقي ، وأنا أُطالبك بالمبلغ الذي أديتهُ لك ، ولا أحسم منه شيئًا ، فهذا هو الربا تحت اسم الإيجار ! أدّيتَ ثمنًا وأخذت أجرةً ، والثمن مضمون وما دام الثّمن مضمونًا فهذه علاقة رَبَوِيَّة ودِرهم ربا أشدّ عند الله من ستّ وثلاثين زنيةً في الإسلام !!! لأنَّ المال بالربا يصبح دُولة بين الأغنياء فقط ، و الأموال تتجمَّع بأيْدٍ قليلة ، ويصبح المجتمع بطبقتين ؛ طبقة مترفةٍ تحارُ في صرْف المال ، وطبقة مدقعة تحار في كسب الرِّزق ! كلّ هذا عن طريق الربا والفوائد، المركّبة والبسيطة ، فآية :

(أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ)

(سورة هود)

هذه آية دقيقة جدًّا ، لسْتَ حُرًّا أن تفعل في مالك ما تشاء ، أنت عبدٌ ، والعبدُ مُقيَّد بيَدِ سيِّده ، وهذه العلاقة حرام ، وهذه تجوز ، وتلك لا تجوز ، وهذه العلاقة صحيحة ، وتلك باطلة . قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

(سورة هود)

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي

1 ـ المؤمن على بينة من ربه :

في الحقيقة إن المؤمن اقْتِداءً بالنبي العظيم إنما هو على بيِّنة من ربِّه ، قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ)

(سورة يوسف : من الآية 108)

الأمور واضحة جدًّا ، والعلاقات واضحة ، والحرام واضح بيِّنٌ ، وكذا الحلال ، وطريق الحق واضح، وطريق الباطل واضح وطريق الجنّة واضح ، وطريق جهنّم واضح ، وطريق السعادة مستبين وطريق الشقاء واضح ، لذلك تركتكم على بيضاء نقيّة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، قال تعالى:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

(سورة هود)

نحن على بيِّنة إن شاء الله ، ما دام هذا الكتاب بين أظهرنا ، وما دُمنا نقرأهُ ، وما دمنا نُطَبِّقُهُ ، فنحن على بيِّنة ، وشتَّان بين من هو على بيّنة ، وبين من هو في ضلال مبين !! قال تعالى :

(َفمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(22))

(سورة الملك)

قال تعالى :

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(9))

(سورة الزمر)

قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

قال تعالى :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا)

(سورة هود)

معنى : وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا

المفسِّرون على رأييْن في تفسير هذه الآية .

المعنى الأول :

فبعضهم يقول في تفسير : رزقًا حسنًا يعني أُوتيتُ مالاً وفيرًا ، فإذا افتخَرَ النبي بمَاله على ضوء هذا

المعنى حُقَّ لأغنياء العالم اليوم أن يفتخروا ، ومن حقهم عندئذٍ أن يقولوا : ونحن لنا كرامتنا عند الله ككرامة شُعَيب .

المعنى الثاني :

ويقول بعضهم : إذا نُسب الرزق الحسن للأنبياء والصدِّيقين فهو الهدى والنبوّة والحكمة ، وهذا هو الرّزق الحسن ، قال تعالى :

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

(سورة آل عمران : من الآية 37)

قال بعض العلماء : هذا الرزق يعني فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، وهذا يفعله الأغنياء اليوم ، فقد يُقدِّم لك فاكهة الصَّيف وأنت في الشّتاء ، وقد يقدِّم لك فاكهة الشتاء ، وأنت في الصَّيف ، فهل هذا رزق حسن ؟ لا ، هناك ثلاجات ، هناك طريقة دقيقة في حفظ الفواكه ، فإن كان الرِّزق الحسن هو هذا ؟ فإنه لا يرقى إلى مستوى كتاب الله تعالى ، لكنّ الرِّزق الحسن هو الهدى والحِكمة ، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14))

(سورة القصص)

التفسير الأوجه في رزقني منه رزقًا حسنًا الهدى والنبوّة والعلم والحكمة والخلق الرفيع ، هذا هو الرزق الحسن .

قال تعالى :

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)

(سورة هود)

وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ

1 ـ احذر أن تخالفَ أقوالُك أفعالَك :

هذه الآية مهمّة جدًّا ، كيف يستطيع النبي أن يؤثّر في أمَّته ويقنعها ، إن لم يطبّق كلامه على نفسه ؟ ما الذي يضع الدعاة اليوم في مواقف لا تقدير لهم ولا احترام ؟ هو أنَّ الكلام شيء ، والسُّلوك شيءٌ آخر ، ما يقولونه بألسِنَتِهم لا يُطَبِّقونه بأفعالهم ، لذلك قال سيدنا عليّ كرَّم الله وجهه : << قِوام الدِّين والدنيا أربعة رجال : عالم مستعملٌ علمه ، وجاهل لا يستنكف أن يتعلّم ، وغنيّ لا يبخل بماله ، وفقير لا يبيعُ

آخرته بدُنياه ، فإذا ضيَّع العالم علمه واستنكف الجاهل أن يتعلَّم ! وإذا بخل الغنيّ بماله باع الفقير آخرته بدُنياه ضاع الحق >> ، واضطرب الأمر واختلت موازيين المجتمع ، ما الذي يُزهِّد الناس في الحق ؟ أنَّ الدُّعاة إليه لا يُطبِّقونه ، وأنت إن حدَّثتهم في القِيَم يقولون : هذا كلام مثالي ، نريد شيئًا واقعيًّا نعيشه في يومنا ، لأنَّ الناس تركوا التطبيق ، وصارت القيمُ مثاليَّةً ، ولكنَّ الصحابة الكرام حينما طبَّقوا دينهم جعلوا دينهم واقعِيًّا ، ولن تفلح هذه الأمة حتى يكون دينها واقعيا ، ولا ينبغي أن يبقى الدِّين في القرآن أو في الكتب ، أو في الخطب ، ولكن ينبغي أن ترى الدِّين في الأسواق وفي البيع والشراء ، وفي الإيجار والاستئجار ، وفي الوعد والعهد ، وبين الزوج وزوجته ، وبين الأخ وأخيه ، والجار وجاره ، وفي السَّفر والحضر ، وفي كل نشاطات الحياة ، يجب أن ترى الدّين هنا ، ومن لم يكن له ورعٌ يصدّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي النَّارِ))

[أحمد]

وترْك دانق من حرام خير من ثمانين حجّة بعد حجّة الإسلام ، ولأنْ أمشيَ مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر ، واعتِكافٍ في مسجدي هذا ، هذا هو الدِّين ، ورأس الدِّين الورع ، والدِّين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، إنَّ الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه ، وإتقان العمل جزء من الدِّين ، يا أصحاب المهن ، ويا أصحاب الحِرَف ، ويا أيها الموظَّفون إتقان العمل وتلبيَة المواطن ، والصِّدق ، وعدم الغشّ ، وعدم المواربة وعدم الخداع ، هو جوهر الدِّين ، وركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلّط!!

2 ـ كثرة المَظاهر لا تنفع إن لم يتبعها تطبيق :

كان رجل يجلس جنب النبي عليه الصلاة والسلام كتفًا بكَتف ، فجاءتْهُ المنيّة فطلب قميص رسول الله ليكفن به ، قال : أعطوه قميصي ، ولن يغني عنه قميصي شيئًا ! الآن استقر في جهنَّم حجَرٌ كان يهوي سبعين خريفًا ، ماذا يُجدي أن يكون لك مظهرٌ ديني ؟ وماذا يُجدي أن تتواجدَ في مجالس العلم ؟ وأنت لا تطبّق الدِّين ، هذه الكثرة الكثيرة من المسلمين في بقاع الأرض ؛ ألف مليون ، مع أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((يَا أَكْثَمُ ، اغْزُ مَعَ غَيْرِ قَوْمِكَ يَحْسُنْ خُلُقُكَ ، وَتَكَرُمْ عَلَى رُفَقَائِكَ ، يَا أَكْثَمُ ، خَيْرُ الرُّفَقَاءِ أَرْبَعَةٌ ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِائَةٍ ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[رواه ابن ماجة عن أنس]

أي إذا كان في أمَّة الإسلام اثنا عشر ألف مسلمٍ صادق لن يُغْلبوا ! فعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا ، قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، يَنْتَزِعُ اللهُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ، قَالَ : قُلْنَا : وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الْحَيَاةِ ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[رواه أحمد]

صارت الدنيا أغلى على المسلم من كلّ شيء ، فهذه إذاً قاصمة الظهر ، يمسي مؤمنًا ، ويصبح كافرًا ، ويصبح كافرًا ، ويمسي مؤمنًا ، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا قليل ، قال تعالى :

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)

(سورة هود)

يا عيسى ابن مريم عِظ نفسك ، فإذا وعضتها فعِظ غيرك ، وإلاّ فاستحِ مِنِّي ، قال تعالى :

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)

(سورة هود)

هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام ، كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته لفّ ثوبه لكي لا يوقظ أهله ، ويكنس بيته ، ويرفو ثوبه ، ويحلب شاته ، وكان في مهنة أهله ، وكان متواضعًا ، كما في حديث :

((وعليّ جمع الحطب ...))

[ورد في الأثر]

حينما كان متوجهاً إلى بدر أمر كلّ ثلاثة من أصحابهِ أن يتعاقبوا على ناقة واحدة ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ :

((كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ ، كَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : فَقَالَا : نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ ، فَقَالَ : مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي ، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد]

هذا الذي طرحه النبي خلال حياته كان مطبِّقًا له في عمله ، قال تعالى :

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ)

(سورة هود)

أريد صلاح الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة : من الآية 2)

3 ـ صلاح الدنيا بالبرّ ، وصلاح الآخرة بالتقوى :

البرّ صلاح الدنيا ، والتقوى صلاح الآخرة ، فكّر في صلاح الدنيا ، فكّر في تأمين بيتٍ لإنسان مؤمنٍ، وفكّر في حلّ مشكلة لمؤمن ، فكّر في إزالة عقبة ، فكّر في أن تعيش أنت وإخوانك المؤمنون في حياة منظَّمة ، فكّر في تنظيم الحياة ، فكّر في إعانة اللّهفان ، فكّر في الضمان الاجتماعي ، فكّر في أخيك المسلم ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن من بات شبعان وجاره جوعان وهو يعلم !! أتدرون ما حقّ الجار؟ إذا استعان بك أعنْته ، وإن استْقرضَك أقرضته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن مرض عُدْته ، وإن مات شيَّعْته ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الرّيح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فاكهةً فأهْد له منها، فإن لم تفعل فأدْخِلها سرًّا ، ولا يخرج بها ولدك لِيَغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقُتار قِدرك ، إلا أن تغرف له منها .

فكّر في مشروع تؤْوي به هؤلاء الشباب الذين هم في أمسّ الحاجة إلى الزواج ، ووالله الذي لا إله إلا هو لتأمين شابّ وشابة مسلمين في بيت أفضل عند الله من حجّة إلى بيته الحرام ، ماذا يفعل هذا الشابّ؟ وقد أصبح ثمن البيت فوق المعقول ! كيف يصون نفسه عن الحرام ؟ وكيف يحصّن نفسه ؟ فإذا بخل الغني بِمَالهِ باع الفقير آخرته بدُنياه ، وباع نفسه للشيطان ، وآمن بالمذاهب الإلحاديّة من أجل تأمين حاجته ، الأغنياء أوصياء ، والفقراء عِيال ، فمن منعَ ماله العِيال الفقراء أذاقهُ الله عذابه ! قال تعالى :

(إنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ)

(سورة هود)

صلاح الدنيا ، وصلاح الآخرة ، صلاح الدنيا بالعدل ، وصلاح الآخرة بالعبادة ، يجب أن تكون جنديًا للحق ، وأن تسعى لتَوفير الحاجات أن يسعى لتحقيق الخدمات للناس ، وأن تسعى لِهدايتهم ولِصَلاحهم ، ولرشادهم ما استطعت قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

4 ـ التوفيق من الله :

ليس في القرآن الكريم في هذا الموضوع إلا هذه الآية ، أيّ هدف على وجه الأرض لا يُحَقّق إلا إذا سمح الله به ، قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

اطمئنّ !! قال تعالى :

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

قال تعالى :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

لا تعزُ التوفيق إلا لله ، وإلاّ فإنك خاسر :

دخلت الجامعة ، فلا تقل أنا متفوّق ، وأنا مجموعي كان مرتفعًا ، أنا أُدرك ما يتكلم المدرس بسُرعة فائقة ، و إذا قرأت الكتاب فهمته بسرعة فائقة ، لا تقل هذا ، بل اجعل كل شأنك مرتبطاً بتوفيق الله لك، قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

أحدهم قال مخاطباً ربه قبيل الامتحان : يا رب ، عليّ الجبر ، وعليك الهندسة !! فدعاه في الهندسة فقط فرسبَ فيهما ، فقال : يا رب ، علي الهندسة وعليك الجبر ! وأناب بعد فوات الأوان ، فلم يُفد شيئاً، قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

[سورة هود]

يفتح أحدهم محلاً تِجارياً ، ويظن أنَّه اختار موقعًا مناسبًا وبضاعة جيّدة ، وبعد شهر تجد لوحة على المحل برسم التسليم ، ويشتري الواحد سيارة ليشتغل عليها ، ويظنّ أنَّ دخله باليوم خمسمائة ليرة أو أكثر ، فإذا بِحادث يدفع فيه نصف رأس ماله بالتصليح ، لم ذلك ؟ لأنه لم يتوكل حقَّ التوكل على الله ، ويسأله التوفيق ، قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

وفي مجال الزراعة يزرع الفلاح أحسن البذور ، ويرش المبيدات الجيّدة ، ويسمد الأرض بالأسمدة ، فإذا بطائفٍ يأتي ، فلا تُغِلُّ عليه عشرة آلاف ، وكان المفروض أن تكون غِلّتها مائتي ألف ، قال تعالى:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19))

(سورة القلم)

يكون عنده حقل أو بيت بلاستيكي زراعي فيغْفل عنه ليلة واحدة ، فإذا بصقيع يذهبه كلّه **!** أحدهم خسر بساعة واحدة مائتي ألف ليرة ، تَلِفَ النبات كله بسبب الصقيع ، قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

وفي مجال الوظيفة وفي غيرها ، تمسك جهازاً مثلاً وتقول : سوف أصلحه ، فإذا بك تخربه **!** أما إن قلت : بسم الله الرحمن الرحيم وُفّقت .

طبيب نسائي بلغ قمَّة الشهرة في التوليد ، في أثناء التوليد قطع الرحِم ، وقطع الأمعاء ، وكاد يُميت المرأة ، وبعد حين ماتت بسبب ما جرى لها ، و لولا أنه أخذها ، و أسعفها لسُحبت منه الشهادة ، قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

الحياة فيها مطبَّات ، و فيها مزالق ، فإياك أن تعتدَّ بنفسك ، فمن اتّكل على نفسه أوكله الله إليها ، اللهم إني تبرَّأتُ من حولي و قوَّتي و علمي ، و التجأتُ إلى حولك و قوتك و علمك ، يا ذا القوة المتين ، هكذا المؤمن ، إياك أن تقول : أنا ، فمن أنت ؟ أنت لا شيء ، والله هو كلُّ شيء

و ما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

و ما لي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددتَ فأيُّ باب أقرع

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإن كان عليك فمن معك ؟ إياك أن تقول : أنا ، قالها إبليس فأهلكه الله، وإياك أن تقول : عندي ، قالها قارون فأهلكه الله ، إياك أن تقول : لي ، قالها فرعون فأهلكه اللهُ .

قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

ثم قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)

وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ

لابد من الفصل بين الإسلام والمسلم :

أحيانا الإنسان يكره رجلا ديِّنا في مظهره لكنه كذّاب ، فمن الممكن أن يكون شخص له زيٌّ ديني ، و نفسه ليست في مستوى مظهره ، مخبره لا كمظهره ، فإذا كرهتَ هذا الإنسان الكاذب تكره الدين ، هذا غباء في الإنسان ، و ما دخل الدين في هذا ؟ اِفصِل بين هذا الإنسان و بين الدين ، و الإسلام بريء من هذا ، افصِل بين الإسلام و المسلمين ، افصِل بين الدين و رجال الدين ، افصِل بين التديُّن و بين هذا المتديِّن ، إن لم تفصل تقع في غلط كبير ، الدين في عليائه ، الدين في السماء ، وهذا الذي يدّعي الدِّين هو في الوحل ، لا يمْنعنَّك كل ذلك أن تحق الحق ، ولا تجعل هذا حجَّة في أن تدَعَ الدِّين كلّه فهذا غباءٌ في الإنسان .

لو أنَّ طالبًا في كليّة الطبّ في الصف الرابع على وشك التَّخرّج وأزعَجَهُ أحد الطَّلبة ، هل يدعُ الكليّة ؟! لا ، فإن مصيره هنا ، ومستقبله ومهنته ، ومكانته وشهادته ، هاتوا لي طالبًا واحدًا في إحدى الكليات بسبب نزاعٍ بينه وبين طالبٍ آخر ترك الجامعة كلها !! مستحيل ، يقول لك : ما دخْلُ فلان ؟ وما لي وفلان ؟ هنا مستقبلي ، هنا نجاحي ، هنا شهادتي ، هنا عملي ، لماذا أنت في الدنيا لا تنسحب من الجامعة ، ولو آلمك أحد أساتذتها ؟ بينما لِخِلاف تافهٍ بينك وبين إنسان تترك مجالس الدين والعلم .

قال لي أحدهم : لن آتي للدرس ! فقلت له : لماذا ؟ فقال لي : أزعجني أحد الحاضرين !! فقلت له : أين يجلس ؟ فقال لي : بالجهة الفلانية ، فقلتُ له : اجْلس بالجهة الأخرى والجامع كبير ، فالإنسان عليه أن يفصل بين خِلافاته الشخصية ومجلس العلم ، هذا لله عز وجل ، وهذه مائدة الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ(89)وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ(90))

(سورة هود)

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ(90)

إنه رحيم بالخلق كافة ، وودود لِمَن أحبّه من المؤمنين ، والله تعالى طيّب لا يقبل إلا طيِّبًا ، فالأب مثلاً يرحم أولاده جميعًا ، ولكنّ قلبه معلّق بالابن الأخلاقي ، بالابن البار ، والابن المحسِن والمتفوّق ، قلبهُ مُعلّق هنا ، أما إحسانه فللجميع ، فالله تعالى رحيم بالخلق كلّهم ، ولكنّه ودود للمؤمنين ، قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَانُ وُدًّا(96))

[سورة مريم]

فالله سبحانه وتعالى لا يُحِب الخائنين ، ولا يحبّ الكاذبين ، ولا يحبّ من كان مُختالاً فخورًا ، ولا يحبّ المنحرفين ، ولا يحبّ المنافقين ، لا يحبّ هؤلاء ، ولكنّه يرْحمهم ، لأنَّ رحمة الله وسِعَت كلّ شيء .

كما أسلفنا في مثال الأب ، من باب التقريب والإيضاح ، وكذا الأم ، يرضيان عن فلان بالذات من أبنائهما ، ويسكتان عن بقية الأولاد ، وهذه الأم إن جاءوها تُطعمهم ، ولكنها لا تحبّهم إلا إذا كانوا في المستوى المطلوب ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

(سورة هود)

قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ

1 ـ الراسب يتَّهم الأستاذ ولا يتَّهم نفسه :

فالراسب يتَّهم الأستاذ ولا يتَّهم نفسه ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

(سورة هود)

2 ـ تهديد قوم شعيب لنبيهم بالرجم :

أي لرجمناك إما بالقول أو الحجارة ، لكن العقبة دونك رهْطك ، وإننا نحْسب لهم حسابًا .

مرّة قال لي مدرّس ملء السمع والبصر : قالت لي أمي : صم ، فصرت أصوم !! الله عز وجل لا قيمة له عندك ، بل صمت فقط من أجل الأم !! قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ)

(سورة هود)

3 ـ جواب شعيب : قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ

أي قومي أغلى عندكم من الله .

قال تعالى :

(وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

(سورة هود)

4 ـ هجر القرآن تطبيقا :

الناس اليوم اتَّخذوا القرآن مهجورًا يتلونه صباح مساء ، ويستمعون إليه ، ولكنّهم لا يطبّقونه ، فالهجران هنا هجران التطبيق ، كلك الكافر والمنافق لا يعبأ بأوامر الدِّين ، وهي وراء ظهره ، ولا يلقي لها بالاً ، كذلك ويستخفان بها ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ)

[سورة هود]

كلّ إنسان يعمل وفْق مكانته ، ومكانته يعني مقامه ، وقد يكون مقامه عالٍ جدًّا ، امرأة جاءت أميرًا فأمر بإكرامها ، فقال له بعض من كان عنده : يا أيها الأمير إنَّه كان يرضيها القليل ، فقال : إن كان يرضيها القليل فأنا لا أرضى إلا بالكثير ، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي ! قال تعالى :

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا(84))

(سورة الإسراء)

حصّل مرتبة وهو يعمل وفقها ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ(93)وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(94)كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)

(سورة هود)

جاء وقت العذاب فلا مفرَّ لأحدٍ :

1 ـ تكفيهم صيحة واحدة :

صيحة واحدة فقط ، كانوا بعدها جثثاً هامدة ، صرعى بغيهم وعتوهم ، فأنت لا تقل : قاتلتُ النملة ، النملة لا تحتاج إلا إلى ضغطة ، والكفار لم يحتاجوا إلا إلى صيحة فقط ، قال تعالى :

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(29)يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(30))

(سورة يس)

قال تعالى :

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)

(سورة يس : من الآية 29)

2 ـ احذروا صيحة أخرى يا أشبه قوم شعيب :

في أثناء البيع والشِّراء والحركة اليوميّة وعقد الصَفقات تأتي هذه الصَّيْحة تأخذهم جميعًا ، قال تعالى :

(وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(94)كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)

(سورة هود : من الآية 24)

قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (13-16): تفسير الآيات 96 – 104
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-04-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في سورة هود إلى آخر قصةٍ من مجمل القصص التي أوردها الله سبحانه و تعالى ، التي أوردها لتكون لنا درسا بليغا ، فالسعيد ـ كما يقال ـ من وُعِظ بغيره ، و الشقيُّ لا يتّعظ إلا بنفسه .

قصة موسى عليه السلام :

قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

الآيات هي المعجزات التي أجراها الله على يديه ، كأن تصبح العصا ثعبانا مبينا ، هذه الآيات لا يستطيعها بشر ، فرعون جمع السحرة ، ووعدهم أن يجعلهم وزراءه المقرَّبين إذا هم أبطلوا هذه المعجزة ، فلما رأوا هذه العصا قد أصبحت ثعبانا مبينا ألقي السحرة ساجدين ، قال تعالى :

(إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

قد يأتي الساحر بحبل يلوِّنه ، ويحرِّكه ليوهم الناس أنه ثعبان ، لكنَّ السحرة رأوا بأم أعينهم هذه العصا أصبحت ثعبانا حقيقيا مبينا ، وأن هذه ليس من عمل السحرة ، إنه معجزة أجراها الله على يد هذا النبي الكريم ، وحينما أعملوا تفكيرهم آمنوا بموسى وهارون ، استخدمهم فرعون ليبطلوا هذه المعجزة ، فكانوا أول من آمن بها .

تتابع الرسل :

قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا)

(سورة هود)

في معنى هذه الآية تتابعُ الإرسال ، أرسلنا صالحا ، قال تعالى :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)

(سورة هود)

قوم عاد وقوم ثمود وقوم تبَّع ، سيِّدنا شعيب ، هؤلاء كلهم أُرسلوا من قِبَل الله عز وجل ليكونوا منذرين ومبشِّرين .

حجج الأنبياء :

قال تعالى :

(وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

فما هو السلطان ؟ العلماء قالوا السلطان هو الحُجَّة ، أو هي الحُجَّة ، قال تعالى :

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(117))

(سورة المؤمنون)

و قال تعالى :

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا(144))

(سورة النساء)

السلطان الحجَّة ، فالنبيُّ الكريم إضافةً إلى هذه المعجزات التي جاء بها يملك الحجة على قومه ، وقال تعالى :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(83))

(سورة الأنعام)

وقد سمَّى الأوَّلون الحاكم سلطانا ، لأنه يملك الحجة ، لأنه أعلم أهل زمانه ، له الحجة على من يحكمهم ، فالسلطان إما أن تُؤخذ من الحجة ، وإما أن تؤخذ من السلطة ، وعلى كلٍّ صاحب الحجة القوية يملك السلطة .

مثلاً :

إذا ذهبتَ إلى طبيب ، وفحص أعضاءك ، وأعطاك تعليمات دقيقة ، نظرًا لِثِقَتِك بعِلمه ، ونظرًا لأنَّك واثق من حجّته ، ولأنّ هذا الطعام لا يجوز أن تأكله ، وهذا البيت المرتفع لا يجوز أن تبقى فيه ، أنظر إلى نفسك تجدها تنصاع إلى أمره ، فلأنَّه يمْلك الحجّة صار له سلطان عليك .

إذا ذهبت إلى محامٍ ، وأنت واثق من علمه ، ومن خبرته بالقوانين ، ونصحك أن تدفع الأجرة في الوقت المناسب ، لماذا تنصاعُ له ؟ لأنَّه يملك الحجة ، ولأنه ملَكَ الحجة ملَكَ عليك السُّلْطة ، فكلمة سلطان مأخوذة من الحجّة البيِّنة ، مُضافًا إليها السلطة ، ولا تنبعُ السُّلطة إلا من الحجّة ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى خالق الكون ، وخالق البشر أعلم بما ينفعهم ، لذلك لهم سلطان عليهم ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : من الآية 123)

أما الآية الكريمة :

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا(144))

(سورة النساء)

هذا الإنسان إذا انحرف ، أو طغى ، أو بغى ، أو عصى ، أو خالف صار لِزامًا أن يُعالَج ، لأنَّ الله تعالى رحيم ، ولأنَّه رحيم فلا بدّ من أن يُعالجه ، لم يترُكه هملاً ، أصبح معنى السلطان الحجة ، ومن مقتضيات الحجة السلطة ، فلذلك قال ربنا عز وجل :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

معه آيات بيّنات ، فتح طريقًا في البحر يبسًا ، ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، قال تعالى :

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى(49)قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى(50)قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى(51)قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى(52))

(سورة طه)

حجة المؤمن :

المؤمن معه حجة ، فهو يعرف مَن خلق الكون ، ولماذا خلقه ؟ وأين كنا ؟ وما جدوى حياتنا ؟ وإلى أين المصير ؟ يعرف قيمة كلّ شيء ، وحقيقة كلّ شيء ، ما اتَّخذ الله وليًا جاهلاً ، ولو اتَّخذه لعلَّمهُ ، المؤمن على بيّنة من ربّه ، والأمور عند المؤمن واضحة كالشمس ، يعرف طريق الخير من طريق الشر ، ويعرف طريق الفلاح من طريق الشقاء ، ويعرف كيف يُعامل زوجته وفق الشرع ، وكيف يُعامل جيرانه ؟ وكيف يُربِّي أولاده ؟ هذا كلّه من الحجّة التي آتاه الله إياها ، قال تعالى :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(83))

(سورة الأنعام)

إذا كنت موظَّفًا ، واتَّخذت قرارًا ، واستْدعاك رئيسك لِيُحاسبك ، فإن كان معك حجة مقْنِعَة سكت ، لماذا فعلتَ كذا ؟ ولماذا نقلت فلانًا من هذا المكان إلى هذا المكان ؟ يقول : لهذه الأسباب ، فتجِدُه يسكت ، السؤال اللطيف : أيّ فِعْلٍ تفعله في الدنيا تصورَ أنَّ الله سبحانه وتعالى سيُحاسبك عنه في الآخرة ، أمَعَكَ حجَّة ؟ لماذا طلَّقتها ؟ هل معك جواب ؟!! لماذا فعلتَ بجيرانك ما فعلت ؟ لماذا أوْقعت بهم الأذى ؟ لماذا فرَّقت بين هذا الزَّوْج وزوجته ؟ لماذا رفعت السِّعر على هؤلاء الناس ؟ ما حجّتك ؟ المشكلة أنَّك إذا ملكت على كلّ تصرّف حجّة نجوْتَ ، فإن لم تمْلك الحجّة فالويل لك .

التبعية :

هذه الآية فحْواها أنّ اتِباع الناس بَعضهم لبعض ، الناس مراتب فيهم القويّ والضعيف ، وفيهم الغني والفقير ، وفيهم المتبوع والتابع ، وفيهم من شهرته واسعة ، ومن هو مغْمور ، قال تعالى :

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(253))

(سورة البقرة)

ففي الحياة تابع ومتبوع ، لا حجّة للذين يتَّبعون بعضهم بعضًا أمام الله عز وجل ، لو أنَّك في مكانٍ تستطيع بحُكْم عملك أن توقع الأذى بفُلان ، ولا أحدَ يُحاسبُك ، إنَّما أعطاكه من هو أعلى منك ، من قوّة على من هو أدنى منك ، لا يُعْفيك من المسؤوليّة اتّجاه الله عز وجل ، تبعيَّة الناس لبعضهم بعضًا لا يُعْفيهم من مسئوليتهم اتّجاه خالقهم ، أحدهم كان يطوف بالبيت ويقول : يا ربّ ، اغْفِر لي ذنبي ، ولا أظنّك تفعل ! فسمِعَهُ رجل من ورائِهِ ، فقال : يا هذا ، ما أشدَّ يأسَكَ من رحمة الله !! فقال : ذنبي عظيم، دخلَ إلى بيتٍ لِيَسلبه فرأى فيه رجل فقتلهُ ، فرأى امرأةً ومعها ولدان ، فقال : أعْطِني كلّ ما عندك ، فأعطتْهُ سبعة دنانير من الذهب فقتَلَ الولد الأوّل !! فلما رأته جادًّا في قتْل الثاني أعْطتْهُ دِرْعًا مذهَّبًا فأمْسكَها وتأمّلها ، وأعجبتْهُ هذه الدِّرْع ، ثمّ قرأ عليها بيتان من الشِّعر فوَقَعَ مغْشِيًّا على الأرض ، قرأ على هذه الدِّرْع :

إذا جــار الأمير وحــاجباه وقاضي الأرض أسْرفَ في القضاء
فــوَيْلُ ثمَّ ويـلٌ ثمّ ويـــل لِقاضي الأرض من قاضـي السماء

***

إذا الواحد استطاع أن يوقعَ بين الناس بحُكم عمله ، لِيَذْكر هذا القول :

فــوَيْلُ ثمَّ ويـلٌ ثمّ ويـــل لِقاضي الأرض من قاضـي السماء

***

سمعتُ أنَّ رجلاً أوْقَعَ أذًى كبيرًا بإنسانٍ هو بريء ، وهو يعلم أنَّه بريء ، ولكن هكذا! مضى ثلاثون يومًا ، كان يركب سيارةً مُسْرعًا بها فأصابتْهُ غفْلة فدَخَل في شاحنة ، فنُزِعَ رأسُهُ من المقعد الخلفي ! والآية الكريمة :

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ(79))

(سورة الزخرف)

هكذا قرَّرت ، إذًا انتظر قرارنا ! فالآية ملخَّصها أنَّ تَبَعِيَّة الناس بعضهم لبعض لا تعفيهم مِن مسئوليتهم اتِّجاه خالقهم .

إن كنتَ تكتب هذا الضبط التمويني لِتُخالف هذا البائع وأنت توقِنُ أنَّ بريء ، وأنّ رأسَ مال هذه البضاعة مرتفِعٌ ، إن كَتَبْتَ هذا الضَّبْط ، وأنت واثقٌ من أنَّ بريء إرْضاءً لِمَن هو فوقك ، فإنَّ هذا العمل لا يُعفيك من مسئوليتك اتِّجاه خالقك ، وهذا في أيِّ عملٍ ، وفي أيّ وظيفة كنت ، ولو كنت مُغطًّى من قِبَل القانون ، يجب أن تكون مُغطى مِن قِبَل الله عز وجل ، لذا قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ(96)إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)

(سورة هود)

أمره ليس برَشيد ، أمره يؤدِّي بهم إلى الهلاك ، أمره يُبعدهم عن الله سبحانه وتعالى ، أمرهُ لن يستطيع أن يحول بينهم وبين العذاب الذي أعدَّه الله لهم ، قال تعالى :

(فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)

(سورة هود)

أحد الوُلاة كان عنده بعض التابعين ، فجاءهُ توجيهٌ مِن يزيد بن مُعاوِيَة ، وهذا التوجيه قد لا يرضي الله سبحانه وتعالى ، وقعَ هذا الوالي في حيرَة فسأل هذا التابعي الجليل ، وقال : ما أفعل ؟! فقال هذا التابعي كلمةً تُكْتب بماء الذّهب : " إنَّ الله يمْنَعُكَ مِن يزيد ، ولكنَّ يزيد لا يمنعُكَ من الله " ! فأنت في أيِّ مجال ، سلْ نفسكَ هذا السؤال : هذا الذي أمرني أن أعصي الله ، أو هذا الذي أمرني أن آخُذَ مال فلان ؛ إنَّ الله يَحْميني منه ، ولكنّه لا يحميني من الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة هود)

هم كما قال الله عز وجل في آية أخرى :

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ(54))

(سورة الزخرف)

فلأنَّهم كانوا قومًا فاسِقين أطاعوه ، ولأنَّهم أطاعوه كان دليلهم إلى النار ، قال تعالى :

(فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ(97)يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة هود)

كما أنَّه قاد قومه في الدنيا يقودهم في الآخرة إلى جهنَّم ، اتَّبعوه ، ولم يُحَكِّموا عُقولهم ، اتَّبعوه ، وقد عطَّلوا عقولهم ، اتَّبعوه حُبًا في الدنيا واتَّبعوه ، ولم يُفكِّروا في هذا الاتِّباع ، قال تعالى :

(فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ(97)يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمْ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)

(سورة هود)

من باب التقريب :

إذا كان للإنسان محلّ تِجاري ، وله زوجة وأولاد ، ويسكن في بيتٍ مريح ، ويبيعُ ويشتري ، وهو في بَحْبوحةٍ ، ومطْمئنّ البال ، جاءهُ رجل فقال له : هل لك في تغيير هذه البضاعة وهذه المصلحة إلى مصلحة أكثر ربْحًا ؟ فقال : وما هي ؟ فقال : كذا وكذا ، فغيَّر ترتيب المحلّ ، وبدَّل هذه البضاعة ببضاعةٍ ممنوعة ، ضُبطَ متلبِّسًا ببَيْع هذه البضاعة ، قيدَ إلى السِّجْن ، ففرضوا عليه غراماتٍ باهظة ، واضْطرُّوه أن يبيع بيته ، وهو في السِّجْن باع البيت ، ودفَعَ المبلغ الباهظ ، وهو يُعاني سنوات طويلة في السِّجن ؛ ماذا يقول في نفسه ؟! كنت في بحبوحة ، وكنت في يُسْرٍ ، وكنت في راحة بال ، وجاء هذا ودلّني على عملٍ أوصلني إلى ما أنا فيه ، عندئذٍ يتمنَّى أن يُقطِعه إرْبًا إربًا !

فرعون يقْدُم قومه يوم القيامة ويوردهم النار ، قال تعالى :

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمْ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)

(سورة هود)

النار كأنَّها نبْعُ ماءٍ ، جاء بهم لِيَردوها فإذا هي نارٌ محْرقة ، قال لهم : ماء نمير عذْبٌ فرات ، تعالوا معي ، وامْشوا ورائي ، واقتفوا أثري ، فلما وصلوا إذا هي نارٌ محْرقة .

قال تعالى :

(وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ)

(سورة هود)

أيْ أتبعوا لعنة في الدنيا ولعنة يوم القيامة ، واللَّعْنُ هو الإبعاد ، فالله سبحانه وتعالى يلْعنهم ، ومعنى يلعنهم ، أي لأعمالهم المنحطّة ، ولأنَّهم عطّلوا تفكيرهم ، واتَّبعوه بالباطل لعنهم الله ، وأبعدَهم عن جنابه العالي إنّ الله طيّب ولا يقبل إلا طيِّبًا ، وما استرذل الله عبدًا إلا حضَرَ عليه العلم والأدب ، قد يُعطيك الله مالاً وفيرًا ، وقد يعطيك صحة كالحصان ، وقد يُعطيك جمالاً لا مثيل له ، وقد يعطيك ذكاءً وقادًّا ، وقد يعطيك قربًا منه ، هذا القرب أثمنُ شيء في الأرض ، إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين ، هذا القرب هو أثمن ما تملكه ، إنَّ الله يعطي الصحّة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنّه يعطي السكينة بِقَدَرٍ لأصْفِيائه المؤمنين . قال تعالى :

(بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ)

(سورة هود)

الرِّفْد هو العطاء ، والمرفود هو المُعْطى ، بئس هذا المكان الذي أوْصَلَهم إليه ، وبئس هذا العطاء الذي أعطاهم إياه ، قال تعالى :

(وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ)

(سورة هود)

هذه القصّة على إيجازها الشديد ، وعلى عرضها السريع ، إنَّما تعني أنَّ اتّباع الناس بعضهم بعضًا لا يُعْفيهم من مسئوليتهم اتِّجاه خالقهم .

مثلاً :

إنْ قالتْ لك أمّك : طلِّق هذه الزَّوجة ! فطلقّتها إرضاءً لها ، فهذا لا يُعفيك من المسؤولية اتِّجاه الله سبحانه وتعالى ، إن قال لك تعالى : لمَ طلَّقت زوجتك ؟ تقول : إرضاءً لأمِي ! فيقول لك : وهل كان لِزامًا عليك أن تُرْضيَها في معصية الله ؟ قال تعالى :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا(23))

(سورة الإسراء)

كل إنسان يعمل بِعَمل إن سمحَ له عمله أن يوقع الأذى بالناس ، وهو مغطّى من قِبَل من هو أعلى منه لِيذكر أنّه محاسب من الله حِسابًا شديدًا ، وأنّ اتّباعه لِمَن هو أعلى منه لا يُعْفيه من المسؤوليّة اتّجاه خالقه ، فإذا كنت تبيعُ وتشتري ، وكلما جاءك إنسانٌ لِيَشتري خفْتَ من الله أن تغشَّه ، وخفتَ من الله أن تبْخس ماله ، وخفْت من الله أن تكتم عليه هذا العيب ، فالله سبحانه وتعالى يَحميك ، ويحْفظك مِمَّا منه الناس وجِلون ، ومنه خائفون ، ومن خاف الله خافه كلّ شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كلّ شيء .

الغاية من القصص القرآنية :

إذًا المغزى من هذه القصّة القصيرة أنَّك مسؤول اتّجاه الخالق وحده ، وأنَّه لا طاعة لِمخلوق في معصية الخالق ، وأنَّ أيّ عمل تعمله في بيتك ، ومع زوجتك ، ومع أولادك ، كتبْتَ هذا البيت لهذا الولد، ما حجتك يوم القيامة إذا سألك الله عز وجل : لمَ فضّلت هذا على هذا ؟ إن كان معك حجّة بها ونعمت ، وإلا فالويل لك ! حرمْت البنات من الإرث ! لماذا ؟ أأنْت المشرِّع أم الله ؟ الله كتب لهم نصيبًا من الإرث ، إذا قلت : هذا المال تعبْت عليه أفيأخذه الأصهار ؟! أأنت أعلم أم الله ؟!! إذا حرمْت البنات من الإرث تذكّر وقفتك يوم القيامة ، عبدي أعطيْتُك مالاً فماذا صنعْت فيه ، يقول : يا ربّ ، لم أنْفق منه شيئًا مخافة الفقْر على أولادي من بعدي ! يقول الله عز وجل : ألم تعلم أنِّي أنا الرزاق ذو القوة المتين ، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد ألحقته بهم !! ويقول لِعَبدٍ آخر : أعطيتُك مالاً فماذا صنعت

فيه؟ يقول : يا رب ، أنفقتُهُ على كلّ محتاجٍ ومسكين ، لِثِقَتي أنَّك خير حافظًا ، وأنت أرحم الراحمين ، فيقول الله تعالى : أنا الحافظ لأولادك من بعدك ! الذي أريده من هذه القصّة أيُّ حركة أو سكنةٍ ، وأيّ إجراء أو سلوك أو تصرّف ، أو تقسيم ، ما حجَّتُك أمام الله عز وجل ، يعلم السرّ وأخفى ، لعن الله الذواقين والذواقات ! لم حرمت هذه البيت من الإرث ؟ وما حجّتك ؟ قد تلبّس من يطلب منك النصيحة بضاعة كاسدة بسِعر مرتفع، وتظنّ أنَّ هذه ذكاء ، وأنّ هذا ذكاء ، وأنّ هذا هو البيع ! فالويل لك إذا وقفت بين يدي الله عز وجل ، وقال لك : لقد استَنْصحك ، لِمَ لمْ تنْصحْهُ ؟؟

إذا غفل الإنسان عن الله عز وجل يقَعُ في شرّ عمله ، الذي أرجوه ، وأن يكون واضحًا أنَّ هيأ الحجّة اتّجاه الله تعالى بِكُلّ عمل ، لا تعبأ بِقول الناس ، ومن عرف نفسه ما ضرَّتهُ مقالة الناس به ، اعْبأ بِمُحاسبة اله عز وجل ، قال تعالى :

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ(24))

(سورة الصافات)

وقال تعالى :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

إنَّ لكلّ حسنة ثوابًا ، ولكلّ سيِّئة عقابًا ، فابْحث عن الحجّة لكي لا تقع تحت هذه الآية ، حجَّتهم داحضة عند ربِّهم .

انْتهت القصص التي جاءت في هذه السورة ، والآن إلى نهاية هذه القصة وفيها مجموعة من التعقيبات والتعليقات ، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ)

(سورة هود)

الإنسان إذا قرأ التاريخ ، أو إذا قرأ القرآن يجب أن يستنبط من أخبار الماضين مواعظ بليغة ، قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)

(سورة هود)

بعضهم قال : منها قائم ؛ الذين يعيشون هذه الأيام ، وحصيد الذين أهلكهم الله عز وجل ، وبعض العلماء قال : منهم قائم ؛ الذين أهلكهم الله ولهم أثار باقية ، فأهرامات تدلّ على الفراعنة ، وبعض القصور تدلّ على الأنباط ، وآثار تدمر تدلّ على التدمريِّين ، منها قائم وحصيد ، إما لهم آثارًا تدلّ على عظمة ملكهم ، وإما أنَّ الله سبحانه وتعالى أهلكهم ومحا آثارهم .

ظلم الإنسان لنفسه :

قال تعالى :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)

(سورة هود)

عرَّفَ العلماء الظلم أن تضعَ الشيء في غير موضعِهِ ، فلو كان عندك أوراق امتِحان ، وفي السؤال مسألتان ، والطالب حلَّ مسألتين ، أعطَيْتَهُ صفرًا ، والذي لم يحلّ المسألتين أعطَيْتَهُ علامة تامَّة ! فهذا ظُلْمٌ ، بِمَعنى أنك أوْقَعْت الشيء في غير موضِعِه ، فالعلامة التامة لِمَن حلَّ المسألتين ، وعلامة الصِّفر لِمَن لم يحلّهما ، وعلامة الخمسون لِمَن حلّ واحدة ، فالظُّلم أن تضَع الشيء في غير موضعِهِ . الله سبحانه وتعالى أوْدَع فينا بعض الشّهوات ، فإذا أفْرغْت هذه الشهوة في موضِعِها الصحيح فهذا هو العَدْل ، قال تعالى :

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(29)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(30))

(سورة المعارج)

إذا نظرْت إلى امرأةٍ لا تحِلّ لك ، وسألتها وسألتك ، وأدَرْتَ معها حديثًا ممْتِعًا فهذا ظُلم لأنَّ هذا الحديث الممْتِع كان يجب أن تُديرهُ مع زوْجتك التي خصَّها الله لك ، فالظُّلم أن تضَع الشيء في غير موضعِهِ ؛ إنْ في العلاقات الاجْتِماعيّة ، أو في العلاقات الاقتصادية ، أو في العلاقات الأخرى ، إذا وضَعت الشيء في مكانه الصحيح فهذا هو العدل ، وإن لم توقِع في مكانه الصحيح فهذا هو الظلم ، قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)

(سورة هود)

كلمة وما ظلمناهم ؛ هذا كلام الله ربّ العالمين ، فإذا قلتَ أنت : فلان والله مظلوم ، وفلان لا يستأهل هذه العقوبة ، فكأنَّك مِن طرْفٍ خفيّ تطْعنُ في عدالة الله سبحانه وتعالى ، ربّنا قال :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

(سورة هود)

لا في الدنيا ولا في الآخرة ، قال تعالى :

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

وقال تعالى : لا ظلم اليوم ، وقال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(40))

(سورة العنكبوت)

وفي الحديث القدسي عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَن اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي ، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلَا تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم]

ستة آلاف مليون من البشر لو أن واحدا منهم ظُلِم لما كانت هذه الآية صحيحة ، لأن الله سبحانه و تعالى كماله مطلق ، قد نقول للقاضي : إنك عادل إذا كانت أكثر أحكامه عادلة لأنه بشر ، قد يغلط ، ولكن هذا لا يصحّ بحَقّ الله تعالى ، الله تعالى مطلق ، عدالته مطلقة ، ورحمته مطلقة ، فلو أنّ إنسانًا واحدًا من بين ستة آلاف مليون من البشر ظُلِمَ ، لما كانت هذه الآية صحيحة ، ربّنا قال :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

(سورة هود)

((يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي

إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم]

ذلك لأنّ عطائي كلام وأخذي كلام ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه ، ما من عثرة ولا اختِلاج عرق ، ولا خدش عود إلا بما قدَّمَتْ أيديكم وما يعْفو الله أكثر ، قال تعالى :

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا(59))

(سورة الكهف)

قال تعالى :

(وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(117))

(سورة آل عمران)

إذا اعْتقدت أو توهَّمْت أو ظننْتَ ، أو تخيَّلت أنَّ في الأرض ظلمًا فهذا عَيْنُ الضَّلال ، فقد يكون في الأرض ظُلْمٌ ظاهري ، وقد يظلم إنسانٌ إنسانًا ، ولكنّ هذا الظالم جعله الله سَوْطًا ينتقمُ به ، ثمّ ينتقم منه ، قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(129))

(سورة الأنعام)

فالظالم سوط الله ينتقم به ثمّ ينتقم منه ، وهذا هو معنى قوله تعالى :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

(سورة هود)

هؤلاء الذين اتَّبعوا من هم أعلى منهم في معصية الله تعالى ما منعوهم من عذاب الله ، وما خلّصوهم من عقاب الله ، بل زادوهم خسارةً على خسارة .

نهاية كل ظالم :

قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

(سورة هود)

أخبار البراكين والزلازل والفيضانات وأخبار الصِّراعات الداخليّة ، والتي يذهب ضحيّتها آلاف الناس؛ هذه الأخبار ليْسَتْ عنكم ببَعيد ،

قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

(سورة هود)

جملة وهي ظالمة حاليّة ، أيْ حالة هذه القرية الظلم ، فأخذها الله أخْذَ عزيز مقتدر ، فبعض المدن السِّياحيّة على الشاطئ الأطلسي تمتدّ المسابح التي يسبح الناس فيها عراةً إلى أربعين كيلو متر ! أصابها زلزال جعلها رُكامًا في ثلاثة دقائق ، كلّ يوم نسمع نبأ فيضان أو بركان أو نبأ زلزالٍ ، أو نبأ صراعٍ بين الشعوب أودى بآلاف الضحايا ، فإن علمْتَ عِلْم اليقين أنَّ هذه القرى ما كان الله لِيُهْلكها إن كانت على الحق ، وعلى صراط مستقيم ، قال تعالى :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

(سورة هود)

إنَّ الله يمْهل ولا يهْمل ، وإنَّ الله لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1))

(سورة الحج)

لا تنس هذه الآية :

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

(سورة هود)

تأتي المصائب مجتمعة ؛ مصيبة في الجسد ، ومرضان متعاكسان ، دواء هذا المرض يؤذي هذا المرض ودواء هذا المرض يؤذي ذاك المرض زوجة مشاكسة ، ودَخْلٌ قليل ومشكلات بعضها فوق بعض ، أولاد عاقُّون ، قال تعالى :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

يوم القيامة :

الويل لِمَن لا يخاف من الله عز وجل ، لأنَه أحمق ،

قال تعالى :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)

(سورة هود)

هذا اليوم الذي وعدنا الله به ، لا بد من أن يقع ، قال تعالى :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

سُمِيّت واقعة لأنها لا بدّ من أن تقع ، ترفع أناسًا ، وتخفض أناسًا آخرين في الدنيا مقاييس ، والله سبحانه وتعالى يُطَبّق على الناس يوم القيامة مقاييسه ، مقياس الاستقامة والخير ، والطُّهْر والإخلاص ، أما في الدنيا فهناك مقاييس كمِقْياس المال ، يرفعُ إنسانًا ، ويخفض آخر ، ومِقياس القوة يرفعُ إنسانًا ، ويخفض آخر ، ولكنّ المقياس عند الله تعالى مِقياسٌ أخلاقي ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي]

قال تعالى :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)

(سورة هود)

المؤمن العاقل لا يغيب عنه يوم الدِّين ؛ يوم القيامة ولو دقيقة ، وفي كلّ حركة ؛ في تبَسُّمِهِ ، وفي كلامه ، وفي مُزاحِهِ وفي جِدِّه ، وفي عمله وفي بيته ، وفي الطريق ، والنّزهات ، وفي المعمل ، ووراء مكتبِهِ لا يغيب عنه ساعة الحِساب ، ساعة أن يقف بين يدي الله عز وجل ، ويسأله : لمَ فَعَلْتَ كذا وكذا ؟! وما حجّتك ؟ هذه ليْسَت حجة ، لماذا كنت تابعًا له ؟ أين عقلك ؟ أين تفكيرك ؟ لو أنَّ واحدًا ذهب إلى مركز الشرطة وادّعى أنَه أوْقَعَهُ في حفْرةٍ من المياه الآسنة ! قال له المحقق : أدَفَعَكَ إلى هذه الحفرة ؟ تقول : لا ، أشْهَرَ عليك سِلاحًا وقال لك : انزلْ ! قلت : لا ، قال : حمَلَكَ وأوْقَعَكَ فيها ؟ قلت : لا ، فقال : لمَ تشتكي عليه ؟ يقول : لأنَّه قال لي انزل فنَزَلْت !! هذا يحتاج إلى مشفى المجانين ، قال تعالى :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(22))

(سورة إبراهيم)

لا تقل : فلان قال لي ذلك ! هذا كلام مرفوض ، لما خلق الله العقل قال له أقبِل فأقبلَ ، ثمّ قال له أدْبر فأدْبر ، قال : وعِزَتي ، وجلالي ما خلقت خلقًا أحبّ إليّ منك ، بك أعْطي ، وبك آخُذ ! أين عقلك ؟ وأين محاكمتك ؟ أين تفكيرك ؟ لِمَ اتَّبَعْتَهُ على ضلال ؟ الإنسان عليه أن يُفَكِّر ، وعليه أن يكون حُرًّا في تفكيره ، إنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّة ، وإنا على آثارهم مقتفون ، قال تعالى :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69)إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70)قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71)قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72)أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74)قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75)أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (76)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ(77)الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79))

(سورة الشعراء)

إذًا : الإنسان لا يُعْفى من المسؤوليّة إذا قال : فلان قال لي ، أحدُ العلماء الكبار قال : ما جاءنا عن رسول الله فعلى العين والرأس ، وما جاءنا عن غيره فنحن رجال وهم رجال ! قلتَ لي : افْعَل هذا فهل هناك آية تثبتُ ذلك ؟ وقلت لي : لا تفعل هذا ! فهل هناك آية تمنع من ذلك ؟ هل هناك حديث صحيح في الكتب المعتمدة ينهى عن ذلك ؟! أم أنَّك تتَّبعُ الهوى ؟ قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(102)إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)

(سورة هود)

أجل محدَّد ، أما ما يُقال من أنّ بعض العلماء لقموا بعض الحاسبات الإلكترونيّة آيات القرآن الكريم فعرفوا يوم القيامة ، فهذا كلام مرفوض ، وهذا كلام لا يقبله العقل ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(34))

(سورة لقمان)

قال تعالى :

(وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ)

(سورة هود)

أصحاب الحجج :

في الدنيا هناك أشخاص عندهم طلاقة لِسان ، وعندهم قدْرة على إقناع الآخرين ، وعندهم قدرة على قلب الحق باطلاً ، والباطل حقًّا ، إذا تكلّموا أنْصت إليهم ، وأدْلوا بِحُجَجٍ قويّة ، أنت تعلم أنَّهم مخطئون، فإذا تكلّموا علمت أنَّهم مصيبون ، هؤلاء الذين يُلَفِّقون ، ويُزَيِّفون ، ويُزَوِّرون ، إذا وقفوا يوم القيامة

بين يدي الله عز وجل لا ينطقون ، قال تعالى :

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(65))

(سورة يس)

هذه الحجة والطلاقة وقوة الإقناع هذه في الدنيا ، أما إذا وقف العبد المذنب يوم القيامة بين يدي الواحد القهار لا يستطيع أن يكذب ، ولا أن يُزَوِّر ، ولا أن يُغَيِّر ، قال تعالى :

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ(24))

(سورة الصافات)

لذلك السكوت هناك من تمام العدالة الإلهيّة فيسْكُت ، قال تعالى :

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14))

(سورة الإسراء)

قال تعالى :

(يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

(سورة هود)

الإنسان مخير ومسير :

سامح الله من يقول :

إنَّ الإنسان من عالم الأزل كتبَ عليه الشقاء ، فإذا جاء إلى الدنيا لا بدّ من أن يعصي الله تنفيذًا لِحُكم الله فيه ، ولا بدّ من أن يدخل إلى النار إلى الأبد تنفيذًا لِحُكم الله فيه ، وهذه الآية من الآيات المعضلة في القرآن الكريم ، ولا يكفي هذا الوقت القليل المتبقي من الدرس للخوض فيها ، وتبيان مراد الله فيها الآية:

(وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

(سورة هود)

معضلات هذه الآية كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى قيَّد البقاء في النار ، والبقاء في الجنة ببَقاء السماوات والأرض ، ولو أنّ السماوات والأرض زالتا أتنتهي الجنة والنار ؟!

هذا سؤال مهمّ .....

والسؤال الثاني :

إلا ما شاء ربّك ، أَيَدْخل أهل النار الجنة في النِّهاية ؟

السؤال الثالث والأهمّ :

هؤلاء الذين هم في الجنة هناك استِثناء إلا ما شاء ربك ، أيَدْخلون النار بعدها ؟

هذه الأسئلة الدقيقة نرجئها إلى الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

أنتم فكّروا فيها قال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

(سورة هود)

سأنهي الدرس بها .

النص لِسَيدنا الحسن بن عليّ عليهما رضوان الله ، قال سيّدنا الحسن :

(من حملّ ذنبه على ربِّه فقد فجَر) أيْ إذا قال : إن الله قدَّر عليّ ذلك .

جيء بشارب خمر إلى عمر بن الخطاب ، و قد شرب الخمر فقال : أقيموا عليه الحدَّ ، قال : واللهِ أيها الأمير إن الله قدَّر عليَّ ذلك ، قال : أقيموا عليه الحدَّ مرَّتين ، مرة لأنه شرب الخمر و مرة لأنه افترى على الله ، قال : ويحك إن قضاء الله لم يخرجك إلى الاختيار إلى الاضطرار ، أنت مخيَّر .

فسيدنا الحسن يقول :

(من حمل ذنبه على ربه فقد فجر ، إن الله تعالى لا يُطاع استكراها ، ولا يُعصى بغلبة ، فإن عمل الناس بالطاعة ، لم يحل بينهم وبين ما عملوا) أي إن عملت بالطاعة فلا بد من أن تقطف ثمارها ، والله سبحانه وتعالى أعزّ وأكرم من أن يحول بينك وبين ثِمار طاعتك ، قال تعالى :

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

وإن عملوا بالمعصية فليس هو الذي أجبرهم ، قال تعالى :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

هذا كلام الشِّرك ، أن تفعل المعصيَة وتقول : الله قدّرها عليّ ، فهذه ثلاث كلمات قالها سيّدنا الحسن :

(ولو أجبرهم على الطاعة لسقط الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لأسقط العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عَجْزًا في قدرته)

كأن يهمل الأب ابنه ، فها دليل على عجزه ، فإن عملوا بالطاعة فله المِنَّة عليهم ، وإن عملوا بالمعصيَة فله الحجّة عليهم ، خلقهم وأمدّهم وأرشدهم وهداهم وقدّر عليهم الخير ، وإن عملوا بالمعصية فلهم الحجّة عليهم ، قال تعالى :

(إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

وقال تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(148))

(سورة البقرة)

وقال تعالى :

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ(43))

(سورة ق)

بعد أن فعلوا وأصرُّوا على فعلهم يُسَجِّلهم عليهم ، لا أن يكتب عليهم قبل أن يفعلوا ، أكان مسيرنا إلى الشام بِقضاء وقَدَرٍ ، قال سيّدنا عليّ : ويحَكَ لعلّك ظننتَ قضاءً لازمًا ، أو قدرًا حاتِمًا ، إذًا لبطل الوعد والوعيد ، ولانتفى الثواب والعقاب ، إن الله أمر عباده تخييرًا ونهاهم تحيرًا ، وكلّف يسيرًا ، ولم يكلّف عسيرًا ، وأعطى على القليل كثيرًا ، ولم يُعْصَ مغلوبًا ، ولم يُطَع مغلبًا ، ولم ينزِّل الأنبياء عبثًا هذا هو الحق ، وهذا هو معنى فمنهم شقيّ أو سعيد ، فلماذا حمَلَ بعض المفسّرين على أنَّ الشقيّ من شقِيَ في الأزل ، وأنّ السعيد من سعد في الأزل ، وعلى كلٍّ لنا عودة لهذه الآية في الدرس القادم إن شاء الله بشَكل تفصيلي .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (14-16): تفسير الآيات 105 – 109
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-04-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ

(يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

(سورة هود)

السعادة والشقاء مرهونان بعمل الإنسان في الدنيا :

كانوا في الدنيا ، الذين استقاموا وعملوا الصالحات ، بعد أن عرفوا الله عز وجل يأتون إلى الله يوم القيامة سُعداء ، والذين غفلوا ، وجهلوا ، وعَصَوا ، وأساءوا في الدنيا هم يوم القيامة أشقياء ، كأن يدخل الطلاب الامتحان ، فمنهم ناجحٌ لأنه درس ، ومنهم راسبٌ ، لأنَّه قصَّر ، قال تعالى :

(فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ(105)فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

(سورة هود)

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ

الزفير والشَّهيق كِنايةٌ عن بذْل الجهد الذي لا يُحْتَمل في تَحَمّل العذاب كِنايةٌ عن بذل الجهد في تَحَمّل العذاب ، قال تعالى :

(لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

(سورة هود)

حينما يبْذل الإنسان جهدًا كبيرًا يزداد وجيب قلبه ، ويزداد خفَقَان رئتَيْه ويَعْلو زفيرُهُ وشهيقُهُ ، قال تعالى :

(خَالِدِينَ فِيهَا)

(سورة هود)

أيْ خالدين في جهنَّم قال تعالى :

(مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(107)وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

(سورة هود)

موضوعات مستنبطة من هذه الآية :

موضوعات كثيرة في هذه الآية :

1 ـ الموضوع الأول : حرية الاختيار وتبعاته :

أنَّ الله سبحانه وتعالى أعْطانا الخيار قال تعالى :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

وقال تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(148))

(سورة البقرة)

ما دام الله سبحانه وتعالى أعْطانا الخيار فنحن سوف نتحمّل تَبِعَة اخْتِيارنا ، وتَبِعَةُ اخْتِيارنا شَقاءٌ إلى الأبد ، أو سعادة إلى الأبد هذه تَبِعَة الاختيار ، ما ينْتج عن الاختيار ، إن صحَّ اختيارك وحسُنَ ، وأصاب اختيارك فأنت من السُّعداء ، وإن أسأْتَ في اختيارك فهذا صاحب الإساءة في الاختيار من الأشقياء .

2 ـ الناس فريقان في الدنيا ويوم القيامة بتقسيم الكتاب والسنة :

يوم القيامة يفرز الناس إلى فريقين ، هم في الدنيا آلاف الأنواع ، بيضٌ وسود ، وصُفْر ، ومن العِرق السامي ، ريفيُّون أو مَدَنِيُّون ، أغنياء ، فقراء ، أقوياء ، ضعفاء متحضِّرون ومتوحِّشون ، متقدِّمون ومتخلّفون ، منتجون أو مستهلكون أرستقراطِيُّون كادِحون ؛ في الدنيا تقسيمات لا نهاية لها ، ولكنَّ البشر جميعًا على اختلاف عِرْقهم ، وعلى اختلاف أجناسهم وألوانهم ، وعلى اختلاف مشاربهم ومِلَلِهم، وعلى اختلاف نِحَلِهم وأصلهم ، وعلى اختلاف ألوانهم ولغاتهم ؛ شَقِيّ وسعيد ، لذلك عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ :

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا ، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ : بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ ن وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ ن وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ))

[رواه الترمذي]

هذا تقسيم النبي عليه الصلاة والسلام ، و ليس في القرآن الكريم إلا نوعان ، قال تعالى :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ(9))

(سورة الزمر)

وقال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

كأنّ القرآن الكريم يُقسِّم البشر على اختلافهم إلى نوعين ؛ مؤمن وكافر ، ومقبل ومدبر ، متَّصِل ومنقطع ، ومحسن ومسيء ، مخلص وزائغ ، هذا التقسيم الأساسي في الدنيا كما قسَّمه النبي عليه الصلاة والسلام ؛ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ :

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا ، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ : بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ، قَالَ اللَّهُ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)))

[الترمذي]

هذا التقسيم نتائجه في الآخرة ، وهو أنَّ منهم شقيًّا وسعيدًا ، فهذا الذي تسمعونه الآن يُسمَّى في المصطلح الحديث كلاما مصيريًّا ، يُحدِّدُ مصيرنا ، فإما أن يكون مصيرنا إلى السعادة الأبديّة ، وإما أن يكون مصيرنا إلى الشقاء الأبدي ، قال تعالى :

(فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ(105)فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

(سورة هود)

3 ـ الجهل هو السبب الأول للشقاء :

شَقُوا بِبُعْدهم عن الله عز وجل ، وشَقُوا بِجَهلهم ، شَقُوا بانْحِرافهم وإساءتهم ، وشَقوا بطُغْيانهم ، وشَقُوا بِتَجاوُزهم الحدود ؛ هذه أسباب الشقاء ، وعلّة العلل الجهل ، أعْدى أعداء الإنسان الجهل ، جهلوا الله وما عرفوه ، فشَقوا بِجَهلهم ، ابن آدم اطْلبني تَجِدني فإذا وجدتني وجدت كلّ شيء ، وإن فِتُّكَ فاتَكَ كلّ شيء ، وأنا أحبّ إليك من كلّ شيء ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

(سورة هود)

كما قلتُ قبل قليل كِنايَة عن العذاب الأليم الذين يتحمَّلونه ، إنَّهم يبْذلون جهدًا كبيرًا في تَحَمّل آلام النار، وفوق ذلك هم خالدون فيها كما قال تعالى :

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة هود)

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ

1 ـ وقفة مع : مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

أما كلمة ما دامت السماوات والأرض ، ما هنا مصدريّة ظرفيّة كما أعربها العلماء ، تؤوَّل على الشكل التالي : خالدين فيها مدّة دوام السماوات والأرض .

المعنى الأوّل المستنبط من هذه الآية : أنَّ هذه كناية على لغة العرب ، وهي كناية عن الأبديّة ، لو قلتُ لواحِدٍ منكم : أعطيك هذا المال كل شهر ما أشرقتْ شمس ، إذا ربطتُ هذا العطاء بسُنّة كونيّة ثابتة فهذا العطاء دائم أبدي سرمدي ، فكلمة ما دامت السماوات والأرض كناية عن الأبديّة ، ولكنّ بعضهم يقول في قوله تعالى :

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ(104))

(سورة الأنبياء)

وقال تعالى :

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1)وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2))

(سورة التكوير)

وقال تعالى :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا(105))

(سورة طه)

قال تعالى :

(وَحُمِلَتْ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً(14))

(سورة الحاقة)

2 ـ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ليست دائمة :

بعضهم يقول : السماوات والأرض ليستا مستمرتين ، لا بدّ من يوم تنتهي السماء وتنتهي الأرض . وبعض العلماء قال : السماء والأرض اسم جنس ، فأيّ شيءٍ تستقر عليه قدمُكَ هو أرض ، وأيّ شيءٍ يظلك هو سماء وفي الجنة أرض وسماء ، أهل الجنة أليْسوا على أرض الجنة ؟ أليس فوقهم سماء تُظِلّهم ؟ إذًا في الجنة أيضًا أرض وسماء ، والدليل قوله تعالى :

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(48))

(سورة إبراهيم)

الأرض في الجنة غير هذه الأرض ، والسماء في الجنة غير هذه السماء ، ولكن في الجنة أرض وسماء ، وما دامت أرض الجنة أرضًا ، وسماء الجنة سماءً فأنت في الجنة منعَّمٌ فيها ، وهذه أيضًا كناية عن الأبدِيَّة ، والأبديّة يصعب تصوّرها ، أشرحها شرحًا رياضيًّا .

مثال لتقريب الأبد : خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

وسأشرحها شرحًا تمثيليًا : لو كان معك رقم الواحد في دمشق والأصفار إلى القطب الشمالي ! ووضعت هذا الرقم صورة على كسرٍ قيمته لا نهاية ، فهذا الرقم قيمته صفر ، فأيّ رقم مهما كبر إذا نُسِبَ إلى اللانهاية فهو صفر ، فإذا عاش الإنسان ألف مليون مَليون مليُون حتى ينقطع النفس ، هذه إذا قستها بالأبديّة فهي لا شيء .

لو أتَيْتَ بِكِيس طحين ، ووضَعت أصبعك بعد أن بللْتها ، فكم ذرَّةً عَلِقَتْ على أصبعك ؟! آت بِمُكَبِّر وعُدَّها ! لو أخذتَ مِلعقةً من طحين أو كأسًا من طحين ، هذا الكيس كم ذرَّة ؟ لو أنَّ كلّ ذرّة من هذا الكيس ترمز إلى ألف مليون سنة ، هذا الرقم في النهاية محدود ، لَيْسَتْ هذه هي الأبديّة ، الأبديّة ما دامت السماوات والأرض فما دام في الجنة أرض تُقِلك ، وسماء تظلك فأنت في الجنة ، لو فكّرنا في الأبديّة لَزَهِدنا في الدنيا .

إنها سنوات معدودة يُمْضيها الإنسان في نصَبٍ وتعبٍ ، وهمّ وحزن ، وقلق وخوف ، وهو متعلّق بها ! لو فكّرنا في الأبديّة لهانَتْ الدنيا علينا ، ولصَغُرَت في أعيينِنَا ، ولانْتَقَلَت من قلوبنا إلى أيدينا ، من عرف الله زَهِدَ فيمَن سِواه ، من عرف ما عند الله من نعيم زَهِد في الدنيا وما فيها من لذّات ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)))

[البخاري]

فكّروا في الأبديّة !!!

أيها الإخوة المؤمنون ، فكّروا في الأبديّة ، فكّروا في حياةٍ لا تنقضي وحياة الإنسان كَيَومٍ أو بعض يوم، مضى مِن عمرنا كذا سنة ، أغلبُ الظنّ بالنِّسبة لبعضنا أنَّه لن يعيش بِقَدْر ما مضى من حياته ، الحياة قصيرة تمضي سريعًا ، وإلى أن تستقرّ تحتاج إلى أربعين سنةً من الجهد والتَّعب والكدّ ، لِيَأتي ملكُ الموت في السِّتين ، أو السَّبعين ، لن تستمتع في الحياة بِقَدْر ما بذلت لها ! هكذا الحياة !! لم نُخْلَق للدنيا ، خُلِقنا لِحَياةٍ أبديّة .

حينما كان النبي عليه الصلاة والسلام يُدْعى إلى اللّهْو كان يقول : لم أُخْلق لهذا ، هذا هو السرّ ، إما أن تظنّ أنَّك خلقت للدنيا ، فهذه المصيبة الكبرى ، والجهل الفاضِح ، وهذه هي الطامّة الكبرى ، البُطولة أن تعرف أنَّك لم تخلق للدنيا ، وأنَّك خلقت للآخرة ، والله سبحانه وتعالى يقول في الأثر القدسي : خلقْتُ لك ما في السماوات والأرض فلا تتْعَب ، وخلقْتُك من أجلي فلا تلعَب ، فبِحَقِّي عليك لا تتشاغَل بما ضَمِنْتُهُ لك عمّا افْترضتُهُ عليك ، مهما فكّرنا في الأبديّة ؛ حياةٌ لا تنقضي ، ألف مليون سنة وألف ألف مليار سنة !! هذا العدد لا يُساوي الأبديّة ، والأبديّة لا تنقضي ولذلك ربّنا عز وجل عبَّر عن هذه الأبديّة ما دام هناك سماءٌ في الجنّة تُظِلّ أهل الجنّة ، وما دام في الجنة أرض تُقِلّهم فهم خالدين فيها .

3 ـ معْنًى آخر لدوام السماوات والأرض :

معْنًى آخر ؛ أنَّ السماوات والأرض مخلوقات ، وكلّ مخلوقٍ خلِقَ من نور العرش ، ونور العرش لا يفْنى ، كلّ مخلوقٍ في الجنّة خلق من نور العرش ، ونور الله سبحانه وتعالى لا يفنى ، وهو الباقي على الدوام إذًا هذا هو معنى الأبديّة .

سيّدنا ابن عباس رضي الله عنه يقول مؤيِّدًا هذا المعنى : << لِكُل جنة سماء وأرض >> ، يؤكّد هذا المعنى قوله تعالى :

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(48))

(سورة إبراهيم)

إذًا في الجنة أرض ، وفي الجنة سماء ، وما دامت أرض الجنة أرضًا ، وسماء الجنة سماءً فأنت في الجنة ، وهذا معنى تقييدُ البقاء بِدَوام السماوات والأرض ؛ أيُّ سماءٍ ؟ سماء الجنّة ، وأيّ أرضٍ ؟ أرض الجنّة ، وإن أخذتها على المعنى القريب حتى أرض الدنيا وسماؤُها تعْنِيان الدَّوام ، ما دامت

السماوات والأرض كِناية يستخدمها العرب عن الدَّوام والبقاء والاستمرار ، لكن كما قال تعالى :

(إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ

1 - الخلود في الجنة والنار مقيَّد بمشيئة الله :

هنا استثناء ، وهذه لها معنى دقيق ، العلماء قالوا : الخلود في النار والجنة مُقيّد بمَشيئة الله ، حتى لا يقول الإنسان : أنا مستحقّ هذه الجنّة سوف أبقى فيها إلى الأبد ! لا ، هذا الفضل الإلهي مُقيّد بمَشيئة الله تعالى فالخلود في النار أو الجنّة مُقيّد بمَشيئة الله ، ومشيئة الله اقْتَضَتْ هذه السنّة ، ولكنّ هذه السنّة لا تُقيِّد مشيئة الله ، فهذا لا يُقال ، فمثلاً : لو أراد الإنسان أن يُسافر فَعَلِمَ أنَّه إذا دفَعَ صدقةً فالله سبحانه وتعالى يحْفظهُ في هذه السَّفْرة دفعَ صدَقةً ، وظنّ أنَّ العلاقة حَتْمِيَّة بين هذه الصَّدقة وسلامته في هذه السَفرة ! وأنَّ هذا المبلغ الذي دفعَهُ وحْده يكفي لحِفْظه فاطْمأنَّ بهذه الصَّدقة واعْتزّ بها ، واعتدّ بها ، وظنّ أنَّه لن يُصيبهُ مكروه !! لا ، مشيئة الله لا تقيّد بهذه الصَّدَقة ، لا بدّ من أن تبقى مع الله في هذه السَّفْرة حتى يحفظك فإذا نسيته ، وغفلتَ عنه ، ولو أنَّك دفعْت هذه الصَّدَقة قد تُعالجُ أثناء السَّفر من قِبَل الله عز وجل ، المعنى دقيق جدًّا فمشيئة الله لا تُقيّد ، لو أنَّ إنسانًا قال : أنا دفعْت هذه الصّدقة ولن يُصيبني مكروه ، نقول له : لا ، لن يُصيبكَ مكروه بمَشيئة الله ، وحِفْظ الله ، هذه الصَّدقة سبب ، وهذه الصَّدقة لا تخلق المُسبَّب ، ولا وتخلق النتيجة ، ولكنّها تُعبِّر عن رجائِكَ ، وطلبك ، وسؤالك لله عز وجل ، فإذا صلى الإنسان ، وقال : أنا أصلّي ، وفعلَ الخير ، وظنّ أنَّه فعلهُ من تِلْقاء ذاته ، وأنَّه يستحقّ قطْعًا أن يُعَوِّض الله عليه أضعافًا كثيرة دون أن ينظر إلى فضْل الله عز وجل ، وإلى توفيق الله، وإلى كرم الله عز وجل ، وقعَ في نوع من الشِّرك ، مشيئة الله سبحانه وتعالى لا تُقيّد ، ومن هذا القبيل قال عليه الصلاة والسلام :

((وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَاذَا يُفْعَلُ بِي))

[البخاري]

2 ـ مشيئة الله نافذة في كل شيء :

الله سبحانه وتعالى له نِظام ، مثلاً : لو اشترى رجلٌ حديدًا ، وأشاد به بناءً ، يقول لك : أنا وضَعْتُ النِّسَب النِّظامية في الإسْمنْت ، من جعل لهذا الحديد قوّة التَّماسك ؟ الله سبحانه وتعالى ، والذي أعطى قوّة الحديد التماسك قادِرٌ في كلّ لحظة أن يسْلبَ الحديد خواصَّه ؛ ينْهارُ البناء ! فإذا بقِيَ البناءُ متماسكًا فهذا بِمَشيئة الله ، وليس بعيدًا عن مشيئته تعالى ، الذي أعطى الحديد هذا الصّفات ، وكذا الإسمنت قادِرٌ في كل لحظة أن يسْلب الحديد والإسمنت كلّ صفاته فإذا البناء في الأرض ، ولكن شاءَتْ حكمة الله أن يثبِّت خواصّ الأشياء ، وقلمَّا اقتضَتْ مشيئتُهُ أن يُعَدِّل بعض الخواص ، أن يجعل البحر طريقًا يبسًا جعله ، كما فعلَ لِسَيِّدنا موسى ، وعلماء التوحيد يقولون : عندها لا بها ! فالنار لا تُحْرِق ، ولكنّ مشيئة الله تعالى تجعلها تحرق ، والسّكين لا تقطع ، عند مشيئة الله لا بها ، والأفعى لا تلدغ ، ولكن عند مشيئة الله تلدغ ، فالله سبحانه وتعالى أعطى لكل شيء خاصّة ، فهناك مواد فيها فعاليّة ، وهذه المواد لا تفعل فِعْلها إلا إذا شاء الله ، فإذا لم يشأ لا تفعلُ فِعْلها ، قد يأخذ المريض الدواء ، ولا يشْفى ، وقد يأخذ مريضٌ آخر هذا الدواء فيشْفى ! شاء الله لهذا الدواء أن يكون فعالاً في فلان ، وأن يكون عاطلاً في فلان ، وهذا هو التوحيد ، لا شيء يغلبُ مشيئة الله عز وجل فعَّالٌ لما يريد ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالإنسان لا يظنّ أنَّه ملكَ شيئًا ما دام أنّه اسْتقام على أمر الله لا بدّ من أن يحفظه الله تعالى؛ هذا معنى آخر ، بِفعَل الله ووفائه وكرمه يحفظك الله ، ولكن هذا ليس قهْرًا ، مِنَّة ، وفضلاً ، وفرْق بين أن يكون الحفظ قهرًا ، وبين أن يكون الحفظ مِنَّة ، وفضلاً ، فهؤلاء الذين هم في النار ، قال تعالى:

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

3 ـ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ

لم يقل الله عز وجل : إلا من شاء ربّك ، وقال : ما شاء ربك ! يعني هناك عدد ، فـ (ما)تعني العدد ، و(من)تعني الأشخاص ، بعض المفسِّرين قالوا : هناك عدد من أهل النار يمضون فيها حِقَبًا من الزَّمَن ثمّ ينتقلون إلى الجنة لِقول عليه الصلاة والسلام : عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((يَخْرُجُ مِنَ النَّار مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّار مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّار مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ))

[رواه البخاري]

قال تعالى :

(فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ(13))

(سورة الحديد)

4 ـ معنى آخر من معاني هذه الآية :

يُفْتَحُ نحو الجنّة باتِجاهٍ واحد ، فَرُبَّما أمضى من كان في قلبه ذرة من إيمان حِقَبًا كثيرة في جهنّم ، تطهَرَتْ نفسُهُ ، ونما هذا الخير ، ونما إلى أن أصبح غالبًا عليه فاسْتحقّ دخول الجنّة ، وهذا معنى آخر من معاني هذه الآية قال تعالى :

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

لا يخلد في النار إلا من شرد على الله شرود البعير ليس فيه ذرّة من خير ، ولم يفكّر في حياته كلّها بشربَه ، ولم يعمل عملاً صالحًا في حياته كلها .

قال تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة هود)

إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ

1 ـ لا أحد يسأل الله عما يفعل :

الإنسان قد لا يستطيع أن يفعل ما يريد ، ولكنّ ربّك فعَّال لما يريد ، فليس أحدٌ فوقه ، وليس من إلهٍ غيره ، ولا يُسأل عمَّا يفعل ، ولا أحدَ في الكون يُحاسِبُه ، فعَّال لما يريد ، قال تعالى :

(وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(117))

(سورة البقرة)

ما شاءه الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، قال تعالى :

(إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

مشيئة الله لا يحدّها شيء .

قال تعالى :

(وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

1 ـ الأمور الثابتة الدائمة مُقيّدة بمَشيئة الله لا بطبيعتها :

الأمور الثابتة الدائمة مُقيّدة بمَشيئة الله لا بطبيعتها ، دَقِقوا في هذا الكلام : شروق الشّمس مثلاً ، منذ أن كنّا في هذه الدنيا وحتى الآن ، ما من يوم إلا وأشْرقتْ فيه الشَّمس ، ما من مكان إلا وفيه هواء ، الماء دائمٌ مفيد ، التفاح دائمًا حُلوُ الطَّعم ، المولود دائمًا يأتي من نوع الأب والأم ، ما مرّ أنّ إنسانًا يلد حيوانًا !! الإنسان يلد إنسانًا ، والحيوان يلِدُ حيوانًا ، الدجاجة تبيض بيضةً ثم تنتهي إلى دجاجة ، هذه سُنَن ثابتة ، ليْسَت ثابتة بذاتها بل بمَشيئة الله وبفضله ، فالله هو الذي ثبَّتها ، ولو شاء لغيَّرها .

المطر مثلاً ما ثبَّته الله ، تأتي الأمطار في عامٍ غزيرة ، وتنقطع في عام آخر ، هذه بيَد الله لو تعمَّقت في الأمور لوجدْت كلّ شيءٍ كالمطر ، لكنْ شاءَتْ مشيئة الله أن تجعل نزول المطر متغيّرا ، أما شروق الشمس فثابت ، لكنّ شروق الشمس ، هذه السنّة الثابتة ليْسَتْ بطَبيعتها ثابتة ، ولكن بمَشيئة الله ثابتة وبفَضْل الله وبمِنَّة الله تعالى ، وبكَرم الله ، فأنْ ترى أنَّ زوْجتك أنْجبَتْ مولودًا من البشر ، هذه بفَضْل الله ، ولو شاء الله لأنْجَبَتْ حيوانًا لكنّ الثبات يوحِي للناس أنَّ هذا شيئًا طبيعيًا ، ثباتُ خواص الأشياء يوحي للناس أنّ هذا شيئًا طبيعيًا ، وأنَّ السِّكين تقطعُ دائمًا هذا بمَشيئة الله تعالى فالموضوع توحيدي دقيق ، مشيئة الله سبحانه وتعالى لا يحدُّها شيء ، ولا يُقيِّدُها شيء ، والأشياء كما هي عليها لا بذاتها ، بل بالله عز وجل ، وهذا معنى قول الله تعالى :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة : من الآية 255)

قيام الشيء بالله عز وجل ، الكائنات الحيّة حياتها بيَدِ الله ، هذه الشجرة من بثّ فيها الحياة ، وهذه البزرة تبقى خمسة سنوات ، تزرعها في الأرض فتنبتْ ؛ من بثَّ في رشيْمِها الحياة ؟! الله عز وجل .

أما معنى كلمة القيُّوم فيعني أن الحديد قائمٌ بالله ، خواصّهُ بيَدِ الله ، ولو شاء الله سبحانه وتعالى أن يسْلُبَهُ خواصَّه لكان كالماء !! كلّ شيءٍ قائم بالله تعالى ، وحيٌّ بالله تعالى ، قال الله تعالى :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة : من الآية 255)

قال تعالى :

(وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

2 - لا شيء يحدّ مَشيئة الله :

إنسانٌ دفع الزكاة ، وهو يظنّ أنّه بدَفْع الزكاة لن يتْلفَ مالهُ ، فمالنا نجد بعض الأشخاص وهم قِلّة يدْفعون زكاة مالهم ، ويُتْلِفُ الله مالهم ؟! وعلى الرغم من دفعها !!

الله سبحانه وتعالى شرعَ لنا شرْعًا ، وقال على لِسان النبي عليه الصلاة والسلام :

((حصّنوا أموالكم بالزكاة))

[الطبراني عن ابن مسعود]

((مَا تَلَفَ مَالٌ فِي بَرٍّ ، وَلَا بَحْرٍ إِلَّا بِحَبْسِ الزَّكَاةِ))

[الطبراني والبيهقي عن عمر]

لو أنَّ تاجرًا دَفَعَ زكاة ماله واعْتدَّ بهذه الزكاة ، وتساهَلَ في بقيّة الأوامر ، وأكل مالاً حرامًا ، ومدَّ عَيْنيه إلى ما لا يَحِلّ له ، وسافرَ فطغى في هذه السَّفْرة ، وهو يظنّ أنَّهُ دفعَ زكاة ماله ، ولن يُتْلفَ مالهُ ! لا شيءَ يَحُدّ مشيئة الله عز وجل ، وقد يرجعُ إلى بلده ، وقد طغى وبغى في سفره ، فإذا مالهُ مُصادَر ، أو تالفٌ ، أو مالهُ محترقٌ ، تفسير ذلك أنّ مشيئة الله لا يحدّها شيء ، لا يُنْجيك من الله إلا أن تكون معه فقط ! لا ينجيك من الله إلا أن تقبل عليه ، وتتّصل به ، وأن تكون يقظًا ، أما أن تعتمد على سنّة سنّها الله ، وتُهْمِلَ أشياء كثيرة ، عندها إلا ما شاء ربّك .

3 - الاستثناء في المشيئة حتى تعتمد على اتصالك بالله :

إذًا مَن دفَعَ زكاة ماله فالله سبحانه وتعالى يحفظ ماله إلا ما شاء ربّك ، وعلى هذا فَقِسْ ، فهذا الاستثناء استثناء المشيئة من أجل أن لا تعتمد على الطاعة ، بل على صلتك بالله عز وجل ، كن مع الله ترى الله معك ، لا تتّكل على فعلٍ فعلتهُ ثمّ تغفلُ عنه ، إذا غفلْت عنه فإنّ هذا الشيء الذي فعلتهُ لن يُنجيك .

طالبٌ جاء إلى المدرسة ومعه باقة ورْد إلى معلّمه ، أثنى عليه ، وأثنى على لطفِهِ ، وعلى ذوْقِهِ ، وعلى أدبِهِ وأخلاقه ، في اليوم الثاني هذا الطالب الذي قدَّم هذه الهديّة لم يكتب الوظيفة ، أتَرَوْن أنَّ هذا المعلّم تقيّده هذه الهديّة عن معالجة هذا الطالب ؟ لو أنَّ هذا المعلّم مقابل هذه الباقة تركهُ وشأنه طوال العام ، كأنَّ هذه الباقة قيَدَتْ مشيئتهُ ، وقيَّدَتْ خِبْرتهُ ، وقيّدت رحمته ومعالجته !! لا ، ولو أنّك قدَّمْتَ هذه الباقة ، ففي اليوم الثاني إن لم تكتب الوظيفة فلا بدّ من التحذير والتَضييق ، أتُراكَ بهذه الباقة

تُعطّلني ، وتعطِل خِبرتي في التربية ؟! وعلى هذا فقيسوا الآيات كلها ، ولكن هل يُعْقل أنَّ الذي دخل الجنّة يخرَجُ منها ؟ لا والله والدليل قوله تعالى :

(وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا)

(سورة المائدة : من الآية 37)

فكيف نوفّق بين هذه الآية قوله تعالى :

(عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

(سورة هود)

عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ

1 ـ عطاء الجنة غير مقطوع :

هذا العطاء الذي استْحقّه أهل الجنة لن يزول عنهم ، ولن يقْطع ، جدَّ بِمَعنى قطَعَ ، عطاءً غير مجذوذ ، ففي الآية الأولى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ(106)خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(107)وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

(سورة هود)

2 ـ الجنة ندخلها برحمة الله ونقتسمها بالأعمال :

اطْمئِنُّوا ؛ إذا دخلتم الجنّة فلسْتُم منها بخارجين ، وهذه الآية مثلٌ آخر يوضّح لنا لك : والدٌ وعدَ ابنه أنَّه إذا نجح سيشتري له درَّاجة من النوع الجيِّد ، فهذا الابن على تفكيره الضعيف والضيّق ، نجح وأخذ ورقة الجلاء وهو ناجح ، وتوجَّه توًّا إلى بائع الدراجات ، وقال له : أعطني هذه الدراجة ، وخُذ هذا الجلاء !! هذا لا يعقل ، فهذه الدراجة لا يتملكها إلا إذا دفع أبوه الثَّمَن ، لا يكفي هذا الجلاء ، فلا بدّ مِن أن يدفَعَ أبوه الثَّمَن ، فالجنّة ندخلها برَحمة الله ، ونقتسمها بالعمل ، قال تعالى :

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(32))

(سورة النحل)

بالعمل يُسْمَحُ لنا بِدُخولها ، ولكنّ دخولها برَحمة الله تعالى ، نجاحهُ أهَّلَهُ لِهذه الدراجة ، ولكنّ هذه الدراجة لن يتملّكها إلا إذا دَفَعَ أبوه الثَّمَن ، وهذا هو التوفيق بين قوله تعالى :

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(32))

(سورة النحل)

وبين قول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ ، فَسَدِّدُوا ، وَقَارِبُوا ، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ))

[رواه البخاري]

سيّدنا جعفر يقول : << ادخلوا الجنة برحمة الله ، واقتسموها بأعمالكم >> .

قال تعالى :

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

(سورة هود)

3 ـ لا تتكئ إلا على رحمة الله وفضله :

إذًا : هذه الآية تعلّمنا أشياء كثيرة ، إذا ذهب الواحد إلى الطبيب ، وبجسْمه أشياء ، وأقام تحاليل ، فإذا التحليل يشير إلى أنه صحيح مائة بالمائة ، والنِّسَب كلّها نِظاميّة ، لا يتّكِئ عليها ، ولكن على فضل الله عز وجل ، وما أدراك أنَّ بعض المواد في التحليل غير فعَّالة ، وأنّ هناك نِسَب مرتفعة من بعض النّسب التي لا يجوز أن تكون مرتفعة في الإنسان ؟ الإنسان لا يتّكئ إلا على فضل الله ، فإذا اتَّكأ على شيء آخر فهذا أحد أنواع الشِّرْك ، إذا اتّكأت على علمك فهذا شِرْك ، إذا اتّكأت على علمك فهذا شرْك، اللهم لا علم لي إلا ما علّمتني ، ويظلّ المرء عالمًا ما طلبَ العلم ، فإذا ظنَّ أنَّه قد عَلِم فقد جهل ، إذا اتّكأت على أولادك فإنهم يُخَيِّبون ظنَّك ، إذا اعتمَدْت على زوجتِكَ يظهر منها مواقف لئيمة ، وإذا اعتمدْت على مالك تأتيك مشكلة لا تُحل بالمال ، أيّ شيءٍ تعتمد عليه لا يحدُّ مشيئة الله عز وجل ، لذلك يؤتى الحَذِرُ من مأمَنِه !

طبيب متخصِّص بأمراض جهاز الهضم يعرف ما يجوز وما لا يجوز ، وما يُصْلحُ المعدة وما يفْسدها، فإذا هو يُصابُ بِقَرْحةٍ في المعدة ، اعْتَمَدَ على علمه ، ومعه(بورد)، في أمراض جهاز الهضم ، ومعه قرْحة !!! وطبيب آخر متخصِّص في أمراض القلب ، يعرف بالضَّبط ما يصلحُ القلب وما يفسدُه ، اتَّكأ على عِلْمهٍ ، فأُصيبَ بأزْمةٍ قلبيَّة ، لذلك الإنسان أيّ شيءٍ يتَّكأُ عليه يخيِّب الله ظنه فيه ، حتى يُعَلِّمَهُ التوحيد ، لقد أشْركْت ، إيَّاك أن تُشْرك ، قال تعالى :

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13))

(سورة لقمان)

قد يعتمد الإنسان على ذكائه ، فيرْتَكِبُ عملاً فيه حُمْقٌ لا يوصَف ، يُقال له : كيف فعلْتَ هذا ؟ أمِثْلُكَ يفعلُ هذا ؟! قد يعتمد الطالب على دراسته ، ففي المواد التي هو واثقٌ منها يأخذ علامات قليلة ، وفي المواد التي اعتمَدَ فيها على الله عز وجل تأتي الأسئلة بشَكلٍ موافق لِمَعلوماته .

إذًا : ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

عندها لا بها ، هذه كلمات الأشعريِّين ، عند الإرادة وليس بالشيء .

قال تعالى :

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)

(سورة هود)

فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ

هذه الآية دقيقة جدًّا ، هؤلاء المشركون الذين عاصروا النبي عليه الصلاة والسلام يعبدون أصنامًا ، وآلهة من دون الله تعالى ، استقرار الإنسان وهو على مصيَة ، وبقاؤُه حيًّا وهو على معصيَة ، وبقاؤُه حيًّا وهو على معصيَة لا ينبغي أن يُزَلْزِل المؤمن ، إنسانٌ يكفر بالله ، ويتمتَّع بصِحَّة جيِّدة ، ويتمتَّعُ بِمَوْقفٍ قويّ ، وبمكنٍ مرموق ، وهو في معصيَة الله ، لا ينبغي للمؤمن أن يهتزّ لهذا ، قال تعالى :

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)

(سورة هود)

1 - معنى : نَصِيبَهُمْ

العلماء في كلمة نصيبهم على ثلاثة أقوال :

المعنى الأول : نصيبهم من الرزق :

بعضهم قال : نصيبهم من الرِّزْق ، عبْدي لي عليك فريضة ، ولك عليّ رزق ، فإذا خالفتني في

فريضتي ، لم أُخالفْك في رزقك ، الكفار يأكلون ويشربون ، ويتمتَّعون ، ويسرحون ويمرحون ، ويسهرون ويسمرون ، يفعلون ما يشاءون بِحَسب الظاهر ، إياك أن ترى هؤلاء وقد تمتَّعوا في الدنيا ، واسْتَعلوا فيها ، إياك أن تراهم على حقّ ، قال تعالى :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

الآية الكريمة :

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ)

(سورة هود)

المِرية هي الشك ، وهؤلاء ليْسوا على حق ، ولو طال بهم العمر ، ولو كثرتْ أموالهم ، ولو عَمَرُوا الأرض ، قال تعالى :

(مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ)

(سورة هود)

هؤلاء الذين أهلكهم الله قوم لوط ، وعاد وثمود ، قال تعالى :

(وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ)

(سورة هود)

لهم علينا رزق ، قال تعالى :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126))

(سورة البقرة)

ليس فقط من آمن ، ولكن من كفر كذلك ! إنَّ هذه الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منه البرّ والفاجر ، فلْينظر ناظرٌ بِعَقلِه أنَّ الله أكْرمَ محمَّدًا أم أهانهُ حينما زوى عنه الدنيا ، فإن قال : أهانه فقد كذب ، وإن قال : أكرمه ، فقد أهان غيره حينما أعطاه الدنيا ، يا بنيّ ، ما خير بعده النار بخير ، وما شرّ بعده الجنة بِشَرّ ، وكلّ نعيم دون الجنة محقور ، وكلّ بلاء دون النار عافِيَة ، لذلك إذا رأيْت الله يُتابعُ نِعَمهُ عليك ، وأنت تعصيهِ فاحْذَرْهُ ! قال تعالى :

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ)

(سورة هود)

أوَّل معنى مُوَفُّوهم رزقهم ، عبْدي لي عليك فريضة ، ولك عليّ رزق فإذا خالفتني في فريضتي ، لم أُخالفْك في رزقك .

المعنى الثاني : نصيبهم من العذاب :

وإنا لَمُوَفُّوهم نصيبهم من العذاب ، أيْ كما عذَّبنا قوم عادٍ وثمود ولوط ، هؤلاء العاصون المنحرفون لا بدّ من أن يصيبهم مثل ما أصاب أسْلافهم ، ولا مندوحة ، مهما امْتدَّ بهم العُمر ، ومهما طال بهم الأمد ، ومهما اسْتَعْلَوا في الأرض ، يقول الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام : هؤلاء كفار مكّة ، ولو رأيْتهم قد رسخوا في الأرض ولو رأيتَهُم يتمتَّعون بالأولاد والجاه والقوّة والسلطان ، فلا بدّ من أن يُصيبهم ما أصاب أسْلافهم المكذّبين ، هذا المعنى الثاني .

المعنى الثالث : الوعْدُ والوعيد :

وإنا لمُوَفُّوهم نصيبهم غير منقوص ؛ يعني الوعْدُ والوعيد ، الشيء الذي وعد الله به لا بدّ من أن يقع ، والشيء الذي توعَّد الله به لا بدّ من أن يقع ، وهذا هو معنى هذه الآية .

نكتة بلاغية مستنبطة من الآية : الإعراض عن خطاب الكفار لقلة شأنهم :

إلا أنَّ علماء البلاغة لفتوا النَّظَر إلى شيء بليغ في هذه الآية ؛ لو فرضنا طالبًا مقصِّرًا وقف المدير مع المعلّم ، فيقول له : أما هذا الطالب فسوف نفْصِلُه عن المدرسة ، الحديث يدور بين المدير والمعلّم على مَسْمَعٍ من الطالب لِقِلَّة شأن الطالب غفلنا عنه ، ولم نوجِّه الحديث له ، فالحديث يدور بين المدير والمعلّم ، وهذا أُسلوب فيه تأثير بليغ ، أيْ أنت بهذا الذَّنْب لا شأنَ لك عندنا ، ولن تسْتحقّ أن نُوَجِّه لك الخِطاب ، قال تعالى :

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)

(سورة هود)

أسلوب الحكيم في هذه الآية أنَّ الله يُخاطب النبي عليه الصلاة والسلام ، ويُحَدِّثُهُ عن هؤلاء المشركين، قال تعالى :

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)

(سورة هود)

فكما أنَّ الأقوام السابقة كذَّبوا أنبياءهم فاسْتَحَقُّوا الهلاك ، هؤلاء أيضًا سيُصيبُهم ما أصاب أسْلافهم ، ولكن إدارة الحديث مع النبي عليه الصلاة والسلام دون توجيه الخِطاب إليهم ؛ هذا لِهَوانهم على الله ،

وهذا أفْعلُ في نفوسهم ، لو أنَّ القاضي التَفَت إلى مستَشاره عن يمينه ، وتشاوَر معه فيما يُقرر من عقوبة بحَقّ هذا المذنب والمذنب يستمِعُ ؛ إنَّ مُشاوَرَةَ القاضي لِزَميلِهِ على مَسْمَعٍ من المذنب أشدّ أثرًا في نفسه ممَّا لو توجَه له بالحُكْم ، كذلك ربّنا عز وجل يُعلِمنا الأسلوب الحكيم .

قال تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

(سورة هود)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

في أكثر من موطن في القرآن الكريم فيه إشارة إلى هذه الكلمة ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

1 ـ العذاب له أجل مسمًّى :

ما هذه الكلمة ؟ هذه الكلمة تأتي في القرآن كثيرًا ، نرجأئ الحديث عنها في الدرس القادم إن شاء الله تعالى ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

لزامًا إهلاكهم !

2 ـ هل تعلم ما هي الكلمة التي لولاها لاستحق الناس العذاب ؟

ما هذه الكلمة التي لولاها لاستحقّ الناس الهلاك ؟! سؤال دقيق ، كلمة قالها الله عز وجل لولاها لاستحقّ الناس العذاب ، ولدمَّرهم الله عز وجل عن آخرهم ، ولكنّ هذه الكلمة تؤخِّرهم إلى أجل مسمَّى ؛ فما هذه الكلمة ؟ هذه الكلمة طُبِّقت على أتباع سيّدنا موسى ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(110)وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة هود)

آية في هذه السورة شيَّبت رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، إنَّ هذه الآية سيأتي دورها في التفسير في الدرس القادم ، فعَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِي اللَّه عَنْه :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شِبْتَ ، قَالَ : شَيَّبَتْنِي هُودٌ ، وَالْوَاقِعَةُ ، وَالْمُرْسَلَاتُ ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ))

[رواه الترمذي]

قال تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة هود)

أحد العلماء وقف لِيُصلّي ، صلّى خلف إنسان ، فلما قرأ هذه الآية وقعَ مَغْشِيًّا عليه ، فَسُئِلَ : لماذا أُغْمِيَ عليك ؟ الإجابة في الدرس القادم ، قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(113)وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(114)وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة هود)

هذه الآيات هي التي شيَّبت سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيجب أن نقف عندها في هذا الأسبوع.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول سورة - هود 011 - الدرس (15-16): تفسير الآيات 110 – 117

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-04-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُم

بعضهم آمن بالتوراة وبعض آخر كفر بها :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

(سورة هود)

بعضهم صدَّقه ، وبعضهم كذَّبه ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

(سورة هود)

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُم

1 ـ وردَ لفظ (كلمة)في سِتَّة وعشرين موضِعًا من القرآن الكريم :

هذه الصِّياغة وردَتْ في القرآن الكريم في سِتَّة وعشرين موضِعًا .

مِن أبْرَزِ هذه المواضع ، قوله تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا)

(سورة الأنعام : 115)

وقال تعالى :

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(40))

(سورة التوبة)

وقال تعالى :

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(33))

(سورة يونس)

وقال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

وقال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(19))

(سورة يونس)

وقال تعالى :

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(171)إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ(172)وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ(173))

(سورة الصافات)

قال تعالى :

(وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام)

وقال تعالى :

(لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(64))

(سورة يونس)

2 ـ علَّة الخلق إسعاد الخَلْق :

فما هي كلمات الله ؟ الله سبحانه وتعالى مِن أسمائه الحق ، فإذا قال كلمةً فكَلِمَتُه هي الحق ، وإذا وَعَدَ وعْدًا فوَعْدُهُ هو الحق ، وإذا توعَّدَ تَوَعُّدًا فتَوَعُّدُهُ هو الحق ، وإذا أقرَّ مبدأً فمَبْدؤُهُ هو الحق ، فالله سبحانه وتعالى مِن كلماته :

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(118)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود)

علّة الخلق إسعاد الخلْق ، هذه كلمة الله سبحانه وتعالى ، لذلك ليس الهَدَف أن يُعاقِبَ خلْقهُ بِذُنوبهم ، ولكنّ الهدف أن يُسْعِدَهم بأعمالهم الصالحة ، لذلك كان حليمًا عليهم ، ورؤوفًا بهم ، ويُطاولِهم ويُمْهِلُهم، لأنَّ كلمة الله اقْتَضَتْ أنّه خلقهم لِيُسْعِدَهم .

المُعَلِّم الذي يضيقُ ذرْعًا بطالبه ، ويُحاسِبُهُ على كلّ غلْطةٍ حِسابًا عسيرًا إلى أن يُخْرِجَهُ من المدرسة في أسْبوعَين ! هذا ليس معلّمًا ، الهدَف الأكبر إسْعادُ الخلْق ، ولولا هذا الهدف لقضى الله بين عِبادهِ فيما هم فيه يختلِفون ، ولولا هذا الهدف العظيم لعَجَّل لهم العِقاب ، ولولا هذا الهدف لأهْلَكَهُم ، لولا هذا

الهدف لقصَمَ الكافرين ، وأراحَهم وأراحَ منهم ، ولكنَّ الهدف الكبير إسْعادُ الخلق لذا يُطاوِلُهم ، مثلاً قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

3 ـ لولا كلمة من الله لكان لِزامًا إهْلاكهم :

لكان لِزامًا إهْلاكهم ، لولا أنَّ الله سبحانه وتعالى خلقَهم لِيُسْعِدَهم لأهْلَكَهُم قبل اسْتِنْفاذ الفُرَص ، فالله سبحانه وتعالى لا يُهْلكهم إلا بعد أن يسْتنفذ كلّ الفُرَص لِهدايَتِهم ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

وقال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(19))

(سورة يونس)

وانتهى الأمر .

إذًا : هذه الكلمة التي ورَدَ ذِكْرها في القرآن كثيرًا ؛ أنَّ عِلَّة الخَلق إسْعادُ الخَلق ، أيْ سببُ الخَلق إسْعادُهم ، لذا ليس الهدف معاقبتهم ، بل الهدف أن يهديهم ، من هنا كان الحِلم ، ومن هنا كانت الرَّحمة، والمُطاولة ، عبدي لو جئتني بمِلء السماوات والأرض ذنوبًا غفرتها لك ولا أبالي ، ولو قال العبدُ : يا ربّ ، وهو راكِع لقال الله : لبَّيْك ، ولو قال العبْد : يا ربّ ، وهو ساجد لقال الله : لبَّيْك ، ولو قال العبد : يا ربّ وهو عاصٍ ، لقال الله : لبَّيْك ، ثمّ لبَّيْك ، ثمَّ لبَّيْك !!

أتمنَّى أن تكون هذه الفكرة قد اتَّضَحَتْ لكم ، فالهدف إسْعادُ الخَلق ، وليس الهَدَفُ أن يأخذهم على دُنوبهم ، وأن يأخذهم بِمَعاصيهم ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

لكان لِزامًا إهلاكهم ، وقال تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

(سورة هود)

حُسْن الظنّ بالله ثَمَن الجنَّة ، أنا عند ظنِّ عبدي بي فلْيَظُنَّ بي ما يشاء .

وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

1 ـ لكلِّ عمل صغير أو كبير ثواب أو عقاب :

قال تعالى :

(وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة هود)

كما قال تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

مهما بدا لك هذا العمل صغيرًا فالله سبحانه وتعالى سيُثيبُ عليه ، ومهما بدَتْ لك هذه المُخالفة يسيرةً فالله سبحانه وتعالى سيُحاسِبُ عليها ، يا رسول الله عِظْني وأوْجِز ! فقال عليه الصلاة والسلام :

((فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))فقال هذا البدوي : قد كُفيت ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقُهَ الرَّجل ...))

[ورد في الأثر]

لم يَقُلْ : فَقِهَ الرَّجل ، لأنَّ فقِهَ بمَعنى عَرَفَ الحُكْم ، ولكنَّ فقُهَ بمَعنى صارَ فقيهًا ، قال تعالى :

(وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا)

(سورة هود)

لمَّا بمَعنى إلا ، قال تعالى :

(وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة هود)

2 ـ الله يعلم كل عمل حجمَه ونيتَه :

يعني هذا العمل يعرف الله حجمه ونيته ، وكم بُذِلَ من أجله ، ويعرف هدفه وباعثه ، وواقِعَهُ ، ويعرف عنه كلّ شيء ، قال تعالى :

(إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة هود)

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

1 ـ شَيَّبَتْني هودٌ :

أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام رأى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام فقال : يا رسول الله قلتَ ، إنّ هودًا شيَّبَتْكَ فما الذي شيَّبَكَ مِن هود ؟ أخبار الأمم فيها وهلاكهم ؟ قال : لا ، ولكنَّ الذي شيَّبني قوله تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة هود)

لذلك الآية التي تَلَتْ تلك الآية قوله تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة هود)

2 ـ الله يأمر نبيَّه والمؤمنين بالاستقامة :

فاستقم كما أمرت ! الأمر للنبي عليه الصلاة والسلام أوَّلا ، ولأمَّتِهِ ثانيًا ، والأمر هو الشَّرْع ، والأمْرُ هو القرآن ، هذا الكتاب الذي بين أيدينا ، وهذا الشَّرْع الذي شرَّفنا الله به هو الأمر .

وأما فاسْتَقِم ؛ أيْ كُنْ على هذا الأمْر ، فمِن معاني كما : على ، وكما تعلمون في الرياضيات أنَّه بين نقْطتَين لا يمرّ إلا مستقيمٌ واحد ، فالاستقامة تعني التَّطابق التام مع أمْر الله سبحانه وتعالى .

3 ـ الاستقامة أساسُ الدِّين :

الحقيقة أنّ الاستقامة أخْطَرُ شيءٍ في الدِّين ، ففي الدِّين صلاة وصيام وفي الدِّين حجّ وزكاة ، وفي الدِّين عِبادات أخرى ، ولكنَّ الاستقامة أخْطرُ ما في الدِّين ، لأنَّه إذا تصوَّرْنا أنَّ طريقًا إلى الله سبحانه وتعالى فكلّ مُخالفةٍ يرْتَكِبُها المسلِمُ إنَّما هي عقبةٌ كؤود في طريقه إلى الله سبحانه وتعالى ، وحجْمُ هذه العقبة بِحَجْم معْصيَتِهِ ، فكُلَّما كَبُرَتْ معصيَتُهُ كبرَت هذه العقبة ، لذلك مَن كان لهُ معْصِيَةٌ أو مُخالفةٌ عن أمر الله ، أو زَيْغٌ أو تجاوُز أو طُغيانٌ ، فإنَّ عقبةً كَؤُود تَقِفُ في طريقه إلى الله سبحانه وتعالى ، عندئذٍ لا يُجْدي مع المعصيَة شيئًا ، لا تُجْدي صلاته ، ومن لم تنْهَهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَدْ من الله إلا بُعْدًا ، ولا يُجْدي الصِّيام ، فمن لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدَعَ طعامه وشرابه ، ولا تُجْديه الزَكاة ، قال تعالى :

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ(54))

(سورة التوبة)

لا يُجْدِي شيءٌ ما دامتْ الاستقامة مُعَطَّلة ، لذلك المشكلة الكبرى في العالم الإسلامي أنَ العبادات متوافرة ، وأنَّ المكتبة عامرة ، وأنَّ الجوامع ممتلئة ، وأنَّ الخطب رنَّانة ، واجْتِماع المصلّين صارخٌ جدًّا ، ولكنَّ فقْدَ الاستِقامة جَعَلَ في طريق المسلمين إلى الله عَقَبات كؤُود ، فلِذلك إذا أكْثرْتُ من ذِكْر الاستقامة فلأنّها أساس الدِّين ، وسيّدنا عمر رضي الله عنه يقول : << من شاء صام ، ومن شاء صلّى، ولكِنَّها الاستقامة >> .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُفْيَانَ الثَّقَفِيِّ عَنْ أبيهِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مُرْنِي فِي الْإِسْلَامِ بِأَمْرٍ لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ ، قَالَ : قُلْ : آمَنْتُ بِاللَّهِ ، ثُمَّ اسْتَقِمْ ، قَالَ : قُلْتُ : فَمَا أَتَّقِي فَأَوْمَأَ إِلَى لِسَانِهِ))

[رواه أحمد]

إن لمْ ترْضَ أن تستقيم فاسْتَعِدَّ للبَلاء ، أنت تطْلبُ من الله الكرامة ، وهو يطلبُ منك الاستِقامة ، فليس الوليّ الذي يطير في الهواء ، فالطائر يطير في الهواء ، وليس الوليّ الذي يمشي على وَجه الماء ، ولكنَّ الوليّ كلّ الوليّ هو الذي تجده عند الحلال والحرام ، فأساس الدِين الاستقامة ، ومِن دون استقامة لا شيءَ يُجدي ، ولا شيء يرفع صاحبه ، ولا شيءَ ينفعُ من دون أن تستقيم ، لأنّك إذا استْقمْتَ أزَحْتَ كلّ العقبات التي في طريقك إلى الله عز وجل ، هذا معنًى دقيق .

4 ـ العمل الصالح دفعٌ إلى طريق الاستقامة :

ماذا بقيَ عليك ؟ بقي عليك التَّحرّك إلى الله عز وجل ، ما الذي يحملك إلى الله عز وجل ؟ عملك الصالح ، فالاستقامة تمهيد للطريق ، والعمل الصالح دَفْعٌ لك على هذه الطريق فكأنَّ الدِّين يقوم على الاسْتِقامة والعمل الصالح ، بالاستقامة تُنظّف الطريق ، وبالعمل الصالح تندفع إلى الطريق ، الذي يدْفعُك أو الذي يرفعُك أو الذي يوصِلُك هو عملك الصالح ، قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(19))

(سورة الأحقاف)

قال تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود)

اسْتَقِم كي تُزيحَ العقبات اسْتَقِم كي تهْتك الحُجُب ، اسْتَقِم كي تَصِحَّ الوِجْهة ، واسْتَقِم كي يكون الطريق إلى الله سالكًا ، وإذا أردْت أن يكون الطريق إلى الله سالكًا فاسْتقِم ، وإذا أردْت أن يكون الطريق إلى الله سالكًا بصُعوبة فَبَعْضُ المخالفات تجعلهُ سالكًا بصُعوبة ، إذا أردْت أن يكون الطريق مَسْدودًا فارْتَكِب بعض المعاصي ، فيصبحُ الطريق مَسْدودًا إلى الله عز وجل ، فلا ينْفعُ الحج ، ولا تنفعُ الزكاة ، ولا ينفعُ الصّيام ، ولا تنفع الصلاة .

5 ـ لن تُحْصوا خَيْرات الاستقامة :

والاستقامة عَيْنُ الكرامة ، قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((ابْنَ عمر ، دِينَكَ دينَكَ ، إنَّه لحمكَ ودَمُكَ ، خُذْ عن الذين اسْتقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[ابن عدي]

إنَّ هذا العِلم دين فانْظُروا عمَّن تأخذون دينكم .

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

[ابن ماجه]

أيْ لن تُحْصوا الخَيْرات التي سوف تأتيكم من الاستقامة ، قال تعالى :

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

قال تعالى :

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(144))

(سورة الأعراف)

وهذا هو معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

فإن اسْتَقَمْتُم على أمر الله لن تُحْصُوا الخيرات أهِيَ في صِحَتِكم ؟ في صِحَّتِكم ، أهِيَ في زواجكم ؟ في زواجكم ، أهِيَ في أسْرتكم ؟ في أسرتكم ، أهِيَ في عملكم ؟ في عملكم ، أهِيَ في سعادتكم ؟ في سعادتكم ، أهِيَ في كِيانكم ؟ في كِيانِكم ، أُريد أن أكون صريحًا معكم ، مهما كانت الظروف صَعبة ، فإنَّ المستقيم على أمر الله استقامة تامّة يشْعر أنَّه غارقٌ في نِعَم الله ، ويشْعر أنَّ أحدًا في الأرض لن يكون أسْعَدَ منه على الرغْم من كلّ الصُّعوبات التي يُعاني منها الإنسان في العصور الحديثة ،

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

قال سيّدنا سَعْد : << ثلاثة أنا فيهنّ رجل : ما سَمِعتُ حديثًا من رسول الله إلا علمْتُ أنَّه حقّ من الله تعالى >> .

يحلو لي أحيانًا أن أسأل بعض الإخوة الأكارم عن أحوالهم المعيشيّة ، وعن معيشتهم الزَّوْجيَّة ، وعن أعمالهم ، الذي يُثْلِجُ الصَّدْر ، أنَّ المستقيم منهم يؤكّد لك أنَه في خَيْر لا يوصَف !! وفي سعادة لا توصف ، وفي سرور وطمأنينة ، وفي راحة قلبيّة ، وفي توكّل ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى يُعاملهُ معاملةً خاصَّة ، صدق الله العظيم ، قال تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

صدق الله العظيم في قوله تعالى :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

قال تعالى :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35))

(سورة القلم)

قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

قال تعالى :

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(9))

(سورة الزمر)

قال تعالى :

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(22))

(سورة الملك)

حديث واحد ضَعوهُ في غرفتكم الخاصّة ،

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

قَوْلُ النبي عليه الصلاة والسلام لك معاملة خاصّة ، الأمور تدور كلها لمَصلحتك ، والظروف تهيَّأ لِخدمتك ، والأعداء يعملون لإكرامك :

يُنادى له في الكون أنَّا نحبّه   فيسْمعُ من في الكون أمر محبِّنا
أطِعْ أمرنا نرْفعْ لأجلك حجبنا   فإنا منَحْنا بالرِّضا من أحبَّنا
ولُذْ بِحمانا واحْتَمِ بِجَنابنا   لِنَحْميك مِمَّا فيه أشرار خلقنا

***

ما من مخلوق يعْتَصِمُ بي من دون خلقي أعرفُ ذلك من نِيَّتِهِ فَتَكيدُهُ أهل السماوات والأرض إلا جعلْتُ له مِن بين ذلك مَخْرجًا ، وما مِن مَخلوقٍ يعتصِمُ بمَخلوقٍ دوني أعرفُ ذلك مِن نيَّتِهِ إلا جعلْتُ الأرض هَوِيًّا تحت قدَمَيْه ، وقطَّعْتُ أسباب السماء بين يديه .

6 ـ لابد من الاستقامة في المعاملة :

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

الدِّين في البيْع والشِّراء ، وحقيقة الدِّين تظهر في الأسواق ، وحقيقة الدِّين تظهر في البيت الزَّوْجي ، وحقيقة الدِّين تظهر في الجِوار ، حقيقة الدِين تظهر في المحاككة بالمال ، حقيقة الدِين تظهر في السَّفر ، أتَعْرِفُه ؟ قال : نعم ، فقال : هل سافرْتَ معه ؟ قال : لا ، قال : هل جاوَرْتَهُ ؟ قال : لا ، قال : هل حاككْتَهُ بالدِّرْهم والدِّينار ؟ قال : لا ، فقال : أنت لا تعرفهُ ! هذا هو الدِّين .

مِن تعريفات النبي عليه الصلاة والسلام الجامعة المانعة : الدِّين المعاملة ، الدِّين النصيحة ، الدِّين الورعُ ، وركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلِطٍ ! الدِين أن تنصَحَ لله ، ولرَسوله وللأئمَّة ، وللمسلمين ، أن تنصحَهُ ، هذا الذي يقول لك : انْصَحْني فلا تنْصَحُهُ ، لسْتَ دَينًا ، وهذا هو الدِّين ، أن تكون نصوحًا ، وأن تكون ورعًا ، وأن تكون مخلِصًا .

ابن عباس رضي الله عنه قال له أحدُ أصحابه : يا ابن عباس أوْصِنِي ؟ فقال ابن عباس : عليك بالاستقامة ، اتَّبعْ ، ولا تبْتَدِع ! كلّ الناس هلكى إلا العالمون ، وكل العالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطرٍ عظيم ! إنَّها الاستقامة ، قال تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود)

يجب أن ينطبقَ السُّلوك والتَّصرّفات والعادات والتقاليد ، وما يجْري في الأفراح والأتراح ، وعند المصيبة والمسرَّة وفي الزَّواج ، وفي البيع والشِّراء ، وفي علاقتك بنَفسك ، وفي علاقتك بِرَبِّكَ ، وفي علاقتك بأهلكَ وفي علاقتك بجيرانِكَ ، وفي علاقتك بمَن هو أعلى منك ، وبمَن هو أدنى منك ، وفي علاقتك بالحيوان ، يجب أن تكون مستقيمًا استقامة تامَّة ، ولأنّ الاستقامة شرْط أساسي لِكُلّ إنسان ، قال الله عز وجل :

(فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود)

إنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، الحدّ الأدنى للسَلامة هي الاستقامة ، الاستقامة إلْزامِيَّة ، لكنّ العمل الصالح اختياري ، العَدْل إلزامي ولكنَّ الإحسان نِسبي .

وَلَا تَطْغَوْا

قال تعالى :

(فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا)

(سورة هود)

المعنى الأول : الطغيان مجاوزة الحد :

الطُّغْيان مُجاوزة الحدّ ، قال تعالى :

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ(11))

(سورة الحاقة)

الطُّغْيان مجاوَزة الحدّ ، فلا تطغى على زوْجتك ، لا تَطْغى على ولدك ، ولا تطغى على جيرانك ، لا تطغى على زبائنك ، لا تطغى على من يُراجِعُكَ وأنت خلف المكتب ، لا تطغى على أحد ، الطُغيان منْهي عنه بكلّ مراتبه ، وبِكُلّ وأنواعه ، بكلّ صوره ، وبكلّ مستوياته ، ولا تطْغَوا .

2 ـ المعنى الثاني : إيَّاك أنْ تزيد في الاسْتِقامة على حدّها المشروع :

بعض العلماء حملَ هذا النَّهْي محْمَلاً آخر ، إيَّاك أنْ تزيد في الاسْتِقامة عن حدّها الذي أمر الله به ، فهناك إنسان مثلاً يمْنَعُ زوْجته مِن أن تظهر أمام صِهْرِهِ !! هذا طُغيان ، لأن الله سبحانه وتعالى أحلّ للصِّهْر أن يرى أمَّ زوْجته على التَّأبيد ، هناك أُناسٌ يزيدون على الحدّ الذي أمرَ الله به .

إذًا : كلمة لا تَطْغوا لها مَعنيان : إياكم أن تتجاوزوا الاستقامة إلى الانحراف والخروج ، فكأنّ الاستقامة خطٌ مستقيم ، والخروج عن هذا الخط المستقيم طُغيان ، في كلّ شيء ، إذا اقترضْتَ مبلغًا من المال ؛ لا تطغى ، لا تُمْطِل في ردِّه ، إذا أقْرضْتَ مبلغًا من المال ولا تطْغَ ، ولا تُكَلِّف هذا الذي اقْترَض شيئًا فوق الذي اقْترَض ؛ حينها ينقلب القرض إلى ربا ، ولا تَطْغَوا ، وإذا عامَلْت الزَوجة فلا تطْغى في معاملتها ، ولا تهْضِمها حقوقها .

والمعنى الثاني : إيَّاك أن تزيد في استِقامتك على الحد الذي أمرَ الله بهِ ، إنّ لِجَسَدِكَ عليك حقًا ، هذا الذي يصوم الدَّهْر ما صام !

عَن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ :

((جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا ، فَقَالُوا : وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[مسلم]

فهذا الذي نذر أن لا يتزوّج طغى ، وهذا الذي نذر أن لا يأكل لحْم حيوانٍ فقد طغى ، قال تعالى :

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5))

(سورة النحل)

هذا الذي نذر أن يصوم الدّهر فقد طغى ، وهؤلاء الذين حرَّموا الزّواج على أنفسهم طغوا ، قال تعالى:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)

(سورة الحديد : 27)

قال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

(سورة المائدة)

الطُّغيان له معْنيان ؛ إما التقصير ، وإما مُجاوزَة الحدّ ، إما التقصير عن الحدّ المقبول ، وإما مُجاوَزة الحد المقبول . قال تعالى :

(وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة هود)

وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ

قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

(سورة هود)

1 ـ ما هو الظلم ؟

أحد التابعين صلّى خلف إمام فقرأ الإمام هذه الآية ، فوَقَعَ مَغْشِيًّا عليه ، فلمَّا أفاق مِن إغْمائِهِ قيل له : ما الذي جعَلَك هكذا ؟ قال : هذا الذي ركنَ إلى الظالم فكيف الظالم نفسه ؟!! من هو الظالم ؟ ما تعريف الظالم ؟ إذا كان في البيت طعامٌ نفيس ، وتناوَلْتَ قبل هذه الوجْبة النَّفيسة طعامًا من الدَّرجة الدنيا ، وأضَعْتَ عليك هذا الطعام فها أحدُ أنواع الظُّلم ، إذا حرمْتَ نفسَكَ الشيء الثَّمين ، واسْتَهلكْتَ الشيء التافه فهذا ظلم ! وظُلم النَّفْس أشدّ أنواع الظُّلم ، قال تعالى :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ)

(سورة هود)

فَظُلْمُ النَّفْس أنْ تحْرِمَها الخَير ، فكلّ من يُبْعدُ نفسه عن الله سبحانه وتعالى ، وكلّ من يُبقي نفسَهُ جاهِلَة، وكلّ من يصرفُ عن طريق الحق ، وكلّ مَن يُديرُ ظَهْرهُ للدِّين ، وكلّ من يعْصي الله حتى يبْتَعِدَ عنه ، هذا أشدّ أنواع الظلاّم ، وهذا الذي ظلَمَ نفسه ، فإذا ظلَم نفسه ، فَمِن باب أولى أن يظلم غيره ، لذلك ترى الزَّوْج الذي لا يُصلِّي كثيرًا ما يظلمُ زوجته ، هذا حرمَ نفسهُ الخير ، فَحِرْمان الخير حملهُ على أن يَحمِلَ مَن حوله الخَير .

فكلمَة ظالم تبدأ بالذي يُفْرط أو يُفَرِّط على نفسه ، فَيُوصِلها إلى الشقاء في الدنيا أو الآخرة ، هذه بداية الظلم ، وينتهي الظُّلم بأن يبْنِيَ الإنسان مَجْدهُ على أنقاض الآخرين ، أو يَبْنِيَ غِناه على فقْره ، أو حياته على موتهم ، أو أن يبْنِيَ أمْنَهُ على خوْفِهم ، ما مِن كلمةٍ أوسع في العلاقات الاجْتِماعِيَّة من كلمة الظُّلم ، أنْ تضعَ الشيء في غير موضِعِه ، وأن تضَع الجَوْهرة في المطبخ ؛ هذا ظُلْمٌ لها !

أن تستخدم شيئًا ثمينًا لِمُهمَّة تافِهَة هذا أحدُ أنواع الظلْم ، لذلك الظُّلْم أنْ تضعَ الشيء في غير موضِعِه ، ربّنا سبحانه وتعالى لم يقل : ولا تركنوا إلى الظالمين !

2 ـ الظلم بين الكثرة والقلة :

فما معنى الظالمين ؟ وما معنى الظلاّم ؟ وما معنى الذين ظلموا ؟ قد يكذب الإنسان مرَّة واحدة في حياته فَيُقال لقد كذب فلان ، فإذا عُهِدَ عليه الكذب يُقال له : كاذِب ، فإذا عُهِدَ عنه كثرة الكذب يُقال له : كذّاب ، فالذي يكذِبُ مرَّة واحدة نستخدِمُ الفِعل ، أما الذي يُعْهَدُ عنه الكذب نستخْدِم اسم الفاعل ، أما إذا أكْثر من الكذب نستخدم صِيَغَ مبالغة اسم الفاعل كَفَعَّال وفعول ، وفعيل ، وفَعِل ، ومِفْعال ، صِيَغ مبالغة اسم الفاعل ، إن كَثُرَ اتِّصاف الفاعل بهذه الصِفة ، فإذا عُهِدَ عنه هذه الصّفة نستخدم اسم الفاعل الطبيعي ، فإذا كذب مرَّة واحدة نقول : كذب ، فالله سبحانه وتعالى قال :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

(سورة هود)

لو أنَّ هذا الإنسان ظلمَ أمامك مرَّةً واحدة إيَّاك أن تركَنَ إليه ، نَفْيُ حالة مفردة ، فكيف لو اتَّصَف هذا الصَّديق بالظُّلْم ؟ وبأنَه كثير الظُّلم ، وقد اتَّضَح معنى الظُّلْم أنْ تضَعَ الشيء في غير موضِعِه ، وأن ترْخيَ الحَبْل للزَّوْجة حتى تطْغى عليك ؛ هذا ظلْم ، أو أن تُبالِغَ في القسْوة حتى تسْحَقها ! هذا هو الظُّلْم أنْ تضَعَ الشيء في غير موضِعِه ، والظُّلْم كما قلنا مسْتَوَيات أقلّ مستوياته أن يقعَ منط ظلْمٌ لِمَرَةٍ واحدة، فالنَّهي في قوله تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

(سورة هود)

ما هو الركون ؟

المعنى الأول :

ما هو الرُّكون ؟ هذا بحْثُهُ يطول ، ولكن قبل أن نُفصِّل في قوله تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا)

(سورة هود)

معنى توجيه الأمر إلى من يفعله ولمن لا يفعله :

العلماء قالوا في قوله تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود)

الأمر إذا وُجِّهَ إلى من يُطَبِّقُه فالمعنى المداومة عليه ، وإذا وُجِّه لِمَن لا يُطَبِّقُه ، فالمعنى أن يفْعَلَهُ ، فإن قلتَ للكَسُول : ادْرُسْ ، معنى اُدْرُس أيْ اُدْرُسْ حقيقة ، أما إذا قلت للمُجْتَهِد : ادْرُس فَمَعنى ذلك داوِم على اِجْتِهادك ، فإذا أمرَنا الله عز وجل بالاستِقامة ، وكُنَا مستقيمين فالأمر ينصبّ إلى المداومة عليها .

نعود إلى : ولا ترْكَنوا ، العلماء لهم في هذه الكلمة تفسيرات كثيرة جدًّا من تعريف الرُّكون إلى الظالم الميْلُ اليسير له ، لك صديق في العمل ولك جار ، ولك قريب ظالمٌ لِنَفسِهِ ، وقد يشْربُ أحيانًا ، إذا ركَنْتَ إليه ومِلْتَ إليه ودعاك إلى غذاءٍ ثمين ، ودعاك إلى نزْهة ، أو قدَّم لك هدِيَّة رَكَنْتَ إليه ، ومِلْتَ إليه مَيْلاً يسيرًا ، ما الذي يحْصل ؟ تمسّنا النار ! كيف ؟ بعد قليل ! أما الآن ، ما معنى لا تركنوا ؟

العلماء قالوا : ولا تسْكنوا ، ولا تستَنِدوا ، ولا تعتمِدُوا على هؤلاء ، قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ(23))

(سورة التوبة)

إذا ركَنْتَ إليهم ، وطاب لك العيش معهم ، وإذا استَمْرأتَ نمَطَ معيشتِه فأنت منهم ، قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(51))

(سورة المائدة)

هذا هو المعنى الأوّل ؛ لا تسْكنوا إليهم .

المعنى الثاني :

لا تطْمَئِنُّوا لهم ، قال تعالى :

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14))

(سورة فاطر)

المعنى الثالث :

لا تُداهنهم ، لا تُجاملْهم ، ولا تُثْنِ عليهم ، لأنَّك إذا داهَنْتهم ، أوْهَمْتَ الناس أنَهم على حقّ ، وإذا داهنْتهم رفعتهم ، وإذا داهنْتهم حملْت الناس على أن يقْتدوا بهم .

لك صديق لا يُصَلِّي ؛ فإذا أثْنَيْتَ على أخلاقه ، وقلتَ : لطيف وناعم وأخلاقي !! إذًا أنت تكفر بالدِّين ، أخلاقي وهو لا يُصلِّي !! ما قيمة الدِّين ؟ شيءٌ لا قيمة له ، لا تداهنوهم ؛ المداهنة في تعرف العلماء بذْلُ الدِّين من أجل الدنيا ، وأما المدارات بَذْل الدنيا من أجل الدِّين ، قال عليه الصلاة والسلام :

((بُعِثْتُ بِمُداراة الناس))

[البيهقي في شعب الإيمان]

دارهِم وأعِنْهم ، وقدِّم لهم خِدْمة ، ابْذِلْ مِن وقتك وجهدك ومالك ، لعلَّهم يُحِبُّوك ، فإذا أحبُّوك أحبُّوا الله عز وجل ، أولياء أمَّتي إذا رأوا ذُكِرَ الله بهم ، لا تُداهِنوهُم ، قال تعالى :

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(9))

(سورة القلم)

من أعان ظالمًا سلّطَهُ الله عليه ، العقاب العاجل من الله أنَّ هذا الذي أعَنْتهُ على ظلْم سوف تكون أنت الضَحِيَّة ، لا تمْدحوهم فإنّ الله يغضب إذا مُدِحَ الفاسق .

لك صديق فاسقٌ لا يُصَلّي ، إيَّاك أن تمْدحهُ أو تعينهُ على معْصيَة ، أو تداهِنَهُ ، يقول لك : الصَّلاة لا فائدة منها !! ثمَّ تقول له : الحقّ معك !! أقْررْتَهُ على فِكرة غير صحيحة ، وأقْررْتهُ على الباطل ، أحْبِبْ حبيبك هَوْنًا ما عسى أن يكون بغيضَ يومًا ما ، ولا ترْضَوا عن أعمالهم ، قال عليه الصلاة والسلام :

((الذَّنْب شؤْم على غير صاحبِه ؛ إنْ عيَّرَهُ ابْتُلِيَ به ، وإن ذكرهُ فقد اغْتابَهُ ، وإن رضِيَ به فقد شَرِكَهُ في الإثم))

[كنز العمال عن أنس]

إنْ قيل لك : فلان فعلَ كذا وكذا ، وأخذ مبلغًا كبيرًا من المال من غير وجْه حقّ ، فقلْتُ : والله قد أفلح!! هذه الكلمة تجعلكَ شريكًا له ، لا تسْكنوا إليهم ، ولا تطْمئِنُّوا لهم ، لا تُداهِنوهم ولا تُعاونوهم ، ولا تمْدحوهم ، ولا ترْضَوا عن أعمالهم ، ولا تودُّوهم ، ولا تقيموا معهم علاقة حميمة ، لا تسْهر معهم إلى منتصف الليل ، ولا تذهب معهم إلى النّزهة ، السَّهْرة والنّزهة والحفلة تدلّ على العلاقة الحميمة ، ولا تليق هذه العلاقة لِغَير المؤمن ، فلا ترْكنوا بمَعنى لا تُطيعوهم ، ولا ترْكنوا بمَعنى لا تميلوا إليهم ، ولا تنْحطُّوا في هواهم ، هم في الحضيض ، وهم في حفْرةٍ ما لها من قرار ، قَذِرون ، لا تنْحطّوا إلى قذارتِهم ، ولا تنْحطوا إلى دناءَتِهم ، ولا تنْحطُّوا إلى أنانِيَتِهم ، لا تنْحطّوا إلى ضيق أُفقهم ، لا تنحطّوا إلى شهواتهم ، ولا تنقطِعوا إليهم تلتفِتون إليهم ، وتعرضون عن المؤمنين ، لا تُصاحِبوهم ، ولا تُجالسوهم ، ولا تزوروهم ، ولا تتشبَّهوا بهم .

لا تمدَّنَ عينيك إلى متاع الكافر :

لك قريب درس بأوروبا ، وعاد إلى البلد ، وأقام حفلاً مختلطا !! بعدها عيد زواجه ، وبعدها عيد ميلاد ابنه ! لا تتشبَّهوا بهم ، فهذه عادات ليْسَتْ للمسلمين ، وما أنزل الله بها من سلطان .

جاء الصَّديق في غِياب الزَوْج فاسْتَقْبلتهُ الزَّوجة ، ويقول لك : هذا تحضّر ورقيّ !! إيَّاك أن تقلّدهُ ، أقيمتْ حفلة عرْسٍ مختلطة ، إذا قلَّدتموهم وتشبَّهْتم بهم ، حتى إذا لبسْتم أزياءهم ، وسيّدنا عمر نهى عن لبْسَتَين ؛ لبْسةٍ مَشْهورة ، وعن لبسة مهْجورة ، فهذا المؤمن الذي يرْتدي أحْدث صرعات الأزياء هو ليس مؤمنًا ، هذا تقليد كبير ، لا تمُدُّوا أعينكم إلى ما عندهم ، ما هذا البيت ؟ ما هذه الحديقة ؟ وما هذه المزرعة ؟ وما هذا البستان ؟ ما هذه السيارة ؟ قال تعالى :

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104))

(سورة المؤمنون)

قال تعالى :

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ(55))

(سورة التوبة)

لا تمد عينك إلى ما عنده من رفاه ، إنَّك إن مددْت عينك إليه فهذا رُكون إليه ، ولا تقل هنيئًا لهم !! فإنّك إن قلتها فأنت لا تعرفهم ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى(126))

(سورة طه)

لا تذْكروهم ، وترفَّعوا عن ذكرهم ، ولا تعظّموهم ، ولا تُؤنِسوهم ، إذا جلسْت معهم وأثْنَيْتَ على أعمالهم ، وأطْريْتَ على أخلاقهم فقد آنسْتَهُم هم مسْتَوْحِشون ، إذا جلسْت مع هذا الصَّديق الذي لا يصلّي ، وأقمْت معه علاقة حميمة ، وأثْنَيْت على ذكائه وعمله ، وعلى تِجارتِه ، فقد آنسْتهُ وهو مسْتَوْحِش ، وفي ضيق ، وأنت خفّفْت عليه ! لا تؤنسوهم ، ولا تُقِرُّوهم على أعمالهم ، هذا كلّه مِمَّا توحي به كلمة :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ)

(سورة هود)

فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ

إذا زار الإنسان صديقًا لا يُصلِي أو ظالمًا لِنَفسِه ، أو يسْتَخِفّ بالصَّلاة ، أو يأكل مالاً حرامًا ، أو دخْله غير مَشْروع ، وكان في الغرفة مكيِّف ، فكيف تمسَّكم النار ؟! ما معنى تمسَّكم النار ؟ إنَّ في قلبه نارًا مشْتَعِلَة ، إذا أقْبلْتَ عليه ، واتَّصلْت به ، وأحْببْتَهُ ، وأقمْتَ علاقة بينك وبينه ، انْتَقلَتْ النار التي في نفسهِ إليك تخرج من عنده ، وأنت تحس بالضِّيق !! تضيقُ بك الدنيا ، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

(سورة التوبة)

الضِّيق تشْعر أنَّ قلبك يلتهب ويشْتعل ، ما الذي أصابك ؟ لقد ركنْت إليه قال تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(1)لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(2)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(3)وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ(4)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(5)لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(6))

(سورة الكافرون)

قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ)

(سورة هود)

إذا اتَّصلْت بهذا الظالم ، وركنتَ إليه ، وأحْبَبْتَهُ ، ومِلْتَ إليه ، وسكَنْتَ إليه مسَّتْك النار المشتعلة في قلبه ؛ نار البُعْد والضَّياع ، ونار القلق والخوف ونار الضَّعف ، وهذه النار التي في قلبه أصابتْكَ ، لذلك بذِكْر الصالحين تتنزَل الرَّحمة ، وإذا ذكرْت أهل الفُجور تضيقُ النَّفس .

قال تعالى :

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

(سورة هود)

وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ

أنت ركَنْتَ إليه لِمَنْفعَةٍ مادِّيّة ؛ ضاقتْ نفْسُكَ ، وفاتَتْك المنْفعة المادِّيَّة فالقلب ضاع ، والدنيا ضاعَت ،

قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

(سورة هود)

إذا ركن الإنسان إلى هذا الفاسق أصابه ما أصابه ، فكيف حال الفاسق نفسه ؟ قال تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(114)وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(115)فَلَوْلَا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ(116)وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

خاتمة :

قرأتُ في بعض التفاسير أن الله تعالى لو شاء لجَمَع الناس كلّهم على الهدى ، ولكِنَّه لم يشأ فيا تُرى لماذا لم يشأ ؟!! لو شاء لهدى الناس جميعًا ، ولجَمَعهم على الهدى ، ولو شاء لجَعَلهم مؤمنين ، لو شاء لجعلهم جميعًا من أهل الجنَّة ، ولكنَّه لم يشأ ! فلماذا لم يشأ ؟ أليس هذا سؤال كبير ؟ قال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(118)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة هود)

وهذه آيات من الآيات المعضلة في القرآن الكريم تحتاج إلى دِقَّة في النَّظر ، وتوجيه سديد ، وتأويل يتناسب مع أسماء الله الحسنى ، فلو نظرْت إلى غريق يستجير بك ، تقول له : أنا لو شئْت لأنقذْتُكَ ، ولكنِّي لم أشأ !! هل يرضى عنك ؟ يكاد يموت غرقًا ، وأنت تقول له : لو شئْتُ لأنقذْتُك ، قال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(118)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة هود)

فكّروا في هذه الآية خِلال هذا الأسبوع ، وابْحَثوا عن إجابة لأسئلةٍ كثيرة ولماذا لم يشاء ؟ وما ضرَّ لو آمن الناس جميعًا ، ودخلوا الجنَة جميعهم ، لماذا لم يكن كذلك ؟ ولماذا شاء ربّك أن يختلفوا ؟ لماذا تمَّت كلمة ربّك لأملأنَّ جهنّم من الجِنَّة والناس أجمعين ؟ حسن الظن بالله ثمن الجنّة ، وأن تعرف أنّ أسماء الله كلّها حسنى دليل الإيمان ، إن كنتَ كذلك أوِّل هذه الآية ، وهذه وظيفة للدرس القادم ، تأمَل هذه الآية ، وابْحث عن خباياها ، وتأويلاتها ، ووفّق ، لأنَّك إن عرفْت مدلولها الحقيقي فأنت مؤمن ، أما إذا أخذتها على ظاهرها وقلتَ : لم يشأ لنا الهدى ، وشاء لنا دخول جهنم ، هذا المعنى لا ترتاح إليه النّفس .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (16-16): تفسير الآيات 113 – 123
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-05-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي في سورة هود إلى قوله تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(113)وَأَقِمْ الصَّلَاةَ)

(سورة هود)

وَأَقِمْ الصَّلَاةَ

في الإنسان نشاط :

معنى ذلك أنَّ في الإنسان نشاطًا ، وقوَّة محرِّكة ، الله سبحانه وتعالى أوْدَعَ في الإنسان شَهواتٍ عِدَّة ، وهذه الشَّهوات تَجعلهُ يَنْدَفِعُ إلى تحقيقها الشَّهوات طريقهُ إلى الجنّة ، لولا أنّ الله سبحانه وتعالى أوْدَعَ في نفْس كُلٍّ مِنَّا شَهْوَةً لما كانت جنَة ، ولما كانت نار ، فالإنسان يَنْدَفِعُ إلى تحقيق شَهواته ، وليس سُكونِيًّا ، ولكن متحرِّك ، قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(113)وَأَقِمْ الصَّلَاةَ)

(سورة هود)

لا بدّ مِن حركة ، ونفسك إن لم تَشْغلها بالخير شَغَلَتْكَ بالشرّ .

وَأَقِمْ الصَّلَاةَ

قال تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

(سورة هود)

معنى إقامةِ الصلاة :

الوقفة عند قوله أقِمِ الصّلاة ، كيفَ يُقام البناء ؟ لا بدّ من أساس ، ولا بدّ مِن عِلْمٍ ، ولا بدّ مِن مواد

أوَّليَّة ، ولا بدّ من خبرة ، ولا بدّ من بناء ولا بدَّ مِن تخطيط ، فإقامة الصَّلاة ، ليس معناها أن تُصلِّي ، معناها أن تسْتَعدَّ لهذه الصَّلاة ثمّ تُصَلِّي ، أيُّ إنسانٍ يدخل إلى الامتِحان ، ولكنّ دخول الامتِحان لا يعْني أن تدخلَهُ ، ولكن أن تسْتَعِدَّ لهذا الدُّخول ، وفَرْقٌ كبير بين أن تتوضَّأ وتقف للصَّلاة ، وهناك مخالفات ، وهناك تقصيرات وهناك حُبٌّ للدنيا ، وهناك انْغِماسٌ فيها ، وتَعَلّق بها ، إنّ هذه الحالة لا تسْمَحُ لِصَاحِبِها أنْ يُصَلِّي ، فالله سبحانه وتعالى لم يأمرْنا بالصَّلاة ، ولكن أمرنا بإقامة الصَّلاة ؛ أيْ أن تسْتقيم على أمْر الله حتى تستطيع أن تُصَلِّي ، لأنَّ المعاصي حُجُب ، وأن تعملَ صالحًا حتى تستطيع أن تُصلِّي، وأن تلتزمَ الشَّرْع في كلّ حركاتك وسكناتك ، حتى تستطيع أن تُصَلي ، أن تكون وقّافًا عند كتاب الله حتى تستطيع أن تصلّي ، أن تكون منضبطًا بِشَرْع الله حتى تستطيع أن تصلّي ، فليس الصلاة أن تقف في مسْجد ، أو في زاوية في بيتك ، وترفعُ يديك ، وتقرأ الفاتحة تركع ، وتسْجد ، ونفْسك ساهِيَة لاهِيَة غارقة في مشاكل الدنيا ، ليسَتْ هذه هي الصَّلاة ! فلا بدّ من أن تُقيم الصَّلاة ، ولا بدّ من أن تستعِدَّ لها قبل دُخول وقتها ، والاستعداد لها ؛ حِفاظك على استقامتك ، وعلى طهارتك ونقاوتِك ، وحِفاظك على عملك الطَّيِّب ، إذا كنت كذلك فقد أقمْت الصلاة .

لا تستطيع أن تزور فلانًا إلا إذا كانت لك سابقة إحْسانٍ إليه ، إن كانت لك سابقة إحسانٍ إليه تستطيع أن تطرق بابه ، وأن تدخل عليه في أيّ وقت ، كذلك إن كان لك عمل طيِّب ، واستقامة تامَّة ، وإن كان لك قول حسَن ، وإن كان الناس يُحِبُّونك فقد اقتربْتَ من إقامة الصَّلاة ، إيَّاك أن ترْكَنَ إلى الذين ظلموا، فأهل الدنيا يتَّصلون مع أهل الدنيا وكبرائِها وأهل الآخرة يتَّصِلون برَبِّهم .

النَّفْس كما أردْتُ أن أبدأ الدَرس فيها حركة ، وبِمُصطلح آخر هي ديناميكِيَّة ، هناك حركة انْدِفاع نحو تَحقيق تِلْك المُيول التي زرعها الله فينا ، فإمَّا أن تتَّصِلَ بأهل الدنيا ، وتتملّق لهم ، وتُقدّم لهم خدماتٍ جُلَّة ، كي يقبلوها ويرفعوها ، ويمْنحونها مِمَّن عندهم ، وإما أنْ تتَّصِلَ بالله ربّ العالمين فيَمْنحُها سعادةً في الدنيا ، وسعادةً لا تنقضي في الآخرة ، قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(113)وَأَقِمْ الصَّلَاةَ)

(سورة هود)

أنت مؤهَّل أن تتَّصِلَ بالله عز وجل ، خلقتُ لك ما في السماوات والأرض ، فلا تتْعَب ، وخلقتُك من أجلي فلا تلْعب ، فبِحَقِّي عليك لا تتشاغَل بما ضَمِنْتهُ لك عمَّا افْتَرَضْتُهُ عليك ! فالحيوان يسْعَدُ بالشَّهْوة ولكنَّ الإنسان يسْعدُ بقُرْبِهِ من الله عز وجل ، خلقكَ الله من أجله ، طهَّرْتَ منظر الخلق سِنين أفلا طهَّرْتَ منظري ساعة !! قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(113)وَأَقِمْ الصَّلَاةَ)

(سورة هود)

إيَّاك أن تطْمحَ إلى ما عندهم ، إيَّاك أن تُقِم علاقة معهم ، أَقِم هذه العلاقة معي ، واتَّصِل بالله عز وجل، تقرَّب إلى الله عز وجل ، وإلى وُدِّه تعالى ، اخْدُم عِبادهُ ، وعامِلهُ ، وأقْرِضْهُ قرضًا حسنًا ، وأكْرِم عبادهُ من أجله ، اِنْصَحهم من أجله ، كُنْ معهم مستقيمًا من أجله ، أَحْسِن إليهم من أجله تعالى ، من أجل هذه الصِّلة ، ومن أجل أن تُقيم هذه الصِلة ، قال تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ)

(سورة هود)

وفرْق بين أن يُقال لك : صلِّ وبين أن يُقال لك : أقم الصلاة ، كيف أنَّ البناء يُقام ؟ أن يقوم البناء هذا عملٌ ضَخم ، يحتاج إلى إعداد وأرض وأساسات ومواد أوَّلِيَّة ، وإلى مهندسين ، ومهندس تصميم ، ومهندس تنفيذ ، ومهندس إشراف ، وإلى يد عاملة ، وإلى بنَّاء ، وإلى أعمال مختلفة ، هذه هي معاني إقامة البناء .

قال تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ)

(سورة هود)

معنى : طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ

المعنى الأول :

العلماء في هذه الآية على مذاهب شتَّى ، فطَرفي النَّهار قال بعضهم : صلاة الفجر ، وصلاة الظهر والعصر ، هذه الأوقات الثلاثة طرفا النَّهار وزلفًا من الليل هما صلاة المغرب والعشاء ، ومعنى زلفًا الساعات المتقاربة من بعضها ، قال تعالى :

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

[سورة الزمر]

الزُّلَف ؛ الشيء المتقارب .

المعنى الثاني :

وبعضهم قال : طرفي النَّهار صلاة الفجر وصلاة العصر .

المعنى الثالث :

وبعضهم قال : طرفي النهار صلاة الفجر ، وصلاة المغرب .

هذه الآية تنطوي جمعت الصلوات الخمس :

على كُلٍّ العلماء أجْمَعوا على أنَّ هذه الآية تنْطوي فيها الصَّلوات الخمس ؛ الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، قال تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

(سورة هود)

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ

1 ـ الصلوات كفّارات للذنوب :

وهذه الآية لها معنًى دقيق ، فالصَّلوات هي الحسنات ، والنَّفْس وما فيها من أمراض هي السيِّئات ، فإذا جاءت الحسنات محت السيّئات ، والصلاة نور ربّاني تُطهّر القلب البشري من كلّ دنس ورجس ، والصَّلوات الخمس يمْحو الله بهنّ الخطايا ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ ؟ قَالُوا : لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا ، قَالَ : فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا))

[متفق عليه]

قال تعالى :

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

(سورة هود)

2 ـ الأخلاق الحسنة منبعها الاتصال بالله :

هناك نقطة أريد أن تكون واضحة لديكم : إنَّ مكارم الأخلاق من كرمٍ ومن سخاءٍ ، ورحمةٍ ، وإنصاف، ومحبّة ، وعَفْوٍ ، ومن إقدام ومروءة ومن إغاثةٍ ونجْدة ، مكارم الأخلاق مخزونة عند الله سبحانه وتعالى ، فإذا اتَّصَلْت به منحَكَ بعضها ، ليْسَ هناك مِن خلُقٍ أصيل إلا عن طريق الاتّصال بالله سبحانه وتعالى ، هناك أخلاق مُزَيَّفة ؛ هناك أخلاق التُّجار الذين يُرَحِّبون بالزَّبون ، ويُقدِّمون له الضِّيافة ، ويَدْعونه إلى طعام الغذاء ، ويحْترمون مشاعرهُ ، هذه أخلاق التُّجار المبْنيَّة على المصالح هذه أخلاق استَوْرَدْناها من الغرب ، ما دام هناك مصْلحة فهُناك خُلقٌ كريم ، فإذا انْقطعَت المصلحة انقلب الإنسان إلى وحْشٍ لئيم ، لكنّ الله تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

(سورة هود)

3 ـ النفس الدنيئة بعيدة عن الله :

أيْ النَّفس بِبُعْدها عن الله عز وجل قد تتحمَّل السيّئات ، وقد تُحِبّ ذاتها وقد تُصْبحُ أنانيَّة ، وقد تصبحُ جبانة ، وحريصة ، وقد ترضى أن تُقيم غِناها على فقْر الآخرين ، ومجدها على أنقاض الآخرين ، هذا كلّه في حالات البُعْد عن الله عز وجل ، ولكن حالة القُرْب تعني مكارم الأخلاق ، فإنَّ الحسنات يُذْهِبْن السيئات ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))

[الترمذي]

4 ـ لابد من إتباع السيئة بالحسنة :

أحيانًا يقعُ المؤمن في مخالفة فَتَزلّ قدمهُ ، قد يسْبقُه لِسانه ، وقد يثور ثورةً نفْسِيَّة ، وقد يغْضب ، وينطق بِكَلمةٍ قاسيَة ، وقد تخونهُ عَيْنُه فتَسْترٌ النَّظَر إلى امرأة ، وقد يقعُ في بعض المخالفات ، هذه سيِّئات ؛ ما الحلّ ؟ إنَّ الحسنات يذهبن السيّئات ! بادِرْ إلى عملٍ طيِّب ، وبادِر إلى صدقةٍ وبادِر إلى خِدْمة ، وإلى صدقةٍ تطفئ بها غضب الربّ ، لأن صدقة السر تطفئ غضب الربّ ، بادروا إلى الصَّدَقة فإنَّ البلاء لا يتخطَّاها ، الله سبحانه وتعالى يُسْترضى ، لأنَّه رحيم ، فمَن بدرَت منه بادرة سيئة ، ووقعَ في غفلةٍ ، من خانتْهُ عَيْنُه أو أذنه ، ومن سبقهُ لِسانُه إلى كلمة قاسِيَة ؛ هذه كلّها سيئات :

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

لو أسأتَ إلى إنسانٍ ، ثمَّ قدَّمْت له هَدِيَّة ، وكما قال عليه الصلاة والسلام :

((تَهَادَوْا فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

وقال عليه الصلاة والسلام :

((تَهَادَوْا تَحَابُّوا))

[البيهقي والطبراني عن أبي هريرة]

فإذا نشِبَ بينك وبين زوْجَتِكَ خِلاف ، وقَسَوْتَ عليها في الكلام ، فالقضيَّة لها حلّ طيِّب ، بادِرْ ، وقدِّم لها هَدِيَّة تُطيب لها بها قلبَها ، إذا بَدَرَتْ منك كلمة إلى صديق فَنَفَرَ منك ، إنَّ الحسنات يُذْهِبْن السيِّئات ، إذا وقعْت في ذنب مع الله سبحانه وتعالى ، كنت في مجلسٍ وتحدَّث الحضور عن إنسان وشاركْتهم في الحديث ، وقعْتَ في الغيبة وأنت لا تشعر ، عُدْتَ إلى البيت فاشْتعلَ قلبُكَ فرقًا من الله عز وجل ، كيف سَمَحْتَ إلى نفسك للاستماع إلى الغيبة ؟ وكيف سمَحْتَ لِنَفْسِكَ أن تُسْهم في هذه الغَيبة ؟ إنَّ الحسنات يُذْهِبْن السيِّئات ، القضِيَّة محلولة ، الله سبحانه وتعالى يُسْترضى إلا إذا فَهمتَ من هذا الكلام أنَّه إذا هممْتَ بِمَعْصِيَة تقول : أنا أعرف كيف أسْترضي الله بعدها !! لا ، إن كنتَ كذلك فلن يرْضى الله عنك ، إن لم تقصِد ، إن سبقَكَ لِسانك ، وخانتْكَ عينُك ، إن تألَّمْت بِذَنْب لم تنْوه ، في مثل هذه الحالات الله سبحانه وتعالى يُسْترضى ، يُسْترضى بِصَدَقة ، يُسْترضى بِخِدمة ، يُسْترضى بِعَمَلٍ صالح ، إنّ الحسنات يهبن السيئات ، هذا المعنى الثاني ، والمعنى الأوَّل الحسنات هنّ الصَّلَوات الخمس ، فإذا الله تعالى يمْحو بهنّ الخطايا ، فإذا أحْكمْت صِلَتك بالله عز وجل فإنّ هذا القلب يطّهُر ، ويصبحُ سليمًا من كلّ عَيب ، طاهرًا من كلّ ذنب : يا طاهرًا من الذُّنوب ، يا هاديًا إلى علاَّم الغيوب . قال تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(114)وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة هود)

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

1 ـ لابد من الصبر على الطاعة :

لكنّك إذا حاولْتَ أنْ تُصلِّي ، ولم تمْلك هذه الصلاة التي تحدَّث الله عنها لا تكن لجوجًا ، اِصْبِر :

أَخْلِق بذي الصبْر أن يحظى بحاجته   ومُدْمِن القرع للأبواب أن يلِجَا

***

من علامات الصادق أنَه يطرق باب الله عز وجل ، ويطرق إلى أن يُفْتَحَ الباب ؛ لا يكلُّ ولا يملّ ، ولا يتحوَّل ولا يتَمَلْمَل ، لأنَّه صادق ، ولو أنَّه كاذب طرق الباب لم يفتَح له فتَحَوَّل عنه ، هذه صِفات الكاذبين ، واصْبِر !

وقفْتَ لِتُصَلِّي ولم تشْعر بِشَيء ، فهل معنى ذلك أنْ تَدَعَ الصَّلاة ؟ لا ، اصْبِرْ ، لعلّها تصلح في صلاة قادمة ، لعلّها تحدث هذه الصِّلة في وقت آخر ، قال تعالى :

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(5))

(سورة العنكبوت)

أحيانًا ربنا سبحانه وتعالى يُعَطِّش هذه النَّفْس للقُرْب منه ، تعطيشُها هو تهيئ لإقبالها ، قال تعالى :

(وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة هود)

2 ـ لا يضيع عند الله شيء :

أيُّ جُهْد مادِيٍّ ، أو عضَلِيٍّ ، نقليٍّ أو نقْدِيٍّ أو عِلْمِيٍّ ، اجْتِماعِيّ ، تبْذُلُه من أجل التقرّب إلى الله عز وجل فالله سبحانه وتعالى لا يُضَيِّعُهُ عليك ، قال تعالى :

(وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة هود)

الآن ننتقل إلى مقْطعٍ آخر مِحْوَرُهُ ؛ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر قال تعالى :

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)

(سورة هود)

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ

1 ـ إيَّاكم والفسادَ والأرض :

لولا أداة حظّ ؛ أيْ حبَّذا ، لو كان فيكم أيُّها الناس أُناسٌ يأمرون بالمعروف ، وينْهَوْن عن المنكر ، والفساد في الأرض ، فسادُ ذات البَيْن هي الحالقة ، لا أقول : حالقة الشَّعر ، ولكن أقول حالقة الدِّين ! أن تُفْسِدَ العلاقة فيما بينك وبين الله بالمعاصي ، وأن تُفسِد العلاقة فيما بينك وبين الناس بالإساءة ، وأن تُفسِد العلاقة فيما بينك وبين عقلك بالتَّعطيش ، وأن تُفسِد العلاقة فيما بينك وبين نفسك بالظُّلم ، هذه

العلاقات إذا فسَدَت لم يبْقَ للحياة معنى ، وتبقى الحياة حياةً حيَوانِيَّة طعامٌ وشراب ، ثمَ موت زُؤام ، ولكنَّ العلاقات إذا صلحت ؛ إذا صَلَحَت علاقتك بالله عز وجل ، سَعِدْتَ بالقُرْب منه ، وإذا صلحَتْ علاقتك بالناس سَعِدْتَ بهم وسَعِدوا بك ، وإذا صَلَحتْ علاقتك بزَوجتك سَعِدتَ بها وسَعِدت بك ، إذا صلحَت علاقتك بأولادك هَدَيْتَهم إلى طريق الحق فإيَّاكم وفسادَ ذاتِ البَيْن فإنَها الحالقة ، لا أقول : حالقة الشَّعر ، ولكن أقول : حالقة الدِّين ! فالغيبة تفْسِدُ العلاقة بين الناس ، النَّميمة تُفْسِدُ هذه العلاقة ، وحبّ الظُّهور والاسْتِعلاء يُفْسِدُ هذه العلاقة ، وأن تخرج على الناس بأبهى زينة لِتَزْرعَ في قلبهم حبّ الدنيا ، وتجعلهم في صَغارٍ أمامك ؛ هذا إفساد في الأرض ، لذلك قال تعالى :

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ)

(سورة هود)

2 ـ النهي عن الفساد يُبعِد عقاب الله :

لو كان في الأمم السابقة أُناسٌ ينْهَون عن الفساد في الأرض لما أهْلكَهم الله سبحانه وتعالى ، والدليل أنَّه ما دام في الأمَّة مُصْلِحون ، وما دام في الأمّة دعاة إلى الله تعالى ، وما دام في الأمّة أُناسٌ يَنْهَون عن الفساد فالله سبحانه وتعالى لا يُهْلِكُهم ، قال تعالى :

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)

(سورة هود)

3 ـ الناهون عن الفساد في الأرض قليلون :

معنى القرون يعني الأمَم ، وليس معنى هذا أنَ ليس في الأرض أُناسٌ يَدعون إلى المعروف ، ويَنْهون عن المنكر ، ولكنَّهم قِلَّة ، وعددهم لا يكفي ، قال تعالى :

(إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)

(سورة هود)

لِضَعف الدَعوة إلى الله عز وجل ، وضَعف الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، أنْ يقول الإنسان : ما لي وله ، عليَّ بِنَفسي ! من يقول ذلك فليس بِمُسلِم ، ومن لم يهْتَمّ بأمْر المسلمين فليس منهم ، يجب أنْ تهتمَّ بهم وتهْتَمَّ بقَضاياهم ، أنْ تهتمَّ بما يُسْعِدهم ، ولما يسقيهم ، وهذه هي علامة المؤمن ، قال تعالى:

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ)

(سورة هود)

4 ـ الظالم يتبع ترف الدنيا ومتاعها :

ما أترفوا فيه بِمَعنى أنَّ هذه الدنيا التي ملكَت قلوبهم ، غرقوا في نعيمها واتَّبعوها ، وجعلوها هادِيًا لهم، وجعلوها إمامًا وقبْلةً ، في كلمة اتَّبعوها معنى دقيق ، قال تعالى :

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ)

(سورة هود)

همُّه الأوَّل والأخير بيْتٌ فخْم ، وزوْجةٌ جميلة ، وسيَّارة كبيرة ، ودَخْلٌ غير محدود وبيتٌ في مكانٍ جميل ، منتزهٌ في الصَّيْف ، وأنْ يعْلُوَ في نظر الناس ويتيه عليهم ، قال تعالى :

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ)

(سورة هود)

أيْ هذا التَّرَف صار إلهَ الناس يعْبدونه من دون الله ، إنسانٌ اشْترى بيتًا جاهزًا للسَّكَن ، وكلّ هذه الكِسْوة التي كلَّفَت مئات الألوف كسَّرها ، ولم يُعْجِبْهُ هذا البِلاط ! وهذا الرُّخام لا يعْجِبُه ، وهذا الترتيب لا يعْجِبُه قال تعالى :

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ)

(سورة هود)

لمَا تصبح الدنيا أكبر همّ الإنسان ، ومَبْلَغَ عِلمِهِ ، فقد انتهى ، واسْترْذَلهُ الله ، وإذا اسْترْذَلَ الله عبْدًا حضَرَ عليه العِلْم والأدَب ، استرْذَلهُ ورآه أرضيًا وشَهَوانيًّا ، ورآهُ دُنْيَويًّا ، ولكنّ خَلَدَ إلى الأرض واتَّبَعَ هواه ، قال تعالى :

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية : 23)

جعله إلهه ، قال تعالى :

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ

علاقة هذه الآية بالسِّياق العام :

علاقة هذه الآية بالسِّياق العام أنَّ أيَّة أمَّة ما دام فيها مصْلحون ، ودُعاة إلى الله عز وجل مخلصون ، وما دام فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ما دام فيها من يمْنعُ الفساد في الأرض ، وما داموا كذلك فالله سبحانه وتعالى لن يُهْلكها ، أما إذا فعَلَ الناس المعاصي ، وغرقوا في الشَهوات ، واسْتَحَلُّوا الحرام ، وأكل القويّ منهم الضَّعيف ، ولم يوجد فيهم من يأمر بالمعروف ، ولا من ينهى عن المنكر عمَّهم الله بالبَلاء ، كما قال تعالى :

(إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

(سورة هود)

طرحتُ في الدرس الماضي حول هذه الآية مجموعة من الأسئلة ، قال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(118)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة هود)

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ

1 ـ معنى الآية :

أوَّلاً في بعض التفاسير قال المفسِّر : لو شاء الله لجَمَعَ الناس على الهُدَى ، وكانوا أمّة واحدة مهْتَدِيَة ، ولكنَه لم يشأ ! من دون تعليق أو شرْح أو إضافة ، لو شاء لجَمَعهم على الهدى ولكنَّه لم يشأ .

وبعض المفسِّرين وجدوا أنَّ هذه الآية تُشير إشارةً واضِحَة إلى أخْطر شيءٍ يمْلكُه الإنسان ألا وهو الاختيار .

الإنسان له حرية الاختيار :

مثلاً : لو شاءَت إدارة الجامعة أن تطرَح على ألف طالب في كليّة أسئلة مرفقةً بأوراق عليها الأجوبة ! ولا يُكَلَّف الطالب إلا كتابة اسمه !! جُمِعَت هذه الأوراق ، وصُحِّحَتْ فنالَتْ كلّها علامةً تامَّة ، لو شاءَت الجامعة أن تجعل الطُّلاب جميعًا يُحْرِزون علامة المائة لفعَلَتْ ، والقضيَّة سهلةٌ جدًا ، تطرح مع السؤال الإجابة الكاملة ، فهل تؤدِّي الجامعة بهذه الطريقة رسالتها ؟! لا ، ليْسَت العِبْرة في توحّد النتائج ، ولكنَّ العبرة في تطابق المقدِّمات مع النتائِج ، هناك بالجامعة مرتبة مقبول ، وهناك جيّد ، وهناك جيِّد جدًّا ، وهناك امْتِياز ، وهناك شرَف ، وهناك الراسب ، فالعظمة في تطابق المقدِّمات مع النتائِج ، هؤلاء الطلاب مختارون ، بعضهم يدرس ، وبعضهم لا يدرس ، بعضهم يؤثر أن يمضي عامه الدِراسي في النزهات والحفلات وأصحاب السوء ، وبعضهم يقبعُ في غرفته ، ويُطالعُ كتابه إلى أن يفهمهُ ، فإذا دخَل في الامتحان تفوَّقَ فيه ، فلأنَّ الطُّلاب مختارون ، وكلّ طالبٍ جامعي مُخَيَّر في الدِّراسة أو عدمها جاءَتْ النتائج متفاوِتَة ، فالذي اختار الدِّراسة الجيِّدة نال علامةً جيِّدة ، والذي اختار أن ينْجحَ مقبولاً نال هذه الدَرجة ، والذي اختار عدم الدِّراسة رسَبَ ، فالاختلاف يعني الاختيار ، لولا أنَ هؤلاء العباد مختارون لما اختلفوا ، أما أنَّ الله سبحانه وتعالى لو شاء لسَلَبَهُم الاختيار فكانوا جميعًا في مستوى واحد حينما يأخذ نجَّار كبير تعهّدًا بصُنْع ألف طاولة يشتري الخشب ويقطّعه لِيَجْعلهُ طاولاتٍ ، هل تمْتَنِعُ إحدى قطع الخشَب أن تكون طاولة ؟ هذه مادَّة والمادَّة لا خِيار لها ، لذلك تأتي كلّ طاولات متشابهة هذا يظهر في المعامل ، إنتاج المعامل كلّه متشابه ، فلو أنَّ الله سبحانه وتعالى سلَبَنَا حرية الاختيار لما اختلفنا ؛ هناك مؤمن وكافر ومنافق وفاجر ، وملحد وعاص ، ومذنب ، وآخر محْسنٌ ومسيء ، وهذا يريد أن يكون عالمًا ، وهذا يحبّ أن يكون تاجرًا ، هذا يحبّ أن يكون ضابطًا وهذا يحبّ أن يكون صانعًا ، وهذا يحبّ أن يكون محْسنًا ، وهناك من يحب أن يؤذي الناس ، قال تعالى :

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

(سورة هود)

2 ـ هذه الآية أصلٌ في حريَّة الاختيار :

هذه الآية أصلٌ في حريَّة الاختيار ، لولا أنّ الناس مختارون لما اختلفوا ، كيف أنَّ المواد التي تدخل

المعْمل تخرج على هَيْئَةٍ واحدة ، وعلى شَكلٍ واحد ، ولا فرْق بين قِطعةٍ وأخرى ، لأنَّ الحديد والخشب ليس لهُ حُريّة الاختيار ، أما الإنسان فمُختارٌ ، قال تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56))

(سورة القصص)

كلّ هذا العِلم ، وكلّ هذا الحِلم ، وكلّ هذا الخُلق العظيم ، إنَك لا تهدي مَن أحْبَبْت ، ولكنَّ الله يهْدي من يشاء ، يعود فاعل يشاء على العِباد ، من شاء الهُدَى يهْتدي ، ومن شاء الضلالة ضلَّ ، قال تعالى :

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8))

(سورة الشمس)

أيْ ألْهَمَها أنَّ هذا طريق الحق ، وأنّ هذا طريق الفُجور ، قال تعالى :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

لو سَلَبَ الله سبحانه وتعالى حريَّة الاختيار لما كانت هناك جنَّة أو نار ، ولسقَطَ الوعد والوعيد ، ولسَقَط الثّواب ، ولا فضْل للطائِع ، ولا إثم على العاصي ، لأنَّ الاختِيار قد سُلِبَ ولا مسؤوليَة ولا تَبِعَة ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى وهَبَنَا شيئًا لا يُقدَّر بثَمن ؛حُريَّة الاختِيار ، ولكنَّ هذه الهبَة العظيمة يُقابلها أنّنا نتحمَّل تَبِعَة الاختيار ، وهبَنَا حُريَة الاختيار ، وجعلنا نتحمَّل تَبِعَة الاختيار ، هنا المشكلة ! وهذه بِتِلْك ، فهذه المغانم بِتِلْك المغارم ، قال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً)

(سورة هود)

3 ـ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً

على شاكلة واحدة ، وعلى طَبْع واحد ، وعلى مَيْلٍ واحِدٍ ، وعلى هُدًى واحِد ، ولكنَّه لو فعَلَ هذا ، وجعلهم أمَة واحدة ، وسلبَهُم حُريَّة الاختيار ، وجعلها كالبِضاعة فقدَتْ هذه الأمَّة سعادتها ، والإنسان يسْعَد بِعَمل طيِّبٍ فعَلَهُ مُختارًا ، فإذا فعَلَهُ قهرًا ، أو إكْراهًا عندئذٍ لا يسْعَدُ ، ولا فضْلَ له ويمتلأُ غيظًا ، وضيقًا ، قال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً)

(سورة هود)

ولكن لأنَّهم مختارون ، قال تعالى :

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

(سورة هود)

القصْد من هذا الاختيار أن تأتيَ إلى الله تعالى طائعًا كي تسْعَدَ بها القُرْب ، قال تعالى :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ

الله خَلَق الخلق ليرحمهم :

إلا أُناسًا تطابَقَ اختيارهم مع الهدف من خلْقِهِم ، فَرَحِمهم الله سبحانه وتعالى ، وسَعِدوا بهذه الرَّحمة ، تطابق اختيارهم مع الهدف من خلْقِهِم فرحمهم ، وتجلَّى عليهم ، قال تعالى :

(وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود)

من أجل هذه السعادة التي لا تنتهي خلقهم الله سبحانه وتعالى ، ومن أجل هذا القُرْب الذي لا يوصَف خلقهم الله سبحانه وتعالى ، بعض المفسِّرين يقول :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود)

خلقهم تعود على قوله تعالى :

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

(سورة هود)

خلقهم لِيَختلفوا ، ولكنَّ التفسير الأوْجَه أنَه خلقهم ليرْحمهم ، أيْ لِيُسْعِدَهم .

إذًا:

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(118)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود)

خلقهم ليسعدهم ، أعطاهم حرية الاختيار ، فإذا اختاروا ما خلقهم الله له رحمهم الله عز وجل ، و حقَّقوا الهدف من خلقهم ، و إذا اختاروا خلاف ما أراد الله لهم ، قال تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة هود)

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين

1 ـ الإنس والجن مكلّفون :

لماذا من الناس والجنّة ، لأن الله سبحانه وتعالى عرض على صنف الجن والإنس الأمانة ، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72))

(سورة الأحزاب)

و قال تعالى :

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(33))

(سورة الرحمن)

الإنس والجن مخاطبون بحمل الأمانة ، قال تعالى :

[سورة هود]

إن وافق اختيارك مراد الله رحمك الله ، و سعدت بقربه ، وإن لم يوافق فقال تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ)

(سورة هود)

2 ـ كلمة الله قانون نافذ :

الكلمة القانون ، أي أن الله سبحانه و تعالى قوله الحق ، و قوله مبدأ ، فتمَّت كلمةُ الله أن يدفع كلُّ مَن أخذ حرية الاختيار تبعَةَ اختياره ، أي أن هذه الميِّزة بتلك المسؤولية ، قالب تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة هود)

أي هؤلاء الذين لم يختاروا ما أراد الله لهم النار مأواهم ، قال تعالى :

(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود)

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ

القصص القرآنية لتثبيت قلب الإنسان :

هذه القصص تُثَبِّت ، لذلك الإنسان قد يهتدي بآيةٍ كَوْنِيَة ، وقد يهْتدي بآيةٍ قرآنيَّة ، وقد يهتدي بِقِصَّة يسْمعها ، قال تعالى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

وقال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

قال تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

تتبَّع حياة المستقيم ، اُنظر إلى حياته ، اُنظر إلى سعادته وطمأنينتِهِ اُنْظر إلى اسْتِقراره ، اُنظر إلى ثقَتِهِ بالله عز وجل ، وانْظر إلى غير المستقيم وإلى قلقه ، وإلى فُجوره وخوفِهِ وإلى ضَياعِهِ ، وإلى شَقائِهِ ، قال تعالى :

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة هود)

وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ

1 - إياكم والقصص التي تثبط العزائم :

الإنسان أحيانًا لا يروي قِصَّة تُثَبِّتُ العزائِم ، لا يرْوي قِصَّة فَحْواها ظلمٌ ، هذه القصَّة غير صحيحة ، لأنّ هذا الذي تظنّه قد ظَلِمَ لابدّ من حِكمةٍ بالغة ساقَت له هذا الظُّلْم ، فإذا روَيْتَ قِصَّة من دون تَمحيص، ومن دون تدقيق ، ومن دون اسْتيعاب ، ومن دون إحاطة ماذا فعلْت ؟ أعطَيْتَ للناس درسًا

على شَكل قِصَّة .

إذا اسْتَقَمْتَ على أمر الله فحْوى هذه القِصَّة ؛ سوف تموت من جوعِكَ ! إن لم تفْسُد مع الناس لا تعيشُ معهم ، هذه قِصَّة خطيرة ، يُقابلها إذا روَيْتَ قِصَّة أنَ الذي أطاع الله عز وجل أطاعه كلّ شيء ، وأنَّ الذي آثر ما عند الله أكْرمه الله بالدُّنيا والآخرة ، مثل هذه القصص ترْفعُ مَعْنويَات الإنسان ، وكفى بالمرء إثمًا أن يُحَدِّث بكُلّ ما سَمِع ، أحيانًا تجلس بمَجلس ، وتقول : فلان الفلاني أخلاقه عالية ، وإيمان وتقوى ، وصلاح وورَع واسْتِقامة جاءتْهُ قصّة تُحَيِر العُقول ، القِصَّة ما مغْزاها ؟ أنت أسْبَغْتَ عليه صِفات مُبالغ بها ، جمعت التقوى إلى الورع إلى الحِلم إلى الاستقامة ... قد ظَلَمَ ظلمًا شديدًا ! فلا بدّ من حِكمةٍ إلهيّة عظيمة بليغة جَعَلَتْ هذه المصيبة تَصِلُ إليه ، لعلّ هذه المصيبة ردْعٌ أو قصمٌ ، لعلّها دَفْعٌ أو رفْعٌ أو كَشْفٌ ، هذه أنواع المصيبة ، هناك مصيبة قصْم ، الإنسان إلى شرّه مستطير .

2 ـ القصص القرآني تثبيت لقلب المؤمن المبتلَى :

كلّما عاشَ يومًا ارْتَكَبَ أعمالاً فضيعة ، هذا ربّنا سبحانه وتعالى قد يسوق له مصيبة قصمٍ وينتهي ، وهناك مصيبة ردْعٍ ، فقد ينْحرف الإنسان فتأتيه مُصيبة لا يستطيعُ تَحَملها ، وهذا من أجل أن يُقْلِعَ عن هذه المعْصِيَة نِهائيًّا فهذه مصيبة ردْعٍ ، وقد يكون مستقيمًا ، ولكنَّه مقصِّر فتأتيه مصيبة دَفْعٍ إلى الأمام ، وقد يكون مستقيمًا وليس مقصِّرًا ، ولكن بإمكانه أن يرقى إلى مرتبةٍ عليَّة ، فيبْتَليهِ ببَعْض المصائب فإذا صبَرَ عليها ارْتقى ، وهذه للصِّديقين ، وأما الأنبياء فمصائِبُهم من نوْع الكَشْف ، لا تُكْشفُ حقيقتهم، ولا يبْدو ما يَنْطَوُون عليه من كمالٍ رفيع إلا ببَعْض الظُّروف الحَرِجَة ، لذلك عَنْ فَاطِمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ :

((أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعُودُهُ فِي نِسَاءٍ ، فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَاؤُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنْ حَرِّ الْحُمَّى ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءَ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ))

[رواه أحمد]

فالقِصَّة خطيرة جدًا ، إن كنت غير مَدروسة وسَمِعتها ونقَلتها لا تنسَ هذا الحديث الشريف ، عَنْ حَفْص بْن عَاصِمٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[رواه مسلم]

أحيانًا يقرأ الواحد قِصَّة بمَجَلَّة ، أحدهم ذهب عند بيتِ صديقه فوَجَدَهُ مَقْتولاً ، فخَرَجَ مذْعورًا ، والجار الذي يسْكن اتِّجاهَ هذا البيت يعْمَلُ في سِلك الشُّرْطة ، فرآهُ خارجًا مذْعورًا ، فألْقى القبْض عليه فوَجَدَ إنسانًا مَقْتولاً ! فساقهُ إلى السِّجْن وحُوكِمَ ، وحكمَتْ عليه المحْكمة بعِشْرين أو ثلاثين عامًا سِجْنًا !!

تقول: سبحان الله !! هذا بريء ، لو سألتَ هذا الذي حُكِمَ عليه خطأً ؛ أَفَعَلْتَ شيئًا تستحقّ عليه الحُكم القاسي ؟! يقول : إي وربِّي ، فالقِصَّة إذا رَوَيْتَها من دون أن تعلمَ خَلْفِيَّتَها وملابساتها وفُصولها كلّها ، تكون كمن أضلل الناس ، فالقِصَّة إما أن تهديهم بها ، وإما أن تضلِّهم بها ، لا ترو قِصَّة لا تعرف كلّ فُصولها ، لا ترْوي قِصَّة لا تعرف حِكمة الله منها ، لا ترْوي قِصَّة يبْدو لك مِن أحداثها أنَّ منطقها مُخالفٌ لِما جاء به القرآن ، قلْ : لا أعْلم ، أما إذا كان عندك قِصَّة تثبتُ آية ، قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(97))

(سورة النحل)

إن كان عندك قصَّة تؤكّد هذه الآية ، وإن كان عندك قصَّة تؤكّد قوله تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

احذروا مخالفة الشرع :

حدَّثني اليوم إنسان ، وقال لي : لي أخٌ غير منضَبطٌ بقَواعِدِ الدِّين ، فكان يزور أصدِقاءهُ ، ويطلب إليهم أن تكون هذه السَّهرة مختَلِطَة ، فإذا زاروهُ في بيتِهِ أمرَ زوْجته أن تبْرُزَ إليهم ، الشيء الذي حصَلَ أنَّ أحدَ أصْدِقائِهِ أُعْجِبَ بزَوْجَتِهِ ، ونشأتْ علاقة بينهما غير مَشْروعة ، انْتَهَتْ إلى الطَّلاق وضَياع أربعة أولاد !! هذا هو جزاء المخالفة ، فهذه القِصَّة تُرْوَى لأنَّها تؤكّد أنَّ هذا الشَّرْع من عند الله تعالى ، وأنّ كلّ من خالفهُ دفعَ الثَّمَن باهِظًا في حياته ، وكاد قلبهُ يحْترق ، وكاد قلبهُ يُصْعَق من هذه الزَّوجة الخائنة ، فهذا جاهل ، ولكن حينما سمَح لِنَفسِهِ أن يزور أصدِقاءهُ على شَكل اختِلاط ، وحينما زارهُ أصْدِقاءهُ ، وأمر زوجته أن تبْرُزَ إليهم كان ما كان !!

3 ـ القصة أداة خطيرة :

القِصَّة أداة خطيرة ؛ إما أن تُهدِم بها الحق ، وإما أن تبْنِيَ بها الحق ، فَقصَّة لا تعرف ملابساتها ، لا ترْوِها ، وقل : الله أعلم ، ولله حكمة بالغة ، أحيانًا تجد الناس مُغْرَمون بأن يُظْهروا لك شخْصًا مستقيما استقامة تامَّة ، وطاهراً ، وإذا بِمُصيبة تأتيه فوق تَحَمّله ! ويقْصِدون أنَّه لا إله يعينه !!! الله عز وجل هو الحقّ ، وهذه القصَّة خِلاف الحقّ ، من أسماء الله تعالى أنَّه حق وعادل ، فلذلك ربّنا عز وجل قال :

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ)

(سورة هود)

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ

1 ـ أعمال الإنسان تجسِّد مكانته عند الله :

كلّ إنسان له مكانة عند الله ، أعماله تجْسيد لها ، وتنفيذ لها ، وتَحقيق لها ، فالمؤمن أعماله كلّها تؤكّدُ إيمانه ، اسْتِقامته ونزاهته ، وإخلاصه وأمانته ، وحبّه للخير ، وبذْلُهُ وتَضْحِيَتُه ، هذه مكانتهُ ، وهذا حالهُ ؛ حالُ العبْد المتواضِع وحال العَبْد المفْتَقِر ، وحال العبْد المُحِبِّ لله عز وجل أعماله تؤكِد أفعاله ، وأعماله وَجهٌ آخر لأحواله ، أحواله وجه ، وأعماله وجه آخر والكافر أعماله كلّها تؤكّد دناءتَهُ ، تؤكِدُ أنانيَّتَهُ ، وتؤكّد جهْلَهُ وتؤكّد حبَّه لِذاتِه ، أعماله تجسِّد انْحِرافهُ النَّفسي ، قال تعالى :

(وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

(سورة هود)

2 ـ ليس للمنحرف مكانة رفيعة عند الله :

أنتم لن تستطيعوا أن تفعلوا إلا شيئًا يُجَسِّد نفْسِيَّتكم ، فالكافر لن يستطيع أن يكون مخلصًا ولا طاهرًا ، ولا مخلصًا لأنَّ مكانته الانحراف ، وبُعْدُه عن الله سبحانه وتعالى جَعَلَ مكانتهُ عند الله منحرفة ، وأعماله تَجسيد لانْحِرافه النّفسي . قال تعالى :

(وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

(سورة هود)

كلّ إنسان ينتظر من إنسان غير مؤمن الإنصاف ، أو الرَحمة ، أو المساعدة ، والإحسان ، فهو لا يعرف هذه الآية ، قال تعالى :

(وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ)

(سورة هود)

ونحن أيُّها المؤمنون نعملُ على مكانتنا ، ولم يخْرجَ مِنَّا إلا الخير ، ولن نتعاملَ مع الناس إلا بالحقّ ، ولن نأخذ شيئًا ليس لنا ، ولن نسْتَعْلِيَ على خلق الله ، ولن نبْنِيَ مَجْدنا على أنقاض الآخرين ، ولن نفعلَ

شيئًا يُغْضِبُ الله عز وجل ، أما الشيء الذي يأخذ بالألباب ، قوله تعالى :

(وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ)

(سورة هود)

وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ

1 ـ ماذا تنتظرون ؟

أنتم ماذا تنتظرون ؟ ماذا ينتظر أحدكم من الدُّنيا ؟ هؤلاء المعرضون ماذا ينتظرون ؟ غِنًى مطغِيًا أو فقْرًا منسيًا ، أو مرضًا مفسِدًا ، أو هرمًا مفنِّدًا ، أو موتًا مجْهزًا ، أو الدَّجال فَشَرُّ غائبٍ يُنْتَظر ، أو الساعة والساعة أدْهى وأمرّ !!! ماذا ينتظر المؤمنين ؟ توفيق الله ، ورضْوان الله سبحانه وتعالى ، والتَّقلب في رحمة الله ، والطمأنينة ، والرِّضا ، والسعادة ، الحبّ ، والإكرام ، قال تعالى :

(وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ)

(سورة هود)

2 ـ كلّ إنسان ينتظر نتيجة عمله :

إذا طمح طالب أن يكون الأوّل على القطر ، قدَّم الامتحان ، وطالب كَسول قدَّم الامتحان ، بين انتِهاء الامتحان ، وإعلان النتائِج ، هناك فاصِل زمني ، ثلاثون يومًا مثلاً ، هذا ينتظر وهذا ينتظر ، هذا ينتظر نبأ إحراز الدَّرجة الأولى ، واسْتَحَقَّ تَكريم الحكومة ، وذاك ينتظر الرُّسوب واشْمِئزاز الناس منه، قال تعالى

(وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ)

(سورة هود)

وقال تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(51))

(سورة التوبة)

فيا أيّها المؤمنون انْتظروا الخير وكلّ الخير ، في الدنيا والآخرة ، ويا أيّها الذين عَصَوا ربَّهم لا تنتظروا - إن أصْررْتُم على المعصيَة - إلا كلّ خبرٍ مؤلِم ، وكلّ خبرٍ سيئ ، غِنًى مطغِيًا أو فقْرًا منسيًا، أو مرضًا مفسِدًا ، أو هرمًا مفنِّدًا ، أو موتًا مجْهزًا ، أو الدَّجال فَشَرُّ غائبٍ يُنْتَظر ، أو الساعة والساعة أدْهى وأمرّ !!!

هنيئًا للمؤمن فهو ينتظر الخير ، في كل مراحل الحياة ، في الدنيا قبل الآخرة ، والويل للكافر ينتظر المصيبة تلو المصيبة ، قال تعالى :

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ(31))

(سورة الرعد)

من بلوى إلى أخرى ، ومن ضيقٍ إلى خوف ، ومن مرض إلى فقْر وهذا العذاب الصُّعد . قال تعالى :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة هود)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

ما سيكون غَيب ، ما مضى فات ، والمؤمَّل غيب ، ولك الساعة التي أنت فيها ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود)

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ

1 ـ الأمور كلها بيد الله :

ما من عثرة ، ولا اختلاج عِرْق ، ولا خدْش عود ، إلا بما قدَّمَت أيديكم الأمر كلّه ؛ أمْر زوجتك ومركبتك ، وأمر من هم فوقك ، ومن هم دونك ، وأمْر رزقك ، وأمر خوفك وسعادتك الأمر كلّه ، يَنطوي تحت هذه الآية مليون بنْد ! بل أكثر ، آلة فيها قطعة كُسِرَتْ ! إليه يرجع الأمر كلّه ، تعطّلت أسبوعَين ؛ إليه يرجع الأمر كلّه ، حادِث ؛ إليه يرجع الأمر كلّه ، عبدي ، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، كن لي كما تريد ولا تعْلِمني بما يُصْلِحُك ، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلّمت لي فيما أريد كفَيْتُك ما تريد ، وإن لم تُسَلِّم لي فيما أريد أتْعَبْتُكَ فيما تريد ثمَّ لا يكون إلا ما أريد ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود)

أي وحده ، قال تعالى :

(وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(84))

(سورة الزخرف)

قال تعالى :

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(51))

(سورة النحل)

لا إله إلا الله ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

2 ـ التوكل على الله وحده :

قال تعالى :

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

إذا أردْت أن تكون أقوى الناس فتَوَكَّل على الله ، ولا يعرف حال المُتَوَكِّل إلا المُتَوَكِّل ، فهو لا يخاف في الله لَوْمة لائِم ، لأنّ الله تعالى معه ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

3 ـ الله لا يغفل عن عمل العباد جميعهم :

لا يغفلُ عن عملك ، قد تفْتَعِلُ شيئًا لِتَحقيق شَهْوَةٍ ، لا يغْفَلُ عن هذا العمل ، وتفْتَعِلُ شيئًا لِترْوِي شهوتك، فالله لا يغفل عنه ، وقد تُسَبِّب الأذى للإنسان من دون أن تكون مسؤولاً قد نفعلُ شيئًا ، ولا تُحاسب عليه في الدنيا ، ولكنّ هذا الشيء سبَّب الأذى ، قال تعالى :

(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

لو وقفنا عند هذه الآية لكَفَتنا ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (01-11): تفسير الآيات 1 – 3 ، بين يدي سورة يوسف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-05-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف

سبب التسمية :

أيها الإخوة المؤمنون، سورة اليوم هي سورة سيدنا يوسف عليه السلام، هذه السورة سميت بهذا الاسم لاشتمالها على قصة سيدنا يوسف، وقصة سيدنا يوسف أطول قصة في القرآن الكريم .

سورة يوسف ترسيخ لعقيدة التوحيد :

إنّ هذه القصة بموضوعها وحوادثها، وشخصياتها وحبكتها، وحوارها وبيئتها، وكل خصائصها الفنية مطوعة ومسخرة لتأكيد وترسيخ عقيدة أساسية في الأديان، ألا وهي عقيدة التوحيد، فالله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : 19)

وهذه القصة بأكملها تؤكد أنه لا إله إلا الله، لأن الناس حتى ولو وصفوا بأنهم مؤمنون فأكثرهم عند الله مشركون، قال تعالى :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

فلعل الإنسان إذا قرأ هذه القصة، ووقف على دقائقها، واستنبط من آياتها بعض الحقائق يهتدي إلى التوحيد، ليس في فكره بل في سلوكه، لأن التوحيد كفكرة واضح جداً، ومعقول جداً، و لكن كسلوك وكممارسة يومية بعيد عن معظم الناس .

سورة يوسف مقدمات وخاتمات :

اللغة العربية لغة القرآن :

شيء آخر في هذه القصة، مقدمة فيها بعض الموضوعات وخاتمة فيها بعض التعقيبات، من موضوعات المقدمة، قال تعالى :

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(1)إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

(سورة يوسف)

صرحت هذه الآية أن لغة كتاب الله هي اللغة العربية، ولماذا اللغة العربية بالذات؟ وما هي خصائص هذه اللغة حتى تكون أداةً وقالباً لكلام الله سبحانه وتعالى، قال عليه الصلاة والسلام :

((أحبوا العربية لثلاث، لأني عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي))

الطبراني عن ابن عباس

ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

(سورة يوسف : 2)

اللغة العربية من أرقى اللغات :

لابد من أن تكون اللغة العربية لها خصائص موضوعية تجعلها من أرقى اللغات الإنسانية، وإذا قلّ شأنها في العصور الحديثة فلضعف شأن أصحابها، وإذا قيل: إنّ هذه اللغة تعد أوسع لغة في العالم فلأن أصحابها اعتنوا بها، ورفعوا من شأنها، لكنّ اللغة العربية باعتراف فقهاء اللغة الأجانب من أوسع اللغات الإنسانية تصرفاً ومن أرقاها، وسوف أبين لكم بعض خصائص هذه اللغة .

سيدنا عمر يقول: << تعلموا العربية فإنها من الدين >>، وتعلم اللغة العربية وتعلم الدين شيء واحد، بل إنّ اللغة العربية والدين صنوان لا يفترقان .

بعض العلماء قسم اللغات الإنسانية إلى أقسام ثلاثة: اللغات المنعزلة، واللغات الإلصاقية، واللغات التحليلية .

معنى المنعزلة: هذه اللغة تشبه لغة أهل الصين، أي أن الكلمة لا تتبدل، ولا تتغير، ولا يضاف عليها، ولا تصرف، وليس منها فعل، ولا فاعل، ولا اسم فاعل، ولا فعل مضارع، ولا فعل أمر، ولا مصدر، ولا صفة مشبهة، ولا اسم مكان، ولا اسم زمان، هذه الكلمة لا سواها، هذه لغات الشعوب البدائية،

ويمكن أن تنطوي لغة الصين تحت هذا القسم .

وهناك نوع آخر من اللغات، إنها اللغات الإلصاقية، منها اللغة اليابانية، واللغة التركية، أي أنها تضيف حرفاً فتغير المعنى، وكلكم يعلم ما معنى كلمة أدب سيس، عقل يوك، يعني هذه لغة إلصاقية تضيف حرفاً أو حرفين فتعطي عكس المعنى .

لكنّ اللغة العربية وبعض اللغات التحليلية تعد من أرقى اللغات الإنسانية، مثلاً:(عرف)فعل ماض، (يعرف)فعل مضارع، (اعرف)فعل أمر، (عرّف) هذا فعل مزيد، نقول: قطع وقطّع، كسر وكسّر، وغلّقتِ الأبواب، غلّق الباب بمعنى أرتجه، أما أغلق الباب بمعنى رده، إذاً: هناك وزن فعل ووزن فعّل، هناك وزن تفاعل، فاعل، كاتب، راسل، قاوم، دافع، فهناك مشاركة، فعرف، وعرّف، وتعرّف، وتعارف، وعرف، والعُرف، والعرف، والأعراف، والعراف، والتعريف، والعرفان، والمعرفة، والعارف، أي أنّ الكلمة الواحدة يوجد منها فعل ماض، فعل مضارع، فعل أمر، مزيد على الثلاثي بحرف، مثلاً فعّل، بحرفين تفاعل، بثلاثة استفعل، هناك اسم فاعل عارف، اسم مفعول معروف، اسم آلة، اسم تفضيل أعرف، اسم زمان، اسم مكان، صفة مشبهة لاسم الفاعل، هذه كلها مشتقة من مادة عرف، وعلى هذا فقس علم، يعلم، اعلم، عالم، معلوم، علاّم، عليم، تعليم .

فاللغة العربية تمتاز بأنها لغة تحليلية متصرفة، فمثلاً باللغات الأجنبية الكتاب book، والطاولة table، وكتب write، أما في اللغة العربية كتب، مكتب، كتاب، من أسرة واحدة .

لا أريد من هذه التفصيلات أن يكون الدرس في اللغة العربية، ولكن أريد أنّ أقول: حينما جعل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم عربياً فإنّ في اللغة العربية خصائص موضوعية تجعلها من أرقى اللغات الإنسانية .

ظاهرة الإعراب في اللغة العربية :

شيء آخر، في اللغة العربية الإعراب، الإعراب يعني حركة واحدة تغير المعنى، مثلاً: قال تعالى :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر : 28)

العلماءُ فاعل مؤخر، ولفظ الجلالة منصوب على أنه مفعول به مقدم، بوضع الضمة على كلمة العلماء معناها هي الفاعل، ووضع الفتحة على لفظ الجلالة معناها مفعول به منصوب على التعظيم، إذاً: بحركة واحدة يتبدل المعنى .مثلاً :

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

(سورة التوبة : 40)

بحسب التصور: وكلمةُ الله هي العليا، لو قلنا: كلمةُ الله هي العليا يكون المعنى فاسدًا، لأنه جعل كلمة الذين كفروا السفلى، فيعني أنها كانت عليا فجعلها سفلى، وكلمة اللهِ هي العليا يعني أنها كانت سفلى فجعلها عليا، فالمعنى فاسد :

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

(سورة التوبة : 40)

فتحريك أواخر الكلمات بحركات هي حروف مد مخطوفة، هذا شيء يضفي على اللغة العربية دقة بالغة، لذلك ظاهرة الإعراب ظاهرة أساسية في اللغة العربية، من هنا قالوا: إنّك تفهم النص فتقرأه صحيحاً، لكنك في بعض اللغات الأخرى تقرأ فتفهم، أما عندنا فتفهم فتقرأ، لابدّ من أن تكون عينك على كلمة لاحقة حتى تحسن قراءتها، قالت له: يا أبت ما أجملُ السماءِ، قال: نجومها، قالت: لست أريد هذا، أريد أنّ السماء جميلة، قال: قولي: ما أجملَ السماءَ! بينما أجملُ السماء لها معنى، وما أجملَ السماء لها معنى آخر .

فظاهرة الإعراب ظاهرة راقية جداً في اللغة العربية، مثلاً: إذا أردت أن تقول: إنّ زيداً ضرب عمرواً، من دون إعراب يجب أن تقول: إنَّ الذي ضرب عمرواً هو زيدٌ، إذا قلت: ضرب زيدٌ عمرواً بهذه الضمة جعلته فاعلاً، وبهذه الفتحة جعلته مفعولاً به، إذاً: ظاهرة الإعراب ظاهرة دقيقة جداً .

ظاهرة تحريك الحرف بالحركات :

هناك التحريك أيضاً مثلاً البَر والبُر والبِر، البَر يعني اليابسة، والبُر هو القمح، والبِر هو الإحسان، بالبِر يستعبد الحُر، قدَم وقدُم وقدِم، قدَم بمعنى سبقه بقدمه، وقدُم أصبح قديماً، وقدِم بمعنى حضر، خلْق وخُلُق وخلِق، خلِق بمعنى مضطرب، خُلُق بمعنى الأخلاق، الخلْق بمعنى البنية، كان عليه الصلاة والسلام حَسَنَ الخَلْق والخُلُق، أمثلة كثيرة يَثني لها معنى و يُثني لها معنى، يَثني بمعنى يطوي، أما يُثني فبمعنى يمدح، الفرق حركة واحدة .

إذاً: هذه الحركات تضفي دقة بالغة على الكلمات، هذه ظاهرة من ظواهر اللغة العربية :

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

(سورة يوسف : 2)

ظاهرة مناسبة الحروف :

شيء آخر، قال بعض علماء فقه اللغة: إنّ هناك ظاهرة في اللغة العربية دقيقة جداً وهي مناسبة الحروف لمعانيها، أي كل كلمة فيها حرف سين فيها شيء داخلي، إحساس داخلي، كأن تقول: نفس،

حس، إنس، لمس، همس، وسوسة، سر، أية كلمة فيها حرف السين فيها شيء داخلي يجول في النفس، وأية كلمة فيها حرف غين مثلاً غائب، في غيبوبة، ليس أمامنا، غيبة تتحدث عنه في غيبته، غيب شيء لم يقع بعد، غامض غير واضح، غريب، ليس من هذا البلد، فتلاحظون أنّ أية كلمة فيها حرف الغين فيها معنى الغيبوبة والاستتار، أية كلمة فيها حرف الراء فيها معنى التكرار جرّ، مرّ، كرّ، فرّ، والذي يغرق قال بعض العلماء: لِمَ نقول للذي يغرق غرق، لأنّه غاب عن الأنظار، فوضعنا الغين، تتالى سقوطه وضعنا الراء، ارتطم بقاع البحر وضعنا القاف، طرق، لصِق، عبق، هناك حركة عنيفة في القاف، هذه الظاهرة اسمها مناسبة الحروف لمعانيها، واللغة العربية وحدها تنفرد بهذه الظاهرة، كوسوسة، زقزقة، كلمة زقزقة، لو لم تعرف معناها أصوات هذه الكلمة تشعرك بمدلولها .

ظاهرة الاشتقاق الكبير والكُبَّار :

هناك أيضاً الاشتقاق الكبير، كما قلت قبل قليل: هناك اسم فاعل، اسم مفعول، هناك صيغ مبالغة لاسم الفاعل، نقول: فعّال ككذّاب، يعني كثير الكذب، كذوب على وزن فعول، رحيم على وزن فعيل، فاروق على وزن فاعول، حذِر، قلِق، مرِن، قذِر، على وزن فعِل، أي أنّ هناك صيغَ مبالغة لاسم الفاعل، واسم فاعل، اسم مفعول، اسم مكان، اسم زمان، اسم آلة، قال تعالى :

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ)

(سورة الإسراء : 80)

لم يقل الله عز وجل: مَدخل صدق، المَدخل اسم مكان من دخل، أما مُدخل اسم مكان من أدخل، مادام إدخالا إذاً هو مُدخل، إخراج مُخرج، إن كان إخراج قصري هذا مُخرج، إذا خروج طوعي هذا مَخرج، عندنا أيضاً اشتقاق كُبّار، هو النحت، مثلاً سبحل، سبحان الله اختصرت بكلمة سبحل، أدام الله عزك اختصرت بكلمة دمعز، لا حول ولا قوة إلا بالله اختصرت بكلمة حوقل، لا إله إلا الله اختصرت بكلمة هلل، الله أكبر اختصرت بكلمة كبّر، سبحل، ودمعز، وحوقل، و هلل، وكبّر، وحمدل، وحيعل، أي قال: حي على الفلاح .

إذاً: في اللغة العربية اشتقاق صغير وكبير وكبّار، وتصريف وتكبير، مثلاً: كل واحد منا يستطيع أن يصوغ مصدراً صناعياً، أية كلمة أضف إليها ياء مشددة وتاء مربوطة تصبح مصدراً صناعياً، الجمهورية الشعبيّة، الطلابيّة، العنصريّة، الوطنيّة، القومية، إذاً: هذا الذي أنقله لكم لا على سبيل الحصر، بل على سبيل المثال .

الأصوات في اللغة العربية ثابتة :

شيء آخر، أنّ أصوات هذه اللغة ثابتة فهم يسمون لغتنا لغة الضاد، لأنّ أوسع مدْرج صوتي في لغات العالم هي اللغة العربية، ليس في لغات الأرض لغة واحدة فيها حرف الضاد:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

(سورة يوسف : 2)

عندنا في اللغة العربية الضاد، وعندنا الدال، الطاء حرف مفخم، والتاء حرف مرقق، كل واحد حرف، والصاد حرف مفخم، والسين حرف مرقق، عندنا صاد وسين، عندنا ضاد ودال، عندنا طاء وتاء، عندنا سين وزاي، هذه حروف منوّعة .

الشعر الجاهلي دليل على ثبات اللغة العربية :

عندنا شيء آخر، ليس في لغات الأرض كلها من دون استثناء أمة يقرأ طلابها شعراً قيل قبل ألف وخمسمائة عام إطلاقاً، طلابنا في الصف العاشر يقرؤون شعر امرئ القيس، وقد قيل قبل ألف وخمسمائة عام، أما الإنكليز فشكسبير شاعرهم الشهير توفي في القرن السادس عشر، ولا يستطيع إنسان بريطاني واحد أن يقرأ شعر شكسبير كما كتبه، شعر شكسبير مترجم من اللغة الإنكليزية القديمة إلى اللغة الإنكليزية الحديثة، أما أن يقرأ طلابنا شعراً قيل قبل ألف وخمسمائة عام فهذا ثبات في اللغة العربية، ثبات أصواتها، ثبات كلماتها، ثبات قواعدها :

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

(سورة يوسف : 2)

ظاهرة الترادف في اللغة العربية :

ترادف اللغة العربية ظاهرة فريدة، مثلاً: تقول نظر إلى الشيء معروف، معلوم عندكم معنى هذا الفعل، لكن عندنا فعل رأى، رأى تشمل النظر بالعين ورؤية القلب، عندنا فعل حدّج أي نظر مع المحبة، قال عليه الصلاة والسلام :

((حدِّث القوم ما حدّجوك بأبصارهم))

ورد في الأثر

حدّج أي نظر مع المحبة، رنا نظر مع الاستمتاع، نظرت إلى البحر تقول: رنوت إليه، شخَص نظر مع الخوف، قال تعالى :

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الأنبياء : 97)

نظر شزراً مع الاحتقار، استشف نظر مع اللمس، استشرف نظر مع التمطي، حدّج نظر مع المحبة، بحلق اتسعت حدقة العين، حملق ظهر حملاق عينه، هناك حملق وبحلق وحدّق وحدّج، ونظر شزراً، وشخّص، واستشف، واستشرف، ونظر، ورأى ورنا، كل فعل يعني حالة خاصة من حالات النظر، قال تعالى :

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

(سورة يوسف : 2)

ينبغي أن نعتز بهذه اللغة، أنا أتحدى أي طالب جامعي يحمل شهادة ليسانس أن يقرأ القرآن بلا غلط، الناس متهافتون على تعلم اللغات الأجنبية حباً بالمال، حباً بالتجارة، حباً بالاستيراد، حباً بالتعامل، حباً بالوظيفة، ولكنّ المؤمن ينكب على تعلم اللغة العربية لأنها من الدين: << تعلموا العربية فإنّها من الدين>> .

وقف أمام النبي الكريم رجل يقرأ فلحن في قراءته فقال عليه الصلاة والسلام :

((أرشدوا أخاكم فإنّه قد ضلْ))

كنز العمال عن أبي الدرداء

كان عليه الصلاة والسلام أفصح العرب، لذلك قال العلماء: إنّ أفصح كلام بعد القرآن الكريم كلام النبي عليه الصلاة والسلام :

((أنا أفصح العرب ، قال بيد أنّي من قريش))

كنز العمال عن بريدة

قريش أفصح القبائل، وهذا أسلوب اسمه أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم، أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش .

((إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا))

البخاري عن ابن عمر

((إِنَّ مِنْ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً))

ابن ماجه عن أبي بن كعب

هكذا قيل .

ظاهرة الاشتراك اللفظي :

في اللغة العربية ظواهر غريبة جداً، مثلاً: عندنا ظاهرة اسمها المشترك اللفظي، فكلمة يشري لها

معنيان متعاكسان، يبيع ويشتري، قال تعالى :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

(سورة لقمان)

جاءت هنا بمعنى يبيع، كلمة المولى مثلاً، تأتي بمعنى السيد والعبد، مولاي يا سيدي، ومولاي عبدي، كلمة ظنّ بمعنى تأكد أو حسب، قال تعالى :

(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة : 46)

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

(سورة الحجرات : 12)

ظاهرة التضادّ والترادف في اللغة العربية :

عندنا ظاهرة في اللغة اسمها التضاد، مثلاً: سميت الصحراء المخيفة مفازاً، والإنسان لا يفوز فيها، بل يضيع، سميت مفازة على عكس واقعها تفاؤلاً لمن كان فيها بالفوز، وسمي الملدوغ من أفعى أو عقرب سليماً تفاؤلاً له بالسلامة، هذا التضاد .

وفيها ترادف، وقد عدّ العلماء أكثر من ستة آلاف اسم للجمل، وهذا اتساع العربية في التعبير، هذا غيض من فيض، هناك كتب تزيد على أربعمائة صحيفة كلها في خصائص اللغة العربية، البحث متعلق بعلم اسمه علم فقه اللغة، هذا العلم يؤكد أنّ الله سبحانه وتعالى اختص هذه اللغة لكلامه، فشَرُفت بكلام الله، وشَرُفنا بانتسابنا لهذه اللغة، وانتسابنا لهذه الأمة، فإذا خصص الإنسان جزءاً من وقته لتعلم العربية فسوف يجد أحكاماً دقيقة جداً، وفهم كتاب الله يحتاج إلى تعلم اللغة العربية، لمعرفة الكلام، أنواع الكلام، ماذا تعني هذه الكلمة، ماذا تعني هذه العبارة، لمَ هذه الكلمة منصوبة؟ لمَ هي مفتوحة؟ لمَ مجرورة .

على كلٍ؛ أردت من هذه المقدمة اللغوية أن أؤكد لكم أنّ كلام الله سبحانه وتعالى اختاره الله، اختار اللغة العربية قالباً له، لأنّ اللغة العربية من أرقى اللغات الإنسانية باعتراف كبار علماء اللغة الأجانب، يرون أن اللغة العربية من أوسع اللغات الإنسانية في التعبير، ومن أشدها مرونة وقدرة على استيعاب كل الأشياء الغريبة عنها، واللغة العربية الآن استوعبت كل منجزات العصر الحديث، ومع ذلك ترى من الناس من يستعلي باستخدام الكلمات الأجنبية، وهذه نزعة شعوبية نعوذ بالله منها .

شيء آخر، في قصة هذا النبي الكريم سماه النبي عليه الصلاة والسلام الكريم ابنُ الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب عليه السلام بن إسحاق بن إبراهيم، لن أبدأ بتفسيرها في هذا اللقاء، ولكن سوف أضع بعض الحقائق بين يدي هذه السورة الكريمة .

خصائص القصة

العنصر الإنساني وأثره في قصة يوسف :

هذه السورة فيها مقدمة تتحدث عن أنّ القرآن عربي، وقد شرحت لكم قبل قليل شيئاً من ذلك، ثم فيها إشارة إلى أنّ أسلوب القصة يعد من أرفع أساليب التوجيه، لذلك الذي يملك قدرة على رواية قصة يملك القدرة على الأخذ بالقلوب، ربنا عزّ وجل يقول :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)

(سورة يوسف : 3)

في القصة خصائص تجعل الإنسان يهفو إليها .

حب الأب لابنه :

العنصر الإنساني عنصر بارز في القصة، فالقصة تتعلق بالإنسان، بعواطفه، بمشاعره، بمواقفه، بارتفاعه، بانحطاطه، بقوته، بضعفه، بأحزانه وأفراحه، بمآسيه ونكباته، وبمنجزاته، أبرز ما في القصة العنصر الإنساني .

لذلك ما الذي سوف نجده في هذه القصة، نجد الحب الأبوي :

(وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

لا يعرف الحزن إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

***

لو قرأ هذه القصة أبٌ كريم لذابت نفسه تفاعلاً معها، لأنها تتحدث عن عواطفه تجاه ابنه، في هذه القصة الحب الأبوي في أسمى صوره :

(وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

(سورة يوسف)

قلق الأب، شوق الأب، فرح الأب، فارتدّ بصيراً، حينما ألقوا عليه قميص يوسف ارتد بصيراً، هذا هو الأب، هذه هي الرحمة التي أودعها الله في قلب كل أب، ولكنها تزيد على مثيلاتها في المؤمن، وتزيد على مثيلاتها في الأنبياء .

الغيرة والحسد من أشد الأمراض فتكا :

الغيرة والحسد أوسع أمراض البشر انتشاراً، لو أردت أن تحلل معظم المشكلات بين الناس والخصومات، والعداوات، وأنواع الطلاق، والأعمال التي تسبب الأذى لوجدت أنّ السبب الرئيسي هو الغيرة والحسد :

(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة يوسف)

سوف نكيد له .

التفاوت في التصرفات والمواقف :

التفاوت في التصرف :

(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)

(سورة يوسف)

التفاوت في المواقف، الإنسان مخيّر، هذا وقف موقفاً إجرامياً، وهذا وقف موقفاً معتدلاً، وهذا وقف موقفاً مستنكراً، تفاوت في ردود الفعل في بني البشر .

المكر والخداع والشهوة :

يتضح في هذه القصة أيضاً المكر والخداع :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

وفي آية أخرى :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

(سورة النساء)

الشيطان وطغيانه وصف الله كيده بأنه كان ضعيفاً، وأما النساء فوصف الله كيدهنّ بأنّ كيدهن عظيم، فالمرأة تستطيع أن توقع الفساد بين مائة أسرة، توقع الشقاق بين الإخوة، بين الآباء والأبناء، بين الآباء

والأمهات، بين الشركاء، وكم من قصة أفسدت العلائق سببها امرأة، والذين يتابعون جرائم الناس، ويعملون في تقصي المجرمين عندهم قاعدة، هي أنّ كل جريمة وراءها امرأة، يقولون: فتش عن المرأة.

المكر والخداع ظهر أيضا حينما واجه العزيز امرأته وهي تراود فتاها عن نفسه، قالت :

(قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

هي التي راودته، وأوهمت زوجها أنه هو الذي راودها، وكيف أدخلته السجن بالمكر والخداع والشهوة، كيف أنّ الإنسان إذا بعُد عن الله عز وجل صار عبداً لشهوته، كيف أنّ الشهوة تَطغى وتُطغي وتردي صاحبها .

ندم الجاني وعفو المظلوم :

كيف أنّ مشاعر الندم قد تغمر الإنسان، وهذا أيضاً مضمون من مضامين هذه القصة الكريمة، وكيف أنّ الإنسان يرتفع حتى يعفو عن خصومه الذين كادوا له وهو في أشد حالات القوة، وهو أقدر ما يكون على أن ينتقم منهم :

(قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة يوسف)

هناك آلاف العِبر، وآلاف الدروس، وآلاف الاستنباطات، في الحياة الاجتماعية والحياة الأسرية والحياة الشخصية وعلاقة الإنسان مع غيره، ومع مجتمعه، ومع أقربائه، ومع خالقه، كل هذا يتضح من قصة هذا النبي الكريم .

سورة يوسف تصوير لبيئة معينة :

وهناك تصوير في هذه القصة للبيئة، لبيئة المجتمع المتحضر، وما فيه من علاقات متفسخة أحياناً، وكيف القوي والضعيف ، وكيف هو المكر والكيد، إنّ كل هذه المعاني من مضامين هذه القصة التي تعد أطول قصة في القرآن الكريم .

قصة يوسف لم تتكرر في القرآن الكريم :

وهناك ميزة أخرى؛ أنّ قصص الأنبياء لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى جاءت في مواطن متعددة من

كتاب الله، وجاءت على شكل مختلف، فقصة سيدنا موسى تكررت سبع عشرة مرة، وفي كل مرة تُعجب بطريقة العرض والسرد، في كل مرة لها طريقة تختلف عن طريقة قيلت فيها في موضع آخر، لو وقفت عند هذه الطرائق في العرض والطرائق في الرواية لأخذك العجب العجاب، ولكنّ قصة يوسف لم تتكرر إطلاقاً، ولم يستطع أحد تطوير هذه القصة لأنها كما يقولون: نسيج وحدها، هذه قصة لم تتكرر، وتلك قصص قد تكررت، والإعجاز في التكرير وفي عدم التكرير .

موقف بعض اليهود عند سماعهم قصة يوسف :

شيء آخر، طائفة من اليهود حينما سمعوا هذه القصة أسلموا لمطابقتها لما ورد عندهم في التوراة، لذلك تعد هذه القصة من دلائل نبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام، والدليل قال تعالى :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ)

(سورة يوسف)

وفي نهاية القصة، قال تعالى :

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

من أعلمك بهذا لاشك أنك رسول الله .

إذاً: في هذه القصة دلائل على نبوة ورسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام ورسالته .

قصة يوسف فيها كل مقومات القصة :

والشيء الذي يلفت النظر أنّ القصة كفن أدبي بلغت أعلى مستواها في هذه العصور، وتعد القصة الآن أكبر فنون الأدب وأوسع الفنون انتشاراً، ولها مقومات فنية دقيقة دقة بالغة، هناك مجلدات تدرس فنّ القصة، بحث الشخصيات، تصوير الشخصيات، الشخصيات التحليلية، الشخصيات التمثيلية، بحث عن الحوار وأنواع الحوار والسرد والوصف والحوار التمثيلي، والحوار التحليلي وعرض خبايا النفس من خلال الحوار، وبحث عن البيئة وتفاعلها مع الشخصيات والحوادث، وبحث عن حبكة القصة، وعن تقديم هذا الحدث وعن تأخيره .

إنّ قصة سيدنا يوسف فيها كل المقومات الفنية للقصة الحديثة من دون إخلال بالغرض الديني، بالعكس إنّ الخصائص الفنية لهذه القصة تعد في خدمة الغرض الديني لها، هذا درس لنا إذا أردت أن تدعو إلى الله عز وجل ليكن كلامك بليغاً، ليكن كلامك رائعاً، ليكن مسبوكاً سبكاً حسناً، فإذا سخّرت خصائص الفن التعبيري لمضمون بليغ فقد حققت هدفاً نبيلاً، ماذا تجد؟ تجد شاعراً كبيراً سخّر طاقاته اللغوية

والأدبية لأهداف خسيسة، لوصف نزواته الشخصية، لوصف مشاعره تجاه امرأة، لوصف امرأة، هذه القدرات البلاغية واللغوية والأدبية سخّرت لأغراض دنيئة، وقد تجد إنساناً يؤمن بالله عز وجل، وينطوي على أفكار وعقائد في غاية الأهمية، إذا أراد أن يعرضها لا يقوى على عرضها عرضاً بيانياً رائعاً، لذلك يُنَفِّرُ الناس منها، فإذا سخرت القدرات اللغوية والأدبية والفنية لعرض الحق عرضاً واضحاً دقيقاً جذاباً مؤثراً سحرياً فقد حققت الكمال في المضمون والشكل، لذلك : " تعلّموا العربية فإنّها من الدين " .

أنا أغريكم؛ ولو تقدمت بكم السن، ولو تجاوزت سنين الدراسة أن يكون لكم في الأسبوع جلسة مع هذه اللغة التي تقرؤون القرآن بها، لغتكم لغة آبائكم وأجدادكم .

مضمون قصة يوسفهو التوحيد :

شيء آخر في هذه القصة أنّ مضمونها كله حول التوحيد وقد جاء مغزاها في آية واحدة، قال تعالى :

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمْتَ لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تُسَلِّمْ لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد .

يجب أن تؤمن إيماناً راسخاً أنّه إذا أردت ما أراده الله سعدت في الدنيا، وإن لم ترد ما أراده الله أتعبك الله في الدنيا، ثم لا يكون إلا ما أريد .

ماذا أراد أخوة يوسف؟ أن يقتلوه، أرادوا أن يضعوه في الجب، أن يعزلوه عن أبيه، أرادوا به كيداً، وأراد الله له أن يكون نبياً، أن يكون عزيز مصر، خرج مرة في موكبه فرأته جارية تعرفه يوم كان عبداً في هذا القصر فقالت قولتها الشهيرة: سبحان الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، وجعل الملوك عبيداً بمعصيته .

هذا الموقف :

(إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف : الآية 23)

هذا الموقف رفعه إلى أعلى عليين، جعله نبياً، جعله عزيز مصر، جعله في قمة المجتمع، ودخل عليه أخوته وهم صاغرون قال تعالى :

(قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا)

(سورة يوسف : من الآية 90)

فقالوا له : يا أخانا اغفر لنا ذنبنا، فأجابهم: لا تثريب عليكم اليوم، ماذا أراد الله له، أرادوا أن يقتلوه، وضعوه في الجب ليكون عبداً طوال حياته، وأراد الله له أن يكون نبياً وعزيزاً وحاكماً .

إذاً :

كن مع الله تر الله معك و اترك الكل وحاذر طمعك

و إذا أعطاك من يمنعه ثـم من يعطي إذا ما منعك

***

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

الله سبحانه وتعالى أمره هو النافذ من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام :

((ماضٍ فيّ حكمك أبداً ، عدلٌ فيّ قضاؤك))

أحياناً أخ كبير يغتصب ثروة أخيه الصغير، يموت الأب ويترك ميراثاً واسعاً، وهناك أخ كبير وصغير، يأتي الكبير فيغتصب مال الصغير، هكذا أراد، ولكنّ الله له إرادة أخرى، هذا الصغير يوفقه الله فيشتري من الكبير، حتى يصبح الكبير فقيراً وهو أجير عند الصغير .

قد تُطلق هذه المرأة ظلماً، تريد أن تحطمها، أن تسحقها، أن تجعلها في أسفل سافلين، يأتي إنسان آخر فيتزوجها، ويرفع شأنها، ويكرمها، وقد تكون أنت أجيراً عنده، وقد يستخدمك لنقل حاجاته إلى البيت، تفتح لك الباب، تقول لك: ضع الأغراض هنا، أنت ماذا أردت حينما طلقتها؟ أن تحطمها، ماذا أراد الله؟ أراد أن يرفعها، " أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد " .

حتمية نصر الله :

شيء آخر، في القصة إشارة إلى حتمية نصر الله سبحانه وتعالى :

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا)

(سورة يوسف : من الآية 110)

إذا قرأت هذه القصة يمتلئ قلبك ثقة بنصر الله، يمتلئ قلبك ثقة بأنّ الله سبحانه وتعالى لابد من أن يفرِّج عن عباده، حتى إذا استيئس الرسل، يعني حتى أنّ اليأس وصل إلى الرسل، كانوا آخر الناس يأساً، قال تعالى:

(وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة يوسف : من الآية 110)

وهذا مما تشتمل عليه هذه القصة الكريمة .

لفت نظر الناس إلى الكون :

شيء آخر، هناك إشارات في هذه القصة إلى موضوعات عدة، منها لفت نظر إلى الكون، قال تعالى :

(وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

دعوة إلى التفكر في آيات الله التي بثها الله في السماوات والأرض .

تقريع للشرك وأهلِه :

شيء آخر، في القصة تقريع لهؤلاء المؤمنين الذين هم في تصرفاتهم مشركون، في عقيدتهم مؤمنون، وفي تصرفاتهم مشركون، هذا الذي يعصي ربه خوفاً من إنسان هو مشرك، هذا الذي يتقاعس عن مجلس علم خوفاً من إنسان أو إرضاءً لإنسان عند الله مشرك، قال تعالى :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة يوسف : الآية 103)

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

الإشارة إلى التاريخ :

شيء آخر، هناك إشارة إلى التاريخ، قال تعالى :

(أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)

(سورة يوسف)

دعوة إلى الاتعاظ بأحداث التاريخ السابقة .

كلُّ أمة كافرة لابد من هلاكها :

وفي القصة إشارة إلى أنّ كل أمة لا تستقيم على أمر الله، وتكذب بآيات الله لابد من أن يهلكها الله سبحانه وتعالى :

(أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ)

(سورة يوسف)

علامة الدعاة الصادقين :

وفي نهاية المطاف إشارة إلى علامة سابقة من علامات الدعاة الصادقين، قال تعالى :

(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : من الآية 108)

علامة الداعية الصادق أنه يدعوك على بصيرة لا على عمى .

خاتمة :

في القصة مقدمة فيها إشارة إلى قيمة اللغة العربية، وإلى قيمة أسلوب القصة في التوجيه، والقصة لها مغزى كبير، وهو وحدانية الله سبحانه وتعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : من الآية 19)

وفي القصة تعقيبات وإشارات كثيرة أتيت على ذكرها، وسوف نبدأ بشرح هذه القصة في الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (02-11): تفسير الآيات 4 – 10 ، لماذا هي أحسن القصص؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-05-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، ربنا سبحانه وتعالى قال في سورة هود :

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة هود)

بين يدي سورة يوسف :

سورة يوسف تثبيت لقلب النبي عليه الصلاة والسلام :

في سورة هود قص ربنا سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم قصص الأنبياء، وما عانوه من أقوامهم، وفي هذه السورة قصة سيدنا يوسف يقص عليه هذه القصة ليثبت به فؤاده، لأنّ هذا النبي الكريم لم يعان من قومه، بل عانى من إخوته، فإذا كانت المعاناة من الأقوام فالنبي صلى الله عليه وسلم له بالأنبياء الصادقين أسوة حسنة، وإن كانت المعاناة من الأقربين فله في سيدنا يوسف أسوة حسنة، ونحن إن جاءتك المتاعب من الأباعد فهذا درس يوضع أمامك، وإن جاءتك المتاعب من الأقارب، من الأهل، من الإخوة فلك في هذا النبي الكريم أسوة حسنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(1)إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(2)نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ)

(سورة يوسف)

لماذا سميت هذه السورة أحسن القصص؟

لماذا سمى ربنا سبحانه وتعالى هذه القصة أحسن القَصص؟ قال بعضهم: لأنّ مغزاها يقوم على العفو والتسامح والرأفة والرحمة، موقف سيدنا يوسف في نهاية القصة من إخوته الذين كادوا له وائتمروا على قتله، ثم وضعوه في الجب، كان موقفه موقفاً إنسانياً رقيقاً رحيماً .

وقال بعضهم: لأن فيها ذكرى الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والعلماء والتجار، فيها ذكر الحب الأبوي، والغيرة، والمكر والخداع ،والعفو والفرح، وفيها ذكر البيئات بيوت الملوك، وقصور الملوك والأسواق والسجن، فيها أشياء منوعة جداً، ومواقف إنسانية، وبيئات بشرية، وما إلى ذلك .

(وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ)

(سورة يوسف)

تحدثت في الدرس الماضي عن هذه الآية، وكيف أنّ النبي عليه الصلاة والسلام جاء بقصص لا يعلمها أحد مما نثبت به نبوته، وقد جاءت في الكتب السابقة .

مشاهد قصة يوسف عليه السلام :

الآن مع المشهد الأول إن صحّ أنّ لهذه القصة مشاهد :

المشهد الأول :

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

(سورة يوسف)

منزلة الابن عند والديه :

سيدنا يعقوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام له ولدان من زوجة، وأحد عشر ولداً من زوجة أخرى، سيدنا يوسف وأخوه من زوجة كانا صغيرين، وكانا أثيرين على قلبه، كان يحبهما حباً جماً لأسباب كثيرة، قد سئلت أم: أيّ أولادك أحبُ إليك، قالت: " الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يرجع، والمريض حتى يشفى "، على كل، كان هذا الابن وما حباه الله من وسامة وجمال، ورقة ونعومة، وتحبب إلى قلبه، كان سيدنا يوسف آثرَ الأولاد إلى قلب أبيه، رأى رؤيا، والرؤيا لها بحث يطول، ما منا واحد إلا ويرى في المنام رؤى، هل هذه الرؤى باطلة؟ وما فائدتها؟ ولماذا يرى الإنسان ؟

الرؤيا حياة نفسية :

بادئ ذي بدء، حينما يرى الإنسان في المنام رؤيا لا شك أنّ نفسه تنفصل عن جسده، مما يثبت الحياة النفسية أنّك قد تكون نائماً فتنتقل من مكان إلى مكان تفرح أو تحزن، تسعد أو تشقى، تتألم أو تُسر، كل هذا وأنت في الفراش، إذاً: لك حياة نفسية ثابتة، والله سبحانه وتعالى حينما جعل الرؤيا من لوازم بني

آدم، من لوازم النفس الناطقة، الرؤيا من لوازم النفس الناطقة، حينما جعل الرؤيا من لوازم النفس الناطقة جعل لها هدفاً كبيراً .

الرؤيا ثلاثة أنواع :

العلماء قالوا: الرؤيا من الله عز وجل، أو من المَلك، أو من الشيطان، بعضهم قسمها تقسيماً آخر: رؤيا من الشياطين، هي أضغاث أحلام، لا معنى لها، تناقض، تضارب، يصعب تفسيرها، أغلب الظن أنّها تأتي بعد عشاء دسم، أو أنّ الرؤيا تعبير عن رغبات جامحة تعسر على صاحبها أن يحققها في النهار، رغبات مكبوتة يراها الإنسان في منامه، الرغبات المكبوتة هي أضغاث الأحلام، أو الرؤى أو المنامات التي يراها الإنسان من قِبَل الشياطين هذه خارج موضوعنا اليوم، ولكنّ الله سبحانه وتعالى قد يتفضل على إنسان فيريه رؤيا من عنده، قالوا: هذه الرؤيا التي من عند الله سبحانه وتعالى لا تحتاج إلى تفسير لشدة وضوحها، والرؤيا التي تكون من قِبَل المَلك تحتاج إلى تأويل ، من هنا كان تأويل الرؤيا .

الرؤيا الصالحة من المبشرات :

وفي الحديث عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَنْ يَبْقَى بَعْدِي مِنَ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ، فَقَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوْ تُرَى لَهُ، جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ))

موطأ مالك

النبي عليه الصلاة والسلام والأنبياء جميعهم عليهم الصلاة والسلام يأتيهم الوحي، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يبشر عبده المؤمن، أو أن يحذره، أن يعلمه بمقامه، أن يشجعه، أن يخيفه، أن يبعده عن معصية، ما الطريق لنقل هذه البشارة أو هذا الإنذار؟ هذا التخويف، هذا الوعد، هذا الوعيد، هذا التعريف، هذا الإعلام، ما الطريقة؟ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَنْ يَبْقَى بَعْدِي مِنَ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ، فَقَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوْ تُرَى لَهُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ))

موطأ مالك

أحياناً يراك أخوك في المنام بحالة راقية، وأنت تدعو إلى الله، وأنت تفعل الصالحات، وأنت في الحج، وأنت في العمرة، هذه الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له، على كلٍّ؛ الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه رأى في المنام مَلَك الموت فقال: يا مَلَك الموت، كم بقي لي في الحياة؟ فأشار مَلَك الموت بكفه هكذا مبينا لها خمسة، فلما أفاق وقع الإمام مالك في حيرة شديدة، أترى بقي له خمس

سنوات، أم خمسة أشهر، أم خمسة أيام، أم خمس ساعات، أم خمس دقائق، أو خمس ثوان؟ فتوجه إلى ابن سيرين، وكان عالماً بالتأويل، فقال: يا ابن سيرين، رأيت كذا وكذا، فقال: يا إمام، يقول لك مَلَك الموت: إنّ هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله .

فالرؤيا حق، ولولا أنّها حق لما جعلها الله سبحانه وتعالى من لوازم ابن آدم، والشيء الثابت أنّ الرؤيا تؤكد الحياة النفسية، فالإنسان قد ينام نوماً مُسعداً، قد يستيقظ على رؤيا صالحة يتمنى أن لا يفيق، يتمنى أن تبقى حاله أياماً طويلة، يزعجه أن يرى نفسه في الفراش، أن يرى نفسه في البيت، وقد يرى رؤيا مخيفة تبث في قلبه الرعب، وترتعد فرائصه، على كل بعض العلماء قالوا: الرؤيا على أربعة أقسام، إن كنت مستقيماً على أمر الله ورأيت رؤيا سعدت بها فهذه بشارة من الله سبحانه وتعالى، وإن كنت مستقيماً على أمر الله ورأيت رؤيا فزعت منها، فهذا تخويف من الشيطان لا تلتفت إليها، من رأى رؤيا حسنة فليقصها على من يحب، ومن رأى رؤيا غير حسنة فلا يقصها على أحد، وليستعذ بالله منها، لا تقصها على أحد .

ماذا يفعل مَن رأى رؤيا مفزعة؟

وشيء آخر، كان عليه الصلاة والسلام يأمرنا أننا إذا رأينا رؤيا أفزعتنا فلنقم ولنصلّ، بشكل مختصر الرؤيا وسيلة من وسائل الاتصال بين المؤمن والله سبحانه وتعالى، وبشكل أوسع بين العبد وبين ربه، لأن العبد الضال الشارد قد يرى رؤيا تتحقق، على كل إذا رأى رؤيا أفزعته وكان غير مستقيم على أمر الله فهذه من الرحمن، فإذا كان منحرفاً ورأى أنّه يلبس ثياباً بيضاء وفي بستان جميل فهذه الرؤيا من الشيطان، إنّها توريط له .

أحياناً يأتي الشيطان لبعض الأقارب وقد توفي قريبهم فيراه في المنام بشكل حسن، فيقول: فلان في هيئة طيبة، وقد أكرمه الله ودخل الجنة، ويكون قد أكل المال الحرام، وفعل الموبقات، فهذه الرؤيا من الشيطان، الأصل أن تنظر إلى سلوك هذا الإنسان وعمله، فإن كان مستقيماً ورأى رؤيا أفرحته فهي من الله بشرى، وإن رأى رؤيا أفزعته فهي من الشيطان تخويف، وإن كان منحرفاً ورأى رؤيا أفزعته فهذه من الرحمن تحذير، وإن رأى رؤيا أفرحته فهذه من الشيطان تغرير، أربع حالات .

لكنّ هناك ملاحظة ينبغي أن تعرفوها؛ هي أنّك إذا رأيت رؤيا لا سمح الله أفزعتك فاعلم علم اليقين أنها من الشيطان، ولكن عليك أن تؤمن بالرؤيا لأنّ الله سبحانه وتعالى ذكرها في القرآن الكريم في أماكن عدة .

هذا النبي الكريم، هذا الطفل الوديع، هذا الغلام الوسيم، قال :

(يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

(سورة يوسف)

عناصر رؤيا يوسف : أحد عشر كوكبا والشمس والقمر

أما كلمة(رأيتهم)فلو أنّ الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر هي على حقيقتها أحد عشر كوكباً وشمساً وقمراً فيجب أن يقول: رأيتها، هذه جمع مَن لا يعقل، أما حينما قال: رأيتهم، فقد حمل الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً على محمل العقلاء، إذاً فَهِمَ سيدنا يعقوب من هذه الرؤيا أنّ لهذا الغلام الوسيم مستقبلاً كبيراً وشأناً عظيماً في ميدان الدين، وميدان القرب من الله عز وجل، وبعضهم قال: إنّ تفسير هذه الرؤيا أنّ إخوته الأحد عشر وأمه التي هي الشمس، وقيل: خالته زوجة أبيه، لأنّ الخالة بمقام الأم، وقد توفيت أمه، والقمر أبوه ،

(رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

رؤيا الأنبياء حق لابد أن تتحقق :

أي خاضعين .

وبعضهم قال: إنّ الشمس جزأها الأعلى انحنى نحو الأسفل، وهذا معنى السجود، والقمر كذلك جزأه الأعلى انحنى نحو الأسفل، فهذه الرؤيا تعبِّر عن أنّ هذا الغلام الوسيم سيكون له مستقبل في ميدان القرب من الله عز وجل يفوق أباه وأمه وإخوته أجمعين، هذه هي الرؤيا .

(يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ)

فهناك تكرار، إنّي رأيت رأيتهم، ورؤية الأنبياء حق، قال تعالى :

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

(سورة الصافات)

رؤيا الأنبياء حق :

(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ)

(سورة يوسف)

نصيحة يعقوب لابنه بإخفاء أمر الرؤيا عن إخوته :

عرف هذا الأب الشفوق، وهذا الأب الرحيم، أنّ أخوة يوسف قد تقع في قلبهم الغيرة، وقد يقع في قلبهم الحسد، والشيء الثابت أنّ الأب والأم فقط لا يحسدان ابنيهما، ولا يغاران منه، أما الإخوة فقد تأكل قلبهم الغيرة، وقد يدب الحسد فيما بين الإخوة :

(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ)

(سورة يوسف)

من هنا استنبط العلماء أنّ على المرء ألا يظهر ما عنده، وألا يظهر فضله، وألا يبالغ في إظهار علمه، وإظهار المقدرات التي وهبه الله إياها، فلعل أحداً يحسده، ولعل أحداً يتمنى زوال النعمة عنه، وأن تتحول إليه .

(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ)

على كل قال عليه الصلاة والسلام :

((استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان))

ورد في الأثر

وقال بعض الشعراء :

ليس الغبي سيداً في قومه   لكنّ سيد قومه المتغابي

***

من الذكاء أحياناً أن تبدو وكأنك غبي، إذاً: ليس من المستحب أن تظهر كل ما عندك، أن تزهو على الناس بما وهبك الله عز وجل :

(فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

(سورة يوسف)

الشيطان يحب أن يوقع العداوة والبغضاء فيما بين الناس، وفيما بين الأقارب، وفيما بين الزوجين، وفيما بين الأخوين، وفيما بين الشريكين .

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ)

(سورة يوسف)

النبوة اجتباء واصطفاء :

معنى كلمة (يجتبيك) أي يختارك ويصطفيك، وبعضهم فهم أنّ النبوة هبة من الله سبحانه وتعالى، وهي كذلك، لكنها من دون كسب، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

معنى (اصطفى)يعني اختار من بين خلقه المتفوقين، اختار من بين خلقه الصادقين، اختار منهم أنبياء، إذا نظر المعلم في الصف، وتفرس وجوه التلاميذ واحداً واحداً فاختار منهم أشدهم أخلاقاً، أرقاهم أخلاقاً، وأعمقهم وعياً، وأشدهم إدراكاً، وأكثرهم تحصيلاً، اختاره، وجعله عريفاً على زملائه، هل نقول: إنّ هذا الاختيار محض صدفة؟ لا إنّه اصطفاء، هل نقول: إنّ العِرَافة هبة؟ نعم ولا، هو اختاره، ولكن لماذا اختاره بالذات؟ لأنّه متفوق :

(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)

(سورة الأنبياء)

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ)

(سورة يوسف)

لا فرق بين العباد إلا بالطاعة :

يجب أن تعلم علم اليقين أنّ الخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بين الله وبينهم قرابة إلا طاعتهم له :

كُن ابن من شئت واكتسب أدباً   يغنيك محموده عن النسب

((أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً))

ورد في الأثر

((ليس بين الله وبين خلقه قرابة، بل القرابة طاعتهم له))

ورد في الأثر

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

البخاري

حينما كان بلال رضي الله عنه يقدم إلى المدينة كان سيدنا عمر الخليفة الراشد يخرج لاستقباله، سيدنا أبو بكر رضي الله عنه أعتقه، اشتراه من سيده وأعتقه، قال سيده: لو دفعت به درهماً واحداً لبعتكه، لقلة شأنه، فقال أبو بكر رضي الله عنه : << والله لو طلبت ثمنه مائة ألف درهم لأعطيتكها >>، وضع سيدنا الصديق يده على كتفه تعبيراً عن الأخوة، وقال: << هذا أخي حقاً >> .

سيدنا عمر كان بلال وصهيب يدخلان عليه بلا استئذان، جاء أبو سفيان زعيم قريش فوقف في بابه ساعات فلم يؤذن له، فلما دخل عليه عاتبه، قال: << بلال وصهيب يدخلان بلا استئذان ، وأبو سفيان يقف في بابك الساعات الطوال، فقال: يا أبا سفيان أنت مثلهما ! >>، أين الثرى من الثريا؟ أين كنت حينما كانا يعذبان في الله، أين كنت حين كانا يجاهدان في سبيل الله؟ أين كنت حين كانا يخدمان رسول الله؟

ليس بين الله وبين عباده أية قرابة إلا الطاعة، لو أنك أطعت الله عز وجل لسبقت مائة ألفِ ألف إنسان:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات : من الآية 13)

هذه الآية تكفي :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات : من الآية 13)

بدرت كلمة من سيدنا أبي ذر في ساعة غضب، فقال لصحابي: << يا ابن السوداء، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن غضب غضباً شديداً وأعرض عنه، وقال :

((يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ))

البخاري

فلم يرضَ أبو ذر إلا أن يضع رأسه على الأرض ليطأ رأسه بلال بقدمه حتى كفّر عن سيئته .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ:

((مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

الترمذي

فما بال الناس اليوم يسهرون وينهشون بأعراض بعضهم بعضاً .

يجتبيك ، أي اختارك على علمك ، اختارك لصدقك ، اختارك لما تنطوي عليه من محبة له ، من إخلاص ، من طهر ، من عفاف

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)

(سورة يوسف)

وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

تعبير الرؤيا فضل من الله عظيم :

ويبدو أنّ تأويل الأحاديث شيء عظيم، الله سبحانه وتعالى يتفضل به على بعض خلقه، تأويل الأحاديث أن تعرف ما الذي يعنيه هذا الحديث، ما القصد البعيد من هذا الحديث، هذا شيء عظيم، مما اختص به هذا النبي الكريم تأويل الأحاديث .

معنى التأويل :

ومعنى أوّل مأخوذ من فعل أوَلَ، وأوَلَ يعني أرجعَ الحديث إلى أصله، إلى مقصد قائله، ماذا أراد الله بهذا الكلام :

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ)

(سورة يوسف)

وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

نِعم الدنيا بلا هدى نِقمٌعلى صاحبها :

العلماء قالوا: تمام النعمة الهدى، لو أنّك تملك نعم الأرض كلها ولم تكن مهتدياً فهذه كلها ليست نعماً، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

(سورة الدخان)

ليست نعمة، يمكن أن تمثل الهدى بواحد، والمال بصفر أمامه، المال والهدى نعمتان متكاملتان، يمكن أن تمثل الزوجة الصالحة بصفر آخر، صاروا مائة، يمكن أن تمثل الأولاد الأبرار بصفر ثالث، صاروا ألفا، يمكن أن تمثل البيت الواسع بصفر رابع، صاروا عشرة آلاف، يمكن أن تمثل المركب الوطيء بصفر سادس، صاروا مليونا، يمكن أن تمثل أن يكون رزقك في بلدك بصفر سابع، فإذا حذفت الواحد فكل شيء أصبح أصفاراً، تمام النعمة الهدى :

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر)

هذه مقولته، وليس قوله صحيحاً، ليس هذا إكراماً، يعد المال إكراماً إذا كنت مهتدياً، لأنك إذا كنت مهتدياً أنفقته في طاعة الله فكان زاداً لك إلى الأبد، صار المال نعمة، يمكن أن تكون الزوجة الصالحة نعمة إذا عرفت ربها، وكانت محجبة، وكانت مصلية، وكانت طائعة لزوجها، إذاً هذه نعمة، وكان هذا على يدك إذاً تسعد بها إلى الأبد، فإن لم تكن كذلك تشقى بها إلى الأبد، قد يكون الابن نعمة إذا تولى الأب تربيته، وأفلح في ذلك، أما إذا أهمله جاء يوم القيامة يقول: يا رب، لا أدخل النار حتى أُدخل أبي قبلي، فمن تمام النعمة في الدنيا أن تكون زوجته صالحة، وأولاده أبراراً، ومنزله واسعاً، ومركبه وطيئاً، ورزقه في بلده، لكنّ هذه النعم المتعلقة بالدنيا إن لم يكن معها الهدى فلا قيمة لها، إنّ الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

(سورة يوسف)

عليم باصطفاء أنبيائه، حكيم، فهذا النبي الكريم العلامات الدالة على نبوته كثيرة، وإذا سألت عنها فإليك هذه الآية :

(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة يوسف)

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا

الشيطان يشعل نار الفتنة في قلوب إخوة يوسف :

إخوة يوسف اجتمعوا، يبدو أنّ هذه الرؤيا وصلت إليهم، نقلت إليهم بشكل أو بآخر، أو أنّ حبّ أبيهم له وتعلقه به وإيثاره عليهم هو الذي جعل في نفسهم هذا الحسد والضغينة، على كل :

(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ)

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ :

نحن رجال أشداء، نحن عون لأبينا، يجب أن يلتفت إلينا، يجب أن يحبنا نحن مكان يوسف، نحن الذين نعينه، وندافع عنه، ونلبي حاجاته، فما باله يُعنى بأخينا الصغير؟ فاتهم أنّ هذا الصغير بشّره الله سبحانه وتعالى بمستقبل عظيم، وكانت علامات الوسامة والنجابة والوداعة والرقة والنعومة بادية عليه،

قال تعالى :

(اقْتُلُوا يُوسُفَ)

(سورة يوسف)

هذا ما استقر عليهم رأيهم ابتداء : اقْتُلُوا يُوسُفَ

إيّاكم وسفكَ الدم الحرام :

جاء الرأي أن يقتلوه ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا))

البخاري

(مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة المائدة)

إن قتلها لعل هذه المقتولة تكون شخصية خطيرة في المجتمع، لعل هذه النفس المقتولة تكون مصلحاً اجتماعياً، عالماً كبيراً ربانياً، فإذا قتلتها قتلت الناس جميعاً، وإذا أحييت نفساً بالهدى فكأنك أحييت الناس جميعاً، قد يهتدي الإنسان على يديك، ويهتدي بهداه مائة ألف أو يزيدون، إنّك سبب هداية كل هؤلاء، حينما هدى الله بك هذا الإنسان، لذلك لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس، خير لك من حُمَر النعم، خير لك من الدنيا وما فيها، ما بال الناس يزهدون بهذا العطاء المغري، هذا عرض مغر، خير لك من الدنيا وما فيها، خير لك مما طلعت عليه الشمس، لو أنك تملك بيوت الشام كلها، كل بيت بمليونين وسطياً، كم تملك؟ لو أنك تملك الأسواق التجارية كلها، كل متر بمائتين وخمسين ألفاً، كم تملك؟ لو أنك تملك المدن كلها، المعامل الضخمة كلها، كم تملك؟ هذه المعامل الضخمة التي يوزع إنتاجها في أنحاء العالم، لو أنك تملك بيوت الأرض، والأراضي في كل أنحاء القارة، والمدن بأسواقها ومحلاتها وحدائقها وجسورها ومتنزهاتها، لو أنك تملك المعامل كلها :

عَنْ ابْنَ سَعْدٍ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((وَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهُدَاكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

سنن أبي داوود

هذا العرض المغري لماذا يبتعد الناس عنه؟ لذلك إذا تعلمت فعلّم، إذا فهمت آية فعلّمها :

عَنْ عُثْمَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

صحيح البخاري

لا يحزن قارئ القرآن، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، العلم خير من المال، لأنّ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تُنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، << يا كُمَيل مات خُزّان المال وهم أحياء ـ في أوج حياتهم ميتون ، في أوج شبابهم ميتون ـ والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة >>، لذلك :

(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ(7)إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(8)اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا)

(سورة يوسف)

بعض الشر أهون من بعض : أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا

(أرضاً)هذه نكرة، اطرحوه أرضاً ، يعني أرضاً لا يعرفها أحد لئلا يعود إلى أبيه.

(يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)

(سورة يوسف)

يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ

تفكير غير صحيح : قصد المعصية ابتداء والتوبة انتهاء :

في هذه الآية شيء دقيق جداً، مثلاً: يستطيع أحدنا أن يقول: أنا أفعل هذه المعصية، وبعدها أتوب إلى الله عز وجل، ويقبل توبتي، وأكون من الصالحين، هذا مستحيل، لا تقبل التوبة إلا إذا ارتكب الذنب عفواً عن غير قصد، إذا ارتكب عن قصد وتصميم فهيهات أن يتوب صاحب هذا الذنب، إنّ هذا تخطيط، بعد أن نقتل أخانا يخلُ لنا وجه أبينا، وبعدها نتوب إلى الله، يقبلنا الله عز وجل، نكون من بعده قوماً صالحين، شيء مضحك، لا تقبل التوبة إلا إذا كان ارتكاب الذنب عن غير قصد وتصميم، أما إذا كان هناك تخطيط فهذا استهزاء بالله عز وجل، والتوبة مرفوضة، قال تعالى :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الأنعام)

يجب أن يكون عمل السوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح، أما أن أفعل هذه المعصية وبعدها أتوب، وتقبل توبتي، وأكن من الصالحين فلا، قال لي ذات مرة رجل: إذا فعلت هذا العمل هل هو حرام أم حلال؟ قلت له: حرام، قال: أفعله وأتوب، قلت: هيهات أن تتوب، لن تتوب، فهؤلاء إخوة يوسف قالوا :

(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)

(سورة يوسف)

تفاوت المواقف عند الناس :

القائل منهم يبدو أنّه أعقلهم، وقيل: أكبرهم، وهذا يؤكد تفاوت المواقف، أي أن الإنسان مخير، بعضهم رأى أنّ القتل أولى، بعضهم رأى أنّ شيئاً آخر هو التغييب عن الأب :

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ)

(سورة يوسف)

رأي آخر :أَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ

بئر على طريق القوافل، ضعوه في البئر بحيث لا يستطيع الصعود، ولابدّ من أن تمر قافلة، إن أدلت بدلوها يتعلق بهذا الدلو، وتأخذه على أنّه بضاعة، فتبيعه في سوق العبيد، وعندئذ لن يرجع إلى أبيه :

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ)

(سورة يوسف)

السيارة هنا القافلة التي تسير .

(إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

(سورة يوسف)

فكأنّه يقول: إن صرفتم النظر عن هذا كله فهذا أولى، أما إذا كنتم مصرين على فعلتكم فهذا العمل أفضل من أن تقتلوه .

خاتمة :

قال الله سبحانه وتعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟

" ما من مخلوق يعتصم بي من دون خَلْقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوِيّاً تحت قدميه، وقطّعت أسباب السماء بين يديه، عبدي خلقت لك ما في السماوات والأرض، ولم أعيَ بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين؟ وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأُسَلِطَنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، عبدي لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سَلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد " .

أرجو الله عز وجل ألاّ تكون قراءتنا لهذه القصة كقراءتنا لأية قصة، هذه قصة يتلوها علينا ربنا، وليست العبرة أن نعرف أحداثها، ولا أن نكشف شخصياتها، ولا أن نعرف عقدتها ولا مغزاها، الأولى أن نتخذ منها درساً بليغاً، كن مع الله تر الله معك، سيدنا يوسف غلام صغير لا حول له ولا قوة، ولا شأن، ولا يملك حيلة، ضعيف ألقي في غيابت الجب، في البرية، في الفلاة، حيث لا إنسان، جاءت سيارة أرسلوا واردهم أدلى دلوه، قال: يا بشرى هذا غلام، أسروه بضاعة، اشتراه عزيز مصر، دخل القصر، مكّن الله له في الأرض، رأى الملك رؤيا فسّرها له، رفعه الله إلى مرتبة عزيز مصر، وأين إخوته؟ يقفون على بابه من أجل أن يأخذوا نصيبهم من القمح، للقصة تفصيلات طويلة نأخذها في درس قادم إن شاء الله تعالى، والذي أظنه أنّ هناك استنباطات عديدة لم أتمكن من نقلها لكم في هذا الدرس، أرجو من الله عز وجل أن أنقلها لكم في درس قادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (03-11): تفسير الآيات 11 – 21 ، العناية الربانية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-05-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون .

وصلنا في قصة سيدنا يوسف إلى أنّ إخوة يوسف استقر قرارهم على قائلهم الثاني :

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

(سورة يوسف)

اقتراحات إخوة يوسف للتخلص من أخيهم :

الاقتراح الأول قتل هذا الغلام الصغير، والاقتراح الثاني وضعه في بئر على طريق القوافل، فإن مات كان هذا هو المراد، وإن أنقذ وأخذ إلى بلاد أخرى كان هذا هو المراد، والمراد أن يفصلوا بين الأب وابنه ليخلو لهم وجه أبيهم، وفي الحديث عَنْ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

سنن الدارمي

من فرّق بين أب وابنه، أو بين أم وابنها، أو بين أخ وأخيه فليس من أمة سيدنا محمد .

ليس في القرآن دليل على أنّ الأسباط أنبياء، أما بعض الآيات التي تذكر كلمة الأسباط عقب ذكر الأنبياء فهذا محمول على أنّ هؤلاء إنّما هم من ذرية بني إسرائيل، وليسوا إخوة يوسف على وجه التحديد .

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ

استدراج إخوة يوسف لأبيهم :

الآن بعد أن أحكموا الخطة، وكادوا لأخيهم، واتفقوا جميعاً، بل وأجمعوا، انتقلوا إلى أبيهم، يبدو من خلال السياق أنّ أباهم ما سمح لهم في الماضي أن يصحبوا يوسف، لقولهم: يا أبانا ، وكلمة(يا أبانا)فيها تحبب، (يا أيها الأب)فيها جفاء، يا أبانا فيها تحبب :

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ)

(سورة يوسف)

هذا استدراج ذكي، سيدنا يعقوب ما خطر في باله أن يأتمروا على قتله، كأن تقول لمن تدعوه على طعام: لعلك لا تحب الطعام، فيقول لك: لا، والله الطعام طيب، ولكنني اكتفيت، سيدنا يعقوب ما خطر في باله أن يقتلوه، فلما قالوا له :

(مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ)

نفى عنه هذه التهمة .

(مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ)

ثم أسرعوا وقالوا :

(وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

أخونا، نحن إخوة له، ثم تابعوا وقالوا: إن كنت تأمنّا :

(أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ)

(سورة يوسف)

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ

معنى : يَرْتَع :

ما معنى يرتع؟ رتع يعني جلس في مكان جميل وأكل وشرب، تماماً كما تفعل في النزهة تختار مكاناً جميلاً، تجلس فيه، تفتح الزاد وتأكل منه ما لذّ وطاب، هذا هو الرتع، وأساسه الأكل، ترتع البهيمة في الحقل أي تأكل، لكنّ الرتع إذا نُسِب للإنسان كان بمعنى النزهة، واللعب معروف، والنبي صلى الله عليه وسلم أجاز للرجل أن يلاعب أهله كي يستجلبهم، أجاز للرجل أن يلاعب فرسه، أجاز للرجل أن يلاعب أولاده، كان عليه الصلاة والسلام يركب الحسن والحسين على ظهره، ويقول :

((نِعم الجمل جملكما ، ونِعم الحملين أنتما))

كنز العمال عن جابر

قال تعالى :

(أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ)

(سورة يوسف)

فائدة من قوله : غَدًا

معنى غداً ، من غدا إلى عمله ، إذا ذهب إليه فيما بين طلوع الفجر وشروق الشمس، وراح بمعنى عاد إلى منزله بعد الغياب، فكلمة راح باللغة الفصحى تعني العودة، فلو طرق بابك طارق وقال لك: أأخوك هنا؟ قلت له: والله راح، وهو داخل البيت فقال لك: سلّم عليه، هل أنت صادق أم كاذب؟ كلمة راح تعني أنه عاد، وأخوك في البيت نقول له: أنت صادق لغة وكاذب شرعاً، لأن الشرع يدور على النتيجة، ماذا فهم منك؟ فهم أنه ليس في البيت، قال تعالى :

(أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة يوسف)

هذا أخونا، قال سيدنا يعقوب قال تعالى :

(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ)

(سورة يوسف)

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ

شدة حب يعقوب ليوسف :

يعني: إنه ليحزنني أن أفارقه، إنني لا أحتمل أن يبتعد عني، إني لا أطيق فراقه، إني ليحزنني أن تذهبوا به، قال تعالى :

(وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ)

(سورة يوسف)

عذرُ يعقوب لأبنائه :

يبدو أنهم طلبوا من أبيهم أن يأخذوه إلى ظاهر المدينة إلى بادية، إلى صحراء، وإنّ أخوفَ ما في الصحراء ذئابها، ثم عقب سيدنا يعقوب وقال :

(وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

(سورة يوسف)

يعني أنا لا أتهمكم أنتم، أخشى أن تتغافلوا عنه، أن تنشغلوا عنه بسواه فيأكله الذئب،

جواب أبناء يعقوب عن عذره :

كان جوابهم، قال تعالى :

(قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ)

(سورة يوسف)

نحن عشرة رجال أشداء، إن أكله الذئب وهو بين أظهرنا، وهو في حفظنا، وهو على ذمتنا، وهو في عهدتنا، نحن إذاً جبناء، نحن إذاً ضعفاء، نحن إذاً لسنا جديرين أن نرعى غنماً، قال تعالى :

(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

(سورة يوسف)

شدة حرصه عليه وشدة تطمينهم له .

قال تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ)

(سورة يوسف)

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ

أول بوادر المكر والخداع :

ذهبوا به، وقيل: إنّه ودّعهم إلى مسافة من الطريق طويلة، وفي أثناء توديعه إياهم كانوا يحملونه على أكتافهم إرضاء لأبيه، فلما فارقهم أبوهم ألقوه على الأرض، وجعلوا ينتهرونه، ويقولون له: ألم ترَ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر، اتضح أن هذه الرؤيا التي رآها سببت لهم كل هذا الضيق، وكل هذا الحسد، وكل هذه المؤامرة، قال تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ)

(سورة يوسف)

إجماعهم على إلقاء يوسف في البئر :

معنى أجمعوا يعني صمموا .قصة من واقعنا :

حدثني رجل قال لي: كنت أشتري الصوف من البادية، سولت لي نفسي أن أتلاعب بالميزان، فكنت أبلّغ صاحب الصوف رقماً أقلَّ من الرقم الحقيقي عند كل وزنة، فلما انتهيت شعر صاحب البضاعة أنّ

وزنها أقلّ مما يتوقع، فقال لي كلمات خوّفتني، ثم تابعت طريقي إلى الشام، قال لي: في أثناء الطريق أنا في صراع نفسي بين أخذٍ وردٍّ، أأعود إليه وأنقده بقية الثمن أم أسكت؟ أؤجل هذا إلى رحلة قادمة، لازلت في أخذ ورد، وسؤال وجواب، وصراع وحوار، إلى أن كنت في مكان ما في الطريق، ما الذي يحدث؟ هكذا كان، قال: والله الذي لا إله إلا هو ما هي إلا دقائق حتى رأيت نفسي ملقىً على الأرض وسط بحرة من الدم، لقد تدهورت بي السيارة .

كلمة سأجمع تعني إذا ما وقع أحد بمعصية لا يصر عليها، ليطلب من الله التوبة، ليطلب العفو والمغفرة، أما إذا أصرّ عليها فالجزاء يكون وقتئذ عاجلاً، قال تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا)

(سورة يوسف)

طبعاً هناك بعض التفاصيل، تفصيلات طويلة جداً، وحوار ،وسؤال وجواب، وتوسل من أخيهم ألا يجعلوه في غيابت الجب، ارحموا ضعفي، ارحموا والدي، كيف آكل؟ كيف أشرب؟ كيف أنام؟ أنا ضعيف؟ أنا أخوكم الصغير، لكنهم كانوا مصممين على وضعه في هذا المكان، قال تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا)

(سورة يوسف)

بشرى الله ليوسف : لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا

لابد من أن تكبر، لابد من أن تنجو من هذه الورطة، الله سبحانه وتعالى طمأنه، لابد من أن تنجو من هذا المكان، ولابد من أن تكبر، ولابد من أن تنبئهم بفعلتهم هذه وهم لا يشعرون، قد يقابلونك وهم في أَمَسِّ الحاجة إليك، ولا يعرفونك أنك يوسف، وقد تفاجئهم بفعلتهم الشنيعة، ولا يشعرون بهذا :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة يوسف)

غفلة إخوة ليوسف :

وهم لا يشعرون أن الله معه ، وهم لا يشعرون أن العاقبة لأخيهم الصغير الذي كان أقربهم إلى الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)

(سورة يوسف)

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ

البكاء سلاح من أسلحة الكذب:

أولاً: بكاؤهم كذب، فيا أيها القضاة لا تصدقوا متهماً أنه بريء إذا بدأ يبكي، فالبكاء قد يكون سلاحاً من أسلحة الكذب .

(وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)

وضعوه في الجب، وكانوا قد أرادوا قتله، ومع ذلك جاءوا يبكون، هذا أول استنباط .

مجيئهم ليلا دليلُ كذبهم :

الاستنباط الثاني: جاءوا عشاءً، ليلاً، والليل أستر لحالهم، أستر لملامح وجوههم، أستر لفعلتهم الشنيعة، قال تعالى :

(وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ(16)قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

(سورة يوسف)

الحُجة الواهية : فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ

قالوا: هذا دم يوسف، قال تعالى :

(وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

(سورة يوسف)

يكاد المذنب أن يقول: خذوني، والكاذب يختل توازنه، عرفوا أنهم كاذبون، لذلك أشعروا أباهم بأنهم كاذبون حينما قالوا :

(وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا)

(سورة يوسف)

لن تصدقنا، معناها أنتم كاذبون، قال تعالى :

(وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

(سورة يوسف)

هذا دليلٌ عليهم : وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

إن كنا صادقين كنت لا تصدقنا، فكيف لو كنا كاذبين حقيقة، قال تعالى :

(وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ)

(سورة يوسف)

قالوا: خلعوا عنه قميصه الموشى، وذبحوا شاة، ووضعوا بعضاً من دمها على هذا القميص، أمسكه سيدنا يعقوب، وقال: أيّ ذئب هذا؟ ما أحكم هذا الذئب! ألم يخدش هذا القميص؟ ألم يمزقه؟ أكل ابني، وترك القميص كما هو، أي ذئب هذا؟ هنا يستدل أنّ الطريق الوحيد لاكتشاف الحقائق العلامات، علامة كذبهم وعلامة افترائهم أن هذا القميص لم يُمسَّ بأذى، كان سليماً، وأن هذا الدم دمٌ مزور، من هنا يستنبط قضاة التحقيق بعض الحقائق من خلال أدلة قد تبدو في نظر الناس تافهة، إنّ هذا الدليل التافه عند قاضي التحقيق دليل مرَجح وكبير . أمّا :

(إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ)

التسابق المشروع :

فقال العلماء: التسابق مشروع، لأنه فيه تدريب للإنسان، وتدريب للدواب أيضاً، فإذا أردت أن تعدّ الخيل للمعركة يجب أن تضمرها، أي تدربها على الجري، والنبي عليه الصلاة والسلام استبق مع السيدة عائشة رضي الله عنها، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

((خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلْ اللَّحْمَ، وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا ،فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ : هَذِهِ بِتِلْكَ))

يستنبط من هذه القصة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل بيته بسّاماً ضحّاكاً، كان يقول :

((أَكْرِمُوا النِّسَاءَ فَإِنَّهُنَّ المُؤْنِسَاتِ الغَالِيَاتِ))

ورد في الأثر

كان يقول :

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))

الترمذي عن ابن عباس

وكان إذا دخل بيته كان يكنس أرضه، ويرفو ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويضع الإناء للهرة، وربما ماءت الهرة ففتح لها الباب وهو يصلي،

قال تعالى :

(قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ)

(سورة يوسف)

لكنّ الاستباق على رهن محرم شرعاً، هذا السباق سباق الخيل، إعطاء الخيل أرقامًا، والمراهنة على هذه الخيل، وتوزيع جوائز ضخمة، هذه من نوع القمار واليانصيب تماماً، وهذا محرم، السبق البريء من دون رهان هذا الذي أحلّه الشرع، قال تعالى :

(وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا)

(سورة يوسف)

استنباط وفراسة : قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا

استنبط أنّ هذه قصة ملفقة، وأنّ هذا القميص قد خلع منه خلعاً، وأنّ هذا الدم مزور، وأنّ هناك مؤامرة حاكها إخوته، وأنّ الذي أحس به من قبل قد تحقق، فاتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله، وينطق بتوفيق الله، شَعَرَ أبوه من دون تفصيلات أن إخوته لا يريدون به خيراً، وكأن قلبه أحس بهذا .

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

ما هو الصبر الجميل؟

ما هو الصبر الجميل؟ الصبر الجميل هو الذي لا ترافقه شكوى إلى الخلق ، ويعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم، الصبر الجميل ألا تشكو إلى أحد شكوتك، إن شكوت إلى كافر فكأنما اشتكيت على الله، وإن شكوت إلى مؤمن فكأنما شكوت إلى الله، وشتان بين من يشتكي على الله ومن يشتكي إلى الله، والصبر الجميل لا شكوى لا إلى مؤمن ولا إلى كافر .

(إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)

لأنك إذا شكوت مصيبتك لمؤمن حزن لحزنك، وهو عبد فقير لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وإذا شكوت همك إلى كافر شمت بك، لذلك من الدعاء الشريف : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ))

صحيح البخاري

والشكوى لغير الله مذلة .

قالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ : << سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ يَقْرَأُ : (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)>> .

صحيح البخاري

وكلما ارتفع مستوى الإيمان تجد أنّ المؤمن يستحيي أن يشكو مصيبته لغير الله، ليكن هذا النبي الكريم أسوة لنا في المصائب :

قالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ : << سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ يَقْرَأُ : (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)>> .

صحيح البخاري

هناك أناس إذا ألمت بهم ملمة ملؤوا الدنيا صياحاً وصخباً، ما من أحد يلتقون به إلا ويبثونه شكواهم، يشكون الزمان، يشكون قلة الدخل، من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه .

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)

إذا أحبّ الله عبدا ابتلاه :

إذا أحبّ الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن شكر اقتناه، وإذا لم يحبه تركه هملاً، أنت إذا سمعت من طفل في الطريق كلمة نابية لا تقول شيئاً، بل تقول: مالي وله، أما إذا نظرت إلى القائل فإذا هو ابنك، ماذا تفعل؟ تؤدبه تأديباً شديداً، تقيم قيامته، لماذا فعلت به ما فعلت؟ من شدة حبك له وحرصك عليه، فلذلك الذي يحبه الله سبحانه وتعالى يعالجه، إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له بالعقاب، إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه، إذا أراد الله بعبد خيراً سيّر حوائج الناس إليه، إذا أراد الله بعبد خيراً عاتبه في منامه، فهذا الذي يتابعه الله سبحانه وتعالى على كل ذنب، يتابعه على كل تقصير، يتابعه على كل خروج عن طريق الحق، ليفرح لأن الله يحبه، عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ))

مسند الإمام أحمد

هذا الذي تعالجه سيقدم لك أجزل آيات الشكر، فإذا أصابت أحدنا مصيبة ـ لا سمح الله ـ وما زاد عن أن قال: الحمد لله فقد نجح، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، إِذَا قَالَ حِينَ

يُمْسِي فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلَهُ))

صحيح البخاري

هذه سجلت لك، لقد ابتلاك الله فنجحت في الامتحان .

قد تجد إنساناً تأتيه مصيبة تافهة جداً فيسبّ كل شيء، يسب الذات الإلهية لمصيبة تافهة، واللهِ رأيت رجلاً خُدشت سيارته خدشاً سبّ الإله سباباً وسب الأنبياء، فقلت: سبحان الله! لخدش طفيف لا يكلف ليرات، لكن يعقوب فقد ابنه، وائتمر إخوته عليه، فقال:

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)

(سورة يوسف)

الحِلم سيد الأخلاق :

كاد الحليم أن يكون نبياً، والحلم سيد الأخلاق، والحلم له سبب، ترى أن هذا الفعل من الله، وأنّ هذه المصيبة ساقها الله إليك، وهي محض فضل ورعاية واستحقاق، قال تعالى :

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران)

ما من عثرة، ولا اختلاج عِرق، ولا خدش عود، إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفُو الله أكثر .

ليكن هذا النبي الكريم أسوة لنا في المصائب، والمصائب مِحَكُ الرجال، قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

قال تعالى :

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ)

(سورة يوسف)

هذه القصة قصة الذئب غير صحيحة وملفقة، أنتم أردتم له الشر، قال تعالى :

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(18)وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ)

(سورة يوسف)

العناية الربّانية :

تصور أن طريق القوافل طريق في الصحراء، قد تمر به قافلة أو لا تمر، وطفل في ريعان الشباب، في عمر الأزهار ألقي في بئر ما لها من قرار، كيف ألقي؟ ألقي بحبل فالصعود مستحيل، وهناك قرائن أنه ألقي في البئر وقد خُلع قميصه، في البئر الحيّات، والعقارب، والوَحشة، وضيق التنفس، والظُلمة، لا معين، ولا مغيث، ولا دليل، ولا قريب، لا صديق، ولا أب، هذه مصيبة، ولكنّ الله سبحانه قال للنبي عليه الصلاة والسلام :

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : الآية 48)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟

وإذا العناية لاحظتك عيونها   نم فالمخاوف كلهن أمان

***

سيدنا موسى قال تعالى :

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص)

مستحيل، طفل صغير رضيع، يوضع في صندوق ويلقى في اليم! هذه مجازفة ومغامرة، قال تعالى :

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص)

أمران ونهيان وبشارتان، إذا خفت عليه فألقيه في اليم .

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص)

سيدنا إبراهيم ألقي في النار، قال تعالى :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

قال المفسرون: لو أنّ الله قال: برداً، لمات من شدة البرد، ولكنه قال: برداً وسلاماً، الإله هوَ هو، موجود في كل زمان، هاتِ إيماناً كهذا الإيمان، وخذ رعاية وحفظاً كهذه الرعاية .

سيدنا يونس دخل بطن الحوت، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر الموحش، وفي ظلمة الليل، هات مصيبة أشد من هذه المصيبة، لم يبق أمل هنا، وبعض المصائب فيها أمل، كمن احترق محله، لا يزال هناك أمل بأن يشتري غيره، ويعيد تأسيسه، توفيت زوجته فيتزوج غيرها، مات ابنه يستطيع إنجاب غيره، معه مرض السكري يتعايش معه، صار معه مرض فبترت يده لا يزال هناك واحدة أخرى، ويُرَكّب يدا أخرى اصطناعية، لكن دخل بطن الحوت في ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، هنا البطولة، قال تعالى :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

هذه الآية لنا جميعاً، الفقرة الأخيرة قلبت القصة قانوناً، قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

لا تخلو حياتنا من مشكلات، من أزمات وشبح مصيبة، من مرض لم يكن متوقعاً، قل: يا ربِ إنّي كنت من الظالمين، تبت إليك .

فلنعد إلى قصتنا، قال تعالى :

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً)

(سورة يوسف)

من هو الوارد؟

واردهم هو الرجل المكلف بجلب الماء لهم، من ورود الماء أي ذهب إليه، قال تعالى :

(فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ)

(سورة يوسف)

ألا يجب أن يقول الله عز وجل: فلما رفع الدلو، هذا شيء بديهي، العرب تقول: كل كلام تفهمه إذا لم يذكر يجب ألا يذكر، فالبلاغة في الإيجاز، ولولا الحذف والتقدير لفهم كلام العرب الحمير، هكذا قالوا، هناك حذف دقيق، قال تعالى :

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ)

(سورة يوسف)

الحرٌّ لا يباع بأيّ ثمن :

يا بشراي، كان يريد شيئاً من الماء، فإذا في الدلو غلام، قال تعالى :

(فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً)

(سورة يوسف)

هذه بضاعة غير نظامية لأنّ الحر لا يباع، وأكل ثمن الحر حرام، وهم يعرفون ذلك فأخفوه كبضاعة، وطمعوا أن يبيعوه في سوق العبيد، ويأكلوا ثمنه، قال تعالى :

(قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

(سورة يوسف)

هو الذي ساق السيارة، الله الذي ساقها في الوقت المناسب، قال تعالى:

(ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)

(سورة طه)

قال تعالى :

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ)

(سورة يوسف)

لماذا بخس؟ لأنهم أخفوه كبضاعة، لا ينبغي أن يباع، هذا لقيط، واللقيط حر، وحينما باعوه فقد خالفوا النظام العام، لذلك أرادوا أن يتخلصوا منه بأبخس الأثمان، إذا كان معك بضاعة غير نظامية تبيعها سريعاً لتنجو من مسؤوليتها، وهذا الذي حصل، قال تعالى :

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ)

(سورة يوسف)

الدراهم كانت تعدّ إذا كانت قليلة، وتوزن إذا كانت كثيرة، مادامت الدراهم معدودة إذاً هي قليلة، وشروه بثمن بخس .

معنى : شَرَوْهُ

معنى شروه باعوه، شرى بمعنى باع، واشترى في الوقت نفسه، قال تعالى :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : من الآية 207)

يعني من يبيع نفسه، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ)

(سورة التوبة : من الآية 111)

تقديم بذل المال على النفس :

والغريب أن في القرآن الكريم ثماني آيات على وجه الحصر قُرِنَ فيها بذل المال مع بذل النفس، وَقُدِّم بذل المال على بذل النفس :

(وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

(سورة التوبة : من الآية 20)

والعلماء قالوا: قُدِّم بذل المال على بذل النفس لأنّ بذل المال أهون من بذل النفس، إلا في آية واحدة قُدِّم فيه بذل النفس على بذل المال، هذا في عقد البيع يُذكر الأهم على المهم، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 111)

قال تعالى :

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ)

(سورة يوسف)

ما علموا حقيقة يوسف ، لذلك :

كَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِين ما عرفوا أنّ هذا الطفل الصغير الذي باعوه بثمن بخس سيغدو نبياً عظيماً وحاكماً كبيراً لمصر، ما عرفوا ذلك، لذلك الصغار لا يقلل أحد من شأنهم، فهذا الذي أمامك قد يكون مصلحاً اجتماعياً، قد يكون عالماً كبيراً، قد يكون فيلسوفاً، قد يكون داعياً إلى الله عز وجل، قال تعالى :

(وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ(20)وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ)

(سورة يوسف)

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ

من فصولالعناية الربانية بيوسف :

هذا الذي اشتراه إلى اللآن لا ندري من هو، هذه هي العقدة، لا نعلم من هو، قال تعالى :

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ)

(سورة يوسف)

أكرميه شيء ، وأكرمي مثواه شيءٌ آخر، المثوى مكان الثوي وهو الإقامة، إذا كان مكان الثوي مكرماً فكيف بصاحب المقام؟ هذه مبالغة في الإكرام، لم يقل: أكرميه، بل أكرمي مثواه، قال تعالى :

(أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)

(سورة يوسف)

عزيز مصر يتبنى يوسف :

هذا الإكرام مشوب بالمنفعة، وقد يكرم الإنسان أحياناً ليس ابتغاء الإكرام بذاته، ولكن ابتغاء منفعة ما، هذا الإكرام مَشُوب لا قيمة له، لا تغتر بمن يكرمك لمنزلة أو سلطان، فإنها أوشك أمور الدنيا زوالاً، ابحث عن من يكرمك لذاتك لا لما عندك :

رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب

***

قال تعالى :

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)

(سورة يوسف)

استنبط العلماء أن عزيز مصر الذي اشتراه لم ينجب أولاداً، فأراد أن يجعله ابناً له بالتبني، انتهت أول مرحلة من القصة .

قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة يوسف)

من بئر إلى قصر !!!

انتقل من البئر إلى القصر، ومن جفوة الإخوة إلى إكرام السيد .

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ)

هذه بمعنى إذا كان الله معك فمن عليك؟ هذه :

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

هذه :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من الآية 38)

أنت تريد، وأنا أريد، والله يفعل ما يريد، قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

قال تعالى :

(وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ)

(سورة الأنبياء)

وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

أرادوا أن يقتلوه فما استطاعوا، أرادوا أن يجعلوه في غيابت الجب فجعله الله في قصر العزيز، نجّاه منهم ومن كيدهم، ومكّن له في الأرض، وهذا هو بعض من مغزى القصة، قال تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

هذا من مغزى القصة فانتبهوا فإن الأمور اشتباه :

أحياناً أخوان، الأخ الأكبر يأكل كل الميراث، ولا يبقى لأخيه الأصغر شيئاً، الله سبحانه وتعالى يزيد الصغير نجابة وتوفيقاً وغنىً، ويفقر الكبير إلى أن يقف الكبير بباب الصغير، قال تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

تزوجت امرأة رجلاً فطرق الباب طارقٌ قال: من مال الله، فهمّت أن تعطيه شيئاً من الطعام، وكانا يأكلان دجاجة، فنهرها زوجها وعنّفها، وقال: اطرديه، فطردته، ودارت الأيام، ونشب الخلاف بينهما، وكذلك الشقاق، إلى أن طلقها، وخطبها إنسان ذو مكانة وشأن وغنىً فتزوجته، وبينما هي مع زوجها الجديد طرق الباب طارق، فذهبت لتفتح الباب فاضطربت، قال لها زوجها: من الطارق، قالت: سائل، قال: لماذا اضطربت؟ قالت: لاشيء، قال: قولي، قالت: أتدري من الطارق؟ قال: من؟ قالت: زوجي الأول، زوجي الذي طلقني ظلماً، فقال: أوَ تعلمين من أنا؟ أنا السائل الأول، قال تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

شريكان اتفقا على تجارة في بلد مجاور، ودفع كلٌ منهما مبالغ طائلة لإنشاء معمل، أحدهما نوى نية سيئة لشريكه، الأول معه مال وفير، معه حرفة، فلما تمكن الأول من دخائل هذه الصنعة وخصائصها

وخباياها بدأ يزعج شريكه حتى يخرجه من هذه الشركة، فلما علم شريكه بهذا الأمر قال له: أعطني مالي، أعطاه ماله مع أرباحه كلها عداً ونقداً، وكان هذا في لبنان، أخذ هذا ماله جميعه، وعاد به إلى بلده الشام، وما هي إلا أيام حتى نشبت الحرب الأهلية هناك فاحترق المعمل، وسُرق المال، قال تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

كن عبد الله المظلوم، ولاتكن عبد الله الظالم، لأنّ الله بالمرصاد، هذه بين شريكين، بين أخوين، بين جارين، بين صديقين، بين زوجين، أحياناً يطلقها ظلماً فيرزقها الله عز وجل زوجاً صالحاً خيراً منه، ويرزقه زوجة لا يرى في الدنيا بلاءً أشد منها، تريه النجوم ظهراً، هذه الزوجة تأخذ حق الأولى التي ظلمها، هكذا هو ربنا عز وجل .

هذه القصة ليست للتسلية، وليست لرواية الأحداث، وقعت وانتهت ما لنا ولها، ولكنّ هذه القصة من أجل أن تستنبط منها موعظة وعبرة، الله سبحانه وتعالى مع المظلوم دائماً، فإذا كنت مظلوماً فالله معك، وهو على الظالم، قال تعالى :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة)

فالله على الظالم ومع المظلوم، قال تعالى :

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

لا تكن مع الأكثرية :

لذلك يجب على الواحد منّا أن لا يكون مع الأكثرية التي لا تعلم، لو أخذت الآن ثلاثة آلاف مليون في الأرض الأكثرية لا تعلم، الأكثرية مع الدنيا ، تبحث عن المال وعن المجد في الدنيا، وعن المتعة الرخيصة، قال تعالى :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

أنت مع من؟ مع الأكثرية أم مع الأقلية؟ كن مع الأقلية العالمة، ولاتكن مع الأكثرية الجاهلة، كن مع الأقلية المستقيمة، ولاتكن مع الأكثرية المنحرفة، كن مع الأقلية المنصفة، ولاتكن مع الأكثرية الظالمة، كن مع الأقلية، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَطَلَعَتْ الشَّمْسُ فَقَالَ :

((يَأْتِي اللَّهَ قَوْمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورُهُمْ كَنُورِ الشَّمْسِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَحْنُ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّهُمْ الْفُقَرَاءُ وَالْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَقَالَ: طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، فَقِيلَ: مَنْ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَاسٌ صَالِحُونَ فِي نَاسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ))

أحمد

السيئون كثيرون، ومن علامات قيام الساعة تفيض الدنيا لؤماً، يكون المطر قيظاً، والولد غيظاً، ويفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً، كن مع الكرام القلة، ولاتكن مع اللئام الكثرة .

هذا هو المشهد الثاني من هذه القصة العظيمة، قصة هذا النبي الكريم حينما ألقوه في غيابت الجب، ثم كيف صار في قصر العزيز معززاً مكرماً، هذا ابتلاء، وربما كان الابتلاء الذي بعده أشد من هذا، من هذا الابتلاء قد يموت جوعاً فيدخل الجنة، قد يموت عطشاً فيدخل الجنة، قد يأكله ذئب حقيقي، قد تلدغه حية في الجب، هذا الابتلاء أهون من الابتلاء الذي سوف يليه .

ابتلاء آخر :وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا

قال تعالى :

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا)

(سورة يوسف)

لو أنّه فعل لدخل النار، لذلك قال الله تعالى :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة : من الآية 191)

لو أنه مات لمات شهيداً، ولكنه حينما يفتن يموت شقياً .

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذا الموضوع .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (04-11): تفسير الآيات 22 – 29 ، الموازنة بين العفيف وسقط المتاع

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-06-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير :

أيها الإخوة المؤمنون، تحدثنا في درس سابق عن المحنة الأولى والابتلاء الأول والامتحان الأول الذي مرّ به هذا النبي الكريم يوسف عليه السلام، ومهدت في الدرس الماضي إلى أنه بعد أن نقله الله عز وجل من البئر إلى القصر، ومن الوحشة إلى الأنس، كان قد تحقق بعض ما في رؤياه، والآن إلى ابتلاء آخر وامتحان آخر .

يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

هذه الآية تم شرحها في الدرس الماضي، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

أقوال العلماء في سن الأشُدّ :

وقف العلماء في حيرة من تحديد سن هذا الوصف : فقال بعضهم: في الثلاثين.

وقال بعضهم : في الخامسة والعشرين .

وقال بعضهم: في الثالثة والثلاثين .

وقال بعضهم: إذا كان خط الإنسان البياني في صعود فقبل أن يهبط هو أشُدّ الإنسان، يعني في أوج فتوته وأوج شبابه وأوج صحته .

وقال بعضهم: حينما ينبت شعر ذقنه .

وقال بعضهم: حينما يحتلم .

وقال بعضهم: حينما يبلغ سن الرشد .

هناك أقوال كثيرة، ولكنّ المضمون واحد، حينما بلغ هذا النبي الكريم سن الرشد، وأوج شبابه وقوته وفتوته عندئذ جاء الابتلاء .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

العمر الزمني والعقلي والانفعالي والاجتماعي :

هناك شيء، آخر بالمناسبة، فإنّ علماء النفس يفرقون بين أعمار الإنسان، هناك عُمرٌ زمني، افتح بطاقتك الشخصية، واطرح سنة الولادة من السنة الحالية تحصل على رقم هو عمرك الزمني، وقال معظم العلماء: إنّه أتفه أعمار الإنسان لماذا؟ هناك عُمر عقلي، قد ترى إنساناً ناضجاً، تصرفاته حكيمة، فهذا العمر العقلي أخطر من عمر الإنسان الزمني، وهناك عمر انفعالي، انفعالاته منضبطة، متوازن، لا ينهار بسرعة، هذا عمر انفعالي، وهناك عمر اجتماعي، علاقاته الاجتماعية جيدة جداً، الناس جميعاً يحبونه، هذا عمر اجتماعي، وهناك عمر تحصيلي، أي تناسب عمره الزمني مع صفه الدراسي، وكما قلت قبل قليل: العمر الزمني أتفه هذه الأعمار كلها، لأنّ العالِمَ شيخٌ ولو كان حدثاً، والجاهل حَدَثٌ صغير ولو كان شيخاً، على كل في هذه الآية إشارة إلى أنّ هناك فرقاً بين بلوغ الأشد وبين النبل العقلي، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

بلغ أشده تنصرف إلى القوة العضلية، إلى فتوته، إلى شبابه، أما استوى إلى نضجه الانفعالي، ونضجه العقلي، ونضجه الاجتماعي، وما إلى ذلك، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

ما هو الحكم ؟

1 ـ التمكين في الأرض :

أما كلمة الحُكم فتعني أشياء كثيرة، إنها تعني من جملة ما تعنيه أن الله سبحانه وتعالى مكنه في

الأرض، جعله الوزير الأول عند الملك، جعله حاكم مصر، هذا المعنى الأول، ولكنه لن يصل إلى هذا المنصب إلا بعد أن كان عالماً .

أي آتيناه علماً في طريقة الحُكم، أتيناه علما، كيف يحكم، الحكم علم، والدولة تمثل رأس الأمة المُفكر، هذا المعنى الأول، المعنى الأوسع، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

2 ـ العقل :

الحكم هو العقل، لو ألقيت محاضرة على طاولة هل تفهم شيئاً، الإنسان إذا ألقيت عليه محاضرة يفهم، لأنّ الله سبحانه وتعالى زوده بإمكانية التعلم، هنا الحكم إمكانية التعلم، ما قيمة العلم بلا هذه الإمكانية؟ الله سبحانه وتعالى وصف الفكر البشري بأنه الميزان، فقال تعالى :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

ما قيمة الكون وعظمته من دون ميزان تعرف عظمة الخالق من خلاله؟ ما قيمة الميزان من دون كون؟ الكون والعقل متكاملان، بالعقل تعرف عظمة الخالق من خلال خلقه، وبالكون يتبدى للعقل عظمة الخالق، لابد من صنعةٍ مُعجزة، ولابد من جهاز يدرك هذا الإعجاز .

إذاً :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

3 ـ الرؤية الصحيحة :

معنى آتيناه حكماً أي الفهم، أي قابلية الفهم، قابلية التعلم، قابلية الكسب، أي آتيناه عقلاً وفكراً، هذا المعنى الثاني، المعنى الثالث الحُكم هو الرؤية الصحيحة، الإنسان أحياناً يدمر ذاته من رؤية مغلوطة، قال تعالى :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج)

إذا امتلك الإنسان رؤية صحيحة فقد امتلك كل شيء، أحياناً يرى الإنسان أن المغنم في كسب المال الحرام، هذا أعمى القلب، والمؤمن يرى أنّ الغنيمة في كسب المال الحلال، أحياناً يرى الإنسان أنّ الغنيمة في العدوان على أعراض الناس، و يرى المؤمن أن الغنيمة في قناعته بما آتاه الله، إذاً الفرق

بين السعيد والشقي، الفرق الجوهري بين أن تكون في الأوج وأن تكون في الحضيض، هذه الرؤية الصحيحة .

فمن معاني الحُكم أنّ الحُكْمَ إصابة الحُكْمِ، الحُكم على الأشياء، قد تحكم على إنسان كسب مالاً حراماً بأنه ذكي هذا هو العمى بعينه، وقد تحكم على إنسان كسب مالاً حراماً بأنه غبي هذا هو الحكم الصحيح، فالحكم أن تصيب الحكم الصحيح على الأشياء، أي أن تكون تقديراتك صحيحة، أن تأتي مطابقة للواقع، هذا هو المعنى الثالث، الحكم من القدرة على إصابة الحكم الموضوعي .

4 ـ الحكمة:

والمعنى الرابع: الحكم هو الحكمة، وهو أن تكون متعلماً علماً ومطبقه في الوقت نفسه، فالعالِم الذي يعمل بعلمه هو الحكيم، أما إذا تعلم المرء علماً ولم يطبِّقه في حياته فليس بحكيم، العلم حجة عليه، لا يكون العلم حجة له إلا إذا طبّقه .

والمعنى الأخير للحكم: من الحكمة، أي أن تضع كل شيء في موضعه، أن تكون قاسياً في موطن القسوة، وأن تكون متسامحاً في موطن التسامح، أن تكون رحيماً في موطن الرحمة، أن تكون متشدداً في موطن الشدة، أن تكون كريماً في موطن الكرم، أن تكون حريصاً في موطن الحرص، الأحمق حيث يجب أن يكون كريماً وبخيلاً، وحيث يجب أن يبخل يتكارم، حيث يجب أن يعفو ينتقم، وحيث يجب أن ينتقم يعفو، فالحكمة أن تضع كل شيء في موضعه الصحيح، أن تكون لك مواقف حكيمة .

نعيد على أسماعكم المعاني العدة المستنبطة من كلمة الحكم :

الحكم أولاً: أن تكون حاكماً، ولما بلغ أشده واستوى جعلناه عزيز مصر، والحاكم يحتاج إلى علم، لأن الحاكم عقل الأمة، دماغها المفكر، أي علمناه كيف يحكم أو جعلناه حاكماً لأنه كان عالماً، هذا هو المعنى الأول .

والمعنى الثاني: الحكم بمعنى أن تكون عالماً عاملاً مطبّقاً، كل الناس هلكى إلا العالمين، والعالمون هلكى إلا العاملين، والعاملون هلكى إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم .

والمعنى الثالث: الحكم هو إمكانية الفهم، هذا الذي آتاه الله قدرة فائقة على الفهم السريع والإدراك الخاطف والإدراك العميق والإدراك الدقيق والإدراك الصحيح، هذه نعمة كبرى ينعم الله بها على بعض عباده .

شيء آخر، الحكمة أن تضع كل شيء في موضعه، تعرف متى تبتسم، متى تُقطِّب، متى تسمح، متى تحاسب، متى تعفو، متى تصفح، متى يجب أن تكون قوياً، متى يجب أن تكون ضعيفاً أو أن تبدو

ضعيفاً، متى يجب أن تُظهر أنك غبي .

ليس الغبي سيداً في قومه   لكنّ سيد قومه المتغابي

***

من الذكاء البارع أن تبدو في بعض المواقف الحرجة أنك غبي، من الذكاء اللامع أن تبدو وكأنك مسكين في بعض الحالات، فحينما تضع لكل شيء موضعه، حينما تسلك السبيل الصحيح فأنت حكيم، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

العلم :

والعلم واسع جداً، إنّ الله عالِمٌ يحب كل عالم، العلم بالله وعلامته خشيته، والعلم بالله من أرقى العلوم، والعلم يشرف بشرف موضوعه، فأي علم تعلمته؟ فلان تعلّم الفيزياء، الموضوع القدرة والطاقة والمادة وتحولاتهما، متعلم علم كيمياء، هناك صفات كيميائية تطرأ على العنصر تعلُّمِها وتعلُّم قوانينها، هناك عالِم بالطب، هناك عالِم بالفلك، هناك عالِمٌ بالرياضيات، هناك عالِمٌ بالشرع، وهناك عالِم بالله، فإذا كان العلم يشرف بشرف موضوعه فأرقى العلوم جميعاً أن تكون عارفاً بالله سبحانه وتعالى، هذا هو أرقى العلوم قاطبة، ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً، علماً بنا، علماً بشرعنا، وعلماً بتفسير الرؤى، وعلماً بأمور الدنيا، قال تعالى :

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

فكأن كلمة علم هنا شملت العلم بالله، والعلم بأمر الله، والعلم بمخلوقات الله، أو العلم بالحياة، قال تعالى:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

لو أن الله سبحانه وتعالى أنهى الآية عند هذه الكلمة، إذاً ليس هذا الكلام كلام الله، لماذا؟ لماذا آتيته علماً وحكماً يا رب؟ لكن ربنا عز وجل قال :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

عطاء الله يجري بأسباب وقوانين :

بيّن الله سبحانه وتعالى أن عطاءه وفق أسس ثابتة، أنّ عطاءه يجري مجرى القانون، عطاء الله سبحانه وتعالى ليس جزافاً، ملك الملوك إذا وهب بعضهم يقول: لا تسألنّ عن السبب، ليس هناك قاعدة، هذا كلام مغلوط ، عدّلت هذا البيت تعديلاً طفيفاً :

ملك الملوك إذا وهب قم فاسألنّ عن السبب

الله يـعطي من يشاء فقف على حدِّ الأدب

عطاء الله سبحانه وتعالى وفق أسس ثابتة، كيف تمنح الدولة منحاً للموظفين؟ أسس، من كان راتبه كذا وكذا، يأخذ على المائة الأولى كذا، والمائة الثانية كذا، والمائة الثالثة كذا، وعلى كل ولد كذا، هذا عطاء إنسان .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

العطاء سببه، إنّ هذا العطاء لم يكن جزافاً، إنما كان وفق أسس عادلة صحيحة، هذا المعنى الأول .

قصة يوسف قانون :

والمعنى الثاني: وكذلك نجزي المحسنين ، قلبَ هذه القصة إلى قانون ثابت ، والعلماء يقولون : إنّ كلمة وكذلك نجزي المحسنين تصنف في كتاب الله تحت عنوان كلمات الله ، يعني نواميسه في خلقه ، الأسس الكبرى التي يعامل بها عباده.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

أنت أيها الإنسان، يا فلان الفلاني، يا من تعيش في عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين، يا من تعيش في هذا العام، إن الذي انطبق على سيدنا يوسف ينطبق عليك، كن محسناً، وانظر كيف يعاملك الله سبحانه وتعالى، لا أجد آيات في كتاب الله أشفى للغليل من هذه الآية، قال تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية)

هذا من خامس المستحيلات، قال تعالى :

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

(سورة الجاثية)

بيت هذا كبيت هذا، لا والله، زوجة هذا كزوجة هذا، لا والله، دخل هذا كدخل هذا، لا والله، أولاد هذا كأولاد هذا، مكانة هذا كمكانة هذا، قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

(سورة ص)

فلذلك هذه بشرى للمؤمنين، كما أن هذا النبي الكريم بلغ ما بلغ بإحسانه، وصل إلى ما وصل إليه باستقامته، رفعه الله مكاناً علياً لعفته، الباب مفتوح، والطريق سالك، والإله موجود، والله هو هوَ، ومعاملته هي هيَ، وقوانينه هي هيَ، لا تتبدل ولا تتغير ،ولا تعدّل ولا تجمد، ولا توقف، ولا يضاف عليها، ولا يحذف منها، أبشروا، كن له كما يريد يكن لك كما تريد، سلّم له فيما يريد يجعل حياتك كما تريد، لذلك قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

هكذا نجزيهم على مر الأيام، على مر العصور، في كل الأصقاع، في كل الأقاليم، في كل البلاد، في البلاد المتقدمة و البلاد المتخلفة، وفي شرق الأرض وفي غربها، في شمالها وفي جنوبها، على البر وفي البحر وفي الجو، قد تحترق طائرة، ولا ينجو منها إلا واحد، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف : الآية 22)

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : الآية 48)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : الآية 38)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَانُ وُدًّا)

(سورة مريم)

هكذا هذه الآية، يجب أن تكون في قلوبكم جميعاً، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

ما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب، إذا استرذله، رآه رذيلاً، تافهاً، سخيفاً، شهوانياً، أنانياً، مستعلياً، دنيء النفس، شهواني السلوك، ماذا يفعل معه؟ يبقيه غنياً، يبقيه قوياً، يعطيه الدنيا كما يشتهي، يفتح له أبواب الدنيا كلها، قال تعالى :

(فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : الآية 44)

ولكنه يحظر عليه شيئين فقط العلم والأدب، ما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب، فإذا أحبه آتاه حكماً وعلماً، إنّ الله أعطى فرعون المُلك وهو لا يحبه، وأعطى قارون المال وهو لا يحبه، وأعطى الأنبياء العلم والحكمة وهو يحبهم، فانظر أيها المؤمن عطاؤك من أي نوع علم وحكمة؟ علم وأدب؟ أم مال وجاه ؟

أحد العلماء قال: من أحسن عبادة الله في شبيبته، أي الشباب، آتاه الله الحكمة في اكتهاله، إذا صار كهلاً تجده وقوراً، حليماً، حكيماً .

الآن دخلنا إلى عقدة القصة، قال تعالى :

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة يوسف)

امتحان آخر : وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ

المراودة :

راودته امرأة العزيز، وبعض العلماء يقولون: إنّ هناك نظرات وإغراءات وأخذاً وردّاً من امرأة العزيز، ولكنّ الله سبحانه وتعالى اكتفى بالموقف الأخير لأنه أشد المواقف جرأة وأشدها وقاحة، وأشدها حتماً

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة يوسف)

ومعنى راودته: بمعنى دعته دعوة رقيقة هادئة، دعته إلى نفسها، وراودته التي هي في بيتها عن نفسه، دعته إلى أن يكون كزوجها، قال تعالى :

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ)

(سورة يوسف)

إحكام غلق أبواب القصر :

لمَ لمْ يقل الله سبحانه وتعالى: غَلَقت، بل غَلّقت، لأن فيه مبالغة، قال العلماء: وزن فعّل يفيد التكثير، إما تكثير الأبواب أو المبالغة، فإذا كان لهذا المسجد سبعة أبواب، أو خمسة أبواب نقول للقيِّم عليه: أغلّقت

الأبواب، لا نقول له: غَلَقت الأبواب، لأن الأبواب كثيرة، أغلقتها، وإذا كان باب الصندوق الحديدي وفيه ثروة طائلة نقول له: أغلَقته، يعني أقفلته، فإما وزن فعّل في الإغلاق يعني المبالغة الإرتاج، وإما يعني كثرة الأبواب .

يروى أنّ رجلاً راود امرأة عن نفسها، وغلّق الأبواب كلها، فقالت له كلمة جعلته يقع مغشياً عليه، قالت: انظر، هناك باب واحد لا تستطيع أن تغلقه، لو غلقت كل الأبواب فهناك باب واحد لا تستطيع أن تغلقه؛ إنّه باب السماء، عندئذ وقع مغشياً عليه، وأدركته الخشية، وترقّع عن هذا العمل .

امرأة العزيز غلّقت الأبواب، وراودته التي هي في بيتها عن نفسها، ودَعته إلى المعصية الكبيرة، دعته إلى خيانة زوجها، قال تعالى :

(وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ)

(سورة يوسف)

وَقَالَتْ هَيْتَ

هناك سبع قراءات لـ (هيت)، قالت : هَيْتَ لك، أي تعال وأقبل، وهِيْت لك، وهَيْتِ لك، وهِئْتُ لك، أي تهيأت لك، إما تعال وأقبل، أو تهيأت لك، هِئتَ لك، وهِئْتُ لك، وهِئْتِ، وهَيْتَ، وهَيْتِ، كل هذه دعوة صريحة إلى أن يرتكب المعصية معها، قال تعالى :

(وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ)

(سورة يوسف)

جواب المخلَصين :مَعَاذَ اللَّهِ

أعوذ بالله أن أفعل هذا، هذا موقف الأنبياء، هذا موقف المؤمنين، فما قولكم بالأنبياء؟ قال تعالى :

(وَلَا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان)

هذه ليست (لا)الناهية، لم يقل الله عز وجل : ولا تزنوا، بل قال :

(وَلَا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان)

ينفي عنهم الزنى، فمستحيل في حقهم أن يزنوا، لكن بعض المفسرين سامحهم الله أورد روايات ما أنزل الله بها من سلطان، أنه بلغ منها مبلغ الرجال، وكان على وشك أن تقع الفاحشة، لولا أنّ الله سبحانه وتعالى أخرج له أباه من الجدار، وعضّ على إصبعه، لولا أنّ ملَكاً نزل من السماء، ودفعه في

صدره فخرجت الشهوة من أنامله، لولا أنّه حينما استلقى رأى آيات القرآن مكتوبة على السقف، هذه روايات إسرائيلية ما أنزل الله بها من سلطان .

مثلاً: إذا عرضت على أحد ما مبلغا من المال كرشوة وقال لك: أعطني إياه، عدّه، وضعه في جيبه، وبعد ساعة، أو بعد نصف ساعة قال لك: لا والله لا آخذه، هذا نقص كبير لمجرد أنّه تردد في الأمر، لمجرد أنّه همّ أن يأخذه، لمجرد أنّه قبِلَ أن يأخذه مبدئياً فقد وقع في نصف الذنب، فإذا قلنا: إنّ هذا النبي العظيم أغرته سيدته، وهمّ أن يواقعها، وبلغ منها مبلغ الرجال، وتفصيلات ما أنزل الله بها من سلطان، إلى أن رأى أباه في الحائط يعض على إصبعه، إلى أن رأى السقف قد كُتِب آيات قرآنية، إلى أن جاء ملك، ودفعه من صدره فأخرج بذلك الشهوة من أنامله، لا والله ما أنزل الله بهذا من سلطان، قال تعالى:

(وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ)

(سورة يوسف)

أعوذ بالله أن أفعل هذا، مستحيل أن أفعل هذا، هذا لا يليق بي، قال تعالى :

(إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف)

إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ

هذه لها تفسيران :

المعنى الأول :

رب العزة الذي نقلني من البئر إلى القصر، من الوحشة إلى الأنس، من الجوع إلى الشبع، من العطش إلى الري، من الضياع إلى العناية، أنا أعصيه؟! أتجاوز أمره؟ أفعل ما نهاني عنه معاذ الله؟

المعنى الثاني :

أما التفسير الثاني: ربي يعني سيدي، هل أخون سيدي؟ زوجك الذي رباني وأنشأني في هذا القصر، وأكرمني أخونه في زوجته، معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي وأخونه؟ أهذا هو الكرم أن أرد على الإحسان بالإساءة؟ معاذ الله :

(إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

قال عليه الصلاة والسلام :

((الإيمان عفة عن المحارم))

ورد في الأثر

((الإحسان عفة عن المحارم ، عفة عن المطامع))

ورد في الأثر

((الإيمان عفيف عن المحارم ، عفيف عن المطامع))

ورد في الأثر

والعلماء فرّقوا بين اللذة والسعادة، اللذة تأتي من ممارسة الشهوة، ولكنّ السعادة تأتي من ترك الشهوة، إذا تركت شهوة لا ترضي الله عز وجل تسعد إلى الأبد، ألا يا رُبّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً، ألا يا رُبّ أكلة منعت أكلات، قال تعالى :

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة يوسف)

الزنى ظلمٌ :

الزنى ظلم، ظلمٌ للنفس قبل كل شيء، لأن الزاني محجوب عن الله عز وجل، مقطوع، سيدنا عثمان كان على المنبر فقال : << أيدخل أحدكم وأثَرُ الزنى بين عينيه؟ فقيل: يا خليفة رسول الله، أوَحيٌ بعد رسول الله؟ قال: لا، اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله >>، وينطق بتوفيق الله، فالمستقيم تظهر استقامته في وجهه، سيماهم في وجوههم، لو أنّ الوجه الحسن رجلٌ لكان رجلاً صالحاً، العفيف في وجهه، البريء في وجهه، الصافي في وجهه :

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام : الآية 21)

الزنى ظلم، ظلم للإنسان، والزنى ظلم للمزنيِّ بها، هذه التي زنيت بها لا سمح الله لو جاءتك يوم القيامة، وقالت لك: أنا أختك في الإنسانية، إنك بهذا العمل مرّغتني في الوحل، وجعلتني أشقى نساء الأرض، حينما ذهب جمالي نبذني الناس إلى قارعة الطريق، صرت متسولة، أهذا يرضيك؟ لو كنت الآن زوجة لخمسة شباب بعضهم أطباء، بعضهم صيادلة، بعضهم تجار، هذا جاءني، وقال: يا أمي، هل لك حاجة، ولي بنات زوجتهم، كنت سيدة أسرة كبيرة .

قال لي شخص: طرق الباب الساعة الرابعة فجراً فتحت فلم أجد أحداً، فلما وقعت عيني على الأرض رأيت محفظة كبيرة، فتحتها فوجدت غلاماً، طفلاً مولوداً لتوه، قلت: سبحان الله! حينما يتم زواج شرعي، وتحمل المرأة الأهل يفرحون، يُعد لهذا المولود، يجهز له مهاده، تجهز له ملابسه، تعيش

الزوجة في حلم الولد بعد أشهر والأب كذلك، يأتي المولود، يأتي الناس مهنئين، تأتي الهدايا، يفرح الناس، هذا هو الطريق المشروع، فإذا كان المولود من زنى فقد يوضع هذا المولود في حاوية القمامة، على قارعة الطريق، في الحديقة العامة، والحدائق العامة في أوروبة يجمع منها اللقطاء بالعشرات والمئات والألوف العام، وقال بعضهم: حوالي ثلث بعض الشعوب في أوروبة من أولاد الزنى، هذا ما ذاق حنان الأب، ما ذاق حنان الأم، هؤلاء الذين يديرون حروباً طاحنة يعيشون على أنقاض البشرية، يقتلون في المستعمرات الألوف المؤلفة، هؤلاء قد يكونون ما ذاقوا حنان الأب، ولا حنان الأم، ولا العطف، فلذلك :

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام : الآية 21)

الزنى ظلم للزاني ، وظلم للمزني بها ، وظلم للمجتمع ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ)

(سورة يوسف)

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ

أي همت به، همت بجذبه .

إيّاكم وشطحات المفسرين في هذه الآية :

سامح الله بعض المفسرين الذين توهموا أن هَمّهُ بها كهمِّها به، إذا رأيت في الغرفة أفعى هي تهم أن تلدغ إنساناً، وهو يهم أن يقتلها، يا تُرى هل همه كهمها؟ إذا رأيت أفعى في غرفة، نقول لك: لقد هممت بها، وهمت بك، ماذا تفهم من هذا؟ همت باللدغ، أما أنت فهممت أن تقتلها لا أن تلدغها، لابد من يكون همك غير همها، ولقد همت به، أغرته، جذبته، تهيأت له، وهمّ بها همّ بدفعها، أو همّ بالهروب منها، هذا التفسير الوحيد الذي يليق بهذا النبي الكريم، قال تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا)

(سورة يوسف)

لم يهم بها همّ فعل، ولم يهم بها همّ نفسٍ، ولم يهمّ بها همّ الرجل بزوجته، ولكنه همّ بها همّ ردٍ، وهم دفعٍ، بل وهم ضرب، لشدة حرجه، هذا المعنى الذي يليق بهذا النبي الكريم . قال تعالى :

(وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)

(سورة يوسف)

وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ

لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، لو أتيت بمائة رجل ووضعتهم في ظرف سيدنا يوسف، كم منهم مَن يقول: معاذ الله؟ لا تعرف كم، ربما واحد أو اثنان، لماذا؟ لأنهم لم يروا برهان ربهم، ما كان في قلبهم نور يهديهم إلى الطريق الصحيح، هذا هو النور، الصلاة نور، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، الكافر يرى الحق باطلاً ويرى الباطل حقاً، وإذا رأى الحق حقاً لا يستطيع أن يتبعه، وإذا رأى الباطل باطلاً لا يستطيع أن يجتنبه، والدعاء المأثور كما ورد في مختصر تفسير ابن كثير حيث لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

" اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه " .

قال تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)

(سورة يوسف)

في الكلام تقديم وتأخير :

هذا التفسير مقبول، يعني لولا أنك جئتني لجئتك في البيت، أنا هل أتيتك إلى البيت؟ لا، لأنك أتيتني، هذا هو المعنى الدقيق .

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)

هناك تقديم وتأخير، أي: ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، و(لولا)حرف امتناع لوجود، لولا المطر لهلك الزرع، امتنع هلاك الزرع لوجود المطر، قال تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

(سورة يوسف)

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ

السوء والفحشاء :

السوء ما يسوؤه في نفسه، والفحشاء ما يفضحه بين الخلق، السوء داخلي، والفحشاء خارجي، إذا ورد إلى خاطر الإنسان خواطر سيئة فهذه تسوؤه إذا تصور نفسه في معصية، هذا الخاطر يسوؤه، لكنه إذا

فعل هذا الخاطر هذه فحشاء، هذه تفضحه، هناك شيء يسوؤك، وهناك شيء يفضحك، الخواطر السيئة تسوء، لكنّ المعاصي تفضح :

(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

مَن هم المخلصون؟

كنت أظنّ أنها المخلِصين فإذا هي المخلصين بالفتح، يعني أخلَص لله فصار مُخْلَصاً من كل شائبة، مخلِص اسم فاعل، ومخلَص اسم مفعول، أخلص لله فأخلصه الله من كل شائبة، وجعله نقياً طاهراً، قال بعضهم: المؤمن طفل كبير بل ذاتي، صافٍ لكنه عاقل وناضج، فإذا أردت أن تجمع بين ميزات الطفولة ببراءتها و صفائها وميزات الرجولة برجاحة عقلها فهي في المؤمن، المؤمن يجمع بين الصفاء والبراءة، والطهر والعفاف، والحكمة والنضج، والعقل والفهم، << لست بالخب ـ لست من الغباء ، لست من الخبث بحيث أكون خباً أي خادعاً ، ولست من الغباء بحيث أكون مخدوعاً ـ ولا الخب يخدعني >>، قال تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(24)وَاسْتَبَقَا الْبَابَ)

(سورة يوسف)

قانون عام :كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ

نصرف عنه، وليس هذا التصرف خاصاً بهذا النبي، إنّ هذا قانون أيضاً، كل من كان مخلِصاً فصار مخلَصاً صرف الله عنه السوء والفحشاء، ما يسوؤه في نفسه وما يفضحه بين خلقه أبداً، هذه قاعدة عامة، كل من كان مخلِصاً صار مخلَصاً، وصرف الله عنه السوء والفحشاء . قال تعالى :

(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ)

(سورة يوسف)

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ

من الدين الفرارُ من الفتنة :

حينما شعر أن الموقف حرج جداً، وأنها مصرِّة ما كان منه إلا أن استبق الباب، واستبقا، وليس استبق،

وإنما استبقا مثنى، تسابقا هو وهي إلى الباب؛ هو لينجو، وهي لتقبض عليه لتحمله على الزنى، أيضاً الاستباق مختلف، لو أن الاستباق في سباق الهدف واحد وهو بلوغ الهدف، أما هنا فله معنى آخر، هو أراد بهذا الرفض أن ينجو من الباب، وهي أرادت أن تبقيه في الغرفة، طبعاً أدركته، وأمسكته من قميصه من خلفه فانجذب منها عنيفاً فتمزق القميص .

ومن غرائب الصدف أنّ زوجها جاء إليهما عن غير قصد، الله عز وجل قال :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

(سورة يوسف)

وقال أيضاً :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف : الآية 28)

قال تعالى :

(مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا)

(سورة يوسف)

مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا

صدق مَن قال: ضربني وبكى ، وسبقني واشتكى :

هناك علماء استنبطوا أنها لا تحبه، فرقوا بين الشهوة الجنسية والحب الشريف، لو أنها أحبته لما أوقعته في هذه الورطة الكبيرة، إنها لا تحبه لنفسيته، تحبه لشكله، هذا حب شهواني، هناك حب روحي، وهناك حب شهواني، والدليل أنه حينما امتنع منها أرادت أن تسحقه، أن تجعله أمام زوجها خائناً، أن يبدو لزوجها وقد خانه، قال تعالى :

(مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

قال تعالى :

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ)

(سورة النساء)

إلا في حالة واحدة ما هي ؟

(إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

(سورة النساء)

قال سيدنا يوسف :

(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)

(سورة يوسف)

مرحلة الدفاع عن النفس : قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي

أنا بريء، فإذا ظُلم أحد فلا ينبغي عليه أن يسكت، وإلا يكون أحمق، فلان فعل كذا، ولست أنا، إذا اتهمت أنك فعلت كذا وكذا، ولم تفعل شيئاً فلان فعله، وهذه ليست غيبة، إذا ما اتهمك أحدٌ تهمة باطلة، وأنت بريء منها، وفعلها إنسان آخر فقل له : فلان فعلها، قل له: لم أفعلها أنا، قال :

(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)

(سورة يوسف)

برودة الطبقة المخملية :

يقولون: إنّ عزيز مصر، هذه الطبقة الأرستقراطية الراقية عندها برودة وما عندها غيرة، قال لي: ماذا أفعل وجدت عندها شخصاً لا حول ولا قوة إلا بالله، فهذا ليس برودة، هذا تلبد الحس، يبدو أنه يأكل لحم خنزير حتى خنزر، تعجب العزيز، هو أم هي؟

هذا دليل كالشمس ، ثم ماذا ؟

استشار أحد المخلِصين له، وكان قريباً لها، قال تعالى :

(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ)

(سورة يوسف)

أي أقبل عليها فدفعته، قال تعالى :

(فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ(26)وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ)

(سورة يوسف)

أي هرب منها فتبعته فأمسكته فَقُدَّ قميصه من دبر، قال تعالى :

(فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ)

(سورة يوسف)

هذا تحقيق، الله علمنا التحقيق الجنائي، قال تعالى :

(فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

ما الذي فعله؟ لاشيء، أبقاها، انزعج قليلاً من هذه الخيانة الزوجية .

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ

قال تعالى :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ(28)يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ)

(سورة يوسف)

أين أنت أيتها العفة؟

أعرض عن هذا، أي استرنا، كل هذه الرفعة التي حصّلها هذا النبي الكريم بفضل هذا الموقف الأخلاقي، كل هذه الرفعة بفضل هذه العفة، شيء ثمين جداً أن تكون عفيفاً، من السهل جداً أن يكون المرء دنيئاً، ومن البطولة أن يكون عفيفاً، لو أنه فعل ما دعته إليه ما كان سيدنا يوسف أساساً .

قال لي شخص قد حجّ في سن مبكرة، وفتح مكتبة بأحد أحياء دمشق أمام المكتبة ثانوية بنات، قال لي: يظهر أنه يوجد بنت فاسقة جداً، لا أهل لها، وليس لها تربية، وقفت على المكتبة في ضحك وابتسام، وكلام وغزل، فأغلق المحل ولحق بها، قال لي: في الطريق قلت لنفسي: أنا قد حججت، وبفعلتك هذه تُذهب حجتك، حسب الظاهر أنه قد غلب عليه الورع، وتصور حجته، وكان هناك (الترام)، ينزل ببطء فركب به ورجع، هذا الإنسان أقسم بالله العظيم أنه في اليوم التالي جاءه أحد وجهاء الحي فقال له: يا بني، هل أنت متزوج ؟ فأجابه: لا، فقال له: لك عندي فتاة تناسبك، قال لي: ظننت أنّ عنده ابنة سوداء عوراء كتعاء عرجاء، وقال لي: أرسل أهلك ليروها يا بني، أرسل أهله فإذا هي قمة في الكمال والجمال، في اليوم الثالث زاره مرة أخرى قال له: كيف وجدوها، فقال له: والله على العين والرأس، ولكن ليس معي أي شيء، فقال له: هذا ليس شغلك، الرجل كان مليئاً، ميسور الحال، زوجه هذه الفتاة وشاركه في العمل، ولا يزال حياً يرزق، وهو أحد تجار الزيت الآن، بفضل أنه قد ركب (الترام)،وعاد إلى المحل .

أحد الطلبة الكرام قال لي : إنه مر له على التخرج من الجامعة أربع أو خمس سنوات، ولم يتمكن من الزواج، فضاقت نفسه، والزواج حاجة طبيعية، ليس هناك بيوت ودخله محدود، وقال لي: إنه كان في حماة يقضي الخدمة الإلزامية، ولا يوجد باص للشام ، فركبت إلى حمص، من حمص وجدت ميكرو باص فركبت به، جلس بجانبي رجل ما عرفته، بعد حوالي نصف ساعة من السير قال لي: ما اسمك، فقلت له: فلان، فسألني ماذا أعمل؟ فأجبته بأني مُدَرّس، فقال لي: هل أنت متزوج يا بني؟ فقلت له: لا،

فقال له: أنا عندي بيت و زوجة لك، شيء غريب، قال لي: كان الدعاء بحماة، وبعد ساعة من الدعاء الله عز وجل استجاب لي، فإذا كان الإنسان عفيفاً عن محارم الله فمع الله لا تضيع هذه العفة، سوف تجد شيئاً يسعدك طوال الحياة، تأتيك زوجة تسرك إذا نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعك إذا أمرتها، هناك جارية عندما رأت سيدنا يوسف عزيز مصر، وكانت تعرفه عندما كان عبداً هي كبيرة غي السن، قالت مقولتها الشهيرة: " سبحان الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، وجعل الملوك عبيداً بمعصيته " .

هذه القصة ليست للمتعة، لكنها للتطبيق، كن عفيفاً، غض بصرك عن محارم الله، قال تعالى :

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

(سورة طه)

لا تنظر، الله سبحانه وتعالى يكرمك، ويجبرك، ويسعدك إذا كففت عن محارمه .

والحمد لله رب العالمين

لا تفرح بجمال يأكله الدود !!!

هناك قول لا أعرف مدى صحته مبثوث في كتب التفاسير، قالت له امرأة العزيز: ما أحسن صورة وجهك! فقال يوسف عليه السلام: في الرحم صورني ربي، قالت: ما أحسن شعرك! قال: هو أول شيء يبلى مني في قبري، قالت: ما أحسن عينيك! قال: بهما أنظر إلى ربي، قالت: ارفع بصرك، وانظر في وجهي، قال: إني أخاف العمى في آخرتي، قالت: أدنو منك، وتبتعد مني، قال: أريد بذلك القرب من ربي، قالت: القيطون فرشته، أي السرير، قال: القيطون لا يسترني من ربي، قالت: الفراش من حرير، قال: يذهب بنصيبي من الجنة، المؤمن الله أغلى عليه من كل شيء، يحس بسعادة من عفته لا توصف والله، ولا يعرفها إلا من ذاقها، هذا الشهواني، العوام يعبرون عنه أنّ نفسه خضراء، تجده دنيء النفس، محتَقَراً، تافهاً، أما المؤمن فعفيف، حتى كان النبي الكريم عليه الصلة والسلام أشد حياءً من العذراء في خدرها، هكذا كان النبي الكريم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (05-11): تفسير الآيات 30 – 42 ، ابتلاءات يوسف عليه السلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-06-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في قصة سيدنا يوسف إلى قوله تعالى :

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة يوسف)

من شخصيات قصة يوسف : عزيز مصر وامرأته :

الحقيقة أننا أول مرة نعرف أنّ سيدنا يوسف كان في بيت عزيز مصر، وأنّ المرأة التي راودته عن نفسها هي امرأة العزيز، وهذه طريقة في حبكة القصة رائعة جداً، أخّر إعطاء القارئ هوية هذا الرجل الذي اشتراه :

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ)

من ؟ لا نعرف .

(لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ)

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا)

بعد مرحلة متقدمة من القصة، عرفنا أنّ هذه المرأة التي راودته عن نفسها هي امرأة العزيز، وأنّ هذا الرجل الذي اشتراه هو عزيز مصر، قال تعالى :

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ)

(سورة يوسف)

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ

هكذا يشيع لخبر فاحذر!!!

يبدو أنّ هؤلاء النسوة هنّ من الطبقة الراقية، رقياً دنيوياً، من طبقة الأغنياء والمقربين إلى القصر .

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ)

يبدو أنّ قصة هذا النبي الكريم قد شاعت في المدينة وسريعاً ما تناقلتها الألسنة، ورجفت بها القلوب، قال تعالى :

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ)

(سورة يوسف)

مكر النسوة في الكلام : امْرَأَةُ الْعَزِيزِ!!!

كأنهم يقصدون أن امرأة العزيز المرأة الثانية في هذا المجتمع، المرأة الأولى امرأة الملك، وامرأة العزيز هي المرأة الثانية، على علو قدرها، وعلى عظم شأنها تراود فتاها عن نفسه، قال تعالى :

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا)

(سورة يوسف)

وصل حبها له إلى شغاف قلبها، وصلت محبته إلى أعمق ما في قلبها، مَلَك عليها قلبها، استحوذ عليها، وذهب بها كل مذهب، قال تعالى :

(قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة يوسف)

قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

كأنهن يترفعن عن هذا المستوى، كأنهن يقبحن عملها، ويزرين بها، وينحن عليها باللائمة :

(إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

ردُّ الفعل :

لكنّ امرأة العزيز امرأة ناضجة عرفت أبعاد هذه الفضيحة، وكيف أنّ قصتها مع فتاها قد شاعت في المدينة، وقد لهجت بها الألسنة ولاكتها، وتناقلها الناس، ولاسيما فيما بين الطبقة الراقية، المجتمع الراقي بالمقياس الدنيوي، من خلال هذا المجتمع المقرب إلى العزيز، قالت في نفسها: لابد من مكر يطفئ هذه القصة، قال تعالى :

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ)

(سورة يوسف)

دقة القرآن :بِمَكْرِهِنَّ

كأن نقل هذا الحديث مكر منهن، كأن نقل هذا الحديث وإشاعته وتناقله شفاء لما في صدورهن، كأن هناك منافسة بين امرأة العزيز وبقية النساء المقربات، هناك منافسة خفية، وهذا يؤكده قوله تعالى :

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر)

حقيقة الرقي والحضارة :

الكفار إذا بدوا لك متجمعين فهم في الحقيقة متفرقون، إذا بدوا لك متحدين فهم في الحقيقة متنافسون، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر)

فامرأة العزيز أرادوا بها كيداً عن طريق نقل هذه القصة وترويجها وإشاعتها وكثرة الحديث فيها من أجل أن يحطمن سمعتها، إذاً هناك عداءٌ خفي، فلما سمعت بمكرهن دبرت لهن خطة وكيداً محكماً، أرسلت إليهن، الحقيقة هذا المجتمع الراقي يسمونه المجتمع المخملي، هذا المجتمع الراقي في نظر الناس هو عند الله ليس راقياً، لأن هناك نظافة المظهر وهناك نظافة المخبر، قد تعيش في بيت فخم، وقد ترتدي أجمل الثياب، وقد تستعمل أغلى العطور، وقد تركب أجمل السيارات، وقد تأكل ما لذ وطاب، وقد يكون وقتك ممتلئاً بالمواعيد واللقاءات والحفلات والسهرات الممتعة والنزهات، ولست عند الله شيئاً مذكوراً، وقد يأتي إنسان فقير لا يعرفه معظم الناس فيخلص العبادة لله عز وجل، ويستقيم في معاملته فهو عند الله نظيف .

مثلاً: إنسان يعمل في مهنة عضلية مجهدة لو أنه يعمل في تصليح السيارات مثلاً، ويرتدي ثياب سوداء متقلة بالشحوم، لو أنه جاءته سيارة فأحكم إصلاحها، وأتقنه، وأخذ أجراً معتدلاً، وقدّم خدمة، هذا الوضع الذي هو فيه وضع نظيف جداً، إنه نظيف من الداخل، وقد قال لي رجل لا أشك أنّ غرفته التي يجلس فيها يزيد ثمن ما فيها من أثاث على مئات الألوف قال لي: إنّ عملي قذر، يرتدي أجمل الثياب، ويتكئ على أفخم الأثاث، ويستعمل أفخر العطور، وقال لي بالحرف الواحد: إنّ عملي قذر، فالقذارة والنظافة أيها الإخوة من الداخل، المؤمن نظيف من الداخل؛ استقامته وعفته، ومروءته وشجاعته، ونزاهته وأعماله الطيبة، هذه التي ترفعه عند الله، أما هذا المجتمع الذي يبدو لك مجتمعاً راقياً يتقلب في ألوان النعيم فليس عند الله بشيء، قال تعالى :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

قال تعالى :

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ)

(سورة يوسف)

أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً

إياكم ومكر المرأة ، فإنها تغلب ذا اللبّ :

وجهت إليهن دعوة إلى قصرها لتناول طعام أو فاكهة، وليس في القرآن الكريم ما يؤكد هذا أو ذاك، قال تعالى :

(أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً)

(سورة يوسف)

أي جعلت لهن أماكن مريحة جداً، أثاثا فاخرا، طنافس وثيرة، متكآت من ريش النعام، قال تعالى :

(وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا)

(سورة يوسف)

من أجل أن تستعملها في تقطيع الفاكهة أو تقطيع اللحم، على كلٍّ قدّمت لهن طعاما أو فاكهة ثمينة، قال تعالى :

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ)

(سورة يوسف)

وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ

امرأة العزيز تعتذر للنسوة بالواقع :

أمرته وهو الغلام في قصرها، وعليه أن ينفذ ما تأمره به، أمرته أن يخرج أمام هؤلاء النسوة اللائى يمثلن نخبة المجتمع الراقي، قال تعالى :

(وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ)

(سورة يوسف)

الله أكبر ، لقد قطّعن أيديهن لرؤيته :

يعني عظّمنه، دُهشن لجماله، وهناك مفسرون كثيرون ورواة كثيرون أجهدوا أنفسهم في وصف هذا النبي الكريم، وفي خلع صفات الجمال عليه، مع أنّ المرأة لا يستهويها في الرجل جمال بني جنسها، بل يستهويها صفات خاصة به، سيدنا موسى قال تعالى عنه :

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص)

رأس مال الرجل : القوة والأمانة :

ما الذي أعجبها فيه؟ أعجبها قوته وأمانته، هو ما الذي أعجبه فيها حياؤها، قال تعالى :

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

(سورة القصص)

فالمرأة تحب في الرجل القوة والعفة، والأمانة والقوة، والحماية والرعاية والشجاعة، فإذا بالغ الرجل في التزين والتجمل، والتعطر والتكسر، وترفيع الصوت، وتزيين صدره ببعض الحلي ومعصمه ببعض السلاسل تقليدا للنساء في زيِّهن، فهذا الرجل لعنه الله عز وجل، لقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

((لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ))

مسند الإمام أحمد

قال تعالى :

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص)

بينما أعجبه فيها حياؤها ، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((من علامات قيام الساعة أن يرفع الحياء من وجوه النساء، وتذهب المروءة من رؤوس الرجال))

ورد في الأثر

إلا الديّوث أعيت مَن يداويه !!!

لا مروءة عند الرجال، و لا حياء في وجوه النساء .

((والديوث لا يروح رائحة الجنة ، فقيل يا رسول الله : وما الديوث ؟ قال الذي لا يغار على عِرضه ويرضى الفاحشة في أهله))

ورد في الأثر

هذا الذي يسمح لزوجته أن تخرج إلى الشرفة بقميص النوم هذا عند الله ديوث، لأنه لا يغار على عرضه، هذا الذي يسمح لزوجته أن تتزين وهي معه في الطريق هذا لا يغار على عرضه، هذا الذي يسمح لزوجته أن تقدم المشروب لضيوفه ديوث لا يغار على عرضه، إن كان الذين يرضون الفاحشة في أهلهن قلائل، فالذين لا يغارون على أعراضهن كثر، إذاً: حينما بالغ المفسرون والرواة في وصف هذا النبي الكريم بصفات جمالية منتزعة من صفات النساء وقعوا في وهم كبير، إنّ الذي أعجبها فيه عفته، إنّ الذي أعجبها فيه قوته، إن الذي أعجبها فيه طهارته، وكان جميلاً، لكن أن نقصر ميزاته على جماله وحده فهذه مبالغة ليست واقعية، على كلٍّ، قال تعالى :

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)

(سورة يوسف)

معنى تقطيع الأيدي :

لئلا يذهب بكم الظن إلى أنهن قطّعن أيديهن تقطيعاً تاماً، لا، معنى قطّعن أيديهن في اللغة جرحن أيديهن، الإنسان أحياناً يستعمل سكيناً حاداً، ويلهو مع إنسان في حديث، فإذا به يجرح إصبعه، معنى قطّعن أيديهن أي جرحن أصابعهن، قال تعالى :

(وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا)

(سورة يوسف)

كمال الأنبياء :

إنه فوق البشر لكماله، والأنبياء كذلك ، قال الشاعر :

وأجمل منك لم ترَ قط عيني وأكمل منك لم تلد النساء

خُلقتَ مبرّأً من كل عيب كأنك قد خُلقت كما تشاء

***

الله سبحانه وتعالى يهب أنبياءه جمال الخَلق والخُلُق، أصحاب محمد الكرام سحروا به أُخذوا به، أخذ كل قلوبهم، قال أحدهم: " ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً "، سُحروا بكماله

ورقته، وحلمه وشجاعته، وذكائه وفطنته، ورحمته وعدله وإنصافه، وهكذا المؤمن، لا أقبل أن يكون المؤمن بغيضاً عند الناس، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، كيف يكون هذا صحيحاً وهو متصل بالله عز وجل، ولله الأسماء الحسنى، وكل من اتصل بالله عز وجل لابد من أن يشتق من أسمائه الحسنى، يجب أن يكون المؤمن محبوباً لتواضعه وإنصافه وعفته لاستقامته، قال تعالى :

(وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ(31)قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ)

(سورة يوسف)

فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ

عزيز تواجه النساء بالواقع الذي لا يصبرن عليه :

هذا هو، إنكم تحدثتم عني في غيبتي، وأنحتم عليّ باللائمة من دون أن تعرفوا حقيقة هذا الفتى الذي شغف قلبي به حباً، هذا الذي شغف قلبي به حباً أمعي حقٌ بهذا؟ قال تعالى :

(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة يوسف)

منتهى الوقاحة :

منتهى الوقاحة أن تعلن عن شغفها، وعن غريزتها، وعن حاجتها إليه أمام نسوة من علية القوم، قال تعالى :

(وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)

(سورة يوسف)

وهذه أول براءة له عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، فاستعصم، لا كما يقول بعض المفسرين: ولقد همّ بها، أي بلغ منها مبلغ الرجال، لا، هو همّ بدفعها، أو همّ بالهروب منها، أو همّ بضربها، على قول بعض المفسرين، لأن عملها كان في منتهى الوقاحة، قال تعالى :

(وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)

(سورة يوسف)

مرحلة التهديد : وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ

لا زالت مصرة على أن تراوده عن نفسه مرة ثانية، لا زالت مصرة على أنها لابد من أن تصل إليه إما بالحسنى، وإما عن طريق السَجن والتعذيب، قال تعالى :

(وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ(32)قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

(سورة يوسف)

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ :

السجن بدل المعصية والفتنة في الدين :

لم يقل الله عز وجل: مما تدعوني إليه، كان مع واحدة فصار مع المجموع، في بعض التفسيرات أنّ كل من حضر هذا الحفل البهيج بدأ يقنعه على حدة أن يستجيب لنزوتها، لنزوة امرأة العزيز، كان مع واحدة، فصار مع المجموع .

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

هنا نقف قليلاً، إذا أُمرت بمعصية أين أنت من هذا النبي الكريم، هل تقول: لا أستطيع يا أخي؟ ما تمكنت، أمرتُ بهذا، أم تقول:

(رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

هذا امتحان دقيق، قد يوضع إنسان في موضع صعب، قد يُؤمر بمعصية الله، قد يؤمر بعمل لا يرضي الله، يجب أن يكون موقفك واضحاً، يجب أن لا تأخذك في الله لومة لائم، يجب أن ترى أنّ الله هو كل شيء قدير، ولا إله إلا الله، قال تعالى :

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر : الآية 2)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : الآية 84)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد : 4)

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف : 54)

(لَهُ الْحُكْمُ)

(سورة القصص : الآية 70)

(وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة يوسف : 64)

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

(سورة غافر : الآية 20)

(وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)

(سورة الأحزاب : الآية)

قال تعالى :

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ)

(سورة يوسف)

وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ

قمة التوحيد والاستسلام لله :

هذا هو التوحيد، يا رب، أنا أصمد أمام كيدهن، وأمام إغرائهن بمعونتك، فإذا تخليت عني فلا أستطيع أن أصمد أبداً، إنّ مقاومتي تنهار إذا تخليت عني، كما قال تعالى :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول عن معصية الله إلا بالله، ولا قوة على طاعته إلا به، هذا هو التوحيد، هذا الذي يقول أنا لا أفعلها أبداً، هذا مشرك، يا رب أعني على طاعتك، يا رب لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، يا رب أنا بك و إليك، من أنا حتى أقول أنا لا أفعلها، هذا هو الشرك، أي أشركت نفسك مع الله عز وجل، لو عرفت ما عند الأنبياء من تواضع لله عز وجل ومن افتقار إليه، ومن استسلام لأمره لتأدبت بهذا الأدب :

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ)

(سورة يوسف)

كيد المرأة عظيم :

ربنا عز وجل قال في هذه القصة بالذات :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف : الآية 28)

وقال في موطن آخر :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

(سورة النساء)

الشيطان ومن معه كيده ضعيف، لكن المرأة كيدها عظيم، لأن لك عند المرأة حاجة، وقد تكون هذه المرأة زوجتك، لك عندها حاجة فتستغل هذه الحاجة لتحملك على معصية، لتنفذ مأربها، لتفعل ما تشاء، لتكون هي المسيطرة، لتسير البيت وفق أهوائها، لتفعل ما تفعل من أجل أن تظهر، فإذا هذا على حساب دينك، لذلك إياك أن تنهار مقاومتك أمام كيدهن :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف : الآية 28)

قال تعالى :

(فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ)

(سورة يوسف)

جاء الفرَجُ : فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ

لماذا استجاب له ربه فصرف عنه كيدهن؟ لشيء واحد، لأنه كان صادقاً في هذا الطلب، أنت أيها الأخ الكريم لا تملك إلا الطلب، إن عرف الله عز وجل صدق طلبك وإصرارك على طاعته، و إصرارك أيضاً على بعدك عن معصيته يستجب لك، لذلك جاء في الحديث الشريف :

((ما كان الله ليعذب قلباً بشهوة تركها صاحبها في سبيل الله))

ورد في الأثر

إذا أنس الله منك صدقاً في طلب طاعته وصدقاً في البعد عن معصيته أعانك على طاعته، وصرف عنك معصيته، فإن كنت ضعيفاً، إن كنت متردداً، إن كنت ميّالاً إلى المعصية تخلّ عنك، فتغلب عليك الشيطان، ففعلت المعصية، ليكن هذا النبي الكريم قدوة لك في مواجهتك للمغريات، قال تعالى :

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ(33)فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ)

(سورة يوسف)

إنّ صرف الله عز وجل كيدهن عنه كان بطريقين:

الأول: أنّ الله عز وجل ألقى في قلوبهن اليأس من الوصول إليه .

والطريق الثاني: أنّ الله سبحانه وتعالى ألقى في قلبه بغضهن، هو كرههن وهنّ يئسن منه، هذا فعل الله عز وجل، قال تعالى :

(فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة يوسف)

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

سميع لقولك، ولو لم تقل، هو عالم بحالك، لو أنك لم تقل، لكنه في نفسك، في أعماق نفسك لا تريد أن تعصي الله، الله عليم، إن تقل، وإن لم تقل يعلم ما في نفسك .

أحياناً الإنسان ينسى تعقيبات الآيات في القرآن الكريم، ويقول لك: إنه هو الغفور الرحيم، غير مضبوطة، إنه هو السميع العليم، لأنك أيها الإنسان إما أن تدعوه فيسمعك، وإما أن تسكت فيعلم حالك، إنه هو السميع العليم، إذا واجه أحدنا مشكلة أو ضغطاً أو إكراها أو إغراءً يستطيع أن يدعو الله سراً وشفتاه مضمومتان في قلبه، يا رب ليس لي إلا أنت :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

اصرف عني هذا الشر، قال تعالى :

(ثُمَّ بَدَا لَهُمْ)

(سورة يوسف)

الامتحان المُوَالي : السجن :

دقة القرآن :بَدَا لَهُمْ

لم يقل الله عز وجل: بدا لهن، بدا لهم، دخل العزيز في هذا الموضوع، العزيز زوجها والمستشارون والخبراء والمقربون إليه تداولوا في هذه الفضيحة، وهذه السمعة السيئة التي جلبت لهم المذمة والعار، ماذا يفعلون؟ إنّ هذه الزوجة تحت سمع زوجها وبصره، ويا له من زوج غيور! تحت سمعه وبصره مصرة على أن تصل إليه، ولقد دعت النسوة في المدينة أيضاً تحت سمعه وبصره، ولابد من أنّ قولها قد وصل إليه :

(وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ)

فأي زوج هذا؟ وأية رجولة هذه؟ وأية غيرة ينطوي عليها؟ هذا عزيز مصر، لكنه استشار المقربين والأباعد، والكبراء والصغار ومن في الحاشية، بدا لهم جميعاً أنه من أجل إطفاء هذه الفتنة، وتطويق هذه الحادثة، وتقليص هذه الإشاعة، لابد من أن يسجن هذا الفتى البريء، لم يستطع أن يصل إلى زوجته، ويسيطر عليها، فكان الحل ظالماً، أمر بسجن هذا الفتى البريء الذي ما خانه قط، والذي يقطر براءة وطهراً وعفافاً :

(ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ)

اعجب للآيات التي حكمت على يوسف بالسجن!!!

أية آيات؟ آية أنّ قميصه قدّ من دبر ؟

آية :

(وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)

كل هذه الآيات الدالة على طهارته وعفته واستعصامه بالله عز وجل على الرغم من كل ذلك بدا لهم أن يسجنوه، قال تعالى :

(ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)

(سورة يوسف)

المهمّ أن يغيب عن أنظار الناس :

إلى أجل غير مسمى، إلى أن تنطفئ الفتنة، إلى أن ينقطع الحديث في هذا الموضوع، إلى أن تنسى امرأة العزيز هذا الغلام، ودخل السجن، سوف نستنبط بعد قليل أنه كان في السجن نبياً، كما أنه نبي خارج السجن هو نبي داخل السجن بمعرفته، بإحسانه، بمعاونته للآخرين، برحمته، الإنسان هو هوَ، هذا الذي تتبدل أخلاقه من ظرف إلى ظرف أخلاقه مزيفة، هذا الذي يبدو في الرخاء وديعاً، و في الشدة وحشاً هذا ليس أخلاقياً، هذا الذي يبدو في الغنى سموحاً وفي الفقر بخيلاً ليس كريماً، لكن البطولة أن تكون أنتَ أنت في الرخاء والشدة، في النعيم والشقاء، في الصحة والمرض، في القوة والضعف، في إقبال الدنيا وإدبارها، خارج السجن وداخل السجن هو هوَ نبي، قال تعالى :

(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ)

(سورة يوسف)

فصل آخر في السجن : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ

مَن هما الفتيان ؟!!

هناك قصة يرويها القرطبي في تفسيره: أن الملك كان عنده طباخ كرئيس الطهاة، ورجل يقدم له الشراب، يبدو أن هذا الملك عمّر طويلاً ودام حكمه طويلاً، فائتمر عليه بعضهم في قتله عن طريق دس السم في طعامه وشرابه، فالطباخ وضع السم في الطعام، أما صاحب الشراب فأبى، فلما قدم الطعام للملك جاء صاحب الشراب وقال: احذر يا مولاي أن تأكل الطعام فإنه مسموم، فقال الطباخ: يا مولاي والشراب أيضاً مسموم، قال الملك: اشرب فشرب صاحب الشراب، فتأكد الملك أن صاحب الشراب صادق، فأمر الطباخ أن يأكل من الطعام فأبى، فلما أبى أطعم الطعام لحيوان فمات من توه، فأمر الملك أن يساق الفتيان إلى السجن ريثما يتم التحقيق .

قال تعالى :

(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا)

(سورة يوسف)

رؤيا الفتيين في السجن :

معنى الخمر :

الخمر هنا يعني العنب، هذه كأن تقول مثلاً: رعينا الغيث، يعني رعينا كلأً أنبته الغيث، عصرنا عنباً فصار خمراً، قال تعالى :

(قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا)

يعني أرى في المنام، قال تعالى :

(وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ)

(سورة يوسف)

ما تأويل هذه الرؤيا؟ قال تعالى :

(إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

يوسف المحسن وهو في السجن :

هو محسن حتى في السجن، وهو في آلامه محسن، وهو في تقييد حريته محسن، وهو مع السجناء محسن، قال تعالى :

(إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

هذا الذي يسيء ويصلي معنى ذلك أنه لم يصلِ، جوهر الدين في الإحسان، هذا الذي يكرهه الناس ليس مسلماً، هذا الذي يبغضه الناس ليس مؤمناً، هذا الذي يتأذى منه الناس لا يعرف الله عز وجل، هذا يصلي صلاة شكلية لا شأن لها عند الله، هذا يصوم صياماً شكلياً لا قيمة له عند الله، من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله، من شاء صام، ومن شاء صلى، ولكنها الاستقامة .

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

الطبراني عن ابن عباس

عَنْ أبيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

البخاري

قال تعالى :

(وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

استمعوا أيها الإخوة الأكارم إلى هذا القول الفصل في الدعوة إلى الله، نبي كريم يُسأل عن تفسير الرؤيا وهو في السجن، هو في أشد حالاته ضعفاً، لا ينسى الله عز وجل، يدعو إليه، هذا يذكرني بدعاء سيدنا يونس عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وهو في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، في ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، قال تعالى :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء : الآية 87)

افحص نفسك في ساعات الشدة أتذكر الله عز وجل؟ فاستجاب له ربه .

قال تعالى :

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

وهذا النبي الكريم وهو في السجن، هنا استنباطات كثيرة جداً، أولاً: هذان الفتيان جاءاه بسؤال، فالسؤال يشغل بالهما، فكي يطمئنا وكي يستمعا إليه، كي يصغيا إليه، قال تعالى :

(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا)

(سورة يوسف)

مقدمة دعوية بين يدي تفسير رؤيا الفتيين :

1 ـ قضاء أشغال المدعو أولاً :

تفسير هذين المنامين سيحصل بعد قليل، سأفسر لكما هذين المنامين قبل أن تأكلا الوجبة الثانية اطمئنا. إذا جاءك إنسان بحاجة، وأنت أردت أن تعظه لا يستمع إليك، اقض له الحاجة أولاً، ثم عظه ثانياً، أو عِده بإنجاز هذه الحاجة حتى يطمئن، عندئذ قدّم له الدعوة الخالصة، هذه النفس مشغولة، قلبه مشغول، مغلق، فالذي يعظ الناس في الأوقات الحرجة وهم مشغولون هذا لا يملك حكمة أبداً، لابد من أن يكون القلب فارغاً لك، لابد من أن تكون ساحة النفس فارغة لموعظتك، لابد من أن يكون هناك فراغ كي يتلقى الإنسان هذا الحق، فإذا كانت ساحة النفس مشغولة، أو كان القلب منشغلاً لابد من قضاء حاجته قبل دعوته إلى الله، سيدنا يوسف كان حكيماً جداً، وطمأنهما، قال تعالى:

(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا)

(سورة يوسف)

2 ـ نسبة الفضل إلى الله :

نبأتكما أنا بتأويله، لكنه موحّد، قال تعالى :

(ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي)

(سورة يوسف)

إذا كان الإنسان في بحبوحة، أو على شيء من العلم، أو على شيء من الوسامة والجمال، أو على شيء من الجاه، إذا قال: أنا، فقد أشرك، إذا قال: لقد تفضل الله علي، لقد أكرمني ربي، لقد يسّر الله لي هذا البيت، لقد أكرمني، ونجحت في هذه الشهادة، لقد حباني الله بهذه الوظيفة، لقد متعني الله بهذه الصحة، لقد رزقني الله هذه الزوجة، هكذا المؤمن، ليس من باب الأدب، ولكن من باب الحقيقة، هذه هي الحقيقة، قال تعالى :

(ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

(سورة يوسف)

3 ـ بيان الباطل :

عاش سنوات طويلة في قصر عزيز مصر، هؤلاء وصفهم هذا النبي الكريم بصفتين دقيقتين، قال تعالى :

(إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة يوسف)

لا يؤمنون بالله، يؤمنون بالملذات، يؤمنون بالدنيا، يؤمنون بما فيها، أما بالله فهم عنه غافلون، هم عنه معرضون، جعلوا كتاب الله وراء ظهورهم، جعلوا قيم الله عز وجل وراء ظهورهم، جعلوا أوامره خارج اهتمامهم، جعلوا نواهيه ضمن رغباتهم، قال تعالى :

(إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(37)وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة يوسف)

4 ـ نفي الشركوالنحذير منه :

جوهر هذه الدعوة هو التوحيد، الدين كله توحيد، الدين كله ملخّص في قوله تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : الآية 19)

هذا هو الدين، ما كان لنا، يعني يستحيل علينا، مستحيل أن نشرك،(ما كان)من أشد أنواع النفي، لا نشرك، ولا نريد أن نشرك، ولا يمكن أن نشرك، ولا يعقل أن نشرك، كل هذه الأدلة الدالة على عظمة الله وبعدها نشرك؟ قال تعالى :

(مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ)

(سورة يوسف)

5 ـ النعم كلها من الله :

هذه النعمة التي أنتم فيها نعمة سماع الحق، نعمة الهدى هذه هي الفضل الحقيقي، ومهما تناولنا من الطعام ما لذ وطاب، ومهما كانت بيوتنا فاخرة، ومهما كانت أموالنا طائلة، ومهما كنا سعداء في بيوتنا، ومهما كان دخلنا كبيراً فلابد من مفارقة الدنيا، وكل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت،

لابد من أن نوسد الثرى، تقول الأرض: يا من تمشي على ظهري لابد من أن أضمك إلى صدري، لابد من أن أضمك إلى بطني، اذهبوا إلى المقابر تجار، علماء، موظفون، أشخاص مهمون، كانوا أحياء مثلنا، لهم بيوت، لهم زوجات، لهم مكانة اجتماعية، كانوا يأكلون ويتنزهون ويسهرون ويمرحون، هم تحت أطباق الثرى، ونحن سوف نكون مثلهم إن عاجلاً أو آجلاً، ذلك من فضل الله علينا، هذا هو الفضل الحقيقي، قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

هذه طريقة في الدعوة إلى الله بليغة، طرح عليهم سؤالاً، قال تعالى :

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ)

(سورة يوسف)

6 ـ الدعوة إلى توحيد الله :

تحبباً لهما، وإيناساً لقلبهما، ناداهما بالصاحبين .

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

أي أن تخاف من زيد، ومن عبيد، ومن سعيد، ومن عمر، ومن خالد، أم أن تخاف من الله وحده؟ أن ترضي زيدا أو عبيدا أو فلاناً أو علاناً، أو أن ترضي الله وحده ؟ من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، قال تعالى :

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ)

(سورة التوبة : الآية 13)

اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين الناس، من حسنت سريرته جعل الله علانيته حسنة، قال تعالى :

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

(سورة يوسف)

معنى القهار أمره هو النافذ أمره هو الذي يطبق، قال تعالى :

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة يوسف)

7 ـ الآلهة أسماء لمسميات باطلة :

في اليابان يعبدون الميكادو، يرونه إلهاً، في لبنان وضعوا على قمم الجبال تماثيل للعذراء، وقالوا: هذه سيدة لبنان، إنها تحميه، هل حمته من الحرب الأهلية ؟

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

ليس لها قوة عقلية مقنعة، وليس لها قوة مادية آثرة، ليست منطقية ولا واقعية، إن هي إلا أسماء سميتموها، فإذا قام أحدكم، وكتب اسمه، وكتب تحت اسمه مثلاً: وزير دفاع، هل يعني ذلك أنه أصبح وزير دفاع؟ هي كلمة كتبتها، هل لها حقيقة؟ هل هناك من أحد يأتمر بأمرك؟ هل هناك من أحد يستجيب لك؟ هل تأخذ على هذه البطاقة درهماً واحداً؟ إن هي إلا أسماء سميتموها، إذا كتبت كلمة بحر على قطعة من ورق، هل هذا هو البحر، هذه كلمة بحر، كلمة هذه إن كأساً من الماء يبل ثوبك، أما إذا كتبت مليون بحر، اكتب المحيط الأطلسي مع المحيط الهادي مع البحر المتوسط مع القطب الشمالي، وضع هذه الورقة في جيبك تبقى جيبك جافة، هذه كلمة حبر على ورق، فهذا الذي يعبد إنساناً من دون الله :

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

ما أعطاها الله قوة، لم يعطها قوة عقلية مقنعة، وهذه القبيلة التي جعلت رباً لها من تمر فلما جاعت أكلته، فقالوا: أكلت ودّ ربها، وهذا الذي جاء ليعبد صنماً فرأى على رأسه بللاً، وعرف أن ثعلباً قد بال على رأسه، فقال :

أربٌ يبول الثعلبان بـرأسه   لقد ضل من بالت عليه الثعالب

***

غير مقنع، البقرة في الهند إذا سارت في عرض الطريق قطعت السير ساعات طويلة، إذا دخلت إلى بقالية تأكل هذه البقرة ما لذ وطاب من الفاكهة، وصاحب البقالة ممتن أشد الامتنان لأنها مقدسة، يأخذون روث البقر، ويضعونه في غرف الاستقبال في الأعياد تبركاً بها، يكحلون أعينهم ببولها ، هذه خرافات، قال تعالى :

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

(سورة يوسف)

هذه الآلهة كلها باطلة، لا تقدم ولا تؤخر، ولا تنفع ولا تضر، كله باطل في باطل .

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

حتى السحر .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

مسند الإمام أحمد

كما قال أيضاً :

((من أتى ساحراً فلم يصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً ، ولا دعاء أربعين ليلة))

ورد في الأثر

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

هذا المتشائم من رقم معين، من لون معين، هذا باطل، قال تعالى :

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

8 ـ هذا هو الدين القيّم :

هذا هو الدين القيّم، الدين الخضوع، فلا تخضع إلا للحق، ولا تخضع إلا للذي خلقك، لا تخضع إلا لمسير الكون، وهو الله رب العالمين، لا تخضع إلا لمن بيده الأمر، لا تخضع إلا لمن بيده الحكم والحياة والموت، لا تخضع إلا لمن بيده الرزق، قال تعالى :

(أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

(سورة يوسف)

هذا هو الدين، عندما لا تأخذ الإنسان في الله لومة لائم ، لا يطيع مخلوقاً في معصية الخالق، هو مع الله دائماً، مع أمره حيث أمره، وإذا نهاه عن شيء ابتعد عنه، تقول لي: عادات، تقاليد، تيار عام، هناك ضرورات، المجتمع هكذا يريد، زوجتي صعبة، بناتي لم يرضوا معي، هذا كله كلام مردود :

(أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)

أنت بذلك تساوي المخلوق بالخالق تماماً كمن يدخل في سلك الجيش، ويتلقى أمراً من قائد الجيش، وأمراً من عريف، وأمر العريف متناقض مع أمر قائد الجيش، فيستجيب لأمر العريف ويعصي قائد الجيش، ولا يعرف مغبة هذا العمل، هذا مثل قريب؛ خالق الكون قال لك: افعل ولا تفعل، يأتي إنسان جاهل، مغرض، فانٍ، ويقول للذي أمرك الله أن تفعله: لا تفعله، وللذي نهاك أن تفعله : افعله، أين أنت؟ أين عقلك؟ أين تفكيرك؟ جاء الآن الوقت المناسب لتفسير الرؤيا، قال تعالى :

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا)

(سورة يوسف)

تعبير رؤيا الرجلين :

أما أحدكما فينجو، ويخرج من هذا السجن، ويعود إلى عمله في القصر ساقياً للملك، قال تعالى :

(وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)

(سورة يوسف)

لابد من أن يُقتل، ومن معجزات هذا النبي الكريم أنّ الله سبحانه وتعالى أطلعه على بعض الغيب، قال تعالى :

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

هذا أخذٌ بالأسباب ، ولا تلتفت إلى قول آخر :

هذا النبي هكذا قال: قضي الأمر، وهذا الأمر كأنه وقع وانتهى، سيدنا يوسف الآن حينما عرف أنّ أحد هذين الصاحبين سينجو وسيعود إلى عمله في القصر، قال تعالى :

(وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ)

(سورة يوسف)

أي أظهر للملك قصتي وبراءتي ومظلمتي، هنا حول هذا الموضوع وقف المفسرون وقفات طويلة ، بعضهم قال: إنّ الله سبحانه وتعالى عاقب هذا النبي الكريم لأنه طلب من هذا الرجل أن يذكره عند الملك، ونسي أن يطلب هذا من الله عز وجل، هذا بعض الآراء، لذلك في بعض التفاسير كلمات يمكن أن نقرأها عليكم: جاءه جبريل فقال: يا أخا المنذَرين، مالي أراك بين الخاطئين، يا طاهرُ ابن الطاهرين يقرئك ربك السلام ويقول لك: أما استحييت إذ استغثت بالآدميين، وعزتي لألبثنك في السجن بضع ، قال: يا جبريل أهو عني ؟ قال: نعم، قال: إذاً لا أبالي ، بعضهم قال: جاءه جبريل فقال له: يا نبي الله من خلصك من القتل على أيدي إخوتك؟ قال: الله، قال: فمن أخرجك من الجب؟ قال: الله تعالى، قال: فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال: الله تعالى قال: كيف وثقت بمخلوق وتركت ربك؟ فلم تسأله؟ وجاء في بعض الأحاديث الشريفة أن :

((رحم الله أخي يوسف لولا الكلمة التي قالها: اذكرني عند ربك ، ما لبث في السجن بضع سنين))

كنز العمال

لكن الحقيقة أن هذا الحديث ضعيف جداً، هكذا قال الحافظ بن كثير، ضعيف جداً، والعلماء يقولون: الإنسان مطالب أن يسعى، إذا كان في ضائقة وفي مظلمة، وعرف أن هناك شخصاً له يد طولى، فإذا عرض عليه مظلمته فلا ضير عليه، إذاً نحن نرجح أنّ هذا النبي الكريم ما وقع في خطأ أبداً، هذا من باب السعي، هذا من باب الأخذ بالأسباب، ثم التوكل على الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (06-11): تفسير الآيات 50 – 57 ، الفرج بعد الشدة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-06-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ

الملِك يأمر بإطلاق سراح يوسف :

أيها الإخوة المؤمنون، حينما سمع الملك تفسير الرؤيا التي رآها، وكان تفسيراً دقيقاً معبراً خطيراً، قال عندئذ :

(ائْتُونِي بِهِ)

أي أطلقوا سراحه، أريد أن أراه، استعظم علمه، وهاله هذا التفسير الدقيق، فقال :

(ائْتُونِي بِهِ)

فلما جاءه الرسول ليخرجه من السجن بعد بضع سنين قدرها العلماء بسبع سنين، قال:

(ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ)

موقف يوسف : إظهار البراءة ثم الخروج :

هاتوا لي سجيناً واحداً يمضي في السجن سبع سنين، ثم يأتي أمر الإفراج عنه، ويرفض أن يخرج من السجن حتى تظهر براءته، لأنه دخله مظلوماً، مضطهداً، فإذا خرج من السجن كانت حريته أغلى من سمعته، لكن سمعته وطهارته وبراءته وعفافه وإخلاصه أغلى عنده من حريته، لذلك رفض أن يخرج حتى يتأكد الملك من براءته، قال تعالى :

قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ

(قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ)

(سورة يوسف)

أي إلى سيدك، هل يقول له: إنّ امرأة العزيز هي التي راودتني عن نفسي، لا زالت في مكانها، ولازالت قوية، هل يقول له: إن امرأة العزيز هي التي راودتني عن نفسي، عندئذ يفتضح أمر زوجها، وهو الذي أكرمه، وأحسن مثواه .

بلاغة يوسف وحسن اختياره العبارة :

دققوا أيها الإخوة في العبارة التي قالها هذا النبي الكريم، قال تعالى :

(ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ)

(سورة يوسف)

لو أن هذا النبي الكريم قال: ارجع إلى ربك فأبلغه أني بريء، ليس في هذا الكلام إثارة، لو أن هذا النبي الكريم أعلم الملك بالقصة، ارجع إليه، فقل: القصة كذا وكذا، الملك قد يصدقها وقد لا يصدقها، قد يقول: ما من سجين إلا وهو يظن أنه بريء، لو أن هذا النبي الكريم تلا على هذا الرسول قصته، وأوكله أن يبلغها للملك، ما كان بهذا الكلام بليغاً ولا حكيماً، لو أنه أعلمه مجمل البراءة، فاسأله، وجّه له سؤالاً، لو قال: ما شأن امرأة العزيز؟ لقد فضح سيده، وأحرجها فأخرجها عن طورها، قال تعالى :

(قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)

(سورة يوسف)

فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

أهمية الانتفاع من الفراغ :

لم يذكر هذا النبي الكريم موضوع المراودة، ولا موضوع الخيانة، لا من قريب ولا من بعيد، إنما غيّر وجهة الحديث :

(فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)

أي أن هناك حادثة فريدة من نوعها تلفت النظر، نسوة قطعن أيديهن في قصر عزيز مصر، اسأل سيدك، اسأل هذا الملك ما تفصيلات هذه القصة؟ ما ملابساتها؟ ما نتائجها؟ قال تعالى :

(قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

هذا العمل سماه هذا النبي الكريم كيداً، إن ربي بكيدهن عليم .

اطمئن فإن الله يعلم كيد الكائدين :

أنت أيها الأخ الكريم إذا كان هناك من يدبر لك كيداً يكفيك طمأنينة، ويكفيك ثقة بالله عز وجل أن الله عليم بهذا الكيد، لذلك قال بعضهم: كفاك نصراً على عدوك أنه في معصية الله، مهما كاد لك، ومهما دبر لك إن هذا الكيد بعلم الله، إن هذا الكيد سوف يحبطه الله عز وجل، قال تعالى :

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15)وَأَكِيدُ كَيْدًا)

(سورة الطارق)

وقال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج)

وقال :

(إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

يوسف يقطع الطريق عن كلّ عدوّ :

الحقيقة لو أنّ هذا النبي الكريم يوسف عليه السلام خرج من السجن، وعفا عنه الملك ومكنه في الأرض فإنّ أي حاسد له يستطيع أن يصل إلى الملك، ويقول: هذا خائن، لقد خان سيده عزيز مصر، لكنه حينما رفض أن يخرج حتى تثبت براءته، وحتى يثبت للملك براءته فعل هذا حتى يقطع الطريق على كل حاسد واشٍ من أن يصل إلى الملك ، إنها حكمة بالغة في عدم خروجه من السجن .

شيء آخر، لو أنه قال للملك: اسأله ما قصتي، الملك قد ينسى الموضوع، اسأله لماذا دخلت السجن؟ هو رجل دخل السجن، لكن حينما ذكر له بعض التفصيلات، ما بال النسوة التي قطعن أيديهن؟ جعله في موطن الجواب، فالملك لا ينبغي أن يكون جاهلاً فيما يجري في ملكه، حثه على التحقيق، أعطاه حادثة غريبة تستدعي التأمل، ستر امرأة العزيز إكراماً لزوجها، وستر العزيز، ذكر نسوة لا دخل لهن في الموضوع، ولسن متهمات في المراودة، إنما هن شاهدات على براءة يوسف، إذاً: في هذه الكلمة التي قالها هذا النبي الكريم حكمة ما بعدها حكمة، وسداد ما بعده سداد، وهذا شأن الأنبياء، قال تعالى :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة)

قالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ

ملك يبدأ التحقيق :

يبدو أن الملك استفزه هذا السؤال و استثاره، فجمع النسوة اللاتي حضرن هذه القصة، ويبدو أنّ امرأة العزيز كانت معهن، وسيأتي الدليل، وسألهن، قال تعالى :

(قالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة يوسف)

من هنا استنبط العلماء أيضاً أن هؤلاء النسوة حينما أردن أن ينصحن يوسف أن يستجيب لامرأة العزيز، استغللن هذا الموقف وراودنه عن نفسه، إذاً: هذه تهمة مشتركة، قال تعالى :

(قالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ)

(سورة يوسف)

جواب النسوة :

هذا جواب النسوة مجتمعات، هذا اسمه التواتر، أي جمع غفير يروي قولاً واحداً، يروي جواباً واحداً، لذلك القاضي أحياناً يفرق الشهود، فإذا اضطربت أقوالهم، وتناقضت عُدت شهادتهم باطلة، فإذا قالوا جميعاً رواية واحدة فهذا يؤكد صدق روايتهم، جميع هؤلاء النسوة قلن :

(قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ)

(سورة يوسف)

الإقرار سيد الأدلة :

عندئذ قالت امرأة العزيز :

(الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ)

(سورة يوسف)

أي ظهر الحق .

(أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ)

أنا المذنبة، وهو بريء وعفيف، قال تعالى :

(أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ)

(سورة يوسف)

يوم قال:

(هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)

(سورة يوسف : الآية 26)

لا تضع نفسك موضع التهمة :

حينما قال هذه المقولة أمام العزيز كان صادقاً، والصدق ما شهدت به الأعداء، النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجعل نفسه موضع التهم))

ورد في الأثر

لا تقف موقف التهم، ثم تلوم الناس إذا اتهموك، والعلماء قالوا: إن الاجتهاد في نسج التهمة واجب وجوب الدفاع عن المذنب البريء، إذا كنت بريئاً من الذنب وجب أن تدافع عن نفسك، هذا لاشك فيه، هناك واجب آخر وهو ألا تضع نفسك موضع التهمة، أن لا تدخل إلى بيت ليس فيه رجل، أنت بريء ولكن يُظن بك الظنون، أنت وضعت نفسك موضع التهمة، لا تدخل إلى محل تجاري صاحبه غائب، تدخل وتقلب في البضاعة، ثم تخرج، فإذا فقد شيء يُقال له: رأينا فلاناً في محلك في غيبتك، لا تضع نفسك موضع التهمة، ثم تلوم الناس إذا اتهموك، والنبي عليه الصلاة والسلام كان في أحد ليالي رمضان معتكفاً، جاءته أم المؤمنين صفية رضي الله عنها، فحينما أراد أن يذهب معها إلى البيت ليوصلها رآه صحابيان جليلان فعن صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَلَى رِسْلِكُمَا؛ إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ !!! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا))

متفق عليه

إذا كنت في محل تجاري، ودخلت أختك، وسألتها عن صحتها، وعندك صديق، فقل له: هذه أختي، لئلا يظن بك الظنون، البيان يطرد الشيطان، لا تضع نفسك موضع التهمة، ثم تلوم الناس إذا اتهموك .

إذاً: الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء مظانها، هكذا قال العلماء، وقال عليه الصلاة والسلام:

((إياك وما يعتذر منه))

مصنف ابن أبي شيبة

لو أنك سافرت، و أوكلت أخا زوجتك في رعاية شؤون البيت، فأعلِم الجيران أن لزوجتي أخًا سوف يأتي في غيبتي لئلا يذهبن بهم الظن مذاهب لا تليق بك، دائماً العاقل والحكيم لا يسمح في تصرفاته للشك والظن .

إذا جئت إلى سوق في ساعة متأخرة من الليل، و أنت مضطر أن تأخذ ورقة أو سندا، و كنت في اليوم التالي مسافراً، فأعلم حارس السوق أنني جئت لآخذ هذا السند لئلا يظن بك الظنون، فالعاقل دائماً واضح قال عليه الصلاة و السلام :

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

ابن ماجه عن العرباض بن سارية

رأي النبي عليه الصلاة والسلام من رفض يوسف الخروج من السجن :

سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول :

((وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، ثُمَّ جَاءَنِي الرَّسُولُ أَجَبْتُ ، ثُمَّ قَرَأَ :

(فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)))

ابن ماجه عن أبي هريرة

فكيف يقول النبي عليه الصلاة والسلام هذا القول؟ العلماء حللوا هذا القول، أي هذا الذي فعله يوسف شيء يطيقه نبي، لكن عامة المؤمنين، لو كان الإنسان في سجن، وأمضى به سنوات عديدة، وجاءه أمر إطلاق سراحه، وكان مظلوماً، لو قال: أنا لا أخرج حتى تظهر براءتي، فهناك احتمال كبير أن يقول من بيده الأمر: دعوه إذاً، فكأن النبي عليه الصلاة و السلام أراد أن يخفف عن أمته، قد لا يستطيع المؤمن العادي أن يرفض الخروج من السجن، فقال عليه الصلاة و السلام انطلاقاً من قوله الكريم :

((سيروا بسير أضعفكم))

ورد في الأثر

((وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، ثُمَّ جَاءَنِي الرَّسُولُ أَجَبْتُ))

ابن ماجه عن أبي هريرة

عندنا رخص، وعندنا عزائم، سيدنا يوسف نبي، سمعته كنبي أغلى عليه من إطلاق سراحه، لكن لو أنه إنسان ضعيف، و دخل السجن ظلماً، و جاءه أمر إطلاق سراحه قد لا يكلفه أن يرفض الخروج حتى تظهر براءته، لذلك جاء النبي عليه الصلاة و السلام وغطى هذه الناحية، وأعطى لأتباعه من بعده سماحاً أن يخرجوا إذا ضاق بهم السجن، و ضاق عليهم الأمر، قال تعالى :

(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة يوسف)

توبة امرأة العزيز وتبرئتها ليوسف :

يستنبط من هذا القول أنها تابت .

(وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ)

ذلك ليعلم أي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب، أي حينما قلت للعزيز سيدي :

(مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا)

أنا افتريت على يوسف، ألصقت به تهمة الخيانة، إنما فعلت هذا ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب :

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف)

هنا ليعلم، أي ليعلم زوجي، الفاعل هنا زوجي، و بعض العلماء وجه هذا الفعل ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب، كأنها تعتذر ليوسف بأنها في غيبته بالسجن ما ألصقت به تهمة باطلة، أي بعد أن ألصقت به التهمة بزوجها ندمت ثم قالت :

(وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ)

على كل، لنا أن نفهم ذلك: ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب، أو ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب، أي في غيبته لم أبالغ في الحديث عن خيانته، بل برأته من هذه التهمة، لكن :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : الآية 52)

قاعدة عامة : وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ

هذه قاعدة :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

هذا مبدأ، وهذه سنة من سنن الله في الأرض باقية على الدوام، الله سبحانه و تعالى يكشف الخائن، ويوقعه في شر عمله يفضحه بين خلقه، يحبط عمله، مبدأ ثابت، الله سبحانه وتعالى لا يحب من كان خواناً أثيماً، لا يحب الخيانة :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

إخوة يوسف خانوا أباهم، وخانوا أخاهم فكانوا في أسفل سافلين، يوسف رفعه الله إلى أعلى عليين، امرأة العزيز خانت زوجها، ففضحها الله عز وجل :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

امرأة العزيز وقعت في الخيانة :

وقال العلماء: هذا تعريض بامرأة العزيز، أي أن امرأة العزيز كانت خائنة، وهذا تعريض بالعزيز نفسه، كيف يسمح العزيز لنفسه بعد أن تأكد من براءة هذا النبي الكريم حينما قال تعالى :

(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ (26)وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ (27)فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28)يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا)

(سورة يوسف)

أي استرنا يا يوسف، أنت يا عزيز مصر تيقنت من براءة هذا الغلام الطاهر، كيف تزج به في السجن؟

هذه الآية تعرّض بهذا النبي الكريم، وتعرّض بالعزيز نفسه، لأن العزيز خان الأمانة، أمانة الحكم، قال تعالى :

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي)

(سورة يوسف)

الآن مع حوار، لكن الحوار منسوب إلى شخص معين :

(وَقَالَ الْمَلِكُ)

هذا قول الملك .

(قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ)

هذا قول امرأة العزيز .

أما :

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ)

(يوسف : الآية 52)

فليس قبل هذه الآية كما في سابقتها قال فلان، هذا حوار، ولكن لم يذكر ربنا عز وجل من قال هذا الكلام، وهذا أبرع نوع في الحوار، أن يأتي في القصة حوار لم يُذكر من قاله، ويحتمل أن يقوله أحد الطرفين، ففي حوار آخر أن يوسف عليه السلام قال :

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ)

(يوسف : الآية 52)

لماذا قلت :

(هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)

(يوسف : الآية 26)

لماذا قلت :

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

يمكن أن يكون هذا الكلام لسيدنا يوسف ، على كل سنتابع الحوار على أنه لامرأة العزيز ، قال تعالى :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52)وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي)

(سورة يوسف)

من قبل اتّهمته زوراً، رغبت فيه، وهذه خيانة، واتهمته ظلماً، وهذه خيانة، يعني أني ارتكبت خيانتين؛ خيانة المراودة وخيانة الظلم .

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ

قال تعالى :

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)

(سورة يوسف)

الأنفس ثلاثة أنواع :أمارة بالسوء ولوامة ومطمئنة :

العلماء قالوا: في القرآن الكريم أنفس ثلاث: نفس أمارة بالسوء، هي نفس الجاهل، نفس المُعرض، نفس المنقطع عن الله عز وجل، ونفس لوامة، وهذه نفس المؤمن، قال تعالى :

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1)وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

(سورة القيامة)

من ساءته سيئته، وسرته حسنته فذلكم المؤمن، من علامات الإيمان الصادق أن تسوؤك سيئتك، وأن تسرك حسنتك، هناك علامات كثيرة، المنافق ذنبه كذبابة دفعها، والمؤمن ذنبه كالجبل جاثٍ على صدره، علامة الإيمان أن يكبر عليك ذنبك، وعلامة النفاق أن ترى ذنبك صغيراً، علامة الإيمان أن ترى نفسك صغيراً، وأن يراك الناس كبيراً، وعلامة النفاق أن ترى نفسك كبيراً، ويراك الناس صغيراً، وقد قال عليه الصلاة والسلام من أدعيته الشريفة :

((اللهم أرني بعين نفسي صغيراً ، وبأعين الناس كبيراً))

ورد في الأثر

أما المنافق فيرى نفسه كبيراً، وهو عند الناس صغير، قال ربنا عز وجل :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

هكذا هذه بنيته لمصلحته، فحيث وردت كلمة النفس من دون تقييد، أو حيثما وردت كلمة الإنسان يعني الإنسان المنقطع عن الله عز وجل بحسب بنيته، أما المصلي فليس جزوعاً ولا منوعاً ولا هلوعاً :

(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)

(يوسف : الآية 53)

إجراء قوله : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) أنه من يوسف

وإذا أجرينا هذا الكلام على أنه لسيدنا يوسف قال تعالى :

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ)

(سورة يوسف : الآية 53)

دافعت عن نفسي، وقلت :

(هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)

(يوسف : الآية 26)

ليعلم سيدي الذي أحسن مثواي :

(لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(يوسف : الآية 52)

تعريض بامرأة العزيز وبالعزيز نفسه، وبالتعريض بلاغة عن التصريح .

يروى مرة أن الأحنف بن قيس كما يصفه الواصفون كان قصير القامة، غائر العينين، ناتئ الوجنتين، ضيق المنكبين، أسمر اللون، أحنث الرجل، أي يعرج، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، كان دميماً، تتفاداه الأعين، وتنبو عنه الأبصار، وكان مع ذلك سيد قومه، إن غضبَ غضب لغضبته مائة ألف سيف، لا يسألونه فيم غضب؟ لعظم شأنه عندهم، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه، حضر مرة مجلس معاوية بن أبي سفيان، وكان قد جمع وجهاء القوم ليأخذ البيعة لابنه يزيد، وتكلم الناس، وأطروا، وأثنوا، ومدحوا، وبالغوا كما هي عادتهم، فلما بقي الأحنف ساكتاً أربك المجلس، وأحرج معاوية، فقال له معاوية: تكلم يا أحنف، ما رأيك؟ قال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فكان تلميحاً أبلغ من تصريح، وهناك مواقف حرجة الإنسان يستطيع أن يكني، من دون أن يصرح، أن يعرِّض من دون أن يبين، قال تعالى :

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)

الله خلق الشهوة في النفوس :

تحليل أمارة بالسوء، أي أنّ الله سبحانه وتعالى خلقها أمارة بالسوء، إن كان خلقها كذلك فنحن لنا حجة عندئذ، يا رب، نحن لم نعمل شيئاً، أنت خلقت أنفسنا أمارة بالسوء، ففعلنا شيئاً فطرتنا عليه، وجبلتنا عليه، فما ذنبنا ؟

الحقيقة أنّ الله عز وجل خلق في نفوسنا أو أنفسنا شهوات، قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران : الآية 14)

حينما أودع الله في قلوبنا وفي أنفسنا هذه الشهوات أودعها لنرقى بها إلى الله، هذا أصل الخلق، كيف ترقى عند الله حينما تغض بصرك عن امرأة حسناء لا تشتهيها في الأصل؟ لا قيمة لهذا الغض، كيف ترقى عند الله إذا أنفقت مائة ليرة وليس المال محبباً عندك؟ لا ترقى، لا يمكن أن تكون جنة من دون شهوات .

حديث ومعناه :

حتى إنّ في الحديث :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

صحيح مسلم

هذا الحديث له معنى دقيق، حتى لا يظن السامعون أن الإنسان عليه أن يذنب، ليس هذا هو المعنى ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

صحيح مسلم

المعنى الأول: الذنب هنا يعني الإحساس بالذنب، إذا أحس الإنسان على ذنبه فهو طاهر، إذا ظهر على ثوبه بقعة سوداء صغيرة جداً فمعنى هذا أن ثوبه أبيض، فإذا كان ثوبه أسود اللون، وممتلئاً بالأقذار لا تظهر عليه بقعة سوداء، إذاً لو لم تذنبوا بمعنى إن كنتم طاهرين، إن كنتم تنطوون على حاسة أخلاقية واقترفتم ذنباً تحسون بهذا الذنب، هذا المعنى ذكرته من قبل .

هناك معنى آخر: هذه الطاولة لا تحب ولا تكره، ولا تشتهي، ومادامت هذه الطاولة لا تشتهي، ولا

تكره، ولا تحب لا ترتقي، ولا ترتقي إلا إذا كنت تشتهي، قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

لأن النوم محبب والفراش وثير يجلب الإنسان إليه كانت قيمة صلاة الصبح ، قال تعالى :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ)

(سورة السجدة : الآية 16)

فالنفس في طبيعتها مزودة بهذه الشهوات، أنت حينما تعطي سلاحاً لجندي، إنّ هذا السلاح تعطيه لهذا الجندي كي يدافع به عن نفسه في ساحات الحرب، أو يقتل عدوه الذي يريد قتله، فإذا جاء الجندي بهذا السلاح، وقتل أحد أقربائه فهذا الخطأ ليس في السلاح، وليس في إعطائك السلاح له، لا، فالخطأ خطؤه هو، فالنفس حينما زودها الله بهذه الشهوات إنما زودها بها لترقى، ولا ترقى إلا بالشهوات، وهذه حكمة بالغة، ولكن الإنسان من دون أن يقبل على الله عز وجل يقع في العمى، وإذا وقع في العمى وقع في الخطأ، فالخطأ بسبب إعراضه .

الشهوة حيادية متوقفة على استعمالها :

إنّ السيارة وهي منطلقة بسرعة عالية مادام وراء المقود سائق يقظ ماهر متمكن من قيادته فالسيارة تحقق هدفها الذي صنعت من أجله، لكن السائق إذا كان أرعن أو جاهلاً أو غافلاً أو أصابته سِنة من النوم فلابد من أن يخرج عن خط الطريق الصحيح، فخروج سيارة عن خط سيرها وتحطمها أتُلام الشركة على ذلك؟ لا، حينما زودت هذه السيارة بمحرك قوي من أجل أن تنقلك إلى هدفك لا من أجل أن تنزل به إلى الوادي، فغفلتك أوقعتك بالوادي، فحتى لا يظن الإنسان لأن النفس أمارة بالسوء هذا كلام يتناقله العامة، خلق لنا نفساً أمارة بالسوء، أكثر الناس يفعلون المعاصي، ويغطون أنفسهم بهذه الآية :

(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)

هذا هو التفسير، لابد من أن تكون النفس مشتهية، لابد من أن تزود بالشهوات كي ترقى إلى رب السماوات، لكن إذا كانت الشهوة، ومعها النور الإلهي شهوة النساء تنقلب إلى أسرة سعيدة، أسرة المؤمن جنة .

الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ :

قرأت قصة عن أحد العلماء كان غنياً، فكان يرتدي أفخر الثياب، ويركب أجمل الأحصنة، فرآه يهودي يعمل عملاً قذراً ، وهو فقير، شقي، جائع، وقد سمع هذا اليهودي حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))

مسلم عن أبي هريرة

فلما وقعت عين هذا اليهودي على هذا العالِم الذي يركب حصانه، ويرتدي أجمل ثيابه، بدرت منه هذه الكلمة، قال له : أي سجن أنت فيه، وأية جنة أنا فيها؟ شيء محير ، يقول نبيكم :

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))

مسلم عن أبي هريرة

فأي سجن أنت فيه وأنت على ما أنت عليه من غنى ورفاه وعز وشأن؟ وأي جنة أنا فيها على فقري وشقائي وحرماني وتعاستي؟ فأجابه هذا العالِم إجابة أسلم من فوره، قال له: إنّ حالك هذه التي تشكو منها إذا قيست بما ينتظرك من عذاب أليم فأنت في جنة، وإنّ حالي التي تراها إذا قيست بما ينتظرني من نعيم مقيم فأنا في سجن .

الحقيقة عندما يتأكد الإنسان من هذا الحديث :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

متفق عليه عن أبي هريرة

إذاً: طبيعة النفس أودع الله فيها الشهوات، مثلاً: الهرة ترغب أن تأكل اللحم إذا أعطيتها قطعة من اللحم، وأمرتها أن توصلها إلى البيت الفلاني، ماذا تفعل في الطريق؟ تأكلها، هي لا تعقل، وليس فيها فكر تفهم به كلامك، وليس عندها قيم لتحافظ على هذه القطعة، شيء طبيعي، نفس الكافر كهذه الهرة، مشتاقة إلى حاجات، حيثما رأى طعاماً يأكله، سواء أكان له أو ليس له، هذه سرقة، وحيثما رأى امرأة يشتهيها، كانت تحل له أو لا تحل، قال تعالى :

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

(سورة الحجر)

هذا الذي ينساق مع شهواته هو حيوان، عودة إلى الحيوانية، دائماً وأبداً أنا أرفض نظرية داروين، وأرد عليها، إلا في الأيام الأخيرة بدأت أقتنع بها، لكن على شكل معكوس، أي أنه كان هذا الإنسان إنساناً فصار قرداً من شدة تهافته على الشهوات، وانغماسه في الملذات، وضربه عُرض الطريق بالقيم والمبادئ، كان إنساناً فصار قرداً، مُسخ قرداً بعد أن كان إنساناً، قال تعالى :

(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)

(سورة يوسف)

المؤمن نفسه لوامة، قال تعالى :

(وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

(سورة القيامة)

المؤمن نفسه لوامة، والتقي نفسه مطمئنة، و البعيد عن الله عز وجل نفسه أمارة بالسوء، إن النفس إذا قطعت عن الله لأمارة بالسوء، قال تعالى :

(لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة يوسف)

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي

قناعة الملك ببراءة يوسف :

تحقق الملك، وسأل، وتبين، ووصل إلى قناعة تامة بأن هذا السجين الفتى كان بريئاً وطاهراً وعفيفاً، وأنه دخل السجن ظلماً، سمع من علمه، ورأى من عفته، فماذا بقي على الملك أن يقول، قال تعالى :

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي)

(سورة يوسف)

في المرة الأولى قال فقط :

(ائْتُونِي بِهِ)

(سورة يوسف : 54)

أما الآن فتابع قائلاً :

(أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي)

(سورة يوسف : 54)

الملك يريد تقريب يوسف منه :

لأجعله من المقربين، لأجعله من خاصة حاشيتي، لأجعله عندي الوزير الأول عزيز مصر، فلما كلمه رأى علماً، قالوا: المرء مخبوء بين ثوبين، ورأى منطقاً، ورأى حكمة، فهو نبي حدّث عنه ولا حرج، ما ظنكم لو أن الله سبحانه وتعالى جمعنا بنبي يستهوينا ويسحرنا بكماله، برقته، بتواضعه، بعلمه، بذكائه، بفطنته، ويجب أن يكون المؤمن على شيء من ذلك، عفة إلى إنصاف، إلى حلم، إلى عفو، إلى

كرم، إلى شجاعة، إلى دقة، إلى عدالة، قال تعالى :

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)

(سورة يوسف)

إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ

أنت الآن بأقوى مركز، من البئر إلى القصر خادماً، إلى قصر الحكم عزيز مصر، قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

(سورة يوسف : الآية 100)

هذه القصة تنطبق على كل مؤمن :

والله الذي لا إله إلا هو هذه القصة تنطبق على كل مؤمن إلى يوم القيامة، كن عفيفاً لابد من أن تكافأ بأحسن زوجة في الأرض، كن أميناً لا بد من أن تعيش في بحبوحة، كن صادقاً لابد من أن تعيش في مكانة علية، كل شيء تحاسب عليه في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى :

(إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)

(سورة يوسف)

كل دواعي الوقوع في الفاحشة متوفرة :

بعض العلماء حلل عقدة سيدنا يوسف، مثلاً: لو أنّ شيخاً طاعناً في السن راودته امرأة العزيز، فقال: معاذ الله، تجاوز هذه المرحلة، له أجر، ولكن ليس كأجر هذا الشاب، فالعلماء جمعوا نقاطاً دقيقة جداً ترفع من قيمة هذه العفة، أول نقطة قالوا: إن حب النساء طبع ركّبه الله في الإنسان، وكثير من الناس يحب الشهوات من النساء، ومع ذلك قال: معاذ الله .

شيء آخر، كان هذا النبي شاباً، فلو كان شيخاً كبيراً لما كان له أجر هذا الشاب، لذلك ما من شيء أحب إلى الله تعالى من الشاب التائب، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب التائب، يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد .

يا معشر الشباب، هذه السورة لكم، هو بشر، إذاً ركّب الله به حب النساء، ومع ذلك خالف الهوى، قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

الذي ركّبه الله فيه .

شيء آخر، كان شاباً، ولا يخفى ما عند الشباب من توقُّد، ومن فتوة، ومن شهوة متّقدة، وكان شاباً عازبا، لو كان متزوجاً وقال: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، لكان له أجر، ولكن ليس كأجر هذا الأعزب الذي ما عرف النساء، وكان غريباً، والإنسان الغريب تدعوه نفسه إلى المعصية أكثر مما تدعوه إذا كان مقيماً، لذلك كلما كان المجتمع قليل العدد كان منضبطاً، الإنسان معروف، أخلاق القرية أرقى من أخلاق المدينة، لأنه معروف في قريته، أما في المدينة فهناك أمم لا يعرفها إلا الله، إذاً: كان بحكم أنه بشر مركب فيه هذه الشهوة، وكان شاباً، وكان عازبا، وكان غريباً، ودعته امرأة، لم تدعه امرأة دميمة، قبيحة، دعته امرأة ذات منصب وجمال، ولم تكن هذه المرأة ذات المنصب والجمال متأبيّة عليه، بل كانت خاضعة له، وهذا مما يسهل له اقتراف هذه الشهوة، ولم يكن هو الطالب، بل كانت هي الطالبة، ولم تكن متأبية عليه، وكانت ذات منصب وجمال، وكان غريباً، وكان عازبا، وكان شاباً، وقد ركب فيه هذا الطبع، وكان في دارها، وغلقت الأبواب، وكانت متأكدة من كتمان الأمر، وكان لا يخشى أن تشكوه إلى أحد، لأنها هي التي طلبت، وإذا شكته تقع في شر عملها، وكان مملوكاً يُلقى عليه الأمر بيدها ضمن سلطتها، واستعانت عليه بنسوة كثر، حينما أقنعته أن يستجيب لها، وتوعدته بالسجن، وزوجها ليس غيوراً، هو مطمئن، قال تعالى :

(قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

هذا الذي فعله زوجها، بدل أن ينفجر، بدل أن يبعده عنها، أبقى كل شيء على حاله، وقال، قال تعالى :

(إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28)يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا)

(سورة يوسف)

إذاً بدا الزوج ليس غيوراً، بل متساهلاً، قال تعالى :

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54)قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيم

القرآن ما ذكر أن الملك استجاب له أم لم يستجب، لكن العلماء استنبطوا أن مكانته القوية والعلية عند الملك تجعل طلبه محققاً فوراً، أي عدم ذكر أن الملك استجاب له ووافق على اقتراحه تكريم لهذا النبي الكريم، وشيء بديهي، يقول لك أحدهم: كنا بالحرب الفلانية وانفجر لغم أمامنا، تقول له: هل مت أنت،

كيف ذلك؟ وهو أمامك يتكلم إليك، طبعاً كل شيء إذا فهم من دون أن يذكر لا ينبغي أن يذكر، البلاغة في الإيجاز .

استنباط لطيف : هل يجوز تزكية النفس ؟

أما كلمة :

(إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

أيجوز أن يزكّي المرء نفسه ؟ هذا سؤال دقيق ، ربنا عز وجل قال :

(فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ)

(سورة النجم : الآية 32)

إياكم أن تزكوا أنفسكم .

استثناء مهم :

العلماء استثنوا، فإذا كان الناس في ورطة، وليس أحد يستطيع أن ينقذهم منها، وكان الرجل واثقاً من قدرته، يجب أن يقول: أنا أستطيع أن أنقذكم منها، هناك حالات شاذة، لو أنّ في البلدة منصب لقاضٍ، ولم يتقدم أحد لشغل هذا المنصب، وكان أحد الرجال واثقاً من علمه، واثقاً من نزاهته، واثقاً من عدالته، وقال: أنا أشغل هذا المنصب، هذا يجوز، في الأصل :

(فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ)

(سورة النجم : الآية 32)

هذه واحدة .

لا تزكِّ على الله أحدًا :

والأصل الثاني: لا تزكِّ على الله أحداً، كان أحد العلماء إذا طُلبت منه تزكية رجل يقول: أعلم فلانا كذا وكذا وكذا، والله أعلم، فإن بدّل وغيّر، كلام سيدنا الصديق فهذا علمي به، ولا أعلم الغيب، أنا أعلمه أرحم أمة محمد بأمة محمد، حينما ولاّه الخلافة من بعده، خوّفه بعض الناس، وقالوا: كيف تولي عمر، وعمر من الشدة كما تعلم؟ قال: أتخوفونني بالله؟ أقول: ربي وليت عليهم أرحمهم .

سيدنا عمر قال له أبو ذر: إنّ الناس خافوا شدتك فبكى ،فقال: والله يا أبا ذر لو علم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكنّ الأمر لا يناسبه إلا كما ترى، لابد من شدة ظاهرة كي ينصاع

الناس، إنّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن .

إذاً: يجوز أن تقول إذا كان الناس في ورطة وفي أزمة: أنا أفعل كذا وكذا، هذا بإمكاني وبقدرتي، هذه حالة استثنائية، قال تعالى :

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

الحفظ والعلم مقياسان للمسؤولية :

حفيظ عليم مقياس خالد، فإذا أردت أن تعين موظفاً فلابد من صفتين اثنتين، الأولى الكفاءة، أي هو أهل لهذا المنصب، والثانية الأمانة والإخلاص، مخلص لمبدئك، وكفءٌ في عملك، سيدنا عمر أخذ من قوله تعالى :

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص)

كتب كتاباً عين به أحد الولاة وقال له: " خذ عهدك وانصرف إلى عملك، واعلم أنك مصروف رأس سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال، فاختر لنفسك؛ إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلناك لضعفك، وسلمتك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك، وأوجعنا ظهرك، وأحسنا أدبك، وإن جمعت الجرمين الضعف والخيانة جمعنا عليك المضرتين العزل والتأديب، وإن وجدناك أميناً قوياً زدناك في عملك، ورفعنا لك ذكرك، وأوطأنا لك عقبك "، أي أعداءك، إني حفيظ أي أمين ، عليم أي كفء ، الحفيظ يعني المخلص، أحافظ على العهود والمبادئ، عليم خبير بهذا الأمر .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ

قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ)

(سورة يوسف)

يوسف له الحرية المطلقة في التصرف في مصر :

أيّ مكان يذهب إليه هو حر طليق، تقول بعض الروايات: إنّ ملك مصر ترك الملك كله له، وجد علماً وحكمة، وشخصية وطهراً، وعفافاً وعدالة، فسلمه قياد مصر كلها، وانزوى في قصره، قال بعضهم: أيجوز أن تعمل عند ظالم كافر؟ الجواب نعم ولا، أما نعم إذا أعطاك الحرية المطلقة، وكّلك قاضياً،

وقال لك: احكم بين الناس بالعدل، يا حبذا هذا المنصب، بهذا أحقق العدالة في المجتمع ولو كنت معيناً من قبل حاكم ظالم، أما إذا تدّخل في شؤونك اليومية، احكم في هذه القضية كذا وكذا، أصدر حكماً ببراءة فلان، أصدر حكماً باتهام فلان، فهذا لا يجوز، والعلماء وصلوا إلى حلّ كيف عمل هذا النبي الكريم عمل رئيس وزراء عند فرعون أو عند الملك؟ وأغلب الظن أن هذا الملك لا يعرف الله عز وجل، هل يجوز؟ ما دام قد أطلق صلاحيته فنعم، قال له :

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ)

(سورة يوسف)

ما دام قد أطلق يده في أن تفعل ما تشاء ، يجوز ، لو قيده لا يجوز ، قال تعالى :

(يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

ولأجر الآخرة، هنا دقة بالغة؛ أن هذا النبي الكريم كان في البئر، ائتمر عليه إخوته، وصل إلى القصر خادماً، دخل السجن، ثم بعدها صار عزيز مصر، مصر كلها بيده، مقدراتها بيده، أمره نافذ، وأيّ مكان ذهب إليه يستقبله على الترحاب، هذه للدنيا والدنيا زائلة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (07-11): تفسير الآيات 58 – 76 ، بداية النهاية الحزينة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-06-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

يوسف على رأس خزائن مصر :

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي في سورة يوسف وقصته إلى قوله تعالى :

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

(سورة يوسف)

قال العلماء في هذه النقلة من قوله تعالى :

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(56)وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

(سورة يوسف)

تولى يوسف عليه السلام وزارة التموين إن صح التعبير، وجاءت سبع سنوات خيِّرات، فغلَّت الأرض غلات لم تكن في الحسبان، وتولى هذا النبي الكريم الحفيظ العليم تخزين هذه الغلات لسبع سنوات أخريات عجاف، وجاءت السنوات العجاف، وعمّ القحط بلاد مصر والشام، وضاقت المكاسب بأهلها، فتوجه أبناء الشام في أرض كنعان إلى مصر ليشتروا القوت و القمح، كل هذا الكلام نُقل بين آيتين، وجاء إخوة يوسف؛ أرسلهم أبوهم ليشتروا القمح من مصر، جاءوا مصر فدخلوا عليه - والفاء تفيد الترتيب على التعقيب - بينما ثم تفيد الترتيب على التراخي، وفي هذه الآية إشارة إلى أن هذا النبي الكريم ، وذلك الحفيظ العليم كانت أموره ميسرة، فليس على أبوابه حجّاب يمنعون الناس من الوصول إليه، ما إن جاءوا مصر حتى دخلوا عليه، قال تعالى :

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ)

(سورة يوسف)

يوسف يعرف إخوته لأول نظرةوهم لم يعرفوه :

قد يقول قائل: لقد عرف أنهم إخوته فأمر بإدخالهم قبل غيرهم، الجواب: فدخلوا عليه فعرفهم، عرفهم بعد أن دخلوا عليه، جاء إخوة يوسف كمواطنين عاديين فدخلوا عليه، مَنْ توِّهم بعد أن دخلوا عليه عرفهم، ومِنْ استخدام هاتين الفاءين إشارة إلى أنّ هذا النبي الكريم كان بابه مفتوحاً للناس كلهم، أي إنسان يستطيع أن يصل إليه من دون تعقيد :

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ)

(سورة يوسف)

كيف عرفهم؟ لأنه حينما كان صغيراً كانوا هم قد اكتملت بنيتهم، واتضحت معالمهم فصورتهم هي هيَ، لكنه كان صغيراً، كَبُرَ، وصار عزيز مصر، فاختلفت ملامحه من سن إلى سن، هم لم يعرفوه لكنه عرفهم، لم يعرفوه لأنهم تركوه في غيابة الجب، وتوقعوا أنه قد مات، أو أنه قد أخذه بعض السيارة فباعوه عبداً رقيقاً، أما أن يكون هذا الذي تركوه في غيابة الجب عزيز مصر فهذا لم يكن في حسبانهم، حينما جاءوا مصر من بلاد الشام دخلوا عليه مباشرة فعرفهم بعد أن دخلوا عليه :

(فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)

(سورة يوسف)

الذي نستفيده من هذه الآيةعمليّاً :

لكن الذي قاله العلماء في هذه الآية: إنّ هذا النبي الكريم ذاع صيته في الخافقين من حيث الرحمة والرأفة واللين والعطف والتواضع والمودة والإنصاف والعدل، نبيٌّ كريم كيف تكون أخلاقه؟ وإذا كان من علاقة بيننا وبين هذه الآية، إذا كنت أيها الأخ الكريم موظفاً، إذا كنت مؤمناً، لابد من أن يتحدث الناس عن إحسانك، وعن تواضعك، وعن إنصافك، وعن حبك للخير، وعن حبك لخدمة الناس والمواطنين، ولاسيما المراجعين، إذا كنت موظفاً مؤمناً، وقال الناس: ليس لهذا الموظف مثيل لا في تواضعه، ولا في خدمته، ولا في تسهيله على الناس أمورهم .

دخل مواطن على موظف ومعه معاملة، فرأى تعقيدات ليست في الحسبان، هذه لا يمكن أن نوافق عليها، وهذه لا يمكن، فقال له: يسِّرها، فقال: ألا تعلم أن شعارنا هنا ربي عسِّر ولا تيسِّر .

إذا كنت مؤمناً، وكنت موظفاً لابد من تيسير أعمال الناس، وتسهيل مهماتهم، لابد من خدمتهم، من التواضع لهم من إنصافهم، أما إذا استعليت عليهم، وعقدّت عليهم الأمور، ووضعت أمامهم شروطاً تعجيزية كي يدفعوا، فهذا الموظف من المغضوب عليهم ومن الضالين:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(سورة الفاتحة)

فهذا النبي الكريم ذاع صيته، وتحدث الناس عن إحسانه، وسار الركبان بأخباره، ذاعت أعماله الطيبة في مصر والشام، أتوه من أطراف الدنيا ليأخذوا منه القمح والشعير وقوتهم.

وقد قيل: إنّ هذا النبي الكريم كان يباشر توزيع الأقوات بنفسه، وعلى حسب رؤوس الأسرة، وكان هذا النبي الكريم فيما ترويه الكتب قد آثر أن يأكل في اليوم وجبة واحدة، ليضع نفسه مع الناس، مادام هناك شدة وقحط، وهناك قوت يسير ونزر قليل، آثر أن يضع نفسه مع الناس، فألزم نفسه أن يأكل وجبة واحدة .

هكذا كان سيدنا عمر :

سيدنا عمر رضي الله عنه جاءه رسول من أذربيجان وصل المدينة في ساعة متأخرة من الليل، كره هذا الرسول أن يطرق باب أمير المؤمنين في هذه الساعة المتأخرة، فتوجه إلى المسجد، فإذا في المسجد صوت وبكاء، سمع هذا الصوت يقول: رب، أنا واقف ببابك، واقف بين يديك، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأعزيها؟ فقال هذا الرسول: من أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا عمر، قال: أمير المؤمنين! قال: نعم، قال: ألا تنام الليل؟ قال: إن نمت ليلي كله أضعت نفسي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي، بقي هذا الرسول مع أمير المؤمنين حتى صلاة الصبح، فلما انصرف عمر من المسجد اصطحبه معه إلى البيت إكراماً له، دخل إلى البيت قال: يا أم كلثوم ما عندك من طعام؟ قالت: والله ما في بيتنا إلا خبز وملح فقط، فقال: هاته لنا، أكل وأطعم ضيفه وحمِد الله وأثنى عليه، ثم سأل هذا الرسول: ما الذي أقدمك إلينا؟ قال: هدية بعثها لك عاملك على أذربيجان، قال: افتحها، فتحها فإذا هي حلوى نفيسة، فقال: يا هذا أيأكل عندكم عامة المسلمين هذا الطعام؟ قال: لا، هذا طعام الخاصة، قال: أوَ أعطيت الفقراء في المدينة مثل ما أعطيتني؟ قال: لا، هذه لك خصيصى، قال: اذهب فوزعها على فقراء المدينة، وحرام على بطن عمر أن يذوق طعاماً لا يأكله عامة المسلمين .

سيدنا يوسف ألزم نفسه أن يأكل وجبة واحدة في سنين القحط، وسيدنا عمر مرة حرم نفسه طعام اللحم أشهراً طويلة حتى قرقر بطنه، فقال لبطنه: قرقر أيها البطن أو لا تقرقر؛ فوالله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبية المسلمين.

حينما بعث هذا الخليفة بوالٍ إلى بعض الأمصار أراد أن يمتحنه فقال له: << ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، ثم قال: إنّ الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإذا وفينا لهم

ذلك تقاضيناهم شكرها ، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية >> .

في الحقيقة الرؤيا التي رآها الملك وقعت، جاءت السنوات العجاف بعد السنوات الخيِّرات .

وشيء آخر؛ هذا النبي الكريم حينما عرف إخوته ضيّق عليهم لحكمة بالغة، قال: أنتم عيون أي جواسيس، قالوا: معاذ الله، إنما جئنا إليك لنشتري طعاماً لنا، قال: كم أنتم؟ قالوا: نحن عشرة، قال: هل خلفتم أحداً في بلادكم؟ قالوا: نعم، نحن كنا اثني عشر أخاً، واحد منا ضاع في البرية - هكذا قالوا - ضاع في البرية، والثاني تركناه عند أبيه لشدة حبه له وحرصه عليه؛ فهذا الذي ضاع في البرية، وهذا الذي تركناه من أم واحدة، ونحن العشرة من أم ثانية .

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ

سيدنا يوسف ضيّق عليهم حتى حملهم على أن يذكروا له تفصيلات كثيرة عن أحوالهم، وهذا النبي الكريم حينما جهزهم بجهازهم :

(وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ)

(سورة يوسف)

ماذا أعطى يوسفُ إخوتَه؟

أي أعطاهم القمح الذي جاءوا من أجله، ثم قال لهم: لابد من أن تحضروا معكم ذلك الأخ من أبيكم :

(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ)

(سورة يوسف)

قال بعضهم: إنه أعطاهم الكيل وزيادة، وقال بعضهم الآخر: إنه أرخص لهم في السعر فكثر نصيبهم من القمح :

(أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

(سورة يوسف)

أكرم ضيافتهم، أكرم مثواهم، أسكنهم في قصره وأطعمهم وسقاهم، وأعطاهم زاداً لرواحلهم وزاداً لهم وزيادة :

(وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ(59)فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)

(سورة يوسف)

الجمع بين اللين والحزم :

إن أتيتم في العام القادم من دون هذا الأخ من أبيكم فلن أعطيكم شيئاً، ولن أسمح لكم بدخول قصري؛ هذه سياسة حكيمة أن تجمع بين الإكرام والتهديد، أن تكون مرغوباً ومرهوباً ، أن يحار الناس فيك، لا ييأس الناس من رحمتك، ولا يتجاوزون حدودك، من السهل جداً أن تكون قاسياً، ومن السهل جداً أن تكون ليناً، لكن البطولة والحكمة في أن تجمع بين اللين وبين الحزم، أكرمهم، أسكنهم في قصره، أطعمهم أحسن الطعام؛ أحسن وفادتهم، أعطاهم الكيل وزيادة، إما أنه أرخص لهم السعر، وإما أنه رفع لهم الكمية، وهددهم قال :

(فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)

(سورة يوسف)

يبدو أنه كان سائداً في ذلك الوقت نظام البطاقات، كيف توزع هذه الأرزاق على سبع سنين؟ لو طرحت في الأسواق دفعة واحدة لاشتراها المحتكرون والمستغلون، وخزنوها ، وضاعفوا أثمانها، لابد من توزيع مقنن محدود على مدار السنوات السبع، ولابد من كمية لا تزيد على الحد المعقول يأخذها كل إنسان ،.

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ

وشيء آخر؛ أنه حينما طلب منهم هذا الأخ رأوا من الصعوبة بمكان أن يأخذوه، لأن تجربة سيدنا يعقوب معهم كانت تجربة مُرّة، إنه لن يصدقهم بعد ذلك، لقد جرحوه، لقد آلموه، لقد حرموه من هذا الابن الكريم، تصوروا أنه لن يعطيهم إياه، لذلك قالوا :

(قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

(سورة يوسف)

قضية معقدة جداً؛ تكاد تكون مستحيلة :

(وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

وقال لغلمانه الذين يعملون في قصره :

(وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ)

(سورة يوسف)

هذا ما صنعه يوسف مع إخوته حتى يرجعوا مرة أخرى :

البضاعة هنا تعني ثمن القمح، لكنّ بعض المفسرين يرجحون أنّ كلمة البضاعة هنا تعني أنهم لا يملكون نقداً لثمن القمح فجاءوا ببعض الحاجات من الشام كالجلود وما شاكل ذلك، وبدل أن يشتروا قمحاً قايضوا على القمح ببضاعة من عندهم، أمر فتيانه أن يعيدوا لإخوته ثمن القمح، أو هذه البضاعة التي جاءوا بها كثمن للقمح :

(وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة يوسف)

استنباط لطيف من هذه الآية :

بعضهم فسّر هذا الموقف تفسيرات عدة، فهو يعلم أن أباه نبي كريم، وأنّ هذا الأب الكريم لا يمكن أن يأكل مالاً حراماً، فإذا وضع ثمن القمح مع القمح فلابد من أن يعودوا إليه مرة ثانية ليعطوه الثمن، هذه بعض التوجيهات .

شيء آخر؛ لعله أعطاهم ثمن بضاعتهم ليتمكنوا في العام القادم من شراء البضاعة، توقع أنهم لا يملكون ثمنها فأعطاهم ثمن البضاعة الحالّة ليشتروا بها بضاعة في العام القادم، هذا توجيه آخر .

وبعضهم قال: استنتج العلماء أنه ما كان للابن أن يأخذ من أبيه ثمن شيء، أبوه وإخوته أمِنَ المروءة أن يأخذ منهم ثمن الطعام، أعاد لهم ثمن الطعام في رحالهم .

وبعضهم قال: إنما أعاد لهم ثمن الطعام كي يحبوه وكي يطمعوا فيه وكي يعودوا إليه، أربع تفسيرات لوضع هذا النبي الكريم ثمن القمح في بضاعتهم :

(وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة يوسف)

لعلهم يرجعون حباً، ولعلهم يرجعون تأدية، ولعلهم يرجعون ليشتروا ما يلزمهم في العام القادم .

عودة الأبناء إلى أبيهم :

(فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ)

(سورة يوسف)

تقديم الأبناء العذرَ لأبيهم في منعهم الكيل :

أي لن يسمح لنا بعد هذا العام أن نتوجه إلى مصر لنشتري القمح :

(يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ)

إن لم ترسله معنا منع منا الكيل :

(وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة يوسف)

لكن هذه الكلمة لن تؤثر في هذا الأب، لأنهم قالوها من قبل، ووضعوه في غيابت الجب ، والإنسان يكذب مرة واحدة ويصدق مائة مرة، وفي المائة مرة يكذبه الناس، إذا كذب مرة وصدق مائة مرة في المائة مرة القادمة يكذبه الناس، أنا أظن أنهم حينما قالوا :

(وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة يوسف)

كانوا صادقين في قولتهم، ولكنهم لأنهم قالوها من قبل وقد كذبوا فهذا النبي الكريم لن يصدقهم في مقالتهم هذه، فقال :

(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة يوسف)

موقف يعقوب من إرسال ابنه مع إخوته :

يبدو أن الأب رأى أنه لابد من إرساله، الطعام شيء أساسي، إذا لم يرسله فلا طعام ولا قمح، لابد من إرساله :

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

جاء في بعض الآثار أن سيدنا يعقوب حينما قال:

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لأردنّ عليك ابنيك معاً بعد أن توكلت علي .

يقول الله تعالى يوم القيامة: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول هذا العبد: يا رب لقد أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين، فقال: عبدي أنا الحافظ لأولادك

من بعدك، أي أن العمر ليس بالذكاء ولكن بتوفيق الله وحفظه .

قرأت خبراً عن طائرة احترقت فوق جبال الألب على ارتفاع يزيد على ثلاثة وأربعين ألف قدم، وهذا ارتفاع الطيران النظامي، احترقت في الجو، عندما احترقت تصدعت، وقع راكب منها، يبدو أن عناية الله حفت هذا الراكب، سقط من ثلاثة وأربعين ألف قدم على غابة مكسوة بالثلج، سماكة هذا الثلج خمسة أمتار فوق أشجار الصنوبر، فنزل على قدميه ولم يصب بأذى .

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

طائرة أخرى تشيكية احترقت قبل مطار دمشق، لم ينج منها إلا راكب واحد وطفل صغير، لم يضعا حزام الأمان، فلما تصدعت نزلا من الطائرة إلى الأرض، والباقون قد احترقوا، كما قال الشاعر :

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلهن أمان

إذا الإنسان سافر فهناك دعاء السفر :

((اللهم أنت الرفيق في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد))

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

إذا توجهت إلى سفر، إذا دخلت إلى بيتك، إذا خرجت إلى عملك، إذا حقت بك المخاطر ، قل :

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(64)وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ)

(سورة يوسف)

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ

بعضهم قال: الفضة، كان ثمن القمح فضة، وبعضهم قال بضاعة .

على كل هذا الثمن الذي دفعوه لسيدنا يوسف أعيد إليهم مع بضاعتهم :

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي)

(سورة يوسف)

تقديم عذر آخر لإرسال الأخ معهم :

ماذا نريد أكثر من ذلك؟ ماذا نطمح أكثر من ذلك؟ ما نبغي؟

(مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا)

(سورة يوسف)

هذه المبالغ التي جمعناها لنشتري بها قمحاً ردت إلينا مع القمح الوفير .

(وَنَمِيرُ أَهْلَنَا)

أي إذا ذهبنا في العام القادم نأخذ قمحاً مرة ثانية، ونعاهدك أن نحفظ أخانا، لقد كنا عشرة فأصبحنا أحد عشر .

(وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ)

طلبه أن نأتي بأخينا .

بعضهم قال: إن هذا النبي الكريم ما كان يعطي الإنسان إلا كيل بعير طول العام، يبدو أن الإنسان يحتاج بطعامه إلى كيل بعير، قدروا ما يحتاجه الإنسان إلى قمح طوال العام كيل بعير :

(ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ(65)قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ)

(سورة يوسف)

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ

اشتراط يعقوب لأبنائه الكفالة والموثق :

أي هذه المرة لا بد من كفالة، العلماء قالوا: في الأشياء العينية كفالة، وفي الأشخاص موثق، والكفيل ضامن، كفيل المال ضامن للثمن، وكفيل الشخص ضامن لدفع الدية، أو لتحمل ما يترتب على غريمه من قصاص :

(قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ)

(سورة يوسف)

استثناء مهم : إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ

فسر العلماء أن يحاط بكم، إلا أن تموتوا، أو تهلكوا بحادث، أو أن تُغلبوا، إذا حاربتم من أجله فغُلبتم فهذا من قبيل أن يحاط بكم ، والإنسان يقول لك: قل: إن شاء الله - يقولها عامة الناس استخفافاً بها - إذا أرادوا أن لا يأتوا في الموعد المحدد يقولون: إن شاء الله، وإذا أرادوا أن لا يدفعوا يقولون: إن شاء الله، بعد أسبوعين أعطيك إن شاء الله، إنهم بهذه الكلمة يتهربون من الوعد الصحيح، لكن هذه الكلمة لها معنى قرآني، إذا كنت مصمماً تصميماً أكيداً على دفع المبلغ أو على الحضور تقول: إن شاء الله، يعني أنا مصمم إلا أن يحاط بي .

تذكر دائما هذه الآية :إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ

الإنسان قد يحاط به، قد يموت ولا يلبي الدعوة .

كنت مرة في الثانوية، فجاء كتاب من وزير التربية يطلب من بعض المدرسين أن يبرر سبب تغيبه عن التصحيح في الامتحانات، وينذر هذا الكتاب ذلك المدَرس بعقوبة حازمة إن لم يأت بتقرير طبي، فكان الجواب الذي أجاب به المدير: لقد مات هذا المُدرس، ماذا تفعل؟

(إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ)

الإنسان قد لا يدري :

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جنّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجر

كلمة :

(إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ)

فيها أدب مع الله عز وجل، تقول: أنا، من أنت؟ مادام هذا القلب ينبض، أنت، فإذا توقف عن النبض صار المرحوم، كان السيد فلان، فلان بك، فلان أفندي، فلان طبيب بورد أو غيره، كان فصار المرحوم فلان، فلذلك :

(إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ)

فيها معنى التواضع والتوحيد والعبودية، ففي كل شيء تفعله قل: إن شاء الله، إلا إذا قيل لك: هل أنت مؤمن؟ فإذا قلت: إن شاء الله فهذه مسألة خلافية، أكثر العلماء يقولون: لا ينبغي عليك أن تقول: إن شاء الله، إن قيل لك: هل أنت مؤمن؟ قل: نعم ورب الكعبة أنا مؤمن :

(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

(سورة يوسف)

كلمة عظيمة : اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

احذر إذا وكَّلك مظلوم إلى ربك :

بعض الباعة يقول لك: الله وكيلك، هذه كلمة تجري على اللسان، والله لو عرفت قيمتها و أبعادها و حدودها لقصم ظهرك، يجعل الله وكيله؛ خالق السماوات والأرض، السميع البصير، من بيده كل شيء، تجعله وكيلاً لخصمك، وتخونه وتغدر به وتغشه، وتحتال عليه تخدعه، والله وكيله .

(اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

هناك كلمتان: الكلمة الأولى: إذا قال لك أحدهم: شكوتك إلى الله، إن كنت تعرف أبعاد هذا الكلام ينبغي أن لا تنام الليل عن أَنَس بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ))

مسند الإمام أحمد

إذا قيل لك: شكوتك إلى الله، وتعرف ماذا تعني كلمة شكوتك إلى الله، وتعرف أن الله عز وجل بيده كل شيء، أحياناً معامل الدم في نقي العظام تطرح في الدم في كل ثانية مليونين ونصف كرية حمراء في كل ثانية، ولآن جلسنا في هذا المجلس من نصف ساعة فرضاً، أي ثلاثين دقيقة، والدقيقة ستون ثانية، أي ألف وثمانمائة ثانية، حوالي أربعة آلاف مليون كرية حمراء طرحت في دم كل منا في هذا المجلس، معامل نقي العظام قد تتوقف عن العمل، ما السبب؟ لا أحد يعلم حتى الآن، توقف مفاجئ، هذا المرض سماه العلماء فقر دم لا مُصنِّع، فقر في الدم ليس عن أسباب معينة، بل عن أن معامل نقل الدم توقفت عن العمل، المرض الثاني توقف الكليتين عن طرح البول بلا سبب، هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، فهذا الذي تجعله وكيلاً لخصمك، وتغش خصمك، وتحتال عليه، وتكذب عليه، توقع به؛ الله وكيله . كلمة: شكوتك إلى الله لا يعرف معناها إلا من عرف الله، والكلمة الثانية أن تقول: الله وكيلك، إذا قلت: الله وكيلك ينبغي أن تكون معه دقيقاً دقة بالغة، أو يتولى الله سبحانه وتعالى محاسبتك عنه، قال تعالى :

(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(66)وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ)

(سورة يوسف)

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ

لابد من اتخاذ الأسباب لاتقاء العين :

المدينة في مصر كان لها أبواب، دمشق نفسها لها باب الجابية، باب السلام، باب توما، كان لكل مدينة سور وأبواب تغلق في الليل، قال لهم لا تدخلوا من باب واحد ، خاف عليهم العين، عشرة أولاد أشداء، أصحاء، أقوياء، ملء السمع والبصر، يدخلون جميعاً من باب واحد وهم لأب واحد .

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ)

والعلماء استنبطوا من هذه الآية أن على الإنسان ألا يظهر ما عنده، لأن عين الحاسد قد تفعل فعلها :

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(1)مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ(2)وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ(3)وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ(4)وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

(سورة الفلق)

هل للحاسد فعل مستقل عن الله عز وجل، أين التوحيد؟ الجواب إنه ليس للحاسد فعلٌ مستقل عن الله عز وجل، لكنّ المحسود الغافل يستحق العقاب على غفلته من قِبَل الله عز وجل عن طريق الحاسد، فإذا كنت مع الله لا تؤثر فيك عين حسود، لكنه من باب الاحتياط لا تبدي ما عندك للناس، لا تفتخر، لا تظهر في زينتك، لا تعرض متاعك، لا تعرض أموالك، لا تتحدث عن أرباحك لأن من الناس من يحسدك، فإذا كنت غافلاً أصابتك عين الحسود، قال الشاعر :

قل لمن بات لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في فعله إذ لم ترضَ لي ما وهب

وملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السـبب

بل قم فاسألن عن السبب، البيت : لا تسألن عن السبب، وصوابه: قم فاسألن عن السبب :

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة يوسف)

الغفلة عن الله طريق إلى تأثير الحسد والعين والسحر :

لو أنكم دخلتم من أبواب متفرقة، واستحق العبد التأمين من الله، لا يغنيه هذا الاحتياط شيئاً، وذكاؤك لا ينفعك إذا أراد الله بالإنسان سوءاً، لكن من باب الاحتياط على الإنسان ألا يعرض ما عنده للناس، فلعل في الناس حسود تصيب عينه المحسود الغافل، وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ :

((إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ))

صحيح البخاري

أي عين الحسود، وربنا عز وجل قال :

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : 102)

هذا هو التوحيد، لكن إذا كان الإنسان غافلاً عن الله عز وجل وعرض ما عنده، أحياناً الإنسان يطلع الضيف على شيء نفيس اشتراه، هذا المضيف غافل، يتيه على الضيف بهذه الثياب، والحلي، بهذا الجهاز يتيه عليه، ما إن يخرج الضيف حتى يقع الجهاز وينكسر، ماذا حصل؟ عرضت ما عندك للضيف وكنت غافلاً عن الله، لم ترَ فضل الله عليك، رأيت مالك وذكاءك فهذا الضيف اشتهى هذا الجهاز، واستكثره عليك، ووقع في نفسه؛ فأراد الله أن يؤدبك فحرمك هذا الجهاز، أحياناً ترتدي ثياباً

تتيه بها، وتظن أنه ليس أحد يشبهك في هذا الجمال، وهذه الثياب الرائعة، فما هي إلا ساعة حتى تمزق هذه الثياب الجديدة بشيء أو بآخر، وقعت عين الحسود وكنت أنت غافلاً، لو كنت مع الله لتواضعت، لو كنت مع الله لرأيت فضل الله عليك، لو كنت مع الله لتأدبت، لما دخل النبي عليه الصلاة والسلام مكة فاتحاً دخلها مطأطئ الرأس تواضعاً لله عز وجل، فالإنسان المؤمن علامة إيمانه أنه إذا أعطاه الله عز وجل الدنيا، أو شيء من الدنيا، لا تزيده الدنيا إلا تواضعاً، يرى فضل الله عليه لا يتيه به على أحد من خلقه، يُحْشَرُ الأغنياء أربع فرق يوم القيامة، فريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، حسابه قصير، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار، حسابه قصير، وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، فحسابه قصير، وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حلال، هذا حسابه طويل، فيقال قفوه فاسألوه: هل ضيّع فرض صلاة؟ هل تاه على جيرانه بما عنده؟ هل قال لمن حوله: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا؟ هذا حسابه طويل، هذا الذي جمع مالاً من حلال وأنفقه في حلال، حسابه طويل .

إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ

إذاً :

(وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة يوسف)

كان هذا النبي موحداً :

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

لو لم يكن في كتاب الله غير هذه الآية لكفتنا :

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

لك قضية عند إنسان ترى هل يوافق أم لا يوافق؟ إن الحكم إلا لله، إن كانت خيراً لك ألهمه أن يوافق، وإن كانت ليست كذلك ألهمه ألا يوافق، واخترع حجة واهية لعدم الموافقة لأن الحكم إلا لله ،

((لكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه))

أحمد

قال تعالى :

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ)

(سورة يوسف)

التوكل الصحيح يعني الأمنوالطمأنينة :

التوكل على الله يضفي على حياة الإنسان أمناً، إن الله يعطي الذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، والمتوكل في نعيم وطمأنينة، المتوكل لو يعلم ملوك الأرض ما عليه من السعادة لقاتلوه عليها بالسيوف :

(وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا)

(سورة يوسف)

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

فهذا الاستثناء ليس من الفقرة الأولى بل من الفقرة الثانية، أي ولما دخلوا من حيث أمرهم أباهم دخلوا من أبواب متفرقة ما كان يغني عنهم من الله من شيء لو أن الله أراد أن يؤدبهم لأدبهم، ولو طبقوا وصية أبيهم، هذه الحكمة التي في نفس يعقوب أملاها عليهم فطبقوها :

(وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ)

(سورة يوسف)

وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ

رتبة لعلم عالية :

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، ورتبة العلم أعلى الرتب وما اتخذ الله ولياً جاهلاً، لو اتخذه لعلمه .

(وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ)

قال بعضهم: إنه لذو تطبيق لهذا العلم الذي علمناه، لأنه ذكر الله عز وجل مؤدى سبب التطبيق، سبب العمل مثلاً :

(وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ)

(سورة يوسف)

القرية لا تسأل، أي واسأل أهل القرية، قد نقول: قرر مجلس الوزراء، والمجلس هو المقاعد، جلس يجلس مجلساً، والمقصود من على المقاعد، وهذا التفسير دقيق جداً :

(وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ)

العلم معناه العمل :

أي إنه لذو عمل بما علم و لذو علم لما علمناه، أي ذو تطبيق لما علمناه، والله سبحانه وتعالى لا يثني على الإنسان إلا إذا عمل بما علم، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(2)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف)

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر : الآية 10)

ولما دخلوا على يوسف :

(وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

إذا علمك الله علماً فأنت مقرب إلى الله كثيراً، إن الله عز وجل يمنح العلم لمن يحب، يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، ولكن العلم لا يمنحه إلا لمن يحب، ما استرذل الله أحداً إلا حظر عليه العلم والأدب، قد يجعله قوياً وغنياً، وقد يؤتيه من الأولاد ما يشتهي، ولكن يحظر عليه العلم والأدب :

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ)

(سورة يوسف)

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ

قال العلماء: أكرمهم فجعلهم في كل غرفة مثنى مَثنى، هم عشرة، احتلوا خمس غرف، وبقي أخوهم الذي من أبيهم قال: وهذا دعوه لي، وكره أن ينام وحيداً فضمه إليه، لما ضمه إليه أسر إليه أني أنا أخوك :

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة يوسف)

يروى أنه لما علم أن عزيز مصر أخوه قال: دعني عندك، لا ترجعني معهم، قال تعالى :

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(69)فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ)

(سورة يوسف)

ما السبيل إلى إبقاء يوسف أخاه عنده ؟

لكن يبدو أن سيدنا يوسف لا يستطيع أن يخرج على قوانين البلاد، ومن قوانين البلاد أنه لا يجوز لعزيز مصر أن يحجز أحداً من دون بينة، من دون سبب، لأنه ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك، أي في نظام الملك؛ لا يستطيع عزيز مصر وهو رئيس وزرائها أن يحجز أحداً من دون سبب، فلا بد من حيلة، مادام أخوه قد ألح عليه أن يبقيه عنده، وقد رسم خطة في ذهنه كي يستقدم أهله، وربما أوحى الله له بهذه الفكرة، وهذا قول معظم العلماء؛ أن الله سبحانه وتعالى أوحى له بهذه القصة، لابد من حيلة :

حيلة صواع الملك :

(فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ)

(سورة يوسف)

صواع الملك إناء من الذهب، أو من الفضة كما تروي الكتب، ويستخدم لكيل القمح، والقمح شيء ثمين جداً، فلتقديسه وتعظيمه اكتالوه بصواع الملك، فهذا النبي الكريم جعل صواع الملك في رحل أخيه :

اتهام إخوة يوسف بالسرقة :

(ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ)

(سورة يوسف)

أيتها القافلة إن فيكم سارقاً، كان هذا القول كالصاعقة، قال تعالى :

(قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ)

(سورة يوسف)

ما الأمر؟ ما الذي تفقدونه ؟

(قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)

(سورة يوسف)

يوسف جعل جائزة لمن يجيء بالصواع :

الكفالة وشرطها في الفقه الإسلامي :

هذه هي الجعالة، فإذا قلت أنت: من يأتيني بفلان فله مئة ألف، هذه جُعالة، من يأتيني بهذه الحاجة له مئة ألف ليرة؛ الجعالة عقد، طرفه الأول معلوم، وطرفه الثاني مجهول، لا تعرف من الذي سيأتيك به، عقد الإيجار لا يصح إلا إذا كان الطرفان معلومين، أما عقد الجعالة فيصح أن يكون طرفه الأول معلوماً وطرفه الثاني مجهولاً، لكنّ العلماء قالوا: يجوز للمجعول له أن يفسخ هذا العقد قبل الشروع بالعمل أو بعده، أي من يأتيني بهذه الحاجة فله مئة ألف، هذا الذي بدأ بالبحث عنها يصح أن يتنازل عن حقه، ويفسخ العقد بعد الشروع بالعمل أو قبل الشروع، لكنّ الجاعل لا يستطيع أن يلغي عقده إذا بدأ المجعول له بالعمل :

(قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)

(سورة يوسف)

معنى زعيم أي كفيل، أنا أكفل أن أؤدي لمن يأتيني بصواع الملك حمل بعير .

حوار بين المتهِم والمتهَم :

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)

(سورة يوسف)

فعلاً هم بريئون على مرأى من سيدنا يوسف :

(قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)

(سورة يوسف)

لو أننا وجدنا هذا الصواع في رحلكم فما جزاء من نجد عنده هذا الصواع؟ أنتم احكموا قبل أن نفتش، هم واثقون بأنهم ما جاءوا ليسرقوا :

(قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ)

(سورة يوسف)

استرقاق الذي سرق :

أي هو نفسه يصبح رقيقاً، يصبح عبداً، وهذا في شرع الأنبياء من قبل سيدنا محمد، الذي يضبط بسرقة يفقد حريته يصبح عبداً، فالجزاء أن يفقد حريته، ويصبح عبداً عند من أخذ منه الصواع، وهم واثقون :

(كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

(سورة يوسف)

الأمر بتفتيش الرواحل :

حكمة يوسف في طريقة تفتيشه للرواحل :

أي هكذا نعامل الناس في بلادنا، فأمر بالتفتيش، لكن هذا النبي الكريم كان على قسط وافر من الذكاء، بدأ بأوعيتهم، فتشوا هذا الرحل، فتشوه فلم يجدوا شيئاً، هم واثقون من أنفسهم، فتشوا هذا الرحل، فلما وصل إلى رحل أخيه قال: لا هذا دعوه، ما كان له أن يسرق، هذا فتى صغير، قالوا: لا والله، فتشوا هذا الرحل، لا نغادر مصر حتى تفتشوا هذا الرحل، هم واثقون من أنفسهم، قال تعالى :

(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ)

(سورة يوسف)

فتحوا رحل هذا الغلام فإذا فيه صواع الملك، دهشوا، سُقِط في أيديهم، ألجمتهم المفاجأة، فقالوا لأخيهم: أأنت أخذت الصواع؟ قال: لا والله، قال: من وضعه في رحلك؟ فقال لهم: فيما تروي بعض الكتب: الذي وضع بضاعتكم في رحلكم وضعه في رحلي .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (08-11): تفسير الآيات 76 – 100، ميثاق إخوة يوسف مع أبيهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-07-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في قصة سيدنا يوسف إلى قوله تعالى :

(قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ(78)قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ(79)فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ)

(سورة يوسف)

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا

بين استيئس ويئس :

لم يقل الله عز وجل: فلما يئسوا، بل قال:

(فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا)

لأن الاستيآس أبلغ من اليأس، استيأس على وزن استفعل، فمن معاني وزن استفعل المبالغة، أي طلبوا منه فرفض، رجوه فرفض، استعطفوه فرفض، خضعوا له فرفض، عندئذ استيأسوا :

(فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا)

(سورة يوسف)

معنى :خَلَصُوا نَجِيًّا

معنى خلصوا: أي عقدوا اجتماعاً مغلقاً، وهذه حكمة، قد تضطر أن تعطي رأياً أو قراراً أو سلوكاً، لابد من تقليب الرأي، لابد من المشاورة، لابد من أخذ الرأي، لذلك عقدوا اجتماعاً مغلقاً، وتداولوا الأمر، انتهوا من اجتماعهم من تدويل الأمر إلى قول أحدهم، وهو أكبرهم، قال :

(فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ)

(سورة يوسف)

تذكُّر إخوة يوسف ميثاقهم مع أبيهم وتفريطهم في يوسف:

أي لسنا ببعيدي عهد بالموثق الغليظ الذي أخذه أبونا علينا :

(أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ)

(سورة يوسف)

أي هذه الثانية، أخذ عليكم موثقاً في يوسف ففرطتم فيه، ثم أخذ عليكم موثقاً آخر في أخيه فنفرط فيه ؟

(وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ)

بعضهم يقول : (ما)هذه زائدة ، وبعضهم يقول : هذه (ما)موصولة ، أي ومن قبل تفريطكم في يوسف .

موقف الأخ الأكبر :

(فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ)

من شدة الألم وشدة الخجل وشدة الخزي أمام الأب الوالد قال :

(فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ)

أي لن أغادرها، أنا هنا، إما أن أعود مع أخي، وإما أن أبقى هنا :

(فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

(سورة يوسف)

يحكم الله لي أن آخذ أخي معي، أو أن أقاوم وأستخدم أسلوب العنف، إما أن أنتصر، و إما أن أخذل، فإذا خذلت ينطبق علي قول أبي:

(إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ)

إذا دافع الإنسان عن حقه وغُلب فقد أحيط به، فإما أن أرجع مع أخي، وإما أن يأذن لي أبي، وإما أن أستخدم السيف، فإن أخذته بالقوة أخذته بالقوة، وإلا فقد أحيط بي، وقد أعذرت :

(وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

(سورة يوسف)

يبدو من هذا الموقف أنه يقطر ألماً، وندماً، وخجلاً، وحياءً وشعوراً بالتقصير :

(ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ)

(سورة يوسف)

اقتراح الأخ الأكبر على إخوته بالرجوع وذكر الحقيقة للأب :

أنا هنا لن أغادر هذا المكان لشدة الخجل :

(ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ)

(سورة يوسف)

أي رأينا بأعيننا صواع الملك في رحله، هذا الذي شهدناه، وشهدنا حيثما علمنا أنه قد وجد صواع الملك في رحله، قال تعالى :

(إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ)

(سورة يوسف)

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ

ما كنا نعلم أن هذا الحدث المهم سيقع بنا، ما كنا نعلم أن أخانا سوف يسرق، ما كنا نعلم أنه متهم حقيقة أو بريء، وأنه في بعض الروايات قال لهم: إن الذي وضع بضاعتكم في رحالكم هو الذي وضع صواع الملك في رحلي، هم ليسوا متأكدين من أن أخاهم قد سرق .

(وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ)

نحن لا نعلم حقيقة الذي جرى، أكان متهماً فعلاً أم كان بريئاً، ولا نعلم بما سيكون، وهذه الآية إشارة إلى أن الإنسان أحياناً - على الرغم من ذكائه واحتياطاته وخبرته ومعلوماته الدقيقة وإمكاناته وقوته - قد يقع في ورطة لا خلاص منها، قد يقع في مأزق لا خلاص منه .

الإنسان ليس بذكائه، ولكن بتوفيق الله عز وجل، فهناك قصص كثيرة الإنسان بريء مائة بالمائة، ومع ذلك يلبس تهمة ما كان له أن يدفعها عنه :

(وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ)

(سورة يوسف)

فالإنسان إذا اتكل على علمه أوكله الله إليه، إذا اتكل على قوته، أوكله الله إليها، إذا اتكل على جاهه أوكله الله إليه، إذا اتكل على خبرته أوكله الله إليها، فقط اتكل على الله عز وجل .

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، من اتكل على ماله ذل، من اتكل على علمه ذل، وأما من اتكل عليك يا رب فلا زل ولا ضل :

(ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ(81)وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ

محاولة الإخوة إقناع أبيهم بالحقيقة :

أي إن لم تصدقنا يحق لك أن لا تصدقنا لخبرة مؤلمة سابقة منا، إن لم تصدقنا لأننا في الماضي لم نكن كما تريد، إن لم تصدقنا فاسأل القرية التي كنا فيها أي اسأل سكان القرية - هذا مجاز عقلي - اسأل سكان القرية أي المكان الذي كنا فيه، والعير التي أقبلنا أي هذه القوافل التي جاءت إلى مصر لما جئنا له، وقد حملت القمح وهي في طريقها إلى أرض كنعان، اسألها، فقصتنا مشهورة والشهود كثيرون :

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا)

(سورة يوسف)

موقف يعقوب :

بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا

أي عرف أن في شرع سيدنا يعقوب أن الذي يسرق يؤخذ هو شخصه بسرقته، إنه هو يصبح رقيقاً بعد أن كان حراً، لماذا أوضحتم للعزيز أنه في شرعنا من سرق أخذ جزاء سرقته؟ لعلكم أردتم أن تبعدوا ابني الثاني عني :

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)

(سورة يوسف)

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

ما هو الصبر الجميل؟

الصبر الجميل ألا تشكو مصيبتك إلى أحد، أن لا تقول كلاماً لا يليق بالله عز وجل، ليس الحزن محظوراً، و لكن العويل والبكاء، وضرب الوجه، و تمزيق الثياب، و التفوه بكلمات فيها اعتراض على قضاء الله و قدره هذا هو المحرم، أما أن يحزن القلب فهذا شيء لا بد منه :

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)

(سورة يوسف)

الصبر الجميل قال عليه الصلاة و السلام فيما يرويه عن ربه :

((إذا أحب الله عبده ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن شكر اقتناه))

ورد في الأثر

الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد؛ فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، الإيمان نصفان: نصف صبر و نصف شكر، علامة إيمانك أن ترضى بقضاء الله و قدره، الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين . " يا رب هل أنت راض عني ، قال : عبدي هل أنت راض عني حتى أرضى عنك ؟ قال : و كيف أرضى عنك و أنا أتمنى رضاك ؟ فقال الإمام الشافعي : إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله أبداً " .

امتحن إيمانك عند الشدائد، عند المصائب ماذا تقول؟ إذا قلت كلاماً لا يليق بالله عز وجل فأنت لا تعرف الله، أما إذا قلت حسبي الله و نعم الوكيل، لا حول و لا قوة إلا بالله، يا رب لك الحمد على قضائك، الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، فأنت مؤمن و رب الكعبة، قال تعالى :

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا)

(سورة يوسف)

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا

هما اثنان، يوسف وأخوه، و هذا الأخ الثالث الكبير الذي بقي في مصر، ولن يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه ، صاروا ثلاثة، قال تعالى :

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

(سورة يوسف)

لابد من الرجاء في الله مهما اشتد البلاء :

هذا هو الرجاء، رجاء المؤمن بالله عز وجل مهما احلولكت الأيام، مهما ضاقت الأمور، مهما نزلت الشدائد، مهما اشتدت الأزمات، فالمؤمن واثق بنصر الله، المؤمن واثق بفرج الله عز وجل، النبي عليه الصلاة والسلام وصل الأمر بالإسلام إلى أن ينتهي بعد ساعات في غزوة الخندق، جاءت الأحزاب من كل جانب، الجزيرة العربية بأكملها اجتمعت على قتل محمد و أصحابه، واليهود نقضوا عهدهم مع النبي فانكشف ظهر المسلمين، وأصبح الإسلام موضوع ساعات وينتهي، إلى أن قال بعض الضعاف: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر و كسرى و أحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟ قال تعالى :

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا(11)وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

(سورة الأحزاب)

هذا الذي حصل لأصحاب النبي يحصل لكل إنسان، ولكل مؤمن تضيق به الأمور، يبث الله في قلبه الخوف ماذا يفعل؟ أيترك هذا الطريق الذي اختطه لنفسه، تضيق به الحيل، يأتيه الضيق من كل جانب، تضيق به الأرض بما رحبت، ماذا يفعل؟ قال تعالى :

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

(سورة يوسف)

إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

يعلم أين هم، وإبعادهم عني لحكمة أرادها الله عز وجل، عليم حكيم، أي يعلم أين يوسف، وأين أخوه، وأين أخوهم الثالث وما أحوالهم؟ و حكيم بهذا الإبعاد، قال تعالى :

(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ)

(سورة يوسف)

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ

أي أعرض عنهم، و تفتقت جروحه الماضية ، تذكر يوسف، و قال :

(يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ)

قال تعالى :

(وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ

داء الزرق :

أما ابيضاض العين فهو مرض يسميه علماء الطب داء الزرق، فالقرنية مادة شفافة تتغذى بالحلول، حينما يرتفع ضغط الدم بسبب ضغط الهم تضطرب الأوعية الشعرية في العين، وتصبح القرنية الشفافة ظلمية بيضاء، تعيق الرؤية، ويصاب الإنسان بالعمى بسبب الحزن، وهذا مرض يعرفه الأطباء،

قال تعالى :

(وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

الصديق يتألم والعدو يشمت :

إنّ الحزن الذي في قلبه لم يبح به لأحد لعلمه أن الله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى، وأن الإنسان إذا أبحت له حزنك ماذا يفعل، لا يستطيع أن يفعل شيئاً، الصديق يتألم والعدو يشمت، لذلك من تمام العقل أن تبث شكواك وحزنك إلى الله فقط، وإذا ضاقت بك الأمور فبث شكواك للمؤمن، فإذا بثثت شكواك لمؤمن فهذه شكوى إلى الله، أما إذا بثثت شكواك لكافر فهذه شكوى على الله، إياك أن تشكو همك لكافر، إياك أن تشكو حزنك لكافر، إياك أن تشكو مصيبتك لكافر، إنه يشمت بك، أول ما يقوله لك: ألم أقل لك: دعك من هذا الطريق، هذا طريق الإيمان، هو الذي جلب لك المتاعب، انظر إلي؛ أنا طليق لست مثلك، إنه يشمت بك ، قال تعالى :

(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

كثرة الهموم سبب لأمراض القلب :

قال لي طبيب صديق: إن الأمراض في هذه الأيام بلغت حداً غير معقول، ولا سيما أمراض القلب، فقلت: لماذا ؟ قال: لكثرة الهموم، وكثرة المتاعب، إنا نعيش في مجتمع فيه بحبوحة، ولكن الآلام النفسية ضاغطة، أما أجدادنا فكانت حياتهم خشنة، لكنهم كانوا مرتاحين نفسياً، بينهم المودة والمحبة والإخاء، والصفاء والثقة، والأمانة والصدق والإخلاص، والبذل والتضحية والتعاون، وفي مجتمعنا الحسد والضغينة، والحقد واللؤم، والتنافس والترقب والوشاية، وكل شيء يهد الأعصاب، لذلك كثرت أمراض القلب عَنْ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

صحيح البخاري

إذا آمنت بالله يستريح قلبك المادي، هذا القلب الذي ينبض، من الأذينين والبطينين، ومن الشريان الأبهر والشريان التاجي، هذا القلب الذي ينبض إذا آمنت بالله، واستسلمت له ،ورضيت بقضائه، ونزعت من قلبك حب الدنيا، وتعلقت بالآخرة، ورضيت من الدنيا باليسير، فإن في هذا الإيمان صحة لقلبك المادي، فإن صح القلب صح كل شيء في الجسد، وإن فسد هذا القلب فسد كل شيء، لذلك صحتك أغلى عليك من الدنيا، وصحة إيمانك أغلى من صحة جسمك، من أروع ما قاله الإمام علي كرم الله وجهه : << إن الفقر مصيبة، وإن أشد من الفقر المرض، وإن أشد من المرض الكفر، وإن الغنى نعمة، وإن أفضل من الغنى صحة الجسد، وإنّ أفضل من صحة الجسد الإيمان >> .

لابد من التعلق بالله وحده :

أول نعمة على وجه الأرض أن تكون مؤمناً، ولأنك إذا كنت مؤمناً فلا شيء في الدنيا يعدل الإيمان، أحد الصالحين كان يتلو كتاب الله عز وجل فوصل في سورة يس إلى قوله تعالى :

(إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة يس)

ففاضت روحه إلى بارئها، فتعجب أصحابه كيف ختمت له هذه الخاتمة، فرآه بعضهم في المنام فقال: يا سيدنا ما فعل الله بك، كيف ختمت لك هذه الخاتمة؟ قال: جاء الملكان في القبر فقالا لي: من ربك؟ فتابعت قراءة القرآن، قال تعالى :

(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ)

(سورة يس)

فقالا لي: قال تعالى :

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

(سورة يس)

قيل: ادخل الجنة، فعندما تتعلق روح الإنسان بالله عز وجل يتجلى الله على قلبه سعادة ينسى معها كل شيء، قال تعالى :

(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(84)قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ)

(سورة يوسف)

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ

إياك أن تفرق بين اثنين :

أي أبعد يوسف من بالك، لن يعود إليك، لقد مات، لا تزال تذكره، لا تزال تتشوق إليه، انتهى أمره، حتى تكون حرضاً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((ليس منا من فرق))

ورد في الأثر

أي إذا فرقت بين أم وولدها، أو بين أب وولده، أو بين أخ وأخيه، أو بين صديق وصديقه، أو بين شريك وشريكه، أو بين جار وجاره، فلست من أمة سيدنا محمد، إذا فرقت مادياً بينهما، لست من أمة سيدنا محمد، وإذا فرقت معنوياً بينهما، إذا أوقعت بينهما الضغينة والشقاق والخصومة والعداوة فلست من أمة سيدنا محمد :

((لعن الله من فرق والدة عن ولدها))

ورد في الأثر

قال تعالى :

(قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ)

(سورة يوسف)

معنى : حرضًا :

حرضاً أي هالكاً، فالهلاك الأول معنوي، أي هلاك اليأس، والهلاك الثاني الموت .

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ

قال تعالى :

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)

(سورة يوسف)

الشكوى لله الرحيم :

قال بعضهم: ويعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم، يعاب أن تشكو الله إلى إنسان لا يرحم،

الشكوى لله عز وجل، الشكوى لله إذا ألمّ بك أمر فبث شكواك إلى الله، وإذا ظلمك إنسان فاشكه إلى الله عز وجل، فإن في شكواك إلى الله أبلغ شكوى، قال :

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي)

معنى البث :

البث هو الألم، والحزن هو الألم الشديد، قال تعالى :

(وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

أي أعلم أن ذهاب أولادي عني لحكمة بالغة لابد من أن تكون، وأعلم أن هذا رحمة بي، وأعلم أن هذا حرص علي، وأعلم أن هذا قد يزول، وقد يعود إلي أولادي، أعلم من رحمة الله ما لا تعلمون، أعلم من حكمته ما لا تعلمون، أعلم من رأفته ما لا تعلمون، أعلم من حبه ما لا تعلمون، أعلم من تصريفه الأمور ما لا تعلمون .

يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ

قال تعالى :

(وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(86)يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ)

(سورة يوسف)

معنى التحسس :

معنى تحسسوا: أي تتبعوا أخبارهم، اذهبوا، وإن الله كتب عليكم السعي فاسعوا .

لا تفقد الأمل من شيء ضاع منك :

قال لي شخص: إنه قد أضاع مبلغاً كبيراً في سيارة، فلما دخل إلى بيته، واعتصر قلبه الحزن، أكثر الناس قالوا له: هذا المبلغ لن يعود إليك، إلا واحدا منهم قال له: اذهب فلعل الله يجمعك بالمبلغ، فذهب إلى المطار، وسأل عن سائق صفته كذا وكذا، فقالوا له: و الله لقد أخبرنا أنه قد رأى في سيارته مبلغاً

كبيراً، لذلك يجب على الإنسان أن لا ييأس، ولو بدا لك أن الأمر مستحيل، وأن لا سبيل إلى رده، وأن القضية شبه مستحيلة، اذهبوا، عاد إلى الشام، وأخذ المبلغ، و كان السائق أميناً، رد له المبلغ بالعد والتمام، قال تعالى :

(يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

(سورة يوسف)

اليأس ينافي الإيمان :

اليأس من روح الله لا يتناسب مع الإيمان بالله :

(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

عودة ثالثة إلى مصر :

وصلوا إلى مصر مرة ثالثة، قال تعالى :

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ)

(سورة يوسف)

شكوى الإخوة ليوسف من الجوع وسوء بضاعتهم :

البضاعة هنا النقد، ما يشترى به البضاعة، إما نقد وإما شيء يدفع مكان البضاعة، مزجاة بعضهم قال: قليلة، وبعضهم قال: فيها عيب لا تقبل، قال تعالى :

(بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ)

(سورة يوسف)

أي أعطنا بها قمحاً كما لو كانت بضاعتنا كثيرة، أو كما لو كان نقدنا جيداً، لأننا قد مسنا الضر، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)

(سورة يوسف)

طلبهم المؤونة والصدقة :

أعطنا الكمية المقررة كما لو كان النقد صحيحاً، أو كما لو كانت البضاعة كثيرة، وتصدق علينا بأخينا، أي ردّه إلى أبيه، قال بعضهم: يجوز إذا أصابك الضر أن تشكو إلى من بيده الأمر، هذا من باب الأخذ بالأسباب، ليس من باب الشرك .

نبأ كالصاعقة : قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ

يبدو أن سيدنا يوسف رأى من المناسب أن يلقي عليهم بالنبأ العجيب، آن الأوان وحان الوقت لكي يعرفهم من هو؟ جاءوه أول مرة، وجاءوه في المرة الثانية، وفي المرة الثالثة وهم يحسبونه عزيز مصر، مرة أحبوه لكرم الضيافة، ومرة امتنوا منه، لأنه جعل بضاعتهم في رحالهم، ومرة تألموا منه لأنه طبق القانون عليهم تطبيقاً دقيقاً، ولم يتساهل معهم، وجاءوا في هذه المرة يائسين، أو جاءوا راجين، عندئذ آن الأوان لهذا النبي الكريم وعزيز مصر أن يلقي عليهم بالنبأ، وسيكون عليهم كالصاعقة، قال تعالى :

(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ)

(سورة يوسف)

من يوسف؟ من أعلمك بما فعلنا بيوسف؟ هم في زعمهم أن هذه القصة لا يعلمها أحد إلا الله ويوسف، لأنه الضحية، قال تعالى :

(قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ)

(سورة يوسف)

احذروا فإن الله لا يخفى عليه شيء :

هذا الذي قالوه رسمياً لأبيهم، عشرة إخوة اتفقوا على رواية واحدة، ولا يعلم بما جرى إلا الله ويوسف، لأنه الضحية .

صفوان بن أمية التقى بعمير بن وهب، وقال له عمير بعد أن التقى به في الصحراء خارج مكة: والله لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، ولولا أبناء صغار أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، فوقف صفوان وقال: يا عمير، أما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت علي أداؤها، وأما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر، فامض لما أردت، اذهب واقتله، وأرحنا منه، وكان ابن عمير عند رسول الله أسيرًا، فأسقى سيفه السم، وركب راحلته وانطلق إلى المدينة، رآه عمر رضي الله

عنه قال: هذا عمير بن وهب عدو الله، جاء يريد شراً، قيده بحمالة السيف، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قال: يا رسول الله، هذا عمير بن وهب جاء يريد شراً، فقال: أطلقه يا عمر، أطلقه، قال: ابتعد عنه، فابتعد عنه، فقال عليه الصلاة السلام لأصحابه: هل أعددتم له طعاماً؟ هذا صعق، بعد أن أكل قال: ادن مني يا عمير، فدنا منه، قال له: ألا تسلّم علي؟ قال: عمت صباحاً يا محمد، قال: سلّم علينا بسلام الإسلام، قال: لست بعيد عهد بالجاهلية، قال: ما الذي جاء بك يا عمير؟ قال: جئت أفدي ابني، قال: وهذه السيف التي على عاتقك، قال: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر؟ قال: ألم تقل لصفوان بن أمية: لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، ولولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، قال: والله ما يدري بأحد من هذا إلا الله، وأنت رسول الله، حينما قال لهم صفوان بدا عليه البشر في مكة، وكان يقول لمن حوله: انتظروا أخباراً سارة، وبدأ ينتظر هذا الخبر السار قتل محمد، مضى يوم ويومان وثلاثة أيام وأسبوع، وكان يقف على مشارف مكة ينتظر الركبان، ويسألهم ماذا حدث؟ فيقولون له: ما حدث شيء، إلى أن سألهم: ما فعل عمير؟ فقالوا: أسلم عمير، فهذا سيدنا يوسف قال :

(قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ)

(سورة يوسف)

اقشعر بدنهم، صعقوا، تأملوا فيه حينما كانوا ينظرون إليه من قبل، أخذوا به كعزيز مصر، فلما قال لهم :

(قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ)

تأملوا في ملامح وجهه، في خطوط جبينه، في حركاته، في نظراته، فإذا هي يعرفونها إنه يوسف، قال تعالى :

(قالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ)

(سورة يوسف)

أدب التماس العذر :إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ

لكن النبي الكريم برقته وكماله وأدبه اعتذر عنهم، قال عليه الصلاة والسلام :

((التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة))

ورد في الأثر

التمس لهم عذراً، واعتذر عنهم، ماذا قال لهم؟ قال تعالى :

(قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

(سورة يوسف)

ما من عذر أبلغ من الجهل، ما كنت أعرف إذ أنتم جاهلون، كلمة :

(إذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

اعتذار من سيدنا يوسف عنهم لئلا يحرجوا، لئلا يخجلوا، لئلا تضيق بهم الأرض، لأنه أكرمهم، أكرم وفادتهم، أكرم ضيافتهم، أعطاهم القمح، مع ثمن القمح في المرة الأولى والثانية، وها هو ذا يعرفهم بنفسه .

(قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

إذ أنتم جاهلون اعتذار عنهم، هكذا أخلاق النبوة، التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة، قال عليه الصلاة والسلام :

((لا تحمروا الوجوه))

ورد في الأثر

لا تحرج إنساناً، لا تخجله، لا تضيق عليه بالأسئلة، لا تسأله ماذا أكلت البارحة؟ ربما كان لم يأكل، ماذا طبخت اليوم؟ ماذا عندك من طعام من أجل أن تضيفنا؟ المؤمن لا يحرج أحداً، إلى أين أنت ذاهب؟ أين كنت؟ قال تعالى :

(قالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي)

(سورة يوسف)

قالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي

تواضع المؤمن :

هذا الذي حجزته أخي إكرام له، سيدنا الصديق لما اشترى سيدنا بلالا من أمية بن خلف قال له أمية: << والله لو دفعت به درهماً لبعتكه >> ، قال : " أما أنا لو طلبت ثمناً له ألف درهم لدفعتها لك " ، وضع يده تحت إبط سيدنا بلال وقال : << هذا أخي >> .

المؤمن متواضع، أحياناً يدخل أب طيب على ابنه في منصب رفيع فيقال له: من هذا؟ فيقول لهم: هذا آذن عندي، وهذا أخي قد منّ الله علينا بالنجاة، منّ علينا بالهدى، منّ علينا بالمنى، من علينا بالملك، منّ علينا بكل شيء، قال تعالى :

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ)

(سورة يوسف)

اصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى القضاءوالقدر :

أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو هذه القصة يمكن أن تنطبق على كل واحد منا :

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ)

اصبر على أمر الله، اصبر عن معصية الله، اصبر على مصيبة نزلت بك، واتق أن تعصي الله، ثم انظر كيف يبدل الله حياتك كلها سعادة وأمناً، وبحبوحة وتوفيقاً وسروراً .

ليست العبرة أن نتلو عليكم هذه الحوادث، العبرة أن نستنبط منها الحقائق، وأن نستنبط منها القوانين، وأن نستنبط منها السنن، وأن تكون هذه الحوادث تكشف عن حقائق نهتدي بها في حياتنا، في عملك دعيت إلى معصية قل: معاذ الله، دعيت إلى كسب حرام قل: معاذ الله، دخلك قليل قل: أصبر عليه، قال تعالى :

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

المحسن لا يضيع أجره أبدا :

والله الذي لا إله إلا هو زوال الكون أهون على الله من أن يضيع أجر المحسنين، أحياناً يكون الإنسان باراً بأمه وإخوته لا يفعلون فعله، يأتيه الشيطان فيقول له: هي أمك وحدك، هم مرتاحون من خدمتها، طليقون، يذهبون إلى النزهات، يسهرون، وأنت مرتبط بها، اقرأ هذه الآية، قال تعالى :

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

هناك رجل خدم أمه تسع سنين متتالية إلى أن ضاق به الأمر، وتبرم، واشتكى، وبدأ يصيح، وبدأ يُسمع، حتى بلغ به الأمر أن جمع إخوته جميعاً، وقال: هذه أمي وأمكم، إما أن تأخذوها عني، و إما أفعل كذا وكذا، تحت الأمر الواقع، وتحت ضغط التهديد أخذوها عنه، في اليوم الثاني ماتت عند أخيه، يوم واحد، أذهب الله عمله كله، هناك رجل أعرفه، وهو حي يرزق، كان يرعى أرملة، رعاها عشرين عاماً، ثم انتقل إلى حي بعيد، فصار يأتي مشياً من هذا الحي البعيد إلى مكان إقامة الأرملة يكنس لها أرض الغرفة، ويصنع لها الطعام، ويقدم لها كل الحاجات، ضج أهله إلى متى أنت تخدمها؟ أليس في الناس أحد غيرك يخدمها؟ ضغطوا عليه، فلما رأوا إصراره، وأنه لا يمكن إلا أن يذهب إليها كل يوم،

وقد تقدمت به السن، صار في السبعين، عندئذ نزلوا عند الأمر الواقع وقالوا: ائت بها إلى هنا، إلى البيت، اخدمها هنا، قال: اذهبوا أنتم إليها وادعوها، فذهبوا إليها ودعوها، جاءت وأقامت عنده يومين ثم ماتت، هكذا العمل الصالح .

هذه الآية تركت في نفسي أثراً بليغاً، قال تعالى :

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

إذا كنت صادقاً، إذا بذلت من مالك، و بذلت من وقتك، وبذلت من صحتك وخبرتك وجاهك فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

قالوا : يا عبد الرحمن بن عوف، نخشى أن يؤخرك كثرة مالك عن اللحاق برسول الله، فقال عبد الرحمن: والله لأدخلن الجنة خبباً، أي هرولة، وماذا أفعل إذا كنت أنفق مائة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء، ماذا أفعل؟ والله ما حرمت مالي مسكيناً ولا محتاجاً، تدفع من مالك، وتصبح فقيراً، الشيطان يعدكم الفقر، تأتي إلى مجلس العلم من أجل أن تتعرف إلى الله، و تأتيك المتاعب من هذا المجلس، لا والله، ليست هذه أخلاق الله عز وجل، الوفاء كله من الله، تأتيه إلى بيته ليتعبك بعدها لا والله :

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

تستقيم في تجارتك، وتفلس لا والله، تختار امرأة صالحة دينة، وتؤثرها على امرأة جميلة جداً، وتشقيك هذه المرأة، لا و الله، بل تسعد بها، إن الله مع المحسنين، هم أساءوا إليه، هو كان محسناً، ألقي في البئر، ثم صار عزيز مصر، هم كانوا في أوج قوتهم فصاروا يقفون أمامه أذلاء، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ)

(سورة يوسف)

انظروا إلى المواقف، كان صغيراً، ألقوه في الجب، بقسوة بالغة دفعوه دفعاً، وحينما مرت الأيام والليالي وقفوا أمامه أذلاء، هذا كله من قوله تعالى :

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

درست في هذا المجلس ساعة والطريق ساعة، ساعتان طريق وساعة حضور، هذا المجلس والله الذي لا إله إلا هو لو يوفر الله عليك في الأسبوع عشرين ساعة كان من الممكن أن تذهب سدى، أن تضيع مع الغيظ مع الضيق، تأتي إلى مجلس العلم يوفر الله لك وقتاً :

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عُمّارُها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

ورد في الأثر

عندئذ شعروا أين هم وأين هو، هم فقراء خائفون أذلاء، يستحون أن يأخذوا قمحاً ، وهو في منصب عالٍ، ملك مصر على العرش، قال تعالى :

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا)

(سورة يوسف)

اعتراف لابد منه :

تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا

أحياناً يكون هناك أخ مؤمن فقير، وإخوة أشداء أقوياء أغنياء في أوج نجاحهم يسخرون منه، ما هي إلا سنوات وتدور الأيام، فإذا بهذا الأخ الصغير الفقير يصبح ملء السمع والبصر، وإذا بهم وقد ضاقت بهم الدنيا، وقد تخلفت بهم الحياة .

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا)

هذه القصة تتكرر كل يوم، الله سبحانه وتعالى يؤثر المؤمن، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، قال تعالى :

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)

(سورة يوسف)

من الغباء أن تعصي الله : وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ

هذا هو الغباء أن تعصي الله عز وجل، إذا عصيته في عملك ستدفع حوالي خمسين ألف مصادرة، من أين أتتنا هذه؟ حساب قديم، جاءه زبون قال له: عشرة آلاف، ذهب فقال له صاحبه: كان ألفان، فقال له: هكذا العمل، في اليوم الثاني وضع عشرة آلاف لابنه، دخلت نثرة فولاذ في عينه، كان يكفيه ألفان فأخذ عشرة، قال له: أهكذا البيع والشراء؟ العاصي هو الغبي، لا يعصي الله إلا أحمق وغبي، لماذا؟ لأنه سوف يدفع الثمن غالياً، قال تعالى :

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ(91)قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ)

(سورة يوسف)

لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ

محا من قلبه كل حقد، وكل ضغينة، وكل ألم وكل حزن، هكذا هو المؤمن صافٍ عفيف، كأن شيئاً لم يحدث .

(لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ)

النبي عليه الصلاة والسلام قمة في العفو :

سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حينما دخل مكة فاتحاً، من هم أهل مكة؟ هم الذين كذبوه، هم الذين قالوا عنه : ساحر مجنون، هم الذين ضيقوا عليه، وقاطعوه، وعذبوا أصحابه، هم الذين ائتمروا على قتله، هم الذين أخرجوا أصحابه إلى الحبشة ثم إلى المدينة، هم الذين اتفقوا على قتله، هم الذين حاربوه في بدر وأحد والخندق، كادوا له، شهروا به، هجوه بألسنتهم، دخل عليهم فاتحاً، وكان بإمكانه أن يقتلهم واحداً واحداً، أن يبيدهم عن بكرة أبيهم، قال :

((ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت، قال: أقول لكم ما قال أخي يوسف:

(لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ)

، اذهبوا فأنتم الطلقاء))

السيرة النبوية

قال سيدنا عمر: << لما سمعت مقالة النبي كدت أذوب خجلاً >>، لِمَ؟ قالوا: لأنه حينما دخل مكة من بعض أبوابها قال: سوف أنتقم منكم، سوف أقتلكم، فلما رأى كمال النبي عليه الصلاة والسلام قال: << كدت أذوب خجلاً من مقالة النبي لا تثريب عليكم اليوم >>، وهذا شأن النبي، ليس في قلبه حقد على أحد، ولا ضغينة ولا ضيق، إنما هو سلام في سلام، قال تعالى :

(قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(92)اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا)

(سورة يوسف)

قميص يوسف يعود مرة أخرى :

طبعاً سألهم عن أبيهم ما فعل أبي؟ قالوا: فقد بصره حزناً عليك، وقال العلماء: إن الله أوحى إليه أنك إذا أرسلت قميصك إليه سأرد أنا بصره، وليس القميص من سيرد بصره، إذا ألقيت على وجه أعمى قميصاً أيرد بصره، أوحى الله إليه أن أرسل قميصك إليه، وأنا سأرد إليه بصره إكراماً لك، قال تعالى :

(اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة يوسف)

سيدنا يعقوب وأبناءه اكتشفوا فجأة أن أخاهم ملك مصر، فرحة ما بعدها فرحة، قال تعالى :

(فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ(93)وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

(سورة يوسف)

قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ

التخاطر النفسي :

علماء النفس المعاصرين قالوا: هذه الحادثة اسمها التخاطر النفسي، سيدنا عمر يقف على المنبر ويخطب، فإذا به يقطع خطبته ويقول: << يا سارية، الجبلَ الجبل >>، سارية قائده في العراق، يقول لأصحابه: استمعوا، أسمع صوت أمير المؤمنين يحذرني الجبل، هذا ليس اللاسلكي .

بعضهم ينكر هذه الحادثة، العلم اليوم أثبتها، كنا في الجامعة فقال لنا أستاذ علم النفس: إن هناك حادثة اسمها التخاطر النفسي، امرأة في إيطاليا رأت ابنها وقد دهسته سيارة، وابنها في باريس، بعد سبعة أيام جاء نعش ابنها مع تقرير يفيد بأنه في اللحظة التي رأت فيها ابنها كان قد دهس، شيء وقع، تفسيره أن هذه النفس طليقة، إذا أحبت شيئاً تعلقت به، الأم أحياناً يسافر ابنها قلبها عنده، ماذا أكل؟ كيف نام؟ بمن التقى؟ هل يبرد أو لا يبرد؟ فلذلك قلب الأم آية من آيات الله عز وجل، وقلب الأب كذلك، قال تعالى :

معنى : فَصَلَت العِيرُ

(وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ)

(سورة يوسف)

لما غادرت العيرُ أرضَ مصر قال أبوهم :

(إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

معنى : تُفَنِّدُون

إني أشم رائحة يوسف لولا تفندوني، والتفنيد أن تعيّبوا علي هذه الفكرة، أي تسفهونها .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا؟ أَوِ الدَّجَّالَ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوِ السَّاعَةَ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

سنن الترمذي

الإنسان إذا تقدمت به السن يسخر الناس من آرائه، تفندون أي : لولا أنكم تسفهون هذا الرأي فإني :

(إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

هكذا كان جواب الأبناء :

(قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)

(سورة يوسف)

لازلت تهذي بهذه الأفكار، أين يوسف؟ يوسف مات وانتهى الأمر، ألم نقل لك: أكله الذئب، هذا ضلال في ضلال، وهذا من عقوق الأب، أن تقول لأبيك : إنك في ضلال، قال تعالى :

(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا)

وصول الدليل على صدق كلام يعقوب :

بعضهم قال: الذي جاءه بقميص يوسف وعليه دم كذب رجاهم أن يمسك بقميصه الحقيقي لتكون هذه بتلك، واحدة بواحدة .

(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا)

يروي التاريخ أن سيدنا يعقوب قال له: ماذا أكافئك على هذه البشارة، وليس عندي شيء، سأدعو لك أن يخفف الله عنك سكرات الموت، قالوا: هذا أثمن دعاء؛ أن يخفف الله عن الإنسان سكرات الموت، قال تعالى :

(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

المؤمن ينتظر من الله الإكرام :

سيدنا أبو الدرداء قيل له: احترق دكانك يا أبا الدرداء، قال: ما كان الله ليفعل، احترق دكانك، قال: ما كان الله ليفعل، احترق دكانك، قال: ما كان الله ليفعل، فلما تحققوا وجدوا أن دكان جاره هي التي احترقت، فلما أخبروه قال: أعلم ذلك، أي أنك أنت مؤمن إذا كنت مستقيماً على أمر الله، مطيعاً له، محباً

له، باذلاً ما تملك من أجله، ماذا تنتظر منه، كل إكرام، تنتظر السلامة والإكرام والتوفيق والصحة والوفاق الزوجي، قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : الآية 97)

هذا هو الظن، حسن الظن بالله ثمنه الجنة، قال تعالى :

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

(سورة الفتح : الآية 6)

قال تعالى :

(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

الذي أعرفه لا تعرفونه، الذي أعرفه عن كرم الله وعن محبته وعن توفيقه وعن حكمته وعن علمه وعن خبرته لا تعرفونه .

قال تعالى :

(قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ(97)قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي)

قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ

أهمية الاستغفار :

العلماء وجهوا هذه الآية أنه من عادته أن يقوم الليل قبل آذان الفجر فهذه ساعة مباركة، ساعة استجابة، فأرجأ الاستغفار إلى ساعة الإجابة، لأنه إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا فقال: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من طالب حاجة فأقضيها له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ حتى ينبلج الفجر، كلما ضاق بك أمر استيقظ قبل صلاة الفجر قم وصل ركعتين لله عز وجل، وفي السجود اطلب من الله حاجتك، فإن كان في أدائها خيراً فالله سبحانه وتعالى لابد من أن يجيبك عليها، قال تعالى :

(قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(98)فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ

أدب يوسف في استقباله أهله :

من آداب هذا النبي الكريم أنه خرج لاستقبالهم، قال تعالى :

(فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا)

(سورة البقرة)

الله سبحانه وتعالى وهو خالقنا ينتظر منا أن نذكره كذكر آبائنا لشدة عظم حق الأب، لا تمش أمامه، ولا تجلس قبله، قال تعالى :

(وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ)

وأي أمن ينعم به إنسان أبوه ملك البلاد؟ أيخاف من أحد؟ قال تعالى :

(وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ(99)وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ)

في مطار القاهرة مكتوب على بوابته الكبيرة: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، لكن شتان بين من يدخل الآن إليها وبين هذا النبي الكريم الذي دخلها حين كان ابنه عزيز مصر .

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ

ما هو العرش ؟

ورفع أبويه على العرش، العرش أي سريره، مكان جلوسه، تعظيماً لهم وتوقيراً لهم قال: اجلسوا على هذا العرش، إذا جاءك ضيف عزيز جداً أجلسه مكانك، في مكان تكرمتك، أجلسهم على مكان جلوسه، والعرش إذا نسب إلى الملك هو سرير المُلك، أو مكان جلوس الملك، قال تعالى :

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا)

ما طبيعة هذا السجود ؟

هنا لابد من الإيضاح، بعض العلماء قالوا وهم محقون: وخروا له أي لله عز وجل سجداً جميعاً، يوسف وأبواه وإخوته الأحد عشر كوكباً، وبعضهم قال: هذا سجود التحية، كان تقليداً في مصر، انحناء الرأس، حينما ينحني الرأس قليلاً هذا اسمه عند أهل مصر سجود ، لا سجود عبادة، بل هو سجود

تحية، عندها قال يوسف عليه السلام :

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا)

تحقّق رؤيا يوسف الأولى :

كما في أول السورة إذ قال تعالى :

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

الشمس أبوه والقمر أمه والأحد عشر كوكباً إخوته، قال تعالى :

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ)

وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ

إغفال الإلقاء في الجب أدبٌ كبير :

لمَ لم يقل: إذ أخرجني من البئر، لأنه إذا قال: إذ أخرجني من البئر يذكرهم بجريمتهم وقال الصوفيون: ذكر الجفا وقت الصفا من الجفاء، أي أنه ذكره بجريمته، إذا أساء أحدهم إليك وصار بينك وبينه مودة فيما بعد، هل تذكر يوم عملت معي كذا وكذا، بذلك تخجله وتحرقه حرقاً، فسيدنا يوسف لكماله ولأدبه الرفيع لم يقل: وقد أحسن بي إذ أخرجني من البئر، بل قال :

(إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (09-11): تفسير الآية 101
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-07-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ

إنه أدبٌ رفيع :

أيها الإخوة المؤمنون، ملاحظة، سيدنا يوسف لكماله ولأدبه الرفيع لم يقل: وقد أحسن بي إذ أخرجني من البئر، لا لم يقل ذلك، بل قال :

(إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ)

(سورة يوسف : الآية 100)

وقال بعضهم: كان البئر أهون عليه من السجن لأنه كان في البئر مع الله، وكان في السجن مع الوحوش، وفي السجن مصيبتان أنك تفقد حريتك، هذه مصيبة أولى، والثانية تجلس مع أناس دونك بكثير؛ مع سارقين، مع محتالين، مع شاربي خمر، مع لوطيين، شيء صعب جداً .

بعضهم قال: كان في البئر مع الله، وفي السجن مع اللصوص، وكان أسعد في البئر منه في السجن، هذا توجيه آخر، قال تعالى :

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ)

(سورة يوسف)

مَن بدا جفا :

من نعمة الله عز وجل أن يكون الإنسان في مكان فيه مجلس علم، لأن مَن بدا جفا، البادية أجمل، الريف أجمل، لكن ليس هناك مجالس علم، لو أن أحدهم أخذ بيتاً بمكان جميل، وسكن فيه، وانقطع عن الحق فهو الخاسر الأكبر، من بدا جفا، وفي أية قرية أو مدينة فيها مجلس علمٍ فالسكنى فيها أولى، قال تعالى :

(مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ)

(سورة يوسف)

لطفُ الله :

أي أن الله عز وجل أعطاه، لكن على المدى البعيد، سيدنا يوسف كان في البئر فصار عزيز مصر، ليس بين عشية وضحاها، لا، وإنما خلال أربعين عاماً، قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ)

(سورة يوسف)

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ)

(سورة العنكبوت)

لا تستعجل، لأن من تعجل الأمر قبل أوانه عوقب بالحرمان، قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

(سورة يوسف)

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

عندئذ التفت هذا النبي الكريم إلى الله عز وجل وقال :

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

(سورة يوسف)

تمني يوسف لقاء ربه وهو في أوج عطائه :

قال بعضهم: لقد تمنى لقاء الله عز وجل وهو في أوج ملكه، سيدنا عمر بن عبد العزيز قال مرة: " تاقت نفسي إلى الإمارة، فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الخلافة، فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الجنة "، أي أن مطمح المؤمن دخول الجنة، فإذا أمضى حياته في طاعة الله، أمضى حياته في الدعوة إلى الله، بذل من ماله، ومن وقته، ومن جهده في سبيل الله فلا شيء أحب إليه من الانتقال إلى الدار الآخرة .

سيدنا أبو سفيان بن الحارثة حينما كان على فراش الموت بكى أهله فقال: << لا تبكوا علي، فوالله ما عصيت الله منذ أسلمت، لا تبكوا علي، أنا في جنة >>، فساعة اللقاء عند أهل القرب لا تعدلها ساعة، ساعة اللقاء هي عرس المؤمن، لا تبكِ على أبيكِ بعد اليوم، غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه .

لا تتمنوا الموت فإن طول العمر وحسن العمل نعمة :

لكن النبي عليه الصلاة والسلام نصحنا فقال :

((لا تتمنوا الموت))

[ورد في الأثر]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ:

((مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

[سنن الترمذي]

إن كانت حياتنا فيها زيادة من الخير فأحينا، وإن كان فيها زيادة من غير الخير فأمتنا وتوفنا .

قال تعالى :

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

(سورة يوسف)

ولاية الله للمتقين :

وقال أيضاً :

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة : الآية 257)

شتان بين المؤمن وغير المؤمن، الله ولي المؤمن، والشيطان ولي الكافر، المؤمن من خير إلى خير، من رؤية إلى رؤية، من قربٍ إلى قرب، من طاعةٍ إلى طاعة، من سعادة إلى سعادة، من شأنٍ إلى أعلى، من مكانة إلى أكبر، وغير المؤمن من ورطة إلى ورطة، من سيئة إلى أكبر، من شقاءٍ إلى شقاء، من أزمة إلى أزمة، إلى أن يأت الموت، فيلقى في جهنم، قال تعالى :

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

(سورة يوسف)

إذا أحب الله عبدا رزقه عملا صالحا فتوفاه عليه :

لذلك :

((إذا أحب الله عبده عسله ، قيل : وما عسله يا رسول الله ، قال: يرزقه عملاً صالحاً ثم يتوفاه عليه))

[ورد في الأثر]

حدثني أخ في الجامع عندنا هنا، له والد يعمل مؤذناً، وبعضهم قال: ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله هم المؤذنون، أذن لصلاة الظهر، وأقام الصلاة، واقتدى بالإمام، وصلى الركعة الأولى والثانية والثالثة، وفي سجود الرابعة توفاه الله عز وجل، وهناك أناس يموتون وراء أجهزة اللهو في أبشع ميتة .

((إذا أحب الله عبده عسله ، قيل : وما عسله يا رسول الله ، قال: يرزقه عملاً صالحاً ثم يتوفاه عليه))

[ورد في الأثر]

مَن شبّ على شيء شاب عليه :

لكن من شب على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه، ومن مات على شيء حشِر عليه، هذا كلام دقيق جداً، من شب على شيء شاب عليه، إذا ألِفَ الإنسانُ في شبابه المعاصي، ألِف إهدار الوقت في أشياء لا ترضي الله عز وجل تصبح هذه المعاصي جزءاً من حياته، تصبح عادات ثابتة، قال الرسول الكريم :

((من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتبوأ مقعده من النار))

[ورد في الأثر]

من شبّ على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه، ومن مات على شيء حُشِر عليه، يقول ربنا عز وجل :

((عبدي، شاب شعرك، وضعف بصرك، وانحنى ظهرك فاستحي مني، فأنا أستحي منك))

[ورد في الأثر]

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدرت مسؤول

****

إلى متى أنت بالمعاصـــي تسير مرخى لك العنـــان

عندي لك الصلـح و هو برِّي و عندك السيف والسنـــان

ترضى بأن تنقضـي الليالي وما انقضت حـربك العوان
فاستحي من شيبة تـــراها في النار مشجونة تهـــان

هناك مناجاة :

يا رب هذي ذنوبي وأنت بالخطب مستعان

***

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيـــرنا
و لو سمعت أذناك حُسن خطابنا خلعت عنك ثياب العزل و جئتنـا
ولو ذقت من طعم المـحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا
ولو نسمت من قربنا لك نـسمة لمُتّ غريباً و اشتياقاً لقـــربنا
فما حبنا سهل و كـل من ادعى سهولة قلنا له : قد جهـــــلتنا
فأيسر ما في الحب للصب قتـله وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

***

خاتمة :

آخر كلمة: ليس في الكون إلا الله، وأي شيء يقربك إليه فهو حق، وأي شيء يبعدك عنه فهو باطل، أي فكرة أو عادة أو سلوك أي شيء يقربك إليه فهو حق، وأي شيء يبعدك عنه فهو باطل، وليس إلا الله، وما توفيقي إلا بالله، ولا تتحقق الأهداف إلا بالله، والآية الأخيرة، قال تعالى :

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(39)وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(40)ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)

(سورة النجم)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (10-11): تفسير الآيات 102 - 108

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-07-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، في الدرس الماضي انتهت قصة يوسف عليه السلام، وقد ذكرت لكم في أول درس في هذه السورة أنّ هذه السورة فيها مقدمة وقصة وتعقيب، والآن الآيات المتبقية من هذه السورة تعقيبات أساسية على هذه القصة، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ)

(سورة يوسف)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ

قصة يوسف دليل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام :

هذه القصة لا تعلمها أنت، لم تكن في زمنها، لم تكن في مكان وقوعها ولا في زمان وقوعها، بينك وبينها مئات السنين، بل آلاف السنين، قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

أولاً: ربنا سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة يقول :

(وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ)

(سورة يوسف)

معنى الغافلين: أي لا تعلم أحداث هذه القصة، فإذا جاء نبي في آخر الزمان يحدث بحديث ذي تفصيلات وحوادث وأشخاص وأمكنة وأزمنة لا يمكن أن يحصّلها بخبرته، ولا بثقافته، ولا بعلمه، إذاً: هي من عند الله عز وجل، فكأن هذه القصة تثبت نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ

المكر لابد له من اجتماع وتخطيط :

الحقيقة أن المكر لا يتم إلا في اجتماعات مغلقة، والإنسان إذا أراد أن يمكر، أو أن يدبر، أو أن يخطط، أو أن يبحث، فلا بد من اجتماع مغلق، فإخوة يوسف اجتمعوا فيما بينهم، ومكروا بيوسف، ثم اجتمعوا فيما بينهم، ومكروا بأبيهم، قال تعالى :

(قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ)

(سورة يوسف)

قصة يوسف حلقات من المكر :

وإخوة يوسف اجتمعوا بعد أن حُجز أخوهم الصغير، واتفقوا فيما بينهم، وامرأة العزيز مكرت بيوسف، والنسوة في المدينة تحدثن عن امرأة العزيز، امرأة العزيز جمعت النسوة، كأن في هذه القصة حلقات كثيرة من التدبيرات أو من المكر، سيدنا يوسف دبر تدبيراً كي يحجز أخاه عنده، فجعل صواع الملك في رحله، فربنا عز وجل كأنه حينما قال :

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

أبرز ما في هذه القصة حلقات عديدة من المكر والتدبير، إن كانت لصالح بعضهم أو كانت لغير صالح بعضهم، على كلٍ حلقات عديدة من المكر، لذلك جاءت هذه الكلمة لتعبر عن أبرز أحداث القصة وهو المكر .

تكرار قوله :

في القرآن :

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ)

قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ)

(سورة يوسف)

لا في زمانك ولا في مكانك، الأرض ليست أرضك، والوقت ليس وقتك، ومع ذلك تأتيهم بقصة دقيقة متطابقة مع ما في كتبهم من التوراة والإنجيل، إذاً: أنت نبي، إذاً: هذه القصة دليل على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رسالته، فكل رسول نبي، والعكس غير صحيح .

شيء آخر، العلماء قالوا: ليس القصد نفي حضوره بل إثبات نبوته، كلمة :

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ)

هذه متكررة، هذا المعنى جاء في القرآن خمس مرات، قال تعالى :

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا)

(سورة القصص : 46)

قال تعالى :

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ)

(سورة القصص : 44)

قال تعالى :

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

(سورة آل عمران)

قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

هذه القصة بأحداثها وشخصياتها، وعقدتها وملابساتها، وبدايتها ونهايتها كانت غائبة عنك، وهذه القصة لا تعلمها، ولا يمكن أن تعلمها إلا أن توحى إليك، إذاً: أنت نبي، وهذه القصة كما ذكرتها وردت عندهم في التوراة والإنجيل، إذاً: المصدر الذي جاء منه القرآن الكريم والتوراة والإنجيل هو مصدر واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ(102)وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة يوسف)

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ

بعضهم يقول: إنّ اليهود تحدوا النبي عليه الصلاة والسلام فقالوا له: إن كنت نبياً كما تزعم فاتل علينا قصة يوسف، فلما تلاها عليهم كفروا، وكان من الممكن أن يؤمنوا، كانت تلاوة هذه القصة حجة عليهم، لذلك جاءت هذه الآية ، وعلاقتها بالآية قبلها أنه :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

الأكثرية ليست مؤمنة، والأقلية مؤمنة .

كن مع الأقلية ، ولا تكن مع الأكثرية :

يا أيها الأخ الكريم لا تكن مع الأكثرية، لا تكن مع التيار العام، لا تكن مع الخط العريض، لا تكن مع صرعات الناس، لا ينبغي أن يشغلك ما يشغلهم، ولا أن يؤلمك ما يؤلمهم، ولا أن يسعدك ما يسعدهم، يجب أن تكون منفصلاً عنهم لأن هذا الخط العريض في المجتمع، أو هذه الأكثرية الساحقة هذه تتبع شهواتها، وتعنيها الدنيا، غافلة عن الآخرة، راغبة في الدنيا ، متعلقة بحطامها، متنافسة من أجلها، غائصة إلى قمة رأسها في متعها، لذلك لا تكن مع الأكثرية، كن مع الأقلية، قال تعالى :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام : الآية 116)

انظر إلى الأحجار في بعض المحافظات؛ إنها تغطي الأرض، وما أكثرها، أما قطع الماس فما أقلها، الشيء الثمين قليل، والشيء الكثير لا قيمة له، لا تكن مع الدهماء، لا تكن مع السوقة، لا تكن مع الرعاع، الإمام علي كرم الله وجهه يقول : << يا بني، الناس ثلاثة، عالِم رباني، و متعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، فاحذر يا كميل أن تكون منهم>>، لا تكن مع الرعاع، لا تكن مع أتباع كل ناعق، لا تكن مع الدهماء، لا تكن مع السوقة، كن مع الأقلية الواعية، كن مع الأقلية صاحبة المبدأ، كن مع الذين يعنيهم أمر آخرتهم، كن مع الذين يضعون مصلحتهم تحت أقدامهم إذا تعارضت مع مبادئهم، لا تكن مع الذين يغوصون في الدنيا إلى أعماقهم، قال تعالى :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

(سورة الأنعام)

قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ(102)وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة يوسف)

لذلك إذا اختار الإنسان الهدى تكفيه أبسط الآيات، و إذا اختار طريق الدنيا وطريق الشهوات لو رأى بأم عينه كتاباً نزل من السماء، لو كلمهم الموتى، لو حشر الله عليه كل شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمن، قال تعالى :

(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)

(سورة النمل)

هؤلاء موتى، مقبورون في شهواتهم، مقبورون في مصالحهم، مقبورون في أهدافهم الرخيصة . إذاً :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ)

الهدى على الله :

يا محمد لو جهدت، ولو بذلت كل ما في وسعك لتوضح وتبين وتستقصي وتضرب المثل، قال تعالى :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة يوسف)

بمعنى أنك :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة : الآية 272)

الآية الثانية قوله تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص)

الإنسان مخير، أُعطي المشيئة، فإذا شاء الهدى آمن من تلقاء ذاته، آمن من كأس الماء رآه آية على عظمة الله، البحر ملح أجاج، وهذا عذب فرات، من جعل هذا الملح الأجاج عذباً فراتاً؟ الله سبحانه وتعالى، الذي يختار الإيمان يؤمن من خلال الآيات التي بثها الله عز وجل في الأرض، قال تعالى :

(أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ(68)أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنْ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ)

(سورة الواقعة)

الماء آية، خلق الإنسان آية، الشمس آية، القمر آية، ابنك آية، الثمرة آية، الفواكه آية، المحاصيل آية، الخضراوات آية، البساتين والأشجار المثمرة آية، الحيوانات آية، الأنعام آية، هذه الغنمة التي سخرها الله سبحانه وتعالى لنا نستفيد من لحمها ومن صوفها ومن لبنها وجلدها وأحشائها ومن كل شيء فيها وقد ذللها الله لنا، جعلها مذللة، قال تعالى :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(71)وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(سورة يس)

إذاً: كما قال تعالى :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة يوسف)

لذلك الرأي العام قد لا ينطبق على الإيمان، الناس يتجهون إلى الدنيا، إلى بيوتها، إلى أراضيها، إلى متعها، إلى شهواتها، إلى زخرفها، إلى بهرجها ويضربون بالقيم عُرض الحائط، يقول لك: من الآن وحتى الموت يخلق الله ما لا تعلمون، غداً أتوب .

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ

قال تعالى :

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

(سورة يوسف)

الأنبياء والدعاة الصادقون لا يبتغون أجرا من دعوتهم :

أي أن النبي عليه الصلاة والسلام غني عن إيمانهم، لو أنهم آمنوا لما حقق فائدة مادية منهم، لأنهم لا يعطونه شيئاً، ولا يأخذون منه شيئاً إذا كفروا .

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)

هل هناك أحد منا يستطيع أن يدخل على محام من دون مبلغ يدفعه استشارة؟ من منا يدخل إلى طبيب من دون أن يملك أجرة المعالجة؟ من منا يدخل إلى صيدلي من دون أن يملك ثمن الدواء؟ ما من خدمة تقدم لك في الدنيا إلا ولها مقابل، لا تستطيع أن تدخل إلى محل إلا وتملك الثمن، إلا أنك تستطيع أن تدخل إلى مجلس العلم لتستمع إلى الحق الذي يمكن أن ينقذك من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة من دون أن تدفع شيئاً، الحق مبذول للناس كلهم .

الآن لو أن قسط الجامعة يزيد على عشرة آلاف ليرة أيستطيع دخول هذه الجامعة إلا الأغنياء؟ إن كان للجامعة قسط مرتفع معنى ذلك أنّ التعليم الجامعي صار حكراً على الأغنياء، لو أن الله سبحانه وتعالى كلف طلاب العلم أقساطاً باهظة أو نفقات كبيرة لكان طلب العلم قاصراً على الأغنياء، ولكن الله سبحانه وتعالى لحكمة أرادها جعل الحق بلا مقابل، جعل الحق مبذولاً للخلق كلهم، لذلك قال تعالى :

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)

(سورة يوسف)

لو سألتهم أجراً لشكُّوا في نياتك ومبادئك، ولكنك لا تسألهم أجراً، إذاً: هو منزه عن الأجر .

عندما كان سيدنا جعفر بن أبي طالب في الحبشة، وسأله النجاشي عن دعوة النبي عليه الصلاة والسلام قال: << أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونأتي الفواحش، ونضيع الأمانة، ويأكل القوي منا الضعيف >>، هذه الجاهلية، هذه الجاهلية الأولى، وهذه الجاهلية الآخرة، وهذه هي طبيعة الجاهلية، وأي مجتمع أعرض عن الله عز وجل هذه صفاته، << نعبد الأصنام، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، ونضيع الأمانة، ويأكل القوي منا الضعيف >>، هذه الجاهلية، وهناك جاهليات على مر العصور والدهور، << حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه، ونسبه وعفته، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده، ونخلع ما يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء >>، هذا هو الدين، الدين خلق، بني الإسلام على خمس، هذه الخمس ليست هي الإسلام، وإنما هي دعائم الإسلام، الإسلام بناء آخر، الصلاة دعامة، والصيام دعامة، والزكاة دعامة، والحج دعامة، والشهادتان دعامة، والإسلام بناء أخلاقي بني على هذه الدعائم، فإذا أزيح البناء فهل هذه الدعائم هي الإسلام؟ لا والله، من صلى، وصام، وزكّى، وحج، وزعم أنه مسلم، وكان في عمله سوء، وكانت أمانته مخدوشة، وعدالته مجروحة، واستقامته مشكوك فيها، أهذا هو الإسلام؟ قال تعالى :

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)

(سورة يوسف)

حتى إن الله سبحانه وتعالى جعل علامة الداعية الصادق أنه لا يسألك أجراً، لا قليلاً ولا كثيراً، لا معنوياً ولا مادياً، لا آجلاً ولا عاجلاً، قال تعالى :

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)

(سورة الإنسان)

لو أن الداعية إلى الله عرف الله لما طمع بأحد، لأن الله سبحانه وتعالى إذا أعطى أدهش، أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني، قال تعالى :

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة يس)

الأنبياءأعطوا ولم يأخذوا :

علامة صدقهم، وعلامة أنهم على حق أنهم لا يسألونكم أجراً أبداً، إنما أنا رحمة مهداة، علامة النبي أنه يعطي ولا يأخذ، وعلامة الكافر أنه يأخذ ولا يعطي، كالأخطبوط يأخذ ولا يعطي، أما النبي الكريم

فيعطي ولا يأخذ، لذته في العطاء لا في الأخذ، والمنحرف الخطير يأخذ ولا يعطي، وعامة الناس بينَ بين، يأخذون ويعطون، " فيا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدست الوجود ورعيت قضية الإنسان، يا من زكيت سيادة العقل ونهنهت غريزة القطيع، يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع، فعشت واحداً بين الجميع "، هذا إهداء قرأته في كتاب يتحدث عن النبي عليه الصلاة والسلام.

راقب نفسك أتحب الأخذ أم العطاء؟ هناك من يحبون الأخذ، من يحبون أن يغنوا ولو على حساب الناس، أن يشبعوا ولو على جوع الناس، أن يكبروا ولو على أشلاء الناس، أتحب أن تسعد الآخرين؟ أتحب أن تخدم الناس؟ أتحب أن تكون مفتاح الخير لا مفتاح الشر؟ أتحب أن تُقضى حوائجهم على يدك؟ إذا أحب الله عبداً جعل حوائج الناس إليه، الخير بيدي، والشر بيدي، فطوبى لمن قدرت على يده الخير، والويل لمن قدرت على يده الشر، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، راقب عملك، هل عملك فيه عطاء أم فيه أخذ؟ هل عملك يبنى على إيذاء الناس أم على إكرام الناس؟ شتان بين العملين، لذلك :

((وَإِنَّ الرُّوحَ الأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوْعِي ، أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ، وَلاَ يَحْمِلَكُمَ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللهِ فَإِنَّهُ لاَ يُنَالُ مَا عِنْدَ اللهِ إلاَّ بطاعَتِهِ))

[ابن أبي شيبة عن ابن مسعود]

واستجملوا مهنكم، لا ترض بمهنة سيئة، اختر مهنة صالحة فيها نفع عميم، لا تجعل مهنتك فتنة، الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها، هناك أعمال مبنية على إثارة الفتن، أو على فتنة النفوس في الدنيا، أو على بيع بضاعة محرّمة، أو على التعامل بمواد محرّمة :

((وَإِنَّ الرُّوحَ الأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوْعِي ، أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ، وَلاَ يَحْمِلَكُمَ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللهِ فَإِنَّهُ لاَ يُنَالُ مَا عِنْدَ اللهِ إلاَّ بطاعَتِهِ))

الحق مبذول لجميع الناس :

شيء آخر، مما يدل على عدالة الله عز وجل أنه جعل الحق مبذولاً، الخلق كلهم عيال الله، << يا سعد، لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له >> .كلكم مدعوون إلى الحق، أبيضكم وأسودكم، عربيكم وأعجميكم، كبيركم وصغيركم، أيّ إنسان، قال تعالى :

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه)

فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص : الآية 38)

والذي قال :

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف : الآية 51)

هذا هو نفسه دعاه الله إليه :

(فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا)

(سورة طه : الآية 44)

لذلك من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف، قال تعالى :

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 159)

لابد من الرفق بالناس في الدعوة :

قال بعض العلماء: من تصدر للإرشاد فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه، فالورع حسن، لكن في العلماء أحسن، هذا الذي تدعوه إلى الله يجب أن تكون قدوة له، يجب أن تكون سباقاً إلى الخير، يجب ألا يأخذ الناس عليك مأخذاً، قال تعالى :

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة : الآية 124)

يجب أن تصبر، ويجب أن تضحي، ويجب أن تبذل، ويجب أن تتواضع، ويجب أن ترحم من أجل أن يشرفك الله لأن تكون جندياً من جنود الحق، ما من حرفة أرقى في الأرض من أن تكون داعياً إلى الله عز وجل، قال تعالى :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

وسيأتي بعد قليل آية خطيرة جداً، بمعنى أن الذي لا يدعو إلى الله ليس مؤمناً، من سمات المؤمن أنه يدعو إلى الله، فلو تخلى عن الدعوة فقد إيمانه .

نفي الشيء إثبات لضده :

الآن هناك قاعدة نفي الشيء إثبات لضده، فإذا كان للإنسان غرض دنيوي من دعوته إلى الله، إذا أثبتنا هذا الغرض نفينا الإخلاص عنه، فإذا نفينا هذا الغرض أثبتنا الإخلاص، فإذا نفيت عن إنسانٍ أن تكون له مآرب من دعوته الدنيوية فهذا النفي هو في حد ذاته إثبات في إخلاصه، قال تعالى :

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ(104)وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ

الآيات الكونية دالة على الله :

من منا لا يأكل، هذه المائدة التي توضع أمامك في اليوم ثلاث مرات، هل فكرت فيها؟

انظر إلى ما فوق مائدة طعامك :

هل فكرت في كأس الماء؟ قال تعالى :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

(سورة الملك)

لو أن سنوات القحط والجفاف استمرت، ما قيمة هذه الطوابق العليا؟ ما قيمة هذه البيوت الفخمة لو لم يكن فيها ماء؟ ما قيمة الشام؟ لا قيمة لها لولا الماء، إذا جلست إلى الطعام فهذا الخبز الذي تأكله هل تعلم أن هذا القمح غذاء كامل للإنسان، ما هذا التوافق بين بنية القمح وبنية الجسم، هذا الحليب الذي تشربه غذاء كامل، من جعل هذا التوافق بين حليب الغنم وحليب البقر وحاجة الجسم؟ هذا اللحم الذي تأكله من سخره لك هذه الخضراوات التي تأكلها من زرعها لك، قال تعالى :

(أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

(سورة الواقعة)

الثمار :

تلقي الحبة وتذهب إلى البيت، هذه الحبة والرشيم والسويق والجذير من يشق الحبة عن الرشيم؟ كيف ينمو هذا الرشيم؟ كيف تنبت الأوراق؟ كيف تظهر الأزهار؟ كيف تنعقد الثمار؟ كيف تصبح هذه الثمار ناضجة؟ هذه الفواكه التي تأكلها تصميم من؟ بستان فيه التفاح وفيه العنب والإجاص وفيه المشمش وفيه التوت والدراق، وفيه الكرز يسقى بماء واحد، قال تعالى :

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

(سورة الرعد : الآية 4)

آيات دالة على عظمة الله، ما الفرق بين الكرز والدراق؟ فرق كبير، اكتب الفرق كتابة، لن تستطيع، هذا حلو وهذا حلو، ولكن حلاوة الكرز غير حلاوة الدراق، غير حلاوة الإجاص، غير حلاوة التفاح، غير حلاوة العنب، غير حلاوة التمر .

التمر :

التمر، هذه الشجرة التي تعيش أكثر من ستة آلاف عام، هناك أشجار نخيل قبل سيدنا عيسى بكثير، قبل الميلاد، هذا التمر الذي فيه مادة سكرية، تتمثل في أقل من عشرين دقيقة، من الفم إلى الدم في عشرين دقيقة، فيه مادة تمنع النزيف، فيه مادة تمنع الكتم، ملينة ، فيه مادة تغذي الدماغ أي آيات بليغات عن التمر .

العنب :

هذا العنب لو أمسكت بعنقود العنب بكلتي يديك، وشددته وتعلقت به لما انقطع، فإذا فعلت هكذا انقطع، تصميم من هذا؟ مهما هبت الرياح فلا يقع العنب، لكنك إذا حركت العنقود حركة معاكسة لزاوية ذنبه ينقطع فوراً، هناك تصميم .

نضج الفواكه والخضر تباعا :

من جعل هذه الفواكه تنمو تباعاً، الكرز أولاً، ثم المشمش، ثم الدراق، ثم الإجاص، ثم التفاح، ثم العنب، ثم التين، لو أنّ هذه الفواكه تنضج جميعاً في يوم واحد، أو في أسبوع واحد لأتلفت، ولما استفدنا منها، نستفيد منها إذا نضجت تباعاً، والفاكهة الواحدة تنضج أيضاً على مدى شهر، على مدى أربعة

أسابيع، التفاح على مدى شهرين، من جعل هذه الخضراوات تنضج تباعاً، كل يومين قطف كوسا، الكوسا والباذنجان والبندورة كل يومين قطف، لو أنها كالقمح تنضج في يوم واحد ماذا نفعل بها؟ لكنّ القمح لو أنه نضج تباعاً كيف نحصده؟ مستحيل، الحمص والقمح والعدس والشعير هذه المحاصيل من آيات الله الدالة على عظمته أنها تنضج في يوم واحد رحمة بنا، قال تعالى :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا)

(سورة يوسف)

الكواكب والنجوم :

القمر آية ، قلب العقرب آية ، يسع الأرض والشمس مع المسافة بينهما، الشمس آية يزيد حجمها عن حجم الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، أي أن الشمس تتسع لمليون وثلاثمائة ألف أرض، ويزيد لسان اللهب طولاً عن مليون كيلو متر، الشمس آية، درب التبانة آية إذ يبلغ طوله مائة وخمسون ألف سنة ضوئية، بينما القمر يبعد عن الأرض ثانية ضوئية واحدة، هؤلاء الذين قالوا: غزونا الفضاء، ما تجاوزوا من الفضاء إلا ثانية ضوئية واحدة، بينما درب التبانة طوله مائة وخمسون ألف سنة ضوئية، أقرب نجم إلينا نجم القطب، أربعة آلاف سنة ضوئية، لو ركبنا إليه سيارة لاحتجنا كي نصله إلى سبعة وعشرين مليون مليون سنة، أقرب نجم في الكون إلينا هو نجم القطب، وهناك مجرات تبعد عنا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، قال تعالى :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

العين :

في العين مادة مضادة للتجمد لو ذهبت إلى فلندة إلى سيبيريا، وكانت الحرارة دون خمسين تحت الصفر، لولا أنّ في العين هذه المادة لعمي الناس كلهم هناك، هذا الماء الذي في العين يتجمد، لكنّ في ماء العين مادة مضادة للتجمد، هذه آية من آيات الله، هذا الماء الذي نشربه عنصر، ليس في الأرض من عنصر إذا تجمد إلا انكمش إلا الماء إذا تجمد توسع .

كثافة الماء :

لولا هذه الخاصة لما كنا جميعاً في هذا المسجد، ولما بقي على وجه الأرض إنسان ولا حيوان ولا

نبات، لأن هذا الماء لو أنه تجمد فانكمش أي زادت كثافته لغاص في أعماق البحار، إذا تجمد البحر على السطح يهبط إلى الأسفل، على مدى مائة عام تصبح البحار كلها متجمدة، فإذا أصبحت البحار متجمدة انعدم التبخر، ومع انعدام التبخر تنعدم الأمطار، فيموت النبات، ويموت الحيوان، ويموت الإنسان، هذه الخاصة توسع الماء إذا تجمد، ترى البحار الشمالية المتجمدة الطبقة السطحية متجمدة، أما البحار فماء دافئة تسبح فيها الأسماك، لو أنّ الماء إذا تجمد غاص في أعماق البحار لنشأت مشكلة كبيرة جداً، قال تعالى :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

الأغناموفوائدها :

هذه الأغنام إذا قلنا: إنّ كل خمسة آلاف إنسان يصيبهم في اليوم رأس غنم واحد يجب أن يذبح كل يوم مليون رأس غنم، على مدار السنة ثلاثمائة وخمس وستين مليون رأس، لو مثلنا هذا الرقم بنهر لكان نهراً يفوق أضخم أنهار العالّم غنم للطعام، لو مثلنا الحليب الذي يحلب من الأبقار كلها في أنحاء العالّم لكان نهراً يزيد على نهر الأمازون، ثلاثمائة ألف متر مكعب بالثانية، هذا عطاؤنا، نهر من الحليب، ونهر من الغنم، ونهر من المحاصيل .

دمشق، هذه البيوت، اصعد إلى جبل قاسيون، وألق نظرة على دمشق من علٍ، ما من بيت إلا وفيه سكر وشاي وبن ورز ومونة، من وزع هذه الأقوات؟ الله سبحانه وتعالى، قال تعالى :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105)وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ

هذه الآية :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ)

شركٌ وإيمانٌ!!!

هي مركز الثقل، مؤمن يشهد أن لا إله إلا الله وهو مشرك، يصلي وهو مشرك، يزكي وهو مشرك،

يحج البيت وهو مشرك، يقول: أنا مسلم وهو مشرك، أؤمن بالله، وهو مشرك، أؤمن بالجنة وهو مشرك:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

أقوال العلماء في هذه الآية :

العلماء لهم في هذه الآية أقوال عديدة، بعضهم قال: يؤمن أكثرهم باللسان، وهم مشركون بالقلب، وهم مشركون بالعمل، يؤمنون في الشدة ويشركون في الرخاء، باللسان والعمل، باللسان والقلب، بالشدة والرخاء، والعلماء قالوا: هناك شرك بالطاعة، فالذي يطيع غير الله هو عند الله مشرك، وهناك شرك في النية، الذي ينوي في قلبه التقرب إلى فلان من دون الله عز وجل فهو مشرك، وهناك شرك في الوجهة، الذي يتوجه بكليته إلى غير الله فهو مشرك، وهناك شرك في العمل، الذي يعمل لغير الله فهو مشرك، والحقيقة أنه ليس في الكون إلا حقيقة واحدة وهي الله، فإذا عرفتها فأنت مؤمن، وإذا جهلتها فأنت مشرك، إذا تقربت إليها فأنت مؤمن، وإذا تقربت إلى غيرها فأنت مشرك، إذا خفتها فأنت مؤمن، وإذا خفت من غيرها فأنت مشرك، إذا عملت لها فأنت مؤمن، وإذا عملت لغيرها فأنت مشرك .

الشرك نوعان أصغر وأكبر :

لكنّ العلماء قالوا: الشرك نوعان: شرك كبير لا يُغفر، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

(سورة النساء)

أن تعبد مع الله إلهاً آخر، أن تطيع إنساناً في معصية الخالق، هذا شرك أكبر لا يُغفر، أن تتخذ إلهاً غير الله، ولو كان من بني البشر، أن تعبد غير الله، أن تطيع غير الله، أن ترضى بقربة غير القربة من الله عز وجل .

وقال بعضهم: هذا الشرك هو النفاق، ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله، وهناك حديث قدسي يقول:

((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه))

[التفسير للإمام القرطبي]

لا أقبله، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، ومن كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثواب هذا العمل من عند غير الله، فإن الله أغنى الأغنياء عن الشرك، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ:

((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ))

[سنن ابن ماجة]

وهذا من الشرك أيضاً ، و" الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شيء من الجور، وأن تبغض على شيء من العدل " .

إذا أحببت صديقاً لك ليس مستقيماً، جائراً قليلاً، منحرفاً قليلاً إذا أحببته فأنت مشرك، وإذا نصحك ناصح، وكان في نصيحته منصفاً فكرهته فأنت مشرك، قال تعالى :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)

(سورة البقرة : الآية 165)

هذا من الشرك، قال تعالى :

(تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(97)إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الشعراء)

هذا هو الشرك، قيل: كيف يسوى من خُلِق من تراب برب الأرباب، كيف يسوى العبيد بمالك الرقاب، أي أنت إذا أطعت فلاناً، وعصيت الله هل تعلم أنك جعلت من هذا الإنسان خالقاً؟ رفعته إلى مستوى الخالق، وهذا شرك كبير، قال تعالى :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام)

الشرك بأنواعه أمرٌ عظيم :

هو القديم الأزلي السرمدي الأبدي، لا شيء قبله، ولا شيء بعده، بيده الأمر تعصيه، وتطيع مخلوقاً يفنى، يموت، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، أيعقل هذا، أيعقل أن تسوي رب العالمين ببعض البشر؟ أو أن تسوي بعض البشر برب العالمين، سبحان الله، إن الشرك لظلم عظيم، ظلم لهذه النفس، أنت في هذا العمر الثمين تتجه بكليتك، بإمكاناتك، بعقلك، بتفكيرك، بعلمك، بخبرتك، بقيمك، بمبادئك، تتجه للإنسان، وتدع الله عز وجل يغضب عليك، أهذا هو العقل، ما قولكم من حلف بغير الله فقد أشرك، بأولادي، أأولادك أغلى عليك من الله، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ قَالَ: سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ رَجُلاً يَحْلِفُ لاَ وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ))

[سنن أبي داوود]

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رَهْطٌ فَبَايَعَ تِسْعَةً، وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحِدٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايَعْتَ تِسْعَةً، وَتَرَكْتَ هَذَا، قَالَ :

((إِنَّ عَلَيْهِ تَمِيمَةً، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا فَبَايَعَهُ، وَقَالَ: مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ))

[مسند الإمام أحمد]

وضع حدوة، وكتب: " عين الحاسد تبلى بالعمى " ، هذا شرك، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ فَقَدْ أَشْرَكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُكَ، ولاَ طَيْرَ إِلاَّ طَيْرُكَ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ))

[مسند الإمام أحمد]

أراد أحدهم أن يسافر، ولم يجد غير يوم الأربعاء ليسافر، فقال: أنا لا أسافر يوم الأربعاء، أتشاءم من هذا اليوم، هذا شؤم، لا تشاؤم ولا طيرة، ولا حدوة ولا هامة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالْحَسَنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[أحمد]

وعَنْ صَفِيَّةَ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا))

[مسند الإمام أحمد]

هذا كله شرك، إذا قرأت في المجلات حظك هذا الأسبوع، أنت ولدت في كانون الأول، وكان برجك الدلو مثلاً تنظر إليه، فهذا شرك، إذا جلست إلى ساحر ولم تصدقه لم تقبل لك صلاة أربعين صباحاً، رقم الستة عشر لم يعجبني، هذا شرك، دخل صديقك على المحل فلم تتم البيعة فقلت: إن هذا الشخص قدمه نحس، هذا شرك، ليس له علاقة، هذا كله كلام لا معنى له، فلذلك باب الشرك واسع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ :

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ))

[سنن ابن ماجة]

أن تقول: أنا، فهذا شرك، أن تقول: فلان، فهذا شرك، أن تقول: هذا الطبيب أنقذ ابني من موت محقق، فهذا شرك، التقيت بإنسان عجبت؛ له حينما تكلم وضع يده هنا، وضغط زراً فتكلم، قال: أنا استؤصلت حنجرتي، وذكر دولة أجنبية، هؤلاء الذين أنقذوا حياتي، أنقذوني من السرطان، ركبوا لي هذه الحنجرة، هم إنسانيون وأصحاب مبادئ، عزا كل الفضل إليهم، ونسي الله عز وجل، هذا شرك، ويقول الله عز وجل :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

قلّ من ينجو من الشرك، طبعاً الشرك الكبير هذا لا يغفر، لكن الشرك الصغير أن تحب إنساناً، وفيه بعض الانحراف، تحبه محبة بالغة، ولكن لم يصل العصر أمامك، ولا زلت على محبته، هذا شرك، نصحك أحدهم نصيحة انزعجت، تجرأ علي، هذا شرك، أحببت إنساناً ونسيت الله عز وجل، هذا شرك، قال تعالى :

(أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة يوسف)

الفضل كلّه لله :

هذا الذي أشرك فلاناً، أحبه وعصى الله، أطاعه وعصى الله، أرضاه وأغضب الله، تقرب إليه وابتعد عن الله، تعلق به ونفر من الله، هذا الذي أحب مخلوقاً، ونسي الخالق، هل يأمن من عذاب الله ؟ أحد الولاة جاءته رسالة من الخليفة، وفيها توجيه بظلمٍ، وعنده أحد التابعين، فقال: " ماذا أفعل يا فلان؟ هذا أمر من يزيد، ماذا أفعل؟ فقال هذا التابعي كلمة تكتب بماء الذهب، قال : " إنّ الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله " ، أي إذا أطعت فلاناً وعصيت الله، والله سبحانه وتعالى قدّر عليك مرضاً عضالاً، ماذا تفعل؟ فلان ينجيك، لا يزيد على أن يبعث لك باقة ورد متمنياً لك الشفاء العاجل، وقد لا يكون هذا الشفاء، الكليتان بيد من لو توقفتا عن العمل؟ وحتى هذه الساعة لا يعرف العلم سبب هذا التوقف، هذا مرض خطير اسمه توقف مفاجئ، هبوط مفاجئ في عمل الكليتين، يحتاج في كل أسبوع مرتين غسيل دم، يخرج الدم بكامله إلى كلية صناعية يبقى ثماني ساعات وستة ساعات انتظار، ويدفع ألفي ليرة تقريباً أو سبعمائة ليرة، أو تريد إعفاء، تأخذ عشرة أسابيع بهذه اليد حتى ينثقب جسدك، وعشرة باليد الأخرى، وعشرة بالرجل الأولى، وعشرة بالثانية، فلم يبق أماكن، فتح شريان، وأخذ دم بكامله وغسيله، لو توقفت هاتان الكليتان عن العمل فجأة ما الذي تفعله ؟

لو توقف نقي العظام عن صنع الكريات الحمراء ماذا تعمل؟ لو نمت بعض الخلايا نمواً عشوائياً، وأخذت خزعة إلى التحليل، وقيل: هذا ورم خبيث، هذا الذي أطعته من دون الله ماذا يفعل معك؟ هل يقول لهذه الخلايا: قفي عن النمو، هل يقدر أن يفعل ذلك؟ طبعاً لا يقدر، لو تعب هذا القلب هذا الذي أطعته من دون الله ماذا يفعل، ماذا يقدم لك؟ إنّ الله يمنعك من يزيد، ولكنّ يزيد لا يمنعك من الله، لذلك من البديهيات أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

جاء بعض الخلفاء إلى الحج، وكان في الحرم المكي، فالتقى بعالِمٍ جليل، فقال لهذا العالِم: سلني كل

حاجتك، فقال: والله أستحي، وأنا في بيت الله أن أسأل غير الله، فلما التقى به خارج الحرم قال له: سلني كل حاجتك، قال: والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها، قال له: سلني كل حاجتك، فقال له: أنقذني من النار، قال : هذه لا أملكها، قال: إذاً ليس لي عندك حاجة ، وقد قيل: " استغن عن الرجل تكن نظيره، وأعط من شئت تكن أميره، واحتج إليه تكن أسيره "، قال له: " يا أبا حنيفة، لو تغشيتنا نأنس بك، ونسعد بقربك، ونفتخر بك، قال: ولِمَ أتغشاكم وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه؟ وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء؟ " ، لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير، شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء : الآية 213)

لا تنام الليل، والله لم أقل هذه الكلمة، من قال: إني قلتها، كيف سأرضيه؟ لا تنام ليلتك، الإنسان لئيم ومعلوماته قاصرة، فقد يسمع فيك قولاً ما قلته، ويحكم عليك وأنت بريء، لذلك قال تعالى :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء : الآية 213)

إرضاء الناس غاية لا تدرك، قال تعالى :

(أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة يوسف)

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

احذروا نقمة الله :

أي تحت سمعنا وبصرنا، كولومبيا في قمة جبل الثلج بخمسة أمتار، ثار بركان ذابت الثلوج، وشكلت سيولاً أغرقت المدينة، وبعدها جاءت الحمم فأحرقتها، خمسة وثلاثون ألف إنسان ماتوا في دقائق، والمكسيك قبلها، وأغادير قبلها، و قبلها ميلانو، وقبلها بكين، قال تعالى :

(أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الأعراف)

لا يأمن بأس الله إلا القوم الضالون، لا يأمن بأس الله إلا الغبي .

كان أحدهم يركب سيارة وهو ظالم لنفسه، كسبه حرام، بنى ثروة من أموال الناس غصباً، استعلى

عليهم، ضايقهم، كان يمشي في سيارته عندما نزل المطر بشكل بطيء، وضع قدمه على المكبح، دار قليلاً، واصطدم بسيارة شحن، نزعوا رأسه من المقعد الخلفي، في ثوان قليلة بحركة، أحياناً ينفجر شريان في الدماغ ويكون الرجل جالساً، وفي غضون ثانية واحدة يكون قد انتهى، هذه سكتة دماغية ينفجر فيها شريان في الدماغ، يرتفع الضغط قليلاً للاثنين وعشرين، ينفجر الشريان، فيمشي الدم في الدماغ وينتهي، هناك مليون طريقة، إذا عصى أحدنا الله عز وجل ولم يبال بالدين، ولم يهتم بالآخرة، ما هو الإنسان؟ من أي سبب يأتيه ملك الموت، قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة يوسف)

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي

سبيل الله واحدةوسبل الضلال كثيرة :

هذه سبيلي، ليس في الأرض إلا سبيل واحدة، وما سواها باطل، قال تعالى :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام : الآية 153)

بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، أما المنحنيات والمنكسرات فيمر ألف خط، الباطل متعدد، والحق واحد، هناك باطل غربي وباطل شرقي، باطل شهواني باطل عقائدي، باطل سلوكي باطل لهو، فالباطل أنواع منوعة، أما الحق فواحد لا يتبدل، ولا يتغير :

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

(سورة يونس : الآية 32)

إذا كنت تسير على طريق، وخرجت منه فهذا هو الضلال :

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

(سورة يونس : الآية 32)

الحق واحد ، قال النبي الكريم، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ

أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً، قالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي))

[سنن الترمذي]

<< إنما أنا متبعٌ ولست بمبتدع، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني >>، هذا كلام سيدنا الصديق .

قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف)

متبع النبي يدعو إلى اللهعلى بصيرة :

ومن اتبعني، من اتبعني يدعو إلى الله، ومن لا يدعو إلى الله لا يتبعني، لا يتّبِعُني ولا يتْبَعُني، لا يتّبِعُني، أي لا يقتفي أثري، ولا يتْبَعُني أي لا ينتمي إليّ، وعلامة أنك متّبعٌ للنبي عليه الصلاة والسلام أنك تدعو إلى الله، لكن على بصيرة، معك الدليل، معك البرهان، لا كما يقول بعض رجال الأديان الأخرى: الإيمان فوق العقل، أي أن الإيمان غير معقول، بالإيمان لا تفكر، سلِّم فقط، هذه فرية من الشيطان، من لا دين له لا عقل له، من لا عقل له لا دين له، تبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً، إنّ الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما، ويختلفان في العقل كالذرة جنب أحد، عندما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ منك، بك أعطي وبك آخذ، قوام الرجل عقله، العقل أصله دين، لذلك :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ)

هذا العمل من الدعوة فلا تحتقره :

العلماء قالوا: كل من ذكر الحجة وأجاب على الشبهة فقد دعا إلى الله، وضحت آية، فسرتها تفسيراً صحيحاً، وضحت حديثاً شريفاً، وجهته توجيهاً صحيحاً، ذكرت حكماً فقهياً، أمرت بمعروف، نهيت عن منكر، دعوت إلى ذكر الله، بينت معنى الإخلاص، معنى التوكل، معنى الصبر، ذكرت شيئاً من أسماء الله الحسنى، معنى اسم الله الرحيم، العليم، اللطيف، الجامع، المانع، القوي، الغني، هذا كله دعوة إلى الله، إذا ساهمت في تقريب العبد من ربه فقد دعوته إلى الله، ومن لوازم الإيمان الدعوة إلى الله، قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

لست مشركاً، وعلامة الإيمان عدم الشرك .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (11-11): تفسير الآيات 109 -111
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-07-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

علامة الإيمان عدم الشرك :

أيها الإخوة المؤمنون، توقفنا في الدرس الماضي عند قوله تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة يوسف)

لست مشركاً، وعلامة الإيمان عدم الشرك .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى

قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)

(سورة يوسف)

لا نبي ولا رسول من النساء :

لم يثبت أن الله أرسل امرأة نبية ، النبوة محصورة في الرجال، بدليل قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا)

(سورة يوسف)

النبي من البشر :

والنبوة محصورة ببني آدم، لن يكون الملك نبياً، لو كان نبياً لقال الناس: هذا ملك، نحن بشر يا أخي، عندنا شهوات، قال تعالى :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة التوبة : الآية 128)

يحب ما تحبون، ويكره ما تكرهون، ويغضب لما تغضبون، يأكل الطعام، يمشي في الأسواق، أكّدت به الشهوات التي عندكم، ولكنه ضبط نفسه، وأحب ربه ودعا إليه، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)

(سورة يوسف)

من بدا جفا:

النبي الكريم قال:

((مَنْ بَدَا جَفَا))

[مسد أحمد عن البراء]

من عاش في البادية فقد جفا، ومن عاش في القرية فالقرية أكثر تحضراً، وقد يوجد فيها عالم أو مجلس علمٍ، لذلك يفضل أن يسكن الإنسان في التجمعات السكانية، لا يسكن الإنسان وحده، لأن الإنسان إذا سكن وحده ماذا يستفيد؟ لا ينفع ولا يضر، ولا يرتقي، ولا يزداد علماً، ولا يزداد عملاً ولا قرباً من أهل القرى، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة يوسف)

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ)

حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ

هذا وهمٌ غير صحيح :

بعض الناس يتوهمون أن هذه الآية تعني أن الرسل يئسوا من الله عز وجل، هذا مستحيل، قال تعالى :

(وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

(سورة يوسف)

يستحيل على الأنبياء والرسل أن ييأسوا من الله عز وجل، لكنّ يأسهم من قومهم، يأسوا من قومهم، دعوهم ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، صباحاً ومساءً، في الرخاء والشدة، قال تعالى :

(وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا)

(سورة الإسراء)

فلذلك هنا اليأس من هداية الناس، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا)

(سورة يوسف)

وقال بعضهم: ليس النبي أكثر الناس يأساً من هداية بعض الناس، ولكنه آخرهم يأساً، ليس أكثرهم بل آخرهم، ومعنى آخرهم، أي قلما ييأس، والدليل ما بعد هذه الآية قوله تعالى :

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا)

(سورة يوسف)

أي كُذبوا، ولم يؤمن بهم أحد عندها جاءهم نصرنا .

نصر الله لابد له من ثمن :

من أجمل التعليقات على هذه الآية: أنّ نصر الله ثمين، ثمنه باهظ، لو قلنا الآن: إن كل طالب معه بكالوريا إذا تقدم بطلب إلى الجامعة يُمنح دكتوراه على الطلب فقط، يرجى منحي شهادة دكتوراه في الطب، في اليوم الثاني تقام حفلة ضخمة، وتمنح هذه الشهادة، معنى ذلك أنه يأخذ الدكتوراه مليون طالب، ولا قيمة لهذه الشهادة، لكن سبع سنوات، وتحضير دبلوم ، ودبلوم خاصة، وماجستير، ودكتوراه وتأليف، حتى يمضي عليه أربعة وثلاثون عاماً، ويشعر بأنه قد فني، عندها يمنح هذه الشهادة، هذه الشهادة لها قيمة كبيرة جداً، لأن ثمنها كان باهظاً، فنصر الله عز وجل ثمنه باهظ، ثمنه الصبر والجَلد، وتحمل الأذى، وتحمل المعارضة والمكر، ثمنه هذه المضايقات، هذه المحن التي ابتلي بها الأنبياء، أخرجوه من مكة، ائتمروا على قتله، لحقوه في الهجرة، جعلوا مائتين من الإبل جائزة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، حاربوه في بدر، وحاربوه في أحد، وحاربوه في الخندق، كادوا له، قاطعوه، تكلموا عنه، هجوه بأشعارهم، إلى أن جاء نصر الله، قال تعالى :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ)

(سورة النصر)

دخل مكة فاتحاً، كان بإمكانه أن يبيدهم، أن يقتلهم عن آخرهم، قال:

((ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[السيرة النبوية]

هذه القصة تتكرر مع كل مؤمن، يُعارَض، يُقاوَم من أهله، من أبيه، من أمه، من إخوته، من أصحابه، من جيرانه، ماذا حصل لك؟ أين عقلك؟ أضعت مستقبلك، تضيق به الدنيا إلى أن ينصره الله، ويرفع شأنه، هذه القصص تتكرر، وإذا آمن أحدهم واستقام وطلب أن يستقيم استقامة كاملة ولقي معارضة من أهله فله برسول الله أسوة حسنة، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة يوسف)

النصر يظهر المؤمن وغير المؤمن :

عندما يأتي نصر الله يعرف الذين كفروا أي منقلب ينقلبون، ويعرف المؤمنون أي مكانة يرتقون، ويعرف الناس عندئذ من هو الذكي، قال تعالى :

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِي(108)إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

(سورة المؤمنون)

وهناك آية أخرى، وهي قوله تعالى :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

البطولة يوم يأتي ملك الموت، تفتح له بعض أبواب الجنة فيقول: ما رأيت شراً قط .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[صحيح البخاري]

لذلك النصر ثمنه باهظ، ألا إن سلعة الله غالية، إذا آمن شخص فعليه أن يوطد العزم على تحمل الشدائد، لأن العطاء الذي سيأخذه فوق التصور، هذا العطاء لا يعقل أن يكون بلا ثمن، وثمنه باهظ، ثمنه الصبر، والجَلَد، والاستقامة، والصبر عن الشهوات، والصبر على الطاعات، والصبر على معالجة الله عز وجل، والصبر في مجالس العلم، والصبر على تنفيذ أمر الله، هذا هو الثمن، هذا قانون ربنا عز وجل، هذا النصر ثمنه باهظ جداً، إلى أن ييأس الرسل من هدى أقوامهم، إلى أن يظنوا أنّ أحداً لن يؤمن بهم، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة يوسف)

خاتمة :

هذه قصة مليئة بالعبر والحكم والاستنباطات والحقائق والقواعد، قال تعالى :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة يوسف)

ما بين يدي النبي من التوراة والإنجيل، جاء هذا الكتاب مصدقاً لهما، إذاً: هذا الكتاب من عند الله، كما أنّ التوراة والإنجيل من عند الله فهذا الكتاب من عند الله، يبين بعض ما في التوراة والإنجيل، ويصحح بعض ما اختل في التوراة والإنجيل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1 – 3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-07-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الرعد مكية :

أيها الإخوة المؤمنون، سورة اليوم سورة الرعد، وهي سورةٌ مكيَّة، والسور المكيَّة تلفت النظر إلى آيات الله الدالَّة على عظمته، وتتحدَّث عن اليوم الآخر، وترسِّخ الإيمان بالله سبحانه وتعالى .

معاني الحروف المقطعة في أول السور :

ففي هذه السورة يقول الله سبحانه وتعالى :

(المر)

وقد تحدَّثنا عن هذه الحروف بالتفصيل في دروسٍ سابقة، وقد اختلف العلماء في تفسيرها، من قائلٍ: " الله أعلم بمُرَادِهِ "، إلى قائلٍ: " إن القرآن الكريم من هذه الحروف، ومع ذلك فالبشر لا يستطيع أن يأتي بمثله "، ومن قائلٍ: " إنها أسماء أوائل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلَّم "، إلى ما هنالك من تفسيراتٍ، فالقرآن كما تعرفون ليس ملك أحد، والقرآن حمَّال أوجه .

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَاب

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)

الكتاب منهج الحياة :

الكتاب بمعناه الدقيق القرآن الكريم، بمعناه الواسع الكُتُبُ التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رُسله لتكون منهجاً للبشر في حياتهم، آلة صغيرة إذا اشتريتها تجد مُرفقاً معها نشرةً توضِّح لك طريقة استعمالها، ما من آلةٍ مهما تبدو لك بسيطة غير معقَّدةٍ لابدَّ من نشرةٍ يوضِّح فيها صانعها طريقة استعمالها، وطريقة صيانتها، وطريقة إصلاحها، وما يصلح لها، وما لا يصلح، ماذا يؤذيها، ما ينفعها، إن كانت الآلة التي لا يبلغ ثمنها إلا مبلغاً زهيداً فإنها تحتاج إلى نشرةٍ تفصيليَّة .

فهذا الإنسان الذي كرَّمه الله سبحانه وتعالى، وجعله خليفة له في الأرض، وعرض عليه الأمانة فحملها، وأعطاه حريَّة الاختيار، أودع فيه شهواتٍ هي في الوقت نفسه أداه لرقيِّه، وفي الوقت نفسه أداةٌ لتدميره، خلق له الكون، بَثَّ في الكون آياتٍ عظيمة دالَّة على مُلكِهِ، أنزل له الكتاب ليكون منهجاً له في حياته، فحيثما وردت كلمة الكتاب في القرآن الكريم فإنها تعني الكُتُبَ السماويَّة التي أنزلها الله على رُسله لتكون منهجاً للبشر، فهذا الإنسان إما أن يشقى، وإما أن يسعد، يأتي الكتاب يقول له: افعل كذا ولا تفعل كذا، إما أن يرقى وإما أن يسفُل، يأتي الكتاب يقول له: افعل كذا من أجل أن ترقى، ولا تفعل كذا من أجل أن لا تسفل .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)

الشيء الذي يعدل خلق الكون هو إنزال الكتاب :

ربنا سبحانه وتعالى قال :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)

(سورة الأنعام : من الآية 1)

خَلَقْ السماوات والأرض يقابله الظلمات والنور، أي الحق والباطل .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

(سورة الأنعام : من الآية 1)

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)

(سورة الفرقان : الآية 1)

فكأنَّ الكون يعدل هذا الكتاب .

(فلا أقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(38)وَمَا لا تُبْصِرُونَ(39)إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(40))

(سورة الحاقة)

إذاً: يجب أن تعلم علم اليقين أن الشيء الذي يعادل خلق السماوات والأرض هو هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيِّه ليكون هادياً لنا في حياتنا .

من اشترى آلةً بالغة التعقيد، جهازاً إلكترونيا لتحليل الدم، ولم ترسل له الشركة كتيِّباً فيه طريقة الاستعمال، ماذا يفعل؟ إن استعمله من غير هدى عطَّله، وإن تركه بلا استعمال جمَّده، هذه النشرة التي فيها تفصيلاتٌ عن طريقة استعمال هذا الجهاز الغالي هي لا تقلُّ قيمة عن الجهاز أبداً، بل قد تكون أثمن من الجهاز لأنه من دونها يُعْطَبُ الجهاز .

إذاً :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)

وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

أي كتابٍ هذا ؟

(وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

كتاب البشر لا سلم من الخطأ والباطل :

أي أن هذا الكتاب ليس من صنع بشر، ادخل إلى مكتبة ترى فيها آلاف الكتب، ما من كتابٍ إلا وفيه صوابٌ وخطأ، ما من كتابٍ إلا وفيه حقٌّ وباطل، ما من كتابٍ إلا وفيه نقطةٌ عميقة ونقاطٌ ليست عميقة، ما من كتابٍ إلا وفيه خلل، ما من كتابٍ إلا وفيه رَيْب إلا كتاب الله سبحانه وتعالى، لذلك فضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على خلقه .

كتاب الله لا تنتهي فوائده :

مثل آخر.. لو أنك قرأت كتاباً، لو أتقنت كتاباً معيَّناً ما الفترة الزمنيَّة التي يمكن أن تستفيد منها أو فيها من الكتاب؟ لو قرأت كتاباً قيِّماً فتعلَّمت من خلاله صنعةً ما، لو قرأت كتاباً قيماً فتعلَّمت من خلاله حرفة ما، مهما كان دخل هذه الحرفة كبيراً متى تنتهي فائدة الكتاب؟ عند الموت، لو أنَّك ألَّفت كتاباً أو قرأت كتاباً، أو طالعت كتاباً، ودرَّ عليك هذا الكتاب تأليفاً، أو مطالعة، أو دراسةً، أو حفظاً ألوف الملايين، متى تنتهي فوائد هذا الكتاب؟ تنتهي عند الموت؛ لكن هذا الكتاب إذا قرأته، وفهمته، وطبَّقته، متى تنتهي فوائده؟ لا تنتهي فوائده، هذا كتابٌ أبديٌّ سرمدي، إذا قرأته وفهمته نفعك نفعاً لا حدود له .

فلذلك الإنسان يقيِّم الشيء بمدى نفعه، أو بزمن نفعه، أو بحدود نفعه، أو بحجم نفعه، فإذا قرأت كتاب الله، وعرفت منهجك في الحياة فإن هذا الكتاب لا تنقضي فوائده ولا بالموت، بل إن الموت نقطة تحوِّلٍ يسيرة في طريق الحياة الأبديَّة .

(وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

علاقة الربوبية بإنزال الكتاب :

لماذا قال الله عزَّ وجل :

(مِنْ رَبِّكَ)

لأن اسم الرَّب يعني المُمِدّ، يعني الذي يمد هذا الجسد بما يحتاجه، والذي يرعى النفس ويوجِّهها إلى طريق سعادتها، فاسم الرب له علاقةٌ وشيجةٌ بإنزال هذا الكتاب، الله سبحانه وتعالى لا يدع عباده من دون توجيه، لا يدعهم من دون منهج، لا يدعهم من دون دستور يسيرون عليه، حتى إنك لو رأيت شارعاً قد شُقَّ حديثاً تجد بعد حين وضِعَت عليه علاماتٌ ولافتاتٌ، هنا منعطفٌ خَطِر، وهنا تقاطعٌ خطر، وهنا منزلق، وهنا طريقٌ ذات اتجاهين، هذه اللافتات التي توضع على الطريق بعد شقِّها توضع رحمة بالناس، رحمة بهم .

إذاً :

(آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)

كلام الله حقلأنه صادر عن الحق :

فلو أن هذا الكلام كلام بشر لكان لنا منه موقفٌ آخر، ولكنَّه كلام الله سبحانه وتعالى لا ريب فيه، لا خلل فيه، لا كذب فيه، لا مبالغة فيه، كتابٌ حكيم، كتابٌ أُنزل من عند الله فيه سعادتنا، فيه نبأ من كان قبلنا، فيه نبأ ما سيكون بعدنا؛ من علمٍ للساعة، من حديث الموت، من حديث البعث والنشور، فيه آياتٌ بيِّنات، فيه طريقٌ إلى الله سبحانه وتعالى .

(وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)

فالحق اسمٌ من أسماء الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى قديمٌ أزلي، أبديٌّ سرمدي، لا شيء قبله ولا شيء بعده ..

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ)

(سورة القصص : من الآية 88)

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26))

(سورة الرحمن)

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران : من الآية 185)

فالشيء الباقي على الدوام هو الله سبحانه وتعالى، هو الحي الباقي الذي لا يتغيَّر، ولا يتحوَّل، ولا يُغيَّر، ولا يُبَدَّل .

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ)

(سورة القصص : من الآية 88)

فإذا كان هو الحق فهو الدائم على الدوام .

معنى الحق :

أما معنى كلمة الحق فتعني الشيء الثابت الذي لا يتغَّير، لو بُنِيَ هذا البناء على أسسٍ صحيحة فإن البناء يبقى قائماً، إذاً كأنَّ هذا البناء بني على حق بمعنى أنه بني وفق قواعد هندسيَّة صحيحة، لو بني وفق قواعد هندسيَّة غير صحيحة، أو لو كان هناك خلل في بنائه لوقع البناء، صار البناء باطلاً، فمعنى الحق الشيء الثابت، حقَّ الشيءُ: أي استقرَّ، وبطل الشيء: أي ذهب وتلاشى، فما معنى كلمة الحق؟ الحق معناه أن هذا الكتاب ما فيه من قواعد، ما فيه من مبادئ، ما فيه من سُنَن، ما فيه من وعد، ما فيه من وعيد، لن يطرأ عليها تغيير، ولا تبديلٌ، وعده حق، وعيده حق، الجنَّة حق، النار حق، فكل شيءٍ جاء في هذا الكتاب هو الحق، أي شيءٌ ثابت، شيءٌ مستقر .

علامة الحق :

قال بعضهم : " علامة الحق أنه يطابق الواقع، وعلامة الحق أنه يطابق العقل "، الله سبحانه وتعالى وضع في الأرض سنناً، وركَّب العقل وفق سُننه، فعقل الإنسان لا يفهم الأشياء التي حوله إلا وفق مبدأ السببيَّة، فكل شيءٍ له سبب، فعقلنا جميعاً لا يستطيع أن يفهم شيئاً بلا سبب، كذلك خَلْقُ الله سبحانه وتعالى، ركَّب الخلق وفق أسباب، فالمطر له سبب، والرياح لها سبب، وإنبات النبات له سبب، لابدَّ من بذرة، ولابدَّ من أن يكون في البذرة رُشَيْم، ولابدَّ من ماء، ولابدَّ من تربة، ولابدَّ من جو، لابدَّ من حرارة من برودة.. إلخ، فإنبات النبات له أسباب، هبوب الرياح لها أسباب، نزول الأمطار لها أسباب، ففي الكون سُنَّة السببيَّة، وفي الكون سنَّة الغائيَّة، ما الغائيَّة؟ أي كل شيءٍ له غاية، كل شيءٍ خَلَقَهُ الله سبحانه وتعالى خلقه لغايةٍ أرادها، كذلك العقل لا يفهم الأشياء إلا وفق غايات .

إذا اطلعت على آلةٍ، ورأيت فيها مفتاحاً تحسُّ بحاجةٍ دقيقةٍ وماسَّةٍ إلى معرفة هدف وجود هذا المفتاح، هكذا العقل لا يفهم الشيء إلا بسبب، ولا يفهم الشيء إلا بغاية، ولا يقبل التناقض، هذه مبادئ العقل، وهذه مبادئ تنتظم الخلق في الأرض، تطابق مبادئ العقل على مبادئ خلق الله سبحانه وتعالى هو ما يجعل من الشيء حقاً أي واقعاً، لو قلت لك: هذا الشيء بلا سبب، تقول لي: هذا باطل، هذا كلامٌ مرفوض، لا يقبله عقلك .

كلّ ما في القرآن هو بمنزلة الأمر المشاهَد بالعين :

إذاً :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أنزلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ)

أي أن هذا الكتاب حق، لذلك ربنا عزَّ وجل قال :

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة المائدة : من الآية 116)

هذا الكلام يقوله الله سبحانه وتعالى لسيدنا عيسى يوم القيامة، فلماذا استخدم الله الفعل الماضي؟ لأن الذي سيكون في كتاب الله في حكم الكائن، في حكم المحقَّق ..

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1))

(سورة الفيل)

لم أرَ، كأن هذا السؤال من الله عزَّ وجل استفهام تقريري، لماذا؟ لأن هذا الذي يخبرك عنه الله سبحانه وتعالى في حكم الرؤية .

معنى الحق، أي إذا وعد الله في الكتاب إنساناً بالحياة الطيِّبة فالوعد حق ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من الآية 97)

وعده حق، لابدَّ من أن يحيا حياةً طيِّبة، ووعد الله سبحانه وتعالى بالمَحْق ..

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة : من الآية 276)

أوعدهم بحربٍ من الله ورسوله، وعده حق ووعيده حق، الجنة حق، النار حق، فلذلك :

(وَالَّذِي أنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)

شيء ثابت، شيء مستقر، شيء لابدَّ من أن يقع، فالذي يقوله الله سبحانه وتعالى بحكم الواقع ..

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ

الناس فريقان :

أي أن الناس خَيَّرَهُم الله سبحانه وتعالى بين الهدى والضلال، بين الخير والشر، بين الإيمان والكفر، لكنَّ بعضهم آمن، وبعضهم كفر، بعضهم شكر، وبعضهم كفر، بعضهم سار على منهج الله، وبعضهم

تنكّب هذا المنهج ..

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

لا تكن مع الأكثرية :

إذاً: لا تكن مع الأكثريَّة الكافرة، وكن مع الأقليَّة المؤمنة، كن مع الأقليَّة التي عرفت ربَّها، من هو ربك الذي أنزل على رسوله هذا الكتاب؟ من هو؟ من هو ربك الذي بعث لك رسولاً معه كتابٌ منهجٌ لك تهتدي به؟ الله صاحب الأسماء الحسنى ..

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ)

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ

حجم الكتاب بحجم صاحبه :

فإذا جاءك كتاب من صديق فلهذا الكتاب حجم، إن جاءك الكتاب ممن هو أعلى منك لهذا الكتاب حجم، إذا جاءك الكتاب من ملك فلهذا الكتاب بحجمٌ كبير، تقول: أهذا خطُّه؟ يقال لك: لا هذا ليس خطَّه، هذا توقيعه؟ يقال لك: نعم هذا توقيعه، إذاً: تأخذه مأخذاً عظيماً، فكيف إذا جاءك كتابٌ من ملك الملوك؟! أيقاس كلام البشر بكلام الله رب العالمين؟!

أحياناً يأمرك إنسانٌ بأمرٍ، ويتوعَّدك، وإن لم تفعل تُطبَّق عليك المادَّة الفلانيَّة التي تنصُّ على كذا وكذا، تبادر سريعاً إلى تطبيق مواد القانون، فكيف إذا أمرك خالق الكون؟ ماذا تنتظر ؟

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد : من الآية 16)

عجبًا لأمر هذا الإنسان !!!

عجيبٌ أمر هذا الإنسان، أمر البشر يأخذه مهتمَّاً، ملء سمعه وبصره، يطبِّقه بحذافيره، يخشى مَغَبَّة مخالفته، أما أمر خالق البشر، أمر الذي بيده ملكوت كل شيء، أمر الذي إليه يُرْجَعُ الأمر كلُّه، أمر الذي خلقك من ترابٍ، ثم من نطفةٍ، ثم سوَّاك رجلا، أمر الذي إليه المصير، أمر الذي إليه مصيرك إلى الأبد، هناك تلكُّؤٌ في تطبيق أمره، من عند مَن هذا الكتاب؟ من عند ربِّ العالمين، مَنْ ربُّ العالمين ؟

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

فلو أنَّك التقيت بمهندس، وقال لك صديقك: هذا فلان، ماذا يفعل اسمه؟ تقول له: تشرَّفنا، قال لك: هذا المهندس فلان، كلمة المهندس فلان ربَّما رفعته في نظرك إلى مستوى أعلى، إذا قال لك: هذا المهندس أنشأ أطول جسرٍ في العالَم بين قارَّتين، جسرٌ معلَّق تسير من تحته السفن مهما عَظُمَت، جسرٌ بين آسيا وأوروبا على البوسفور، إذا قيل لك: هذا هو فلان الفلاني الذي صمَّم ونفَّذ هذا الجسر، تمتلئ تعظيماً له، فإذا قيل لك: وهو الذي أنشأ نفقاً تحت البحر بين فرنسا وبريطانيا، تحت بحر المانش، نفق تحت البحر تسير فيه السيَّارات، يقول لك: هذا هو، وهو الذي أنشأ قاعدةً في بحر الشمال لاستخراج النفط، في البحر قاعدة فيها موظفون، وفيها آبار، وفيها نفط، وهو الذي نقل بناءً من مكانٍ إلى آخر، بناء ارتفاعه عشرون طابقاً نقله مائة متر، كيف نقله؟ كلَّما ذكر لك هذا الصديق عن هذا المهندس أعمالاً ضخمة قام بها يكبُر في عينك، وتمتلئ نفسك إعجاباً به، هذا مهندس، فإذا قال الله عزَّ وجل :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

عظمة النجوم والكواكب :

ما حجم الشمس؟ مليون وثلاثمائة ألف مرَّة تزيد على حجم الأرض، أي أن الشمس وحدها تتسع إلى مليون وثلاثمائة ألف أرض، فما حجم الأرض؟ انظر إلى سوريَّا على الخارطة، أو انظر إلى سوريا على الكرة الأرضيَّة المُجَسَّمَة، حجمها لا يتسع لكلمـــة (Dmascus)، حجم سوريَّا كلها لا يتسع لاسم عاصمتها، إذا نظرت إلى سوريا على الخارطة حجمها إلى آسيا صغير، هنا آسيا، وهناك أوروبا، وهناك إفريقيا، وهناك أمريكا، وهناك أستراليا، وهناك القارَّة السادسة في الجنوب، وهذه القارَّات الخمس تعدل خُمُسَ الأرض وأربعة أخماسها بحر، والأرض شبَّهوها بذرَّةٍ عالقةٍ في هواء الغرفة في أيَّام الشتاء، إذا دخلت الشمس إلى غرفتك، وكَنَسْتَ أرض الغرفة ترى في جوِّ الغرفة ذرَّاتٍ لا وزن لها عالقة في سماء الغرفة، الأرض أحد هذه الذرات .

فإذا نظرت إلى قلب العقرب.. هكذا قال عنه العلماء.. الشمس والأرض مع المسافة بينهما يتسع لهما هذا النجم الذي اسمه قلب العقرب، إذا نظرت إلى مجرَّتنا درب التبَّانة فيها مليون مليون كوكب أو نجم، طولها مائة وخمسون ألف سنة ضوئيَّة، بيننا وبين القمر ثانيّة ضوئيّةٌ واحدة، بيننا وبين الشمس ثماني دقائق، المجموعة الشمسيَّة ثلاث عشرة ساعة، درب التبَّانة طوله مائة وخمسون ألف سنة ضوئية، من هذه المجرَّة هناك مليون مليون مجرَّة .

قبل أيَّام قرأت في صحيفةٍ مقالاً مترجماً إلى اللغة العربية عن أحدث مجرةٍ تمَّ اكتشافها، قال: هذه المجرَّة كانت في مكانها الذي أرسلت منه ضوءها قبل اثني عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة، الآن أين

هي؟ لا نعرف، هذا الضوء كان قبل اثني عشر ألف مليون سنة الآن وصل إلينا، وقالوا: لابدَّ أن هناك مجرَّات منذ أن خُلقَت وحتى الآن لم يصلنا ضوءها بعد، لازال ضوءها في الطريق، والضوء يقطع ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة .

(اللَّهُ)

صاحب الأسماء الحُسنى ..

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ)

فهذه المجرَّات، أقرب نجم إلينا هو القطب، أربعة آلاف سنة ضوئيَّة، أجريت قبل شهر حساب على آلة حاسبة ترجمت هذا الرقم.. أربعة آلاف سنة ضوئيَّة.. ترجمته إلى زمن نستغرقه في السفر إليه عن طريق السيَّارة.. فرضاً.. نحتاج إلى سبعة وعشرين ألف مليون مليون سنة كي نصل إليه بالسيارة ..

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

لهذه الآية معنيان :

المعنى الأول للآية :

لا توجد أعمدة، بقدرته، فأنت إذا رأيت في محل تجاري قميصاً معلّقاً بلا خيوط يأخذك العجب وتقول: كيف عُلّق؟ إلى أن تكتشف أن هناك خيطاً شفّافاً دقيقاً جداً عُلِّقَ فيه، إذا رأيت شيئاً معلّقاً بلا عمود، بلا قاعدة يأخذك العَجَب العُجاب، هذه السماوات من رفعها ؟

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

يمسك السماء أن تقع على الأرض ..

(وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر : من الآية 67)

هذه السماوات من رفعها ؟

المعنى الأول: أنه رفعها بقدرته من دون عَمَد، ترونها بلا عمد .

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

انتهى المعنى ..

(تَرَوْنَهَا)

في مجال رؤوسكم، ترونها كل يوم .

المعنى الثاني :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

نظام الجاذبية :

أي أن هناك عمدًا لكنَّكم لا ترونها، نوضِّح هذا، لو جئت بقطعتين من المغناطيس ذات حجم واحد، وقد وضعت هاتين القطعتين على سطحٍ كهذه الطاولة، وكلّفناك أن تضع بينهما كرةً حديديَّة بحيث تستقرُّ هذه الكرة، لا تنزاح إلى هذه القطعة ولا إلى تلك، إنك قبل كل شيء تبحث عن المسافة بين هاتين القطعتين، ثم تبحث عن منتصف هذه المسافة، لو أنَّ الكرة الحديديَّة انجذبت ميليمتراً واحداً إلى الجهة اليمنى لتابعت انجذابها، أن تضع كرةً مستقرَّةً بين قطعتي مغناطيس، هذا شيءٌ يصعب عليك، فإن كانت القطعتان متفاوتتين في الحجم فهذه تحتاج إلى حسابات معقَّدة جداً، لأن الانجذاب له علاقة بالكتلة والمسافة، هذه كتلتها أكبر وهذه كتلتها أصغر، يجب أن تحسب التفاضل بين الكتلتين، ثم تختار مكاناً، ثم تفاجأ أن هذا المكان غير صحيح، بدليل أنها انجذبت، هل تستطيع أن تضع كرةً في نقطةٍ لا تنجذب لا إلى هذه الكتلة ولا إلى هذه؟ أمرٌ صعبٌ جداً .

لو أنك كُلّفت أن تضع كرة بين ثلاث كتل متفاوتة في الحجوم لكان هذا مستحيلاً، مستحيل أن تجعل كرة حديديَّة تستقر بين ثلاث كتل مغناطيسيَّة متفاوتة في الحجم، لو كلَّفناك أن تضع هذه الكرة في الفضاء بين كتلتين عموديًّا، هذا شيء يبلغ حدَّ المستحيل، لو حرَّكنا هذه الكُتَل وقلنا لك: اجعل هذه الكرة تستقر مع التحريك، لكان هذا شيءٌ عجيبٌ جداً .

فكيف بهذا الكون الذي في كل مجرَّة مليون مليون نجم له حجم خاص، وله قوَّة جذب خاصَّة، وله مسار خاص، وله طبيعة خاصَّة؛ هذا طبيعته غازيَّة، هذا طبيعته صُلبة، هذا كوكب ملتهب، هذا كوكب منطفئ، وكيف أن محصِّلة هذه الكواكب أنها مستقرَّة استقراراً حركياً، وهذا من أعظم أنواع الاستقرار.. الاستقرار الحركي.. الاستقرار السكوني سهل جداً، ضع هذا الشيء على الطاولة يستقر، لكنَّ هذه الكواكب كلها تدور بحجومٍ متفاوتة، بمساراتٍ متفاوتة، بطبيعةٍ متفاوتة، بقوَّة جذبٍ متفاوتة .

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا

الله سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى يقول :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

قد يتبادر إلى الذهن أن معنى كلمة (تزول)أي تتلاشى، لا، إنَّ زوال الشمس عن كبد السماء يعني انحرافها، أي أن كل كوكبٍ في الكون له مسارٌ يسير عليه، لا يحيد عنه ولا درجة، لو حاد عنه درجة لاختل نظام الكون، فهناك مسار دقيق جداً، والدليل أنك تعرف قبل شهور أن الأرض سوف تشرق عليها الشمس يوم ثمانية وعشرين من أيلول مثلاً الساعة ستة وأربع دقائق، لولا أن الأرض لها مسارٌ دقيق لا تحيد عنه ولا درجة خلال آلاف ملايين السنين لما أمكن بني البشر أن يتنبئوا بأوقات الشروق والغروب، أدق ساعة في العالم تضبط على مسير بعض النجوم، يقول لك: هذه الساعة تخطئ في العام ثلاث ثوان، أما هذا الكوكب العملاق الذي يقطع ملايين الألوف فلا يحيد عن مساره ولا درجة !! مذنب هالي هذا المذنب كشفه العلماء قبل الميلاد بستة قرون تقريباً، أي في القرن السادس قبل الميلاد، ومع ذلك منذ أن كشفه العلماء مساره ست وسبعين سنة لا تزيد ولا تنقص، فربنا عزَّ وجل قال :

(اللَّهُ)

هذا القرآن من عند رافع السماوات بغير عمد :

هل تعرف هذا الكتاب من عند من؟ فأحياناً تقول لإنسان: هل تعرف أن هذا الأمر من عند مَن؟ إذا كنت في الخدمة الإلزامية، وكان هذا الأمر من عند عريف فله وقع عندك، أما إن كان من عند أعلى رتبةٍ في الكتيبة فله وقع آخر، هل تعرف هذا الكتاب من عند من ؟

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

إما أن تأخذ المعنى الأول .

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

بقدرته ..

(تَرَوْنَهَا)

ترونها أيها البشر بغير عمدٍ .

أو :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

إذا قلنا : بغير عمد ترونها، أي هناك عمد لا ترونها، وهذه العمَد هي قوى التجاذب بين الكواكب، قوة الجاذبية، ما الذي يجعل هذه القطعة تسقط؟ أن كل شيءٍ على الأرض ينجذب إلى مركزها .

ارتباط الأشياء بالأرض من نعم الله :أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا

هذه آيةٌ من آيات الله الدالة على عظمته، لو أننا ركبنا مركبة فضائية نصل في الفضاء بين الأرض والقمر إلى نقطة تسمَّى نقطة انعدام الجاذبية، يصبح الشيء بلا وزن، تمسك هذا المنديل فيبقى في مكانه لا يسقط، تمسك شيئاً ثقيلاً يبقى في مكانه، فارتباط الأشياء بالأرض من نعم الله سبحانه وتعالى ..

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل : من الآية 61)

من جعل الأشياء تستقر عليها؟ أليس الله سبحانه وتعالى الذي أعطاها قوة الجذب .

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل : من الآية 61)

كل شيء يستقر على الأرض، تضع هذه القطعة هنا تبقى في مكانها، تضع هذه الطاولة هنا تبقى في مكانها، تضع هذا الكرسي هنا، لو أنك جئت إلى البيت، ورأيت الكرسي في السقف، كيف تنزله، لولا قِوى الجذب لوقعت في حيرةٍ كبيرة، تضع الأشياء قبل أن تخرج في مكانها، تعود فإذا هي في السقف كلها، فهذا شيء صعب جداً ..

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل : من الآية 61)

جعل كل شيءٍ مرتبطاً بالأرض ، هذا معنى أول ..

المعنى الثاني :

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل : من الآية 61)

أي أن هناك استقرارا تاما، أرقى أنواع الطائرات لابدَّ من أن تهتز، أرقى أنواع السيارات، أحدث موديل، أوزن نوع لابدَّ من بعض الاهتزاز في السير، هل تستطيع أن تضع فنجان قهوة على مقعد السيارة وهي تسير؟ لابدَّ من أن يقع، لكن الأرض تسير في الثانية الواحدة ثلاثين كيلو متراً، فنحن الآن منذ أن بدأ الدرس وحتى الآن.. بدأنا قبل نصف ساعة تقريباً، ثلاثين دقيقة.. ثلاثون دقيقة في ستين ألف وثمانمئة ثانية، ألف وثمانمئة ثانية ضرب ثلاثين، قطعنا حوالي ستين ألف كيلو متر في هذه النصف ساعة، بالاحساب ثلاثون كيلو مترا بالثانية، شيء دقيق جداً، ومع ذلك استقرار، لو تحركت الأرض درجة واحدة لرأيت في البناء تشققات، هذا البناء يقول لك: معمر من خمسين سنة، من مائة سنة، من ألف سنة، لا تجد فيه شقاً واحداً، هذا دليل الاستقرار التام مع الحركة السريعة .

(اللَّهُ)

هل عرفتني يا عبدي ؟

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

فقوى التجاذب وحدها أكبر دليلٍ على عظمة الله سبحانه وتعالى، هذا الاستقرار، ربط الأشياء بالأرض.

دورة الأرض حول الشمس :

شيء آخر، دورة الأرض حول الشمس، تدور الأرض دورتها حول الشمس في مدار إهليلجي، والشكل الإهليلجي البيضوي كما تعلمون ليس متساوي البعد عن المركز، أما محيط الدائرة فبعده عن مركزه واحد، لذلك ترسم الدائرة عن طريق الفرجار، لكن الشكل البيضوي لا يرسم إلا بطريقةٍ معقدة، بمركزين وخيط وقلم، هذا الشكل البيضوي له بعدٌ أعظمي وبعدٌ أصغري، فإذا كانت الأرض في بعدها الأصغري عن مركز مدارها، ماذا يحصل؟ لابدَّ من أن تجذبها الشمس، لأن قوى التجاذب متعلقةٌ بالحجم والمسافة، فإذا قلَّتِ المسافة زادت قوة الجذب، لو لم يكن لهذا الكون إله ماذا حصل؟ في أثناء مسار الأرض حول الشمس وفي المكان الذي يعد فيه البعد أصغرياً عن مركز المسار، أو عن الشمس، لابدَ من أن تنجذب الأرض إلى الشمس فتنتهي الأرض، ماذا يحصل؟ هكذا قال العلماء: الأرض تزيد من سرعتها فينشأ من هذه الزيادة قوةً نابذةً تقابل القوة الجاذبة، فتبقى الأرض في مسارها ..

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

أي يمسك الأرض أن تزول عن مسارها، إذا زالت عن مسارها انجذبت إلى الشمس فتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة، الأرض كلها إذا ألقيت في الشمس تبخرت في ثانيةٍ واحدة، لو أنها لم تزد سرعتها، أو لو أن الله سبحانه وتعالى لم يزد في سرعتها لانجذبت إلى الشمس، وتبخرت في ثانيةٍ واحدة، وتبخرنا نحن معها، طبعاً إذا كان الصخر سيصبح بخاراً فما قولك بالبشر؟ لكن الله سبحانه وتعالى يزيد من سرعتها .

هناك آية ثانية، لو أنه زاد من سرعتها فجأةً لانهدم كل ما على الأرض، تقول: هنا كان يوجد مدينة اسمها لندن، هنا كان يوجد مدينة اسمها دمشق، هذه الأبنية الشاهقة تنهار في ثانية، لو أن الأرض زادت من سرعتها في ثانيةٍ واحدة فجأةً، لكن الله اللطيف يزيد من سرعتها تدريجياً، وينقص من سرعتها تدريجياً، الزيادة التدريجية تؤكد اسمه اللطيف، والنقص التدريجي يؤكد لطفه، والزيادة

والنقصان يؤكدان علمه، والتحريك يؤكد قدرته، الكون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى .

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

المعنى الأول للاستواءعلى العرش :

الاستواء معلوم والكيف مجهول، بلا تجسيدٍ ولا تعطيل، هناك من جَسَّد، وهناك من عَطَّل، وأهل السنة والجماعة لا يجسدون ولا يعطلون، استوى على العرش بلا كيف، أما الاستواء في أوجه معانيه العلو، وهو العلي الأعلى، والعرش في أوجه معانيه فوق الكون، شيءٌ فوق الكون، هذا معنى .

المعنى الثاني :

معنى آخر.. أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون ثم بثَّ فيه الحياة، من بعض التفسيرات أن العرش هو الكون، ومن بعض التفسيرات الأخرى أن العرش شيءٌ فوق الكون، والاستواء هو العلو، والله سبحانه وتعالى هو العلي الأعلى الوهاب، وللعلماء في هذه الآية أقوالٌ كثيرة، واستغرقت هذه الآية عشرات الصفحات وأوقاتاً طويلة بين العلماء بين أخذٍ ورد، على كلٍ نكتفي بما قاله الله عزَّ وجل لا نزيد عليه ولا ننقص منه، لا نعطل هذه الآية، ولا نجسِّد الذات الإلهية :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

الشمس مسخَّرة لنا، لو لم تكن مسخرةً لنا لأحرقتنا، لو لم تكن مسخرةً لنا لأهلكتنا، لكنها مسخرةٌ لنا .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

كلّ الكواكب تجري إلى أجل مسمى :

كلٌ، لا تشمل الشمس والقمر فقط، بل إنها تزيد على الشمس والقمر، أي أن كل كوكبٍ في الكون يجري لأجلٍ مسمى، العلماء فسروا هذا الأجل تفسيراتٍ عِدَّة، بعضهم قال: كل كوكبٍ له مسارٌ لا يحيد عنه، ويقطع هذا المسار في وقتٍ لا ينقص ولا يزيد، وبعضهم قال: لكل كوكب وقتٌ تنتهي عنده

وظيفته .

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1)وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2))

(سورة التكوير)

أي أن هذا الكوكب انتهت وظيفته ، له عمر ..

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(38)وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(39)لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40))

(سورة يس)

حتى إن بعض العلماء استنبط من هذه الآية أن نظام الذرة منطوٍ في هذه الآية .

(وَكُلٌّ)

أي كل ذرةٍ خلقها الله عزَّ وجل تتحرك حول نواةٍ .

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40))

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

أمرُ الكون كله بيد الله :

من يدبِّر الأمر؟ الله سبحانه وتعالى، من يحرِّك الرياح؟ الله سبحانه وتعالى، من يجعل هذا البحر يتبخَّر؟ يشَكِّل السحاب الثقال يسوقه إلى بلدٍ ميت، يحيي به الأرض بعد موتها؟ الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى يدبر الأمر، من ينبت المزروعات ؟

(أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ(64))

(سورة الواقعة)

من يعقد الثمار؟ من يحرِّك السوَيْق؟ من يحرك الجُذير؟ من يجعل هذا الغذاء ينساب إلى هذا النبات؟ من يجعل هذه الفواكه في طعوم مختلفة؟ الله سبحانه وتعالى، من خلق محاصيل القمح؟ الله سبحانه وتعالى، من خلق الهواء؟ الله سبحانه وتعالى، من خلق الماء؟ الله سبحانه وتعالى .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ)

الله لا يشغله تدبيرُ الأمر عن تفصيل الآيات :

أي لا يشغله تدبير الأمر عن تفصيل الآيات، ولا يشغله تفصيل الآيات عن تدبير الأمر، فالطبيب الجرَّاح إذا كان منهمكاً في إجراء عمليةٍ جراحية لا يستطيع في هذا الوقت العصيب أن يعلِّم طلاَّبه، والذي يعلم طلابه وهو منهمكٌ في المحاضرة لا يستطيع أن يفحص مريضاً، أما أن ترى طبيباً يجري

عملية جراحية وفي الوقت نفسه يعلمّ طلابه طريقة إجراء هذه العملية، فهذا عنده قدرات فائقة تفوق حد البشر، ربنا عزَّ وجل ولله المثل الأعلى .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ)

في الوقت نفسه يخلق، ويدبِّر، ويمد، ويعلم.. كل ذلك ..

(لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُون

أسعد لحظات المؤمن ساعة لقاء ربه :

لعلك ترى أن لقاءك مع الله هو أسعد شيءٍ في الحياة، يجب أن تعلم علم اليقين أنه ما من شيءٍ في الأرض يسعدك إلا أن تكون مع الله سبحانه وتعالى، إلا أن تلتقي به، اللقاء مع الله لا يعني الموت، فعامة الناس يفهمون أن فلاناً لقي ربه أي مات، يقول لك: لا راحة لمؤمنٍ إلا بلقاء وجه ربِّه، فكأن الحياة كلها متاعب، بعضهم وجه هذا القول: لا راحة لمؤمنٍ إلا أن يتصل بربه، إذا التقى مع الله عزَّ وجل ولقاء الله له ثمن، ثمنه العمل الصالح ..

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا)

(سورة الكهف : من الآية 110)

إذا قال لي أخٌ كريم: أشعر بضيق، أشعر بجفوة، أنا منقطع عن الله عزَّ وجل، لقاء الله ثمنه محدد، باب الله مفتوح على مصراعيه، أيُّ عبدٍ في أي مكانٍ وزمان إذا أراد أن يلتقي بالله عزَّ وجل فالباب مفتوح .

العمل الصالح ثمن الجنة :

أما الثمن فهو العمل الصالح ..

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : من الآية 110)

لابدَّ من استقامةٍ ولابدَّ من عملٍ صالح، فلذلك اللقاء مع الله مسعد، فإذا اتصل الإنسان بالله عزَّ وجل يقول كما قال أحد العارفين بالله: " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف "، فوالله الذي لا إله إلا هو ما من علامةٍ صادقةٍ على إيمانك كأن تكون سعيداً بلقاء الله، فالمؤمن الصادق لا يتمنَّى

الدنيا، لا يتمنى الرفاه العريض، لا يتمنى الجاه العريض، لا يتمنى المال الوفير، يتمنى لقاء الله عزَّ وجل .

فما مقصودهم جنات عـدن ولا الحور الحسان ولا الخيام

سوى نظر الحبيب فذا مُناهم و هذا مطلب القوم الكـرام

مَن عرف ما عند الله زهد في الدنيا :

أي أن هؤلاء العارفين بالله عرفوا أثمن ما في الكون، عرفوا الله، فزهدت نفوسهم فيما سواه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

أرَضيتَ بها، إذا دخلت على ملك تقول له: أتوسَّل إليك أن تعطيني قلم رصاص، هذا يعجبك؟! ترضى به؟! فكيف إذا وقفت بين يدي ملك الملوك أترجو منه الدنيا وهي زائلة؟ أعطاها لأعدائه، أعطاها لمن يحب ولمن لا يحب .

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

النبي عليه الصلاة والسلام رأى شاةً ميتةً قد انتفخ بطنها، وفاحت رائحتها الكريهة، فقال عليه الصلاة والسلام :

((انظروا إلى هذه الشاة كم هي هينةٌ على أهلها، والذي نفس محمدٍ بيده الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها))

[الحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد]

لا شأن لها عند الله، " فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حينما زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا " .

" يا بُنَي، ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية " .

إذا عرفت الله سبحانه وتعالى فأنت أسعد السُعداء، سيدنا علي كرم الله وجهه يقول: " المال نعمة، وأفضل من المال نعمة الصحة، وأفضل من نعمة الصحة نعمة الإيمان، والفقر بلاء وأشد من الفقر المرض، وأشد من المرض الكُفر "، فإذا كنت مؤمناً فعلى الدنيا السلام، هذا الذي عرفك يا رب ماذا فاته؟ والله ما فاته شيء، وهذا الذي لم يعرفك يا رب ماذا حَصَّلَ؟ والله لم يحصّل شيء . " ابن آدم،

أطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء " .

هذا هو الله فاعرفه بآثاره في الكون :

فليس في الكون إلا حقيقة واحدة هي الله، فإذا عرفته فقد نجحت، وإذا غاب عنك أو غِبت عنه فقد شقيت، وعندئذٍ لا تنفع الدنيا ولا ما كان من الدنيا .

(لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

خلق لك شمساً ..

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

خلق نجوماً، خلق مجرَّات، خلق مذنَّبات، خلق أمطاراً، خلق رياحاً، خلق نباتاً، خلق أطياراً، خلق أسماكاً، خلق إنساناً، خلق لك من نفسك زوجة، أنجبت طفلاً لك كالزهرة تعرف أصله، من ماءٍ مهين، هذا الطفل يتكلم، يتحرك، يضحك، يبكي، له دماغ، له عينان، له شفتان، له لسان، له أذنان، له قلب، له رئتان، له أمعاء، له معدة، له أعصاب، له عضلات، له عظام، له أجهزة، له أعضاء، خلقك من أجل أن تعرفه، ما عرفته، أرسل زلازل، أرسل فيضانات، آثار براكين ..

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

من أجل أن تعرفه، ما عرفته ..

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام : من آية " 65)

من أجل أن تعرفه، ما عرفته ..

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

ما عرفته ..

(وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

ما عرفته :

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

أرسل لك محنة، ضيَّق عليك، أرسل لك مالاً، وهبك طفلاً، غاب عنك هذا الطفل، من أجل أن تعرفه .

إذاً :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(2)وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ

المعنى الأول :

جعلها ممتدة، ليس في الأشكال الهندسية إلا شكل واحد، الخطوط السطحية ممتدة لا تنقطع، وهو الشكل الكروي، هذه الآية دليلٌ على أن الأرض كرة، امسك قلماً من الرصاص، وامسك كرةً، وخط على هذه الكرة خطاً، وتابع الحركة الخط لا ينقطع، لا ينقطع أبداً، الخط ممتد .

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

هذا المعنى الأول .

أي أن الشكل الهندسي الوحيد الذي تمتد عليه الخطوط بلا انقطاع هو الشكل الكروي، إذاً: الأرض كرة.

المعنى الثاني :

من رحمة الله بك جعلها كرةً كبيرة، فالأرض أمامك منبسطة، وكأنها منبسطة، إذاً: مد الأرض جعلها ممتدة أمامك، ليسهل عليك زرعها، وبناء بيتك فيها، والسكنى فيها، والحركة، هذا الذي يشتري أرضاً من سفح جبل، يجد صعوبة كبيرة في زراعتها ..

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

إذاً: جعلها ممتدة، جعلها منبسطة، جعلها كروية .

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ)

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ

أهمية الجبال في ثبات الأرض :

فلولا هذه الجبال كيف تتحرك الأنهار؟ وفق نظام الأواني المستطرقة، لولا الجبل لما سال النهر، لأن

الجبل مكان مرتفع، وبحسب نظام الجاذبية الماء يتحرَّك من الأعلى إلى الأدنى .

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ)

الأرض من دون الجبال تضطرب في دورانها، تأتي الجبال فتجعل دورانها مستقراً .

شيءٌ آخر في الجبال ..

(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

(سورة النحل : من الآية 15)

هذا هو المعنى، والجبال أيضاً جعلها الله أوتاداً، معنى أوتاداً أن هذه الطبقات السطحية لولا الجبال لاضطربت بفعل الدوران، لأن الدوران يسبب حركةً في طبقات الأرض، وكل طبقةٍ لها قوامها، ولها كثافتها، فإذا اختلفت كثافة الطبقات تحرَّكت حركات متباينة، فاضطربت الأرض، تأتي الجبال كالأوتاد تثبِّت هذه الطبقات بعضها ببعض، فالله سبحانه وتعالى جعل الجبال أوتاداً، وجعل الجبال رواسي أن تميد بكم .

الحكمة من ذكر الأنهار بعد الجبال :

والشيء الغريب أنه حيثما وردت في الأعم الأغلب كلمة الجبال أردفها الله بالأنهار، لأن مستودع الأنهار في الجبال، فلو أن أحدنا دخل إلى بعض المغارات السياحية.. في لبنان مغارة.. هذه المغارات هي مستودعات للماء العذب، صخورٌ إسفنجية، هذه الصخور فيها مواد معدنية تنحل في الماء، فإذا انحلّت في الماء صار الماء معدنياً صالحاً للشرب، فيه فلور، وفيه كالسيوم، فيه منغنزيوم، لذلك المياه التي تحلَّى من البحر ليست صالحة للشرب إطلاقاً، لماذا؟ لأنها خالية من هذه المعادن، لكن الله سبحانه وتعالى جعل المياه في أعماق الجبال، وحَلَّ فيها بعض المعادن من أجل أن تكون هذه الأملاح المعدنية فيها قوام حياتنا، لولا الفلور لما بقي في فم أحدنا سِن، المادة التي تقي نخر الأسنان هي الفلور، يجب أن تكون في الماء بنسبٍ قليلةٍ جداً، فالفلور، والكالسيوم والمنغنيزيوم، كلها محلولة في الماء، فربنا عزَ وجل جعل الجبال مستودعات للمياه العذبة .

لكن هذا المستودع لو تصورنا أنه مستودع مجوَّف كما يتخيَّل بعضنا، لكان من جرَّاء ذلك أن ضغط الماء يصدِّع الجبل فتخرج المياه دفعة واحد فتُغْلِقُ المدينة، لكنه من أجل أن لا تنطلق المياه من الجبل دفعة واحدة جعل الله سبحانه وتعالى طبيعة الجبل من الداخل إسفنجية، فالماء يرشح رشحاً، فهذا المستودع الكبير يُفْرِغُ محتواه على مدار العام بأكمله، هذه الينابيع، يقول لك: هذا الينبوع، نهر الأمازون كثافته ثلاثمائة ألف متر مكعب في الثانية على مدار العام، تقل أحياناً، نبع الفيجة كثافته ستة عشر متر مكعب في الثانية، ينزل للمتر، للنصف متر أحياناً.

إذاً: حيثما ذكر الله الجبال ذكر معها الأنهار لأن الجبال مستودعات لمياه الأنهار .

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا)

والجبال أيضاً مصدَّات للرياح .

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتجَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

الثمرات أنواع كثيرة :

التفاح أكثر من ثلاثة آلاف نوع، مَرْكز في دوما لإجراء البحوث الزراعية، أعلمني صديقٌ لي أن ثمة ثلاثمائة نوع من العنب، ما من ثمرة إلا ولها أنواع منوَّعة، المشمش، التفاح، الكمثرى، الدرَّاق، هذه الأنواع المنوعة مبالغةٌ في إكرام الإنسان .

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

كم نوع للبطيخ؟ كم نوع للتفاح؟ سكري، شتوي، الأصفر، الأحمر، أنواع كثيرة، في الأشكال والحجوم والطعوم .

إذاً :

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)

النبات ذكر وأنثى :

أحدث اكتشاف أنه ما من نباتٍ إلا وفيه ذكرٌ وأنثى، حتى النباتات التي كان يظن أنها وحيدة الجنس اكتشف أنها مؤلفةٌ من أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنَّثة في النبات الواحد .

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

حتى الكمأة التي يظن أن لا بذر لها .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (2- 9) : تفسير الآية 3 .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-07-25

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

النبات ذكر وأنثى:

ما من نباتٍ إلا وفيه ذكرٌ و أنثى، حتى النباتات التي كان يُظن أنها وحيدة الجنس اكتشف أنها مؤلفة من أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنثة في النبات الواحد.

(ومِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

حتى الكمأ التي يظن أنها لا بذر لها، لها بذرٌ، والبذر ينعقد من جَرّاء تلقيح الذكر بالأنثى.

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)

النبات آية من آيات الله في الأرض:

إذاً: أبرز آية في الأرض النبات.

الأشجار، أشجارٌ سخرها الله بخشبها، يقول لك: هذا خشب زان، هذا خشب سنديان، هذا خشب بلوط، هذا خشب سويد، وأشجارٌ خلقها الله للزينة، الأشجار الحراجية تعمّر مائة عام، وأجريت بعض الدراسات أن الشجرة الواحدة تقدّم خدمات للإنسان ما يزيد على مائتين وتسعين ألف مليون دولار في مائة عام، تسميد التربة، وترطيب الجو، لو أردنا أن نُرَطِّب الجو آلياً، أرقام مذهلة، هناك أشجار للزينة، أشجار حراجية، أشجار حدوديّة، أشجار من أجل أن تقطف ثمارها، ما ثمارها؟ ليف، أشجار من أجل أن تنظِّف أسنانك بها، عود الآراك، أشجار من أجل أن تنظف ما بين الأسنان الخُلّة، أشجارٌ من أجل أن تأكل من ثمراتها، نباتاتٌ من أجل أن تأكل من ثمراتها أيضاً، الخضروات، نباتاتٌ تعطيك المحاصيل القمح والشعير، فالحديث عن النبات لا ينتهي، الله سبحانه وتعالى جعل أبرز آيةٍ في الأرض هي النبات..

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ

والليل والنهار آيةٌ كبرى في الأرض، معنى ذلك هناك دوران حول النفس، هناك دورة الأرض حول نفسها، وهناك الشمس، فمن جرّاء الشمس والأرض ودورة الأرض حول نفسها، ينشأ الليل والنهار.

(إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

التفكر عبادة عظيمة:

صار التفكر عبادة، صار التفكر فرض، صار التفكر طريقٌ إلى الله سريع، فكِّر في هذه الآيات، دقق فيها، استكشف عظمة الله من خلالها.

(إنّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 28)

إنما أداة قصر، وأداة حصر، فالعلماء وحدهم، ولا أحد سواهم يخشون الله سبحانه وتعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 4 – 13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-08-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بما سبق:

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في سورة الرعد إلى قوله تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

قبلها:

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)

أي أن هذا الكتاب مِنْ ربك، مَنْ ربُّك ؟

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(2)وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(3) وَفِي الْأَرْضِ)

أي وخلق لكم في الأرض، ومن آياته الدالّة على عظمته، أعَرَفْتَ مِنْ عند مَنْ هذا الكتاب؟ من الذي رفع السماوات بغير عمدٍ ترونها؟ من الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي ؟ من جعل في الأرض قطعاً متجاورات ؟

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ)

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ

الأراضي أنواع:

أي أراضٍ بعضها غبار، بعضها كلس، بعضها خَصيب، بعضها مالح، بعضها مزروع، بعضها مُهْمَل، فحيثما سرت في الأرض ترى أنواعاً منوّعة من التُرَب، تربة لَحْقِيَّة، تربة غضاريّة، تربة كلسيّة، تربة

بازلتيّة، تربة بركانية، تربة غنيّة بالحديد، تربة غنيّة بالكالسيوم، تربة تسقى بعلاً، تربة تسقى بماء النهر، تربة مزروعة، تربة تنجح فيها هذه الفاكهة، تربة تنجح فيها هذا المحصول..

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ)

الأعناب والزرع والنخيل:

النخيل باسقة، والأعناب متسلِقة، والزرع أرضي، أي الخضراوات، المحاصيل هذه زروع، والأعناب متسلِقة، والنخيل باسقة، أي أنها أنواع منوّعة، أشجار دائمة الخضرة، أشجار مثمرة، أشجار قصيرة العمر، أشجار مديدة العمر..

(وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ)

لو ذهبت إلى حقل زيتون للفت نظرك ظاهرة في الزيتون، أن كل شجرة من الزيتون ينبت في أطرافها فسائل، قد لا يقف الإنسان عند هذه الظاهرة، ولكن لو فكّر فيها لعرف حكمة الله سبحانه وتعالى، لأنك إذا زرعت بذر الزيتون لاحتجت إلى سنواتٍ طويلةٍ طويلة كي تُصبح هذه البذرة فسيلة، ولكن الله سبحانه وتعالى توفيراً للوقت أخرج مع كل زيتونةٍ ضخمةٍ عدّة فسائل حولها، ما عليك إلا أن تقطع هذه الفسيلة من جذر الزيتونة، وتزرعها فإذا هي شجرةٌ بعد سنواتٌ عدّة.

معنى: صنوان:

قد تجد نخلتين من أصلٍ واحد، وقد تجد للأصل الواحد نخلة واحدة..

(صِنْوَانٌ)

أي أخوان..

(وَغَيْرُ صِنْوَانٍ)

ومعنى كلمة الصنو أي الأخُ..

(صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ

فهذه الآية من أعظم الآيات الدالّة على عظمة الله عزّ وجل، لو اتفق أن في بستانٍ واحد شجرة كَرَز، وأخرى مُشمش، والثانية تفّاح، والثالثة درّاق، والرابعة خَوْخ، وما شاكل ذلك، التربة واحدة، الجو واحد، الهواء واحد، السماد واحد، السقي واحد، الأمطار واحدة، الثلج واحد، البرد واحد، الحر واحد،

طَعْم الدراق غير طعم الكرز، غير طعم العنب، غير طعم المشمش، غير طعم التفّاح، غير طعم الأجاص..

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

لو قيل لك: صف طعم التفّاح لا تستطيع، تقول: التفّاح تفّاح، صف طعم الأجّاص، لن تستطيع..

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

فاكهة تُباع بليرتين، فاكهة تُباع بخمس عشرة ليرة.

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

هذه فستق، هذه لوز، هذه فستق عبيد.. مثلاً.. أنواع منوّعة.

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

الأُكُل هنا أي الطعم، نفضِّل بعضها على بعض في الطعوم، طعم هذا غير طعم هذا، وسعر الفاكهة دليل اختلاف طعومها، في فواكه رخيصة، في فواكه غالية..

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

آيات الكون تنفع من كان له قلب حي:

قبل قليل:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

في هذه الآية:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

قال تعالى:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَعْقِلُونَ بِهَا)

(سورة الحج: من الآية 46)

فالعقل مكانه القلب، والتَفَكُّر مكانه الرأس، فالإنسان يتفكَّر في الآية فيقنع بها، فإذا تعمّق في فهمها عقلها، فإذا عقلها انتقلت من فكره إلى قلبه..

" وإنما الدين هو العقل ومن لا عقل له لا دين له ".

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

فمعظم الناس يتوهّمون أن الموت نهاية الحياة، مع أن الحقيقة أن الموت بداية الحياة، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا(22)وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى(23)يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

الموت بداية الحياة، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً))

[ورد في الأثر]

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ(26))

(سورة الفجر)

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

ليست الحياة كل شيء:

حينما يظنُّ الإنسان أن الحياة هي كل شيء، وأن السعيد فيها من كان غنيّاً، وأن الشقي فيها من كان فقيراً، وأن الموت نهايتها، هذه النظرة التي ينظر الناس من خلالها إلى الدنيا هي نظرةٌ مُهْلِكَة، لأنّك نقلت كل اهتماماتك إلى الأرض، إلى الدنيا، والدنيا قد تأتي وقد لا تأتي، قد تقبل عليك فيختلُّ توازنك، وقد تُدبر عنك فتيأس، لكنّك إذا نقلت اهتمامك إلى الدار الآخرة عندئذٍ يرضيك فيها كل شيء، قال النبي عليه الصلاة والسلام في بعض خُطبِه:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عُقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[كنز العمال]

فما من واحدٍ منّا إلا وله فلسفة شاء أن أبى، كانت هذه الفلسفة عن وعيٍ أو عن غير وعيٍ، فالذي يظنُّ أن الدنيا كل شيء يُقبِلُ عليها بنهمٍ شديد، ينام ويحلم بمباهجها، ببيوتها، بنسائها، بمالها، والذي يظنُّ الآخرة كل شيء هو العاقل.

مثلاً: لو أن إنساناً كان على وشك الموت عطشاً، وبقي له كي يموت عطشاً ساعة، وقيل له: هناك سبعة أمكنة يُظَنُّ أن فيها ماء، وتحتاج إلى ساعة لتصل إلى كلٍ منها، والماء في واحدٍ منها، فأي خطأٍ في التوجُّه معناه الموت المحقّق، يوشك هذا الإنسان أن يموت عطشاً، والأطبّاء قدّروا له ساعة، بعد هذه الساعة يلفِظُ أنفاسه الأخيرة، هو في صحراء قيل له: في هذا المكان نبع، أو في هذا المكان، أو في هذا المكان، أعطوه سبعة أمكنة ثم قالوا له: حقيقةُ الماء في مكانٍ واحد من هذه السبعة، فهل ينطلق الإنسان إلى أحد هذه الأمكنة قبل التروّي وقبل البحث؟ لأن انطلاقه إلى أحد هذه الأمكنة قبل التأكّد من

أن الماء فيها معناه موتٌ محقّق، فلذلك الإنسان في الدنيا..

" إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ".

فشيء خطير جداً يقال عنه: مصيري، أي مصيرك إلى الأبد، سعادتك إلى الأبد، شقاؤك إلى الأبد منوطٌ بهذا الكتاب، هذا منهجك في الحياة، فربنا عزّ وجل جعل الدنيا دار تكليف وجعل الآخرة دار تشريف، أي أن العطاء في الآخرة، والنعيم المقيم في الآخرة، والجنّة التي عرضها السماوات والأرض في الآخرة، لكن الدنيا دار عمل، دار جِدٍ، دار كسبٍ..

" شمِّروا فإن الأمر جِد، وتأهّبوا فإن السفر قريب، وتزوّدوا فإن السفر بعيد، وخفِّفوا أثقالكم فإن في الطريق عقبة كؤود، وأخلصوا النيّة، فإن الناقد بصير ".

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنّا تُرَابًا أَئِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنّا تُرَابًا أَئِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

إنكار البعث فلسفة الجهلة والسفهاء:

لو فكّروا في خلق السماوات والأرض لما قالوا هذا الكلام، لو رأوا صنعة الله عزّ وجل فعرفوا من خلالها عظمة الخالق لما شكّوا في أن الله سبحانه وتعالى سيحقِّق وعده ويبعث من في القبور، لو فكّروا في ملكوت السماوات والأرض، لو فكّروا في خلقهم، لو فكروا في طعامهم، في شرابهم، لو فكروا في مظاهر الطبيعة التي أمامهم لما قالوا:

(أَئِذَا كُنّا تُرَابًا أَئِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

هذا القول يقوله الجاهل، أنت أمام صاحب معمل ضخم لصناعة أعظم الآلات تقول له: هل تستطيع أن تصنع آلة صغيرة؟ لو وقفت أمام صناعته الدقيقة والكبيرة والجبّارة لما سألت هذا السؤال، دليل أنّك لا تعرفه إطلاقاً، لأنك طرحت هذا السؤال فإنك لا تعرفه.

(وَإِنْ تَعْجَبْ)

إنه لقول عجيب:

الله سبحانه وتعالى لم يقل: فيعجب ربُكم، لأن الله لا يعجب، الله فوق أن يعجب، لأنه ليس كمثله شيء، أما هناك عجبٌ من قولهم، هذا العجب من عدم فهمهم لعَظَمَة الله عزّ وجل.

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ)

فقولهم يدعوكم إلى العجب يا بني البشر..

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

الخلق الأول دليل عظمته، والخلق الثاني دليل عدالته:

الحقيقة أن الخلق الأول دليل عظمته، والخلق الثاني دليل عدالته، لأن في الخلق الأول عظمة ما بعدها عَظمة، هناك الفقير والغني، هناك القوي والضعيف، هناك الظالم والمظلوم، هناك الصحيح والمريض، فهذا المريض لو أن هذه الدنيا هي كل شيء أليس له على الله عَتَبٌ شديد؟ يا رب أنت الذي خلقتني، هذا الفقير الذي لا يجد قوت يومه وكانت الدنيا هي كل شيء وانتهى الأمر، أليس له عند الله عتبٌ شديد؟ في الدنيا فقير، في الدنيا غني، في الدنيا ضعيف، في الدنيا قوي، في الدنيا ظالم، في الدنيا مظلوم، في الدنيا صحيح، في الدنيا مريض.

الخلق الأول لحكمةٍ بالغة، والخلق الثاني لتحقيق العدالة المطلقة.

الحساب على الجميع:

فالغني سيُحاسب على غناه، والفقير سيُسأل عن صبره، والقوي سيُحاسب عن قوّته كيف استخدمها، أتعسّف بها، والضعيف سيُسأل عن توحيده، والمريض سيسأل عن صبره، والصحيح سيسأل عن قوّته كيف استعملها..

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ؟))

[سنن الترمذي عن أبي برزة الأسلمي]

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: من الآية 115)

جامعة، قاعات محاضرات، مكتبة ضخمة، حدائق، جهاز تدريسي من أرقى مستوى، مخابر كلّفت ألوف الملايين، ليس هناك امتحان؟ هكذا أدخل إلى الجامعة، وأخرج منها من دون امتحان؟ من دون مسؤوليّة؟ مستحيل، لا يفعلها إنسان..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

تعالى أن يخلق الناس عبثاً..

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ(16))

(سورة الأنبياء)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة ص: من الآية 27)

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

نحن في الدنيا في ظل الأنظمة الوضعيّة، أيضرب إنسان إنساناً، أيقتله ويذهب إلى بيته هكذا؟ ليس هناك شرطة، ليس هناك دوائر مباحث جنائيّة؟ هكذا..

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

عند مخلوق لا تنجو، عند مخلوق محدود العلم لا تنجو، عند الخالق ؟! تأكل مال فلان، تنتهك عِرض فلان، تخادع فلانا، تغشُّ فلانا، تحتكر هذه السلعة، تؤذي المسلمين، تأخذ أموالهم بغير حق وتُترَك سدى؟ هكذا ببساطة، بلا حساب، بلا مسؤوليّة، بلا عذاب ؟

ليست العبرة أن ينجح جميع الطلاّب في الجامعة، ولكن الشيء الرائع أن تتطابق النتائج مع المقدِّمات، هذا هو الشيء الرائع أن يكون هناك حسابٌ دقيق..

(فوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف: من الآية 19)

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(32))

(سورة النحل)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

إيمانك الصحيح أنك لو أنقذت نملة، أنك لو ابتسمت ابتسامة بمقدار ثانية واحدة سخرية من إنسان لحُوسِبْتَ عليها، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

[الترمذي]

كلمة قصيرة، فلان.. (وأشار إلى ياقة قميصه)، ما حكيـت شيئا.. فلانة.. (وأشار إلى ياقة قميصه) ما حكيت شيئا.. إنك تُحاسب على ذلك، أمتأكِّدٌ أنت أنها منحرفة؟ أعندك دليل؟ أجاءك أربعة شهود، أم أنها قصّة سمعتها فنقلتها ؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[مسلم، أبو داود]

لابدّ من تمحيص.

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ)

حساب الدنيا قبل حساب الأخرة:

واللهِ إن الحساب في الدنيا قبل الآخرة، لو تتبعت أهل الدنيا وانحرافاتهم، ورأيت كيف أن الله سبحانه وتعالى يجازيهم عن أعمالهم في الدنيا قبل الآخرة لعجبت العجب العُجاب، أبداً.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ)

(سورة طه)

يعني كنت أعمى في الدنيا..

(أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى(126))

(سورة طه)

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ)

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ

الإيمان بالله واليوم الآخر متلازمان:

لأنهم كفروا بربّهم أنكروا البعث، وكأن الإيمان بالله وباليوم الآخر متلازمان، إذا آمنت بالله تقتضي عدالته أن هناك يوماً آخر، إن لم تؤمن بالله تُنْكِرُ يوم البعث، لذلك من أركان الإيمان الإيمان بالله واليوم الآخر، أبداً، الإيمان باليوم الآخر من مستلزمات الإيمان بالله عزّ وجل، كما أن الإيمان بالفحص من مستلزمات الجامعة، لا جامعة بلا امتحان، لأن هناك إلقاء محاضرات، وهناك تفاوت بين الطلاّب في فهم هذه المحاضرات، تفاوت في الدوام، تفاوت في الفَهم، تفاوت في البذل، تفاوت في الجُهد، تفاوت في الدراسة، ما الذي يميّز هذا التفاوت؟ الامتحان، فالامتحان شيءٌ لازمٌ للجامعة، كذلك اليوم الآخر لابدّ

منه في نهاية الحياة.

(وَأُوْلَئِكَ)

أي أن هؤلاء الذين يقولون:

(أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ)

لو عرفوا ربهم من خلال خلقه لما كفروا به:

لو أنّهم عرفوا ربّهم كيف أمدّهم بالهواء، هذا الهواء نستنشقه نأخذ منه الأكسجين ونطرح غاز الفحم، يأتي النبات فيأخذ غاز الفحم يُثبّت الفحم في الأوراق ويطرح الأكسجين، نأكل نحن النبات فتنشأ في أجسادنا طاقة هي الحركة، بسبب احتراق المواد ـ التي أكلناها ـ في خلايانا مع الأكسجين الذي أخذناه من عملية التنفّس، يطرح من هذا الاحتراق غاز الفحم، يأتي النبات يأخذ غاز الفحم، يثبّت الفحم في الأوراق ويطرح الأكسجين، ومن أخذ الأكسجين وطرح غاز الفحم، وأخذ غاز الفحم وطرح الأكسجين ينشأ هذا التوازن في الأرض، وإلا لانتهى الأكسجين، لو فكّروا في ربّهم كيف خلق لهم الهواء بهذه النسب الدقيقة، وكيف جعلهم يتكاملون مع النبات.

لو فكّروا في الماء كيف صفّاه الله عزّ وجل وحلاّه، هو في البحر ملحٌ أجاج، وفي الينابيع ماءٌ عذبٌ فرات، لو فكروا في تخزين المياه..

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(22))

(سورة الحجر)

لو فكّروا في ظاهرة النبات، النبات أكبر ظاهرةٍ في الأرض، أن تزرع حبّةً فتصبح شجرة، لكن أين البرمجة؟ قال لي واحد: بذرة مبرمجة، قلت له: جميل، تعال أناقشك بهذا الموضوع، لو أردت إنشاء بناءٍ ضخم، وذهبت إلى أعظم المهندسين، ووضع لك مخطّطاتٍ تفصيليّة، مخطط للأساسات، مخطّط للطابق الأول، للطابق الثاني، الثالث، الرابع، الخامس، هندسة نسب ومقاييس، وهندسة شكل ومظهر، وهندسة كهرباء، وهندسة مياه، إلخ... وجمعت هذه الخرائط، وهكذا سمكها ضعها على أرض البناء، وانتظر كم سنة حتى يظهر البناء، نحن في عالَم الواقع، هل تكفي الخرائط المبرمجة التي فيها حسابٌ دقيق لهذا البناء، هل تكفي هذه الخرائط ليظهر البناء؟ تقول: لا إنه لا يظهر، نحتاج إلى ماذا؟ إلى مواد أوليّة، آت بهذه المواد الأوليّة؛ آت بالإسمنت، وبالحديد، وبالبلاط، وبالطلاء، وبكل شيء، دعه في أرض البناء، هل يظهر البناء؟ تقول: يد عاملة، إذا كان بناء فيحتاج إلى خارطة ومواد أوليّة ويد عاملة، فهل يمكنك من بذرة مبرمجة تنبت شجرة ؟

بذرة التين كرأس الدبوس، هذه البذرة فيه رشيم، وفيها مواد مغذِّية للرشيم، والرشيم حي، كيف تصبح هذه البذرة شجرة؟ حبّة قمحٍ زُرِعَت فأنبتت ثلاث آلاف حبّة رأيتها بأمّ عيني، خمس وثلاثون سنبلة من حبّة قمح واحدة، وكل سنبلة فيها ستون أو سبعون حبّة، في مزرعة في الغوطة، نادرة، بذرةٌ واحدة، حبّة قمحٍ واحدة أصبحت ثلاث آلاف حبّة، فيَدُ مَنْ؟ المزارع يلقي الحبّة إلى الأرض، ويذهب إلى البيت، من أودع في هذه الحبّة الحياة؟ من جعل الرشيم حينما جاءته الرطوبة ينبت له سويقٌ دقيق وجذيرٌ دقيق، من جعل الجذر يتجه نحو الأسفل والسويق يتجه نحو الأعلى؟ ما هذا التوافق الدقيق بين انتهاء المواد الغذائيّة في البذرة وإمكانيّة الجذير أن يأخذ من التراب ما يحتاج؟ ما هذا التوافق العجيب؟ فالنبات ظاهرة.

فالهواء آية، والماء آية، والنبات آية، والحيوان آية، وهذه المخلوقات؛ الطيور، الأسماك، الأنعام، الإبل، الغنم، الماعز، البقر.

هذه البقرة لو أنّ حليبها خلقه الله لوليدها فقط فإن وليدها يكفيه اثنان كيلو في النهار كله، البقرة تعطي ثلاثين كيلو حليب، معنى هذا أن الحليب لنا خصيصى، خُلِقَ لنا..

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ(66))

(سورة االنحل)

أنت تأكل جبنة صباحاً ولبناً مصفّى، قشطة، هذا كلّه من الحليب، سمنة بلدي، من صمّمه ؟ من صنعه؟ يدُ من صنعته ؟

(أُوْلَئِكَ)

أي أن هؤلاء الذين يقولون:

(أئِذَا كُنَّا تُرَابًا أئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

هذا الذي يقول هذا ما فكّر في ربّه، لو فكر في رب العالمين، وكيف خلقه وأمدّه لما أنكر البعث والنشور..

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أئِذَا كُنَّا تُرَابًا أئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ)

وَأُوْلَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ

المعنى الأول: المجرم لا بد من تقييده بالأغلال:

بعضهم وجّه هذه الآية إلى يوم القيامة:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30))

(سورة الحاقة)

المجرم يقيّد..

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)

هذا المعنى الأوّل.

المعنى الثاني: الكافر مقيد بالشهوات:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ)

هذا الكافر مقيّدٌ بالشهوات، شهوته تذلّه وتسحقه، هو عبدٌ لها..

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ))

[البخاري عن أبي هريرة]

هؤلاء عبيد الشهوات، كان رجل بعد أن هداه الله سبحانه وتعالى يقول: **" كنت عبداً فأصبحت حرّاً، وكنت حرّاً فأصبحت عبداً "**، قيل له: فسِّر هذا الكلام، قال: " كنت عبداً لشهوتي فأصبحت متحرّراً منها، ثم كنت حراً بمعنى أنني غير منضبط، فأصبحت عبداً لي ربٌّ، ولي منهجٌ أسير عليه "، **" كنت عبداً فأصبحت حرّاً، وكنت حرّاً فأصبحت عبداً "**.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(5)وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ

استهزاء الكفار بوعيد الله:

هؤلاء الكفّار يستهزئون بوعيد الله سبحانه وتعالى، ليعذّبنا ربُّك، أين العذاب؟ ليأتي..

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ)

فإذا جاء العذاب رأيتهم يصرخون كالكلاب، لكنّهم لجهلهم.. الحيوان من صفاته أنه يخاف بعينه فقط، أي لا يخاف حتى يرى الخطر بعينه يخاف..

الإنسان العاقل يخاف بفكره لا بعينه:

أما الإنسان فكرّمه الله عزّ وجل، يجب أن يخاف بفكره، يجب أن يرى الخطر المتوقّع قبل أن يقع الخطر، فالذي يخاف بعينه هذا متخلِّف، هذا ينتمي إلى صنف الحيوان، لا يخاف إلا إذا رأى الخطر، ما دام في صحّة جيّدة، ما دام في مال وفير هو مع شهواته يستعلي على الناس في الأرض، يأكل حقّهم، يغتصب أموالهم، ينتهك حرماتهم، يعتدي على أعراضهم مادام فيه قوّة، فإذا وقع في مرضٍ قلبيّ عُضال صار يعوي كالكلاب، يقول: أنقذوني، أين كنت ؟

يقولون: إن مَلَك الموت حينما يوضع الميت ويُغَسّل يقول: **" يا ابن آدم، أين سمعك؟ ما أصمّك! أين ريحك؟ ما أفسدك! أين قوّتك؟ ما أضعفك! ".**

الموت فيه موعظة بالغة، لو أنك رأيت إنساناً ممدداً على خشبةِ المُغْتَسَل، جثّة هامدة، قبل قليل كان ملء السمع والبصر، أصبح حديثاً، أصبح نعيا على جدران الطرقات بعد أن كان ملء السمع والبصر.

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ)

الإنسان تحت ألطاف الله عزّ وجل، من يدري ماذا في بطنه، هؤلاء الذين اكتُشِفَ في بطونهم مرض خبيث هل كانوا يعلمون ذلك من قبل؟ دمٌ لو أنه انفجر في الدماغ لقضى على الإنسان في أربع ثوانٍ، شريان واحد لو انفجر في الدماغ، هذا القلب لو تعطّل بعض دسّاماته تحتاج إلى ثمانمائة ألف ليرة عمليّة بأمريكا، وقد تنجح وقد لا تنجح، هذه الشرايين لو تصلّبت، هذا الضغط لو ارتفع، هتان الكليتان لو تعطّلتا، هاتان الرئتان لو أصيبتا بذات الجَنب، هذا الكبد لو تشمّع، هذه الحركة لو شُلّت، هذا البصر لو ذهب، هذا السمع لو ذهب، هذا العقل لو اختل لأخذوه على القُصير، أقرب الناس إليك يخافون منك، نعمة العقل، نعمة الصحّة..

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ الْمَثُلَاتُ)

وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ

الدهرعبر وأمثال:

أي العبر، كيف أن الله أهلك القرون من قبلهم؟ هذه القصص تحت سمعهم وأبصارهم.. كولومبيا دولة في أمريكا، فيها مدينة في سفح جبلٍ، الجبل مغطّى بالثلوج، الجبل أخضر، المسارح، الفنادق، الشوارع، الحدائق، الحياة بأوجها، انفجر البركان، وذاب الثلج، وقُذِفت هذه المدينة بالحُمم البركانيّة، خمسةٌ وثلاثون ألفاً قُتِلوا فوراً.. أين الإنسان؟ أحياناً طائرة تحترق في السماء، وبسبب خلل بسيط وقد مات جميع ركّابها، ثلاثمائة وخمسون راكبا، خلل بسيط في أجهزتها، نحن تحت رحمة الله..

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ)

وَإِنّ رَبّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ

آية غاية في الرجاء:

قال بعض المفسِّرين: **" هذه أرجى آيةٍ في كتاب الله ".**

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)

ليس القصد أن يحاسبهم، بل القصد أن يرحمهم، لذلك يمهلهم، لو أن القصد أن يحاسبهم لحاسبهم، وقضى عليهم، وأهلكهم، وانتهى الأمر، ولكنّ إمهالهم وحلمه عليهم من أجل أن يرحمهم، فلذلك إذا كان الإنسان في بحبوحة وهو بعصي الله فليرتقب العقاب، إذا كان الله يكرمك وأنت تعصيه فاحذره، لأن الكيل قد طف، جاوزت الحد..

إلى متى أنت باللذّات مشغولُ وأنت عن كل ما قدّمت مسؤولُ

تعصي الإله وأنت تُظْهر حبّه ذاك لعمري في المقال بديــعُ

لو كان حبُّك صادقاً لأطعتـه إن المحبّ لمن يحبُّ يطيـــع

***

أيا عبدنا ما قرأت كتابنا ؟

أما تستحي منّا ويكفيك ما جرى

أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً

وتنظر ما به جاء وعدنا

إلى متى أنت ؟

عندي لك الصلح وهو بري و عندك السيف و السِنـانُ

ترضى بأن تنقضي الليالي و ما انقضت حربك العوان

تستحي من شيبةٍ تـراها في النار مسجونة تــهانُ

***

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)

المغفرة مقيدة بالتوبة:

هناك علماء قيّدوا هذه الآية فقالوا:

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)

إذا تابوا، وإذا عادوا، وإذا أنابوا، وإذا أقلعوا، وإذا ندموا، وإذا اتصلوا، وإذا بذلوا.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)

إذا أصرُّوا، أي لا تأخذها بفهم ساذج..

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)

((وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً))

[مسلم عن أبي ذر]

بشرط أن تأتيني، أن تعود إلي، أن ترجع إلي، أن تُقبِل علي، أن تتوب من ذنبك.

لكن احذر وأكمل الآية: وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ

أما إذا أصررت:

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)

ويعاقبك من أجل أن يرحمك، من أجل أن تعود إليه قسراً بعد أن أبيت أن تعود إليه طوعاً.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

السفيه يسأل عن الآيات وهي تحت سمعه وبصره:

يا سبحان الله! الآيات في الأرض وفي السماوات لا تُعَدُّ ولا تحصى..

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20))

(سورة الذاريات)

أنت آية، خلقك آية، ابنك آية، زوجك آية، طعامك آية، شرابك آية، الطير في السماء آية، السَمَكُ في البحر آية، البحر آية، النهر آية، الجبل آية، الصحراء آية، الغَوْرُ آية، السَهْل آية، الشمس آية، القمر آية، الجراثيم آية من آيات الله، الأمراض..

وفي كل شيءٍ له آية تدلُ على أنه واحدٌ

***

مدرّس ـ مثلاً ـ كتب نظريّة على السبورة، وبرهن عليها بثلاثين برهانا، بعد أن انتهى من إلقاء المحاضرة رفع طالب أصبعه، وقال له: يا أستاذ، ما البرهان على صحّة هذه النظريّة؟ أي برهانٍ هذا ؟ يروى أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه كان يدرّس طلابه في بعض المساجد، والدرس كان درس فقه، والدرس كان عن صلاة الفجر، وكان في رجله مرضٌ، وكان يمدُّها بالإذن من تلاميذه، دخل شيخٌ معمّم طويل القامة، عريض المنكبين، فاستحيى منه أبو حنيفة فرفع رجله، فجلس هذا الشيخ الوقور في مجلس هذا العالِم الجليل، تحدّث عن صلاة الفجر، وعن الفجر الصادق والكاذب، وعن الصلاة في غلس أو في سحر.. وإلخ، بعد أن انتهى الدرس رفع أصبعه هذا العالِم الشيخ المعمم الوقور، وقال له: يا سيدي، كيف نصلي الصبح إذا طلعت الشمس قبل الفجر؟ فقال أبو حنيفة: " عندئذٍ يمدُّ أبو حنيفة رجله.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ)

الكون معجزة:

الكون هو المعجزة، وليس خرق آيات الله في الأرض هو المعجزة، الكون هو المعجزة، فأنت أحياناً أمام آلة ضخمة جداً تؤخذ بها فتقول: ما أعظم الذي صنعها! أو تقول: إن كانت هذه الآلة عظيمة شغّلوها بلا طاقة، هذا كلامٌ فارغ، مع أن هناك مأخذاً للطاقة فعظمتها فيها، فخرق القوانين ليس هو المعجزة، الكون بحدِّ ذاته في حالته الطبيعيّة، في حالته الراهنة هو المعجزة، خلق الإنسان المعجزة، أن

تمرض فتشفى المعجزة كيف لا تمرض، الإنسان عندما يقول: أنا اليوم صحّتي طيّبة، معنى هذا أنه هناك آلاف الأجهزة تعمل بانتظام.

فكر في جسمك لترى عظمة الله:

مرّة رأيت كتابا في مكتبة فيه حوالي ألفا صفحة، عنوانه بسيط هو: (أمراض الدم)، معنى هذا بالتحليل عندك ثلاثة وعشرون بنداً؛ الشحوم الثلاثيّة، والكولسترول، والبولة... إلخ، وكل مادّة لها نسب معيّنة، حد أدنى، حد أقصى، حد مرضي، حد خَطِر، حد غير خطر، الدم فقط عالَم قائم بذاته.

فالأمراض العصبيّة، أمراض العضلات، أمراض جهاز الهضم، أمراض المعدة، أمراض الاثنى عشر، أمراض البنكرياس.. السكر.. أمراض الكبد، أمراض الجهاز التنفسي، أمراض القلب، وعن القلب قرأت كتاباً شيء يحيّر العقول، دسّاماته، والأذينين، والبطينين، والشريان الأبهر، والتوتر الشرياني، وأسباب التوتر الشرياني، إذا قلت: ما من مرض فأنت المعجزة، على قدر ما هنالك من أجهزة تعمل بانتظام وتنسيق.

إذا رأى أحد حيّة فما الذي يحصل؟ العين تنطبع عليها صورة الأفعى، هذه الصورة تنتقل إلى الدماغ، الدماغ يدرك أن هذه أفعى خطرة، يعطي الدماغ خبرا للغدّة النخاميّة عن طريق وسيطٍ بين الدماغ والغدّة النخاميّة اسمه الجسم الذي تحت السريري.. هذا الجسم وسيط بين الدماغ والغدّة النخاميّة، الغدّة النخاميّة مَلِكة الجهاز الهرموني تعطي أمراً إلى الكظر بأن هناك خطرا فتصرّف، الكظر يصدر أمراً هرمونيّاً بتسريع ضربات القلب أول شيء، فإذا خاف إنسان يصير قلبه يدق مائة وأربعين دقّة من دون أن يشعر، الكظر يصدر أمراً هرمونياً بتضييق لمعة الشرايين، جميع الشرايين في الإنسان حولها أعصابٌ إذا تنبّهت ضيّقت لمعتها، فإذا ضُييقت لمعتها اصفرّ الإنسان، من أجل أن يُوفّر الدم للعضلات، الآن لا تحتاج إلى خد وردي، الآن يريد أن ينجو من هذه الأفعى، فلذلك أول أمر لتضييق لمعة الشرايين يصفر الخائف.

الأمر الثاني تسريع القلب، لأن النبض السريع يحرّك الدم بسرعة في الشرايين.. سيارة إسعاف، وتمشي بسرعة الخمسة والعشرين؟ هذا لا يجوز.. فالقلب ينبض بسرعة، والشرايين تضيق لمعتها، يصدر أمرا هرمونيا ثالثا للرئتين فيزداد خفقان الرئتين كي تتوافقا مع القلب من أجل التصفية، تصدر أمراً رابعاً لتحرير كميّة إضافيّة من السكر في الدم، لو فحصت دم خائف تجد فيه سكراً بنسبٍ مرتفعة، أنت ما عندك علم فقط رأيت أفعى، أو عقربا، أو إنساناً معه سلاح، أو سيارة كادت أن تصطدم بك، تجد القلب دقّ مائة وأربعين دقّة، صارت حركة الرئتين سريعة، اصفرار، الدم فيه سكّر، أنت آية،

وأنت في حالتك الطبيعيّة آية..

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

المعنى الأول:

أي أن وظيفتك يا محمّد تنتهي عند التبليغ، وفي بعض التفاسير: الله هو الهادي..

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

فهذا يهتدي بمرضٍ عُضال، هذا يهتدي بسجنٍ طويل، هذا يهتدي بالتعذيب، هذا يهتدي بالفقر، هذا يهتدي بالذل، هذا يهتدي بالإكرام، هذا يهتدي بالمُهتدي، هذا يهتدي بالسَمَاع..

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

هذه بعض المعاني.

المعنى الثاني:

المعنى الآخر: كل قومٍ لهم من يهديهم وَفْقَ طريقتهم، ووفق مقاييسهم في الحياة، ففي عصر العلم يحتاج الذي يتصدّى لهداية الناس إلى مزيدٍ من العلم، يحتاج أن يستخدم سلاح العصر، وفي عصر السحر جاء موسى بالسحر، وفي عصر الطِب جاء سيدنا عيسى بالطب، وفي عصر البلاغة جاء النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الكتاب المُعْجِز..

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

كل قومٍ لهم هادٍ يناسب قيمَهم وطباعهم ومقاييسهم في الحياة.

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى)

اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى

انظر إلى موقع (ما) في هذه الآية لتفهم معناها:

لم يقل الله عزّ وجل: الله يعلم من تحمل، هناك مشكلة يقولون لك: إن العلماء قد توصّلوا إلى معرفة جنس الجنين أذكرٌ هو أم أنثى؟ الله سبحانه وتعالى يقول:

(اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى)

لم يقل: مَنْ ذكر أم أنثى بل إنه قال: ما، أي تحت هذا الحرف تنضوي معانٍ كثيرة، هذا المولود ذكرٌ أو أنثى، وسيمٌ أو دميم، ذكيٌّ أو غبي، مليحٌ أو قبيح، مصلحٌ أو مفسد، فهذه أسئلة كثيرة جداً، يشبه أباه أو لا يشبهه، قالوا: في العُرَى الملوّنة.. الكروموزومات.. أوامر بتخليق الإنسان، هذه الأوامر لو كتبت على ورق لضاقت بها أكثر الكتب أو الموسوعات اتساعاً، هناك أوامر دقيقة، تجد طفلاً شعره كثيفٌ في ظهره، هذا أمر، وجهه مستطيل، مربّع، دائري، على شكل كمثرى، على شكل كرة، على شكل صندوق، شعره كثيف، خفيف، أسود، خرنوبي، كستناوي، أشقر، جَعِد، سَبِط، حاجباه، عيناه، خدُّه، فمه، لسانه، نبرة صوته.

فهناك دقائق دقيقة جداً لا يعلمها إلا الله، الله وحده يعلم ما تحمل كل أنثى، موضوع ذكر أو أنثى موضوع تافه جداً إذا قيس بما تعنيه هذه الآية:

(اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى)

وعلى وجه اليقين لا أحد يعلم..

(اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ)

معنى: وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ

الرحم إذا غاضَت أي انقطع منها دم الحيض، أي صار في حمل، أو يزيد هذا الدم بعد الولادة.

(تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ)

كنايةٌ عن الحمل، أو تغيض الأرحام لا تحمل فتكون عقيمةً، أو تزداد فتلد التوائم، كلاهما يصحُّ في هذه الآية..

(اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ(8)عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

أي أن فلاناً جاء بأولاد ذكور، بأولاد إناث، فلان عقيم، فلان أنجب ولداً واحداً ثم توفي، أنجب ولداً ذكيّاً وولداً أقلّ ذكاءً، ولداً مصلحاً ولداً مفسداً..

(وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ(8)عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ

لا يعلم الغيب إلا الله:

لا يعلم الغيب إلا الله، عالِمُ الغيب، ما سيكون، النبي عليه الصلاة والسلام قال الله عنه:

(قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة الأنعام: من الآية 50)

(وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(188))

(سورة الأعراف)

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

الله هم الكبير المتعالي في العظمة:

متعالٍ في عظمته، مهما تحدّثت عن عظمته فهو أعظم، مهما عرفت من كماله فهو أكمل، مهما عرفت من قدرته فهو أقدر، مهما عرفت من رحمته فهو أرحم، مهما عرفت من لطفه فهو ألطف..

(الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

أي المتعالي، سبحانه وتعالى تعالى عن أن يشبه أحداً من خلقه، ليس كمثله شيء.

(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ

الله يعلم العلن والسر وأخفى:

أي إذا كان هناك فكرة أبقيتها في ضميرك أو نطقت بها، أخفيتها أو أعلنتها، أسررتها أو أظهرتها..

(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ)

من هو المستخفي بالليل و السارب بالنهار:

أي يتوارى عن الأنظار..

(وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

يمشي في الطريق، هكذا من دون خوف، من دون وجل، أي أن هذا المستخفي في علم الله، وهذا الذي لا يستخفي في علم الله، هذا الذي يُسِرُّ أمراً هو في علم الله، وهذا الذي يفضحه هو في علم الله..

(سَوَاءٌ مِنْكُمْ)

أي أن علم الله سواء أأخفيت أم أسررت، أعلنت أم أظهرت، صرّحت أم أشرت، سواءٌ بسواء.

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

هذا الإنسان الذي أسرّ القول أو جهر به، أو الذي استخفى بالليل أو ظهر بالنهار..

(لَهُ)

كل إنسان معه ملائكة تتعقب أعماله:

أي أن الله سبحانه وتعالى قيّض له، قيّض لهذا الإنسان ملائكة تتعقّب أعماله..

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)

أينما ذهب، وأينما جلس، وأينما سافر، أينما حل، وأينما ارتحل، عن يمينه، أم عن شماله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (4- 9) : تفسير الآية 11 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-08-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)

(سورة الرعد: الآية 11)

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

المستخفي بالليل والسارب بالنهار له ملائكة تحصي عليه كل شيء:

هذا الإنسان الذي أسرّ القول أو جهر به، أو الذي استخفى بالليل أو ظهر بالنهار.

(لَهُ)

أي أن الله سبحانه وتعالى قيّض له، قيّض لهذا الإنسان ملائكة تتعقّب أعماله..

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)

أينما ذهب، وأينما جلس، وأينما سافر، أينما حل، وأينما ارتحل، عن يمينه، عن شماله..

(مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ)

يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ

معنى الحفظ من أمر الله:

هذه لها معنيان، إما أنهم يحفظون عمله، أو أنهم يحفظونه ـ من الحفظ ـ هذا أجله لم ينته، يُحْفَظ من أي حادث، يقول لك: كنت سأموت، يحفظونه إما أنه حفظ العناية، أو حفظ الرَقابة..

(يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

هؤلاء الملائكة من أمر الله يحفظونه..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

إنّ اللّهَ لَا يُغيّرُ مَا بقوْمٍ حَتّى يُغيّرُوا مَا بِأنفُسِهِمْ

نحن جميعاً نُحِبُّ أشياء ونكره أشياء، فإذا أطعنا الله عزّ وجل أعطانا ما نحبُّ وصرف عنّا ما نكره، وإذا عصينا الله عزّ وجل زوى عنّا ما نحب وساق إلينا ما نكره ذلك:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَفلا يَلُومَنّ إِلا نَفْسَهُ))

[صحيح مسلم: عن " أبي ذر]

فإذا أطعنا الله عزّ وجل ساق لنا ما نحب و صرف عنّا ما نكره، وإذا عصيناه ساق إلينا ما نكره وما أكثر ما نكره، وصرف عنّا ما نحب، وكما جاء في الحديث القدسي:

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب المُلُوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسخطة والنِقْمَة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك، وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم))

[ورد في الأثر]

هذه الآية تحل آلاف المشكلات:

(إنّ اللّهَ لَا يُغيّرُ مَا بقوْمٍ)

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

(إنّ اللّهَ لَا يُغيّرُ مَا بقوْمٍ حَتّى يُغيّرُوا مَا بِأنفُسِهِمْ)

غير ما بك حتى يغير الله:

الله لا يغيّر حتى تغيّر؛ إذا كنت في بحبوحة وفي سعادة، في وفاق زوجي، في عمل مريح دخله كبير، ولم تغيّر، بقيت مستقيماً على أمره، شاكراً لهذه النِعَم، مجاهداً لنفسك وهواك ؛ الله لا يغيّر من حسنٍ إلى أحسن، وإن كان الإنسان في ضائقة، في مشكلة، في أزمة، فالله سبحانه وتعالى لا يزيح عنه هذه الأزمة حتى يغيّر، حتى يتوب.

الآية لها معنيان متعاكسان: إن الله لا يغيّر حتى تغيّر، لا يغيّر من حَسَن إلى أسوأ حتى تغيّر من طاعة إلى معصية، ولا يغيّر من سيئ إلى حَسَن حتى تغيّر من معصية إلى طاعة، لا يغيّر حتى تغيّر، أنت

الأصل، غيّر يغيّر، لا تغيّر لا يغيّر:

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

(سورة الأنفال: من الآية 19)

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من الآية 5)

القضيّة واضحة كالشمس..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

إذا ما غيّروا ما بأنفسهم..

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ

لا أحد يضر إلا بإذن الله:

لو أن أهل الأرض اجتمعت على أن يمنعوا عنك شيئاً قدّره الله عليك لا يستطيعون.

فرعون رأى في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على مُلكه، فأمر بقتل أطفال بني إسرائيل كلِهم، أما الذي سوف يقضي على مُلكه ربّاه في قصره..

(فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

(سورة القصص: الآية 8)

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

لأتفه الأسباب تدفع أبهظ الأثمان، لأتفه الأسباب، بغلطة، أحياناً ترى واحداسها فصار في حالةٍ يرثى لها في الطريق، غفل فنام، سيارته، أولاده، زوجته، هذه ميتة، وهذه كسر، وهذه مستشفيات، سهوة خفيفة، لأتفه سبب تدفع أبهظ ثمن..

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

يؤتى الحذر من مأمنه:

((إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

" يؤتى الحذر من مأمنه ".

يجعل الله تدميره في تدبيره، يفكِّر فيفكِّر فيفكِّر، ويدبِّر ويدبِّر ويدبِّر فيكون هلاكه في هذا التدبير.. أغنى أغنياء العالَم روتشلد اليهودي عنده مستودع ضخم للذهب.. سبائك الذهب.. كانت الحكومة البريطانيّة تقترض منه أحياناً، دخل إلى المستودع فأُغْلِقَ الباب وراءه، صاح ولم يسمعه أحد، أمضى أيّاماً ثلاثة في داخله، أوشك على الموت، فجرح أصبعه وكتب على الجدار: " أغنى رجل في العالَم يموت جوعاً "، مات جوعاً.

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

تسمع خبراً أن هذه الطائرة احترقت ومات كل ركّابها، باب الطائرة لم يكن مغلقاً إغلاقاً محكماً، أو الجهاز الفلاني تعطّل..

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

أحياناً مزرعة تكون تكلِفتها خمسمائة ألف..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19))

(سورة القلم)

خلال دقائق ينزل صقيع فتحترق كل الثمار..

(فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ)

(سورة البقرة: الآية 266)

فالإنسان..

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

هذه الآيات تكفي..

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 12 – 16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-08-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي من سورة الرعد إلى قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا)

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا

الله يعرِّفنا بذاته :

أما كلمة هو فكمثيلاتها ..

(المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

هذا الذي أنزل إليك من ربك، أي هذا القرآن من عند ربك، مَنْ ربك ؟

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ)

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ)

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ)

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى)

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى)

لا زال الله سبحانه وتعالى يعرفنا بذاته ، أي أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا، هذا المنهج الذي أنزله الله إلينا هو من عنده من عند خالق السماوات والأرض، من عند رافع السماوات بغير عمد .

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا)

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا

البرق فيه خوف من عقاب وطمعٌفي غيث وماءٍ :

خوفاً من أن يكون صاعقة قاتلة، وطمعاً في أن يكون وراءه سحابٌ ثقيل، مُثْقَلٌ بالأمطار، تخافون الصاعقة أن تميتكم، وتطمعون بالماء أن يحييكم .

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا)

الإنسان في الدنيا بين الطمع والرجاء :

والإنسان في هذه الدنيا يجب أن تكون حالته النفسية مع الله سبحانه وتعالى بين الخوف والطمع، بين الرجاء وبين الحَذَر، بين التفاؤل وبين القلق، التفاؤل المفرط يهلك صاحبه، والتشاؤم الشديد يُثَبِّطُ عزيمة صاحبه، لابدَّ من تفاؤلٍ وتشاؤم، من رجاءٍ وخوف، من قلقٍ وطمأنينة .

الله سبحانه وتعالى جعل البَرْقَ فيه صاعقة قاتلة، وفيه سحابٌ ثقال، مُثْقَلَةٌ بمياه الأمطار .

(يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

بعد البرق ينشأ السحاب المثقل بالماء :

في أعقاب البرق ينشأ السحاب الثقيل بالمياه التي إذا نزلت على الأرض اهتزت وربَت، وأنبتت من كل زوج بهيج، معنى الثقال أي هذا السحاب ثقيلٌ بالمياه، حيثما كانت المياه كانت الحياة، وحيثما قلَّت المياه بدا القلق على الوجوه، بساتين كثيرة في الغوطة مهددة باليَبَس، لأن شح المياه في هذا العام كان إلى حدٍ كبير ..

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

(سورة الذاريات)

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ)

حتى الرعد يسبح بحمد الله :

الرعد شيء، والبرق شيءٌ آخر، احتكاك السحب بعضها ببعض له ظاهرتان؛ الرعد ظاهرة، والبَرق ظاهرة، الرعد صوت البرق، والبرق ضوء الرعد؛ ولأن الرعد صوتٌ، والصوت ينتقل ثلاثمائة

وثلاثين متراً في الثانية الواحدة، بينما الضوء ينتقل ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، لذلك نحن نرى ضَوْءَ البرق قبل أن نسمع صوت الرعد، يؤيد هذا قوله تعالى :

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا)

(سورة السجدة : الآية 12)

حينما قدَّم الله سبحانه وتعالى البصر على السمع؛ معنى ذلك أن سرعة الضوء أكبر بكثير من سرعة الصوت .

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

هذا هو الله ربُّ العالمين .

هذا السحاب من صنعه، وهذا البرق من صنعه، وهذا الرعد من صنعه، والله سبحانه وتعالى يتجلَّى باسم القوي فيكون الرعد، كأن آلاف القنابل تتفجَّر في جو السماء، قد يظن الإنسان أن قصفاً شديداً حل بالمدينة حينما يستمع إلى صَوْتِ الرعد، وأما البرق فمن شدة اللَّمعان يخطف الأبصار، البرق ضوء الرعد، والرعد صوت البرق، والصوت والضوء متباينان في السرعة .

معنى تسبيح الرعد بحمد الله :

أما قوله تعالى :

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ)

بعض العلماء قالوا: يسبِّح سامع صوت الرعد بحمده .

وبعضهم قال: الرعد نفسه نَفسٌ يسبِّحُ بآلاء الله .

وبعضهم قال: إن صوت الرعدِ دليل كمال الخلق؛ فكمال الخلق تسبيحٌ لعظمة الصانع، لو أنك رأيت فاكهة نضرةً، كبيرة الحجم، زاهية الألوان، طيِّبَة الرائحة، عذبة المذاق، يقول عامة الناس: تسبح الذي خلقها، كيف تسبح؟ أي أن كمال صنعتها كأنه ينطق لك ويقول: سبحان الذي خلقني، فالتسبيح حمله العلماء على معانٍ ثلاثة ..

المعنى الأول :

أن سامع هذا الصوت يسبِّح بحمد الله، إذا أقبلت السحب من الغرب وكانت سوداء دَكْنَاء، وكنا على جفافٍ شديد، وعلى انتظارٍ مديد للأمطار، فلمع البرق وقصف الرعد معظم الناس يسبحون بحمد الله، يا

ربِ لك الحمد، الذي أغثتنا، فتسبيح الرعد أي تسبيح سامع الرعد، سامع هذا الصوت، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

أن لكل شيءٍ خلقه الله سبحانه وتعالى نفسًا، لقوله تعالى :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)

(سورة الإسراء : الآية 44)

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا)

(سورة الأحزاب : آية " 72)

معنى ذلك أن الجبل نفس، والأرض نفس، والشمس نفس، والبحار نفس، والهواء نفس، نفوسٌ بثّها الله سبحانه وتعالى ، لكن أكرمها عليه هو الإنسان ..

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء)

فالمعنى الثاني: أن الرعد نفسه نفسٌ تسبح بحمد ربها، فإذا كان الطير يسبِّح الله، والنمل تحت الأرض يسبِّح بحمد الله، والحوت في البحر يسبِّح بحمد الله، وكل شيءٍ ينطق بالحمد، ويلهج بالتسبيح، فما بال هذا الإنسان الغافل الذي خُلِقت كل هذه المخلوقات من أجله وسخَّرها الله له؟ ما بالها تسبِّح وهو يجحد؟ ما بالها تسبِّح وهو يكفر؟ ما بالها تسبح وهو يُعْرِض ؟!

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ)

المعنى الثالث :

المعنى الثالث: أن كمال الخلق في حَدِّ ذاته تسبيح، لو وقفت أمام قطعة أثاثٍ متقنةٍ إلى حد الخيال تتأملها، تُحِسُّ أنها تنطق، تنطق بدقة صنعة صانعها، فكمال الخلق تسبيح، وكل شيءٍ يسبح، أو سامع صوت الرعد يسبح .

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ)

التسبيح بين المعنى السلبيوالمعنى الإيجابي :

والتسبيح أيها الإخوة الأكارم له معنيان :

المعنى السلبي :

له معنى سلبي، وهو تنزيه الذات الإلهية عما لا يليق بها، سبحان الله عما يقولون .

(وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

(سورة االبقرة)

ما أبعد ذات الله العليَّة عن هذا الوصف الباطل! الله سبحانه وتعالى ليس بحاجةٍ إلى ولد، لم يلد ولم يولد، ليس كمثله شيء، هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، لا يُسْأل عنه أين هو؟ لأنه خالق المكان، ولا يسأل عنه متى كان؟ لأنه خالق الزمان، عَلِمَ ما كان، وعَلِمَ ما يكون، وعَلِمَ ما سيكون، وعَلِمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ليس كمثله شيء، ليس مُتَبَعِّضاَ ولا مُتَجَزِّأً ولا مَعْدوداً، فالحديث عن ذات الله حديثٌ يطول، هذا معنى التسبيح، سَبِّحُّه؛ أي أن نزِّهه عما لا يليق به .

المعنى الإيجابي :

المعنى الآخر هو معنى إيجابي، سبَّح الله؛ أي جال في عظمته، فكَّر في علمه، فكر في قدرته، فكر في جماله، من أسماء الله الجميل، يتجلَّى على طائر فيأخذ بالألباب، لا تستطيع أن تصرف النظر عنه لجماله، يتجلَّى باسم القوي فيكون الرعد، يتجلى باسم الواسع فيكون البحر، يتجلى باسم العليم فيكون بعض علم البشر، فأسماء الله سبحانه وتعالى كلها حسنى .

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف : الآية 180)

(قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الإسراء : الآية 110)

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ(12)وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ)

الخوف الخوف درجات :

والخَوف درجات؛ قد يخاف العَبد عقاب سيِّدِهِ، هذه درجة، وقد يخاف العاشق أن تنقطع الصِلَةُ بمعشوقه، وهذا خوفٌ من مستوى أرقى، وقد يخاف المؤمن أن تنقطع صلته بالله عزَّ وجل، رأس الحكمة مخافة الله، الحكمة كأنها جسد أنبل ما فيها رأسها، رأس الحكمة مخافة الله، لذلك الذي يخاف الله هو العاقل، والذي لا يخافه هو الأحمق وهو الغبي، وهل يعقل أن ترى إنساناً حَصَّلَ أعلى الشهادات

وهو يعصي الله؟ نعم، نقول: هذا الإنسان حَصَّلَ شهاداتٍ عُليا ابتغاء الدنيا، ولكن لأنه لم يستقم على أمر الله فإنه موسومٌ بالغباء أو بنوعٍ من أنواع الغباء، لقوله عليه الصلاة والسلام :

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله ، وكفى به جهلاً أن يعجب بنفسه))

[الجامع الصغير عن مسروق مرسلا]

(وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ)

وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ

خطورة الصواعق :

هذه الصاعقة قد سمعت أنها أحياناً تبلغ عشرات ألوف الفولطات، نحن إذا كان شدة التيار مائتين وعشرين فولطاً فهو خطر، مائة وعشرة أسلم، لكن هناك ستة آلاف فولط، وعشرة آلاف فوط، فالصاعقة تكفي أن تجعل الإنسان قطعةً من الفحم في ثانية واحدة، وأحياناً تصيب الصاعقة منزلاً فتحرقُهُ، لذلك يضعون في أسقف المنازل عموداً حديدياً ليأخذ الصاعقة وينقلها إلى باطن الأرض، يضعون في أسفل بعض الشاحنات قطعة من حديد كي تنقُل الصاعقة إلى الأرض، هذه الصاعقة تيارٌ عالٍ جداً إذا أصاب شيئاً أحرقه عن آخره .

(وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ

معنى : شديد المِحال :

معنى المِحال أي المَكر، ومكر الله سبحانه وتعالى غير مكر الإنسان، الإنسان قد يمكر ليوقع الشر، قد يمكر ليقوى على خصمه، إذاً هو ضعيف، قد يَمْكُر ليصل إلى هدفٍ خسيس، ولكن الله سبحانه وتعالى يمكر لصالح الإنسان ..

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

أي أن الله سبحانه وتعالى يعود مكره بالخير على كل الناس، كما أن القاضي إذا أصدر حكماً بالإعدام على إنسان، لا يسمَّى القاضي قاتلاً، وإنما يسمَّى حاكماً، كذلك ولو أن الله سبحانه وتعالى قال في قرآنه

الكريم، في كتابه العزيز .

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)

ولكنه لا يجوز أن تشتق من هذا الاسم أو من هذا الفعل اسماً لله سبحانه وتعالى، لا يقال: الله ماكر، لأن مكر الله سبحانه وتعالى من طبيعةٍ وهدفٍ مختلفٍ عن طبيعة مكر الإنسان وهدفه، من طبيعةٍ أخرى، مكر الله أقرب إلى التدبير ..

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)

إن الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا، فإذا مكر المشركون أو الكفار بمؤمنٍ؛ الله يمكر له، معنى يمكر له؛ أي يدافع عنه، يُحْبِطُ خططهم، يُنهي مؤامراتهم، يُعيق إرادتهم، لا يوقعها، لا يسمح لها أن تقع، مكر الله سبحانه وتعالى لصالح المؤمن، ولصالح الكافر؛ لصالح المؤمن يحميه من خطة الكافر، ولصالح الكافر يرديه لعله يتوب إلى الله سبحانه وتعالى .

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

خطر في بالي مثل.. لو أن مواطناً رأى على أحد جدران المدينة قراراً يمنع التجوُّل، تحت طائلة إطلاق الرصاص؛ لو أنه وقف أمام هذا البلاغ وقرأه بتمَعُّن، ودرس نوع الخط، ودرس نوع الورق، وبدأ يجادل أهذا التوقيع صحيح أم غير صحيح، مزور، هذا خط مطبعة، خط خطاط، صف حروف، كيف طبع؟ أين طبع؟ متى طبع؟ إلى أن جاءت رصاصة فأردته قتيلاً ..

(وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ)

الجاهل يجادل في الله :

يناقشك في آخرة، لا يوجد آخرة، بعد أيام نعيه على الجدران، يأخذه الله وهو يجادل، يأخذه وهو يرد الحق، يأخذه وهو يشكك في الدين، يأخذه وهو يضل الناس، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

لذلك الإنسان له حدود، ومن تجاوز حدوده وقع في شَرِّ أعماله، رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده، ولم يتعدَّ طوره، حدود الإنسان تتضح في آيتين، الأولى قوله تعالى :

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

مهمة الإنسان أن يعبد الله :

تنحصر مهمة الإنسان في طاعة الله سبحانه وتعالى، فإذا أطاع الله سبحانه وتعالى جاءته الخيرات من كل جانب، إذاً عليه أن يشكر المولى على كل ما أولى .

مهمَّتُكَ أن تعرفه، فتعبده، فتشكره، لا تحشر أنفك في شؤونه، فلان كافر أم مؤمن؟ هذا من شأن الله سبحانه وتعالى، لا تزكّوا أنفسكم، ولا تزكوا على الله أحداً .

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

آيةٌ ثانية في المعنى نفسه :

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ)

(سورة البقرة : الآية 134)

أعمالها لها، وأعمالكم لكم، لن ينفعكم عملها، ولن يضُرَّكُم عملها، أما أنتم ما عملكم؟ فلذلك ربنا عزَّ وجل يقول :

(وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

أي اعبده واشكر نِعَمَهُ، هاتان المهمتان التي أمرك الله بهما .

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ)

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ

المعنى الأول : الحق واحد ، والباطل متعدِّد :

الحق واحد لا يتعدد، والحق من الحق سبحانه وتعالى، ولا حق إلا من الحق، الحق من الحق، الحق ما جاء به ربنا سبحانه وتعالى، ما جاء به في كتابه ..

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

(سورة يونس : الآية 32)

بين نقطتين لا يمر إلا مستقيمٌ واحد، المستقيم الثاني يجب أن ينطبق على الأول، المستقيم الثالث يجب أن ينطبق على الأول والثاني، إذا كان الخط مستقيماً، ولكن بين هاتين النقطتين تمرُّ آلاف الخطوط المنحرفة والمنحنية والمنكسرة، لذلك :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام : الآية 153)

معنى ذلك أن الباطل متعدد، الباطل متنوِّع، الباطل نسبي، الانحراف نسبي، أما الحق فواحد، الحق قَطْعِي، الحق له حدٌ لا يزيد ولا ينقص .

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ)

الحق من عنده، وليس من غيره، فأي مذهبٍ في الأرض لا يعتمد منهج الله منطلقاً فهو باطل ..

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ)

(سورة المائدة : الآية 47)

وفي آية أخرى :

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ)

(سورة المائدة : الآية 45)

وفي آية أخرى :

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ)

(سورة المائدة : الآية 44)

لأن الحق هو الحق لا يتبدل ولا يتغير ولا يتعدد .

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ)

هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : لا يستجيب لك إلا الله :

المعنى الثاني: أنك لن تدعو أحداً في الكون ويستجيب لك إلا الله، الدعوة له، الدعاء له وحده، فإذا دَعَوْتَ غيره أصابك الإحباط، إذا دعوت غيره فلن تستفيد شيئاً .

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ)

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف لك من نيته، فتكيده السموات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين يديه، وأرسخت الهوى من تحت قدميه، وما من عبد يطعيني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، وغافر له قبل أن يستغفرني))

[من الجامع الصغير : عن " كعب بن مالك]

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ)

أي أن الحق من عنده وحده، والدعاء إليه وحده، والرغبة إليه، والخوف منه، والرجاء له، والمحبَّة له، والإقبال عليه، والسعي له، لذلك قال عليه الصلاة والسلام في دعاءٍ بالغ الإيجاز :

((اللهم أنا بك وإليك))

أي أنا قائمٌ بك وقصدي إليك، أنا بك وإليك .

أما :

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ)

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ

أحياناً هذا الذي تدعوه من دون الله لا يسمعك، وإذا سمعك لا يستجيب لك، وإذا أراد أن يستجيب لك لا يستطيع، على ثلاث مراحل، قبل كل شيء لا يسمعك، فإذا سمعك جدلاً لا يستجيب لك، فإذا أراد أن يستجيب لك لن يستطيع أن يستجيب لك، لأن الله يحولُ بينه وبين ذلك .

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ)

كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ

ضربُ المثل بالماء بلاغة عظيمة :

لو أنني بسطت يدي إلى هذا الكأس من الماء، وطلبت منه أن يأتي إلى فمي ماذا يحدث؟ الماء لا يتحرَّك، لا يستجيب، لكن الله سبحانه وتعالى بهذا المثل البليغ أعطى الماء صفتين، الصفة الأولى أنه لا يسمع، ولا يعقل، ولا يفهم، والصفة الثانية أنه لو سمع وعقل وفهم لا يستطيع أن يأتي إلى عندي من تلقاء ذاته، فهذا الذي تدعوه من دون الله أصَمٌّ لا يسمع دعاءك، أبكمُ لا يجيبك، كسيحٌ لا يستجيب لك .

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ)

الفائدة من زيادة الباء :

هذه الباء زائدة زيادة نحويا، أما في البلاغة فتفيد التأكيد، أي: وما هو بالِغُهُ، فإذا قلنا :

(وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ)

فزيادة هذه الباء لتأكيد عدم نسبة هذا المبتدأ إلى ذلك الخبر .

(وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

الدنيا سنوات معدودة فاغتنمها :

هناك مثل أريد أن أطرحه أمامكم.. لو أن إنساناً بلغ به العطش أنَّه أوشك على الموت، وقد قدَّر له الأطباء ساعةً من الزمن إن لم يشرب الماء مات من فوره، وأمامه سبعة طُرُق، ينتهي كل طريقٍ بمكان، الماء في أحد هذه الأمكنة، فاختيار الطريق أليس اختياراً مصيرياً؟ لو سار في طريق ليس فيه ماء لأمضى الساعة في الطريق وفي نهاية الطريق مات عطشاً، ما دام هناك ساعة من حياته إذا صرفها في طريقٍ لا ماء فيها هَلَك، إذاً: مثل هذا الإنسان الذي يوشك أن يموت عطشاً، والذي أمامه سبعة طرق، والماء في مكانٍ في أحدها فقط، كيف يختار أحد هذه الطُرُق؟ كله آذان كما يقولون، لكن الحياة الدنيا هي أخطر من هذه الحالة ..

الدنيا سنواتٌ معدودة، إما أن تمضيها في طاعة الله فتسعد إلى الأبد، وإما أن تستهلكها استهلاكاً رخيصاً فيمضي هذا العُمُر، وتنتهي الحياة، ويجد الإنسان أن جهنم مأواه خالداً فيها أبداً، بحريقها، وعذابها، وشدَّتها لا يموت فيها ولا يحيا، لا يُفَتَّرُ عنهم العذاب، فلذلك القضية خطيرة جداً، فالقضية أخطر من أن أحدكم جاء إلى هذا المسجد، واستمع إلى درس ممتع وانتهى الأمر، هذا الشيء الأمر أخطر بكثير، الأمر مصيري، أي إما أن تسعد إلى الأبد، متى؟ منذ هذه اللحظة وإلى الأبد، وإما أن يصم الإنسان أذنيه فيشقى في حياته الدنيا وإلى الأبد .

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

(سورة الانفطار)

الآية مطلقة، في الدنيا في نعيم، وفي الآخرة في نعيم ..

(وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

(سورة الإنفطار)

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ

السجود هنا له معنيان :

المعنى الأول للسجود :

كل مخلوقٍ يسجد لله عزَّ وجل، معنى يسجد؛ أنه محتاجٌ لفضل الله، محتاجٌ لإمداد الله .

فالنبات يسجد لله بمعنى أنك لو قطعت عنه الماء يَبِس، والحيوان يسجد لله، بمعنى لو أن الله سبحانه وتعالى قطع عنه الإمداد يموت، والجَبَلُ يسجد لله سبحانه وتعالى بمعنى أن الله لو لم يشأ لذرَّاته أن تكون جبلاً لما كانت جبلاً، فهو قائمٌ بالله، فلو أن الله سبحانه وتعالى قطع عنه إمداده ما بقي الجبلُ جبلاً، ولا الحديد حديداً، ولا الخشب خشباً، ولا الماء ماءً .

إذاً: الله سبحانه وتعالى يسجد له كل شيء، سجود الافتقار، سجود الحاجة، فالكافر بهذا المعنى يسجد، لو أنه ضاق نَفَسَهُ لصاح مذعوراً، لو أنه مُنِعَ عن الطعام والشراب لأكل القمامة، لو أنه منع عن الماء لشرب بوله، هذا ما يحدث، فالإنسان مفتقر، الله موجود، والإنسان موجود، كيف يفترق الإنسان في الوجود مع الله سبحانه وتعالى؟ فرقٌ كبير، وجود الله ذاتي، لكن وجود الإنسان فيه افتقارٌ إلى الله سبحانه وتعالى.. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.. فنحن مفتقرون .

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)اللَّهُ الصَّمَدُ)

(سورة الإخلاص)

معنى الصمد أنه ذاتيُّ الوجود، ليس وجوده مفتقراً إلى غيره .

إذاً :

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذا سجود الحاجة، سجود الافتقار، لكن المؤمن يسجد لله طوعاً، هذا سجود العبادة، أي أنك إذا وقفت في الصلاة، وقرأت الفاتحة وسورة، وركعت، وبعدها سجدت فهذا سجود العبادة، هذا السجود الطَوْعِي، ولكن حاجتك إلى الماء، وإلى الهواء، وإلى الطعام، هذا سجود الإكراه، كل مخلوقٍ يسجد لله سبحانه وتعالى مُكرهاً، لكن الإنسان المؤمن يسجد له طوعاً، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني للسجود :

المعنى الآخر قالوا : سجود المنافق كرهاً ، والمؤمن يسجد طوعاً. وقال بعضهم : سجود الكافر كرهاً، والمؤمن طوعاً، على كلٍ السجود بمعناه الواسع الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى، إما أن تعرف أنك فقير، فتعلن عن فقرك لله عزَّ وجل، وهذا سجود العبادة، وإما أن تجهل هذا الفقر، فحينما تُحِسُّ به، وأنت في الشدة فهذا سجود الإكراه .

وهناك علماء قالوا: إن الكافرين إذا ألمَّت بهم الشدة دعوا الله مخلصين، إذا كان في طائرة، وقال ربان الطائرة: إننا في خطر، ضعوا أحزمة الأمان، ترى الوجوه قد اصفرت، والألسُنَ قد لَهَجَت بالدعاء، وقد يكون الدَّاعي مُلْحِداً، وقد يكون الذي يرجو ربَّه كافراً، يقول: يا رب، حتى إذا أدرك الخطر قال: يا رب**!!** هو في الأرض لا يعرف الله سبحانه وتعالى، فإذا ركب البحر، أو ركب مثنَ الجو أحس بالخطر**!!** هذا المعنى الرابع، سجود الكافر عند الضرورة سجود إكراه، ولكن المؤمن يعرف الله في الرخاء قبل أن يعرفه في الشدة، من عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة .

(وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ)

وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ

أي أنك تسجد أنت وظلك، والظل يسجد معك، حتى الظل شيء وهمي، فالظل ليس شيئاً لكن حجب الضوء يعد ظلاً، حتى الظل يسجد معك .

(بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ)

أي صباحاً ومساءً، كناية عن الديمومة والأبدية .

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ

سؤال وجواب :

الله سبحانه وتعالى يسأل البشر :

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

بعضهم قال :

(قُلِ اللَّهُ)

أي أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيَّهُ عليه الصلاة والسلام أن يجيب هذه الإجابة، أي إن هذا السؤال، هذا جوابه، وبعضهم قال: إن هذه الآية تعني أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما توجَّه بالسؤال لكفار قريش :

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

قالوا: الله، كيف تقولون: الله، وتتخذون من دونه أولياء؟! هذا هو التناقض، فأبشع صفةٍ في العقل البشري هو التناقض، كيف تقول: أنا مسلم وتعصي الله؟! كيف تقول: هناك آخرة ولا تعمل لها؟! كيف تقول: هناك موت ولا تخاف الموت ولا تستعد له؟! فهذه المسافة الكبيرة بين ما تقول وبين ما تفعل، بينما تعتقد وبين ما تسلك، فهذه مسافة تجعل من الإنسان إنساناً متناقضاً، والتناقض صفة ليست مقبولة في الإنسان، الانسجام بين المعتقد والسلوك، بين المُنْطَلَق والهدف، بين القيم وبين المطالب انسجام واجب، فلذلك :

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

معنى الربوبية :

معنى الرب؛ المُمِد، مَن يمد السماء بهذه الكواكب؟ مَن أعطى الشمس هذه القدرة؟ لا زالت متَّقدة منذ خمسة آلاف مليون سنة على تقدير بعض العلماء، ويتوقع العلماء أنه لخمسة آلاف مليون سنة قادمة تبقى متألّقة، مَن أمدها بهذه الحرارة؟ من أمد الكواكب السيَّارة بهذه القدرة على الحركة؟ من خلق الهواء؟ من جعله متوازناً؟ من أمَدَّنا بهذه الحيوانات نأكل منها، نستخدم جلودها، أوبارها، أصوافها، ألبانها، أحشاءها، لحمها، من يمد؟ من أمدنا بهذه الأسماك؟ من جعل البحر ملحاً أجاجاً؟ وجعل الأنهار عذباً فراتاً؟ من؟ الله سبحانه وتعالى :

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

من خلق الطير؟ من خلق الحيتان في البحر؟ من خلق الجبال؟ من خلق الشمس والقمر؟ من أمد الأرض بالحركة؟ والشمس بالحرارة؟ والإنسان بالحياة، والنبات بالنمو، والحيوان بالحركة ؟

(قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

هؤلاء لا يملكون النفع والضر لأنفسهم فكيف يملكونه لغيرهم؟

يا لله لبلاغة القرآن! لم يقل الله عزَّ وجل: لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ..

(لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ)

إن كانوا لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فمن باب أولى أنهم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضرا، هذا الذي تعبده من دون الله لا يملك أن يعيش ساعة، لو توقّفت إحدى كليتيه لصار في حالةٍ يرثى لها، لو تجمَّدت نقطة دمٍ في شرايين مخه لأصيب بالشلل، أو العمى، أو الصمم، أو اختل عقله، أو ضعفت ذاكرته .

توفي صديق ـ رحمه الله ـ له معمل، خرج من معمله بسيَّارته متوجِّهاً إلى بيته، ضاع عن بيته، بقي ساعتين يبحث عن بيته، هذا أدق مرض في الذاكرة، أصاب صديق جزءاً من الذاكرة، يعرف بيت ابنه، زار ابنه، أما بيته فما عرفه، ذهب إلى ابنه، وقال له: يا بني أين بيتي؟ بعد أشهر توفي ..

(لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

لا تزال أمراض مستعصية على معرفة السبب.. الكليتان تتوقفان فجأةً عن العمل تحت اسم: هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، لماذا؟ لا نعرف.. نقي العظام يتوقف فجأةً عن صنع كريات الدم الحمراء، ينتهي الإنسان، لماذا؟ لا نعرف، الخلايا تنمو نمواً عشوائياً في أي مكان في الجسم، في الدم، في العظام، في الأحشاء، في اللسان، في الحَنْجَرَة، في أي مكان، لِمَ؟ لا نعرف، متى؟ لا نعرف، ما السبب؟ لا نعرف، فهؤلاء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً كيف نعبدهم من دون الله؟

أحد الأمراء قيل أنه أراد أن يوقع ببعض النجَّارين، فأمره أن يأتِ بخمسين كيس من النشارة خلال يومٍ واحد، وهذا شيء مستحيل فإن لم يأت يقتله، عرف أنه مَيِّتٌ لا محالة، فتوجَّه إلى البيت، وأوصى، وودع أولاده، وهو ينتظر أن يأتوا به ليقتلوه، لاستحالة أن يأتي بهذا العدد الكبير، في الصباح الباكر طرقوا بابه، قيل له: تعال، مستعد، لكنهم قالوا: تعال اصنع تابوتاً لهذا الأمير لقد مات!! هذا الذي تخافه، أو هذا الذي ترجوه، أو هذا الذي تعمل له، أو هذا الذي تُرضيه، أو هذا الذي تسعى إليه، أو هذا الذي تعلّق كل الآمال عليه، هذا إنسان لا يملك لك نفعاً ولا ضراً، ولا حياةً ولا نشورا، ولا رزقاً ولا أي شيء .

(قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)

كيف تتخذون مثل هؤلاء أولياء؟!

أحياناً الإنسان يَتَّكِئُ على والده، يكون والده ميسور الحال وله مكانة اجتماعية كبيرة، فيتكئ على والده، بين لمحة عينٍ، في لمح البصر يصبح أبوه في عداد الموتى، أحياناً يتكئ على قريبٍ له في مركز مهم، يموت هذا القريب، فأي إنسانٍ تتخذه من دون الله، أحياناً الإنسان يعتمد على زوجته اعتماداً كبيراً، يصيبها مرضٌ عضال، قد يعتمد على ابنه، فيسافر ولا يعود، إلى أن صار في هذه السِن بذل الغالي والرخيص، فإذا صار في بلدٍ أجنبي، تجنَّس بجنسيةٍ أجنبية، وتزوَّج هناك ولم يعُد، خَيَّبَ ظن أبيه،

فلذلك :

﴿ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾

لا تطع أحدا في معصية الله :

أحدهم عليه زكاة ماله، منعته زوجته، حملته على أن لا يدفع زكاة ماله، أقنعته، أولاده صغار، أولاده بحاجة ماسة، وهو يملك النصاب، ما الذي حدث؟ وهو يقود سيارته أرتكب حادثاً دفع لإصلاح السيارة المبلغ الذي كان سيدفعه زكاة ماله بالضبط، بالتمام والكمال، هل مَلَكَت زوجته أن تمنعه من هذا الحادث؟ لا، لذلك حينما طَلَبَتْ زوجة أحد أصحاب رسول الله شيئاً لا يرضي الله، قال: " اعلمي يا فلانة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهُن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن أهون من أضحي بهن من أجلكِ " .

سيدنا سعد قالت له أمه: " لا آكل الطعام حتى تكفر بمحمد "، فقال هذا الصحابي الجليل: " يا أماه لو أن لكِ مائة نفسٍ فخرجت واحدةً واحدة ما كفرت بمحمد، فكلي إذا شئت أو لا تأكلي "، لكنها أكلت بعد ذلك .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُأَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّور

لا يستوي المؤمن وغير المؤمن :

هل الأعمى والبصير يستويان؟! المؤمن بصير، والكافر أعمى، اعمل موازنة في حياتنا بين البصير وبين الأعمى، هل يتمتَّع الأعمى بلون الأزهار، هل يعرف جمال الربيع؟ هل يعرف جمال زُرْقَة السماء؟ زرقة البحر؟ خضرة الأرض؟ هل يعرف جمال الوجه الصبيح؟ هل يرى طريقه؟ هل يرى ألوان الطعام وقد ازَّيَنَت؟ لا يرى شيئاً، هل يعرف أن هذه السجادة ثمينة؟ منظرها غائبٌ عنه .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾

المؤمن بصير، والكافر أعمى .

﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾

الكافر في ظلمات بعضها فوق بعضها إذا أخرج يده لم يكد يراها، لا يرى شيئاً .

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة : الآية 257)

المؤمن بعد أن عرف الله، وعرف كتابه يسير على هدى، ولكن الكافر كالناقة العشواء تسير في هذا الطريق فإذا هو مسدود، من هذا الطريق فإذا فيه هاوية، من مصيبةٍ إلى آخر، من إحباطٍ إلى آخر، من مشكلةٍ إلى مشكلة، من ورطةٍ إلى ورطة، من شقاءٍ إلى شقاء، يطلّق زوجته، ويضيِّع أولاده، ويرتكب مخالفة في عمله، يُطْرَد من وظيفته، تحيقُ به المصائب، تحيط به المِحَن .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ)

أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ

سخرية القرآن من المشرك :

هذا من باب السُخْرِيَة بالكافر، هل لآلهةٍ أخرى خلقٌ كخلقي، وأنت في حيرة من أمرك؟ لو أن هناك آلهة ولهم نجوم خاصة بهم، ولهم كواكب خاصَّة بهم؟ لهم أنواع من النباتات هم خلقوها، أنواع من الحيوانات هم خلقوها تقع في حيرة، أخي والله احترت، من أعبد؟ هذا خَلْقُ من؟ أي إلهٍ خلقه؟ لو أن هذا وقع معك بعض الحقِّ في حيرتك، ولكن للكون خالقاً واحداً، إلهاً واحداً، رباً واحداً، منهجاً واحداً، نبياً واحداً، فهو كل شيء، والذين تعبدونهم من دون الله ليسوا شيئاً إطلاقاً، الله كل شيء وما سواه لا شيء .

أحياناً الإنسان يحتار.. ثلاثة شركاء اختلفوا، هذا الثالث يحتار هذا أم هذا؟ هذا أقوى، هذا المحل باسمه، هذا مليء أكثر، هذا ثري، هذا أنْعَم، فتجده يحتار، هذا شيء وهذا شيء، لكن الله سبحانه وتعالى كل شيء وما سواه لا شيء، لو أن هناك آلهة خلقوا كخلقه، تشابه الخَلْقُ عليهم، فهناك ما يبرر حيرتهم.

(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

أتمنَّى والله أن أنقل إليكم هذه الحقيقة، هذا الكون، هذه الأرض بحار ويابسة، اليابسة خمس قارات،

القارات فيها دول، فيها بيوت، فيها معامل، فيها مراكز قوى، فيها مشاريع، إذا قلت لكم: ليس في الكون إلا الله، وكل ما سوى الله سبحانه وتعالى يأتمر بأمر الله، بيد الله، لا يتحرَّك إلا بأمره، فمن الغباء والحُمْق، والسخف، أن تتجه لغير الله، يضيعُ وقتك، ويتلف عمرك الثمين، وفي النهاية تأتي يوم القيامة صِفْرَ اليدين، ليس إلا الله، إن عرفته عرفت كل شيء، وإن فاتك فاتك كل شيء، أي شيءٍ يدنيك من الله فهو حق، وأي شيءٍ يبعدك عنه فهو باطل .

أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

بقيت آية واحد أُرْجِئ شرحها لدرسٍ قادم، ولكن سأقرأها لكم :

(أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)

لا فائدة من الزبد :

يعني على هذا السيل زبدٌ يطفو، ويعلو، وينمو، ويكبر حتى أنك تراه شيئاً كبيراً، وقد لا ترى الماء ..

(فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)

مثل آخر :

(وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ)

العاقل يختار الذهب على الزبد :

أي الذهب، والفضة، والحرير، يؤخذ فلزات، توضع هذه الفلزات في أفران عالية الحرارة فتصهر، فسائل الحديد أو الذهب أو الفضة يعلو هذه السوائل، وما أكثرها تعلو، تطغى، تكبر، تنمو، حتى تحجب الناظر عن الحديد أو الذهب أو الفضة، قال :

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً)

الباطل يذهب ويبقى الحق شامخا :

في السيل الزبد يذهب جفاءً، وأما الماء يمكُث في الأرض فينبت الزرع، وهذا المعدن الثمين الذهب، يصبُّ في قوالب، أو في سبائك، وأما هذه الشوائب فتلقى في قارعة الطريق لا يلتفت إليها ..

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)

فالماء الذي ينساب في الأودية من دون صوت، من دون ضجيج، من دون أن تراه، ويتغلغل في باطن التربة، فتَخْضَرَ الأرض، وينمو العشب، وتورق الأشجار، وتنعقد الثمار، وأما هذا الزَبَد الذي على السيل يُلقى، لا يلتفت إليه، وكذلك سبيكة الذهب توضع في الصدور، توضع في الأماكن الحساسة، توضع في الخزائن، وأما شوائب هذا المعدن والأخلاط، والتراب وما خالطه هذا يلقى في الأرض .

القصد من هذا المثل :

ماذا قصد ربنا سبحانه وتعالى بالماء؟ وماذا قصد بالذهب والفضة والحديد؟ وماذا قصد بهذا الزَبَد إن كان على الماء أو على المعادن الثمينة؟ الله عزَّ وجل لم يبيِّن ما الذي يعنيه بالماء والمعادن الثمينة، ولا الذي يعنيه بالزبد، لكن شيء ثمين، نفيس، ينفع الإنسان، يبقى في الأرض، يمكُث إلى أمدٍ طويل .

وشيءٌ آخر، يعلو، ويعظم، وينمو، ويطغى، ولكنه لا قيمة له، لا شأن له، لا يلتفت إليه، لا أحد يعبأ به، يُلقى في مكانٍ مهمل، لا أحد يأخذه، ما هذا الذي يبقى في الأرض، وينفع الناس وهو ثمين من دون ضجيج، وهذا الذي يصخب ويمقته الناس، ويلقونه خارج بيوتهم؟ هذا نجيب عنه في الدرس القادم إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 17 – 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-08-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... وصلنا في الدرس الماضي في سورة الرعد إلى قوله تعالى :

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(16)أنزَلَ)

الواحد القهَّار هو الذي ..

(أنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا)

أنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا

كلُّ شيء في الكون بقدر وميزان :

الأودية هي السيول ، والأودية مَجْرَى السيول ، ربنا سبحانه وتعالى حكيمٌ عليم ، الأمطار بقَدَر ، والأنهار بقدر ، والينابيع بقدر ..

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر)

ما من شيءٍ في الأرض زاد عن حدِّه إلا انقلب إلى ضدِّه؛ بُعْدُ الأرض عن الشمس، بُعْدُ الأرض عن القمر، بُعْدُ الشمس عن بقيَّة المجرَّات، نِسَبُ الهواء، طبيعة الماء، عتبة الحواس، نِسَبُ الأغذية في الفواكه والثمار، ما من شيءٍ إلا والله سبحانه وتعالى يخلقه بقدر ..

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر)

فهذه الأمطار تنزل من السماء بِقَدْرِ الأودية التي تسيل فيها ..

(أنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

هذا الماء من الله :

مَنْ فاعل أنزل؟ الواحد القهَّار، أنت كمؤمن حينما ترى المطرَ تنهمر كيف تفهم المطر؟ أن هناك منخفضاً جوياً متمركزاً فوق قبرص؟ توجَّه نحو الشرق الأدنى؟ أم ترى أن الله سبحانه وتعالى أنزل من السماء ماءً؟ لا يتعارض التفسير العلمي والتفسير الديني للظواهر الطبيعيَّة، لا يتعارضان، ولكنَّهما يتكاملان، إذا فَهِمْتَ أن المطر بفعل المنخفضات الجويَّة فهذا شركٌ بالله عزَّ وجل، أما إذا رأيت أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أنزل المطر عن طريق هذه الأسباب، وهو مُسَبِّب الأسباب فهذا هو التوحيد، أن ترى أن الله سبحانه وتعالى أنزل، الواحد القهَّار أنزل من السماء ماءً، ماءً طهورا .

هذه هي خصائص الماء :

الماء لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة له، سريع التبخُّر، سريع الذوبان، بمعنى أن أي شيءٍ يوضع فيه يذوب عدا بعض العناصر، أي أن قابليَّته لذوبان المواد فيه، هذه كلُّها خصائص لو ألغيت واحدةً منها، لو أن للماء طعماً لأصبحت جميع المأكولات بهذا الطعم، لكرهت الماء وكرهت كل شيء، لو أن للماء رائحة لما احتملت الماء، لو أن له لوناً لأصبح كل شيءٍ بهذا اللون لأن الماء داخلٌ في كل شيء..

(وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأنبياء)

ما دام الماء أحمر اللون وهو داخلٌ في تركيب الفواكه كلِّها، إذاً جميع الفواكه ترونها حمراء اللون، لو أن للماء رائحةً وهو داخلٌ في جميع المواد الحيويَّة لرأيت هذه الرائحة مشتركة، لكرهت الماء، لو أن له طعماً، لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة له .

لو أن الماء يتبخَّر بدرجة مائة، إذا نظَّفت البيت بالماء فإن هذا البيت لا يجفُّ أبداً إلا إذا سلَّطت عليه ناراً، لكنَّ الماء يتبخَّر بدرجة أربع عشرة فقط، سريع التبخُّر، سريع الانسياب، يدخل الماء في أدقِّ المَسام، لو لم يكن كذلك أي لو أنه لزج كالقطر مثلاً كيف ننظِّف به؟ كيف يكون هذا الماءُ ماءً طهوراً؟ مستحيل، يجب أن تنظِّف الأشياء من الماء عندئذٍ .

(أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

بهذه الخواص، لا لون له، لا طعم له، لا رائحة له، سريع التبخُّر، قابليَّته لذوبان العناصر فيه، انسيابه في أدَقِّ المسامات، هذه كلُّه من خواص الماء ..

(أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)

فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

ما هو الزبد ؟

أي على وجه السيل زبدٌ، حشائش، أشياء كثيرة تعلو، وتكبر حتى تحجب عن الناظر منظر الماء، قال عليه الصلاة والسلام :

((يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[أبو داود عن ثوبان]

فهذا الشيء الذي يعلو سطح السيل هو الزبد، أو هو الغثاء، في هذه الآية سمَّاه الله سبحانه وتعالى :

(زَبَدًا رَابِيًا)

يعني عالياً، نامياً، كثيراً، كبيراً قد يحجُب عنك منظر الماء، وسمَّاه النبي عليه الصلاة السلام :

((غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ))

لا قيمة له، لا وزن له، لا ثمن له، لا ينفع الناس، لا يستخدمه الناس، لا يعبأ به الناس، لا يُعْنَوْنَ به..

(فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ)

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ

أهمية تخليص الذهب والحديد من الشوائب :

أي فلزات الذهب وفلزات الفضَّة إذا وُضِعَت في الأفران العالية من أجل أن تتميَّز الشوائب عن الذهب الخالص، وكذلك ابتغاء حليةٍ أي الذهب والفضَّة ..

(أَوْ مَتَاعٍ)

أي الحديد، أي أن هذه المعادن لو أن الله سبحانه وتعالى جعلها على شكل سبائك صافية، لو أن جبلاً من الحديد تصوَّر أنه يستحيل استخدام هذا الحديد، لكنَّ الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعل الحديد على شكل فلزات مع التُراب، تحفر التراب، وتنقل التراب، تضع التراب في الأفران العالية، ينصهر الحديد، يرسو في قعر الفرن، ويبقى الزبد في الأعلى، بهذه الطريقة يمكن استخدام هذه المعادن النافعة

التي أوجدها الله على شكل فِلزات مختلطة بالتراب ..

(وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ)

لو نظرت إلى الفرن العالي لرأيت الشوائب، والتراب، والأجسام الغريبة التي لا علاقة لها بالحديد تعلو، وقد تنتفخ، وقد تربو حتى لتحجب عنك منظر الحديد نفسه، أو منظر الذهب نفسه، أو منظر الفضَّة نفسها ..

(وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ)

زبد السيل وزبد المعادن الثمينة ..

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ)

مضرب المثل :

الحقُّ كالماء، الحقُّ كالذهب، الحقُّ كالفضَّة، الحقُّ كالحديد، والباطل كالزبد الذي يعلو الماء، وكالزبد الذي يعلو الحديد والفضَّة والذهب ..

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً)

يذهب الزبد ويبقى المعدن :

يُلْقَى، يزهد الناس فيه، لا ينتبهون له، لا يُباع ولا يُشترى، لا قيمة له، لا ثمن له ..

(وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ)

يبقى الماء الذي يُنْبِتُ النبات، يبقى الحديد الذي فيه منافع للناس، يبقى الذهب كوسيلةٍ لتقييم المواد، أي يبقى الذهب والفضَّة نقدان تُقَيَّمُ بهما المواد، ولحكمةٍ بالغة الله سبحانه وتعالى جعل الحديد كثيراً، وجعل الذهب والفضَّة قليلاً! فلو عُكِسَتْ الآية لاختلَّ الأمر، هذا الذي يُستخدم كنقدٍ يجب أن يكون قليلاً، ولو أنه كان كثيراً لما كان صالحاً أن يُستخدم نقداً أو حلية، له صفاتٌ عالية .

أما الحديد فلأنَّ استعماله كثير يدخل في كل شيءٍ إذاً كان كثيراً، والحديد يصدأ، وصدأه نعمةٌ كبرى، لأن الحديد لولا أنه يصدأ لما عشنا نحن، الحديد يدخل في تركيبنا، يدخل في تركيب الكُريات الحمراء في دمنا، كيف يدخل؟ أملاح الحديد، لولا أنه يتفاعل مع الأكسجين لما كان للحديد أي فائدة لجسم الإنسان، الحديد داخلٌ في مجموعةٌ كبيرة من المواد الغذائيَّة، فالعَدَسُ غنيٌّ بالحديد، التقَّاح والسفرجل غنيَّان بالحديد والدليل: أنك لو قطعت تقَّاحة وعرَّضتها للهواء تفاعل أكسجين الهواء مع الحديد في التقَّاحة فاسودَّت، اسودادها واسوداد السفرجل واسوداد أي فاكهةٍ فيها حديد دليل وجود الحديد، وكذلك

بعض الخضراوات، إذاً تأكسده نعمةٌ كبرى من نعم الله سبحانه وتعالى .

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً)

كذلك يذهب الباطل ويبقى الحق شامخا :

أي أن الباطل له جولة ثمَّ يضمَحِل، الباطل موقَّت، الباطل طارئ، الباطل عارض، الباطل يأتي ويذهب، لكنَّ الحق مستقر ومستمر، الحقُّ يأخذ صفة الديمومة، الحق يأخذ صفة الاستمرار، الحق لا يتبدَّل، ولا يتغيَّر، ولا يقبل التعديل، ولا الحذف، ولا الإضافة، ولا التبديل، من علامات الحق أنه يَحِقٌّ أي؛ يستقر .

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)

هنيئاً لمن كان مع الحق، والويل لمن كان مع الباطل، لأنك إذا ربطت نفسك بالحق فالحقُّ أبديٌّ سرمدي، وإذا ربطت نفسك بالباطل فالباطل موقَّتٌ زائل ..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

من صفاته الأساسية المُلازمة له التي إذا فُقدت أُلغي الباطل أنه سريع الزُهوق، سريع الزوال، وشيك التحوُّل، سرعان ما ينكشف خلله، سرعان ما ينكشف خَطَلُهُ .

آيةٌ ثانية :

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى)

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى

يا سعادة من آمن لله :

يا الله، الذي استجاب لله، سارع إلى تطبيق أمره، سارع إلى تنفيذ شرعه، الذي قرأ القرآن فعمل به، الذي سمع الحق فوعاه، الذي التزم الحق، الذي سمع مُنادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمن، هؤلاء الذين استجابوا، دعاهم الله فاستجابوا، دعاهم إلى ما ينفعهم فاستجابوا، دعاهم إلى ما يسعدهم فاستجابوا..

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى)

ما هي الحسنى ؟

ما تعريف الحُسنى؟ قال بعض المفسِّرين: " خير الدنيا والآخرة، السعادة في الدنيا والآخرة " .

الحسنى هكذا على إطلاقها، الحسنى في صحَّتك، الحسنى في بيتك، الحسنى في عملك، الحسنى في نفسيَّتك؛ طمأنينة، واستقرار، وثقة، وتفاؤل، الحسنى في دخلك، الحسنى في سمعتك، الحسنى في كرامتك، الحسنى في عزَّتك ..

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى)

والحُسنى في الدنيا قبل الآخرة، وعلامة صدق إيمانك، دقَّة استقامتك، ومن نتائج استقامتك سعادتك في دنياك ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من الآية 97)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل)

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من الآية 38)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَانُ وُدًّا)

(سورة مريم)

هكذا ..

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة : من الآية 51)

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم : من الآية 47)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

من السعادةِ الطمأنينةُ وعدمُ الخوف :

هذه الآيات ومدلولاتها إذا آمنت بها فهي في حدِّ ذاتها صحَّة، صحَّةٌ لجسدك لأن أحدث البحوث الطبيَّة أن معظم أمراض القلب، وأمراض الشرايين، وأمراض الكليتين، وأمراض الجهاز الهضمي، وأمراض الجهاز العصبي، معظم هذه الأمراض سببها نفسي، القلق، الخوف، الهَم، الحَزَن، التشتُّت، التبعثر، الخوف ..

" أنت من خوف الفقر في فقر، أنت من خوف المرض في مرض، توقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها "..

هذا الخوف المدمِّر الذي دمَّر حياة إنسان القرن العشرين، هذا القلق المدمِّر علاجه الإيمان بالله عزَّ وجل، تستقر، الإيمان بالله بحدِّ ذاته صحَّة.. قال لي طبيبٌ في هذا الأسبوع: إن ضغط الدم يجب أن يسمَّى ضغط الهم لا ضغط الدم.. ارتفاع ضغط الدم يعني على رأي الأطبَّاء أن عمر الإنسان يتناقص، لابدَّ من استعمال أدويةٍ بشكلٍ مستمر، أما أحدث الكشوف فإن الاسترخاء والراحة النفسيَّة، والثقة والتفاؤل هذه الحالات النفسيَّة كافيةٌ وحدها أن تعيد ضغط الدم إلى مستواه الطبيعي، وأن تعيد ضربات القلب السريعة إلى وضعها المُعتدل .

الإيمان بالله صحة ، والشرك عذاب :

من السعيد

أيها الإخوة الأكارم... الإيمان بالله صحَّة، صحَّةٌ لهذا الجسم لأن ضغط الهموم، ضغط المُقلِقَات، الخوف، الشرك بالله، الرغبة في إرضاء الناس كلِّهم، هذا بحدِّ ذاته يسبِّب قلقاً، وحزناً، وهمًّا يضغط على الأجهزة فيصيبها بالعطب والعطل، لذلك الزُهد راحة، والتوكُّل راحة، والاستسلام لله راحة، والثقة برضاء الله راحة، والراحة صحَّة، فلو أن الإنسان آمن إيماناً صحيحاً لصَحَّ جسده ..

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

والعذاب سببٌ لمجموعةٍ كبيرةٍ من الأمراض الوبيلة .

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى)

يكفي أن تؤمن أن لك عند الله أجلاً لا ينقُص ولا يزيد، هذا الإيمان يَهَبُكَ راحةً ما بعدها راحة، لي عند الله أجل لن يتقدَّم ثانية واحدة، ولن يتأخَّر ثانية واحدة .

الإمام مالك رأى في المنام ملك الموت فقال: " يا ملك الموت كم بقي لي في حياتي؟ " فقال ملك الموت: " وأشار له بهكذا.. أي خمسة.. "، فلمَّا أفاق زادت حيرته أهي خمس سنوات؟ أم خمسة أشهر؟ أم خمسة أسابيع؟ أم خمسة أيَّام؟ أم خمس ساعات؟ أم خمس دقائق؟ فلمَّا سأل الإمام ابن سيرين عن تفسير هذه الرؤيا قال له: " يا إمام، إن سؤالك هذا من خمسة أشياءٍ لا يعلمها إلا الله "، إن لك عند الله أجلاً لا يزيد ولا ينقص، هذا يريح الإنسان.. "، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً "، الآمر هو الضامن ..

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى)

يجب أن تُحِسَّ بالحُسنى، يجب أن تشعر بالحسنى، يجب أن تذوق الحسنى، ذاق طعم الإيمان، الإيمان له طعم ..

(وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ)

وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ

المعرضون خضعوا لأهوائهم وأفكارهم :

أعرضوا عنه، أعرضوا عن الدين، أعرضوا عن كتاب الله، رفضوا هذا الشرع جملة أو رفضوه تفصيلاً، أو رفضوه جملةً وتفصيلاً، هؤلاء الذين لم يستجيبوا له، قالوا: هذا الدين لا يصلُحُ لهذه الأيَّام، قالوا: هذا الدين يطرح طُروحاتٍ غيبيَّة، قالوا: هذا الدين لا يتناسب مع عصر العلم، هؤلاء الذين لم يستجيبوا له ..

(لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ)

لا ينفع المعرضين فديةً ولو كانت ملء الأرض ذهبا :

لو أنَّ واحداً يملك مائة مليون وقال: ادفعوها كلّها وأنقذوني من هذه الورطة، كم هي الورطة كبيرة؟ كم هي كبيرة لو قال لك واحد: خذ ثروتي كلّها وأنقذني من هذه الورطة؟ يجب أن تعلم أنت علم اليقين أنه في ورطةٍ كبيرة، لو أن لهؤلاء الذين لم يستجيبوا لله عزَّ وجل ..

(مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

شركات الأرض التجارية الرابحة كلها له، والأسواق الرائجة في العواصم الكبرى كلها له، والفنادق الكبرى في الأرض كلها له، وكل البيوت له.. تصوَّر لو أن للإنسان شارعاً بأكمله على الصفين، كم هو غني! لو أنه يملك مائة شركة في العالم من الشركات الرائجة التي تبيع بضاعتها في كل أنحاء العالَم، كم هي ثروته !

(وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

ثروات البحار كلّها، ثروات النفط كلّها، ثروات المعادن كلّها، شركات الطيران كلها، الفنادق كلُّها، الأراضي كلها، القصور كلها، البيوت كلها، الذهب والفضَّة كلها، المعادن الثمينة كلها، الماس كلُّه، قطعة ماسٍ واحدة ثمنها مائة ألف، لو أن ماس العالَم كله له ..

(وَمِثْلَهُ مَعَهُ)

ضرب اثنين ..

(وَمِثْلَهُ مَعَهُ)

لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه وافتدوا به لن يُقْبَل منهم ذلك، فكم هم في ورطة، " إن أهل النار يبكون ، وإنهم ليبكون الدم ، ولو أن السفن جرت في دموعهم لجَرَتْ فيها "، أي أن السفن تجري في دموعهم، هذا العذاب ألا يُتَّقى، نعيش للدنيا فقط؟ نعيش لسنواتٍ معدودة تمضي سِراعاً؟ نعيش ليومنا؟ نعيش لحظتنا، كما قال الوجوديّون: " نعيش لحظتنا فقط "، هذا هو الحُمْقُ بعينه، هذا هو الغباء بعينه، أنت تعيش من دون أن تنظر إلى الأمام، ما العقل؟ أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه .

هذه السمكات الثلاث التي في الغدير، مرَّ بها صيَّادان فتواعدا أن يرجعا ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك، فسمع السمكات قولهما، أما أكيسهن فإنها ارتابت وتخوَّفت وقالت: " العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها "، ثم إنها لم تَعْرُج على شيءٍ حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فَنَجَتْ، وأما الكيِّسة.. الأقلُّ عقلاً، الأقلُّ ذكاءً.. فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سُدَّ فقالت: " فرَّطت وهذه عاقبة التفريط "، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، ثم إنها تماوتت فطَفَتْ على وجه الماء فأخذها الصياد ووضعها على

الأرض بين النهر والغدير، فوثبت في النهر فَنَجَتْ، وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ إدبارٍ حتى صيدت . الناس كَيِّسٌ، وكَيِّسٌ جداً، وعاجز ، فالكَيِّس العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، والأقل عقلاً يحتاط لها في أثناء وقوعها، والغبي لا يحتاط لها لا قبل وقوعها ولا في أثناء وقوعها، فلم تزل تخطو يمنة ويسرةً حتى أخذها الصيادان وأكلاها ..

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى)

يجب أن تذوق طعم الإيمان :

يجب أن تذوق طعم الإيمان ، يجب أن تقول لمن سألك: الحمد لله أنا من أسعد الناس، والله قال لي رجل كان في الحج وسعد بحجّته، قال لي: والله الذي لا إله إلا هو ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني .

أيها الإخوة الأكارم... إذا استقمتم على أمره، واتجهتُم إليه، وجلستم في مجالس العلِم، وقرأتم كتابه، واتصلتم به، وذقتم حلاوة القرب، وحلاوة المناجاة، وحلاوة الشعور بأن الله معكم، وحلاوة الشعور بأن الله يدافع عنكم، وحلاوة الشعور بأن لكم عنده مقعد صدق، هذه المشاعر إذا ذقتموها تماماً تقولون كما قال بعض العارفين: " والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف " .

علامة إيمانك أنك سعيدٌ بإيمانك، علامة إيمانك أنك تحس أنك سبقت الناس جميعاً إن لم يؤمنوا ..

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص : من الآية 80)

(أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ)

بعذابها المادي، بحريقها، لا يخفَّف عنهم العذاب، لا يُفَتَّر عنهم العذاب ..

(فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

(سورة البروج)

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا)

(سورة النساء)

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى)

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى

العاقل يختار السعادة الأبدية :

أحياناً تخيَّر بين شيئين متقاربين، بين سيَّارتين، أو بين بيتين متقاربين في السعر فتقع في حيرةٍ من أمرك، لكنَّك إذا خُيِّرت أن يُهدى لك سيارةٌ أم درَّاجة، هل تقع في حيرةٍ من أمرك؟ هل تبقى طول الليل ساهراً أيهما أختار؟ هذا غير معقول، إذا خيرت بين شيئين متقاربين فلابدَّ من الحيرة، لكنك إذا خيرت بين شيءٍ زهيد الثمن وشيءٍ باهظ الثمن ما أن ينتهي الذي يخيرك من كلامه حتى تقول: سيَّارة ـ بديهي ـ إذا خُيِّرْتَ بين الشقاء الأبدي والسعادة الأبديَّة، بين أن تسعد إلى أبد الآبدين، وبين أن يكون الإنسان في جهنَّم وبئس المصير

(لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

(سورة البقرة)

(وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ(77))

(سورة الزخرف)

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِي(108)إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي)

(سورة المؤمنون)

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

(سورة المؤمنون)

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى)

الإنسان كالآلة لابد من اتباع تعليمات الاستعمال :

آلةٌ ثمينة معها نشرة استعمال، هذا الذي يقرأ النشرة، ويستعمل هذه الآلة ِوْفَق تعليمات الشركة، فاستعملها، واستفاد منها، وربح منها أرباحاً طائلة، وبقيت هي هي يصونها ويعتني بها، كمن يستعمل هذه الآلة من دون تعليمات فأعطبها؟ وخسر ثمنها؟ وفات عليه ربحها؟ هذا كهذا ؟

أخٌ كريم قال لي: صفقةٌ عُقِدَت مع شركة أجنبيَّة لتوريد بعض الآلات الدقيقة العالية المستوى، الآلات وردت ولم ترد معها نشرات الاستعمال، إلى أن وردت النشرات عُدَّت الشركة متخلِّفَةً عن تسليم الأجهزة في وقتها المناسب، لأن الأجهزة لا قيمة لها من دون هذه التعليمات، والإنسان لا قيمة له من دون هذه التعليمات، دفعت الشركة غراماتٍ طائلة لأن التسليم باطل، وصلت الآلات في الوقت المحدَّد، ولكن التعليمات لم تصل، واستخدام هذه الآلات من دون التعليمات مستحيل، إن استخدمناها من دون التعليمات عطبناها، فعُدَّت الشركة متخلّفة عن تسليم الآلات ..

هذا الإنسان من أعقد الآلات، يسعد أو يشقى، ينفع أو يؤذي، يكون مصدر خير أو مصدر شر، إن طَبَّق التعليمات يصبح مصدر خير، وإن خالفها يصبح مصدر شر، هذه التعليمات ألا ينبغي أن تُقْرَأ؟ هذه هي بين أيديكم ، كتابٌ كريم ..

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت : من الآية 42)

(لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة السجدة)

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى)

العالم بصير والجاهل أعمى :

معنى هذا أن الذي يعلم مبصر، وأن الذي لا يعلم أعمى ..

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(19)وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(20)وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(21)وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ)

(سورة فاطر)

آيةٌ دقيقة جداً ..

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

المؤمن بصير، والكافر أعمى ..

(وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ)

الحق نور، والباطل ظلمات بعضها فوق بعض ..

(وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ)

الحق مُسْعِد لأنه ظلٌ ظليل، والباطل مشقي كأنه نارٌ ملتهبة ..

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ)

(سورة فاطر : من الآية 22)

في النهاية المؤمن حي، والكافر ميِّت ..

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل : من الآية 21)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة : من الآية 5)

" يا كُمَيْل، العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تُنْقِصُهُ النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا كُمَيْل مات خزَّان المال وهم أحياء "، وهم في أوج حياتهم ميِّتون، وهم في شبابهم وقوَّتهم، وغناهم، وفي شأنهم العالي في المجتمع، أموات لأنهم ما عرفوا الله سبحانه وتعالى .. " ابن آدم، اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء " .

" مات خزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة "، هذا هو العلم يحيي القلب، ما من رتبةٍ في الأرض أعلى من رتبة العلم، رتبة العلم أعلى الرُتَب ..

" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم " .. "، إن الله عالمٌ يحبُّ كل عالم " .. " ما اتخذ الله وليَّاً جاهلاً لو اتخذه لعلَّمه " .. " يظل المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظنَّ أنه قد علِم فقد جهل " .. " العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلَّك فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً " ..

((علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

[ورد في الأثر]

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

هذا عطاء الأنبياء حُكماً وعلماً، ماذا أوتي فلان؟ بيتاً ومالاً زائلان، مالك ما لك، المال سمي مالاً لأنه ما لك، أي ليس لك ..

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

أصحاب العقول الراجحة، هؤلاء :

(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ)

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ

أهل العلم والعقول الراجحة يوفون بعهد الله :

عهد الله في هذه الآية أي يلتزمون أوامره وينتهون عن نواهيه، عهد الله هذا الكتاب الذي بين أيدينا، شرع الله عَهِدَ إلينا به أن نطبِّقه، أوامر الله عهد إلينا بها أن نطبِّقها، هذا هو عهد الله، فالذي يطيع الله عزَّ وجل يلتزم عهد الله أي ينفِّذ هذا العهد .

وهناك معنى آخر: أن عهد الله هو العهد الذي وثَّقته مع أي جهةٍ وكان وَفْقَ الشرع، حُسْن العهد من الإيمان ..

((لا إيمَانَ لِمَنْ لا أمَانَة لَهُ ولا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

[مسند أحمد عن أنس بن مالك]

هؤلاء أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله من دون إكراه، يؤدُّون ما عليهم من دون حكم قضائي، يفي بعهد الله، الوفاء بعهد الله من صفات المؤمن، والذي يُخِلُّ بعهد الله يدخل في شعبةٍ من شُعَبِ النِفاق .

((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثلاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذَا وَعَدَ أخْلَفَ، وَإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

من كان فيه خصلةٌ من هذه الخصال كان فيه شعبةٌ من شُعَب النِفاق، كان السلف الصالح يقول له: " اسمح لي أن أذهب إلى البيت لأودِّع أهلي وأولادي، وأكتب وصيَّتي، ولك عهد الله أن أرجع "، يرجع إلى الموت ليفي بعهد الله !!! هكذا كانوا، هكذا كان المؤمنون الصادقون، المؤمن إذا عاهد وفى ..

(وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ)

أهل العلم والعقول الراجحة لا ينقضون عهد الله :

الميثاق الذي واثقنا الله به، الميثاق أن نأتي إلى الدنيا فنستقيم على أمر الله، الميثاق أن نعتصم بحبل الله، الميثاق أن نقتفي أثر النبي عليه الصلاة والسلام، الميثاق أن نلتزم حدود الشرع .

أهل العلم والعقول الراجحة يصلون ما أمر الله به أنْ يوصل :

(وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ(20)وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان : من الآية 15)

أمرٌ إلهي ..

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان : من الآية 15)

اتصل به، احضر مجالسه، كن معه، كن عوناً له ..

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف)

هذا يبتعد عنه ، وذاك يتصل به ..

((ابن عمر، دينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20)وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

الصلة التي أمر الله بها عامة ومتعددة :

أمرك الله أن تصل رحمك، أمرك الله أن تصل من قطعك، أمرك الله أن تكون مع الذين صدقوا، أن تكون مع المؤمنين ..

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

هذا هو الأمر الإلهي، حتى إن بعض المفسِّرين قال معنى قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

كل شرع الله يجب أن تصله بالطاعة ..

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)

أهل العلم والعقول الراجحة يخشون ربهم :

لا يخشون في الله لومة لائم، إن أتاحت له وظيفته أن يبطش بأخيه يبطش به، ولا يرقبُ فيه إلاً ولا ذمَّة، إلا إذا خاف الذي أعلى منه عندئذٍ يبتعد عن إيذائه .

كيف تخشى العبد ولا تخشى الرب ؟

يا الله، أتخشى إنساناً ولا تخشى ربَّ العالمين؟! هذا الذي دخل إلى بيته ..

قُمِعَت بعض الفتن في العصور السالفة، فأباح أمير الجند لجنوده المدينة، دخل أحد الجنود إلى بيتٍ من بيوتها فرأى امرأةً وزوجها، قتل الزوج، وقال للمرأة: أعطني كل ما عندك، أعطته سبعة دنانير، فأمسك أحد أطفالها وذبحه، وقال: أعطني كل ما عندك، فلمَّا رأته جادًّاً في قتل الثاني أعطته درعاً مُذْهَبَة، فلمَّا أمسكها أعجبته ورآها ثمينةً جداً، تأمَّلها فإذا عليها بيتان من الشعر ما إن قرأهما حتى وقع مغشياً عليه ..

إذا جـار الأميـر و حاجباه وقاضي الأرض أسرف في القضاء

فويـلٌ ثمَّ ويـلٌ ثمَّ ويـلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماءِ

***

أتخشى إنساناً ولا تخشى الله ربَّ العالمين؟! الذي قلبُك بيده، ورئتاك بيده، وكليتاك بيده، والشرايين كلها بيده، والدم كلُّه بيده، لو جمَّد نقطة دمٍ كرأس الدبوس في بعض شرايين المخ لأصيب الإنسان بالشلل، في مكان آخر يصاب بالعمى، بمكان ثالث يصاب بالصمم، بمكان رابع ينام في مستشفى المجانين، بمكان خامس يفقد ذاكرته، هذا الذي بيده كل شيء؛ بيده صحَّتك، وأجهزتك، وحياتك، وموتك، بيده الجراثيم، بيده من حولك، بيده من هو أعلى منك، من هو أدنى منك، بيده رزقك، تعصيه ولا تستحي منه ؟! .

واحد سأل أحد العارفين قال: إنني أريد أن أعصي الله، قال : " لا بأس عليك اعصِهِ عدا بعض الملاحظات: إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن أرضه، قال: وأين أسكن إذاً؟ قال: تسكن أرضه وتعصيه! أنت على أرضه وتعصيه، قال: هات الثانية، قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تأكل رزقه، قال: وماذا آكل إذاً؟ قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه!! قال: هات الثالثة، قال: إذا أردت أن تعصيه فاجهد أن تعصيه في مكانٍ لا يراك فيه، قال :

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة الحديد)

قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ؟!

تعصي الإله و أنت تظهر حبَّه ذاك لعمري فـي المقال بديعُ

لو أن حبَّك صـادقاً لأطعته إنَّ المحبَّ لمـن يحبُّ يطيعُ

***

أما تستحي من الله ؟

أما تستحي منَّا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تُقْلِع عن الذنب راجعاً وتنظر مـا بـه جاء وعـدنا

***

إلى متى أنت في اللذَّات مشغولُ وأنـت عن كل ما قدَّمت مسـؤولُ

أيا غافلاً تبدي الإساءة والجهل متى تشكر المولى على كل ما أولى

عليك أياديه الكرام وأنت لا ترا ها كـأن العيـن عميـاء أو حولى

لأنت كمزكومٍ حوى المسك جيبه ولكـنَّـه المـحـروم ما شمَّه أصلا

***

هذا هو الله الخالق الذي يجب أن تخشاه :

قبل يومين سمعت أن حيوان الدلفين يعيش على شواطئ البحار، وهو من أذكى الحيوانات قاطبة، وأنه حيوانٌ أليفٌ جداً صديق الإنسان، وأنه حيوانٌ اجتماعي يعيش جماعاتٍ جماعات، وأن هذا الحيوان سخَّره الله لإنقاذ الغرقى على شواطئ البحار، فما إن يشعر هذا الحيوان أن سابحاً أدركه الغَرَق حتى يأتي اثنان فيرفعانه إلى أن يصيب الهواء ، وينقلانه إلى الشاطئ .. أما تستحي من هذا الفضل ؟ أي شيءٍ في الكون فيه نقصٌ ؟!

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(1)الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(2)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(3)وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى(4)فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)

(سورة الأعلى)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

هل تعلم أن قناة الدمع لو سُدَّت لأصبحت الحياة لا تُطاق، قناةٌ دمعيَّةٌ دقيقةٌ دقيقة لو سُدَّت لصار الدمع مُخَرِّشاً للخد، ولاحتجت إلى كل دقيقةٍ أن تمسح الدموع من على خدِّك، لو أن المثانة بلا عضلات لاستغرق تفريغها عشر دقائق وأنت في بيت الخلاء، لكن مع العضلات في خلال دقيقة واحدة، أو نصف دقيقة .

لو أن الكليتين اتصلتا مباشرةً بمخرج البول، كل عشرين ثانية تحتاج إلى أن تذهب إلى المرحاض، كل عشرين ثانية نقطتا بول، أو تحتاج إلى فوط، هذه المثانة أليست من فضل الله علينا؟ هذه الحركات، هذه المفاصل، لولا هذا المفصل كيف نأكل؟ لابدَّ من أن نضع الصحن على الأرض وننبطح ونأكله بفمنا مباشرةً، لولا هذا المفصل .

هذا الشعر، ربع مليون شعرة، لكل شعرٍ عصبٌ، وشريانٌ، ووريدٌ، وغدَّةٌ صبغيَّة، وعضلةٌ، لكل شعرة، هذا الدماغ فيه مائة وأربعين مليار خليَّة سمراء لم تُعْرَفُ وظيفتها بعد .

العين فيها مائة وثلاثون مليون مخروط من أجل أن ترى رؤية دقيقة ملوَّنة بالحجم الطبيعي، أما المصوِّر فيقول لك: تعالَ غداً لنحمِّض لك الصورة، أما أنت فتحميض فوري، تنظر فترى الشيء بألوانه الدقيقة، أنت بهذه العين ترى مائة لون حنطي، أما في الآلة التصويريَّة فالألوان كلها متقاربة، عينٌ دقيقة، أذنٌ مرهفة، أنفٌ جميل، لسانٌ ناطق ..

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الْإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن)

وجهٌ جميل، أعضاءٌ، جلدٌ، شعرٌ، عضلات، أوردة، شرايين، زوجة، أولاد، كل هذا لا يكفي أن تلتفت إليه ؟!

(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

مطلق أوامر الله ..

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)

يوم الحساب لا يبرح ذاكرة المؤمن :

إنّ المؤمن لا تبرح ذاكرته هذه الساعة .

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

(سورة المدثر)

فإذا مات الإنسان وتوجَّه فريقٌ إلى طبع النعي، وفريقٌ آخر إلى تسيير معاملة الدفن، وفريقٌ ثالث إلى تأمين الطعام ومستلزمات التعزية مساءً، وتوجَّه فريقٌ رابعٌ إلى المقبرة، واشترى قبراً، وتوجَّه الحفَّار ليحفر هذا القبر ..

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)

الميِّت مُسَجَّى في غرفته، ومكتب دفن الموتى أرسل السيارة لتجهِّز الميت، والقبر يُحْفَر هذه هي الساعة العصيبة التي ينسى فيها الإنسان كل ملذَّات الدنيا، كل الأيام التي قضاها في الدنيا مسروراً ..

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا)

(سورة الانشقاق)

كان، أما الآن ليس مسروراً، الآن يتمنَّى أن تُسَوَّى به الأرض، يتمنَّى أن يكون تراباً تدوسه الأرجل، لا ..

(وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)

" يُحشر الأغنياء أربع فرقٍ يوم القيامة: فريقٌ جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام فيقال: خذوه ...

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 25 – 29
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-09-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

الحكمة من وصف الله المؤمنين والكافرين في القرآن :

الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يصف تارةً المؤمنين، ويصف تارةً الكفار، سؤالٌ يطرح عليكم: ما الحكمة من وصف المؤمنين؟ وما الحكمة من وصف الكافرين؟ هذه الصفات التي ذكرها الله للمؤمنين إنما ذكرها لتكون مقياساً نقيس بها إيماننا، فإن لم نكن كذلك، إنما ذَكَرَهَا لتكون هدفاً نسعى إليه، فصفات المؤمنين التي أُدْرِجَت في كتاب الله إنما جعلت مقياساً لنا أو هدفاً نسعى إليه ..

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

(سورة الأنفال)

هل نحن كذلك؟ مقياسٌ أو هدف ..

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3)وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4)وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

(سورة المؤمنون)

المؤمن كذلك؟ يُعْرِضُ عن اللغو؟ في صلاته خاشعٌ؟ إلى الزكاة مُسْرِعٌ؟ في الزلازل وقورٌ؟ في الرخاء شكورٌ؟ هكذا المؤمن؟ فحيثما ورد في كتاب الله سبحانه وتعالى أو في السنة المطهرة وصفٌ دقيق للمؤمن فهذا مقياسٌ لك، كن جريئاً مع نفسك، قِس نفسك بهذا المقياس ..

(وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

(سورة الأنفال)

أأنت متوكلٌ عليه؟ أم قلبك فارغٌ كقلب أم موسى، راضٍ بقضائه؟ مستسلمٌ لمشيئته؟ تقول كما قال الإمام الغزالي: " ليس في الإمكان أبدع مما كان " .

تقول: الحمد لله في السرَّاء والضرَّاء، في الصحة والمرض، في القوة والضعف، في إقبال الدنيا أو إدبارها ؟

من صفات المؤمنين :

صلة ما أمر الله بصلته :

قال ربنا عزَّ وجل :

(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

أية صلةٍ أمرها الله سبحانه وتعالى يصلونها ..

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)

خشية الله والخوف عند القيام بين يديه :

هل يأتي على المؤمن خواطر يوم القيامة؟ خواطر الوقوف بين يدي الله عزَّ وجل؟ هل يتصور في كل عملٍ يعمله أنه سَيُسْأَل عنه ؟

(وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ(21)وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ)

الصبر وطاعة الله:

صبروا على الطاعات، وصبروا عن المعاصي، وصبروا على البلاء ..

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(22)جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ(23)سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

من صفات الكافرين :

تم شرح هذه الآيات في الدرس الماضي، بالمقابل :

(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ)

نقض عهد الله :معنى نقض العهد :

عهد الله: جئت إلى الدنيا وعاهدته أن تطيعه، فإذا عصيته فقد نقضت عهد الله .

معنى نقض العهد :

ما معنى :

(يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ)

أي يعصونه، لأنهم حينما جاءوا إلى الدنيا عاهدوه على الطاعة، فإذا عصوه فقد نقضوا عهدهم معه، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتكَسرَ أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، قد تكون فقيراً وأنت كبيرٌ في عين الله، قد تكون مريضاً وأنت كبير في عين الله، يحبك الله، يتجلّى عليك، يوفّقُكَ، يفتح لك أبواب رحمته، وقد تكون قوياً، وقد تكون غنياً، وقد تكون ذا سيطٍ عريض ونَجْمٍ متألّق، وقد يكون هذا الإنسان ساقطاً من عين الله، لذلك أكبر نجاحٍ يحققه الإنسان على وجه الأرض أن ينال رضاء الله عزَّ وجل .

هناك أناسٌ داسوا بأقدامهم أرض القمر، وهناك مخترعون اخترعوا أجهزةً عجيبة، هناك مخترعون اخترعوا أسلحة فتّاكة، هناك من يصنع القنابل الجرثومية، هناك من يصنع السلاح الكيميائي، هناك من صنع القنبلة النووية، ومع ذلك ساقطون من عين الله، والمؤمن إذا عرف الله سبحانه وتعالى، واستقام على أمره، وتقرَّب إليه بالعمل الصالح، فهو مُقرَّبٌ عند الله، له مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر ..

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(54)فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَانُ وُدًّا)

(سورة مريم)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من الآية 38)

يحبهم ويحبونه، جاء جبريل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال له : قل لأبي بكر: " يا أبا بكر قل لصاحبك: إن الله راضٍ عنه، فهل هو راضٍ عن الله ؟ هذا مقام ..

فيا أيها الإخوة الأكارم، ما من نجاحٍ على وجه الأرض أثمن من أن تفوز برضاء الله سبحانه وتعالى..

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس : من الآية 58)

برحمة الله، بطاعة الله، بمعرفة الله .

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات)

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة يونس : الآية 58)

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران)

هؤلاء ينقضون عهد الله، يعصونه، يعصون الله، ولا يأبهون لهذه المعصية، يعصون الله جهاراً، يفتخرون بالمعصية، يتبجَّحون بها ..

(وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

قطع ما أمر الله بوصله :

أمرهم الله أن يصلوا أرحامهم فقطعوها، أمرهم الله أن يعطفوا على الفقراء والمساكين فقاطعوهم، أمرهم الله أن يستقيموا ، أيّ شيءٍ أمرهم الله به يخالفونه ..

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

النبي عليه الصلاة والسلام جاءه رجلٌ وقد مات والداه فقال: " يا رسول الله، هل بقي علي شيءٌ من برِّ والدي بعد موتهما؟ " ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((نعم، أربعة: أشياء أن تدعو لهما ـ رب اغفر لي ولوالدي، رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ـ وأن تصلي عليهما.. صلاة الجنازة.. وأن تنفذ عهدهما، وأن تصل صديقهما، وأن تصل الرحم التي لم يكن لها صلةٌ إلا بهما، فهذا الذي بقي عليك من برِّهما بعد موتهما))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

((أهل ود أبيك لا تقطعه فيطفئ الله نورك))

هناك حديثان :

((أهل ود أبيك لا تقطعه))

وفي حديث آخر :

((ود أبيك لا تقطعه فيطفئ الله نورك))

[ورد في الأثر]

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

الإفساد في الأرض :

الفساد واسع ومتعدّد المجالات :

والفساد في الأرض واسعٌ جداً، إفساد العَلاقة بين اثنين من صفات الكفار، قد تفسد هذه العلاقة بكلمة، قد تفسد العلاقة بين أخوين بكلمة تقولها لأحدهما، قد تُفْسِد العلاقة بين زوجين بكلمةٍ تقولها للزوج، أو بكلمةٍ تقولها للزوجة، وقد تفسد العلاقة بين شريكين بكلمةٍ واحدة تقولها لأحد الشريكين، وقد تفسد العلاقة بين أسرة مُتآخية بشيءٍ تفعله، بدنيا تعرضها، بحديثٍ تتبجح به، بوصفٍ كاملٍ تصفه، وقد تفسد العلاقة بينك وبين عقلك، فتعطله أو تسيء استخدامه، أو ترفض نموه، فيكون الجهل والتجهيل، والكذب والتزوير، وهذا أعدى أعداء الإنسان، قد تفسد العلاقة بينك وبين نفسك فيبحث الإنسان عن أشد الوسائل انحطاطا لأشد الأهداف قذارةً عندها فتكون أزمة الأخلاق المدمرة، ويكون الشقاء الإنساني، وقد تفسد العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فيكون النصر للأقوى ولو كان صاحب البُطْل، ويكون صاحب الحق بعيداً عن حقه، وهذه أزمة حضارية تعيق تقدم الأمة وتقوّض دعائمها .

إنّ فساد العلاقة واسعٌ جداً، لابدَّ من أن تَصِحَّ العلاقة مع عقلك، ولابدَّ من أن تصح العلاقة مع نفسك، ولابدَّ من أن تصح العلاقة مع أخيك، ولابدَّ من أن تصلح بين اثنين .

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ)

(سورة الحجرات : من الآية 11)

السخرية تفسد العلاقة .

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)

(سورة الحجرات : من الآية 12)

الغيبة تفسد العلاقة .

(وَلَا تَجَسَّسُوا)

(سورة الحجرات : من الآية 12)

التجسس أي تتبع الأخبار السيِّئة يفسد العلاقة .

ولا تحسسوا ..

(يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)

(سورة يوسف : من الآية 87)

والتحسس تتبع الأخبار الطيبة، ربما كان هذا فضولاً وقد يفسد العلاقة ..

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[سنن الترمذي عن أبي هريرة]

هؤلاء يفسدون في الأرض، ومن الفساد في الأرض أن تخرج على الناس في زينتك، أن تريهم ما عندك من أثاثٍ فخم، يزورك إنسان فتعرض كل ما عنده أمامه، يخرج من عندك وهو كسير القلب .

" من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط " .

عن عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ، وَلا تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ))

[سنن الترمذي عن عائشة]

الفساد أيضاً أن تتبجَّح بنزهاتك، ورحلاتك، وأفراحك، والمصاريف الباهظة التي أنفقتها، هذا من الفساد في الأرض، من الفساد في الأرض أن تُطْلِع أخيك الفقير على شيءٍ نفيس فتجعل في قلبه الحُرْقة، الفساد في الأرض أن تسأل ابنتك: ماذا قدَّم لك زوجك في العيد، فإن لم يقد لك شيئاً تذمه، توقع في قلبها الحسرة، توقع في قلبها بغضه، هذا كله من الفساد في الأرض، لذلك هؤلاء :

(وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

لا تعظِّم نفسك فما أنت إلا نطفة من ماء مهين :

حدثني عن نفسه ، ولو عرف الله حق المعرفة لفني في ذات الله، ولرأى نفسه أحقر من أن يتحدث عنها، من أنا؟ هذا الكون العظيم الذي ينبئ عن خالقٍ عظيم، من أنا حتى أتحدث عن نفسي؟ عبدٌ ضعيف، فنقطة دمٍ إذا تجمدت في أحد شرايين المخ شللٌ، عمًى ، صمم، جنون، أية عظمةٍ لهذا الإنسان، أوله نطفة وآخره جيفة، أية عظمة؟ كنت قبل أيام أُشَيِّع جنازةً، وقد وضع الميت في قبر قريبه الذي مضى على وفاته ثمانية أعوام، لم نجد في القبر إلا بعض العظام، أي عظمةٍ كانت لهذا الميِّت، كان ملء السمع والبصر، كان غنياً، كان مُتْرفًا، كان الناس يتقرَّبون إليه، بضع عظماٍ ملقاةٌ في قبر، علامَ الافتخار ؟

أيها الإخوة الأكارم، طوبى لمن ذكر المبتدى والمنتهى، هذا الذي ذكر مبتداه نطفةٌ تخرج من عورةٍ إلى عورة وتخرج من عورة، من ماءٍ مهين، وهذا الذي نظر إلى أخراه فرأى نفسه عِظاماً نخرة في قبرٍ من قبور الشام، من أنت؟ لذلك حالة الفناء التي وصفها الصوفيون تعني أنك تستحيي أن تقول: أنا وأنا، قالها الشيطان فأهلكه الله، قال :

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة ص : من الآية 76)

(وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ)

جزاء هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات :

اللعن والطردمن رحمة الله :

اللعنة هي البعد عن الله سبحانه وتعالى، وما من شي أثمن من القرب من الله سبحانه وتعالى، وما من شيءٍ أشقى للإنسان من أن يكون ملعوناً، فهذه الكلمة: لعن الله فلاناً، فلان ملعون، هذه الكلمة تدور على الألسنة، ولو عرف الإنسان معناها، معناها أنه مطرودٌ من رحمة الله، أنه بعيدٌ عن تجلي الله ..

(أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ)

هذا الإنسان إذا عرف ما عند الله من نعيمٍ مقيم، وكان مطروداً عن هذه الرحمة فهذا هو الشقاء بعينه .

يا عجبًا كيف لو ذاقوا رحمة الله!!!

قال فرعون للسحرة :

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ)

(سورة طه : من الآية 71)

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى(71)قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

(سورة طه)

ذاقوا من رحمة الله آثروها على كل شيء .

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

(سورة يوسف : من الآية 33)

ذاق رحمة الله، " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف " ..

فلو شـاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لـما وليت عنا لغيرنا
ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا
و لو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتـيلاً بحبنا
و لو نسمت من قربنا لك نسمة لمت غريباً واشتياقاً لقــربنا
ولو لاح مـن أنوارنا لك لائحٌ تركت جميع الكائنات لأجلـنا
هذا الذي يذوق من رحمة الله يضحي بالدنيا كلها من أجلها ..
فليتك تحلو و الحياة مـريرة وليتك ترضى و الأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خـراب

***

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

(أولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ)

في الدنيا، الكافر بعيد، شقي، قِلِق، في قسوة في حياته، قلبه مقفر كالصحراء، مشاعره بليدة، نفسه تؤْثر ذاتها على كل شيء، يحب الأخذ ويكره العطاء، يتمنى أن يعيش وحده، ويهلك الناس جميعاً، يمقت الناس ويمقته الناس؛ المؤمن يألف ويؤلف، يحب الناس كلهم، يؤثرهم على نفسه، يتمنَّى لهم النجاح والتوفيق، هينٌ لينٌ، حييٌ، كريمٌ، المؤمن غرٌ كريم، والكافر خَبٌ لئيم .

(أولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّار)

سوء الدار والمنقلب :

قال عليه الصلاة والسلام :

((الناس رجلان: تقيٌ كريم كريم على الله، وفاجر لئيم هين على الله))

[ورد في الأثر]

لا شأن له عند الله، والناس إذا ضاقت بهم الدنيا، وغلت فيهم الأسعار، وشحَّت علهم أمطار السماء لا لشيء إلا لأن الله هان عليهم، هانت عليهم معصيته، هان عليهم خَرْقُ حدوده، هان عليهم الاستهزاء بدينه، هان عليهم نقض مواثيقه، هان عليهم أن يعصونه جهاراً، هان عليهم أن يضربوا بكتاب الله عُرْضَ الطريق، هان عليه أن يسخروا من شرعه، فهانوا على الله، هانوا عليه؛ ضاقت بهم السبل،

وانقطعت بهم الأسباب .

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا

الإنسان يفرح بالحياة وهو لا يعلم حقيقة ذلك :

أيها الإخوة الأكارم، ربنا سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى يوضِّح هذه الآية :

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر : الآية 15)

الإنسان أحياناً يتوهَّم أنه إذا كان غنياً، وكان في بحبوحة، وكان صحيحاً، قوياً، ذا شأنٍ ووجاهة، قد يتوهَّم الإنسان أن الله يحبُّه إذا أعطاه، فإذا ضاق رزقه وضعُفَ جسمه، وضعف شأنه قد يتوهَّمُ أنه مهانٌ عند الله، والحقيقة عكس ذلك ..

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر : الآية 15)

هو هذه مقولته، ولكنها ليست صحيحة، هذه دعواه، هذا زعمه، هذا توهُّمُهُ .

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر)

لا، يا عبادي، ليس عطائي إكراماً، ولا ابتلائي إهانة، إنما عطائي ابتلاءٌ، وحرماني معالجة .

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

معنى : يبسط و يقدِر :

معنى يَقْدِرِ أي يُضَيِّق، والمعنى الثاني: يقدر أي يجعل رزق العبد على قدر حاجته، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[ورد في الأثر]

أي يكفيه، لا يحوجه إلى أحدٍ، لكن هذا الرزق ليس فيه فضلٌ يزيد على حاجته، فمن أوتي رزقاً كفافاً فليَحْمَدِ الله .

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ)

إذا أعطى أدهش .

العطاء الدنيوي ليس دليلَ حب الله للإنسان :

لكن هذا الذي يعطيه الرزق الوفير لا ينبغي أن يتوهَّم أن الله يحبه، قد يحبه وقد لا يحبه، هذا الغني الذي أوتي مالاً كثيراً لا ينبغي أن يستنبط من غناه أن الله يحبُّه قد يحبه وقد لا يحبه، قد يحبه إذا كان مستقيماً محسناً، متواضعاً سخياً، جاء في الحديث القدسي " :

((أحب ثلاث وحبي لثلاثٍ أشد أحب، الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد، وأحب الكُرماء وحبي للفقير الكريم أشد، وأحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد؛ وأبغض ثلاثاً وبغضي لثلاثٍ أشد، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد، وأبغض المتكبِّرين وبغضي للفقير المتكبر أشد، وأبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد))

[ورد في الأثر]

إذا كنت غنياً لا يستنبط من هذا أن الله يحبُّك، عوامُّ الناس يقولون: " إذا أحب الله عزَّ وجل عبده أطلعه على ملكه "، القضية سهلة، اركب طائرةً وجُلْ بها في أقطار الأرض معنى هذا أن الله يحبك، هذا استنباط مضحك، استنباط سخيف، النبي عليه الصلاة والسلام ما رأى من الأرض إلا مكة والمدينة وأطراف الشام، ما رأى أوروبا ولا أمريكا، ماذا يستنبط من هذا ؟ استنباطٌ مضحك، لذلك :

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

أي أن الله سبحانه وتعالى يعطي وقد لا يعطي، قد يضيِّق وقد يعطيك الكفاف .

((إن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر فلو أغنيته أفسدت عليه دينه))

[ورد في الأثر]

أي أن الله عزَّ وجل عليمٌ خبير، معنى خبير: خبير بهذه النفوس، هناك إنسان على الدخل المحدود من مسجدٍ إلى مسجد، فإذا زاد دخله من ملهى إلى ملهى، حينما يُكْشَفُ الغطاء يوم القيامة، ويرى العبد الفقير أن الفقر كان أنسب شيءٍ له يذوب خجلاً ومحبةً لله عزَّ وجل، والغني إذا أفقره الله سبحانه وتعالى ربما كفر، فطبيعة نفسه تقتضي الغنى، والدنيا مؤقتة، والدنيا ساعة اجعلها طاعة .

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

بمعنى يُضَيِّق أو يرزق الكفرة .

(وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

قد يكون الشر كامنًا في الخير :

فالآية الكريمة :

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

هناك رجل تزوج امرأةً في المدينة، فلما دخل عليها لم تعجبه، أمضى معها الليلة، ثم هام على وجهه في أطراف الدنيا، من شدة ضيقه من هذه المرأة غاب عنها عشرين عاماً، هكذا تروي القصة.. حينما دخل عليها، ولم تعجبه كانت عالمةً فقيهه قالت له : " يا فلان، قد يكون الخير كامناً في الشر ".. لا تدري.. فلما عاد بعد عشرين عاماً إلى المدينة، ودخل أحد مساجدها فرأى عالماً تحلّق الناس حوله، فلما سأل عنه إذا هو ابنه، فلما دخل البيت ذكّرته امرأته بقولها له حينما رآها .

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

فهذا الذي قسمه الله لك؛ شكلك رزقٌ قسمه الله لك، طولك، لون جلدك، صحَّة أعضائك، زوجتك، أولادك، حرفتك، دخلُك، أمك، أبوك، حيُّك، مدينتك ..

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الزخرف : من الآية 32)

هذا أنسب شيء لك، هذا بتقدير الله ..

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سورة الأنعام)

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الفرح بالدنيا دليل على قلة العقل :

قل لي بربك: ما الذي يفرحك أقل لك من أنت؟ هناك من يفرح بالدرهم والدينار، هناك من هو عبدٌ لبطنه، هناك من هو عبدٌ لفرجه، هناك من هو عبدٌ لخميصته، هناك من هو عبدٌ للدرهم والدينار، قال عليه الصلاة والسلام :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار، وَعَبْدُ الدِّرْهَم، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَش))

[سنن ابن ماجة : عن " أبي هريرة]

هذا الذي يفرح بالحياة الدنيا؟ قال عليه الصلاة والسلام :

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[ورد في الأثر]

إذا فرحت بالحياة الدنيا فهذه وصمة عار، قال :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)

(سورة القصص : من الآية 78)

(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76)وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص : الآية 76 - 77)

هذا قارون ..

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

(سورة القصص)

فرحوا بالحياة الدنيا، من عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضَا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي .

(وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

علامة النفاق الفرح بالدنيا، والمؤمن يفرح بفضل الله سبحانه وتعالى، يفرح إذا عرف الله، إذا فهم كتابه، إذا استقام على أمره، إذا عمل الصالحات، إذا رزقه الله عملاً صالحاً، سيدنا موسى لمَّا سقى لهما تولى إلى الظل :

(فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

(سورة القصص)

الفقر فقر العمل الصالح، والغنى غنى العمل الصالح، والغنى والفقر بعد العرض على الله .

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ

هذه هي قيمة الدنيا :

النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

[ورد في الأثر]

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من الآية 77)

ألا تصدق الجليل يقول لك :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من الآية 77)

سنواتٌ عشر حتى يستطيع الإنسان أن يسترخي، أن يستمتع للحياة الدنيا لابدَّ من أن يصل إلى أربعين عاماً، ولا سيما في هذه الأيام العصيبة؛ إلى أن يشتري البيت، ويكسو البيت، ويؤسس البيت، ويبحث عن عملٍ مريح، إلى أن يتزوَّج، إلى أن تحل مشكلاته المادية في الأربعين، وأكثر الذي يموتون الآن في الخمسين، عشر سنواتٍ فحسب يضيِّعُ من أجلها الآخرة كلها، " من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً " .

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من الآية 77)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

إذا تألَّمت من سِنِّك، تذكَّر وأنت في حالة الألم الطعام الفاخر الذي أكلته قبل يومين أين هو؟ تذكر النزهة التي أمضيتها قبل أسبوع أين هي؟ تقول: إن ألم الضرس أنساني كل شيء، وحينما يقدم الإنسان على القبر ويوضع في هذه الحفرة، ويقول الله له :

" عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت " .

ليذكر الإنسان السهرات الممتعة التي أمضاها، والولائم الفاخرة التي أكل منها، والنُزُهات التي ذهب إليها، أين هي؟ هكذا الدنيا، الدنيا تغر وتضر وتمر، الدنيا تمر كلمح البصر .

قبل يومين وأنا أراجع بعض الخطب التي كنت أكتبها من قبل عثرت على الخطبة الأولى التي ألقيتها، وكان تاريخها في الثاني والعشرين من شهر آب عام ألفٍ وتسعمائة وأربعةٍ وسبعين، قلت: سبحان الله! كيف مضت هذه السنوات الاثنتا عشرة؟ كلمح البصر، تاريخ، وقد مضى على هذه الخطبة اثنا عشر عاماً بالضبط، كيف مضت؟ وهكذا تمضي الحياة الدنيا ..

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ(112)قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ(113)قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(114)أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

حينما شَيَّعْتَ جنازةً قبل أسبوع، السيارة التي وضع فيها النعش وضعوا آياتٍ من كتاب الله، الآيات هي:

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِي(26)وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ(27)وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ(28)وَالْتَفَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ(29)إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)

(سورة القيامة)

وهذا الميت الذي أمامنا تنطبق عليه هذه الآية، إلى ربِّك، رحلة أبدية، يحاسب فيها الإنسان عن كل شيءٍ فعله في الحياة الدنيا، عن كل نظرةٍ، عن كل درهمٍ من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه ؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة)

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)

(سورة القيامة)

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

أي أنها لذَّاتٌ عابرة سريعاً ما تنقضي .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

كيف تطلبون آية والآياتلا تخفى على أحد ؟!

كل هذه الآيات وكل هذه الدلالات لا تكفي الكافر .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ)

عجيبٌ أمر الكفَّار ..

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

حسبكم الكون معجزة، كل هذه الآيات أينما تحركت، جسمك آية، ابنك آية، كأس الماء آية، صوتك آية، الهواء آية، الماء آية، الرياح آية، الأمطار آية، الجبال آية ..

وفي كل شيء له آية تدلّث على أنه واحد

ومع كل هذا :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُوَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ

هذه الآية ينبغي أن نقف عندها، الله سبحانه وتعالى :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

إذا قابلنا بين الآيتين وجدنا أن الله :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

المعنى الأول : الله يضل المتكبرَ الذي لا ينيب :

إذاً: من الذي يضلُّه؟ الذي لا ينيب، المتكبر، المستنكف عن طاعة الله، إذا كانت معك معلوماتٌ قيمة لإنسان، وهذا الإنسان يسخر منك، ولا يعترف بعلمك، ولا يقدِّر هذه المعلومات، ولا يرضاها، ولا يقيم لها وزناً كيف تعطيه إيَّاها؟ مستحيل، هذا بعض معاني هذه الآية ..

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

لأن هذا الذي أضلَّه لم يُنِب إليه، لم يرجع إليه، لم يستعن به، لم يستهدِ به، لم ير ما عنده خيراً، لم ير قرآنه في حل لكل المشكلات، أعرض عنه، ازْوَر، استكبر، استعلى، إذاً الله سبحانه وتعالى لم يعطه شيئاً، شيء طبيعي، هذا بعض المعاني، يضل الذي لا يُنيب إليه، والقسم الثاني من الآية يوضِّح القسم الأول ..

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

الذي يعود إليه، يقبل عليه، يلتجئ إليه، يستهديه، يسترشده، يستغفره، يتوبُ إليه، يفوِّضُ له، يستسلم له، هذا الذي يهديه الله سبحانه وتعالى، فهذا المعنى دقيق جداً، إذا أعرض العبد عن ربه، واستنكف عن

طاعته، ولم يلتجئ إليه، ولم يستهد بهديه، كيف يهديه الله عزَّ وجل ؟

لو أنت معك معلومات دقيقة لهذا المريض، وهذا المريض لا يأبه لك بل يسخر منك، كيف تعطيه إيَّاها؟ ولو أعطيته إياها لألقاها في الطريق، لألقاها في سلة المُهملات .

أحياناً على مستوى طبيب، يكون الطبيب ناشئا معه معلوماتٌ قيِّمة عن هذا المرض، يزور قريباً له، يلقي عليه هذه التعليمات، ثقة هذا المريض بطبيبٍ آخر، لو أملاها عليه لا يطبقها ولا يتبعها، فهذا الذي أعرض عن الله سبحانه وتعالى كيف يهديه الله؟ مستحيل ولو ألقى عليه الهدى، الهدى بين أيدينا، هذا كتاب الله بين أيدينا، كم من البشر يقرأه، ويهتدي بهديه، ويراه الحق الفَيْصَل، قلةٌ قليلة، وهؤلاء الذين إذا فتحوا المذياع، وطاشت إبرة المذياع على القرآنِ الكريم سريعاً ما يحوِّلونه، كيف يهديهم الله سبحانه وتعالى كيف؟ إذا ألقيت على مسامعهم كلمة الحق سريعاً ما يزورّوا يقول لك: ليس عندنا وقت هذا كلام فارغ، هذا كلام لا معنى له في هذه الأيام، فالذي يعرض عن الله سبحانه وتعالى لا يهديه الله، هذا المعنى من بعض المعاني التي تستنبط من هذه الآية .

المعنى الثاني : الله يضل إذا اختارالعبد الضلالَ لنفسه :

معنى آخر: الله سبحانه وتعالى يضل من يشاء، لكن في آيات كثيرة، وضح هذه المشيئة ..

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : من الآية 52)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

(سورة غافر)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المنافقون)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الجمعة)

إذا كان في الآية في إيجاز فهناك آياتٌ أخرى فيها تفصيل، الظالم لا يهديه الله سبحانه وتعالى، الفاسق لا يهديه الله سبحانه وتعالى، المسرف الكذَّاب لا يهديه الله سبحانه وتعالى، المُختال لا يهديه الله، المتكبر لا يهديه، المسيء لا يهديه، العاصي لا يهديه .

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس)

فإذا قال الله عزَّ وجل :

(إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

هناك آياتٍ تزيد على خمسين آية فَصَّلَ الله سبحانه وتعالى من هؤلاء الذين لا يهديهم؟ الظالمون، الفاسقون، المتكبِّرون، الكاذبون، الخائنون، المختالون، هذا المعنى الثاني .

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

أنا أقول للطلاب مثلاً: آخذ معي إلى النُزهة من أشاء لكنني لن آخذ الكسول، توضَّحت مشيئتي، توضح أنني آخذ المُجتهد .

(إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

إذاً: من الذي يضله؟ الذي يعرض عنه، آية واضحة كالشمس، لكن أهل الكفر والضلال يأخذون هذه الآية ليتَّخذوها حجةً وهي حجة عليهم وليست لهم، يقولون: يا أخي الله يضل من يشاء، إذاً فأكمل الآية :

(وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

(وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

(سورة البقرة : من الآية 105)

أكمل الآية، فضله واسع، يسع الخلق كلهم، إذاً: من يشاء هنا تعود على الإنسان .

(بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ)

من البشر ، لأن ..

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

(إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(27)الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

لا يعرف الأمن والسكينة إلا من ذاقها :

إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والجمال، والمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، هذه السكينةُ لا يعرفها إلا من ذاقها .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

فنعمة الأمن لا يعرفها إلا من ذاقها .

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

(يَامُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ(10)إِلَّا مَنْ ظَلَمَ)

(سورة النمل)

أي أن الذي يظلم نفسه يخاف، والذي يظلم من حوله يخاف، يقذف الله في قلبه الرعب .

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ)

المؤمن آمنٌ مطمئنٌ لأنه يعلم أن الأمر كله بيد الله :

المؤمن سبب طمأنينته أنه يرى أن الأمر كله لله، وأن الأمور كلها ترجع إلى الله، وأن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وأنه إليه يرجع الأمر كله، وأنه في السماء إله، وفي الأرض إله .

وأنه :

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر : من الآية 2)

انتهى الأمر، اجعل الهموم هماً واحداً يكفك الهموم كلَّها، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

ما لك لك ، وما ليس لك ليس لك :

((ألا وَإِنَّ الرُّوحَ الأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ رِزْقٍ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ، فَإِنَّهُ لا يُدْرَكُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إلا بِطَاعَتِهِ))

[البيهقي عن ابن مسعود]

" إن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً " .

فعند المؤمن طمأنينة لو وزِّعَت على أهل بلد لكفتهم، وفي قلب الكافر خوفٌ وقلقٌ وذعرٌ ورعبٌ لو وزِّع على أهل بلدٍ لأفزعهم .

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ)

يا فلان لقد احترق متجرك، ابتسم وقال: ما كان الله ليفعل، لا، لم يحترق متجري، أبو الدرداء، " يا أبا الدرداء لقد احترق حانوتك " قال: " ما كان الله ليفعل "، ثم جاءه آخر فقال: " لم يحترق حانوتك احترق الحانوت الذي إلى جانبه "، قال: " أعرف ذلك.. مطمئن إلى رحمة الله.. ذلك مرضٌ ما كان الله ليصيبني به "، أعرف صديقاً مؤمناً استيقظت زوجته وقد رأت ابنتها مشلولة فصرخت فقال: اسكتي ما كان الله ليصيبني بهذا المرض، وفعلاً هناك مرض مشابهٌ تماماً لهذا المرض يزول بعد يومين، مطمئن.

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

أنت في رعاية الله، في ظل الله، في حفظ الله، في توفيق الله، إن الله يدافع عنك ..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة : من الآية 257)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة فصلت)

إذا كان الله عزّ وجل هو ملك الملوك يقول :

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

من تخاف ؟ من تخشى؟ من ترهب؟ لماذا تقلق؟ قارئ القرآن لا يحزن .

((لا يحزن قارئ القرآن))

[ورد في الأثر]

من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي خيراً مما أوتي فقد استصغر ما عظَّمه الله، حَقَّر ما عَظَّمه الله، إن كنت مؤمناً فنم ولا تبال، هنيئاً لك أنت من ملوك الدار الآخرة، إن المؤمن حينما يموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كما يخرج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، ساعة الموت عُرس المؤمن، " لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه " .

والله الذي لا إله إلا هو يأتي على المؤمن في ساعة الموت سعادة لو عرفها أهله لضحكوا، لفرحوا، لأقاموا الزينات في البيت، إلى أين أنت ذاهب؟ إلى رحمة الله، يقول لك المُلَقِّن: اللهم أبدله أهلاً خيرا من أهله، وداراً خيراً من داره، وزوجة خيراً من زوجته، ولقّه الأمن والبشرى والسلامة والزلفى، اللهم نقه من الخطايا كما ينقّى الثوب الأبيض من الدنس "، هذا التلقين لنا وليس للميت، لنا نحن، هناك حياةٌ أبدية لا نغص، لا قلق، لا ارتفاع أسعار، لا ندرة مواد، لا خوف، لا حزن، لكن :

((أعددت لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري]

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِي(19)إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة)

لذلك :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ)

علامة إيمانك أنك تطمئن بذكر الله، ترتاح نفسك، تستقر مشاعرك، لا تقلق، لا تحزن، لا تخاف، لا تخشى، تتوكَّل، ترى أن الأمر كله لله، وأنه لا يقع شيءٌ إلا بأمر الله، وأن كل من تخافه بيد الله ..

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

هذا التوحيد .. ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

هذا التوحيد يورث في الإنسان الطمأنينة، فقال عليه الصلاة والسلام :

((برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله))

[ورد في الأثر]

فإذا اطمأننت إلى ذكر الله، واطمأن قلبك فأنت مؤمن، لذلك المؤمن يتغنَّى بكتاب الله، ولا يستطيع أن يتغنى بشيءٍ آخر، لا يستطيع، المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، والمنافق في المسجد كالعصفور في القفص، لكن كلمة عصفور كثيرةٌ عليه، خطأ المثل، لكنه محبوس، متضايق .

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(28)الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ

معنى : طوبى :

طُوبى على وزن كُبرى، من طاب يطيب، طابت حياتهم في الدنيا والآخرة، طابت من كل نغص .

(طُوبَى لَهُمْ)

حياةٌ لا توصف لشدة ما فيها من سعادة ..

(طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)

معنى : حُسْنُ مَآبٍ :

أي عودة مشرفة إلى الله عزَّ وجل، ما فيها خزي، الكافر ..

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(1)وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(2)عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ(3)تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً(4)تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ(5)لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ)

(سورة الغاشية)

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

(سورة آل عمران : من الآية 106)

(تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ(41)أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)

(سورة عبس)

فهذا شر مآب، أما المؤمن يستقبل كضيف ..

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

(سورة الحجر)

هنيئاً لكم طبتم ..

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

(سورة الحجر)

إذاً :

(طُوبَى لَهُمْ)

أي طابت حياتهم في الدنيا والآخرة .

(وَحُسْنُ مَآبٍ)

وإذا انقلبوا إلى الله عزَّ وجل ينقلبون إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 30 – 32

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-09-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في تفسير سورة الرعد إلى قوله تعالى :

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

إرسال الرسل سنة خالية في الأمم السابقة :

أنْ يبعث الله سبحانه وتعالى رسولاً إلى الأمة العربية شيءٌ طبيعي، لأن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى كل أمةٍ رسولاً، فإرسال هذا النبي الكريم لهذه الأمة شيءٌ له ما يقابله في الأمم السابقة ..

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ)

كل أمةٍ بدافع من رحمةٍ أو حرصٍ أو رغبةٍ في إسعادٍ الله سبحانه وتعالى أرسل لها رسولاً يهديها سواء السبيل .

الله محمودعلى خلق الكون وعلى إنزال الكتب :

الله سبحانه وتعالى يقول :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : من الآية 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا)

(سورة الكهف)

فكأن خلق السماوات والأرض لا يقابله إلا إنزال هذا الكتاب، أي أن الله سبحانه وتعالى لرحمته، ولِلطفه، ولحرصه على سعادتنا خلقنا، أنعم علينا بنعمة الإيجاد، وأنعم علينا بنعمة الإمداد ..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا)

(سورة الرحمن)

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

الحكمةمن كون النبي أميًّا :

لِمَ جعل الله سبحانه وتعالى النبي عليه الصلاة والسلام أميًّا؟ لو أنه تعلّم من ثقافة عصره، ثم جاءه الوحي من الله عزَّ وجل لاختلط الأمر على الناس، أهذا من الوحي أو من ثقافته؟ ولكن حكمة الله البالغة جعلت النبي عليه الصلاة والسلام أميًّا، لأن كل الذي سيقوله وحيٌّ من عند الله، إما أنه وحيٌ متلوٌ وهو هذا الكتاب الكريم، وإما أنه وحيٌ غير متلوٍ، وهذه هي السُنَّة المُطَهَّرة .

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة النحل : من الآية 44)

على كلٍ :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

حينما نعتقد اعتقاداً جازماً أن هذا الكتاب من عند الله، من عند خالق السماوات والأرض ..

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت : من الآية 42)

لا ريب فيه، إذا اعتقدنا هذا الاعتقاد وجب أن نُعنى بكل كلمةٍ، وبكل حرفٍ، بل وبكل حركةٍ في هذا الكتاب .

لو طبَّق الناس ما في القرآن لسعِدوا في الدنيا والآخرة :

أحياناً تقرأ كلمة على ورقةٍ، ولكنَّ هذا الكلام خطير، مثلاً: لو قرأت على ورقةٍ طريقة تفجير القنبلة النوويَّة.. فالكلمات حبرٌ على ورق، ولكنَّ هذه الكلمات لو طبِّقت لكان حدثاً عظيماً، وعلى شكلٍ آخر كلمات لو طبِّقت لسَعِدَ البشر كلُّهم، هذه الحروب الطاحنة التي تشقي البشريَّة، هذا الشقاء الذي شقي به الناس، لأنه من صنع أيديهم، ولو أنهم قرأوا هذا الكتاب وطبَّقوه لكان أثر هذا الكتاب إلى درجةٍ فوق التصوُّر ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من الآية 97)

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : من الآية 9)

للتي هي أصلح، والمطلق على إطلاقه، أقوم في كل شيء، في حياتك الخاصَّة، وفي حياتك العامَّة، فلذلك :

(لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

وقيمة الكتاب من قيمة مُرْسِلِهِ، فكيف إذا كان من عند الله؟ وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، فهل يوازى كتابٌ في مكتبة مع كتاب الله؟ لا يوازى، هذا الكتاب .. فكتاب البشر.. فيه خطأ وفيه صواب، وفيه موضوعات توسَّع في بحثها، وموضوعات اختصر في بحثها، و قد نجد تناقضاً، و قد نرى خللاً، وقد ننظر عدم انسجامٍ أو نشعر بضعف، ولكن كتاب الله سبحانه وتعالى لا ريب فيه ..

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ)

هؤلاء الذين جاءهم الكتاب ليهديهم إلى سواء السبيل، لينقذهم من الظلمات إلى النور، و ليخرجهم من الظلمات إلى النور، و من الشقاء إلى السعادة، ومن حول الشهوات إلى قمم الطاعات، هؤلاء يكفرون بالرحمن، والكفر هنا لا يعني إنكار الوجود إنما يعني الإعراض ..

(إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

(سورة التوبة)

يصلي ويُنفِق وهو كافرٌ بالله، أي معرضٌ عنه ..

(وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ)

وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ

اسم " الرحمن " :

الرحمن اسم الله الجامِع، أي لطفه من رحمته، وقبضه من رحمته، وبسطه، ومنعه، وعطاؤه، ورَفعه، وخَفضه، وعزُّه، وذلُّه كل ذلك من رحمته، فإذا أذلَّ إنساناً فهذا من رحمته .

فالرحمن اسم الله الجامع، والله اسم الله الأعظم، علمٌ على الذات الكاملة، والرحمن اسم الله الجامع، فالرحمن يجمع أسماء كثيرة ..

(وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ)

وقد تلتقي بإنسان يرى الدنيا عنده كبيرة ولها أهميَّةٌ قصوى، لكن الله سبحانه وتعالى سواءٌ أعرفه أم لم يعرفه، أأرضاه أم لم يرضه، أتقرَّب إليه أم تباعَد عنه، أكان عمله وفق الشرع أم خلاف الشرع، فإنه لا يبالي، و لا يعبأ، ولا يهاب الله عزَّ وجل، و لا يخشاه، فلمَّا هان الله على الناس هانوا على الله، و ضَيَّق عليهم، و شَحَّت السماء، و غَلَت الأسعار، و حينما ينحرف الناس عن الله سبحانه وتعالى يؤدِّبُهُم ويعالجهم .

(قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ

معنى الرب ودلالاته :

ومعنى ربي أي الذي يمدُّني، و ما من كلمةٍ أقرب إلى الإنسان من كلمة رب، كأنك إذا ربَّيت نبتةً، و رعيتها، و وراقبتها، و ولاحظتها، وأمددتها بالماء وبالسماد، وقلَّمتها، وحاولت أن تقدِّم لها كل شيء، فإذا أَيْنَعَت ثمارها، واخضرَّ عودها شعرت بجدَّةٍ من السعادة لأنك قدَّمت لها شيئاً ثميناً، والمربي في المدرسة؛ يلاحظ، ويوضِّح، ويقوِّم، ويؤدِّب، ويكافئ، ويجازي ..

(قُلْ هُوَ رَبِّي)

سمعت مرَّة كلمة من إنسان قال يخاطب آخر: إن لم يكن له أب أليس له رب؟ إن كنت يتيماً، أو لم يكن لك رب بيده كل الأمور .

(قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

أي لا مسيِّر لهذا الكون إلا هو، هذا هو التوحيد، فكأنَّ هذا الكتاب كلَّه ينطوي على حقيقة واحدة، وهي أنه لا إله إلا الله، وهذه كلمة الإسلام الأولى، و كلمة التوحيد، فلماذا تعصي الله؟ لأنك رأيت أن هذا الذي تفعله أثمن من الله وأغلى، أما إذا عرفت أنه لا إله إلا الله فإنك لا تطيع إنساناً في معصية الله .

(قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

التوكل على الله قوة وغنى :

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله .

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى

المعنى الأول :

تروي كتب التفسير أن بعض كفَّار قريش سألوا النبي عليه الصلاة والسلام أن يُسَيِّر جبال مكَّة، ويباعد فيما بينها كي تتسع الأرض، وتكون أرحب لهم، وسألوه أيضاً أن يُسَخِّر لهم الريح فينتقلوا بها إلى بلاد الشام غدواً وعشيًّا، وسألوه أيضاً أن يحيي لهم أجدادهم ليكلّموهم، ويستنبئوهم عن الدار الآخرة وعن الجنَّة والنار، و هذا بعض ما قاله المُفَسِّرون، وهناك معانٍ أخرى تُستفاد من هذه الآية ..

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)

حذف جواب (لو)وفائدة ذلك :

لم يأتِ الجواب لأن كلمة (لو)أداة شرطٍ غير جازمة، أي أنها تحتاج إلى فعل شرطٍ وجواب شرط، لو جئتني لأكرمتك، ولو أعطيتني لكافأتك، و لو أقبلت علي لزرتك، فلو أداة شرطٍ غير جازمة، ولها معنى دقيق حرف امتناعٍ لامتناع، أي امتنع وقوع جوابها لامتناع وقوع شرطها، لو جئتني لأكرمتك، أنا لم أكرمك، امتنع الإكرام بامتناع المجيء ..

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)

لا جواب، قال بعض المفسِّرين: " الجواب مُقَدَّر، وكل كلامٍ فُهِمَ من دون أن يُذْكَر والأولى أن لا يُذْكَر، لأن البلاغة في الإيجاز " . إذاً :

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)

لو رأوا كل الآيات لما آمنوا :

لَمَا آمنوا، لماذا؟ لأنهم حينما غفلوا عن هذه الآيات الكبرى التي بثَّها الله في الأرض وفي السماء، إذا غفلوا عن كل هذه الآيات أفيؤمنون ببعض؟ إذا غفلوا عن الكل أفيؤمنون بالجُزء؟ أي أن الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض ..

وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنه واحدٌ

فحيثما التفت، و حيثما نظرت، وأينما ذهبت ترى الآيات طافحة ..

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

(سورة الطارق)

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(1)وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا(2)وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا(3)وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

(سورة الشمس)

(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات)

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(25)ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا(26)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(27)وَعِنَبًا وَقَضْبًا(28)وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا(29)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(30)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(31)مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

(سورة عبس)

فالنبات آية، والحيوان آية، وجسمك آية، وأسرتك آية، والطعام آية، والماء آية، والجبال آية، وفي كل شيءٍ له آية، كل هذه الآيات غفلوا عنها وما رأوها، وما فكّروا فيها، وما دقّقوا، وما تأمّلوا، أفيؤمنون ببعض آياتٍ طالبوا بها تعجيزاً وليس استفهاماً؟ لذلك حسبكم الكون معجزة .

كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يؤكّد أن الذي لا يفكّر في الآيات التي بثّها الله وهي على وضعها الراهن، ما كان له أن يؤمن بالله من خلال خرقٍ لنواميس الكون، إذا كانت نواميس الكون لا تكفي كي تؤمن بالله فإن خرق هذه النواميس لا يكفي أيضاً، إن خرق النواميس لن يحملك على الهدى ما دامت النواميس كلُّها لم تجد فيها ما يكفي كي تؤمن بالله سبحانه وتعالى .

المعنى الثاني :

المعنى الثاني: أن هذا القرآن لو أُنزل على جبل لسار الجبل، لو أنزل على الأرض لقطّعت الأرض و لو أنزل على الموتى لتكلّموا، وأنتم أيها الناس ألم يهُزَّ هذا القرآن عقولكم؟ ألم يهُزَّ مشاعركم ؟

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر : من الآية 21)

على جبل، والقرآن بين أيدينا فيه ذكر ما قبلنا، وذكر ما بعدنا، هو حبل الله المتين، لا يبلى على كثرة الترداد، كلّما زدته فكراً زادك معنى، لا يحزن قارئه، و من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت ..

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)

وهو كذلك، لو تصوَّرتم أن هذا الكتاب إذا تُلِيَ على جبل سار، وإذا تلي على أرضٍ تقطَّعت، وإذا تلي على ميِّتٍ تكلَّم، وهو كذلك، فلو طبَّقتموه لقَلَبَ حياتكم رأساً على عقِب، و لو طبَّقتموه لحُلَّت كل مشكلاتكم، ولو طبَّقتموه لانتقلتم من الشقاء إلى السعادة، ومن الضياع إلى الوجود، و من سفاسف الأمور إلى عظائم الأمور، و من جهلٍ إلى علم، ومن تعبٍ إلى راحة، ومن قلقٍ إلى طمأنينة، و من شعورٍ بالفقر إلى شعورٍ بالغنى، و من شعورٍ بالتفاهة إلى شعورٍ بالأهميَّة، هذا هو القرآن .

(بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)

المعنى الثالث :

شيءٌ آخر في هذه الآية: أن هذا القرآن الكريم.. هذا المعنى الثالث.. لو جاء به النبي الكريم، فحينما قرأه سارت جبال مكَّة، و حينما قرأه تقطَّعت الأرض أو قُطِعَت به الأرض ..

معنيان: إما أنها تقطعَّت أو قُطعت، لو جاء النبي الكريم بهذا الكتاب فتلاه على الميِّت لنطق هذا الميت، ومع كل هذا لا يؤمن هذا الإنسان إلا إذا سار في الطريق التي رسمها الله له .

تقريباً لهذا المعنى: لو أن إنساناً اشترى كل المجلات الطبيَّة، وقرأها لا يكون طبيباً، ولو أنه قرأ كل المسرحيات لا يكون مؤلفاً، إلا أن يسلك الطريق المحدودة التي رسمتها الجامعة كي تمنح هذا الإنسان هذه الشهادة، فإن لم يفكِّر الإنسان بهذه الآيات التي بَثَّها الله، إن لم يستنبط منها أن هناك إلهاً عظيماً، رحيماً، سميعاً، بصيراً، عليماً، قديراً، قدَّر فهدى، وخلق فسوَّى، إن لم تستقم على أمره، و إن لم تتقرَّب إليه فإن الآيات لا تقدِّم ولا تؤخِّر .

لو أن طالباً نظر إلى مدرسٍ قدير، وهو يحلُّ مسألة عويصة في الرياضيات، أترى هذا الطالب لو نظر إلى هذا الأستاذ هكذا أيصبح عالماً بالرياضيات؟ لا، ما لم يفتح الكتاب ويقرأ، ما لم يحل المسائل تلو المسائل، و ما لم يسأل، وما لم يحفظ، و ما لم يجرِّب، و ما لم يخطئ ويُصيبْ فلن يكون عالماً بالرياضيات .

هناك طريق رسمها الله عزَّ وجل؛ إن لم نسلكها فلا جدوى من كل ما نفعله من ظواهر العبادات، هناك صلاةٌ يصليها الناس، و هناك صومٌ يصومه الناس، و هناك حَجٌ يحجُّه الناس، إن لم نكن في الطريق التي رسمها الله عزَّ وجل فلن نقطف ثمار هذا الدين، ولن نسعد لا في الدنيا ولا في الآخرة .

إذاً: في هذه الآية ثلاثة معان .

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)

تعقيب لطيف :

الأمر كلُّه لله، فمن الممكن أن تسيَّر الجبال، ولكن ليس هناك جدوى منها ..

مرَّةً قال لي مدرِّس: إن ابنه طلب إليه أن يكتب له موضوعاً في التعبير، والأب أستاذٌ في اللغة العربية، وابنه في صفٍ انتقالي، وليس شيءٌ أهون على الأب من أن يمسك القلم، ويكتب هذا الموضوع في خمس دقائق ليأخذ ابنه غداً علامةً تامَّة، ولكن هذا الأب رفض هذا الطلب، لا لشيء إلا لأن هذا العمل لا يجدي، ولا يرفع مستوى ابنه في اللغة ولا شعرة .. أما إذا كتب الابن الموضوع، وارتكب أغلاطاً كثيرة، وصُحِّحت له فقد يرقى أسلوبه، فحينما يمتنع الأبُ عن كتابة هذا الموضوع لابنه فلا يعني هذا أنه لا يستطيع، حاشا لله، ولا يعني هذا أنه لا يريد نفعه، إنه يستطيع، ويريد نفع ابنه، ولكنَّه لعلمه وخبرته وحكمته رأى أن كتابة هذا الموضوع لابنه من دون أن يبذل الابن جهداً لا يجدي إطلاقاً في رفع مستواه اللُّغوي .

إذا أردت أن أعقِّب مرَّةً رابعة على هذه الآية: أي أن الله سبحانه وتعالى حينما لم يسيِّر جبال مكَّة بهذا الكتاب، ولم تقطَّع به الأرض، ولم يكلَّم به الموتى لا لأن الله لا يستطيع، حاشا له، ولا لأن الله لا يريد الهداية، إنه يستطيع ولو فعل ذلك لما اهتدوا بل زادهم هذا كفراً، ولكنَّهم لو تأملوا وفكَّروا، واستقاموا وتقرَّبوا، وأصغوا واختاروا وأرادوا لاهتدوا، وهذا هو الطريق الذي رسمها الله سبحانه وتعالى لعباده كي يهتدوا إلى الله سبحانه وتعالى ..

(بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)

بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا

الأمر كلُّه بيدِ الله، كن فيكون، زُل فيزول، تحريك الجبل بكلمة، وبحرٌ عظيم بكلمة واحدة صار طريقاً يبساً ..

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِي)

(سورة الشعراء)

سُراقة بن مالك حينما تبع النبي ليقبض عليه، ويأخذ الجائزة غاصت قدما فرسه في الرمال، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كل شيء في الأرض على الله يسير .

((لو أن أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

نارٌ أضرمها قوم سيدنا إبراهيم سبعة أيام إلى أن كانت كالجبل، كلمة واحدة :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

انتهى الأمر، سيدنا رسول الله اللهمَّ صلِّ عليه وهو في الغار، قال سيدنا أبو بكر : " يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا "، قال :

((يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما " . فلمَّا وقعت عينهم على عين أبي بكر ، العين بالعين أصابه ذُعْر وقال : " يا رسول الله لقد رأوني" قال : ألم تقرأ قوله تعالى : وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ(198)))

[ورد في الأثر]

لا يرون، انتهى الأمر، كل شيءٍ بيدِ الله عزَّ وجل، كن فيكون، حتى أجهزتك، تعمل فحصاً فيقول لك: هناك ضيق في الدسَّام الفلاني، لو شاء الله عزَّ وجل لوسَّعه من دون عمليَّة، ولكن هات ثقة بأن الله على كل شيءٍ قدير، وخذ هذا الشفاء من الله عزَّ وجل .

والله أعلم أُناساً كثيرين وضعوا كل ثقتهم بالله عزَّ وجل والتجئوا إليه فشفاهم الله سبحانه وتعالى، وهذا يسمِّيه الأطبَّاء الشفاء الذاتي، فحينما يدرس طلاَّب الطب بعض الأمراض يأتي ذكر الشفاء الذاتي ..

(بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)

فالدماغ بيد الله عزَّ وجل و العضلات بيد الله، و السمع و البصر بيد الله، وهذا سيدنا عمر وهو على المنبر يقول : << يا سارية، الجبلَ الجبلَ >>، و سارية قال : << أسمع صوت أمير المؤمنين يحذِّرنا الجبل >>، الآن تحتاج إلى أجهزة، وأجهزة اتصال، وأجهزة معقَّدة، " يا سارية الجبل الجبل "، من المدينة إلى العراق، كن فيكون ..

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

((لَوْ أَنّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

(بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا

الهدى القسريلا يسعِد صاحبه :

أيها المؤمن، آن لك أن تعرف الهدى القسري، فلو أن الله سبحانه وتعالى أنزل بهم نازلة، ولم يرفعها عنهم إلا إذا اهتدوا، أو صلوا مثلاً فيصلون خوفاً من هذه النازلة، فهل معنى هذا أنهم قد اهتدوا؟ لا والله، ليس هذا هو الهدى، وشيءٌ يسيرٌ عليه أن يهديهم هدىً قسرياً، ولكن هذا الهدى لا يسعدهم، ولا يرفعهم .

إن كتابة موضوع التعبير من قِبَلِ الأب المدرِّس شيءٌ يسيرٌ على الأب، ولكن كتابة هذا الموضوع لا تُجدي، ولا تنفع الطالب شيئاً، لو أن الله هداهم لأصبحوا ملائكة، ولماذا، لأن طبيعة الإنسان أنه مخيَّر، ومعنى مخيَّر أنه مبتلى، فإذا كان الهُدى قسرياً تعطَّلت علّة الابتلاء ..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

(سورة الملك)

فطبيعة المدرسة هناك امتحان، فلو أنَّك ألغيت الامتحان، أو وَزَّعْتَ على الطلاب أوراقاً مكتوبة بالإجابات الكاملة، لو جئت إلى هذه الأسئلة.. مثلاً.. وكلّفت كبار المدرسين بكتابة أجوبةٍ عنها، ثم بُعِثَت أوراق الإجابة إلى المطبعة، وطُبِعَت الإجابة التامَّة، ووُزِّع على الطلاب أوراق الأسئلة وأوراق الأجوبة مطبوعةً في المطبعة، وما على الطالب إلا أن يكتب اسمه ورقمه، ويغلق الورقة ويقدِّمها للمراقبين، أهذا امتحان أم هذا نجاح؟ أو أيعدُّ الذي نجح ناجحاً؟ أو يسمى هذا امتحاناً؟ كلا.. فتصوَّر أن إدارة جامعة وزَّعت أوراق الأسئلة وأوراق الإجابة مطبوعاً عليها الإجابة بشكلٍ أمثل كالكتاب تماماً، وما على الطالب إلا أن يكتب اسمه ورقمه فقط تقول: هذا امتحان؟ إن شيءٌ مضحك، أأنت ناجح؟ أتستهزئ به، أهذا نجاح؟

لو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يهدي الناس هدىً قسرياً لكان مثل هذا النجاح لا قيمة له، و لا يسعد، و لا يرفع صاحبه، و لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يسعدنا سعادةً أبديَّة، فجعلنا نختار، و جعلنا نُبْتَلى..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

(سورة الملك)

علّة الخلق الابتلاء، و لو كان الهُدى عامَّاً قسرياً لتعطَّلت علّة الخلق، ولفقد الإنسان هويَّته، فمن أنت؟ هل أنت إنسان؟ لست ملك، لأن الملك لم يُبْتَلَ، ولم يكن مختاراً، بل كان مسيَّراً لا مخيَّراً ..

(أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

كأن تقول الأم لزوجها المدرس: يا أخي أعطِ الأسئلة لابنك، إنه مسكين، يقول لها: ألا تعلمين بأن إعطاء الأسئلة لا يجدي، و لا يرفعه، وأنا الذي سأفحصه، و إن أعطيته الأجوبة، وكتبت ما أعطيته فما قيمة هذا النجاح؟ دعيه يدرس .

(أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

القضيَّة سهلة، ولكن غير مجدية ..

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ)

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ

الإنسان حرٌّ في اختياره :

أما هذه الآية ففيها نقطة دقيقة جداً، أي أن الله سبحانه وتعالى لا يتدخَّل أبداً باختيار الإنسان، لكنه يتدخَّل بالظروف المحيطة به، أي رحمة الله تقتضي أن الله عزَّ وجل إذا رأى عبداً قد انحرف، وحوله صعوباتٌ في حياته، فهو مختار، فلو أن كرةً على منبسط لا يمكن أن أمسك بالكرة، وأضعها في المكان الذي أريد، و لو فعلت هذا لأبطلت حريَّة اختيارها ، ولكنني أُغَيِّر طبيعة الأرض، فأضع أمامها عقبات، أو أسهِّل الطريق أمامها فرحمة الله سبحانه وتعالى تنصبُّ على الظروف المحيطة بالإنسان، أما لو تدخَّل الله في اختياره لأبطل الابتلاء، ولأبطل عِلَّة الخلق في الدنيا، ولما كان لهذه الأمانة من معنى ..

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

فما الأمانة؟ إنها التكليف، وما التكليف؟ إنه الاختيار، أنت مخيَّر، فالله عزَّ وجل يتدخَّل في الظروف المحيطة، إذا اخترت اختياراً صحيحاً شجَّعك الله ويسَّر أعمالك ..

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

" أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد " .

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ)

معالجة الله للعبد إذا انحرف :

أي مصيبة ..

(أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ)

لو فرضنا أباً خيَّر ابنه فقال له: يا بني، إن شئت أن تدرس فأنا مستعد لدفع كل النفقات، وإن شئت أن لا تدرس فأنا مستعد لدفع مصروفك، خيَّره، لكنَّ الأب عالِم بقيمة العلم، و مع أنه خيَّره لو أن الابن اختار أن لا يدرس لضيَّق عليه لقد نصحه، وبيَّن له، و وبَّخه قرَّعه، وأنَّبَهُ، ووجه نظره، و حرمه المال، و ضربه ..

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ)

المعالجة مستمرَّة، أما لو أن الله سبحانه وتعالى خيَّرنا وتركنا، فاختار واحدٌ منَّا طريق الضلال فأمدَّه الله بالقوَّة، والمال، والصحَّة، والوجاهة، وغَرِقَ في شهواته والاستمتاع بالملذَّات إلى أن انتهى أجله، فجاء ملك الموت، فإذا هو في جهنَّم، ينشأ في نفس هذا الإنسان عتبٌ على الله شديد يقول له: يا رب أنا جاهل، ذكَّرني، ونبِّهني، و أدبني، و عالجني، و ضيِّق علي، و أمرضني، و خوفني ..

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

(سورة طه)

إذاً: هذه المصائب لابدَّ منها ..

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام)

تقتضي رحمته أن لا يردُّ بأسه عن أحد، فإذا أحبَّ الله عبداً عَجَّل له بالعقوبة، وإذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه.

((إن الله ليحمي صَفِيَّه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام))

[ورد في الأثر]

المصائب سببها عمل الإنسان :

المؤمن مبْتَلى ..

(بِمَا صَنَعُوا)

فيضان ..

(بِمَا صَنَعُوا)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا)

قوارع التأديب كثيرة ومتنوعة :

وهناك حيوان اسمه السَمَك الهُلامي، غزا شواطئ فرنسا وإيطاليا واليونان، وكثافته في البحر على الشواطئ في كل متر مكعَّب خمسة وعشرون سمكة هُلاميَّة، شريط من هذا السمك طوله كيلو متران فيه مليارات من السمك الهُلامي، ثمان وتسعون بالمائة منه ماء، على شكل قنديل، له أرجل على شكل خيوط دقيقة جداً مجوَّفة يمرُّ فيها السُم، هذه الخيوط على شكل حلزوني نابض له زند، وإذا مسَّ هذا السمك جسماً ما انطلقت ملايين الخيوط لتنفث السُم في جسم الضحيَّة، و بعض السبَّاحين في اليونان وصف ما حلَّ به، فقال : " شعرت بلسعةٍ حارَّةٍ في رُكبتي كأنها لسعة مكواةٍ حامية، وبعد دقائق شعرت كأن دبابيس تُغْرَسُ في رأسي، و بعدئذٍ غبت عن الوعي، وحينما أُسْعِفْت قيس ضغطي فإذا هو صفر، " وبعض أنواع هذه الأسماك تقضي على الإنسان في دقيقتين، أما الشيء الذي جذب نظري في هذه المقالة أن كاتب المقالة يقول: " إن علماء الحياة البحريَّة لا يجدون منطقاً أو قاعدةً أو هدفاً في تَحَرُّك هذه الأسماك ".

الطيور لها منطلق من الصيف إلى الشتاء، من بلادٍ باردة إلى بلادٍ حارَّة، من الشمال إلى الجنوب، أكثر الحيوانات، الأسماك، الحيتان هناك قاعدة تحكم تحرُّكاتها، أسماك السلمون، ثعابين المياه، إلا أن هذه الأسماك الهُلاميَّة.. قناديل البحر.. وليس هناك أية قاعدة في تحرُّكاتها، شيءٌ عجيب، قلت: سبحان الله! إذا كان علماء الحياة البحريَّة لم يكتشفوا قاعدةً في تحرُّك هذه الأسماك في المحيطات والبحار، لكن علماء التوحيد يرون أن هناك قاعدةً واضحة ثابتة تحكُم تحرُّكات هذه الأسماك، إنها تتجه نحو الشواطئ التي كَثُرَ فيها الفساد، طبعاً هذه القاعدة ..

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا)

بفسقهم وفجورهم ..

(قارعَة)

قبل أسابيع غزا الجراد بعض بلاد أفريقيا، فسمعت أنه أكثر من مائة مليون طن من المواد الغذائيَّة، أو المحاصيل، أو النباتات يلتهمها الجراد في يومٍ واحد وهذه مصيبة ثانية ..

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قارعَة)

في بلاد أمريكا هناك أعاصير تدمِّر كل شيء، مدينة بأكملها لا يبقى منها شيء، وهناك سفنٌ ضخمة يَدَّعي صانعوها أنها لا تغرق ففي أول رحلةٍ لها غرقت، قالوا: " إن القدر لا يستطيع إغراق هذه السفينة "، في أول رحلة عليها ثلاثة آلاف مسافر هم قِمَم المجتمع الأوروبي في القرن التاسع عشر، أغنياؤهم، عليَّة القوم، لقد غرقت في أول رحلة ..

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ)

أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ

الزلازل ..

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

إذاً رحمة الله تقتضي أن يصيب الذين كفروا بقارعةٍ ..

(أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ)

فإذا أردت أن تنجو فكن مؤمناً ..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

عندما دخل سيدنا يونس إلى بطن الحوت ..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

الله ينجي من مصائبه وقوارعه من يشاء من عباده :

أبْشِر، والله الذي لا إله إلا هو لو أن مصيبة كُتِبَت على ستَّة آلاف مليون إنسان، أي على جميع سكَّان الأرض إلا واحداً الله سبحانه وتعالى يُنَجِّي هذا الواحد بقدرةٍ فائقة .

طائرةٌ تُحَلِّقُ فوق جبال الألب على ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم احترقت، فمات جميع ركَّابها إلا واحداً وقع في المكان الذي تصدَّعت منه الطائرة، فنزل على غابةٍ من الصنوبر مجللةٍ بخمسة أمتارٍ من الثلج، فكانت خمسة الأمتار وأغصان الصنوبر المرنة كامتصاصٍ لهذه الصدمة، نزل واقفاً على قدميه، وكذلك إذا أراد الله عزَّ وجل أن ينجي إنساناً فلابدَّ من أن ينجو، فحينما تأتي المصائب، والكوارث

والزلازل، والفيضانات، والجراد والأسماك الهُلاميَّة فالمؤمن وحده ينجو لأنه ما عصى الله على البحر ولو أنه عصاه لجاءته هذه الأسماك ..

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ)

إذا أتى وعد الله فلا ينفع اعتذار :

حينما يأتي وعد الله لا يستطيع هذا الكافر أن يقول: ربي لو ذكرتني، ذكَّرتك مليون مرَّة، ربي لو أنذرتني، لو حذَّرتني، لو وبَّختني، لو قرَّعتني، لو أدَّبتني، لو عالجتني، كل يوم عندك خمسون درساً وأنت أصم وأعمى ..

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

فإذا تابعه الله عزَّ وجل وضَيَّق عليه وعالجه فعليه أن يفرح، لأن معنى هذا أن فيه خيراً، فإذا تركه هملاً فمعناه مقطوعٌ منه الرجاء ..

(حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

هنيئاً لمن اتعظ قبل أن يأتي وعد الله ، هنيئاً لمن عرف الله قبل فوات الأوان ..

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ)

(سورة الأنعام)

" من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر " .

فالذي تأتيه المصائب، ويفسِّرها تفسيراً أرضيَّاً فهذا مصيبته في نفسه أكبر إذ نفسه هي المصيبة ..

(وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ

الإمهال وإرخاء الحبلبداية النهاية :

الكافر أحياناً يُمَد، و يُمْهَل، و يُرْخَى له الحبل حتى يظن أن الله يحبه، أو حتى يتوهَّم، ولكن مقياس محبَّة الله ليست عدم نزول المصيبة، ولكن انطباق سلوك الإنسان على شرع الله، أناسٌ كثيرون يُمدُّ الله

لهم مدّاً، فتجد أن الدخل كبير والمعاصي كثيرة، ويظن أن هذه الحياة هكذا، ولا يوجد حساب ..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

فحينما تأتي الضربة القاصمة عندئذٍ يتذكَّر الإنسان ..

(وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)

(سورة الفجر)

لا تنفعه عندئذٍ الذكرى، فمقياس محبَّة الله لك شيءٌ واحد، هو انطباق عملك على الشرع، أما سلامتك من المصائب فهذه قد تكون إمداداً وإمهالاً، واسترسالاً، وإرخاء الحبل، الحبل مُرْخَى، لكن إذا شُدَّ الحبل وقعت في الفخ فعلى الإنسان ألا يطمع، فإذا رأيت الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره، لأن في هذا موعظة بليغة ..

(وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

فَكَيْفَ كَانَ عِقَاب

وهناك صاحب معمل حلويَّات في لبنان، من أشهر أصحاب معامل الحلويات، كانت طائرة يوميَّة تُرسل إلى بلاد الحجاز من إمداد معمله، طائرة شحن بكاملها يومياً، دخل إلى معمله مرَّةً فلم يعجبه عمل بعض العمَّال، فأمسك عجينة المعمول ووضعها على الأرض وداسها بأقدامه، وقال لهذا العامل: هكذا تُعْرَكُ العجينة، فقال: يا سيدي أبأقدامك؟! قال: نعم الناس تأكل من تحت أقدامي، مضى على هذه الحادثة أربعون أو خمسون يوماً أصيبت رجلاه بمرض الموات.. الغرغرين .. فقُطِعَت رجلاه من الرُكبتين، والآن يجلس في لندن ..

(فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

أيأكل الناس من تحت أقدامك؟ أهكذا تهين نعمة الله عزَّ وجل؟ أهكذا بلغ بك الغرور؟ قُطِعَت رجلاه من ركبتيه ..

(فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

الله عزَّ وجل يُمهل، ولا يُهمل، حتى إذا أخذه لم يفلته، الله سبحانه وتعالى هذا الذي يستهزئ برسل الله قد يجعل تدميرَه في تدبيره، يفكِّر يفكِّر ويدبِّر، فيدمَّر في تدبيره ..

(وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

ما قولك؟ فالسعيد من اتعظ بغيره، والشقي لا يتعظ إلا بنفسه، السعيد من عرف الله في الرخاء، والناجي من عرفه بعد الشدَّة، ولكنَّ الشقي كل الشقي الذي لم يعرفه لا في الرخاء ولا في الشدَّة .

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

في درسٍ قادم إن شاء الله وفي آية مهمَّة جداً أرجأتها لهذا الدرس :

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

وبهذه الآية تجسيد، واحد واقفٌ فوق رأسه ، أحياناً يقف المراقب فوق رأس الطالب، بينه وبينه ثلاثون سنتيمترا.. وهكذا.. يراقب كل حركةٍ، و كل همسةٍ، و كل نظرةٍ، و كل شيءٍ ..

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

إن شاء الله تعالى في درسٍ آخر قادم نشرح هذه الآية بتوفيقٍ من الله وفضله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (9-9): تفسير الآية 33 – للأخير

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-09-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في سورة الرعد إلى قوله تعالى :

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

الشكل الحسي لمعنى الآية :

هذا المعنى كان من الممكن أن يكون بشكلٍ تجريدي، لكن الله سبحانه وتعالى عرضه علينا بشكلٍ حسي، كيف إذا وقف إنسان فوق إنسان يتفحَّص عمله حركة حركة، فأدنى حركة و أدنى إشارة و أدنى عبارة و أدنى كلمة و أدنى نَفَس مسجلٌ عليه، وسوف يحاسبه عليه، الله سبحانه وتعالى قائمٌ على كل نفسٍ بما كسبت .

(يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ)

(سورة الأنعام : من الآية 3)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد : من الآية 4)

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

كالأعمال والنيات والمطامح وما يخفيه الإنسان و ما يعلنه ..

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

الجواب محذوف، لأن ما قبله يدلُّ عليه .

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

كلُّ مخلوق تحت مراقبة الله :

ويحاسبُها على عملها، قائم بمعنى يعلم ويجزيها على عملها، كمن ليس كذلك، هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله أهم هكذا، فما من إنسان على وجه الأرض وما من حيوان، وحتى النباتات، حتى كل المخلوقات إنما تُحاسب حساباً دقيقاً، لا تُقتل البهائم إلا بغفلة .

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

المراقبة تبعث على الاستقامة :

فهذا المعنى لو أن الإنسان تمثّله لاستقام على أمر الله، آيةٌ واحدة تبين حكمة الحج :

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة : من الآية 97)

أي أنك إذا علمت أن الله يعلم حُلّت كل المشكلات، لأنك إذا علمت أنك مراقب تستقيم فلو جاءك خبر أنك مراقب تنضبط انضباطاً عجيباً، هذا إذا كان الذي يراقبك إنساناً، فكيف لو تأكّدت أن خالق السماوات والأرض يراقبك، وقائمٌ على نفسك، يراقبها، ويراقب مسعاها، و تحركها، و نياتها، و مطامحها، و أمانيها، و رغباتها، و ما تعلنه، و ما تظهره، و ما تسرُّه، و ما تخفيه ..

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

كيف يعصي الإنسان ربَّه و هو يعلمأنه يراقبه وسيحاسبه ؟!

والله الذي لا إله إلا هو شيءٌ واحد يدعو إلى العجب؛ أن ترى إنساناً يعصي الله، كيف لا يرى أن الله معه؟ أن ترى إنساناً يخدع إنساناً، يأكل ماله، و يعتدي عليه، و يتجاوز حدوده معه ويظلمه، فكيف لا يرى أن الله يراقبه، وسوف ينتقم منه، وسوف يحاسبه حساباً عسيراً ؟

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

أي إن ربنا عزَّ وجل كل شيء مكشوف أمامه، فليس الموضوع موضوع علم فقط بل، الموضوع أخطر من ذلك، موضوع علمٍ وموضوع جزاء، يعلم ويجازي إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

ويجزيها بما كسبت، كمن ليس كذلك، لذلك قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

(سورة النساء)

وقوله تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

وقوله تعالى :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد : من الآية 4)

وقوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة المجادلة)

هذه الآيات الكريمة التي توضح أن الله معنا، وهذه الآيات لو عقلنا معناها لاختلفت خطتنا في الحياة كلها، فانتهى الكذب، وانتهى الخداع والتدليس، والانحرافات، والمعاصي، فالعبرة أن تعلم أن الله يعلم .

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

أحياناً الإنسان يكسِبُ عملاً، فيخطط له، و يختاره، و يدفع ثمنه ..

(بِمَا كَسَبَتْ)

فالإنسان يكسب الخير أو الشر، أما الذي لا دخل لك به، ولم تكتسب به إرادةً فهذا له موضوعٌ آخر .

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ

الشركاء أسماء لا حقيقة لمسمياتتها :

أي هم بتفاهتهم، طبعاً الشركاء لها أسماء، اللات والعزى، لكن المقصود من هذه الآية أن هؤلاء الشركاء لتفاهتهم و لضعفهم ولجمودهم، إنهم لا يسمعون، و لا ينطقون، و لا يجيرون، ولا يعلمون، لا يتحركون، ولتفاهتهم لا يستحقون الأسماء، فإذا قال الله عزَّ وجل :

(قُلْ سَمُّوهُمْ)

أي ما صفاتهم؟ هل لهم صفات تؤهِّلهم أن يعبدوا من دون الله؟ إن كانت كذلك فما هي؟ وهل لهم تصرف في الكون؟ وهل يسمعون؟ وهل يجيبون؟ وهل يَرَوْن؟ وهل يعلمون؟ وهل يتحركون؟ وهل

ينطقون؟ وهل ينجدون أتباعهم؟ وهل يحفظونهم؟ وهل يدافعون عنهم؟ وهل ينقذوهم؟ وهل يميتوهم؟ وهل يحيوهم ؟

(قُلْ سَمُّوهُمْ)

ما أسماؤهم؟ إنهم لتفاهتهم أتفه من أن يوضع لهم اسم، لأن كلمة اسم تعنى أن تصفه بصفةٍ أساسيةٍ فيه، فحينما تسمَّى الطيارة طيارة لأنها تطير، فإذا قلت لهذا الجسم الكبير الجاثم على أرض المطار سمها، قل له: طيارة ،لأنها تطير، وقد تسمى بعض الأشياء المهمة بأسماء، لكن هذه الآلهة الأحجار التي نحتت وعبدت من دون الله أتفه من أن تسمى .

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ)

أي هم أتفه من أن يسمَّوا، وإن كنتم تعتقدون أنكم تعبدونهم لأهليةٍ فما هي هذه الأهلية ؟

(أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ)

أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ

علمُ الله وسِع كل شيء في الأرض والسماء :

الذي يعلم السر وأخفى، وما تسقط من ورقةٍ إلا هو يعلمها، إذا كانت ورقة الزيتون قد سقطت يعلمها الله سبحانه وتعالى ..

(أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ)

لمجرد أن الله لا يعلمهم إذاً هم غير موجودين، أكبر دليلٍ على عدم وجودهم أن الله الذي يعلم كل شيء لا يعلمهم، إذاً غير موجودين، و معنى موجود أي له تصرُّف .

أحياناً يكون في دائرة شخص موجود، لكنه غير موجود، لأنه لا يفعل شيئاً لا يقدِّم، ولا يؤخِّر، ولا يمنع، ولا يعطي، و لا يوافق، ولا يرفض، فالوجود وجود تحرُّك، وهذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله لا تستطيع أن تفعل شيئاً، إذاً غير موجودة ..

(أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ)

فإذا وحَّدت استراح قلبك ..

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

في أي زمانٍ، وفي أي مكان، لمجرد أن ترى أن في الأرض إنساناً يستطيع أن يفعل شيئاً ما، فهذا شرك، والشرك من لوازمه العذاب ..

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنْ الْقَوْلِ)

أَمْ بِظَاهِرٍ مِنْ الْقَوْلِ

هذه آيةٌ رائعة، فمعنى :

(أَمْ بِظَاهِرٍ مِنْ الْقَوْلِ)

الأسماء الكاذبة لا تغير من حقيقة مسمياتها :

أي اسمٌ على غير مُسَمَّى، ما قولك لو كتبت على قطعة خشب: سفينةٌ عابرةٌ للقارات مثلاً، هذه الكلمة الضخمة الفخمة هل تغير من حقيقة هذه القطعة من الخشب؟ لا، ظاهرٍ من القول، أي قول ليس له أساسٌ من الواقع، ولو أن واحداً من عامة الناس ممن لا يحمل أية شهادة ذهب إلى المطبعة، وطلب من صاحب المطبعة أن يطبع له بطاقة عليها: دكتور في جراحة القلب من جامعة كذا في أمريكا مثلاً، فهذه العبارة هل تجعله طبيباً؟ هل تغيِّر من حقيقته شيئاً، فهذا هو ظاهر القول، كلامٌ ليس له رصيد، ولا ينطبق على الواقع، ولا تدعمه الحقيقة، فإذا قلت هذا الإله إله المطر، وهذا الإله إله الرياح، هذا كلام ظاهر القول، هو قطعة حجرٍ منحوتة ليس إلا، لا تستطيع أن تفعل شيئاً، وعلى هذا فقس .

قل: فلان يستطيع أن ينفعني، ظاهرٌ من القول، هو عبدٌ ضعيف، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الضر، ولا أن يجلب لها الخير، لو أن الخلايا نمت نمواً عشوائياً فهذا الذي تعبده من دون الله ماذا يفعل؟ يصاب بالذعر، ولو أن مجموعة كريات حمراء تجمَّدت في بعض الشرايين فاختل توازنه، أو اختل سمعه، أو بصره، أو محاكمته، أو تفكيره، أو أصيب بالشلل، ماذا يفعل؟ هذا الذي تعبده من دون الله، أو تخافه، أو ترجوه، أو ترى أن بيده شيئاً ما، هذا لا يستطيع أن يحرِّكَ ساكناً، ولا أن يدفع عن نفسه الضر، ولا أن يجلب لها النفع، كيف تعبده من دون الله ؟

(بِظَاهِرٍ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

الكافر زُيِّن له عملُه فأعرض عن الله :

هذا الذي كفر، معنى كفر أي أعرض عن الله سبحانه وتعالى، التفت إلى الدنيا، وأدار ظهره للدين، و أعرض عن الله، وعن وعده، وعن وعيده، وعن جنَّته، ورضاه، رغب في الدنيا، فقط، فحالة الإعراض عن الله سبحانه وتعالى هي حالة الكفر، وإذا أعرض الإنسان عن الله سبحانه وتعالى تصبح الشهوات محركاً له ليس غير، فالشهوات يتمنى أن يرويها بالحق أو بالباطل، وبالخير أو بالشر، و بالأسلوب الصحيح أو بالعدوان .

إذاً: هذا الكافر حينما أعرض عن الله عزَّ وجل زُيِّنَ له سوء عمله، فنفسه تنطوي على شهوات، والمؤمن ضبط شهواته وفق الشرع، أما الكافر فحركته شهواته فقط، فأصبحت محركاً لأفعاله، إذاً بدافعٍ من شهوته، وبسبب عمى قلبه، وإعراضه عن الله عزَّ وجل، رأى أن يروي هذه الشهوات من أي طريقٍ كان، وقع في الزنا، وفي الكسب الحرام، والنِفاق، والكذب، والخيانة .

إذاً :

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ)

كلّ حركة الإنسان وراءها رؤية :

فإعراضهم عن الله، وجهلهم به، وبعدهم عنه، وإقبالهم على الدنيا، وجعل الشهوات هدفاً لحياتهم، جُعِلَ مكرهم يبدو لهم مزيناً، والحقيقة أنّ وراء أي سلوك رؤية .

سيدنا يوسف حينما دعته امرأة العزيز قال : معاذ الله، تحليل علمي، لماذا قال: معاذ الله، رأى أن الشقاء كله في الزنا، و رأى في الزنا بعداً عن الله عزَّ وجل، و رأى خيانة الزنا، و رأى انحراف الزاني، و رأى دناءة الزاني، فقال: معاذ الله، ولو ملك الناس رؤيةً كرؤية هذا النبي الكريم لأعرضوا عن الزنا، و هذا الذي يسرق لماذا يسرق؟ رأى أن هذه السرقة خير له، رأى فيها خيراً، فقد رأى أن المال الوفير يأخذه بلا مسؤولية، وغاب عنه أنه سوف يُكْشَف، وسوف يحاسب، وسوف يغضب الله عزَّ وجل، وسوف يَعتدي، وسوف يُعتدى عليه، هذا لم يره .

إذاً: ما من تحركٍ للإنسان إلا وراءه رؤية، فطوبى لمن كانت رؤيته مطابقة للحق :

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

[ورد في الأثر]

هذا الذي يعتدي على أعراض الناس يرى في ذلك متعة، ومكسباً وغنيمة، لكنه لو رأى الحق لرآها مغرماً، فالبطولة أن تمتلك الرؤية الصحيحة، فهذه بطولة في زمانٍ عَمِيَت فيه البصائر، وغلبت الشهوات، وصار هم الرجل بطنه، وفرجه، وخميصته، والدرهم والدينار في زمن العمى، في زمن البعد عن الله عزَّ وجل ..

((إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ))

[الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني]

في هذا الزمن إذا امتلكت الرؤية الصحيحة فأنت بطل :

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

يجب أن ترى أن المال الحرام لا خير فيه، ولا نفع فيه، ولا يسعد، بل يشقي، يذهب ويذهب معه صاحبه، نهاية المال الحرام هو الدمار، فيجب أن ترى هذه الرؤية، ويجب أن ترضى بألف ليرة، وأن تعرض عن مئة ألف ليرة بالحرام، يجب أن ترى أن ألف ليرة تكسبها بالحلال يبارك الله لك فيها، ويسعدك، ويوفِّر عليك نفقاتٍ أنت في غنى عنها، يحفظ صحتك، وصحة زوجتك، وصحة أولادك، ويبارك لك فيها، خيرٌ لك من مئة ألف ليرةٍ تذهب، ويذهب صاحبها معها .

الاتصال بالله تصحيح للرؤية :

الرؤية أيها الإخوة المؤمنون تحتاج إلى اتصالٍ بالله عزَّ وجل، فإذا اتصلت بالله، قال عليه الصلاة والسلام :

((وَالصَّلَاةُ نُورٌ))

[مسلم عن ابي مالك الأشعري]

فأنت موجودٌ على وجه الأرض، مزودٌ بشهواتٍ كثيرة، والشهوات قِوى تدفعك نحو جهةٍ ما، تجوع فتنطلق لتأكل، تجوع جوعاً من نوع آخر فتنطلق لإرواء هذا المَيْل، فالشهوات تحرِّك، فإذا كان مع هذه الحركة نورٌ كشَّاف وهي التقوى، كان هذا التحرُّك سليماً، تنطلق السيارة بسرعةٍ فائقة وقوةٍ شديدة، فإذا كان وراء المقود سائقٌ ذو عينين نقَّاذتين، وأذنين مرهفتين، وحكمةٍ في القيادة، ينطلق بهذه السيارة من مكانه إلى هدفٍ آخر، وتحقق له نفعاً، فإذا أغمض عينيه، وسد أذنيه، وثَمِلَ في قيادته كانت نهايته الدمار، فالشهوات حركة، والتقوى نور، إذا اجتمعت الحركة والنور أدتا إلى السلامة، فإذا انعدم النور مع الحركة لابدَّ من حادث .

فلذلك فإن هؤلاء الذين كفروا بإعراضهم عن الله عزَّ وجل انقطعوا عنه، وبانقطاعهم عنه أصبحوا في

عمى، بقيت الشهوة وحدها تحركهم، والشهوة عمياء .

إنّ الهرة إنْ وضعت لها قطعة لحمٍ تنقضُّ عليها لا تملك بصيرةً، ولا شرعاً، ولا فقهاً، ولا شيء من هذا القبيل، تنقض على اللحم ولو لأي سبب، لكن الإنسان قد يجوع، ولا يأكل إلا حلال، هناك شرع ورؤية و نور وبصيرة .

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ)

أي صدوا أنفسهم عن السبيل ..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : من الآية 5)

المعنى الأول :

الآية من قبيل أنك إذا سرت في أول الدرب بلغت آخره، لمجرد أن تمشي في هذا الطريق سوف تصل إلى نهايته ، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

أن الله سبحانه وتعالى يعزى إليه أمر الصد فعلاً، ويعزى إلى الإنسان كسباً، كأن تقول: المعلم قرر أن يُرَسِّب الطالب فلاناً، فالمعلم يعزى إليه الرسوب فعلاً، تنفيذاً، ويعزى إلى الطالب كسباً .

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ)

من كان على طريق الحق فليفرح :

أي من كان على طريق الحق فليفرح، فيجب أن نهنِّئ بعضنا بعضاً إذا كنا على طريق الحق، فنعمة الهدى تمتد إلى الأبد، ولكن أية نعمةٍ في الأرض تنتهي بالموت، ولو أن إنساناً عاش مائة عامٍ في صحةٍ تامة فهذه النعمة التي يلهج بها الناس تنتهي بالموت، ولو كان غنياً فنعمة الغنى تنتهي بالموت، ولو كان ذا شأنٍ فنعمة الشأن العالي تنتهي بالموت، ولكن نعمة الهدى تمتد معكم إلى الأبد، لذلك قيل: تمام النعمة الهدى، قال بعض العلماء في قوله تعالى :

(وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ)

(سورة المائدة : من الآية 6)

تمام النعمة الهدى، لو أنك اهتديت إلى الله عزَّ وجل لهانت عليك الدنيا، فمن عرف الله زهد فيما سواه ولا شيء يعدل الهدى، فإذا اهتديت فلا تثريب عليك، فلا تندم على شيءٍ فاتك من الدنيا، الدنيا عاريةٌ مستردة .

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس : من الآية 58)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

الإضلال جزاء للضلال :

أي استغنى عن الله سبحانه وتعالى فاستغنى الله عنه، سلك سبيل الضلال فوصل إلى آخره، أضل نفسه عن الله عزَّ وجل وحرمها الخير، فحرمها المعرفة، وإذا اخترت طريق الضلال فلا أحد في الأرض يستطيع أن يهديك لأنك مخيَّر، وأنت اخترت هذا الطريق، وأيُّ إنسان ينصحك تستهزئ به .

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ)

أي من أضل الله بسبب أنه سلك طريق الضلال، فلن تجد له ولياً مرشداً ..

(فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(33)لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ)

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ

الدنيا فيها من أنواع العذاب ما لا يُحتمَل :

في الحياة الدنيا عذاب لا يحتمل، وآلام لا تحتمل، وأحياناً يصاب الإنسان بمرضين متضادين، أدوية هذا المرض تزيد هذا المرض سوءاً، وأدوية هذا المرض تزيد هذا المرض سوءاً، ولذلك يقف الأطباء حائرين، ويرفعون أيديهم، ويقولون: لا حيلة للطب في هذين المرضين .. ربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا

به.

هناك في الدنيا أمراضٌ لا تحتمل وآلامٌ لا تحتمل، ومشكلاتٌ لا تحتمل، وهناك فقرٌ مدقع كاد أن يكون كفراً، وهناك حاجة إلى لئيم، وذُل، في الأرض وعذاب لا يعلمه إلا الله، فالجسم وحده مسرح لملايين الأنواع من العذاب، وآلام الرأس، وآلام الضغط في المعدة، والأورام الخبيثة، وآلام الظهر، وآلام الأعصاب، فكل مريض يظن أن مرضه من أشد الأمراض، لأن جميع الأمراض صعبة .

(لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

قد يعذَّب الإنسان بالفقر، وقد يعذب بالإهانة، وبالوحشة، قد يعذب بالهم، وبالقلق، وبالجفاف، وبنقصٍ في الأموال والأولاد، وبموت أحد أقربائه، وقد يُبتلى الإنسان بنفسه وبولده وزوجته وباله ومكانته وسمعته .

(لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ)

عذاب الآخرة أعظم وأشقّ :

أشق بكثير، لو أن امرأً اطّلع على النار، يصيح صيحة لو سمعها من في الأرض لصعقوا لشدة الهول..

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ

أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن :

ربنا عزَّ وجل إذا ذكر صورةً منتزعة من عذاب النار يُتْبِعُها بصورةٍ من أحوال أهل الجنة حتى نعبد الله خوفاً وطمعاً ورغبا ورهباً .

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ)

المؤمن موعودٌ بالجنة :

وإن شاء الله سبحانه وتعالى المؤمن موعودٌ بالجنة ..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص : من الآية 61)

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ)

(سورة التوبة : من الآية 111)

إذا انطبقت على المؤمن صفات المؤمنين انطبقت عليه أيضاً الوعود التي وعده الله بها، فإذا وعِدَ المؤمن بجنةٍ عرضها السماوات والأرض، لا ينبغي أن يبالي في الدنيا، من بلغ الأربعين دخل في أسواق الآخرة، لا ينبغي أن يهتم للدنيا، ومن جعل الدنيا أكبر همه خسرها ومن جعل الآخرة أكبر همه ربح الدنيا والآخرة، والأول خسر الدنيا والآخرة، فلذلك :

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

الأوصاف التي جاءت بكتاب الله عن الجنة هي الأوصاف التي سَمح لنا الحديث عنها، لأن الغيب لا نعرفه إلا بالخبر الصادق، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

أنهار الجنة كثيرة ومتنوعة :

فإذا أردنا أن نُكَنِّي بالأنهار الخيرات، إذا كان هناك أنهارٌ من لبن لم يتغيَّر طعمه، واللبن إذا تغير طعمه تشمئز النفس منه، وأنهارٌ من عسلٍ مصفى، وأنهار من خمر لا غول فيها لذة للشاربين، إذا كانت الجنة تجري من تحتها الأنهار، الخيرات، أي شيءٍ، أي فاكهةٍ، أي طعامٍ، أي متعةٍ ..

طعام الجنة دائمٌ غير مقطوع :

(أُكُلُهَا دَائِمٌ)

فاكهة الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، لا تأتي نوبات نوبات، بل مستمرة، ولا يوجد شيء ممنوع دخوله للجنة، لا مقطوعة ولا ممنوعة ..

(أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

عاقبة مؤمن الجنة وعاقبة الكافر النار :

أي هذه العاقبة كهذه العاقبة ؟

(أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا)

(سورة السجدة : من الآية 18)

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر : من الآية 9)

هل يستوي أهل الجنة وأهل النار ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ)

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ

فرحُ المؤمنين بنزول القرآن :

هذا الفرح فرح تطابق الرؤية مع النفس، أحياناً ترى رؤيةً بسبب اتصالك بالله عزَّ وجل، فإذا جاء النص القرآني، وأكَّدها، وصَدَّقها تفرح فرحاً لا يعرفه إلا من فرح ذلك الفرح .

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ)

والأصحاب الكرام في آيةٍ أخرى وصِفوا بأنهم يفرحون بما أنزل إليهم، سمت نفوسهم، حتى إذا نزل قوله تعالى :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور : من الآية 30)

هم يغضون أبصارهم قبل نزول الآية، سمو نفوسهم حَمَلَهُم على هذه الطاعة، فلما جاءت في نص الكتاب فرحوا، فالمؤمن إذا اتصل بالله عزَّ وجل، وهذه ثقتي لو لم يقرأ كتاب الله لكان في مستواه، لطبقه ومن دون أن يدري، من دون أن يشعر، لأنه ارتفع إلى مستواه، وهذا الذي يتلوه صباح مساء، إن لم يتصل بالله عزَّ وجل فهو في واد وكتاب الله في وادٍ آخر، يتلو كتاب الله ويستمع إلى الغناء ويَطْرَبُ له، فما هذا؟ أبغير كتاب الله تتغنّى؟ أتستطيع أن تستمع إلى غير كتاب الله؟ أيطربك صوتٌ غير صوت القارئ للقرآن أو المادح بالمديح، وكيف تتفاعل مع هذه المعاني، كيف تطرب لها ؟

((من استمع إلى صوت قينة صب في أذنيه الآنك يوم القيامة، قيل: وما الآنك؟ قال: الرصاص المذاب))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

فلذلك :

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ)

فلو أن إنساناً استقام على أمر الله، وتقرَّب إليه، واتصل به اتصالاً عميقاً، تراه يفعل شيئاً مطابقاً لما في كتاب الله من دون أن يدري، سمو نفسه حمله على هذا، لذلك كانت موافقات عمر رضي الله عنه إذ كان الوحي ينزل موافقاً لآراء عمر رضي الله عنه ..

(وَمِنْ الْأَحْزَابِ)

غيرُ المؤمن ينكر القرآن أو ينكر بعضه :

فسرها بعضهم باليهود والنصارى، أو بأهل الكتاب عامة ..

(مَنْ يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ)

قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ

تطبيق تعليمات الصانع رقيٌّ بمستوى الإنسان :

فمركز الثقل في هذه الآية أنك إذا سموت إلى الله عزَّ وجل، وارتفعت إلى مستوى كتاب الله تطبقه، وأنت لا تدري، فلذلك قال ربنا عزَّ وجل :

(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)

(سورة المائدة : من الآية 48)

الشرعة هي هذا الشرع الحنيف الشريف وهذا المستوى الراقي، فإذا سلكت المنهاج ترتفع نفسك إلى مستوى الشرع، وهناك من يعرض عن سماع الغناء خوفاً من الله عزَّ وجل، وهناك من يعرض عن سماع الغناء اشمئزازاً، هذا الذي يعرض عنه اشمئزازاً سمت نفسه، وهناك من يكظم غيظه خوفاً، وهناك من يتصرف بحلمٍ شديد والحلم الشديد دليل رقي النفس، افحص نفسك من حين لآخر، فهل أنت في مستوى الشرع؟ أم أنت في واد والشرع في وادٍ آخر ؟

(وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا

المعنى الأول :

ولا واق يقيك، ولا ولي يتولى أمرك إن اتبعت أهواءهم، كأن هذه الآية موجهة إلى المؤمنين، إن اتبعت أهواءهم، وأحياناً يسلك الإنسان مسلكاً بدافع الهوى، فيعرف أن هذا حرام، وأن هذا لا يرضي الله، ولكن نفسه تغلبه وهذا الذي يفعل هذا بعيدٌ عن الإيمان الصحيح بعداً كبيراً .

(وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)

المعنى الثاني :

المعنى الآخر لهذه الآية: أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما ارتفع إلى هذه المنزلة العلية بورعه واستقامته، ولو فعل خلاف ذلك لهبط مقامه.

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(44)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)

(سورة الحاقة)

فلو أن النبي عليه الصلاة والسلام داس نملة بغير حق لحاسبه الله عليها، " يا رسول الله مَثِّل بهم لقد اضطهدوك، وأخرجوك، وقتلوا أصحابك "، قال :

((لا أمثّل بهم فيمثل الله بي، ولو كنت نبياً))

[ورد في الأثر]

فكمال الله سبحانه وتعالى يقتضي أنه لن يستطيع أحد أن يتقرَّب إليه إلا بالكمال، لكن ليس هناك علاقات أخرى، فالله لا يحابي أحداً، ولا يرتقي الإنسان عند الله إلا باستقامته، ولو أن سيد الأنبياء مَثَّل بأعدائه لمَثَّلَ الله به، أما أهل الدنيا فقد يقربون إنساناً مبطلاً لمصلحةٍ ما، وقد يقربون منحرفاً أو معتدياً أو ظالماً، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يقرِّب إليه إلا من كان مستقيماً .

(وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)

(سورة الكهف)

لا أتخذهم عضداً .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً

الأنبياء بَشَرَ :

الأنبياء بشر ..

محمدٌ بشرٌ وليس كالبشر   لأنه جوهرةٌ والناس كالحجر

***

هل الجوهرة حجر؟ لا ليس حجراً، حجر كريم، فالنبي عليه الصلاة والسلام بشر، فيجوع ويشعر بالحر، ويشعر بالبرد، ويغضب .

((إنما أنا بشر أنسى كما ينسى البشر))

[ورد في الأثر]

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة فصلت : من الآية 6)

((أنام وأقوم ، أصوم وافطر أتزوج النساء، فمن رغب عنها فليس من أمتي))

[البخاري عن عائشة]

النبي بشر، ولئلا يظن أنه إله يتزوج، وينجب ذرية، ويأكل الطعام، بحاجةٍ إلى أكل الطعام، ووجود النبي ليس ذاتياً، بل مفتقرٌ إلى فضل الله، ويمشي في الأسواق، ومشيه في الأسواق له معنى دقيق، أي إلى الكسب، محتاجٌ إلى الطعام وإلى كسب الطعام ..

هو بشرٌ وليس كالبشر   لأنه جوهرةٌ والناس كالحجر

***

فالنبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وحبيب الحق، لكنك إذا غلوت ورفعته إلى منزلةٍ فوق ما وصفه الله بها فقد حدت عن الطريق، وأشهد أنا سيدنا محمداً عبده ورسوله .

(قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

(سورة المائدة : من الآية 77)

من بشرية النبي عليه الصلاة والسلام :

الشمس كُسِفَت، ووافق كسوفها موت سيدنا إبراهيم بن النبي عليه الصلاة والسلام، فظن أصحاب النبي أن الشمس كُسِفَت له، وبلغ ذلك النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: كَسَفَتْ الشَّمْسُ

عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ، فَقَالَ النَّاسُ : كَسَفَتْ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ))

[البخاري ومسلم]

ليس هناك علاقة أبدا بين كسوف الشمس وموت إبراهيم، وهذا هو الموقف العلمي، ليس فيه دجل، ولا تزوير، ولا إيهام، ولا تدليس، ولا رغبة في أن يرتفع الإنسان إلى مستوى فوق المستوى الذي أهَّله الله به، وكل إنسان له حجم، وإذا أراد أن يصور الناس أنه بحجمٍ أكبر من حجمه فهذا هو الضلال .

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ :

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه]

ودَّعه سيدنا عمر قبيل ذهابه إلى العمرة فعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعُمْرَةِ فَأَذِنَ لِي وَقَالَ:

((لَا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ))

[أبو داود]

هكذا النبي، متواضع، مفتقر إلى الله عزَّ وجل، وحينما فتح مكة ما استطاع أحدٌ أن يرى وجهه لشدة إطراقه والدموع تبلل خده ولحيته الشريفة، دخلها مُطأطئَ الرأس تواضعاً لله عزَّ وجل، هكذا النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا الذي يتكبر على ماذا؟ هذا الذي يقول لك: أنا وأنا، فعلت كذا وفعلت كذا، هو الحُمق بعينه وهو الغباء بعينه .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ

مطالبة قريش النبي بالمعجزات المادية :

ويبدو أن كفار قريش طالبوا النبي عليه الصلاة والسلام بمعجزاتٍ كالتي جاء بها سيدنا موسى وسيدنا عيسى وسيدنا صالح، فربنا عزَّ وجل قال: زمن المعجزات المادية انقضى وقته ،الآن زمن المعجزات العقلية، هذا الكتاب هو المعجزة .

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

الجواب الإلهي : لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ

أي لكل كتابٍ أجل، أي أن كل زمنٍ له صفاته، والنبي دائماً يأتي بلسان قومه، وليس بمعنى بلسان قومه أنه يخاطبهم بالعربية إن كانوا عرباً، وبالعبرية إن كانوا عبريين، لا، معنى بلسان قومه فضلاً عن هذا المعنى الذي يُفهم بديهةً أنه جاءهم بما هو متعارفٌ عليه في عصره، ففي زمن السحر جاء سيدنا موسى بالسحر، وفي زمن الطِب أحيى سيدنا عيسى المَيِّت، وفي زمن البلاغة والبيان جاء القرآن الكريم ليكون معجزة النبي عليه الصلاة والسلام إلى نهاية الدوران .

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

هذه الآيات ليست اختياره، وليست عائدة إليه إنما هي بإذن الله .

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

أي لكل كتابٍ أجل .

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ

هذه الآية في السياق لها معنى، وإذا نُزعَت من السياق لها معنى آخر "

المعنى السياقي للآية :

معناها في السياق: أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل عصرٍ معجزاته المتعلّقة به، ففي عصورٍ سابقة كان أفضل شيءٍ أن يأتي النبي بالعصا، أصبحت ثعباناً مبيناً، وفي زمنٍ آخر كان إحياء الموتى أفضل شيءٍ يُقنع الناس بنبوة سيدنا عيسى، لكن هذا الزمان محا الله تلك المعجزات، وأثبت مكانها معجزاتٍ أخرى لحكمةٍ يراها الله عزَّ وجل، سياق هذه الآية :

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

المعنى العام للآية :

لها معنى آخر، وبعض العلماء قالوا: أحياناً يتجه إنسان يتجه وجهةً معينة، وهذه الوجهة يستحق عليها العقاب التالي المناسب، فإذا عدَّل وجهته محا هذا العقاب، أي أن الأشياء كلها معلقة ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

(سورة الرعد : من الآية 11)

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

(سورة الأنفال : من الآية 19)

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف : من الآية 96)

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة : من الآية 66)

إذاً غَيّر يُغَيِّر، عُد يعُد، استقم عندئذٍ لا تحصي الخيرات .

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ)

كتابة الأشياء أزلا في أم الكتاب :

فأنا مكتوب عنده بالأزل شقي؟ عُد إلى الله تعدْ لك الخيرات، استقم، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، فالآية بالسياق لها معنى، ولها معنى مستقل، لو نزعتها من السياق فلها معنى آخر .

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

أم الكتاب أي أن هذه الكتب مرجعها إلى الله سبحانه وتعالى، الذي محاه مرجعه إلى الله، والذي أثبته مرجعه إلى الله .

(وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)

وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ

مهمة النبي البلاغ ، وعلى الله الحساب :

أنت أيها النبي ليس من مهمتك أن تنتظر ما سيحل بهؤلاء الكفار، هذه لله عزَّ وجل، يعذبهم عاجلاً أو آجلاً، يأخذهم الآن، أو يأخذهم بعد أمد، وهذا ليس من مهمتك، مهمتك أن تبلّغهم الحق .

(وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

فهذا الذي ينحرف تقول عنه: لابدَّ من ضربةٍ قاصمة، قد تراها، وقد لا تراها، هناك آيتان ..

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

هذه الفاء للترتيب والتعقيب، فأحياناً يحلف الإنسان يميناً غموساً، ما إن يخطو خطوةً خارج المحكمة حتى يقع مشلولاً، هذه وفق الآية الأولى ..

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

أحيانا أخرى يحلف الإنسان يميناً غموساً يقتطع بها حق امرؤ مسلم، وتمضي الشهور والسنوات، وبعد عشرين عاماً تأتيه الضربة القاصمة، هذه على الآية الثانية :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

أحياناً يقول لك الإنسان: فلان لم يحدث معه شيء، لي رفيق في المدرسة يشرب الخمر مثلاً، وماله حرام، وينكر وجود الله عزَّ وجل، ومضى عليه عشرون سنة، ولم يحدث له شيء وهو مثل البغل .

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

هذه ثم، هذا ليس شغلك، تدخُّل بشؤون الله عزَّ وجل .

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

عملك أن تبلِّغه الحق وانتهى .

(قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

لماذا لم يحاسب الله سبحانه وتعالى فلاناً؟ لماذا لم ينتقم من فلان؟ لماذا أمد لفلان؟ هذا تدخُّل في شؤون الله عزَّ وجل، رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده، ولم يتعدَّ طوره.. هذا موقف سيدنا عيسى :

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة المائدة)

وأحدهم قال لعبد: بلغني أن سيدك سيبيعك، قال له: هو يعرف ما يريد، قال له: لعلي أشتريك، فقال: تعرف شغلك، قال له: أهرب، قال له: أنا أعرف شغلي، كل إنسان يعرف، فهذا من مهمة الله سبحانه وتعالى .

(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ(40)أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا

بقيت آياتٌ قليلة ننهيها في هذا الدرس :

(أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)

المعنى الأول :

بعضهم فسَّر هذه الآية بأن المسلمين في فُتوحاتهم يتوسَّعون، وأرض الكفار تنقص شيئاً فشيئاً، وهذا دليل أن الله سبحانه وتعالى ينصر أنبياءهُ .

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

كيف نصرنا النبي عليه الصلاة والسلام ؟

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)

المعنى الثاني :

المعنى الثاني: أن لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ، فالعلماء يموتون، الأغنياء يموتون، وكلما امتد الزمان نقصت من أطرافها وتجَّار هذا السوق رحلوا واحداً بعد واحد، والعلماء في عصرٍ ما رحلوا واحداً بعد واحد، فالمعنيان متقاربان .

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

لا أحد يستأنف أو يعقب على حكم الله :

القاضي يحكم، والخصم يستأنف، ويأتي قاضي الاستئناف فيعقِّب على حكمه، ويبطل حكمه، فالقاضي الاستئناف يحكم، وتأتي محكمة النقض، فتنقض هذا الحكم، ومحكمة النقض تُبْرِمُ هذا الحكم، ويقوم الخصم بإقامة دعوى على القضاء، لكن الله سبحانه وتعالى إذا حكم ليس في الكون جهةٌ تستطيع أن

تعقّب على حكمه لأن حكمه مُبْرَم .

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

الله سريع الحساب :

الحساب سريع، لا يتذوق هذه الآية إلا من دخل إلى قصر العدل، وبقي فيه تسع سنواتٍ من أجل قضيةٍ صغيرة .

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41)وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا)

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا

مكرُ الكفار مكشوف لا يخفى على أحد :

مكر الكفار مكشوف، والمكر قوّته في عدم كشفه، فإذا انكشف انتهى.. فالله :

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

كل شيء بإذن الله :

إذاً: ليس في الأرض مكرٌ ينجح إلا إذا أذِنَ الله له، وليس في الأرض كلها مكرٌ ينجح إلا إذا سَمَحَ الله له، لأن الأمر جميعاً بيد الله .

(وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا)

المكر له، ينفذه أو يبطله .

(يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)

يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ

العبرة من يضحك في الأخير :

السين للاستقبال، أي سوف نرى من هو الناجح؟ ومن هو المفلح؟ ومن هو الذكي؟ ومن هو العاقل؟

ومن هو المتفوِّق؟ ومن هو الذي عرف الحقيقة؟ سوف نرى ..

(وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)

كفاك نصراً على عدوِّكَ أنه في معصية الله ..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

الآية الكريمة :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

(إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

(سورة الصافات)

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

(سورة الصافات)

جاءت العنكبوت، ونحن في يوم الهجرة فنسجت :

(وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ)

(سورة العنكبوت : من الآية 41)

نصره الله بأضعف خلقه، أما سُراقة فجعل الله قدمي فرسه تغوصُ في الرمال، فالله سبحانه وتعالى كيف يشهد للنبي أنه نبي؟ بنصرته إيَّاه، بالخندق ..

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ(10)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب)

بعدئذٍ جاء الله برياحٍ عاتية، أطفأت نارهم، وقلبت قدورهم، وقلعت خيامهم، ودبَّت الفرقة فيما بينهم ..

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)

(سورة الأحزاب)

فنصره الله في بدر وفي الخندق، في أحد ونشر هذه الدعوة وهذا الدليل، فإذا كان الله عزَّ وجل راضياً عن إنسان يدعمه، وينصره ويوفقه، فكأن الله عزَّ وجل يقول: أنا أشهد له أنه نبي .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ(43))

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًاقُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

الآية لها معنيان :

المعنى التقريري :

معنى تقريري: والذين هم من أهل الكتاب الصادقون يعلمون أني نبي، لأن ذكري موجودٌ عندهم في التوراة والإنجيل .

المعنى التعريفي :

والمعنى الثاني: وتعريفي لكم بهذا الكتاب، وبياني لهذا الكتاب شهادةٌ أخرى، الله يشهد لكم بتوفيقه ونصره ودعمه، وأنا بتبياني لهذا الكتاب أشهد لكم أني نبي .

(وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ(43))

وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ

هذه استفهامية ..

النبي عليه الصلاة والسلام بيَّن هذا الكتاب أوسع بيان، وأحاديثه الشريفة التي تزيد على مائة ألف حديث فيما يقدِّر علماء الحديث تشهد للنبي الكريم أنه نبيٌ مرسل .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس